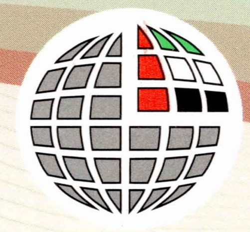
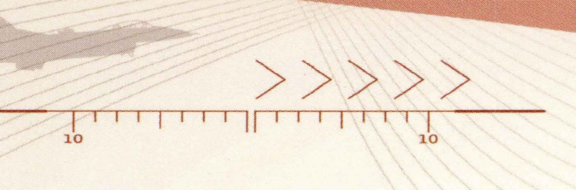
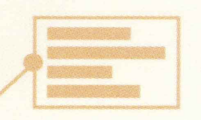




الجغرافيا العسكرية الحديثة

تحرير: فرانسيس جالجانو وإيوجين بالكا



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

الجغرافيا العسكرية الحديثة

First published in English under the title *Modern Military Geography*, edited by Francis A. Galgano and Euguen J. Palka. This edition has been translated and published under licence from Routledge, Taylor & Francis Group.

الطبعة الأولى 2014

النسخـــة العاديـــة ISBN 978-9948-14-972-9

النسخـــة الفاخـــرة ISBN 978-9948-14-973-6

النسخة الإلكترونية ISBN 978-9948-14-974-3

توجه جميع المراسلات إلى العنوان التالي:

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567

أبـوظـبي

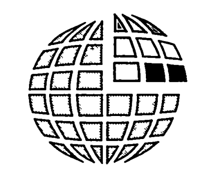
الإمارات العربية المتحدة

هاتف: +9712-4044541

فاكس: +9712-4044542

E-mail: pubdis@ecssr.ae

Website: http://www.ecssr.ae



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

دراسات مترجمة 71

الجغرافيا العسكرية الحديثة

تحرير

فرانسيس جالجانو وإيوجين بالكا

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/ مارس 1994؛ بهدف إعداد البحوث والدراسات الأكاديمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج والعالم العربي. ويسعى المركز لتوفير الوسط الملائم لتبادل الآراء العلمية حول هذه الموضوعات، من خلال قيامه بنشر الكتب والبحوث وعقد المؤتمرات والندوات. كما يأمل مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أن يسهم بشكل فعال في دفع العملية التنموية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

يعمل المركز في إطار ثلاثة مجالات هي مجال البحوث والدراسات، ومجال إعداد الكوادر البحثية وتدريبها، ومجال خدمة المجتمع، وذلك من أجل تحقيق أهدافه الممثلة في تشجيع البحث العلمي النابع من تطلعات المجتمع واحتياجاته، وتنظيم الملتقيات الفكرية، ومتابعة التطورات العلمية ودراسة انعكاساتها، وإعداد الدراسات المستقبلية، وتبني البرامج التي تدعم تطوير الكوادر البحثية المواطنة، والاهتمام بجمع البيانات والمعلومات وتوثيقها وتخزينها وتحليلها بالطرق العلمية الحديثة، والتعاون مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة في مجالات الدراسات والبحوث العلمية.

المحتويات

تقديم

يعتبر كتاب **الجغرافيا العسكرية الحديثة** نصاً رئيسياً جديداً يستكشف بعمق العلاقات الأساسية والمتنوعة بين الجغرافيا وإدارة الصـراع العسكري. وكما يفيـدنا محـررا الكتـاب، فإن المبدأ النظري الأساسـي الكامن لتنظيم هـذا الكتـاب ووضـعه هـو التفاعـل المتبـادل المفترض بين الجغرافيا والعمليات العسكرية حيثما تقع. وفي فصـول هـذا الكتـاب، نـرى تطور هذه الفكرة في كثير من السيناريوهات ومسارح العمليات المختلفـة، سـواء في المشـهد الطبوغرافي (المتعلق بتضـاريس الأرض) أو الهيـدروغرافي (المتعلـق بالمسـطحات المائيـة) أو الأحوال المناخية والساحلية، أو المشهد الأوسع نطاقاً المتعلق بالقضايا البيولوجية والصحية، وكذلك القضايا البيئية التي تؤثر في الأمن الإقليمي، أو حتى الحقـائق الجيوسياسـية المتغـيرة الأكثر تحفيزاً في بيئات جغرافية مختلفة. فجميعهـا تشـمل بعـداً يكـون فيـه لخاصـية المنطقـة الجغرافية أو المكان أثر عميق على الصـراع العسكري الحقيقي أو المحتمل.

يعتبر المقدم المتقاعد (الأستاذ المساعد) فرانسـيس جالجـانو، والعقيـد (البروفيسـور) إيوجين بالكا، ضابطين عسكريين محترفين، وأكاديميين متخصصين، وعالمين في الجغرافيا. وهما مؤهلان للغاية، استناداً إلى أبحاثهما ومنشوراتهما الماضية، للتشـارك في تـأليف وجمـع مجموعة نموذجية من الدراسات التي تستكشف تفاصيل الدراسات التاريخية والمعاصـرة، والتي توضح قوة تأثير الحقائق الجغرافية في تخطيط العمليات العسكرية وقيادتها ونتائجها.

يبدأ هذا الكتاب بقسم تمهيدي (وهو القسم الأول)، حيث يتنـاول طبيعـة الجغرافيـا العسكرية، ويضم في بدايته ثلاثة فصول تقدم خلفية منهجيـة تمهيديـة للقـارئ الـذي قـد يكون مستجداً بالنسبة لحقل الجغرافيا أو الجغرافيا العسكرية، ولكنه متشوق إلى الاطـلاع على هذا الفرع المهم والحيوي من الجغرافيا. ثم يقدم هذا القسم ثلاثة فصول أخرى تركـز

على العلاقة بين القضايا البيئية والأمن الإقليمي أو انعدام هذا الأمن، بالإضافة إلى فصلٍ حول إرث الأراضـي العسكرية الفيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية. وبهذا، يتضمن الكتاب نهجاً تحليلياً لفحص وتقييم العلاقة بين البيئـة والأمـن الإقليمـي، وهـذه إضـافة مفيدة جداً لكل من الطلاب والمختصين في سعيهم للحصول على فهم أفضل لهذه القضايا المعقدة وتعزيز قدراتهم الخاصة على شـرحها وتقييمها.

أما القسم الثاني فيقدم دراسات حالة للجغرافيا العسكرية التاريخية والعملياتية ضمن ظروف مختلفة؛ بدءاً من العراق والبوسنة وحتى الحرب بـين إنجلـترا والبـوير في جنـوب أفريقيا. كما يشتمل هذا القسم على موضوعات مختلفة مثل الجغرافيا الطبية والمجاري المائية والمشاهد العسكرية. وأخيراً، يركز القسم الثالث مـن الكتـاب عـلى الجغرافيـا العسـكرية التطبيقية التي تشمل التأثيرات الفعلية للعوامل الطبيعية الحيويـة في العمليـات العسـكرية قديماً وحديثاً، وأثر الموقع والجغرافيا الطبيعية ودورهما في الميـادين الجيوسياسـية السـاخنة المحتملة للعمليات العسكرية في آسيا. ويعرض هـذان القسـمان أمثلـة حيـة ومقنعـة عـن عمليات عسكرية تاريخية وحديثة تعرض النجاحات والتحـديات المسـتمرة الناجمـة عـن حتمية الحقائق الجغرافية.

وللجغرافيا العسكرية تاريخ طويل في الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ويمكـن تتبـع جذورها الرئيسية وصولاً إلى الأكاديمية العسكرية الأمريكيـة في ويسـت بوينـت، حيـث درس كل من العقيد بالكا والمقدم جالجانو. ومازال بإمكان المرء في ويست بوينت أن يجـد رسوماً لمخططات طبوغرافية لساحات معارك رسمها الطالب في هذه الأكاديميـة جـورج ماكليلان نفسه، الذي أصبح لاحقاً القائد الأول لقـوات الاتحـاد خـلال الحـرب الأهليـة الأمريكية. ولطالما كانت دورات الجغرافيا العسكرية معروفة بين طلاب ويسـت بوينـت، وهذا الكتاب مناسب فعـلاً ومثـالي لاسـتخدامه في دورات مماثلـة، سـواء في الأكاديميـة العسكرية الأمريكية أو أي من الكليات الأخرى أو الجامعات التي توفر تلـك الـدورات. وجميع المشاركين في هذا الكتاب هم من الضباط العسكريين المحترفين أو من ذوي الخـبرة

والاهتمامات العسكرية الواسعة، ومن ثمّ فهم يقدمون مجموعة خبراتهم بوصفهم جغرافيين ومختصين عسكريين في كتاباتهم وتحليلاتهم لميادين المعارك والعمليات العسكرية الخاضعة للدراسة.

وبناء عليه، يجب أن نهنئ كلاً من محرري الكتاب والمشاركين فيه على قيامهم بتأليف وجمع مجموعة من الدراسات المقنعة والمدعمة بالأشكال والخرائط التي تشرح العلاقة بين الجغرافيا والأداء العسكري، والتي تفسر أهمية الجغرافيا لفهم الخطط والعمليات العسكرية في الماضي والحاضر. وأعتقد أن هذا الكتاب سيكون ذا فائدة كبيرة للطلاب والمختصين على حد سواء؛ ممن يسعون إلى شرح فعلي ومناسب لحقل الجغرافيا العسكرية، كما هو واضح في دراسات الحالة والمناقشات التحليلية المدرجة في هذا الكتاب.

كليفتون بانيل

جامعة جورجيا

تمهيد

يقدم هذا الكتاب الذي ساهم في تأليف فصوله عدد من الخبراء في موضوعه، نظرة عامة وتحليلاً لأبرز الموضوعات العسكرية المعاصرة والتاريخية من وجهة نظر المختصين بالجغرافيا العسكرية. لقد كان للعوامل الجغرافية تأثير قوي في المعارك والحملات على مر التاريخ. ومع ذلك، حظيت الجغرافيا والشؤون العسكرية باهتمام كبير خلال العقدين الماضيين، وتعد الجغرافيا العسكرية أفضل فرع معرفي يمكنه توضيحهما. ومن ثم، فإن منطلق هذا الكتاب ومضمونه يقومان على مبدأ أن المعرفة الجغرافية للفضاء، والمكان، والناس، والنطاق، تقدم رؤى أساسية في القضايا الأمنية المعاصرة، وتعزز الفكرة القائلة بأن تلك الرؤى تعتبر أساسية لفهم المشكلات العسكرية الخطيرة وإدارتها على الصُعد المحلية والإقليمية والعالمية.

لقد اخترنا **الجغرافيا العسكرية الحديثة** عنواناً لهذا الكتاب، لأننا نهدف إلى ربط الموضوعات المعاصرة في الجغرافيا العسكرية بأصول هذا الفرع المعرفي. وهذا الكتاب مقسم إلى ثلاثة أقسام: مقدمة في الجغرافيا العسكرية، والجغرافيا العسكرية التاريخية والعملياتية، والجغرافيا العسكرية التطبيقية. ويتضمن كل منها فصولاً تتناول قضايا بارزة في الجغرافيا العسكرية. وتتصدر كل قسم مقدمة تشرح أهمية محتواه وتربط بين فصوله. فالقسم الأول من الكتاب يبدأ بثلاثة فصول تشكل أساس موضوعه؛ إذ يشرح الفصل الأول تاريخ الجغرافيا العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية ونطاقها والتطورات الحديثة بشأنها. أما الفصلان الثاني والثالث فهما مكملان للفصل الأول، حيث إن الغرض منهما تزويد المختصين غير العسكريين وغير الجغرافيين بالمفاهيم الأساسية اللازمة للفهم الكامل للمادة المعروضة في بقية الكتاب. ويستخدم القسم الثاني دراسات لحالات تاريخية قديمة ومعاصرة؛ بهدف توضيح الروابط المهمة بين العمليات العسكرية والعناصر الأساسية للمشهدين البشري والطبيعي. أما القسم الثالث والأخير، فيعرض سلسلة من

الموضوعات تشمل المشكلات الحديثة في الجغرافيا العسكرية. ومن ثم، يعتبر هذا الكتـاب من الكتب القليلة التي تتناول المشكلات العسكرية من زمن السلم إلى الحرب.

وأخيراً، إن كتابنا ليس ذا أجندة ما، فهو بدلاً من ذلك يركز على الجغرافيـا العسـكرية الأكاديمية لتقديم الدعم اللازم في قاعات الدرس. وقد ألّف الكتـاب خـبراء جغرافيـون محترفون، وضباط عسكريون هم أيضاً جغرافيون معتمدون. ومن ثـم، فإننـا نقـدم خـبرة واضحة لكل من طرفَي الموضوع (أي الجغرافيين الأكـاديميين، والعسـكريين المحترفـين)؛ للحصول على فهم متميز لما هو مطلوب لدعم مضمار الجغرافيا العسكرية.

فرانسيس جالجانو وإيوجين بالكا

القسم الأول

مقدمة في الجغرافيا العسكرية



القسم الأول

مقدمة في الجغرافيا العسكرية

استُخدمت المعلومات الجغرافية – وتُستخدم – لدعم العمليات العسكرية منذ بدء التاريخ، وذلك بسبب وجود علاقة واضحة وأساسية بين الجغرافيا والعمليات العسكرية. فالعمليات العسكرية تجري في بيئات عملياتية مختلفة؛ كالأدغال والصحارى والمحيطات والمدن. كما تجري في سياقات عملياتية مختلفة؛ مثل عمليات حفظ السلام والإغاثة من الكوارث والإجراءات المدنية، وبالطبع العمليات القتالية؛ ومن ثم، فإنها في جزء منها تتشكل وفقاً لطبيعة المشهدين الطبيعي والبشري. وقد تطورت العمليات العسكرية عبر الزمن مع التغيرات في التقانة العسكرية ومع تغير نطاقها. وتتطلب البيئات والسياقات العملياتية المختلفة أنواعاً مختلفة من المعلومات الجغرافية؛ ومن هنا، فإن الجغرافيا العسكرية توفر معيناً مهماً وفريداً تتم من خلاله دراسة طبيعة العمليات العسكرية وعلاقتها بالمشاهد الجغرافية المختلفة والبيئات العملياتية على مستويات متنوعة.

يسعى أي عالم جغرافيا للإجابة عن السؤال التالي: «لماذا الأمر هكذا هنا؟». إن العمليات العسكرية جغرافية بطبيعتها؛ فهي تحدث في أمكنة، والأمكنة فيها بيئات طبيعية ومناخات ونظم ثقافية تخصها. أما من حيث الجوهر، فالعمليات العسكرية تشمل الزمان، والمكان، وطبيعة ما هو موجود ضمن حدودهما؛ وهذا من منظور جغرافي صرف. والعمليات العسكرية هي منظومة معقدة ثلاثية الأبعاد من الإجراءات التي يجب أن تكون مرتبة زمانياً ومكانياً. ويفهم الجغرافيون العناصر والعمليات (التضاريس والطقس والمناخ والناس) التي تؤثر في العمليات العسكرية في سياقَي الزمان والمكان. إذاً، فالجغرافيا العسكرية هي تطبيق المعلومات والأدوات والتقنيات الجغرافية على المشكلات

العسكرية عبر طيف من العمليات العسكرية تمتد من أوقات السلم إلى أوقات الحرب. ويتمتع الجغرافيون العسكريون بمؤهلات فريدة لدراسة العلاقات بين العمليات العسكرية، وبين طبيعة المكان الذي تجري فيه؛ لأنهم مثل جميع الجغرافيين يطبقون نهجاً متكاملاً متعدد الاختصاصات.

عبر قرون من الزمن، كانت الطبيعة الجغرافية للحرب واضحة للقادة العسكريين، ولكن منذ القرن التاسع عشر أصبح بالإمكان تحديد حقل الجغرافيا العسكرية بوصفها فرعاً معرفياً مميزاً. ومع تطور الحرب وتعقدها من خلال حربين عالميتين، وعدد كبير من الصراعات الصغيرة، والنمو الكبير في التقانة العسكرية، وتكاثر عمليات تحقيق الاستقرار والدعم، والحرب العالمية الحالية على الإرهاب، أصبح من المستحيل على قائد واحد أن يلبي الحاجة المتزايدة إلى المعلومات الجغرافية الدقيقة في الوقت المناسب. فقد أقر المخططون العسكريون بالروابط المعقدة بين تضاريس الأرض والنظُم الثقافية، بالإضافة إلى الصعوبة في فهم أثرها وتوقعه. فالعمليات العسكرية الحديثة – التي تشمل طيفاً واسعاً من المساعي المحتملة في زمني الحرب والسلم – تحتاج إلى مزيد من التحليلات الدقيقة والمعقدة للمشهدين الطبيعي والثقافي. وهذه الحقيقة هي أصل هذا الكتاب.

تطورت الجغرافيا العسكرية إلى حد كبير من حيث هي موضوع أكاديمي خلال العقدين الماضيين. على سبيل المثال، تضاعف عدد برامج الجغرافيا في الجامعات التي تقدم دورات في الجغرافيا العسكرية بنحو أربع مرات منذ عام 2001. وقد تعزز هذا النمو جزئياً بفعل انهيار الاتحاد السوفيتي، والتحول من عالم استراتيجي ثنائي الأقطاب كان سائداً عام 1989، إلى عقدٍ ساده العنف العرقي، وعمليات حفظ السلام، والحرب اللامتماثلة أو غير النظامية، ثم – حالياً – الحرب العالمية على الإرهاب. وتطلبت هذه الأحداث كماً كبيراً من التحليلات الجغرافية الأكثر تطوراً من ذي قبل، ومن الواضح أنها أثارت الاهتمام باختصاص أكاديمي فرعي كان في الأساس خاملاً منذ نهاية حرب فيتنام،

على الأقل في الولايات المتحدة. ولا شك في أن الوضع الجيوسياسي منذ نهاية الحرب الباردة والأحداث التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر أثبتت ضرورة زيادة الوعي والبحث الجغرافي، لأن الجهود العسكرية انتقلت إلى زمن السلم والاستقرار وعمليات الدعم، ولكن تعقيد عمليات الحرب أيضاً في إطار عمليات مكافحة الإرهاب قد ولدت مجدداً اهتماماً عاماً وأكاديمياً كذلك.

قبل عام 1998، كان آخر كتاب منشور حول الجغرافيا العسكرية هو **الجغرافيا العسكرية** للمؤلفين لويس بيلتير وج. إي. بيرسي. ومنذ عام 1998، تم نشر سبعة كتب معتبرة في الجغرافيا العسكرية. ومن الواضح أن عام 1998 شكّل نقطة تحول؛ ففي تلك السنة نشر كتاب **الجغرافيا العسكرية للمختصين والعامة** لمؤلفه جون كولينز، وكتاب **محاربة العوامل** لمؤلفه هارولد وينترز. وفي عام 2001، حرر إيوجين بالكا وفرانسيس جالجانو كتاباً بعنوان **نطاق الجغرافيا العسكرية: الطيف الواسع من وقت السلم إلى وقت الحرب**. وكان هذا أحد كتابين ينشرهما بالكا وجالجانو حاولا من خلالهما تناول الطيف الواسع للعمليات العسكرية من وجهة نظر مختصين بالجغرافيا العسكرية. وقد نشرا كتابهما الثاني بعنوان **الجغرافيا العسكرية: من السلم إلى الحرب** في عام 2005، وتضمن تحليلات من العراق وأفغانستان، بالإضافة إلى مناقشة موضوعات مثل إدارة المنطقة العسكرية وإغلاق القاعدة العسكرية وإعادة التجمع. كما ظهرت ثلاثة كتب أخرى في السوق؛ فقد نشرت مؤسسة "ناشيونال جيوغرافيك" كتاباً بعنوان **ساحات المعارك** في عام 2003، ونشرت بلاكويل كتاباً جديداً للمؤلف راكيل وودوورد بعنوان **الجغرافيات العسكرية** في عام 2004، كما نشرت مطبعة جامعة أكسفورد كتاباً حرره كولين فلينت بعنوان **جغرافيا الحرب والسلم** في عام 2005.

لقد اخترنا **الجغرافيا العسكرية الحديثة** عنواناً لهذا الكتاب؛ لأن هدفنا منه هو ربط الموضوعات المعاصرة في الجغرافيا العسكرية بجذور هذا الفرع من المعرفة. وفي نيتنا إبراز

هذه الفكرة في القسم التمهيدي وتعزيزها في جميع موضوعات الكتاب. نحن نعتقد أنه كي يحقق القارئ فهماً صحيحاً لنطاق الجغرافيا العسكرية، يتعين علينا وبحكم الضرورة عرض الموضوع بأكمله، وليس التركيز على جوانب منفصلة من الجغرافيا العسكرية كدراسات الحالات التاريخية أو الجغرافيات المهمة. ولذلك تم تقسيم الكتاب إلى ثلاثة أقسام منفصلة: أولها "مقدمة في الجغرافيا العسكرية"، حيث نهدف من خلال هذا القسم إلى تعريف القارئ بالجغرافيا العسكرية بوصفها اختصاصاً؛ أي عرض خلفيتها التاريخية وموضوعها التقليدي ومنهجياتها وأصول تدريسها. وفي القسم الثاني من الكتاب بعنوان "الجغرافيا العسكرية التاريخية والعملياتية"، نقدم للقارئ مجموعة من دراسات الحالات الخالدة التي تبين العلاقات بين الحرب والجغرافيا. ومع ذلك، ولأن هذا الكتاب أكثر معاصرة، فإننا لا نقدم دراسات حالات تاريخية من "الحرب الأهلية الأمريكية" وحروب القرن العشرين فحسب، ولكن أيضاً دراسات حالات تركز مثلاً على تداعيات تقسيم يوغسلافيا، وعملية الحرية الدائمة (في أفغانستان)، وعملية حرية العراق. وأخيراً، نختم كتابنا عن الجغرافيا العسكرية الحديثة بقسم ثالث بعنوان "الجغرافيا العسكرية التطبيقية"؛ نقدم فيه للقارئ طيفاً واسعاً من موضوعات الجغرافيا العسكرية المعاصرة، مثل عمليات الإغاثة من الكوارث، وإدارة الأراضي العسكرية، والنماذج التدريبية، والحرب الإثنية، والقضايا المتعلقة بالسيادة الفعلية والإرهاب، وصعود الصين بوصفها قوة عسكرية، على سبيل المثال لا الحصر.

سيكون من المستحيل المغالاة بأهمية الجغرافيا العسكرية في أثناء الحرب؛ فقد كان الاعتماد على المعلومات الجغرافية أساسياً للتدريب والتجهيز ونشر القوات في الخارج على مر التاريخ؛ ومن ثم، فإن الجغرافيات المنهجية والإقليمية ذات الصلة توفر الاعتبارات الإعلامية الأساسية لدعم عملية اتخاذ القرار. ومن المفارقات أن معظم المختصين الجغرافيين ليسوا مختصين عسكريين، كما أن معظم المختصين العسكريين ليسوا مختصين جغرافيين. ونظراً لهذه المعضلة، خصصنا القسم التمهيدي من الكتاب لتزويد القراء بفهم

عام للجغرافيا العسكرية من حيث هي اختصاص، بالإضافة إلى أساس تمهيدي عام في العلوم والجغرافيا العسكرية. وأخيراً، نعتزم في هذا القسم من الكتاب أن نوجه اهتمام القارئ إلى القضايا الجغرافية المعاصرة الإبداعية التي تؤثر في هذا الاختصاص.

في الفصل الأول، يشرح إيوجين بالكا تاريخ الجغرافيا العسكرية ونطاقها وآخر تطوراتها في الولايات المتحدة الأمريكية. كما يقدم هذا الفصل للقارئ فهماً أساسياً لطبيعة التحليلات الجغرافية ونطاقها، بالإضافة إلى الطرق الشائعة التي يتبعها المختصون في الجغرافيا. ويكمل الفصلان الثاني والثالث الفصل الأول؛ إذ إن الغرض منهما تزويد المحترفين غير العسكريين والأشخاص غير المختصين بالجغرافيا بالمفاهيم الأساسية اللازمة لفهم المادة المقدمة في بقية الكتاب بصورة كاملة. ففي الفصل الثاني، يقدم فرانسيس جالجانو إلى الشخص العادي تمهيداً أولياً في العلوم العسكرية. وبالمثل، فإنه يقدم في الفصل الثالث مفاهيم أساسية في الجغرافيا بحيث يستطيع الشخص غير المختص بالجغرافيا أن يطلع على المادة الموجودة في هذا الكتاب مع فهم جيد للمصطلحات والمفاهيم والأساليب الجغرافية. في الفصول الرابع والخامس السادس، نقدم مجموعة من الموضوعات ذات الصلة، والتي تتمتع بأهمية مؤثرة بالنسبة إلى المختصين بالجغرافيا العسكرية الحديثة؛ أي العلاقة التي لا يمكن إنكارها بين التغير البيئي، وعدم الاستقرار الناجم عن البيئة، وقضايا الاستراتيجية والتخطيط العسكري. وبهذا، يقدم كنت باتس في الفصل الرابع نبذة مهمة عن تطور مفاهيم الأمن البيئي، ويوضح كيف تؤثر في عملية اتخاذ القرار العسكري على المستوى الاستراتيجي. وتستخدم آمي كراكوكا في الفصل الخامس الأمن البيئي بوصفه إطار عمل للتحليل من أجل فحص العلاقة بين الممارسات غير المستدامة، والتغير البيئي، والصراع العرقي الكامن، وكيف اجتمعت هذه العوامل لتثير الإبادة الجماعية التي حدثت في رواندا عام 1994. وعلى المستوى الاستراتيجي، يدرس إيوجين بالكا في الفصل السادس الضرورات الاستراتيجية التي أنتجها ذوبان الجليد في القطب الشمالي. ودراسته لهذه القضية الجيوسياسية المعقدة تعد مثالاً ممتازاً على

التفاعلات الجغرافية الديناميةً للتغير البيئـي، والقـانون الـدولي، والمنافسـة عـلى المـوارد، والاستراتيجية العسكرية. وأخيراً، يوضـح وليـام دو الثالـث في الفصـل السـابع الـرابط الأساسـي بين القوات العسكرية والأرض؛ إذ يقدم في هذا الفصل وجهة نظر تاريخية عن كيفية استيلاء القوات المسلحة على الأراضـي واسـتخدامها، وكـذلك التحـديات البيئيـة المرتبطة بالإدارة المسؤولة للأراضـي.

إجمالاً، توضح فصـول القسـم الأول الفائـدة المعقولـة – إن لم تكـن الضـروريـة – للجغرافيا العسـكرية في العـالم الحـديث. ومادامـت القـوات العسـكرية معتـادة أن تحـل المشكلات، في أثناء السلم والحرب، فيجب اعتبار المتغيرات الجغرافية جزءاً لا يتجـزأ مـن جميع الخطط والعمليات العسكرية.

الفصل الأول

الجغرافيا العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية

تاريخها ونطاقها وآخر التطورات

إيوجين بالكا

مقدمة

انبثقت الجغرافيا العسكرية من التداخل بين الجغرافيا والعلوم العسكرية، وهي في أحد تجلياتها نوع من الجغرافيا التطبيقية التي توظف المعرفة بهذا الاختصاص وأساليبه وتقنياته ومفاهيمه في الشؤون والأمكنة والمناطق العسكرية (Palka 2003). ومن جهة أخرى، يمكن مقاربة هذا الاختصاص من منظور تاريخي أيضاً (Davies 1946; Meigs 1961; Winters 1998; Palka and Galgano 2000, 2005)، مع التشديد على أثر الظروف الجغرافية الطبيعية أو البشرية في نتائج المعارك أو الحملات أو الحروب الحاسمة. وفي أي من الحالتين، فقد استمرت الجغرافيا العسكرية في مواكبة التطورات التقنية والعقيدة العسكرية لتطبيق المعلومات والمبادئ والأدوات الجغرافية بشكل فعال على الأوضاع أو المشكلات العسكرية، عبر طيف واسع من أوقات السلم إلى أوقات الحرب (Corson and Palka 2004).

وضّح جوزيف راسل في كتابه المتميز بعنوان **الجغرافيا الأمريكية: التقييم والأفق** (1954)، أن الجغرافيا العسكرية ظلت ولمدة طويلة تعرف بوصفها فرعاً معتمداً من فروع الجغرافيا الأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من الجدل الذي أحاط بهذا الفرع أحياناً منذ تقييمه (Association of American Geographers 1972; Lacoste 1973)، وفترة السبات التي مر بها ضمن الجغرافيا الأكاديمية في الولايات

المتحدة خلال حرب فيتنام، فقد أظهرت الجغرافيا العسكرية مرونة لا شك فيها في نهاية القرن العشرين. وعلاوة على ذلك، فإن السنوات المضطربة من العقد الأول من القرن الحادي والعشرين أدت دور المحفز لفرص جديدة داخل الفرع.

طوال القرن العشرين، قدم الأكاديميون الجغرافيون مساهمات هائلة لمفاهيم الجيش الأمريكي عن الأمكنة والشعوب البعيدة. ففي معظم المكتبات الجامعية، يمكن أن يصادف المرء مجموعة كبيرة من كتيبات المساحة التي ألفها الجغرافيون في زمن الحرب. وتبقى بعض الأعمال التي ألفها الجغرافيون في وزارة الدفاع سرية، ولكن عدداً ضخماً من المؤلفات متاح للعموم أو يعتبر "مصدراً مفتوحاً". كما أن معاينة مختصرة لأدوار الجغرافيين ومساهماتهم في وزارة الدفاع تتيح للمرء أن يقدر الأثر العميق الذي تركه هذا الاختصاص في الشؤون العسكرية (Munn 1980). ويستمر هذا التوجه اليوم مع مئات الجغرافيين الذين وظفتهم وكالة الاستخبارات الدفاعية، ووكالة الاستخبارات الجيوفضائية القومية وغيرها من المؤسسات الأمريكية. بالإضافة إلى ذلك، تعتمد هذه الوكالات على مساهمات الأكاديميين الجغرافيين ومجموعة المصادر المفتوحة أكثر من أي وقت مضى.

في الوقت الذي يقر معظمنا بفائدة الجغرافيا العسكرية في أوقات الحرب، فإن هذا الفرع لطالما كان فرعاً مهماً في أوقات السلم، حيث أتاح منبراً مهماً للحوار المستمر بين الجغرافيين والمخططين العسكريين والمسؤولين السياسيين والوكالات الحكومية؛ لأن كلاً منهم يعتمد على المعلومات والأدوات والتقنيات الجغرافية بهدف مواجهة عدد كبير من المشكلات في إطار الأمن القومي والمساعدات الإنسانية وإدارة المنشآت. ويتقصى هذا الفصل تاريخ الجغرافيا العسكرية بوصفها حقلاً معرفياً مهماً، ويتتبع أصوله وتطوره في الولايات المتحدة، ويركز على تطوراته الأخيرة، ويقدم تقييماً راهناً له، ويقترح أجندة للمستقبل.

الجذور الأولى للجغرافيا العسكرية

لعل استخدام المعرفة الجغرافية في دعم عملية اتخاذ القرار العسكري يعود إلى ما قبل التاريخ المكتوب. فقد تتبع طومسون (Thompson 1962) استخدام الجغرافيا العسكرية وأرجع أول استخدام لها إلى "مجدّو"، بالقرب من مدينة حيفا الحالية، حيث حارب المصريون هناك جيوش عدد من دول المشرق في عام 1479 قبل الميلاد. كما أن المؤلفات التاريخية اللاحقة غنية بالأمثلة عن القادة العسكريين المعروفين الذين تأثرت معاركهم بتفسيرهم للعوامل الجغرافية. ويعتبر تأريخ ثيوسيديدس للحرب البيلوبونزية 431-404 قبل الميلاد (Meigs 1961)، ورواية زينوفون عن زحف 10 آلاف من المرتزقة اليونانيين عبر آسيا الصغرى إلى شواطئ البحر الأسود عام 400 قبل الميلاد (Rouse 1964)، والفراسة الجغرافية التي أبداها قيصر خلال حروب الغال 60-55 قبل الميلاد (Edwards 1939)، هي فقط بعض الأمثلة عن الأعمال الكثيرة التي يعج بها التاريخ، والتي تتضمن منظوراً جغرافياً عسكرياً.

أما من حيث الحقل الدراسي الرسمي، فقد كانت الجغرافيا العسكرية ابتكاراً أوروبياً، حيث تفوقت فرنسا وألمانيا وبريطانيا في معظم أعمال هذا المجال خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. وعلى العموم، يعتبر الكتاب الذي ألفه لافالي (Lavallée's 1836): **الجغرافيا الطبيعية والتاريخية والعسكرية** *Géographie physique, historique et militaire*، أول كتاب مخصص حصرياً للجغرافيا العسكرية. فقد اكتسب هذا الفرع المعرفي سمعة إضافية بعد سنة عندما نشر ألبريخت فون رون (Albrecht von Roon 1837)، وهو قائد الأركان العامة البروسي (والذي أصبح بعدها وزير حرب معروفاً)، كتاباً يحتوي على توصيفات طبيعية - جغرافية للمناطق العسكرية في أوروبا.

وخلال الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ظهرت الجغرافيا العسكرية تحت اسم "الاستراتيجية الكبرى"، حيث تم تطبيقها على الأهداف

الوطنية (Peltier and Pearcy 1966). وكان كتاب **الجغرافيا العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية وكندا** الذي ألفه الملازم براون (Brown 1885) من أوائل المنشورات الأمريكية المكرسة حصراً لهذا الاختصاص، ولكن جهوده لم تحظ بالاهتمام لأن الكتاب كان مخصصاً لاستخدامه مقرراً دراسياً في مدرستَي المشاة والفرسان. وقدم ماهان (Mahan 1890) من خلال كتابه **تأثير القوة البحرية على التاريخ 1660-1783**، أول مساهمة أمريكية تم إقرارها على نطاق واسع في هذا المجال، ووضع الأساس لما أصبح يعرف لاحقاً باسم الجغرافيا الاستراتيجية.

وعلى الرغم من قلة المنشورات الأمريكية نسبياً في مجال الجغرافيا العسكرية مطلع القرن العشرين، استمر البريطانيون في وضع مجموعة مهمة من المؤلفات، وقدموا أعمالاً بارزة خلال تلك الحقبة ألفها ماجواير (Maguire 1899) وماكندر (Mackinder 1902) وماي (May 1909) وماكدونالد (MacDonnell 1911). وقد شكلت هذه الأعمال الشاملة دلالة واضحة على نضج هذا الفرع في بريطانيا العظمى آنذاك، وأثبتت تأثيرها في المنظور الأمريكي في السنوات اللاحقة.

الجغرافيا العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية

في مطلع القرن العشرين، تم استخدام عديد من الأوراق والمحاضرات المكرسة للطبوغرافيا العسكرية لأغراض تعليمية في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت، وكلية القيادة والأركان العامة في فورت ليفنوورث، وكلية الحرب الأمريكية في كارليسل (Thompson 1962). ولكن لم تجد أي من هذه الأوراق طريقها إلى شريحة أوسع من الجمهور أو تدخل ضمن الأدبيات الجغرافية. كما قدم بعض المؤلفين أمثلة عن الجغرافيا العسكرية، ولو بصورة غير مباشرة في سياق منشورات أخرى. ففي كتاب **التاريخ الأمريكي وظروفه الجغرافية**، وضعت سيمبل (Semple 1903) فصولاً عن

جغرافيا الحرب الأهلية الأمريكية، والعمليات البحرية والبرية أثناء حرب عام 1812، وتناولتها من وجهة نظرها البيئية التقليدية الحتمية. كما اتبع بريغهام (Brigham 1903) نهجاً مماثلاً في الفصل الذي يتحدث عن الحرب الأهلية ضمن كتابه **التأثيرات الجغرافية في التاريخ الأمريكي**.

الحرب العالمية الأولى

برزت أول حاجة رسمية ملحة للجغرافيا العسكرية في الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى؛ إذ ساعد الجغرافيون الأمريكيون في البداية بجهود الحرب من خلال تقديم أوصاف خطية للتضاريس الطبيعية المحيطة بمعسكرات التدريب الرئيسية المنتشرة عبر البلاد. وتمت بعد ذلك طباعة هذه الأوصاف على الوجه الخلفي لخرائط التدريب، واستخدمت في تعليم القادة والجنود المهارات الأساسية لتحليل التضاريس. أما التركيز الجغرافي في ذلك الحين، وخلال الحرب، فقد انصبّ على الجوانب الجغرافية الطبيعية لساحة المعركة، التي تم تصويرها في المقام الأول ميداناً للقوات البرية. وقد شاركت مجموعة من 51 عضواً من أعضاء اتحاد الجغرافيين الأمريكيين في الحرب العالمية الأولى و/ أو في مؤتمر السلام الذي تلاها (Martin and James 1993). بصرف النظر عما إذا كانوا قد عملوا في الخدمة العسكرية أو المدنية، أو أجروا أبحاثاً أكاديمية، فقد كان التركيز منصباً في تطبيق المبادئ والمعرفة الجغرافية على حل مشكلات الجيش في زمن الحرب. وقد نشر جونسون (Johnson 1917) كتاباً بعنوان **الطبوغرافيا والاستراتيجية في الحرب**، ولكن كتابه اللاحق بعنوان **ساحات معارك الحرب العالمية، الجبهتان الغربية والجنوبية: دراسة في الجغرافيا العسكرية** (Johnson 1921)، فقد اشتهر على نطاق واسع بوصفه كتاباً عن الجغرافيا العسكرية مقتبساً من سنوات الحرب. أما التأثير الثابت للحرب العالمية الأولى على الجغرافيا العسكرية، فينحصر في تركيز هذا الفرع المعرفي على المشكلات العسكرية في زمن الحرب.

الحرب العالمية الثانية

عندما دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الثانية، قدم الجغرافيون الأمريكيون من جديد دعماً كبيراً لجهود الحرب. ففي عام 1943، كان هناك نحو 300 جغرافي يعملون في واشنطن في مكتب الخدمات الاستراتيجية ووزارة الحرب وشعبة الاستخبارات وفي قسم خرائط الجيش (Martin and James 1993). وخلال الحرب، حقق المختصون بالجغرافيا العسكرية تقدماً أكبر من مجرد جمع البيانات وتصنيفها، ليصلوا إلى تقديم تقييمات مستمرة لكل من الجغرافيا الطبيعية والبشرية لمناطق معينة. وقد توجت هذه الجهود المشتركة في "الدراسات الاستخباراتية العسكرية والبحرية المشتركة"، التي كانت تضم في الأساس الجغرافيين الإقليميين لبعض الدول والمناطق المختارة. وكانت الدراسات الإقليمية مفيدة ليس للقادة والمخططين العسكريين فحسب، بل وأفادت أيضاً الفرق المختصة بتموين الجيش وفرق البحث والتنمية التي كانت مسؤولة عن تصميم الزي الرسمي الموحد والمركبات والمعدات والأسلحة والمواد.

ولّدت برامج التدريب المصممة خصيصاً للأفراد العسكريين اهتماماً واسع النطاق بالجغرافيا العسكرية في الأوساط الأكاديمية. اقترح بول (Poole 1944) أجندة رسمية لتدريب الجغرافيين العسكريين، وقد بدأ التدريس بجوانب منهاج بحثه الدراسي في الجامعات والمدارس العسكرية على حد سواء. وخلال الحرب، تم نشر عديد من المقالات والدراسات حول الجوانب المتعددة للجغرافيا العسكرية (Ackerman 1945; Palka and Lake 1988). وقد ازدادت أهمية دراسة آرثر ديفيس بعنوان «العوامل الجغرافية في الغزو ومعركة نورماندي» (Arthur Davis 1946) ليصبح من أشهر الكتب الجغرافية العسكرية خلال تلك المدة، وظل يُعتبر تحليلاً تقليدياً.

واستمرت الجغرافيا العسكرية بالنجاح بعد الحرب، حيث عاد كثير من الجغرافيين إلى العمل الأكاديمي وتشاطروا خبراتهم في الحرب ووجهات النظر من خلال المنشورات

والمحاضـــرات (Committee on Training and Standards in the Geographic Profession 1946; Mason 1948*a*, *b*). واسـتمر تعلـيم هـذا الاختصـاص الفرعـي في دورة موحدة تقدم في عـدد مـن أقسـام الجغرافيـا عـبر الـبلاد. وكانـت "لجنـة الجغرافيـا العسكرية" راسخة بقوة ضمن اتحاد الجغرافيين الأمريكيين. وكـان هـدف اللجنـة تقـديم المشورة للمدارس العسكرية المهنية حول تصميم دورات الجغرافيـا العسـكرية وتنفيـذها ضمن برامجها الخاصة (Renner 1951). ومن دون شك، بقـي هـذا الفـرع وثيـق الصـلة بالشأن العسكري خلال المراحل الأولى من الحرب الباردة، وكانت الحرب الكورية بمنزلة حافز آخر للنمو المستمر. وفي كتاب راسل بعنـوان **الجغرافيـا الأمريكيـة: التقيـيم والأفـق** (Russell 1954)، أكد الحالة الجيـدة لهـذا الفـرع، ولكنـه شـدد عـلى فكـرة أن الجغرافيـا العسكرية كانت مقتصـرة على الاهتمامات الحربية.

حرب فيتنام

قبل انخراط الولايات المتحدة الأمريكية في حرب فيتنـام، ظهـر عـدد مـن المنشـورات حول الجغرافيا العسكرية في أدبيات هذا الاختصاص. وقد أعلـن بيلـتر (Peltier 1961) في كتابه **إمكانيات الجغرافيا العسكرية** صحة هذا الفـرع وفائدتـه. وقـام ميغـز (Meigs 1961) بتحليل العوامل الجغرافية التي أثرت في نتيجة الحرب البيلوبونزية، وقارن عمليـات الحـرب العالمية الثانية في شمال أفريقيا وصقلية. كما تم الاستشهاد على نطـاق واسـع بمقالـة جـاكمان بعنـوان «طبيعـة الجغرافيـا العسـكرية» (Jackman 1962)، حيـث قـدمت نظـرة واضـحة ومقتضـبة ونظريـة عـن الجغرافيـا العسـكرية. إن كتـاب طومسـون (Thompson 1962)، بإرشاد من بريستون جيمس، ومع أنه لم ينشـر، فقد أرّخ للفكر الجغـرافي العسـكري وتطـور أسسه النظرية. أما كتاب **الجغرافيا العسكرية** (Peltier and Pearcy 1966)، فقد نشـــر بعـد سنوات لاحقاً، وكان الكتاب الأشمل والأكثر تركيزاً على الموضوع، ليعمل دليلاً لهذا الفـرع

خلال الفترة الممتدة بين نهاية الحرب العالمية الثانية ومنتصف التسعينيات من القرن العشرين. وقد ثبتت صدقية هذا الفرع من الجغرافيا في النشرة الخاصة الصادرة عن اتحاد الجغرافيين الأمريكيين، بعنوان **الجغرافيا مجالاً مهنياً** (1966)، والتي تضمنت قسماً بعنوان "وظائف في مجال الجغرافيا العسكرية" (Palka 2003).

وخلال حرب فيتنام وتداعياتها، فقدت الجغرافيا العسكرية جاذبيتها بين برامج الجغرافيا في الجامعات، وفي اتحاد الجغرافيين الأمريكيين. كما أن ندرة المنشورات المعاصرة، وعدم وجود مجموعة متخصصة ضمن اتحاد الجغرافيين الأمريكيين، وانخفاض عدد أعضائه الذين يطالبون بالجغرافيا العسكرية من حيث هي موضوع متخصص، وانخفاض عدد الدورات التدريبية في الجامعات، وقلة الأطروحات المقدمة في هذا المجال خلال المدة 1969–1982 (Browning 1983)، كانت أدلة جلية على تراجع شعبية هذا الفرع من الجغرافيا.

وخلال منتصف الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن العشرين، أدت المشاعر المناهضة للحرب وانعدام الثقة عموماً بالحكومة الفيدرالية إلى تحفيز الجغرافيين للاهتمام أكثر بمسؤولياتهم الاجتماعية والأخلاقية والبيئية ضمن جهودهم البحثية وانتماءاتهم المهنية للهيئات الحكومية. كما أصبح كثير من أعضاء اتحاد الجغرافيين الأمريكيين يعتبرون المساهمة في جهود الحرب في فيتنام غير مسؤولة. وألقى الجدل الدائر حول حرب فيتنام بظله على الجغرافيا العسكرية خلال السبعينيات من القرن العشرين. ونتيجة الإدراك المتأخر للآثار السلبية لتلك الحرب السيئة السمعة كانت مفهومة، إن لم تكن متوقعة. وخضع التركيز التطبيقي للجغرافيا العسكرية في زمن الحرب، والذي اعتبر لسنوات كثيرة أنه سبب وجودها، لمراقبة شديدة. ومن دون تطبيقات بديلة، فقدَ هذا الفرع من الجغرافيا جاذبيته في الأوساط الأكاديمية، على الرغم من تطبيقاته الواسعة الانتشار في وزارة الدفاع والوكالات الحكومية الأخرى.

ما بعد حرب فيتنام

في أعقاب حرب فيتنام، بقيت توترات الحرب الباردة، وانتقلت إلى أمكنة أخرى. وبرغم نجاح العمليات العسكرية الأمريكية في جرينادا وبنما في مطلع عقد الثمانينيات ومنتصفه، أصبح تبرير هذه العمليات محل جدال؛ ولذلك كان الاهتمام المتجدد بالجغرافيا العسكرية ضئيلاً في أوساط الأكاديميين الجغرافيين. ومع ذلك، ظهرت بعض المنشورات ضمن أدبيات هذا الاختصاص. واستفاد بعضهم من الدراسات الجغرافية العسكرية وسيلةً لتحليل الصراعات الإقليمية (Soffer 1982)، أو لتقييم الانعكاسات الأمنية لنماذج استخدام الأراضي (O'Sullivan 1980; Soffer and Minghi 1986). وعزز آخرون؛ مثل مان (Munn 1980) اهتمام الجيش المتواصل في هذا الفرع من الجغرافيا، وحدّدوا دور الجغرافيين داخل وزارة الدفاع الأمريكية. وفي الأدبيات العسكرية، قام جارفر (Garver 1981, 1984) وجالواي (Galloway 1984, 1990) بتجميع مجموعة ممتازة من القراءات المعاصرة لاستخدامها في منهاجهم الخاص بالجغرافيا العسكرية في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت، كما قام بالكا (Palka 1987, 1988) بدراسة المتطلبات المعتادة للآراء والأدوات الجغرافية في التخطيط العسكري. ومن بين الذين وصلوا إلى شريحة أوسع من الجمهور، كان هناك وينترز (Winters 1991) الذي ناقش تأثير العوامل "الجيومورفولوجية" [المتعلقة بعلم شكل الأرض وتضاريسها] والمناخية في سرده التاريخي لمعركة من معارك الحرب الأهلية الأمريكية، وكذلك أوسوليفان (O'Sullivan 1991) الذي قدم بحثاً موسعاً عن العلاقات بين التضاريس ومعارك الوحدات الصغيرة.

وخلال المراحل الأخيرة من الحرب الباردة، أصبحت الحدود بين الجغرافيا السياسية والجغرافيا العسكرية والاستخبارات العسكرية غير واضحة، وهي حالة شبه محتّمة توقعها جاكمان (Jackman 1962) قبل عقود من الزمن. وفي بعض الحالات، اندمجت الجغرافيا العسكرية مع الجغرافيا السياسية، في حين أنها في حالات أخرى (O'Sullivan and O')

(Miller 1983; Soffer and Minghi 1986)، تـداخلت مـع الاسـتخبارات العسـكرية (O'Sullivan 1991). وفي الوقت ذاته، حظي استخدام الجغرافيا التطبيقية تجاه مبـادرات السلام (مقابل الحرب) بالشعبية (Pepper and Jenkins 1985; O'Loughlin and van der Wusten 1986, 1993). وخـلال عقـد الثمانينيـات مـن القـرن العشـرين، عـانى الجغرافيون العسكريون داخل الأوساط الأكاديمية جـراء سـمعة هـذا الفـرع وغموضـه الملحوظ والشكوك في أهميته.

درع الصحراء وعاصفة الصحراء

أثبتت الحرب في الخليج أنها حافز آخر للجغرافيا العسكرية. فقد كـان الاعـتماد عـلى المعلومات الجغرافية أساسياً لتدريب القوات وتجهيزهـا ونشـرها في جنـوب غـربي آسـيا خلال حرب الخليج. وقد استخدمت صور الأقمار الصـناعية والصـور الجويـة والخـرائط المرسومة بمساعدة الحوسبة ونظام تحديد المواقع العالمي ومنظومات المعلومـات الجغرافيـة بالإضافة إلى مجموعة واسعة من أنواع الخرائط والمقاييس، بشكل روتيني لتطوير الخـرائط وتنفيذ العمليات على جميع المستويات (Corson and Palka 2004). وبرزت الجغرافيات الإقليمية والمنهجية من جديد، وقدمت أيضاً معلومات أساسية لدعم عمليات اتخاذ القرار منذ بداية عملية درع الصحراء وحتى نهاية عملية عاصفة الصحراء.

نهاية الحرب الباردة

أدى سقوط جـدار بـرلين وزوال الاتحـاد السـوفيتي السـابق إلى تغيـيرات كبـيرة في استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحـدة الأمريكيـة (Shalikashvili 1995). كـما أن التحول الكبير في التوجه الاستراتيجي برر التغييرات الجوهرية في حجم الجيش الأمريكي وهيكل قوته واستعداده. وبرغم انخفاض أعداد الوحدات المنتشـرة في الجبهات الأمامية، فقد ازداد انخراط البلاد في عمليات عسكرية غير حربية بمعدل لم يسـبق لـه مثيـل. وبـين عامي 1989 و1997، شارك الجيش الأمريكي في خمس وأربعين عملية غـير حربيـة، وهـو

عدد يزيد على ثلاثة أضعاف عدد العمليات التي تمت خلال حقبة الحرب الباردة بأكملها من عام 1947 إلى عام 1989 (Binnendijk 1998).

أتاحت نهاية الحرب الباردة فرصة سانحة لإعادة النظر في نطاق الجغرافيا العسكرية (Anderson 1993; Palka 1995; Palka and Galgano 2000; O'Sullivan 2001). ويرى راسل (Russell 1954) وجاكمان (Jackman 1962)، أن الجغرافيا العسكرية ضمت مجموعة كاملة من البحوث الجغرافية التي تطبق على المشكلات العسكرية، ولكنّ كليهما تصور المشكلات العسكرية في سياق الحرب. وقد أثبتت المشكلات العسكرية المعاصرة أنها مختلفة إلى حد كبير عن تلك التي تصورها راسل أو جاكمان (Palka 1995; Palka and Galgano 2000; O'Sullivan 2001; Palka and Galgano 2005). وللتأكيد، يبقى الأمن هو الشاغل الأساسي للجيش الأمريكي، ولكن خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين، حصل توسع كبير في النشاطات ضمن المجال الإنساني (Anderson 1994; Palka 1995) ومجال الأمن البيئي (Butts 1993, 1994).

كما أدت العمليات العسكرية في البوسنة وكوسوفا إلى طرح مجموعة جديدة من المشكلات العسكرية؛ لأن العمليات تناوبت بين جهود السلام والحرب. وتمت الاستعاضة عن مفهوم العمليات العسكرية غير الحربية بمصطلح فقهي (عمليات الاستقرار والدعم)، التي صورت بشكل أفضل هدف البعثات العسكرية الديناميـة وطبيعتها، وصورت هشاشة البعثات العسكرية التي نفذت في أوقات مختلفة في حالتي السلم والحرب.

الحرب العالمية على الإرهاب

حددت هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 على مركز التجارة العالمي في نيويورك بداية الحرب العالمية على الإرهاب. وهي نوع جديد من الحروب بدأت في أفغانستان عام 2001 وفي العراق عام 2003. وطوال فترة الحملتين العسكريتين في

أفغانستان والعراق، اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تنفيذ عمليات راوحت بين جميع أشكال الحرب. وبما أنها لم تعد قادرة على التمتع برفاهية التركيز على أوقات السلم أو عمليات الاستقرار والدعم أو العمليات القتالية بصورة متتابعة، أصبح لزاماً على القوات أن تقوم بعمليات متزامنة. ومن الأمور التي تزيد التعقيد هناك، الجغرافيات البشرية والطبيعية لكلا البلدين، وكثرة الجماعات المتمردة المتورطة في الصراع. وتعد الحرب العالمية على الإرهاب بيئة "غنية بالأهداف"، ما يتيح للجغرافيين العسكريين الاستفادة في أبحاثهم أو تطبيقاتهم للمستقبل المنظور.

التطورات الأخيرة والتقييم الحالي

أدت ضرورات أوقات الحرب وتزايد الاهتمام العام إلى زيادة الطلب على الجغرافيا العسكرية تاريخياً (Palka and Henderson 2008). وأصبح هذا الفرع حالياً أكثر وضوحاً من أي وقت مضى منذ الحرب العالمية الثانية. فالظروف الحالية لم تقدم دفعة كبيرة لهذا الاختصاص فحسب، بل ومهدت الطريق لنجاح أكبر في المستقبل أيضاً.

أولاً، أتاحت نهاية الحرب الباردة وانخراط الجيش لاحقاً بالعمليات العسكرية غير الحربية (ثم بعمليات الاستقرار والدعم) احتمالات ذات نطاق أوسع للدراسات الجغرافية العسكرية (Goure 1995; Gutmanis 1995; Palka 1995; Palka and Galgano 2000, 2005). فالتطبيقات الجغرافية لدعم القتال الحربي لم تكن شائعة دائماً، مع أنها لا تقدر بثمن. وبالفعل، فقد واجهت هذه التطبيقات مقاومة كبيرة لدرجة أنها قد تكون ساهمت فعلياً في انحدار هذا الفرع خلال حقبة فيتنام. ولكن البعثات الإنسانية وبعثات حفظ السلام كانت محل نقاش أقل وتبدو في غاية الجاذبية لجمهور أكبر وللجيل الجديد من الجغرافيين (Palka and Galgano 2005).

ثانياً، ملأت كتب كولينز (Collins 1998) ووينترز (Winters 1998) وبالكا وجالجانو (Palka and Galgano 2000, 2005) الفراغ الذي استمر لأكثر من ربع قرن.

وللمرة الأولى منذ نشر كتاب بيلتير وبيرسي (Peltier and Pearcy 1966)، تكون هناك أعمال شاملة عن الجغرافيا العسكرية متوافرة لاستخدامها بصفة كتب دراسية في الكليات. ففي كتاب **الجغرافيا العسكرية للمحترفين والعامة**، يدرس كولينز مجموعة واسعة من الظروف البيئية، ويستخدم المقالات التاريخية القصيرة، ويتناول موضوع الحرب على المستويات التكتيكية والعملياتية والاستراتيجية. وفي كتاب **محاربة العوامل**، يسلط هارولد وينترز (Harold and Winters 1998) الضوء على تأثيرات الطقس والمناخ والتضاريس والتربة والنباتات في نتائج العمليات العسكرية المهمة. ويوضح من منظور تاريخي أن المشاهد الطبيعية التي تجري فيها المعارك ليست سلبية أو لا يمكن افتراضها. فالمكونات البيئية تعتبر عوامل فاعلة لديها القدرة على تشكيل الصراع والتأثير في نتائجه بشكل حاسم. ويوضح وينترز بأسلوب مقنع أن العلاقات بين البيئة والصراع متغيرة كثيراً، وهي غالباً غير متوقعة وتكون صعبة دائماً. وفي كتاب **نطاق الجغرافيا العسكرية**، يحتفظ بالكا وجالجانو بالتركيز في زمن الحرب على الجغرافيا السياسية التقليدية، ويوسعان أيضاً نطاق هذا الفرع من الجغرافيا ليشمل مجموعة واسعة من العمليات العسكرية غير الحربية بالإضافة إلى جهود السلام. ويؤكد كتابهما على التآزر بين الجغرافيا والعمليات العسكرية خلال السلسلة الزمنية الممتدة من السلم إلى الحرب، ويأخذ في الحسبان الطبيعة الحالية للنشاطات العسكرية. وكتابهما الأخير بعنوان **الجغرافيا العسكرية: من السلم إلى الحرب** (Palka and Galgano 2005) يأخذ بالحسبان الأحداث المهمة التي وقعت منذ كتابهما السابق، مثل الحروب في كوسوفا وأفغانستان والعراق، والانتقال من العمليات العسكرية غير الحربية إلى عمليات الاستقرار والدعم، والحملة التي شنها الجيش الأمريكي لممارسة الإشراف البيئي على منشآته.

ثالثاً، أدى تشكيل مجموعة متخصصة بالجغرافيا العسكرية ضمن اتحاد الجغرافيين الأمريكيين إلى تحفيز اهتمام وحماسة متجددة في الأوساط الأكاديمية. ومنذ اجتماع الاتحاد عام 1996 في تشارلوت، تقرر عقد جلسات عدة خلال المؤتمر السنوي لاستيعاب المجموعة الواسعة من الأوراق ضمن هذا الفرع من الجغرافيا. وتتمثل القوة الرئيسية لهذه

المؤسسة في المشاركة المتوازنة من قبل الأكاديميين والمخططين والموظفين العسكريين والعاملين في الحكومة. علاوة على ذلك، تضمن مجموعة الخبرات بين الأعضاء، من طلبة الدراسات العليا إلى الأساتذة الفخريين، استمرار القضايا والأفكار الرئيسية، كما تعزز المزج الدقيق بين الأفكار ووجهات النظر.

رابعاً، تواصل التطورات التقنية الحديثة إلقاء الضوء على قدرات الأدوات الجغرافية في تسهيل حل المشكلات على صعُد متعددة. وقد استعرض كورسون ومينغي (Corson and Minghi 1996a) تطبيقات "باورسين" Powerscene (نظام لتصوير التضاريس بالاعتماد على الحاسوب) لإحداث ثورة في صناعة الحدود. ثم توسعا في تفصيل فوائد باورسين خلال مفاوضات اتفاقية دايتون للسلام (Corson and Minghi 1996b). وبقيامهما بذلك، أذكيا الاهتمام الجغرافي العسكري التقليدي بالحدود، التي تعد موضوعاً يعود إلى أيام الحرب العالمية الأولى (Russell 1954; James and Martin 1979). ومؤخراً، ساهمت الحروب في أفغانستان والعراق في استخدام غير مسبوق للتقنيات على أرض المعركة من أجل دعم التحديد الدقيق للأهداف، ومنع إلحاق الأذى بالقوات الصديقة، وتفادي الأضرار الجانبية، وتعزيز الإلمام بالحالة العسكرية، وجمع المعلومات الاستخبارية، وتقييمات أضرار المعركة (Corson and Palka 2004).

خامساً، عادت الجغرافيا العسكرية للظهور في المدارس العسكرية المهنية. وقد نشرت مجلة باراميترز *Parameters* مقالة للرئيس السابق لقسم الأمن القومي والاستراتيجية في كلية الحرب الأمريكية، بعنوان «الأهمية الدائمة للجغرافيا»، يطرح فيها أمثلة توضيحية ذات صلة (Hansen 1997). في الآونة الأخيرة، قام أعضاء من الجمعية الجغرافية الأمريكية بزيارة فورت ليفنوورث للتشاور مع الجنرال ديفيد بترايوس، لأن مفهوم فريق التضاريس البشرية والتحليل تم تصميمه وتنفيذه لتعزيز الفهم الثقافي بين الوحدات المنتشرة. ويعرض الخبراء العسكريون في حملتي أفغانستان والعراق العسكريتين وعياً متزايداً للجغرافيا العسكرية، حيث يمرون عبر مدارس التطوير المهني

ويتفاعلون مع أعضاء الهيئة التدريسية أو أعضاء فرق التضاريس البشرية والتحليل، الذين يقدمون الدعم لوحدات الجيش المنتشرة.

أخيراً، تمخضت عن الجهود المشتركة للجغرافيين العسكريين والجيولوجيين أربعة مؤتمرات دولية ناجحة للغاية في الأعوام 2003 و2005 و2007 و2009. وفي كل حالة، اجتمع خمسون إلى خمسة وسبعين محترفاً وأكاديمياً معاً لتقديم مجموعة واسعة من الأوراق البحثية المتميزة، والمشاركة في رحلات ميدانية، والخوض في مناقشات علمية. ويقدم هاوسلر (Häusler 2009) سرداً رائعاً ومفصلاً عن المشاركين وموضوعات العرض والأفكار الرئيسية والمنشورات الناتجة عن ذلك.

وراء الأفق

وباعتبار الجغرافيا العسكرية فرعاً دائم التطور، فقد اكتسبت زخماً هائلاً في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، حيث مرت بعدد من النقلات النوعية التي تضمن تقدماً مطرداً. أولاً، تجاوز كثيرون حدود التركيز التقليدي الضيق على المشكلات العسكرية في زمن الحرب، وأخذوا بالاعتبار المخاوف في زمن السلم. والمفارقة أن مخاوف زمن السلم لطالما استنفذت القدر الأكبر من وقت الجيش وجهوده. ومع ذلك، فقد تجاهل الجغرافيون العسكريون هذه المجالات بشكل عام حتى وقت قريب.

أما النقلة النوعية الثانية والبارزة فتشمل احتضان مجالين عسكريين معاصرين هما عمليات الاستقرار والدعم والأمن البيئي؛ إذ يستمر هذان المجالان بتمثيل أرض خصبة ضمن الجغرافيا العسكرية الموسعة. فكلاهما قد تطور خلال حقبة ما بعد الحرب الباردة، ويبدو أنهما يتجهان نحو اكتساب قدر كبير من الاهتمام ضمن هذا الفرع من الجغرافيا في المستقبل. والتوسع في هذين المجالين الجديدين سيعزز إمكانيات هذا الفرع إلى أقصى درجة من خلال تمكين الأكاديميين والممارسين من حل المشكلات العسكرية عبر طيف كامل من السيناريوهات العسكرية المعاصرة من السلم إلى الحرب.

وتشمل عمليات الاستقرار والدعم ما يلي: مساعدة الدول، والمساعدة الأمنية والإنسانية، والإغاثة في الكوارث، ودعم عمليات مكافحة المخدرات، وحفظ السلام، ومراقبة الأسلحة، ومحاربة الإرهاب، واستعراض القوة، وإجلاء الأشخاص غير المقاتلين، وتقديم الدعم للسلطات المدنية المحلية (Palka and Galgano 2005). والأمثلة الحديثة كثيرة جداً بحيث لا يمكن حصرها كلها، ولكنها معروفة جيداً للعموم. وتشير التوجهات إلى أن الجيش الأمريكي سيبقى مطلوباً منه الاستجابة لمشكلات اللاجئين والفيضانات والزلازل والأعاصير وحرائق الغابات في الداخل والخارج. بالإضافة إلى ذلك، يستمر الجيش بمشاركته النشطة في العمليات لتحسين البنى التحتية والظروف الصحية عبر أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا والباسيفيك (Shannon and Sullivan 1993; Binnendijk 1998; Palka and Galgano 2005). وتتسم هذه الأنواع من المهمات بأنها جغرافية بطبيعتها، وتتيح فرصاً مثالية للجغرافيين العسكريين كي يقوموا بتطبيق خبراتهم في سبيل قضايا إنسانية، ويعرضوا الجغرافيا العسكرية بصفتها اختصاصاً فرعياً متعدد الاستخدامات لحل المشكلات.

يشكل الأمن البيئي جزءاً لا يتجزأ من استراتيجية الأمن القومي للبلاد منذ عام 1991، واتسع مفهومه بفضل التحديثات السنوية، وذلك اعتماداً على المدخلات من المنتديات القومية والدولية التي تقر بأن القضايا البيئية لها آثار كبيرة على الصحة والاقتصاد، ويتزايد النظر إليها على أنها تهديدات للتطور والاستقرار السياسي (Butts 1993). واليوم، تؤدي البيئة دوراً لا ريب فيه في الاستقرار الإقليمي، وقد أصبحت من الاهتمامات العسكرية الأساسية في أثناء التدريب في أوقات السلم.

يرتبط القطاع العسكري الأمريكي بالأمن البيئي في عدة جوانب؛ أولها أن هذا القطاع يمكن توظيفه لحل الصراعات الناجمة عن انعدام الاستقرار الإقليمي الذي تسببه المشكلات البيئية (Palka 2008). والثاني، بغية دعم استراتيجية الأمن القومي للبلاد، يشارك الجيش في مجموعة واسعة من سيناريوهات المساعدة الأمنية لمد يد العون للدول

المضيفة في حل مشكلاتها البيئية الداخلية. وفي حالات مماثلة، قدم الجيش الأمريكي المساعدة للحكومات المضيفة في تحسين مصايد الأسماك، وإنشاء نظُم إمدادات المياه وتنفيذ عمليات السيطرة على الفيضانات، وتطوير نظم الري، وإنشاء المكبات الصحية للنفايات، والتحكم ببرامج إدارة الغابات، وحماية الحياة البرية وإدارتها (Butts 1993). ثالثاً، تعتبر وزارة الدفاع من أهم الجهات التي تدير الموارد البيئية في العالم، حيث تشرف على 25 مليون فدان من الممتلكات المحلية وأكثر من مليوني فدان من الأراضي في الخارج. ولذلك فإن الإشراف والإدارة البيئية تعتبر من الاهتمامات العسكرية الأساسية في زمن السلم (Shaw et al. 2000).

إن التوسع نحو عمليات الاستقرار والدعم أو مجالات الأمن البيئي لا يستدعي التخلي عن الأفكار التقليدية في الجغرافيا العسكرية. كما أن توسيع النظرة الجغرافية العسكرية يتيح للممارسين مواكبة الاهتمامات العسكرية المعاصرة، ويضمن النمو المستمر لهذا الفرع من الجغرافيا وصلته الوثيقة بموضوعها.

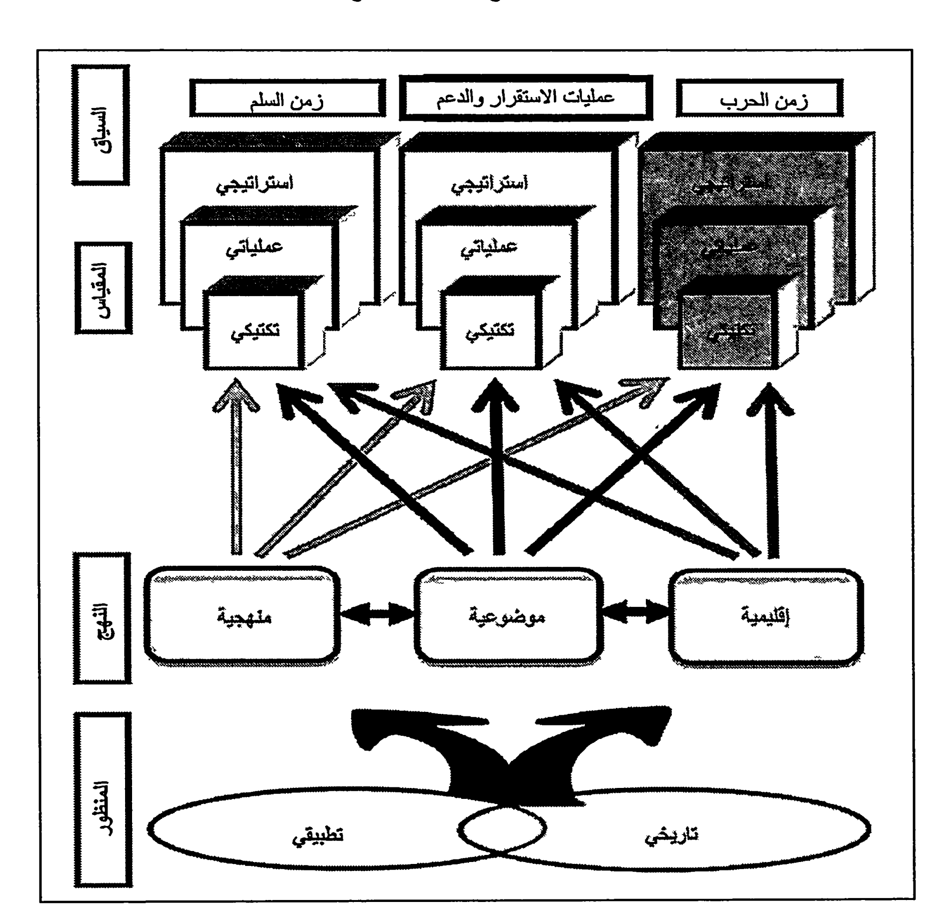
وتستهدف نقلة نوعية أخرى تجري حالياً خطط التصنيف الشاملة التي استخدمت سابقاً لتمييز أو تصنيف مجالات العمل في الجغرافيا العسكرية. ويتيح الشكل (1-1) الذي تم تقديمه بدايةً في كتاب بالكا (Palka 1999)، للمرء تنظيم خطط البحث، وتوضيح حدود هذا الفرع؛ من أجل التقليل من جوانب الغموض التقليدية وتعزيز ترابطه. ويقوم النموذج على متغيرات: السياق، والمقاييس، والمنهج، والرؤية. ويستطيع هذا التصميم حل المشكلات العسكرية عبر مجموعة واسعة من سيناريوهات التوظيف من زمن السلم إلى زمن الحرب. كما يحدد المخطط حجم العملية (نطاقها)، وطبيعة الجغرافيا المعنية (المنهج). وأيضاً بالإشارة إلى المنظور (التطبيقي أو التاريخي)، يوفر هذا النموذج طريقة شاملة ومفيدة أيضاً في تنظيم البحث في الجغرافيا العسكرية وتصنيفه. وربما الأهم من ذلك كله هو أن النموذج يعطي تصوراً عن نطاق هذا الفرع من الجغرافيا ويقدم بناءً تنظيمياً.

الخلاصة

تطورت الجغرافيا العسكرية ضمن الأوساط الأكاديمية الأمريكية عما كانت عليه خلال القرن العشرين؛ فقد حظي هذا الفرع من الجغرافيا بمزيد من الاهتمام ومكانة أفضل خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الكورية، بحيث لم تتعرض مشروعيته للشك إلا خلال حرب فيتنام. وبعد فترة من الركود خلال السبعينيات ومطلع الثمانينيات من القرن العشرين، برزت الجغرافيا العسكرية خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين، وتسارعت خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

الشكل (1-1)

نطاق الجغرافيا العسكرية



المصدر: Palka (1999).

وطوال معظم العقد الماضي، كانت عناصر الجيش الأمريكي موجودة في نصف دول العالم تقريباً، تشارك بفاعلية في بعثات التدريب وحفظ السلام والمساعدات الإنسانية والأمن البيئي وعمليات الاستقرار والدعم. إلى ذلك، تم نقل الجيش إلى أفغانستان منذ خريف 2001 وإلى العراق منذ ربيع 2003. وفي غضون ذلك، أوكلت إلى الوحدات الباقية في مواقعها داخل الولايات المتحدة الأمريكية أو خارجها مهمة الاستعداد الدائم للاستجابة للأزمات عبر مجموعة كاملة من العمليات العسكرية، بدءاً من المساعدات الإنسانية وصولاً إلى القتال والانتصار في معارك على مسرح الحرب الرئيسي. وتنوعت المشكلات التي طرأت خلال كل واحد من هذه السيناريوهات وكانت معقدة وغالباً غير متوقعة. ولكن كثيراً من المشكلات مشكلات جغرافية بطبيعتها. ومن ثم، فإن أدوات وتقنيات ومعرفة الجغرافي المختص يمكن أن تكون مفيدة وذات صلة في حل المشكلات العسكرية حيثما طرأت في أثناء أوقات السلم والحرب.

يستطيع الجغرافيون العسكريون، سواء كانوا اختصاصيين منهجيين أو إقليميين أو فنيين، تعزيز نجاح العمليات العسكرية من خلال الكتابات المهنية، ومحاضرات الضيوف التي تلقى في الوحدات العسكرية، والندوات مع كبار القادة العسكريين، والتعليم الرسمي في مؤسسات التعليم العالي العسكرية. وبالفعل، تم إثبات السوابق التاريخية منذ وقت طويل في كل واحدة من هذه الحالات (Poole 1944; Forde 1949; Warman 1954; Jackman 1971).

يعد التشديد الحالي على عمليات الاستقرار والدعم مؤشراً على التزام الولايات المتحدة على المستوى العالمي، كما يعكس مرونة متزايدة (منذ نهاية الحرب الباردة) لإشغال القوات العسكرية بمجموعة واسعة من السيناريوهات الإنسانية. وبالمثل، فإن الالتزام تجاه الأمن البيئي واضح بشكل صريح في استراتيجية الأمن القومي الخاصة بنا منذ عام 1991. وهذه التغييرات الأخيرة ذات الصلة في التوجه العسكري للولايات المتحدة تحتاج جغرافيا عسكرية تكون أوسع نطاقاً وقادرة على التركيز على المجموعة الكاملة من

المشكلات العسكرية المعاصرة في زمني السلم والحرب. وتذكرنا العمليات المتنوعة الحالية في كل من أفغانستان والعراق بأن جوهر الجغرافيا العسكرية التقليدية لايزال ذا قيمة دائمة للقطاع العسكري، وسيبقى يشكل جانباً أساسياً من خططه وعملياته خلال الصراعات المسلحة. وحالياً، يستطيع الجغرافيون المتخصصون بالفروع الجغرافية المتعددة أو في المناطق تقديم مساهمات كبيرة في إطار الجهود التي يبذلها الجيش في الإغاثة الإنسانية والبرامج البيئية؛ وذلك من خلال التعرف على إمكانات هذا الاختصاص الفرعي التي لم يجرِ استغلالها سابقاً. إن تأثير التفاعل المتبادل للإصدارات الأخيرة، ونشاط المجموعة المختصة ضمن اتحاد الجغرافيين الأمريكيين، والإمكانات الكبيرة التي توفرها عمليات الاستقرار والدعم والأمن البيئي، والطلب المستمر على الجغرافيا العسكرية في ساحات المعارك، كل ذلك سوف يسهم في استمرار دفع مسيرة هذا الفرع المعرفي خلال القرن الحادي والعشرين.

الفصل الثاني

العلوم العسكرية لغير المختصين

فرانسيس جالجانو

مقدمة

ليس كل مستخدمي هذا الكتاب مختصين عسكريين؛ ولذلك قد لا يكون لديهم معرفة عملية بالمؤسسات والمذاهب والمفاهيم العسكرية وأنواع العمليات وصنوف الأسلحة. والهدف من هذا الفصل هو تزويد غير المختصين بالمعلومات الأساسية اللازمة لفهم المادة المطروحة في هذا الكتاب. ويجب عدم اعتبار هذا الفصل بأي شكل من الأشكال موجزاً كاملاً عن المؤسسات والأسلحة والعقيدة العسكرية، لأنه موضوع فقط لتلبية حاجات فهم فصول هذا الكتاب.

ويتخذ هذا الفصل بشكل أساسي البنية والعقيدة العسكرية في الولايات المتحدة أساساً له؛ إلا أن المؤلف لا يدعي بأنه يعكس تماماً العقيدة العسكرية والمصطلحات في الولايات المتحدة. بل إنه - باستخدام هذه العقيدة والبنية الأمريكية إطاراً للعمل - يشرح المصطلحات والمفاهيم لغرض واحد هو توضيح المادة على أساس عام جداً. والسبب الآخر الذي قررنا لأجله ألا نعكس المصطلحات والعقيدة الأمريكية بدقة، هو أنها تتغير كثيراً جداً بحيث قد يبدو هذا الفصل قديماً حتى قبل أن ينشر. فعلى سبيل المثال، نحن نستخدم مصطلح "العمليات العسكرية غير الحربية" لتصنيف العمليات غير القتالية. وقد استخدم هذا المصطلح بشكل فعال من قبل القوات المسلحة الأمريكية في أواخر عقد التسعينيات من القرن العشرين، ولكن تم تجاهله بصورة غير مفهومة، واستعيض عنه بسلسلة من المصطلحات الأقل توصيفاً، والأقل فائدة بكل تأكيد.

تم وضع هذا الفصل ليقدم في البداية لمحة عن هيكل القيادة العسكرية ومستويات الحرب، التي هي أساساً أمور جغرافية بطبيعتها. ويلي ذلك لمحة موجزة عن الوحدات العسكرية، ومناقشة مقتضبة للأنواع المختلفة من منظومات الأسلحة الرئيسية. وأخيراً، يتناول هذا الفصل العمليات العسكرية حيث يفرّق العمليات القتالية وأشكال المناورة، عن العمليات العسكرية غير الحربية. ويمكن الاطلاع على مادة أساسية أكثر تفصيلاً وأشمل من خلال زيارة الموقع الإلكتروني لكل من: (US Department of Defense 2009)، و(GlobalSecurity.org 2009)، و(Federation of American Scientists 2009).

البنية العسكرية

تنبثق العمليات العسكرية بمعناها التقليدي من أحد أشكال سلطة القيادة الوطنية؛ مثل الرئيس أو الدكتاتور أو الأشكال الأخرى للزعامة القومية. وتقدم قيادة الأركان العسكرية الوطنية، وربما وزير الحرب أو وزير الدفاع، المشورة للقائد الوطني. ويعمل هؤلاء معاً على تحديد الأهداف الوطنية وهيكلية القوات والاستراتيجية العسكرية. ويختلف التنظيم الدقيق والعلاقات المتبادلة لهذه الهيكلية الوطنية من دولة إلى أخرى. ففي الولايات المتحدة، تعد وزارة الدفاع هي الهيئة المكلفة بتنسيق جميع جوانب الأمن القومي. وتشمل وزارة الدفاع مكوناتها القتالية، كالجيش، والبحرية والقوى الجوية، ومشاة البحرية، بالإضافة إلى المؤسسات غير القتالية مثل وكالة الأمن القومي، ووكالة الاستخبارات الدفاعية. وخلال الحرب أو حالات الطوارئ القومية الأخرى، تتمتع وزارة الدفاع بالسلطة على حرس الشواطئ، التي تتبع عادة لوزارة الأمن الداخلي (US Department of Defense 2009).

أعيد تحديد هيكلية القيادة لوزارة الدفاع بموجب قانون جولدووتر-نيكولاس Goldwaters-Nichols لعام 1986 (Summers 1992)، حيث أعاد هذا القانون تنظيم هيكلية القيادة، وأجرى أهم التغييرات على الوزارة منذ تأسيسها. وأعاد قانون جولدووتر-نيكولاس تحديد سلسلة القيادة التي تبدأ من الرئيس، مروراً بوزير الدفاع، وصولاً إلى القادة المحاربين (أي القادة العامون) الذين يقودون جميع القوات العسكرية

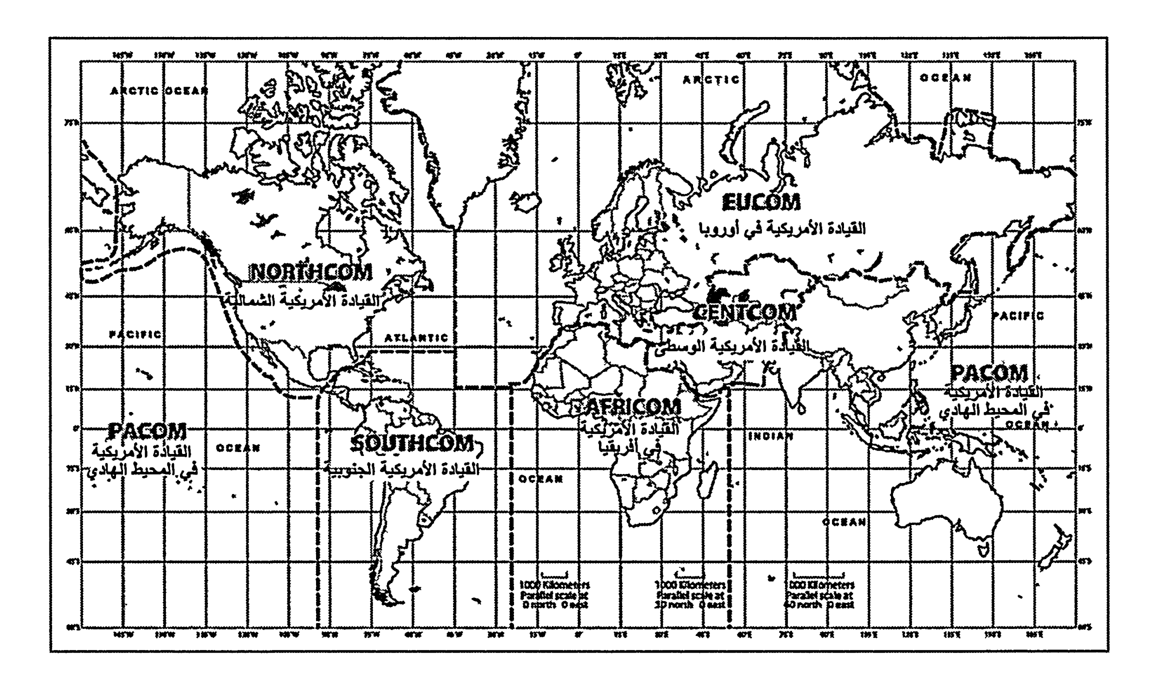
ضمن نطاق مسؤولياتهم. ولـذلك، ففـي المنظومـة الأمريكيـة تـأتي التوجيهـات القياديـة والاستراتيجية للقوات المسلحة من القيادة المدنية مباشـرة إلى القادة العسكريين في الميدان، وهذه القيادة المدنية يشار إليها باسم "سلطة القيـادة القوميـة" (Guidebook 2008; US Department of Defense 2009).

يتولى رئيس هيئة الأركان المشتركة وهيئة أركان الدوائر العسكرية – وهما المسؤولتان مجتمعتين عن جهوزية الفروع العسكرية المختلفة، ولكنهما ليستا ضمن سلسـلة القيـادة – قيادة هيئة الاستشارة العسكرية (Summers 1992). وبموجب القانون، يعتبر رئيس هيئة الأركان المشتركة الضابط العسكري الأعلى رتبة في الولايات المتحـدة الأمريكيـة، وتعتـبر كل إدارة عسكرية، بموجب توجيهات رئيس أركانها، مسؤولةً عن تنظيم وتدريب وتجهيز الوحدات العسكرية لاستخدامها من قبل القادة العامين بحيث يمكنهم تنفيذ التوجيهات الاستراتيجية الصادرة عن وكالة الأمن القومي (Guidebook 2008).

تتم القيادة الفعلية للقوات الأمريكيـة في الميـدان بموجـب توجيهـات صـادرة عـن "القيادات القتالية الموحدة" التي تتكون من عشـر قيـادات؛ سـت منهـا إقليميـة وأربـع عملياتية. وكل واحدة من هذه القيادات القتاليـة الموحـدة هـي قيـادة عسـكرية مشـتركة مؤلفة من قوات من دائرتين أو أكثر. بالإضافة إلى ذلك، كـل واحـدة مـن هـذه القيـادات القتالية الموحدة لها مهمة محددة جيداً، وكل منها منظمة إما على أسـاس جغـرافي، ويسـمى أيضاً "نطاق المسؤولية"، وإما على أسـاس عمليـاتي. وتتلقـى كـل واحـدة مـن القيـادات القتالية الموحدة أوامرها من ضابط كبير يحمل رتبة مـن أربـع نجـوم. والقيـادات القتاليـة الموحدة هي قيادات مشتركة. ومن ثم، فإن قائد كل واحـدة مـن هـذه القيـادات القتاليـة الموحدة يتولى مهمة واضحة هي ترجمـة التوجيهـات الاسـتراتيجية الصـادرة عـن القيـادة القتالية الموحدة إلى عمـل ميـداني. وتوضـح الخريطـة المبينـة في الشـكل (2–1) نطاقـات المسؤولية الجغرافية للقيادات القتالية الموحدة الإقليميـة. كـما تبـين البيانـات الموضـحة في الجدول (2–1) المعلومات الأساسية حـول كـل واحـدة مـن القيـادات القتاليـة الموحـدة (Guidebook 2008).

الشكل (2-1)

خريطة المناطق الجغرافية المخصصة لكل واحدة من القيادات القتالية الموحدة حتى يوليو 2009



مستويات العمليات العسكرية

تجري العمليات العسكرية ضمن ثلاثة مستويات من الحرب، أي الاستراتيجي والعملياتي والتكتيكي. وهذه المستويات غير مستقل بعضها عن بعض، بل هي مكملة كل منها للأخرى، ويجب أن يكون هناك خط مشترك في جميع المستويات. وتعرّف الاستراتيجية بأنها فن وعلم تطوير واستخدام القوة العسكرية والسياسية حسب الحاجة في أوقات السلم والحرب لتحقيق الأهداف القومية (Department of the Army 1997b, 2001). وبالتالي، وعلى المستوى الاستراتيجي، تحدد وكالة الأمن القومي الأهداف القومية، وفي أوقات الحرب، تقود هذه الأهداف نطاق السياسة العسكرية واتجاهها. وعند صوغ استراتيجية قومية، تقوم وكالة الأمن القومي عادة بتحديد هدف، أو غاية، جنباً إلى جنب مع تسلسل الأحداث (أي الطرق)، والقوات والمصادر (أي الوسائل) التي سيتم استخدامها في تحقيق الهدف المذكور. وباستخدام لعبة كرة القدم

الأمريكية مثالاً، يمكن للمدرب أن يستخدم استراتيجية دفاعية للفوز باللعبة من خلال الركض بالكرة، وبالتالي استنفاد الوقت والإبقاء على هجوم الفريق الخصم خارج الملعب. والمثال التقليدي لاستراتيجية الأمن القومي كان استراتيجية "ألمانيا أولاً" التي استخدمتها الولايات المتحدة وحلفاؤها خلال الحرب العالمية الثانية (Weigley 1973).

الجدول (2-1)

القيادات الإقليمية والعملياتية

القيادات الإقليمية		
القيادة	القاعدة الإقليمية	نطاق المسؤولية
القيادة الأمريكية الشمالية	القاعدة الجوية في بيترسون، كولورادو	الدفاع عن الأراضي الأمريكية الشمالية وتنسيق الأمن الوطني مع القوات المدنية
القيادة الأمريكية الوسطى	القاعدة الجوية في ماكديل، فلوريدا	مصر إلى منطقة الخليج، وصولاً إلى آسيا الوسطى
القيادة الأمريكية في أوروبا	المقر العام لقوات التحالف في أوروبا، بلجيكا المقر العام للقيادة الأمريكية في أوروبا، شتوتغارت، ألمانيا	أوروبا وإسرائيل
القيادة الأمريكية في المحيط الهادي	معسكر إتش إم سميث، أوهايو، هاواي	منطقة آسيا-الباسيفك، بما فيها هاواي
القيادة الأمريكية الجنوبية	ميامي، فلوريدا	أمريكا الجنوبية والوسطى، والمياه المحيطة
القيادة الأمريكية في أفريقيا	ثكنات كيلي، شتوتغارت في ألمانيا حالياً، وسيتم نقلها إلى القارة الأفريقية	أفريقيا باستثناء مصر، وأفريقيا جنوب الصحراء
القيادات العملياتية		
القيادة	القاعدة الإقليمية	نطاق المسؤولية
قيادة العمليات الخاصة الأمريكية	القاعدة الجوية في ماكديل، فلوريدا	توفر العمليات الخاصة للجيش والبحرية والقوى الجوية ومشاة البحرية
قيادة القوات المشتركة الأمريكية	مقر نشاطات الدعم البحري (نورفولك وسافولك، فيرجينيا	تدعم القيادات الأخرى باعتبارها تقدم القوات المشتركة
القيادة الاستراتيجية للولايات المتحدة	القاعدة الجوية في أوفوت، نبراسكا	تغطي قوة الردع الاستراتيجية وتنسق استخدام العتاد الجوي
قيادة النقل في الولايات المتحدة	القاعدة الجوية في سكوت، إيلينويز	تغطي عمليات النقل العالمي لجميع العتاد العسكري لمصلحة جميع القيادات الإقليمية

تتعين ترجمة الاستراتيجية إلى عمليات عسكرية ناجحة من خلال ربط الجهود وتنسيقها من حيث الزمان والمكان. وهذا هو المستوى العملياتي للحرب، أو الفن العملياتي، الذي يعرّف بأنه استخدام القوات العسكرية لتحقيق أهداف استراتيجية من خلال وضع الحملات والعمليات الكبرى والمعارك وتنظيمها وتوحيدها وتنفيذها (Department of the Army 2001). وتستخدم القيادات القتالية الموحدة الفن العملياتي بما يتسق مع التوجيهات الاستراتيجية المستلمة من سلطة القيادة القومية، لتطوير الحملات والعمليات. إذاً، الفن العملياتي هو عملية يقوم من خلالها القادة بالاستخدام الفعّال للموارد لتحقيق أهداف استراتيجية؛ وإلا ستكون الحرب مجموعة من العمليات المفككة، مع اللجوء إلى الاستنزاف باعتباره الإجراء الأوحد لتحقيق النجاح (Defense Technical Information Center 2009). وبالمتابعة بكرة القدم الأمريكية مثالاً، فإن المستوى العملياتي لخطة المدرب الاستراتيجية ربما يستلزم اجتياز الوسط في بداية المباراة من أجل إنهاك دفاع الخصم، ومن ثم اللجوء لاحقاً خلال المباراة إلى الركض بالكرة بوساطة أسرع لاعب للاستفادة من تعب مدافعي الفريق الخصم.

إن فن الاستراتيجية والفن العملياتي سيؤديان في نهاية المطاف إلى معارك. وتعرف التكتيكات أو المستوى التكتيكي للحرب بأنه توظيف الوحدات في القتال (Department of the Army 1997). وهذا هو مستوى الحرب الذي يتم تخطيط المعارك وتنفيذها عنده لتحقيق الأهداف العسكرية. وتركز النشاطات عند هذا المستوى على الترتيبات المكانية وتحركات الوحدات المقاتلة بالنسبة لبعضها البعض ولبيئة العمل العسكري والعدو من أجل تحقيق الأهداف (Guidebook 2008). وبالعودة مرة أخرى إلى مثال كرة القدم، فإن التكتيكات هي الألعاب الفردية والتشكيلات التي يستخدمها المدرب للاستفادة من ضعف فريق الخصم.

هناك تسلسل هرمي واضح للمستويات الجغرافية للحرب، والتي يدرسها الجغرافيون عادةً على المستويين الجغرافيين الكلي والجزئي (انظر الشكل 2-2). والجغرافيا

الكلية هي التحليل الواسع النطاق للمشكلات والبيئات العسكرية، والذي يتم عادة على المستوى الاستراتيجي والعملياتي للحرب. على المستوى الكلي، يربط الجغرافيون العسكريون الاستراتيجية بالمفاهيم الجغرافية كنقاط الاختناق الاستراتيجية، وعقد المواصلات، وموارد المياه أو الطاقة العالمية، وممرات الحركة والانتشار الاستراتيجي، وحجم الدول وأشكالها. وعلى المستوى التكتيكي للحرب، يدرس الجغرافيون العسكريون المشكلات العسكرية بصورة خاصة على المستوى الجغرافي الجزئي، والذي يشمل نطاقاً صغيراً ودراسات تفصيلية جداً للتضاريس والغطاء النباتي وأنماط تصريف المياه والتربة وشبكات الطرق ونماذج الطرق الحضرية وتأثيرات الطقس.

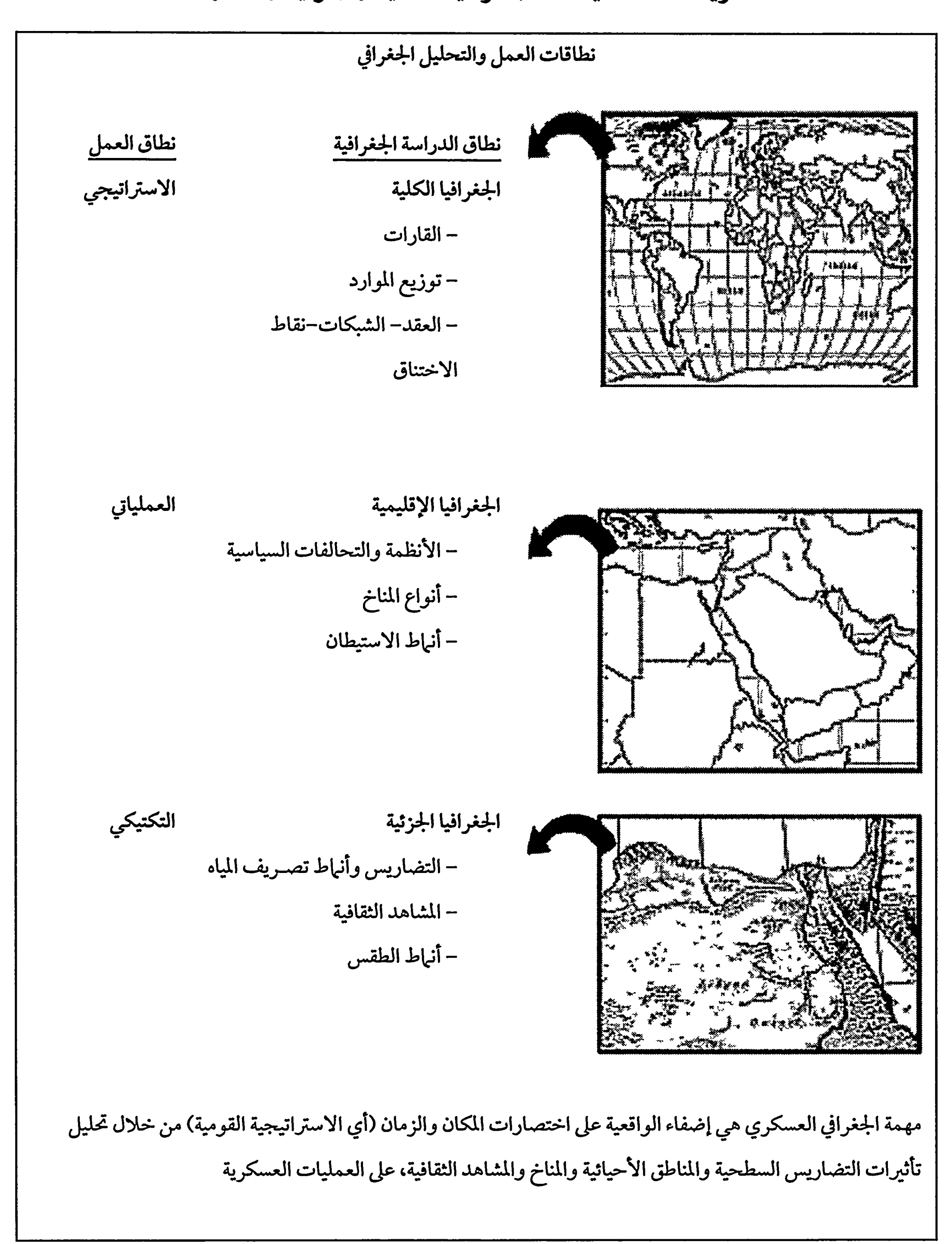
الوحدات العسكرية ومنظومات الأسلحة الأساسية

الوحدات العسكرية

تصنف الوحدات العسكرية تبعاً لنوعها ووظيفتها وحجمها (انظر الشكل 2-3). وهناك أنواع كثيرة للوحدات العسكرية منها الوحدات المقاتلة (مثل المشاة والمدرعات والمدفعية) ووحدات دعم القتال (مثل الشرطة العسكرية) والوظائف اللوجستية (مثل التموين والنقل). ولأغراض هذا الكتاب، سوف نركز على الوحدات المقاتلة: المشاة والمدرعات وسلاح الفرسان والمهندسين والطيران ومدفعية الدفاع الجوي وسلاح المدفعية. ويبين الشكل (2-3) الرموز المميزة للوحدات والتي ترتبط بكل نوع من الوحدات. ولكن، في ساحات المعارك الحديثة، قلما نرى وحدات قتالية خالصة. فهي تتجمع معاً بشكل متميز في "فرق مسلحة مشتركة" تضم نوعين أو أكثر من الوحدات تسمى "القوة المشتركة". وتقوم هذه المجموعات على أساس إنجاز المهمات، وهي تتأثر إلى حد بعيد بجغرافية أرض المعركة؛ فعلى سبيل المثال، قد تكون القوة المشتركة قوة مشاة كبيرة العدد في بيئة حضرية أو غابة كثيفة، ولكنها قد تتغير إلى تشكيل يضم عدداً كبيراً من المدرعات في المناطق المفتوحة كالسهوب أو الصحارى (Department of the Army 1997).

الشكل (2-2)

تعريفات التحليلات الجغرافية الكلية والجزئية ونطاقها



الشكل (2-3)

مخطط يوضح الرموز الخاصة بمختلف الوحدات العسكرية

رموز الوحدات: الحجم	رموز الوحدات: النوع
جماعة	وحدة مشاة
فصيلة	وحدة مشاة مؤللة
سرية	وحدة مدرعات
كتيبة	وحدة مدفعية
فوج	وحدة هندسة
لواء	وحدة فرسان
فرقة	وحدة طيران
فيلق	

كما تصنف الوحدات العسكرية تبعاً للحجم، ويبين الشكل (2-3) الرموز المناسبة للوحدات. وتعتبر "المجموعة" squad هي الوحدة العسكرية الأساسية، وتتألف من سبعة إلى عشرة جنود تقريباً، ويقودها رقيب. كما أن ثلاث مجموعات أو أكثر تشكل معاً فصيلة، وهي تضم أربعين جندياً أو أربعة إلى خمسة أسلحة (مثال، المدرعات). والسريّة هي وحدة عسكرية تتألف عادة من 75-200 جندي، ومعظم السرايا تتألف من ثلاث إلى أربع

فصائل، ومع ذلك، فإن العدد الدقيق قد يختلف بحسب نوع الوحدة والمهمة والهيكلية. ففي وحدات المدفعية، تسمى السرية "بطارية"، كما تسمى "فوجاً" في وحدات الفرسان.

و"الكتيبة" هي وحدة تضم نحو 500 –1500 جندي، وتضم عادةً بين ثلاث إلى أربع سرايا، ويقودها عادةً ضابط برتبة مقدم. وتضم كتيبة المدرعات نحو أربعين مدرعة، أما كتيبة المدفعية فتضم نحو أربعة وعشرين مدفعاً. بعض الوحدات التي هي بحجم كتيبة تسمى سرباً (مثل وحدات الفرسان ووحدات الطيران). والكتيبة عموماً هي أصغر وحدة عسكرية قادرة على تنفيذ عمليات مستقلة. وتكون الكتيبة في العادة جزءاً من فوج أو مجموعة كبيرة أو لواء تبعاً للنموذج التنظيمي الذي تستخدمه تلك الدائرة. وفي العادة، سيكون القسم الأعظم من الكتيبة متجانساً من حيث النوع (مثال، كتيبة مشاة أو كتيبة مدرعات)، ومع ذلك، هناك كثير من الاستثناءات القائمة على أساس تنظيم المهمة (Department of the Army 1997).

"الفوج" هو وحدة عسكرية مكونة من عدد متغير من الكتائب، وتكون تحت إمرة ضابط برتبة عقيد. وبحسب الدولة والفرع العسكري والمهمة والتنظيم، فإن الفوج الحديث يشبه "اللواء" من حيث الحجم؛ إذ يراوح بين عدة مئات إلى 5000 جندي (ثلاث إلى سبع كتائب عادية) لكل منهما. وعموماً، فإن الأفواج والألوية تجتمع لتشكيل الفرق. كما أن حجم الفوج/ اللواء الحديث يختلف من بلد إلى آخر. والجماعات والسرايا والكتائب والأفواج/ الألوية تعتبر عادةً وحدات تكتيكية لأنها تخطط وتنفذ المعارك اليومية، وفي العادة يكون ذلك على نطاقات مكانية صغيرة (Department of the Army 1997).

"الفرقة" هي وحدة عسكرية كبيرة تتألف من نحو 15000–20000 جندي. وفي معظم الجيوش، تتكون الفرقة من عدة ألوية. فيما يتشكل الفيلق من عدة فرق. وفي معظم الجيوش الحديثة، قد تكون الفرقة أصغر وحدات الأسلحة المركبة القادرة على القيام بعمليات مستقلة مستمرة نظراً لدورها من حيث كونها وحدة ذات اكتفاء ذاتي تضم مجموعة من القوات المقاتلة وقوات الدعم القتالي المناسبة. كما أن الفرقة المؤللة الأمريكية الحديثة

تضم نحو 300 دبابة، و300 عربة مقاتلة مصفحة، و6000 جندي مشاة، و72 مدفعاً، و60 مروحية هجومية (Department of the Army 2001). وتعمل الفرقة في العادة على المستوى التكتيكي، ولكنها اضطلعت كذلك بدور عملياتي خلال الصراعات الأخيرة.

الأسلحة العسكرية الأساسية

ربما تكون الدبابة أكبر الأسلحة على الأرض، وهي عبارة عن عربة مجنزرة قتالية مجهزة بقدرات عسكرية هجومية ودفاعية. وتستمد قوتها النارية عادة من مدفع رئيسي ذي عيار كبير مركب على برج دوار، ومدافع رشاشة ثانوية. كما أن تدريعها الثقيل وقدرتها الحركية في جميع التضاريس توفر الحماية لأفراد الطاقم وتتيح لها العمل في ميدان المعركة. أما قرينة الدبابة والتي تتبع أيضاً سلاح المشاة؛ فهي ناقلة الجند المدرعة أو العربة القتالية المدرعة. والعربات القتالية المدرعة هي عربات قتالية مدرعة خفيفة مصممة لنقل قوات المشاة، وتكون مجهزة عادةً بمدفع رشاش فقط، ومع ذلك هناك أنواع مختلفة منها تحمل بنادق عديمة الارتداد، أو قذائف موجهة مضادة للدبابات، أو مدفعاً خفيفاً، أو قذائف هاون. ويحصل الجنود على الدعم الناري من وحدات المدفعية التي تستخدم مدافع الهاوتزر أو المدافع العادية. و"الهاوتزر" هو نوع من قطع المدفعية يتميز بسبطانته القصيرة نسبياً، وتحتوي قذيفته على حشوة متفجرة صغيرة نسبياً لتدفع بالمقذوف الذي ينطلق متخذاً مساراً بزاوية هبوط حادة. وبالمقابل، يتميز المدفع العادي بسبطانة أطول وحشوة متفجرة أكبر وسرعة أكبر، ويتخذ مسار القذيفة مساراً ذا زاوية أكثر انفراجاً. أما سلاح "الهاون" فهو سلاح أرخص وأبسط، ونيرانه غير مباشرة، وعادة ما تحمله قوات المشاة. ويطلق الهاون قذائف متفجرة تتخذ مساراً قوسياً على ارتفاع كبير، ولكن مداها قصير نسبياً.

ومع أن العبوة الناسفة اليدوية الصنع مازالت تستخدم منذ الحروب السابقة، فقد اشتهرت كثيراً خلال المعارك الحديثة في العراق. والعبوة الناسفة اليدوية الصنع هي قنبلة يتم صنعها وزرعها بطرق تختلف عن العمليات العسكرية التقليدية؛ فهي قد تتكون من

متفجرات عسكرية تقليدية، مثل قذيفة المدفعية، وموصولة بآلية تفجير، أو يمكن أن تكون أجهزة يدوية الصنع يتم تفجيرها بآليات متنوعة. ومن الأنواع التي تتميز بدرجة عالية من التخصص هناك القذيفة الخارقة للدروع. وهي عبوة برأس حربي ذاتي التكوين أو شظية ذاتية التشكيل، وهي نوع خاص من العبوات المصممة لاختراق الدروع؛ وقد تم تصميمها للمرة الأولى خلال الحرب العالمية الثانية.

وتقسم الطائرات إلى أنواع ذات أجنحة ثابتة ودوارة. وتشمل الأنواع ذات الأجنحة الثابتة الطائرات المقاتلة والمقاتلة القاذفة والناقلات. أما الطائرات ذات الأجنحة الدوارة فتشمل المروحيات المتعددة الاستخدامات، والمروحيات الحربية أو المهاجمة، والمروحيات الكشافة. وتكون الطائرة المقاتلة مصممة أساساً لمهاجمة الطائرات الأخرى، بعكس الطائرة القاذفة التي تكون مصممة أساساً لمهاجمة أهداف أرضية بإلقاء القنابل عليها. والطائرات المقاتلة صغيرة نسبياً وسريعة وقادرة على المناورة، وهي الوسيلة الأساسية التي بوساطتها تحقق القوات المسلحة التفوق الجوي. ومنذ الحرب العالمية الثانية على الأقل، والتفوق الجوي يعتبر مكوناً أساسياً من مكونات النصر في الحرب التقليدية. أما المروحية الهجومية، والتي تعرف أيضاً بالمروحية الحربية، فهي مروحية عسكرية مسلحة لمهاجمة قوات المشاة والعربات المدرعة والهياكل، باستخدام مدفع آلي ونيران مدفع رشاش وصواريخ موجهة بدقة. وكثير من المروحيات الهجومية قادرة أيضاً على حمل صواريخ جو-جو.

هناك نوعان جديدان من الأسلحة الجوية التي اكتسبت أهمية خلال العقدين الماضيين وهما: صاروخ كروز والطائرة من دون طيار. وصاروخ كروز هو صاروخ موجه يحمل شحنة متفجرة ويطير بوساطة محرك نفاث. وصواريخ كروز مصممة لحمل رأس حربي تقليدي أو نووي كبير لمئات الأميال وبدقة عالية. تستطيع صواريخ كروز الحديثة أن تطير بسرعات تفوق سرعة الصوت أو دون سرعة الصوت، وهي ذاتية التنقل وتطير على ارتفاعات منخفضة لتجنب الرادارات. وعلى العموم، تختلف صواريخ كروز عن الطائرات من دون طيار، من حيث استخدامها بوصفها أسلحة وليس للاستطلاع.

والطائرات من دون طيار، تطير من خلال التحكم بها عن بعد (وهي ليست طائرات ذاتية الحركة) ويمكنها القيام بدور الاستطلاع وإطلاق القذائف.

أما الأسلحة الأساسية الحديثة المحمولة بحراً فتشمل المدمرات والطرادات وحاملات الطائرات والغواصات. في المصطلحات البحرية، المدمِّرة هي سفينة حربية تتسم بالسرعة والمناورة، وتُستخدم لمرافقة السفن الأكبر لحمايتها والدفاع عنها ضد الغواصات والطائرات. وتكون المدمرات مسلحة بالمدافع والطوربيد والصواريخ والأسلحة المضادة للغواصات. أما الطَّرّاد فهو زورق حربي كبير يُستخدم لأغراض الغارات الفردية ومهمات الحماية. ويوفر الطراد اليوم الدفاع الجوي الأساسي للأساطيل، ويحمل مجموعة من الصواريخ. أما حاملة الطائرات، فهي سفينة حربية مصممة لنشر واستعادة الطائرات، ومن ثم فهي تعمل بوصفها قاعدة جوية تجوب البحار. وهي تسمح للقوات البحرية بإطلاق قوة جوية من دون الحاجة إلى الاعتماد على قواعد محلية. وأخيراً، الغواصة وهي سفينة يمكنها العمل بشكل مستقل تحت الماء.

أنواع العمليات

يمكن تقسيم العمليات العسكرية إلى فئتين عريضتين هما: العمليات الحربية أو القتالية، والعمليات غير الحربية. وتشمل مجموعة العمليات الحربية العمليات الهجومية أو الدفاعية بالإضافة إلى مختلف أشكال المناورة. أما العمليات غير الحربية فقد انتشرت بشكل كبير منذ نهاية الحرب الباردة، وتشمل مجموعة من المهمات القائمة على أساس المساعدة في الإدارة والحوكمة وترسيخ الاستقرار.

العمليات الحربية

العمليات الهجومية

هي الشكل الحاسم للحرب، وتستخدم لدحر العدو وحماية الأراضي والموارد المهمة أو لطرد القوات المعادية من منطقة ما. وتسمح العمليات الهجومية للقوات بالحفاظ

على المبادرة والتحكم بإيقاع الحرب. وتبلغ هذه العمليات ذروتها عند هزيمة العدو أو عندما تحقق القوات الصديقة أهدافها. وهناك مثال تقليدي عن هذه العمليات حدث في نهاية حرب الخليج عام 1991 عندما أنهت قوات التحالف عملياتها حال طرد القوات العراقية من دولة الكويت (Spiller 1992). ومن الأهداف الأخرى للعمليات الهجومية: تفكيك تماسك العدو، وحماية الأراضي أو الاستيلاء عليها، أو رفض التخلي عن موارد العدو، أو الإبقاء على العدو في مكانه، أو الحصول على معلومات عن عدو ما (Department of the Army 2001).

هناك خمسة أشكال أساسية للمناورة المرتبطة بالعمليات الهجومية: التطويق، والحركة الالتفافية، والتسلل، والاختراق، والهجوم بالمواجهة. ولا تستخدم هذه الأشكال من المناورة عادة بصورة مستقلة، بل يتم جمعها معاً في سلسلة وقائع لمهاجمة العدو بصورة مختلفة، مما يفسر سبب رؤيتنا للوحدات العسكرية وهي تتحرك على أرض المعركة كلاً بطريقتها الخاصة. ومن وجهة نظر جغرافية، فإن التضاريس والطقس والمناخ والمشهد الثقافي تؤثر كثيراً في اختيار شكل المناورة، وغالباً ما تملي طريقة تدفق العمليات ووتيرتها حالما تبدأ.

"التطويق": هو شكل من أشكال المناورة التي يحاول فيها الطرف المهاجم تجنب الالتحام المباشر مع قوات الدفاع المعادية، وذلك من خلال الاستيلاء على أهداف في مؤخرة جيش العدو (انظر الشكل 2–4). والهدف من هذه المناورة هو تطويق العدو. وعلى المستوى التكتيكي للحرب، تركز مناورات التطويق على الاستيلاء على مناطق مهمة ذات تضاريس مميزة وقطع خط إمدادات العدو أو سبل انسحابه (Department of the Army 2001). أما "الحركة الالتفافية" (انظر الشكل 2–5)، فهي شكل من أشكال التطويق العميق جداً الذي تركز القوات المهاجمة خلاله على تجاوز العدو تماماً، والاستيلاء على مواقع مهمة عميقة في مؤخرة جيش العدو وإجباره على التراجع من

مواقعه الأمامية. وبتحقيق هذا التهديد لعمق العدو، فإن الجيش المهاجم يجبر العدو على الهجوم أو الانسحاب إلى الخلف، ومن ثم يطرده من مواقعه الدفاعية. والحركات الالتفافية الناجحة عادةً تتطلب عمقاً عملياتياً أكبر مما تحتاجه الأشكال الأخرى للمناورة (Department of the Army 2001).

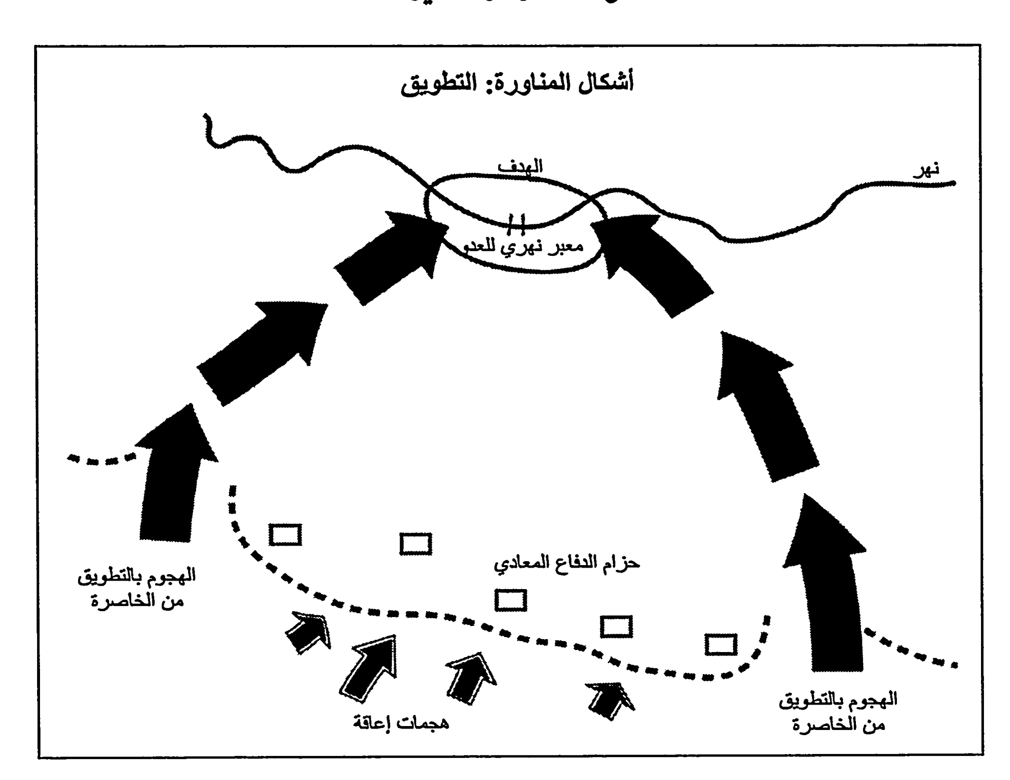
"التسلل": هو أحد أشكال المناورة ذات المستوى التكتيكي، وفيه يلجأ الجيش المهاجم إلى استخدام وحدات صغيرة لاستغلال الثغرات في دفاعات العدو حتى يصل إلى موقع في مؤخرة جيش العدو (انظر الشكل 2-6). وتتمثل عناصر التخطيط الرئيسية في هذا الشكل من المناورة بالتسلل والمفاجأة؛ ولذلك فإن الاعتبارات الجغرافية لها أهمية كبيرة. ومع أن هجمات التسلل يمكن أن تكون مدمرة جداً، فإنها نادراً ما تكون حاسمة لأن الوحدات المهاجمة الصغيرة لا تتمتع بالحجم اللازم لتحقيق الحسم (Department of the Army 2001).

"هجوم الاختراق": وهو مصمم لتمزيق دفاعات العدو على جبهة ضيقة جداً من أجل خلخلة المنظومة الدفاعية (انظر الشكل 2-7). ويلجأ القائد إلى الاختراق عندما لا يكون جناحا جيش العدو ضعيفين أو عندما لا يسمح الوقت باتباع شكل آخر من أشكال المناورة. وتكون عمليات الاختراق عادةً موجهة ضد قوة دفاع العدو؛ ولذلك فإنها تواجه خطر وقوع خسائر بشرية أكبر (Department of the Army 1997). أما "الهجوم بالمواجهة"، فهو الشكل الأقل تفضيلاً من أشكال المناورة لأن القوة المهاجمة تشتبك مع القوة المدافعة على طول جبهتها بالكامل، وتسعى إلى تدمير أو تثبيت العدو في مكانه (انظر الشكل 2-8). والهجوم بالمواجهة يعني التحاماً مباشراً تماماً مع العدو، ومن ثم، فإن القادة يلجؤون إليه فقط عندما يكون لديهم قوة قتالية ساحقة أو عندما يكون بإمكانهم الاستفادة من عوامل التضاريس والطقس المواتية لهم (Department of the Army 2001).

وبغض النظر عن شكل المناورة، يمكن لقوة ما أن تستخدم واحداً من أربعة أنواع من العمليات الهجومية، بالتتابع أو مجتمعة معاً، في جزء من المناورة لتحقيق هدف ما. وهذه الأنواع الأربعة من العمليات الهجومية هي: الانتقال للتماس، والهجوم، واغتنام الفرصة، والمطاردة. فعلى سبيل المثال، قد تستخدم مناورة الاختراق عملية التحرك للتماس من أجل العثور على جبهة العدو، ثم يكون الانتقال إلى الهجوم حالما يتم العثور على قوة العدو. وأخيراً، عند اختراق جبهة العدو، يمكن للقوات الصديقة أن تنتقل إلى اغتنام الفرصة والمطاردة لتدمير العدو.

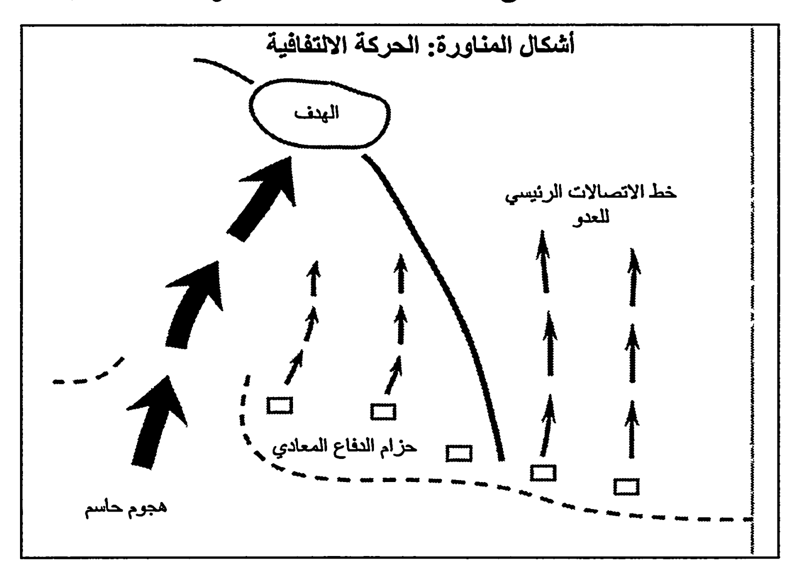
الشكل (2-4)

مخطط يوضح العناصر الرئيسية لعملية التطويق. وهي عملية تتجنب قوة العدو من خلال التركيز على هجومها الحاسم ضد هدف ما في مؤخرة جيش العدو، بهدف الاستيلاء على قوة العدو أو تدميرها



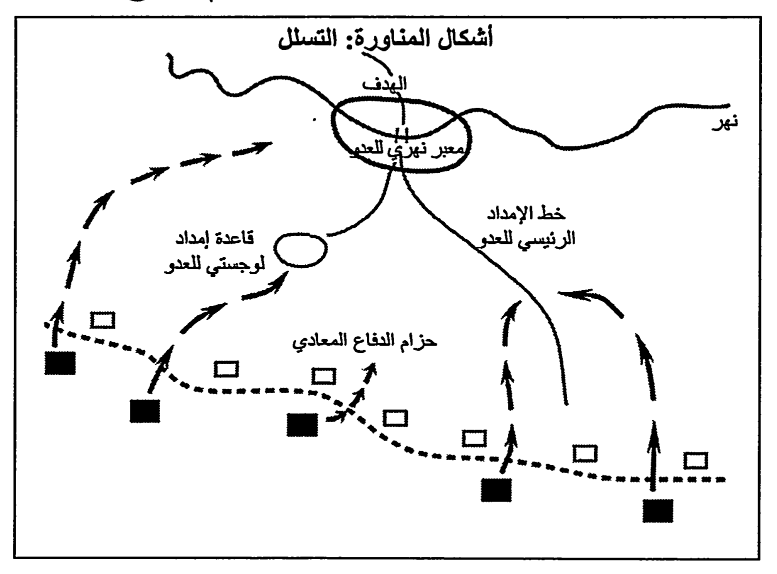
الشكل (2-5)

مخطط يوضح العناصر الرئيسية للحركة الالتفافية. وهي حركة تهاجم هدفاً عميقاً في المنطقة الخلفية لجيش العدو، وتجعله يغادر مواقعه الدفاعية



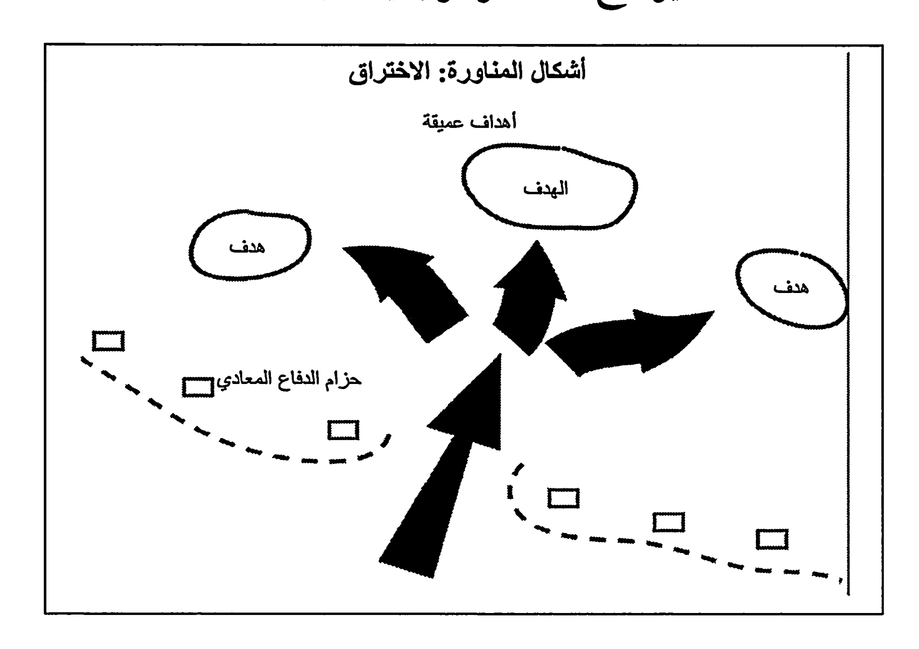
الشكل (2-6)

مخطط يوضح العناصر الرئيسية لمناورة التسلل. ويستخدم هذا الشكل التحرك الخفي من قبل وحدات صغيرة لاختراق ثغرات في حزام الدفاع المعادي



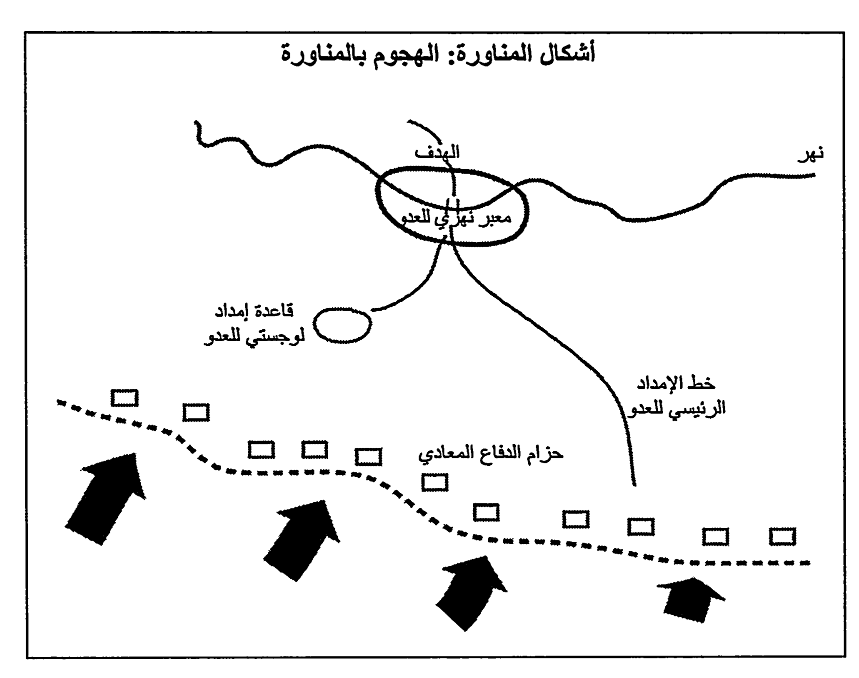
الشكل (2-7)

مخطط يوضح العناصر الرئيسية لمناورة الاختراق



الشكل (2-8)

مخطط يوضح الهجوم بالمواجهة



يتم تخطيط عملية التحرك للتماس بهدف بلورة الموقف أو تحقيق أو استعادة التماس، حيث تسعى الوحدات التي تنفذ العملية إلى التماس مع أصغر قوة ممكنة، وحالما يتحقق التماس، يكون أمام القائد خمسة خيارات: الهجوم أو الدفاع أو التجاوز أو التأخير أو الانسحاب. والهجوم هو عملية هجومية تدمر قوات العدو أو تدحرها، أو تستولي على الأرض وتؤمّنها أو كلاهما معاً. ويمكن أن تكون الهجمات سريعة أو متأنية؛ وذلك بحسب الوقت المتاح. وتتم الهجمات السريعة عندما تستدعي الظروف عملاً فورياً بالقوات المتوافرة، على عكس الهجوم المتأني الذي يتم اللجوء إليه عندما يتوافر الوقت لوضع الخطط وتنسيق التحضيرات. أما عمليات اغتنام الفرص والمطاردات، فتتم عادةً بالتعاقب بعد عملية هجوم ناجحة. واغتنام الفرص عادةً يلي هجوماً ناجحاً، والهدف منه إرباك عمق العدو، وتفكيك تنظيماته إلى درجة لا يكون أمامه معها بديل سوى الاستسلام. والمطاردة هي نوع من الهجوم المصمم لاعتراض عدو يحاول الهروب (Department of the Army 1997, 2001).

العمليات الدفاعية

إن العمليات الدفاعية ليست شكلاً حاسماً من أشكال الحرب، إذ يلجأ القائد إليها على أنها استراتيجية حاسمة لدحر هجوم معادٍ أو كسب الوقت أو الاقتصاد في القوات أو تطوير ظروف مواتية لعمليات هجومية (Department of the Army 2001). وتوجد عدة أنواع للعمليات الدفاعية، وهي أيضاً تتأثر إلى حد كبير بالجغرافيا. على سبيل المثال، استغل الروس عبر التاريخ المساحات الجغرافية لكسب الوقت مستفيدين من الظروف المناخية القاسية والوحل وشبكات الطرق السيئة لإحباط هجمات العدو (Winters 1998).

تركز الدفاعات المتحركة على تدمير القوات المهاجمة من خلال السماح للعدو بالتقدم إلى منطقة يمكن فيها شن هجوم مضاد عليه. وتسعى القوة المدافعة إلى الاستفادة من العوامل الجغرافية لعرقلة القوة المهاجمة وتعزيز الدفاع. وفي المقابل، يتم تصميم الدفاعات

الثابتة للحفاظ على الأرض. والدفاع الثابت التقليدي يجر العدو إلى سلسلة متطورة جداً من المواقع لتفكيك قواته بالقوة النارية. أما عمليات التراجع فهي تستخدم لتحريك الوحدات بعيداً عن العدو من أجل كسب الوقت والحفاظ على القوات أو تفادي القتال في ظروف غير مواتية (Department of the Army 2001).

العمليات العسكرية غير الحربية

تشمل العمليات العسكرية غير الحربية استخدام القدرات والقوات العسكرية في مجموعة واسعة من العمليات التي لا تحقق معايير الحرب، ويمكن تقسيمها إلى عمليات الاستقرار والدعم. وتستخدم هذه العمليات على مر التاريخ، إلا أن استخدامها ازداد منذ نهاية الحرب الباردة (Binnendijk 1998; Palka 2000). وتركز العمليات العسكرية غير الحربية على منع المواجهات العنيفة، وحل الصراعات وتعزيز السلام ودعم السلطات المدنية، ولكنها أيضاً قد تنطوي على عناصر العمليات القتالية (Department of the Army 2000).

عمليات الاستقرار

تستخدم الولايات المتحدة الأمريكية قواتها في عمليات الاستقرار خارج الدولة لتعزيز مصالحها القومية والحفاظ على الاستقرار الإقليمي والعالمي. فمن خلال تحقيق الاستقرار، تأمل الولايات المتحدة تعزيز السلام والأوضاع الاقتصادية القادرة على الاستمرار. فالوحدات العسكرية تعتبر مثالية لعمليات الاستقرار، لأنها مجهزة ومنظمة للسيطرة على الأرض والسكان والأوضاع لفترات طويلة من الزمن في حالات التقشف. وتستخدم عمليات الاستقرار للتأثير في الأحوال السائدة في بيئات معادية، وهي تشمل أيضاً النشاطات التنموية والتعاونية في زمن السلم، إلا أنها قد تلجأ إلى التدابير القسرية أثناء الأزمات (Department of the Army 2001). وعمليات الاستقرار متنوعة ومستمرة، وغالباً ما تكون طويلة الأمد؛ فالولايات المتحدة، على سبيل المثال، احتفظت

بقوات عسكرية على شبه جزيرة سيناء لمدة تزيد على ثلاثة عقود من أجل الحفاظ على السلام والاستقرار بين إسرائيل ومصر.

وفي سيناريو مثالي، تركز عمليات الاستقرار على ردع الصراع أو تنحيته. وخلال أزمة ما، يمكن استخدام الوحدات العسكرية لحل صراع أو منع التصعيد بالقوة، أو أنها قد تمنع انتشار صراع عنيف. وتستخدم عمليات الاستقرار لتوفير بيئة آمنة تتيح للسلطات المدنية استعادة السيطرة بعد العمليات القتالية. وتوجد طائفة واسعة من عمليات الاستقرار (Department of the Army 2001؛ Guidebook 2008):

- عمليات السلام: وتشمل عمليات حفظ السلام وعمليات إنفاذ السلام التي تتم لدعم الجهود الدبلوماسية الرامية إلى ترسيخ السلام والحفاظ عليه.
- عمليات حفظ السلام: وتتم بموافقة جميع الأطراف الرئيسية في النزاع. وتستخدم للمساعدة في تنفيذ اتفاقيات وقف إطلاق النار، أو لدعم الجهود الدبلوماسية.
- عمليات إنفاذ السلام: تتم عمليات إنفاذ السلام لفرض – أو التهديد بفرض – القوة العسكرية من أجل إجبار الأطراف على الالتزام بالقرارات الصادرة للحفاظ على السلام أو استعادته. وفي العادة، لا تتطلب عمليات إنفاذ السلام موافقة جميع الأطراف.
- عمليات دعم الجهود الدبلوماسية: وتستخدم لترسيخ السلام والنظام قبل الصراعات وأثناءها وبعدها، وقد تنطوي على دبلوماسية وإجراءات حفظ وبناء سلام وقائية.
- الدفاع الداخلي الأجنبي: يشمل مشاركة الهيئات المدنية والعسكرية لحكومة دولة ما بهدف تحرير وحماية المجتمع في حكومة دولة أخرى من التخريب والفوضى والتمرد.
- المساعدة الأمنية: تدل على مجموعة من البرامج التي تدعم الأهداف الوطنية من خلال توفير التجهيزات والتدريب العسكري والخدمات الأخرى للدول الأجنبية.

- دعم حركات التمرد والعصيان: يتم ذلك عندما توظف سلطة القيادة القومية القوات في دعم حركات التمرد والعصيان المعارضة للأنظمة التي تهدد المصالح القومية أو الاستقرار الإقليمي. وتوكل مهمات هذه العمليات في العادة إلى قوات خاصة (أي القوات الخاصة بالجيش الأمريكي، وقوات البحرية الأمريكية...إلخ).

- عمليات دعم جهود مكافحة المخدرات: في هذه العمليات تستخدم القوات العسكرية لمنع شحنات المخدرات على طول الحدود الوطنية، وهي شكل من أشكال عمليات الدعم المحلية.

- مكافحة الإرهاب: تشمل التدابير الهجومية المتخذة لمنع الإرهاب وردعه والاستجابة له. وتشارك القوات العسكرية عادةً في مجموعة كاملة من إجراءات مكافحة الإرهاب، بما فيها الضربات والمداهمات التي تتم ضد المنظمات الإرهابية ومنشآتها.

- عمليات مكافحة الإرهاب: هي تدابير دفاعية تستخدم للتخفيف من ضعف الأفراد والممتلكات تجاه الهجمات الإرهابية.

- عمليات الإخلاء غير العسكرية: تستخدم لنقل المدنيين غير المقاتلين من مواقع في دول أجنبية لتأمين المناطق. وتشمل هذه العمليات المواطنين المعرضة حياتهم للخطر، سواء من خطر الأعمال العدائية أو من كوارث طبيعية.

- عمليات مراقبة الأسلحة: تدعم المعاهدات وهيئات الإنفاذ المتعلقة بها. وتستطيع القوات العسكرية أن تساعد في الكشف عن أمكنة الأسلحة ومصادرتها وتدميرها بعد الأعمال العدائية، ومرافقة شحنات الأسلحة والمواد لمنع فقدانها أو استخدامها بشكل غير مصرح به، وتفتيش ومراقبة منشآت الإنتاج والتخزين، أو تدريب القوات الأجنبية على ضمان أمن الأسلحة والمنشآت.

- عمليات استعراض القوة: وتستخدم لدعم الحلفاء وطمأنتهم، وردع المعتدين المحتملين، وكسب النفوذ أو تعزيزه.

عمليات الدعم

تستخدم في عمليات الدعم الوحدات العسكرية لمساعدة السلطات المدنية عند استعدادها للأزمات أو استجابتها لها وتخفيف المعاناة. وفي هذه السيناريوهات، تقدم الوحدات العسكرية الدعم أو الأصول الضرورية أو الموارد المتخصصة لمساعدة السلطات المدنية في إدارة الحالات الخارجة عن إمكانياتها. وتتسم عمليات الدعم بالأهمية لأنها تلبي الحاجات الفورية لفترة محدودة، إلى أن تتمكن السلطات المدنية من القيام بذلك باستخدام موجوداتها (Department of the Army 2001).

الدعم المحلي والمساعدات الإنسانية الخارجية هما الشكلان الواسعان لعمليات الدعم. وتستخدم عمليات الدعم المحلي الوحدات والإمكانات العسكرية لتكملة موارد الحكومات والمؤسسات المحلية. وعمليات الدعم المحلي تستلزم التنسيق بين المؤسسات الحكومية وغير الحكومية. أما بعثات المساعدات الإنسانية الخارجية فتتم عادة للتخفيف من آثار الكوارث الطبيعية أو التي يتسبب بها الإنسان. ويتم توظيف الوحدات العسكرية لإتمام جهود الدولة المضيفة، وتكون في العادة محدودة من حيث النطاق والزمن، وتركز على المساعدة في الوقت المناسب لحل أزمة حالية. وهناك عدة أشكال لعمليات الدعم:

- عمليات الإغاثة: يتم اللجوء إليها لدعم الجهود الدولية والمحلية وجهود السلطات في الدولة المضيفة بعد الكارثة. وتركز هذه العمليات على استعادة البنية التحتية الأساسية، وعلى خير السكان.

- دعم إنفاذ القانون المدني: يشمل النشاطات المتعلقة بمكافحة الإرهاب وعمليات مكافحة المخدرات والاضطرابات المدنية والدعم العام لمؤسسات إنفاذ القانون المدني. ويشمل الدعم العسكري تقديم الموارد أو التدريب أو زيادة العناصر ضمن حدود القانون.

- مساعدة المجتمع: وتشمل مجموعة عريضة من النشاطات التي تقدم الدعم وتحافظ على علاقة قوية بين المجتمعين المدني والعسكري.



الفصل الثالث

مقدمة في الجغرافيا لغير المختصين

فرانسيس جاجانو

مقدمة

هذا الفصل مخصص لتقديم لمحة عامة مختصرة عن هذا الاختصاص لغير المختصين بالجغرافيا وتعريفهم بالمصطلحات والأفكار والمفاهيم والأساليب الجغرافية. وكما في الفصل السابق، ليس الغرض من هذا التقديم أن يكون مقدمة كاملة عن الجغرافيا بالمعنى التقليدي، بل هو مصمم لتعريف القارئ (الذي قد يكون غير مختص بالجغرافيا) بها، وضمان حصوله على فهم مناسب لمحتوى هذا الكتاب.

تعريف الجغرافيا

يربط كثير من الناس للأسف علم الجغرافيا بمعرفة الخرائط وطول الأنهار وأسماء الدول وعواصمها ومواقع الموارد الطبيعية (Getis et al. 2008). ومن الواضح أن هذا النوع من المعرفة الواقعية له مكانه في الجغرافيا، لأنه يتيح لنا وضع الأحداث والأمكنة والظواهر في إطار مكاني مفيد. ولكن معرفة سبب وجودها في أمكنة متميزة وفهمه هي أمور أكثر أهمية بكثير، وهذه هي الأهمية الحقيقية للجغرافيا (Holt-Jensen 1999). ولذلك، فالجغرافيا هي أكثر بكثير من مجرد معرفة أسماء الأمكنة وعلم الخرائط والمواقع. ويحاول الجغرافيون فهم الأمكنة والعلاقة التي تربط بينها، ومن ثم، يركز الجغرافيون العسكريون جهودهم على فهم العلاقة بين العمليات العسكرية والمشاهد الطبيعية. ولفهم

هذه العلاقة، على المختص بالجغرافيا العسكرية أن يفهم ديناميات المشهدين الطبيعي والبشري وعملياتهما بالإضافة إلى أنماطهما المكانية والزمانية (Winters 1998).

إن التحقيق في التباين المكاني؛ أي كيف ولماذا تختلف الأشياء من مكان إلى آخر؟ يعطي الجغرافيا هدفاً ومنهجية (Lanegran and Palm 1978). وتعرّف الجغرافيا كذلك من خلال دراسة كيفية تطور الأنماط المكانية عبر الزمن، ومن ثم، فإن إدراك الأمكنة هو مجرد خطوة أولية مهمة في فهم سبب وجود الأشياء حيث هي، وفهم الأحداث والعمليات التي تحدد التغيير والتوزيع على مر الزمن. على سبيل المثال، قد تشمل الأسئلة العسكرية المعاصرة ما يلي: «لماذا أسهمت الانقسامات العرقية والممارسات غير المستدامة والتغييرات البيئية مجتمعةً في إشعال صراع عنيف في بعض الأمكنة، وليس في أمكنة غيرها؟» أو «لماذا دارت عشرون معركة من أهم المعارك في العالم ضمن مساحة محددة جغرافياً في بلجيكا وشمال شرقي فرنسا؟». بالإجابة عن هذين السؤالين، يركز الجغرافيون العسكريون تساؤلاتهم على الرابط بين الشعوب والحكومات، وعلاقتهم بالبيئة الطبيعية (Getis et al. 2008). وبالتالي، فإن الجغرافيا - والجغرافيا العسكرية - تعنى بالمكان ومحتوى هذا المكان (Palka 2003). ولأن الجغرافيين العسكريين عادةً ما يوظفون نهجاً متكاملاً في استفساراتهم، فإنهم على معرفة واسعة بتنوع العمليات التي تؤثر في مكان ما.

واكتسبت الجغرافيا والجغرافيا العسكرية أهمية كبيرة خلال العقدين الماضيين، نظراً لسرعة العولمة، وانهيار الاتحاد السوفيتي، وتداعيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر (Janelle et al. 2004; Palka 2003). وكل من هذه الديناميات العالمية المهمة لها منشأ جغرافي أساسي، والجغرافيا هي الاختصاص الوحيد المكرس لفهم كيف ولماذا تختلف العمليات الطبيعية والبشرية من مكان إلى آخر؟ ويحتوي هذا الكتاب فصولاً مخصصة لإعطاء القارئ معرفة أساسية حول كثير من المسائل الأمنية البارزة التي تشكل عالمنا. إضافة إلى ذلك، إن معرفة أجندة البحث الجغرافي المستمر هي شيء أساسي لإدراك

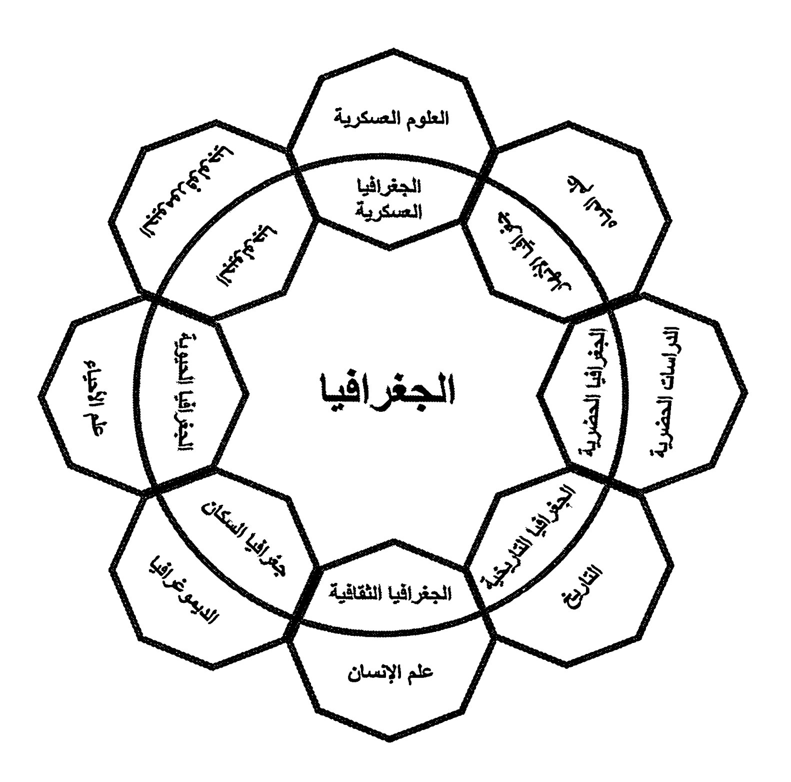
القضايا الأمنية العالمية وفهمها، والتي تسيطر على العالم الحديث. فالتأثيرات الأمنية للتغير البيئي، والتكاثر، والمخاوف الأمنية المرتبطة بالمناطق المهجورة، والتأثيرات التراكمية للنمو السكاني، والموارد المائية العالمية، والشبكات الإرهابية، والتأثيرات السلبية للممارسات غير المستدامة في البيئات الهامشية، لها أبعاد مكانية، والجغرافيا هي الاختصاص الأكثر ملاءمة لتوضيحها (de Blij et al. 2007).

فروع الجغرافيا

الجغرافيا هي اختصاص متكامل وجوهرها يحدده المجال والمكان والمشاهد الطبيعية وتفاعل العمليات (Livingstone 1992). وللجغرافيا قسمان مهمان: الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية، وهذان الفرعان الواسعان يتفرع منهما كثير من الحقول التي تتداخل مع اختصاصات أخرى (انظر الشكل 3-1). وكل فرع من هذه الفروع لا يركز على موضوع مشترك، بل على المظاهر المكانية للمادة موضوع الدراسة. ولا يركز المختص بالجيومورفولوجيا على بنية الصخور، كما لا يركز المختص بالجغرافيا السياسية على السياسة، ومن الواضح أن المختص بالجغرافيا العسكرية لا يركز على العلوم العسكرية. وبدقة أكثر، فإن الجغرافيين العسكريين – كزملائهم في الحقول الفرعية الأخرى – يتناولون موضوعهم من وجهة نظر مكانية مؤكدين على الروابط بين فضاء الأرض والنشاط العسكري، والموضوعات المهمة لتفاعل المسائل والعمليات المتعلقة بالأمن ومكانها ونطاقها وتوزيعها وانتشارها (Palka 2003). إلا أن الجغرافيين العسكريين يركزون أيضاً على دراسة بيئات العمل العسكري (أي الأمكنة والمناطق) من خلال تطبيق المعلومات والأدوات والتقنيات الجغرافية (Palka and Galgano 2005). وبما أن طابع منطقة العمليات بأكمله يحدد أي نوع من العمليات العسكرية، فإن العمل يتطلب جغرافيين عسكريين من مختلف ألوان الطيف للفروع الجغرافية.

الشكل (3-1)

الفروع الجغرافية المختارة



فروع الجغرافيا غير منفصلة، وتتميز أقسامها الفرعية بثلاثة اهتمامات شاملة: أولها التنوع المكاني للعمليات الطبيعية والبشرية ومظاهرها في البيئة. والثاني فحص النظُم التي تربط العمليات الطبيعية والنشاطات البشرية في مكان واحد مع أمكنة أخرى. وأخيراً، التحليل الإقليمي، وهو موضوع موحد ودائم بغض النظر عن الاختصاص الفرعي (Getis et al. 2008). وبالتالي، فإنه على مستوى التكوين الإقليمي، يستطيع الجغرافيون أن يربطوا جميع جوانب المشهدين الطبيعي والبشري لشرح الأنماط الطبيعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والأمنية والاجتماعية منها لتحديد الخواص الفريدة للأمكنة وارتباطاتها بغيرها (Peltier and Pearcy 1966).

وبالمقابل، يكرس بعض الجغرافيين أبحاثهم لفحص الأنواع الفريدة من الظواهر الطبيعية من أجل دراسة متخصصة، بدلاً من تركيزها على أجزاء منفصلة من سطح

الأرض. وبالتالي، فإن الجغرافيين المنهجيين يركزون اهتمامهم وأبحاثهم على جانب محدد من المشهد الطبيعي أو البشري، بدلاً من تركيزها على مكان محدد. على سبيل المثال، يوظف المختص بعلم شكل الأرض وتضاريسها المبادئ والقوانين الطبيعية لهذا العلم بما يتعلق بالأنهار من أجل دراسة منفصلة للمياه والترسيب وتطور أشكال الأرض للقنوات النهرية، التي تقتصر على مجموعة فريدة من التفاعلات.

الجغرافيا واختصاصاتها التقليدية

إن اتساع الموضوع الجغرافي يستلزم مبدأً تنظيمياً منطقياً بسيطاً لعرضه على الناس غير المطلعين على هذا الاختصاص. وبغض النظر عن مظهر الجغرافيا الخارجي المعقد، فإنها تدل على اتساق الهدف الذي تحقق من خلال إدراك الاختصاصات التقليدية الأربعة التي يعمل ضمنها جميع الجغرافيين وهي: اختصاص علم الأرض، واختصاص البيئة-الثقافة، والاختصاص المكاني، واختصاص تحليل المناطق (Pattison 1964; Robinson 1976).

وبالمثل، يعمل الجغرافيون العسكريون ضمن هذا الإطار، وتعكس فصول هذا الكتاب الثبات والتماسك بين هذه الموضوعات التي تتسم بالأبدية. وفي الواقع، توضح الفصول أن الاختصاصات الجغرافية التقليدية الأربعة ليست مجرد توافق تنظيمي، بل تعترف أيضاً، أن هذه الاختصاصات رغم تميزها عن بعضها، هي اختصاصات متشابكة في الوقت ذاته. مثلاً، إن اختصاص علم الأرض هو فرع من الجغرافيا التي تتناول الأرض موطناً للبشر وتوظف الجغرافيا الطبيعية لإثبات تأثير البيئة المستمر والواسع على العمليات العسكرية. وهناك أمثلة على هذا الاختصاص موضحة في القسم الثاني من الكتاب (من الفصل الثامن وحتى الخامس عشر)، والذي يوضح تأثير البيئة الطبيعية في العمليات العسكرية باستخدام أسلوب تاريخي لدراسة الحالة.

يتفاعل البشر مع بيئتهم، كما أن البيئة قد يكون لها أثر عميق على الناس أيضاً. وهذا هو الاختصاص التقليدي للثقافة-البيئة، وفيه تؤثر عوامل السكان والتوزيعات وأنماط

التنظيم الاجتماعي والسياسي وتطور المشهد الثقافي بشكل واضح في طبيعة العمليات العسكرية (Peltier and Pearcy 1966). ولذلك، فإن هذه الفكرة مميزة ولكنها مرتبطة بالاختصاص التقليدي لعلم الأرض، لأن السلوكيات تحدث في سياق الوقائع الطبيعية لبيئات العمل العسكري. على سبيل المثال، في الفصل الخامس، توضح آمي ريتشموند كراكوكا الروابط بين الناس وبيئتهم في رواندا، وتأثير البيئة في العنف العرقي الذي حدث في عام 1994. وبالمثل، في الفصل التاسع عشر، يقدم جوزيف هوبي مثالاً عن الأثر العميق والطويل الأمد للحرب على البيئة من خلال وصف تغيير المشهد الطبيعي بالقرب من "خي سانه" في فيتنام.

يمكن إيجاد الاختصاصات التقليدية المكانية في قلب جميع التحقيقات الجغرافية العسكرية، ومن الواضح أنها الفكرة السائدة في جميع البحوث الجغرافية (Livingstone 1992; Holt-Jensen 1999). تعد الخرائط ونظُم المعلومات الجغرافية والنظام العالمي لتحديد المواقع GPS والاستشعار عن بعد والأساليب الإحصائية هي من بين التقنيات التي يستخدمها الجغرافيون العسكريون عند استكشاف الأنماط المكانية والعلاقة بين النظم الطبيعية والبشرية. وهذا الاختصاص التقليدي يعنى بصورة أساسية بالأنماط المكانية للطقس والمناخ وأشكال الأرض والناس؛ ولكن النطاق والحركة والعلاقات المساحية هي أيضاً أساسية للفكرة المكانية (Robinson 1976). وبالتالي، فإن هذا الاختصاص التقليدي يحدد الأنماط المكانية للتفاعل بين البشر وبيئتهم، والتي تكون غالباً السبب الجذري وراء كثير من الصراعات العنيفة. في الفصل السابع، يتتبع وليام دو الثالث دور هذا التقليد في دراسته للأراضي العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية.

وربما يكون أقوى تأثير في البحث الجغرافي العسكري قد تطور من اختصاص تحليل المناطق التقليدي (Peltier and Pearcy 1966). وبما أن من مهمات الجغرافي العسكري أن يضفي صفة الواقعية على الأفكار المجردة للمكان والزمان مثل الاستراتيجية، وفن العمليات والتكتيكات عن طريق تحليل تأثيرات الأمكنة والبيئات، فإن تحليلات المناطق

هي من أساليبه التقليدية الرئيسية. وفي إطار الاختصاص التقليدي لتحليل المناطق، يقوم الجغرافي العسكري بفحص جميع جوانب البيئة من أجل تطوير قصة متكاملة تفسر التعقيد والديناميات المعنية ومزايا وعيوب مكان ما، في ما يخص عملية عسكرية ما. ولتوضيح دور العملية التقليدية لتحليل المناطق، يفسر ستيفن أولويك، في الفصل الثالث عشر، بيئة العمل العسكرية المعقدة في البوسنة، وكيف أثرت هذه العوامل الجغرافية في الحرب الأهلية والعنف العرقي الذي وقع هناك في مطلع التسعينيات من القرن العشرين.

المفاهيم الجغرافية الأساسية

مثل جميع التخصصات الأخرى، تشمل الجغرافيا مجموعة من المفاهيم الأساسية التي توحد جميع حقولها الفرعية وتصوغ أبحاثها وتحدد الإجابات الخاصة بدراسة المشهد الطبيعي. وهذا بالطبع أمر صحيح عن الجغرافيين العسكريين عندما يسعون جاهدين للإجابة عن أسئلة جغرافية شائعة: «كيف تكون البيئة العملياتية؟» و«لماذا هي هكذا هنا؟» و«كيف ستؤثر في العمليات؟». وبالتأكيد، هذه الأسئلة الثلاثة راسخة في صميم اهتمام عالم الجغرافيا بتباين سطح الأرض، وهي ترتبط بالاختصاصات الجغرافية التقليدية الأساسية.

وللإجابة عن هذه الأسئلة، يستخدم الجغرافي العسكري مجموعة شائعة من المصطلحات والمفاهيم والأساليب التي تمنح هيكلية لدراسته للبيئات التشغيلية. فالجغرافيا هي علم مكاني، والقاسم المشترك بين جميع البحوث هو إدراك الأنماط المكانية. وهذه نقطة انطلاق ضرورية لفهم العلاقة بين المشكلات العسكرية والمشهد الطبيعي (Peltier and An introduction to Pearcy 1966). ولذلك، فإن الجغرافيين العسكريين كزملائهم، يهتمون بالأنماط المكانية والمؤقتة، مثل سلوك مجموعة ثقافية والنطاق المكاني للمناطق وأنماط الظواهر المناخية وظواهر الطقس والسمات المهمة للمشهد الطبيعي المادي، بالإضافة إلى الديناميات الأساسية التي تحرك هذه الأنماط والعلاقات (Jackman 1962).

ثم إن مفهوم النطاق بالنسبة إلى المختص بالجغرافيا العسكرية يفسر الطريقة التي تسبب بها العمليات والديناميات توزيع الأشياء، بالإضافة إلى الأنماط المؤقتة المتعلقة بالظواهر الطبيعية التي تجعل الأمكنة فريدة. وبالتالي، يفهم المختص بالجغرافيا العسكرية أن محتوى المكان وديناميات الظواهر الطبيعية منظمة ويمكن تفسيرها، حيث إن:

- للأمكنة والظواهر الطبيعية مكاناً واتجاهاً ومسافة بالنسبة إلى الأمكنة الأخرى.
- للأمكنة والظواهر الطبيعية حجماً ونطاقاً.
- للأمكنة والظواهر الطبيعية بنية طبيعية ومحتوى ثقافياً.
- طبيعة الأمكنة والظواهر الطبيعية تتغير على مر الزمن.
- الأمكنة والظواهر الطبيعية شيئان مترابطان.
- الأمكنة والظواهر الطبيعية يمكن تعميمها في المناطق.

الموقع

السؤال الجغرافي الجوهري بطبيعة الحال هو "أين يقع؟". وبالتالي، فإن معرفة المكان وفهمه أمر جوهري لأنه يشرح كثيراً حول الأحداث المنفصلة والأمكنة الموجودة على المشهد الطبيعي. ويمكن التعبير عن المكان بعدة طرائق متنوعة؛ ويجب اختيار الطريقة الأنفع تبعاً للمكان. ولذلك، ينظر الجغرافيون إلى المكان من منظورين مهمين: مطلق ونسبي.

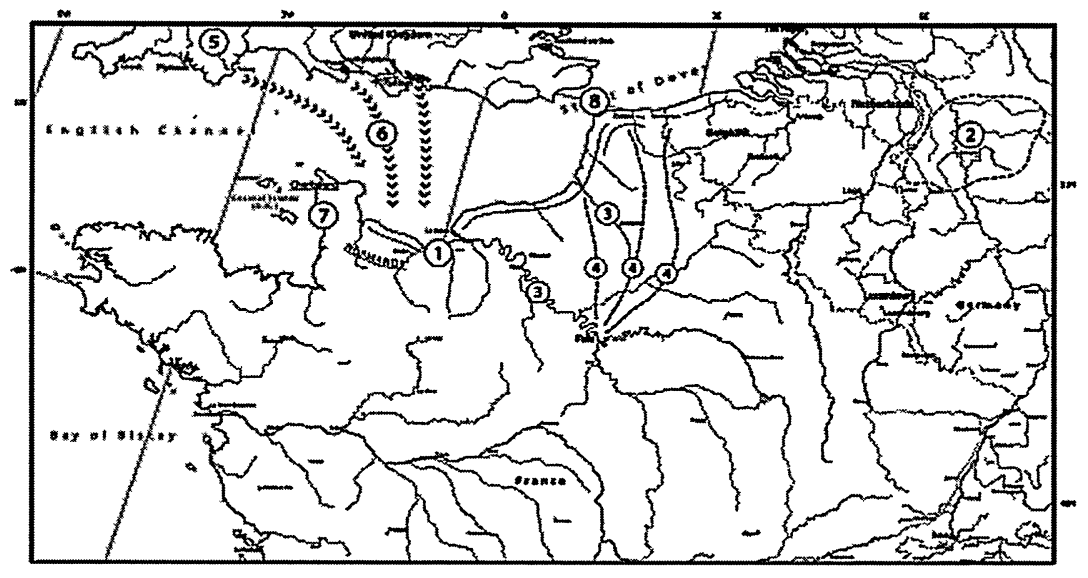
بالنسبة إلى المختصين بالجغرافيا، المكان المطلق هو وسيلة لوصف موضع مكان معين باستخدام نظام إحداثيات دقيق أو إحدى الطرائق الأخرى الدقيقة في تحديد المكان. ولذلك، يوفر المكان المطلق وسيلة لوصف موضع الأمكنة بدقة بحيث يمكن تحديد مكانها بدقة في فضاء الأرض. ولدى عالم الجغرافيا عدة طرائق رسمية يقوم بوساطتها بتحديد المكان المطلق تشمل: خطوط الطول والعرض، أو نظام إحداثيات مسطحات

الدول، أو ربما "مستعرض ميركاتور العالمي" Universal Transverse Mercator [نظام إحداثيات ثنائي الأبعاد لتحديد المواقع على الأرض]. لكن الجغرافيين يمكن أن يستخدموا أيضاً وسائل غير رسمية لوصف المكان المطلق. مثلاً، المقعد رقم 5، الصف رقم G، القسم 21 من مدرجات الملعب، أو زاوية الشارع الخامس والشارع الرئيسي، هي أيضاً مؤشرات مفيدة على المكان المطلق (Blij et al. 2007). وبغض النظر، فإن المكان المطلق مميز بالنسبة إلى أمكنة منفصلة وله قيمة مفهومة في تنظيم المواقع مكانياً أو تحديدها على خريطة ما، أو في قياس المسافات بين الأمكنة أو في تحديد الاتجاه بين الأمكنة أو في إعطاء تعريف قانوني لمكان ما (Getis et al. 2008).

ومن ثم فإن المكان المطلق مفيد جداً لأغراض رسم الخرائط والبحث، مثل وصف المكان الدقيق لموقع دراسة ما، وهو مفيد للمختصين بالجغرافيا العسكرية، لأنه يسمح بتحديد الأمكنة المنفصلة، مثل تحديد أمكنة حدوث المعارك والعمليات. لكنه ذو قيمة محدودة فقط من حيث إنه يقدم لمحة خفيفة عن الترابط المكاني، مما يساعد المختص بالجغرافيا العسكرية على تفسير سبب وجود الأشياء في مكانها. وبناء عليه، فإن استخدام المكان النسبي يحدد للمختص بالجغرافيا العسكرية موضع مكان معين أو ظاهرة طبيعية بالنسبة إلى موضع أمكنة أو ظواهر طبيعية أخرى، وهو مفهوم أقوى بكثير. وبالنسبة إلى المختص بالجغرافيا العسكرية، فإن المكان النسبي يتيح الاتصال والترابط المكاني. مثلاً، يقع شاطئ أوماها، وهو واحد من خمسة شواطئ تعرضت للغزو في الماضي، على الخط 49 درجة و22 دقيقة شمالاً و2 درجة و52 دقيقة غرباً. ولكن هذا الموقع المطلق لا يفسر المزايا الطبيعية للمكان، أو يعطي المختص بالجغرافيا العسكرية معلومات عن سبب اختيار هذا المكان ليكون من مواقع الغزو المحدد في يوم ما، نظراً لوجود خط ساحلي ملائم بطول مئات الكيلومترات في شمالي فرنسا. وقد أوضح ديفس (Davies 1946) قيمة الموقع النسبي وقوته في تفسيره المفصل للأسباب الجغرافية وراء اختيار نورماندي موقعاً للغزو، بالنظر إلى وجود شواطئ أفضل للغزو متاحة لقوات الحلفاء، وأوضح كيف خضع الخيار للعلاقات الجغرافية بين نورماندي وأمكنة أخرى، أو المكان النسبي (انظر الشكل 3-2).

الشكل (3-2)

عوامل المكان النسبي التي أدت إلى اختيار نورماندي لتكون موقعاً للغزو في يوم ما من عام 1944. وقد اختيرت نورماندي وتم تفضيلها على مناطق ساحلية أفضل بسبب مزاياها المتعلقة بموقعها



1- مغطاة بأضعف جزء من تحصينات الجدار الغربي.
2- الأبعد عن المنطقة الصناعية روهر في ألمانيا.
3- أجبرت التعزيزات الألمانية على عبور أنهار كثيرة.
4-غربي خطوط السكك الحديدية لقناة باريس.
5- غابات كثيفة في جنوبي إنجلترا توفر مزية الاختباء.
6- مقابل الموانئ الرئيسية في جنوبي إنجلترا.
7- محمية من عواصف التتبع الغربية.
8- تتجنب ممر كاليه الضيق بين الجبال.

المصدر: Davies (1946)

ولأن الجغرافيين يميزون مختلف أساليب توصيف المكان، فإنهم يميزون أيضاً بين موقع المكان وحالته. فالموقع يشير إلى خصائص المحيط المحلي أو الجوانب الداخلية لمكان ما، وفي سياق الجغرافيا العسكرية، فإنه قد يشمل بعض السمات مثل تضاريس الأرض والمناخ والغطاء النباتي وتركيب التربة وإمكانية التنقل وأنماط الشوارع وتوافر المياه. وإذا كان يبدو أن بعض الجوانب المحددة لمكان أو موقع توفر أفضلية واضحة لقائد عسكري، عندها من المحتمل أن يتم اختيار ذلك المكان موقعاً لمعركة. ومن ناحية أخرى، تشير الحالة إلى العوامل الخارجية التي تجعل المكان ملائماً، وهي إيضاح لمكان نسبي مع إشارة خاصة إلى الأهمية الجغرافية للمكان المعني (de Blij et al. 2007).

المسافة هي مفهوم آخر خاص بالمكان يستخدمه الجغرافيون. فالمسافة تربط بين الأمكنة ويمكن النظر إليها بالمعنى المطلق والنسبي على حد سواء. أما الفصل المكاني بين النقاط، الذي يقاس عادة باستخدام بعض المقاييس المعروفة (مثل الميل أو الكيلومتر)، فيحدد المسافة المطلقة. وبالمقابل، المسافة النسبية تترجم القياسات الخطية إلى علاقات مكانية [طبوغرافية] أخرى ذات معنى أكبر. على سبيل المثال، قد يكون طريقان لمسيرة ما من نقطة البداية إلى نقطة الهدف التي يحتمل لجيش ما أن يستخدمها، متساويين في الطول تقريباً. ولكن المسافة المطلقة قد تكون أقل أهمية في عملية اختيار طريق لأن الطريق الأطول بينهما قد يكون ذا تضاريس ملائمة أكثر، وقد يستغرق سلوكه وقتاً أقصر في الواقع مع أنه أطول.

الحجم والنطاق

بالإضافة إلى الموقع، ربما يكون الحجم والنطاق أهم مفهومين يستخدمهما الجغرافيون في فحصهم للمشاهد الطبيعية والبشرية؛ فلطالما كانت مسائل النطاق مركزية بالنسبة للنظرية والبحوث الجغرافية (Abler et al. 1992). فالحجم والنطاق يمنحان أبعاداً نسبية إلى الأمكنة والظواهر. ويعرف النطاق الجغرافي على أنه عرض للظواهر الطبيعية في العالم الحقيقي بمستوى معين من التعميم (de Blij et al. 2007). على سبيل المثال، عندما نقول إن مكاناً ما هو كبير أو هو صغير، فنحن عادةً نتناول طابع المكان وأبعاده المادية. والتعميم شيء مهم لأنه لا يمكن أبداً فحص الأرض أو تمثيلها بكل تعقيداتها. ومن ثم، فإن النطاق شيء ضروري لأن تأثيره في درجة فهم المعلومات الجغرافية يدل على كمية التفاصيل الواردة في تحليل ما؛ فهو في الأساس مسألة مبسطة، ولكنه يشمل أيضاً جوانب اختيار ملامح منفعة معينة وتعزيزها. مثلاً، عندما يقوم الجغرافيون العسكريون بفحص أجزاء أصغر من المشهد الطبيعي، فإنهم يميلون إلى التعامل مع بيانات أكثر تفصيلاً تخص المشهد الطبيعي للتضاريس والمشهد البشري (Getis et al. 2008).

الأمكنة وسماتها العسكرية

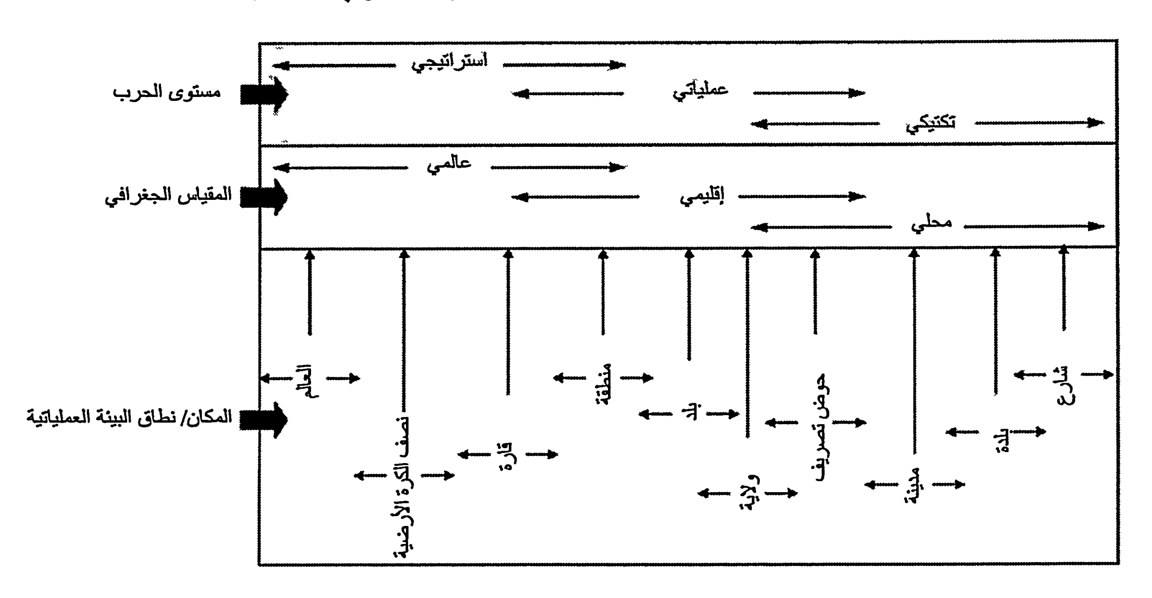
إن الأمكنة فريدة من نوعها، وتظهر مزايا طبيعية وثقافية منفصلة تميزها عن غيرها من الأمكنة الأخرى. وهذا أمر مهم للمختص بالجغرافيا العسكرية لأن سماتها تعطي أهمية استراتيجية وعملياتية وتكتيكية للأمكنة، وتمنحها الطابع والإمكانية والمعنى (Peltier and Pearcy 1966). والجغرافيون العسكريون معنيون بتحديد السمات التفصيلية للأمكنة وتحليلها، ولاسيما في معرفة الترابط بين المشهدين الطبيعي والبشري.

لقد أثبتت دراسة الجغرافيا أن الأمكنة لها أهمية. فكل مكان هو مكان فريد ويظهر مجموعة متميزة من الضرورات الجغرافية. علاوة على ذلك، فإن الأمكنة تتفاعل فيما بينها، وبالتالي فإنها تخلق ديناميات وظروفاً قهرية وأحياناً صعبة يتحتم على الوحدات العسكرية العمل فيها. ويعتبر الجغرافيون العسكريون عادة الأمكنة بيئات عمل عسكرية، تتأثر كل واحدة منها بترابط مجموعة متميزة من المتغيرات الجغرافية. ونطاق المكان، بالمعنى العسكري، يرتبط بمستوى الحرب المنفذة (انظر الشكل 3-3). وعلى المستوى الاستراتيجي، يمكن أن يكون المكان أو بيئة العمل قارة بأكملها؛ وعلى المستوى العملياتي، قد يكون منطقة أو بلداً. وعلى المستوى التكتيكي، يمكن أن يكون المكان صغيراً بحجم مجمع أبنية في مدينة.

أدرك كارل فون كلاوسفيتس طبيعة المكان عندما أطلق على بيئة العمل العسكري اسم طبيعة الأرض أو التضاريس، وبحسب رأيه فإنها تتكون من «الأرض وسكان مسرح الحرب بأكمله» (von Clausewitz 1976: 67). كما أوضح كلاوسفيتس أن الأهمية التشغيلية لبيئة العمليات تختلف بالمهمة والتنظيم ونوع الوحدات العسكرية المشاركة والتقنيات والظروف الراهنة. بعبارة أخرى، يبقى الموقع ثابتاً ولكن الوضع يتغير مع مرور الزمن. ومن ثم، فإن تقييم الجغرافي العسكري للمكان ينبغي أيضاً أن يتغير.

الشكل (3-3)

نطاق المكان أو البيئة العملياتية يرتبط بمستوى الحرب قيد البحث



ومن ثم، فإن بيئة العمليات العسكرية هي مجموع كل عوامل المشهد الطبيعي والثقافي الذي يشكل العمليات العسكرية، ويتحكم بها في أوقات السلم والحرب (Galgano 2005). وتتكون بيئة العمل العسكري من طقس المكان ومناخه وتضاريسه وطبوغرافيته وسكانه وشبكاته ونظمه ومشاهده الثقافية. وفي التحليل النهائي، فإن فحص المكان من وجهة نظر عسكرية، سينتهي عادة بتقييم ما يلي:

- التضاريس الرئيسية: المناطق الاستراتيجية والأهداف الحساسة المختارة.
- تركيبة السطح: ممرات الحركة والحفر والعوائق الطبيعية.
- المميزات الطبوغرافية الحساسة: التضاريس والخصائص الهيدرولوجية (المائية) وأشكال الأرض والحياة النباتية.
- شبكات وعقد المواصلات: نظم الشوارع والسكك الحديدية والموانئ والمطارات.
- الموارد ودعم الدولة المضيفة: المياه النظيفة والمرافق الطبية ومرافق المعيشة.
- المتطلبات اللوجستية: المعدات الطبية والمتخصصة.
- الرصد والتمويه: الأرض والهواء.
- المشاهد البشرية.

المناطق

المنطقة هي مفهوم معاصر يستخدمه الجغرافيون لتعريف ووصف مساحة من الأرض هي جزء من كلٍّ أكبر. ويمكن أن تتميز المناطق بخصائص طبيعية أو بشرية أو وظيفية (de Blij et al. 2007). وفي أسلوب لوصف مناطق مكانية منفصلة، فإن مفهوم المنطقة مهم ويستخدم بين كثير من الحقول الفرعية للجغرافية، وكل منها يصف المناطق بحسب فرعه من الجغرافيا. فعلى سبيل المثال، المنطقة الفيزيوغرافية [التي تميزها تضاريس محددة] هي مصطلح يستخدمه علماء الجيومورفولوجيا، وحوض تصريف المياه عبارة عن منطقة خاصة جداً يستخدمها علماء جغرافيا الأنهار، والمنطقة الحيوية هي مصطلح يستخدمه علماء الجغرافيا الحيوية (Getis et al. 2008).

وتلمح الخصائص المميزة للمناطق بشكل مباشر إلى عدد من الأفكار المهمة. وكل منطقة لها مكان مطلق فريد وتتميز بخصائص طبيعية وبشرية مميزة؛ ولذلك لا يمكن أن يتشابه مكانان. ولكن الخصائص الطبيعية والثقافية للأمكنة، في الواقع، تظهر نماذج مشابهة لمناطق أخرى (Getis et al. 2008). مثلاً، سيجد المختص بالجغرافيا العسكرية الذي يدرس بيئات العمل الصحراوية أشكالاً أرضية وتربة وأنواع طقس وربما تقنيات زراعية مماثلة في مناطق أخرى. وبالتالي، فإن الاتساق الجغرافي موجود، ولذلك يستطيع عالم الجغرافيا أن يعرف ويحدد ذلك الاتساق الداخلي والاختلاف الخارجي عن المناطق المجاورة. ولكن الجغرافيين يركزون على أوجه التشابه التقليدية المهمة لإقامة الحدود الإقليمية (de Blij et al. 2007).

وفي العادة، يركز الجغرافيون العسكريون على دراسة المناطق الرسمية والوظيفية. والمنطقة الرسمية هي بيئة عملياتية تظهر تجانساً في ما يتعلق بسمة طبيعية أو ثقافية مميزة (de Blij et al. 2007). وهي منطقة كبيرة بحيث يجوز فيها التعميم في ما يتعلق بسمة معينة. على سبيل المثال، تشكل منطقة سهوب شبه استوائية منطقة مناخ رسمية فريدة مع درجة حرارة وأنماط هطْل مطري وغطاء نباتي وتربة وتضاريس مميزة، وربما مشاهد ثقافية

مميزة. وبالتالي، المنطقة الرسمية تقوم على مميزات (مثلاً أشكال أرضية أو غطاء نباتي أو صناعة أو تربة أو زراعة أو ديانة أو لغة) ملموسة، وأحياناً مميزات يتم الحصول عليها بصورة إحصائية، مثل دخل الفرد أو معدل الولادات أو المؤشرات البشرية.

وعلى نقيض المنطقة الرسمية، فالمنطقة الوظيفية هي نظام مكاني ذو مكونات مترابطة، ونطاقها الجغرافي المحدد هو وظيفة لديناميات النظام قيد الدراسة. المنطقة الوظيفية لها وحدة بطريقة ارتباطها العملياتي، وليس بمعنى المحتوى الثابت؛ فالخصائص المحددة للمناطق الوظيفية هي التفاعل والارتباط. وقد يعرف المختص بالجغرافيا العسكرية منطقة وظيفية ما بناءً على الأحلاف العسكرية أو المنظمات التجارية أو الخلايا الإرهابية أو المناطق المرتبطة بدينامية عرقية مشتركة.

التحليل الإقليمي العسكري: المصفوفة البيئية

لقد أثبتت الأحداث التاريخية والمعاصرة أن هناك صلة واضحة بين العمليات العسكرية والجغرافيا. وكان للعوامل الجغرافية تأثير قهري في المعارك عبر التاريخ. وفي الآونة الأخيرة، كان للجغرافيا تأثير واسع الانتشار على العمليات العسكرية في زمن السلم والعمليات غير الحربية على حد سواء (Palka 2003). وبالمثل، يجب أخذ المفاهيم الجغرافية المهمة للمكان والزمان والمجال والنطاق والمسافة بالاعتبار عند تخطيط أي عملية عسكرية وتنفيذها. وبناء عليه، فإن المختص بالجغرافيا العسكرية ملزم بسلوك نهج متكامل في دراسة بيئة عملياتية، والتأكد من كيفية تأثير الجغرافيا بشكل محتمل في عملية ما. وحتى على النطاق التكتيكي الأصغر، فإن البيئات العملياتية معقدة. ولذلك، فإن أفضل التحليلات تستفيد من منهجية متكاملة توفر إطار عمل شاملاً يمكن من خلاله إجراء تحليل مستنير.

ولتطوير استراتيجية عسكرية، يجب اختيار أهداف وطريقة وتسلسل العمل وحركة القوة العسكرية للمنطقة المستهدفة. وفي سيناريو الحرب، يكون الهدف الأساسي لاستراتيجية ما هو إضعاف أو تدمير قدرة العدو على المقاومة، وقد جرى اتباع

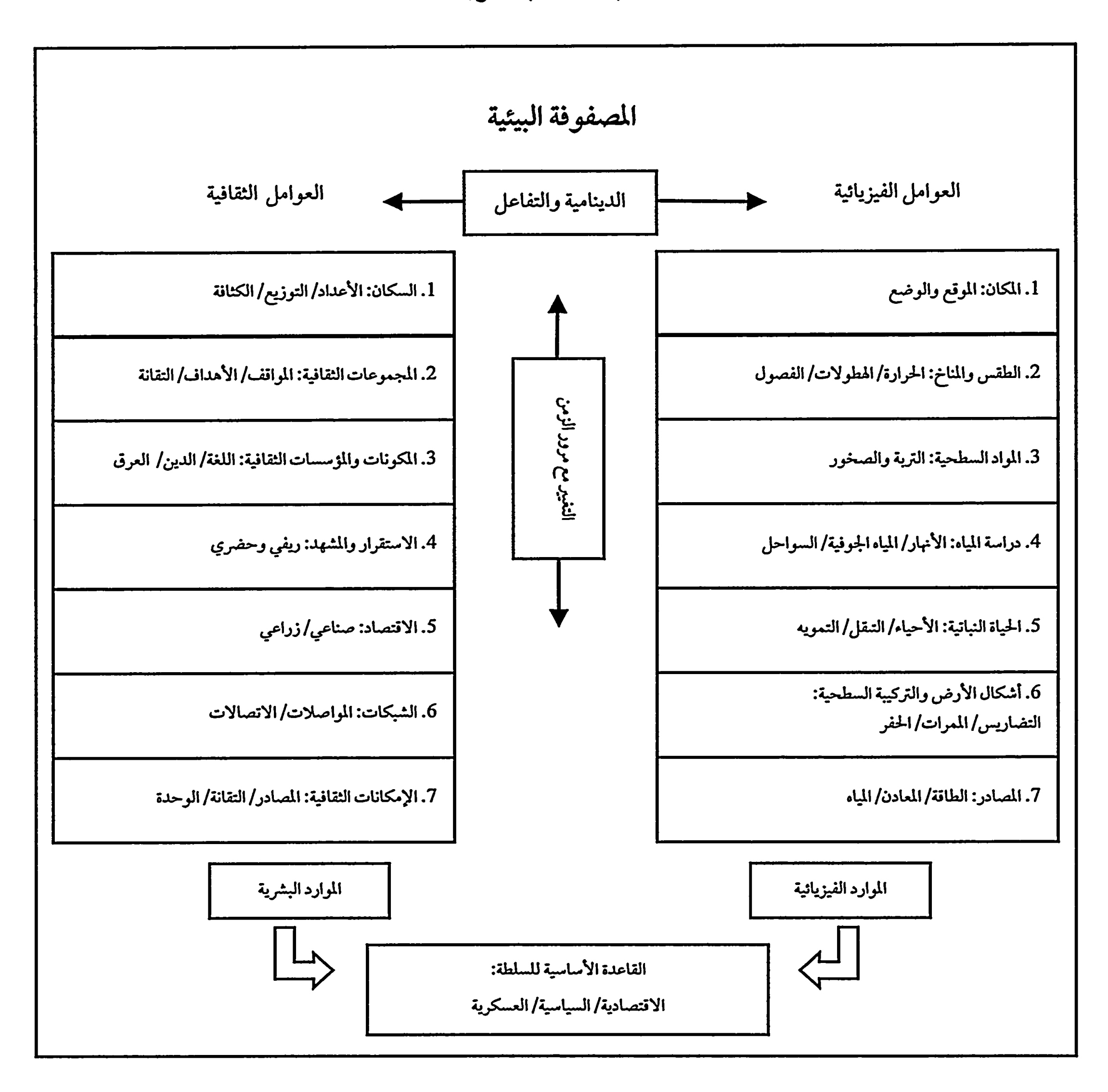
استراتيجيات مختلفة. والاستراتيجية الأساسية هي استخدام القوة العسكرية لإبادة العدو أو إجباره على الاستسلام. وهناك شكل مختلف للاستراتيجية لكنه أكثر محدودية، حيث يعتقد أن الإبادة مستحيلة أو بعيدة المنال لأن القوة العسكرية غير كافية. وتلجأ قوات المتمردين إلى هذا النوع من الاستراتيجية لتحقيق أهداف سياسية-عسكرية (Galgano 2005). وقلما يسعى المتمردون إلى خوض معركة حاسمة؛ وبدلاً من ذلك، يستخدمون القوة العسكرية في أوقات وأمكنة مختارة بهدف إنهاك خصمهم. واليوم وفي سياق العمليات غير الحربية، قد تواجه قائداً ميدانياً مجموعةٌ من المتغيرات الصعبة والمربكة في بيئة عملياتية بالغة التعقيد. وفي تلك الحالة، لن يقوم القائد بالإعداد لمعركة، ولكن ربما يخطط لعملية إغاثة من الكوارث أو عملية حفظ سلام متعددة الأوجه (Palka 2003).

من الواضح أن الأهداف السياسية والوسائل الاقتصادية والسبل المتاحة تؤثر في الاستراتيجية. ففي حالة ما، قد يكون تدمير العدو هو الهدف، ولكن في حالة أخرى قد يكون الاستحواذ على الأرض من أجل خنق العدو بقطع الإمدادات الضرورية عنه ملائماً أكثر. ومع ذلك، وبغض النظر عن الاستراتيجية، يعتمد نجاح أي عملية عسكرية، في أوقات السلم والحرب، على خطة سليمة تأخذ في الاعتبار تحليلاً مقنعاً لبيئة العمل العسكري.

والطريقة التي يمكننا بها دراسة الأهمية الجغرافية للبيئة العسكرية هي المصفوفة البيئية، التي تعرف بأنها مجمل كل العوامل التي تعمل في مكان، والتي يمكن أن تؤثر في التنفيذ الناجح لأي عملية (Garver 1975; Galgano 2005). وتشمل المصفوفة البيئية مكونات المشهدين الطبيعي والثقافي، وتفترض أن بيئة العمليات العسكرية هي ظهور التأثيرات المشتركة للمشهدين وللعمليات الطبيعية والبشرية (Peltier and Pearcy 1966). إلا أن المصفوفة هي مجرد طريقة للتحليل وليست أداةً تنبُّئية، ولذلك يجب توخي الحرص لإعادة تقييم العناصر المهمة من المصفوفة باستمرار لأنها يمكن أن تختلف إلى حد كبير في فترات زمنية مختلفة ومناطق مختلفة ومجموعات ثقافية مختلفة. ويبين الشكل (3-4) عناصر المصفوفة البيئية.

الشكل (3-4)

تعرف المصفوفة البيئية بأنها مجمل كل العوامل التي تعمل في مكان، والتي يمكن أن تؤثر في التنفيذ الناجح لأي عملية. وتشمل المصفوفة البيئية مكونات المشهدين الطبيعي والثقافي، وتفترض أن بيئة العمليات العسكرية هي ظهور التأثيرات المشتركة للمشهدين وللعمليات الطبيعة والبشـرية



تحدد العناصـر الطبيعية للمصفوفة الملامح الأساسية للمشهد الطبيعي الذي يشـكل في الأساس القالب الـذي يجـب أن تعمـل عليـه أي قـوة عسـكرية. بالإضـافة إلى الموقـع

والمكان، تشمل هذه العناصر سمات الطقس والمناخ والمياه والطبوغرافيا والتضاريس والتربة والحياة النباتية والحيوانية والموارد (انظر الشكل 3-4). ونظراً للتركيبات التي لا تعد ولا تحصى للعناصر الطبيعية للمصفوفة فإنها هي الإطار الطبيعي لبيئة العمليات العسكرية. ويتيح تحليلها الدقيق بوصفها عوامل منفصلة أو متكاملة، التبصر بالإمكانات والقيود المرتبطة بشنّ أي شكل من أشكال العمليات العسكرية في مكان معين (Galgano 2005). وبالتالي، يجب أن تكون مفهومة بحد ذاتها، والأهم من ذلك، يجب أن يتم فهمها وتقديرها عند حدوثها في مجموعات طبيعية، لأن هذه هي طريقة تشكلها وفق نطاقات مختلفة وفي بيئات عمل متنوعة (Garver 1975; Jackman 1962). وتشمل العناصر الطبيعية للمصفوفة ما يلي:

المكان

بالإشارة إلى المساحة، ربما يكون المكان هو الجانب الوحيد الأهم في التشكيلة الطبيعية للبيئة، لأنه يحدد أنماط الطقس والمناخ والأحياء وأشكال الأرض والنظُم الثقافية.

أشكال الأرض والتركيبة السطحية

من وجهة نظر عسكرية، يوفر تحليل أشكال الأرض وتركيبة السطح رؤية مهمة في خصائص مثل ممرات الحركة والحفر والعوائق وموقع الموارد الحساسة.

دراسة المياه

أهم السمات من حيث العمليات العسكرية هي نظُم تصريف المياه على سطح الأرض كالأنهار والبحيرات والبرك والمستنقعات والسبخات والأنهار الجليدية والمناطق المغطاة بالثلج والمياه الساحلية. وفي معظم الحالات، تعتبر هذه العناصر معوقات للعمليات العسكرية؛ ولكن الأنهار والعمليات البرمائية يمكنها أن تتيح قوة ذات قدرة غير مسبوقة على الحركة.

الطقس والمناخ

ربما يكون الطقس والمناخ العاملينِ الأوسع انتشاراً، واللذين يؤثران في العمليات العسكرية يومياً. والطقس هو حالة الجو على المدى القصير. ومعظم الأمكنة لها أنماط طقس متكررة ومتوقعة نسبياً. والمناخ هو منشأ الطقس على المدى الطويل في مكان معين، ويصنف من حيث المعدلات الحرارية وبيانات الهطولات المطرية على المدى الطويل.

المواد السطحية

هناك كثير من أنواع المواد السطحية (مثل التربة أو الصخور أو الجليد أو الرمل) بعضها عالي الإنتاجية والآخر عديم القيمة أساساً؛ ولكن بغض النظر عن قيمتها النسبية، فإن التربة بجميع أنواعها تقدم مساهمة مهمة للبيئة العسكرية من حيث القدرة على الحركة والرؤية والصحة.

الحياة النباتية

قلما تنمو النباتات وحدها، ولكنها تنمو في مجموعات أو جماعات تسمى المجموعات الأحيائية. إن نوع الحياة النباتية وإنتاجية المجموعات الأحيائية تدل على الأحوال المناخية. والحياة النباتية لها تأثير كبير في جميع أنواع النشاطات العسكرية، وتجب دراستها جيداً عند تخطيط العمليات، لتشمل التأثير المحتمل للحياة النباتية في الحركة والتخفي والتغطية والمراقبة وعمليات الإنزال الجوي وتوافر الوقود والمأوى والغذاء ومواد البناء.

مصادر المعادن

تقدم الأرض للإنسان كثيراً من المنتجات التي يمكن استخدامها بشكل مباشر أو معالجتها لتحويلها إلى غذاء مفيد. ومصادر المعادن مهمة ليس فقط من حيث هي متطلبات أساسية للمجتمع الصناعي الحديث، ولكن أيضاً لأنها قد تبرز بوضوح في النزاعات الإقليمية.

والعناصر الطبيعية للمصفوفة البيئية تستكملها عناصر ثقافية أو بشرية مهمة يجب أخذها في الاعتبار قبل دراسة أي عملية عسكرية. وباختصار، تشمل الجوانب الثقافية للمصفوفة ما يلي: السكان والتوزيع والنظم الثقافية والمميزات والمؤسسات (مثل اللغة والدين والوحدات السياسية) وأنماط الاستيطان والنشاطات الاقتصادية وشبكات النقل والاتصالات والإمكانيات الثقافية/ التقنية للمجتمع. والعناصر المادية والثقافية للمصفوفة مترابطة ترابطاً وثيقاً في جميع أنحاء البيئة التشغيلية، إلا أن مجموعاتها والعلاقات فيما بينها ليست ثابتة بأي حال، وتختلف مساهمة كل عنصر من العناصر بالنسبة إلى مجمل العناصر من مكان إلى آخر. وعلاوة على ذلك، فإن العناصر ذاتها تتغير عبر الزمن؛ فالتوليفات المختلفة من العناصر الطبيعية الحالية تتيح إمكانيات مختلفة للتنمية البشرية. ولأن أعداد البشر مختلفة من مكان إلى آخر، وأن سبل تسيير الأمور تختلف من جماعة إلى أخرى، فإن البيئات الثقافية تختلف بقدر اختلاف البيئات الطبيعية.

السكان

من الناحية الجغرافية، يرتبط المتغير البشري الأساسي بالسكان والعوامل الديمغرافية: الأعداد والتوزيع والأنماط والحركة والكثافة.

المجموعات الثقافية

إن الطريقة التي يحيا بها البشر ويكسبون عيشهم في منطقة ما ليست ذاتها بالنسبة إلى جميع الناس؛ إذ يمكن لمجموعتين مختلفتين أن يكون لهما مشهدان ثقافيان متباينان تماماً، حتى ولو كانتا بالضرورة موجودتين في البيئة الطبيعية ذاتها. والفروق موجودة إلى حد كبير؛ لأن تقاليد أو أساليب السلوك المكتسبة في جماعة ما تختلف عن التقاليد أو الأساليب الخاصة بجماعة أخرى. وكذلك أيضاً تختلف المظاهر المادية (المنازل والطرقات والحقول والمعدات وأنماط الاستيطان) الخاصة بجماعة ما عن تلك الخاصة بجماعة أخرى. ويطلق على مجموعة التقاليد الخاصة بأي جماعة مميزة من الناس والمظاهر المادية الخاصة بها، اسم "الثقافة".

المؤسسات الثقافية

في العالم المعاصر كثير من المؤسسات الثقافية التي تترك أثرها على المشهد. وهناك مؤسسات أخرى غير معروفة كثيراً، ومع ذلك فإن لها تأثيرات عميقة في تشكيل الفروق والاختلافات بين المجموعات الثقافية. وأي فهم تام للبيئة الثقافية يجب أن يشمل هذه المؤسسات الثقافية.

نماذج الاستيطان واستخدام الأرض

لعل المؤشرات الأكثر شيوعاً على الوجود والنشاط البشري في منطقة ما هي مساكنهم وأبنيتهم الأخرى التي تدل على كيفية استخدامهم للأرض. وبشكل مستقل، يقدم المنزل أدلة على أسلوب حياة مجموعة ما في منطقة ما ويدل على الأشكال الأخرى المبتكرة. وتختلف أنماط ترتيبات المساكن بين الثقافات، ويمكن أن تخبرنا كثيراً عن الناس.

الاقتصادات

تتكيف المستوطنة وأساليب استخدام الأرض مع المحيط الطبيعي، ولكنها تعكس أيضاً النشاطات الرئيسية التي من خلالها تكسب المجموعات البشرية عيشها. وتدل التجمعات الأكثر تركيزاً وتعقيداً على اقتصاد التصنيع والتجارة حيث يكون معظم الأفراد لا يبدون اهتمامهم بصورة مباشرة بتأمين لقمة عيشهم من خلال الزراعة، بل من خلال تحويل المواد الخام إلى منتجات مصنعة.

شبكات المواصلات والاتصالات

تعمل شبكات المواصلات والاتصالات على ربط كل المواطن البشرية معاً من خلال الشوارع والطرقات السريعة والسكك الحديدية وخطوط الكهرباء والأنابيب والمطارات والموانئ والوسائل الإلكترونية/ الرقمية.

الإمكانيات الثقافية

كما لوحظ، فإن التنمية من جانب الجماعات الثقافية المختلفة، ولاسيما في مجال الزراعة والصناعة، تختلف اختلافاً كبيراً بين الدول والمناطق.

باختصار، فإن إدماج العناصر المادية والبشرية المتفاعلة للمصفوفة وتحليلها تحدد القيود والفرص ضمن بيئة عمل معينة. فكل مكان هو مكان فريد بحد ذاته، ويتأثر بشكل مختلف بأوجه المصفوفة؛ ومن ثم، فإن التحليلات المميزة والمضبوطة مطلوبة لكل عملية، والتي هي مستقلة من حيث النطاق والزمان (Galgano 2005). كما أن تقسيم العالم إلى مناطق فريدة من نوعها هو نتيجة لعدد وافر من العمليات التي من خلالها تحدد الطبيعة ويحدد البشر محتوى المجال؛ وبالتالي، فإن تحليلاتنا يجب أن تكون دقيقة؛ كما أن التعميمات الواسعة النطاق الخاصة بقطاع واحد من منطقة معينة قد لا تنطبق على قطاع آخر (Garver 1975). وبناء عليه، فإن المصفوفة البيئية هي نتاج تعديلات متتالية تتم عبر عمليات طبيعية وثقافية جرت من غير توقف في الماضي وسوف تستمر في المستقبل. تعيش كل منطقة حالة تغير مستمر، وينبغي للخطط العسكرية أن تأخذ هذا التغير المستمر في الاعتبار. ومن ثم، فإن تحليل بيئة عمل عسكري معينة هي أيضاً عملية مستمرة وتشكل عنصراً مهماً في دراسة الجغرافيا العسكرية.

الفصل الرابع

الأمن البيئي:
قوة متنامية في الاستقرار الإقليمي

كنت هوجز باتس

مقدمة

يتعين أن تتجاوز نقاشات علماء الجغرافيا الحديثة "حواجز الشجيرات في نورماندي" أو "الوحل الذي يشل حركة الإمدادات" في منطقة جنوب المحيط الهادي. لقد تغير الوسط الأمني ودور الجيش إلى حد كبير، حيث يتطلب مقاربة أوسع تجاه الأمن وفهماً أفضل لأسباب الصراع. كما أن العولمة اختصرت المسافات وأوجدت توقعات بالنمو الاقتصادي والرفاهية لمضاهاة أنماط الحياة الغربية. وبذلك، فإن العولمة تزيد اتساع الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون؛ مما يعرّض كثيراً من الدول النامية لخطر الفشل، ويخلق مجالات غير مسيطر عليها تكون ملائمة لأيديولوجية التطرف، ويمكن استغلالها من قبل منظمات الجريمة الدولية. ومع ارتفاع عدد سكان العالم إلى ما يقدر بنحو 9.2 مليارات نسمة في عام 2050، فإنه سيتخطى قاعدة الموارد الطبيعية لكثير من الدول، ويضعف الشرعية الحكومية، ويزعزع استقرار المناطق، ويعزز الصراعات داخل الدولة الواحدة على الموارد التي تتزايد ندرتها (Hardee and Jiang 2009).

تشكل القضايا البيئية حالياً عاملاً رئيسياً في الاستقرار الإقليمي وأمن البلاد، حيث تؤثر في جانبي العرض والطلب لهذه المشكلات. وعلى الرغم من مرحلتي المواجهة العسكرية التقليدية في حربي الخليج، فإن القضية الأساسية التي تواجه المؤسسة العسكرية منذ نهاية الحرب الباردة هي الصراع المتأصل في قضايا الأمن البيئي. ويستكشف هذا

الفصل علاقة القضايا البيئية بالأمن القومي، ويوضح الإطار التعريفي الذي يدعم استخدام الأمن البيئي من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، ويناقش الاتجاهات التي ستجعل الأمن البيئي مسألة رئيسية لأهداف السياسة الخارجية الأمريكية وتعطيه دوراً عسكرياً مهماً في المستقبل القريب.

ونظراً لطبيعة الأمن البيئي المتعددة التخصصات وتنوع الخلفيات والدوافع التي يطرحها محللو الأمن، سيكون هناك خلاف دائم حول ما يشكل هذا الأمن. على سبيل المثال، تمتلئ الأدبيات بأنماط الصراع البيئي، وبمفاهيم تقوم على متغيرات مثل التغير المناخي والتنمية والهجرة وندرة الموارد. وهذا أمر جيد لأنه يشجع الاختصاصات المتعددة لدراسة أبعاد الصراع البيئي، من خلال استخدام مجموعة أساليبها ومهاراتها الخاصة بهدف إثراء الجدل وتوفير حلول أكثر لصانعي السياسات. ولحسن الحظ فهذا ممكن لأن الدراسات الأمنية تقدمت بشكل حاسم لتشمل طيفاً من المفاهيم التفسيرية في هذا الحقل المهم من الدراسة، ومنها الأمن البيئي.

ففي مقالة بعنوان «نهضة الدراسات الأمنية»، يوضح الدكتور ستيفن أولويك ما اعتبره حقل الدراسات الأمنية في الأوساط الأكاديمية، ويعتبره موضوعاً وثيق الصلة. وقال إن «الدراسات الأمنية تفترض أن الصراع بين الدول هو دائماً احتمال قائم، وأن استخدام القوة العسكرية له آثار بعيدة المدى على الدول في المجتمع». ولذلك، ذهب للقول إن الدراسات والبحوث الأمنية المشروعة قد تكشف «الظروف التي تجعل استخدام القوة أكثر احتمالاً، والطرق التي يؤثر بها استخدام القوة على الأفراد والدول والمجتمعات، والسياسات المحددة التي تتبناها الدول بهدف الاستعداد للحرب أو منعها أو خوضها» (Walt 1991: 214). ويتزايد الاعتراف بالقضايا البيئية على أنها الظروف التي تجعل استخدام القوة أكثر ترجيحاً، ومن ثم، فإنها تؤثر في الأمن.

وبعد الحرب الباردة، قام حلف شمال الأطلسي "الناتو" بتعديل مفهومه الاستراتيجي ليعكس الجو الأمني الجديد، بالإضافة إلى الأمور الدفاعية التقليدية،

والتهديدات المستقبلية لأمن دول التحالف التي تنشأ من انعدام الاستقرار الذي تسببه القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئية التي لم تتم معالجتها (NATO 1991). كما أوضح مدير الاستخبارات الوطنية، الأدميرال دينيس بلير، في شهادته أمام الكونجرس حول التهديدات الأمنية التي تواجه الولايات المتحدة:

> غالباً ما تتشابك قضايا التغير المناخي والطاقة والصحة العالمية والأمن البيئي، ومع أنه لا ينظر إليها عادةً على أنها تهديدات للأمن القومي للولايات المتحدة، فإنها ستؤثر في الأمريكيين بشكل كبير. ويمكن لهذه الأعراض المتزامنة المعقدة وغير المسبوقة من المشكلات أن تسبب فشلاً تاماً للدولة، أو تضعف الدول المحورية التي يُعتمد عليها باعتبارها أركان الاستقرار الإقليمي (Blair 2009: 41).

والتهديد الرئيسي للأمن القومي في الولايات المتحدة اليوم هو انعدام الاستقرار الإقليمي، وتعتبر قضايا الأمن البيئي من العناصر الرئيسية لهذه المشكلة.

مع أن الأكاديميين وبعض المجموعات البيئية قد لا توافق على تعريف الأمن البيئي، فمن المهم أن نفهم أنه يوجد تعريف مقبول للأمن البيئي في مجتمع الوكالات بالولايات المتحدة، والذي يقود نهجاً مشتركاً للحكومة الأمريكية في مجال الأمن البيئي والسياسات المتعلقة بذلك التعريف. وقد تم التوصل إلى هذا التعريف من خلال بحوث ونتائج أعمال تاد هومر ديكسون، كما يعكس معظم المساهمات النظرية التي قدمها كل من ألكسندر كاريوس وكيرستين إيمبوش في الأبعاد الأربعة التي حددوها لرابطة الأمن البيئي (Carius and Leitzmann 1999). والأمن البيئي هو عملية تساهم فيها حلول المشكلات البيئية في تحقيق أهداف الأمن القومي (USEPA 1999). وعندما تؤثر العوامل البيئية في قضايا الأمن البيئي، كما تعرفه استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة، فإنها تصبح من قضايا الأمن البيئي وموضوعات مشروعة لتتناولها القطاعات الدبلوماسية وقطاعات التنمية والدفاع التابعة للحكومة.

في عام 1986، عَدّل قانون "جولدووتر- نيكولاس" لإعادة تنظيم وزارة الدفاع قانون الأمن القومي لعام 1947 وألزم الرئيس بإصدار استراتيجية أمن قومي توجه السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وعندما وقّع الرئيس رونالد ريغان استراتيجية الأمن القومي لعام 1988، كانت تلك الاستراتيجية تتناول التهديدات التي تواجهها المصالح الأمريكية من الترسانة النووية للاتحاد السوفيتي، و«الاستنزاف أو التلوث الخطير للثروات الطبيعية التي تشمل تربة البلاد وغاباتها ومياهها وهواءها» والتي «تشكل تهديدات محتملة للسلام والازدهار اللذين هما من مصالحنا الوطنية ومن مصالح الدول المتأثرة» (The White House 1988: 6). كما سارت استراتيجيات الأمن القومي الأخرى على النهج نفسه لتقول إن القضايا البيئية تسبب الصراع أو تشعله أو تصعده (The White House 1991, 1997). ولذلك، فإن الصراع للحصول على الموارد الطبيعية أو التحكم بها، والذي يهدد الاستقرار الإقليمي، قد يهدد مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة. ولذلك أيضاً، فإن التعاون بين الدول الإقليمية لمنع الجريمة البيئية العابرة للحدود الوطنية مثل الصيد الجائر للأسماك بوساطة سفن الصيد الأجنبية أو قطع الأشجار بصورة غير قانونية، والذي يعزز بناء الثقة والتواصل، قد يعزز مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة.

تؤثر قضايا الأمن البيئي عادةً في مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة عندما: تعمل على تهديد هذه المصالح، أو تعمل بوصفها إجراءات لبناء الثقة، أو تهدد الأمن البشري لسكان الدولة. ومن ثم، فإن دور وزارة الدفاع يتمثل في «منع أو تخفيف آثار الأعمال البيئية الضارة المؤدية إلى انعدام الاستقرار الدولي» (Goodman 1993: 2). وتشدد وزارة الخارجية على أبعاد الصراع في المنافسة على الموارد البيئية والطبيعية: «يدل الأمن البيئي على مجموعة من القضايا الأمنية الناتجة أو المتفاقمة بفعل عوامل ديمغرافية وبيئية، كنمو عدد السكان والتنافس على الموارد (وتحديداً الغذاء والوقود والماء)، والتمدن والهجرة ومسائل الصحة، وفي بعض الحالات، التغير المناخي» (Harnish 2009: 1).

في وكالة حماية البيئة الأمريكية، هناك تشديد على الأمن البيئي من حيث هو إجراء يهدف إلى بناء الثقة: «إنها تشمل الفكرة القائلة إن التعاون بين الدول والمناطق لحل المشكلات البيئية يمكن أن يساعد على تعزيز أهداف الاستقرار السياسي والتنمية الاقتصادية والسلام» (USEPA 1999: 1).

في عام 1991، شاركت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي برعاية مؤتمر مدريد الذي استضافته إسبانيا، والذي كان الغرض منه تحقيق السلام بين إسرائيل وبعض الدول العربية والفلسطينيين. وقد دعت منهجية عملية السلام إلى إقامة مسارات متعددة الأطراف يشارك فيها الإسرائيليون والفلسطينيون. وكانت الموضوعات المختارة لتلك المسارات تشمل المياه والبيئة واللاجئين والتنمية الاقتصادية والحد من الأسلحة (Israeli Ministry of Foreign Affairs 1991). وهكذا أدت البيئة دوراً رئيسياً في ثلاث من أصل أربع قضايا، ولاتزال الاتفاقيات التي تم التوصل إليها من خلال هذه العملية تحكم مشاركة موارد المياه بين إسرائيل وجيرانها. وعند فحص مدى أهمية الظواهر البيئية في سياقها المكاني، من المهم أن نأخذ في الاعتبار ليس فقط التأثيرات السلبية لتهديدات الاستقرار الناجمة عن الصراع على الموارد، بل أيضاً الآثار الإيجابية المحتملة كإجراءات بناء الثقة.

عمل نظام وستفاليا للدولة-الأمة، ولمدة طويلة، مرشداً لممارسي السياسة الخارجية. ومع أنه احتفظ بأهميته وأولويته في أوساط واضعي الاستراتيجيات الأمنية، فإن صعود مفهوم الأمن البشري عزّز الوعي بأثر القضايا البيئية على شرعية الدولة. وكان **تقرير التنمية البشرية** لعام 1994 الذي وضعه برنامج الأمم المتحدة الإنمائي نقطة تحول في تعزيز أهمية الظروف البشرية بالنسبة للدراسات الأمنية (United Nations Development Programme 1994). فالأمن البشري، وليس قوة الدولة وحدها، يؤدي دوراً متزايداً في تحديد استقرار المناطق.

وعندما تواجه المصالح الأمنية القومية للولايات المتحدة تهديد انعدام الاستقرار الإقليمي، فإن انعدام الاستقرار هذا ينتج وبشكل متزايد ليس من تدخل قوة عظمى، بل

من عجز الدول عن تلبية مطالب مقدمة للنظام السياسي من سكان ينشدون التحرر من الفاقة، والتحرر من الخوف. وهذه المطالب المنهجية تشمل وبشكل متزايد: الجفاف، وانعدام الأمن الغذائي، والأوبئة، والصراع على الموارد. والحكومات التي تفتقر إلى الشرعية تكون ضعيفة أمام الأيديولوجية المتطرفة، ومن المرجح جداً فشلها أو وقوعها في صراع داخلي على الموارد الشحيحة. وتؤثر القضايا البيئية مباشرةً في قدرة الحكومات على تلبية احتجاجات شعوبها، ومن ثم فإنها عنصر من عناصر الأمن البشري، ومتغير أساسي في شرعية الدولة.

أثبتت التجربة الأمريكية في أفغانستان والعراق حدود القوة العسكرية والانتصار الباهظ الثمن لتغيير النظام من دون إنشاء حكومة قادرة على تلبية حاجات الأمن البشري لشعبها، مما يثبت العلاقة بين مفهومي الدولة والأمن البشري. وتعتبر قضايا الأمن البيئي حالياً عنصراً جوهرياً من التنمية والاستقرار المستدامين بعد الصراع، إلى درجة أن وزارة الدفاع أصدرت **الأمر التوجيهي 3000.05: الدعم العسكري لعمليات الاستقرار والتحول وإعادة الهيكلة** (Department of Defense 2006)، الذي ينص على أن الهدف المباشر لعمليات الاستقرار «توفير الأمن للسكان المحليين واستعادة الخدمات الأساسية وتلبية الحاجات الإنسانية». وينص أيضاً بشكل ملحوظ على أن «عمليات الاستقرار هي أساس المهمة العسكرية للولايات المتحدة... ويجب أن تعطى الأولوية على العمليات القتالية» (DoD 2006: 2). وبالمثل، أنشأت وزارة الخارجية "مكتب منسق إعادة الإعمار وتحقيق الاستقرار" (Department of State 1997). ويسعى هذا المكتب الذي يعمل ما بين الوكالات إلى بناء القدرة الحكومية من أجل تحقيق الاستقرار في بيئة ما بعد الصراع أو لمنع الصراع، ومن ثم، تركز على قدرة الحكومة على النجاح في معالجة مسألة الأمن البشري (Bankus 2009). ويمكن الاطلاع على أحدث الأفكار حول المزج بين النموذج التقليدي للدولة المركزية، ونموذج الأمن الصارم أو الخشن مع تركيز يعتمد على الأمن البشري ويركز على القوة الناعمة والشرعية الحكومية، في **تقرير لجنة القوة الذكية** الصادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (CSIS 2007).

وكما يظهر في حالة رواندا، يوجد في كثير من الدول النامية مجموعات وطنية متعددة داخل حدودها السياسية مع إمكانية اندلاع صراع عرقي أو تفجره لفترة طويلة. وعندما تتألف الحكومة من مجموعة معينة بصورة غير متكافئة، فإن المجموعات الأخرى تفترض غالباً أن موارد البلاد لا تُوزع بالتساوي. فإذا عانى البلد جراء صعوبات اقتصادية، من المحتمل أن تُتهم الحكومة بالإجحاف في خفض المزايا التي تتمتع بها مناطق البلاد التي تسكنها مجموعات عرقية أخرى، مع احتمال تقويض الاستقرار السياسي. وباعتبار أن العالم المتقدم يمكنه تقديم مساعدات التنمية المستدامة، وبناء قدرات الدولة المستضيفة على إدارة الموارد الطبيعية والبيئة بصورة ناجحة، فإنه يخلق أجواء إيجابية يمكن فيها لهذه المجموعات أن تسعى للحصول على هوية وطنية وشعور بالانتماء وبناء الشرعية الحكومية.

التهديدات البيئية للأمن

تواجه الولايات المتحدة مجموعة من التحديات البيئية التي من شأنها أن تؤثر مباشرة في الاستقرار الإقليمي ومصالح الأمن القومي للولايات المتحدة في المستقبل المنظور. وتشمل هذه التحديات مكافحة الإرهاب والتغير المناخي والأمن الغذائي وندرة مياه الشرب. وهذه لا يستبعد بعضها بعضاً، بل غالباً ما يؤثر بعضها في بعض؛ وهي نفسها تتأثر بتوجهات مثل العولمة والنمو السكاني والتمدن والأمراض.

مكافحة الإرهاب

كانت الحرب العالمية على الإرهاب سبب وجود إدارة جورج بوش الابن، ولطالما تم اعتبارها قضية الأمن القومي الرئيسية للولايات المتحدة، عدا كونها الأساس المنطقي لكثير من قرارات السياسة الخارجية. فالاستراتيجية الأمريكية لمكافحة الإرهاب، التي وضعها مجلس الأمن القومي، كان لها أربعة أهداف منها التقليل من الظروف الأساسية التي يسعى الإرهابيون لاستغلالها (National Security Council 2003). وقد تم

توسيع هذا الهدف لاحقاً ليشمل مفهوم مكافحة الدعم الأيديولوجي للإرهاب. وفي كثير من الدول النامية، كان السبب الأساسي الكامن وراء الإرهاب هو الفقر الناتج غالباً من التدهور البيئي والاستغلال غير المستدام للموارد الطبيعية. وتقدم رئيسة جمهورية الفلبين [السابقة] غلوريا أرويو، الأسباب المقنعة لاتباع نهج متوازن حيال الإرهاب والذي يؤكد الحاجة لمعالجة الظروف الكامنة التي تغذي الإرهاب: «علينا مكافحة الفقر في الأمكنة التي يمكنهم فيها تجنيد مؤيديهم» (Green 2005: 27). وهذه الظاهرة لا تقتصر على جنوب شرقي آسيا. ففي شمال القوقاز، حيث نسبة البطالة في بعض الجمهوريات تصل إلى 80٪، والناتج المحلي الإجمالي لكل نسمة يساوي نصف ما هو عليه في روسيا، بالإضافة إلى الفقر والقضايا الاجتماعية الاقتصادية الأخرى، هي التي تدفع بالجماهير إلى الانضمام إلى المنظمات المتمردة التي ترتبط بجماعات إرهابية إسلاموية دولية. وبحسب أليكسي مالاشينكو من مركز كارنيجي بموسكو فإن «الإسلام الأصولي هو شكل من أشكال الاحتجاج الاجتماعي» (Buckley 2005: 4).

تتحدى المشكلات البيئية الحكومات، وتجعل من الصعب عليها تلبية المطالب الأمنية البشرية الملقاة على عاتق النظام السياسي. وتسعى جماعات لاستغلال ذلك لمصلحتها. فحماس وحزب الله اكتسبا قوتهما على الحدود الإسرائيلية من خلال توفير الخدمات الأساسية للناس «بتقديم ما لا تقدمه الحكومات، اكتسب هؤلاء المتمردون شرعيتهم، فقد جعلوا هؤلاء الناس يتكيفون نفسياً، وأوجدوا منطقة يمكنهم العمل بأمان انطلاقاً منها» (Gregson 2005: 2). وبناء عليه، فإن التنمية المستدامة هي مفتاح الشرعية الحكومية في البلدان النامية. وعندما تصيب مشكلات كنقص المياه العذبة وانتشار الأمراض والكوارث الطبيعية أو التي يتسبب بها الإنسان أو نقص الغذاء، مجموعة من السكان، فإن الشرعية الحكومية تصبح مهددة وتصبح الفرصة سانحة أمام الأيديولوجية المتطرفة. وتتزايد أهمية هذه القضايا في معظم العالم الإسلامي، امتداداً من شمال أفريقيا إلى جنوب شرقي آسيا. وضمن هذا الهلال الإسلامي تتوافر معظم احتياطيات النفط التقليدية في العالم، بالإضافة إلى وجود ثلاث دول نووية.

تغير المناخ

إن التغير البيئي العالمي يشكل تحدياً للمشهد السياسي العالمي، ليجعل قاعدة الموارد التي تعتمد عليها الحكومات المستقرة أكثر دينامية مما كانت عليه. ومع التغير المناخي، سوف تتغير الأولويات الأمنية لهذه الحكومات، وهذا يستلزم تشكيل تحالفات جديدة وبناء آليات المرونة والتكيف لاقتصاداتها، وتوسيع دور جيوشها. ولذلك، قد يتميز التغير المناخي بتأثيره في الأمن القومي للولايات المتحدة على ثلاثة مستويات. فعلى المستوى العالمي، يؤثر التغير المناخي في أنماط الرطوبة والاحتفاظ بالطاقة، وسيكون له تأثير مباشر في نظم الكرة الأرضية، ويقلل من الموارد التي يعتمد عليها الجنس البشري.

وعلى المستوى الجيوسياسي، فإن العواصف الشديدة والجفاف وزيادة الهجرة ستؤثر في الوطن الأمريكي. كما أن ارتفاع مستويات البحار وفقدان المساحات الصالحة للسكن يؤديان إلى خلق مجالات جيوسياسية جديدة مثيرة للقلق، وتعقّد عمل مصممي الخطط الدفاعية في إبراز القوة والتأثير في الأحداث الإقليمية والحفاظ على قواعد أمامية مثل دييغو غارسيا (Reynolds 2007). فالذوبان المفاجئ للجليد البحري في القطب الشمالي قد أشعل المنافسة الجيوسياسية على 25٪ من مصادر الطاقة العالمية التي يعتقد أنها كامنة تحت المنطقة القطبية، حيث أشعل المستكشف الروسي آرتور تشيلينغاروف فتيل التحدي بقوله: «لطالما كان القطب الشمالي روسيّاً» (Zellen 2007: 1).

أما على المستوى الإقليمي، فإن التغيرات في المناخ ستهدد بقاء الدول الهشة، وتخلق فرصاً أمام الأيديولوجية المتطرفة وحركات التمرد، كما تهدد بقطع الطريق نحو المصادر الاستراتيجية للوقود والمعادن، وتؤدي إلى انعدام الاستقرار الذي يهدد مصالح الأمن القومي الأمريكية (United Nations Environment Programme 2009). وقد أوضح وكيل وزارة الدفاع، مايكل فلورنوي، متحدثاً عن التغير المناخي العالمي في مراجعة الدفاع للسنوات الأربع الجديدة (Department of Defense 2006):

> أعتقد أنه مع مرور الوقت، وكما ستظهر نتائج هذا [التغير المناخي]، سيكون هذا [التغير] محفزاً. سيحفز فشل الدولة في بعض الحالات، ويحفز الهجرة الجماعية وانتشار الأمراض، وحتى إنه قد يحفز التمرد في بعض المناطق التي تفشل فيها الحكومات بمواجهة تأثيرات تغيرات المناخ العالمية (Flournoy 2009).

سيؤدي ارتفاع حرارة الكوكب إلى ارتفاع مستويات البحار، وستذوب الجبال الجليدية وتؤدي إلى إزالة نظام إدارة تدفق المياه الموسمية الذي كان يمنع حدوث الفيضانات، ويوفر مياه الأنهار التي يستفاد منها في الري خلال الموسم الجاف. كما أن استمرار الجفاف طويلاً في المناطق القاحلة سيؤدي إلى انخفاض غلال المحاصيل، والمجاعة والهجرة الإجبارية. أما ازدياد الهطولات المطرية من العواصف القوية فسيؤدي إلى انتشار الأمراض التي تنتقل بالمياه وتغيير الأنماط الزراعية. وقد توقعت اللجنة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ ذوباناً مدمراً للجبال الجليدية في هضبة التيبت، والتي تغذي الأنهار الرئيسية في آسيا، مما يضعف الرياح الموسمية في جنوب آسيا (Intergovernmental Panel on Climate Change 2007). وسوف يؤثر هذا بشكل مباشر في أمن أكبر دولتين في العالم من حيث عدد السكان، وهما الصين التي تصارع الجفاف في المناطق الغنية زراعياً من البلاد، والهند التي شهدت في عام 2009 موسم الرياح الموسمية الأضعف، وأسوأ موجة جفاف خلال الأربعين عاماً الأخيرة، مع انخفاض نسبة الأمطار بمقدار 23٪ عن معدلها في المناطق الرئيسية المنتجة للأرز والحبوب (Agarwal 2009).

الأمن الغذائي

يعتبر توافر الغذاء قضية متنامية ومستمرة تؤثر في الدول المتقدمة كما النامية. وتتوقع أوروبا حالياً تدفقاً كبيراً للمهاجرين بحلول عام 2020 لأن التغير المناخي يضر بالأراضي الصالحة للزراعة وبالزراعة نفسها في دول شمال أفريقيا. ومن الممكن توقع خسارة 75٪ من الأراضي الصالحة للزراعة في شمال أفريقيا وأفريقيا جنوب الصحراء نتيجة الجفاف والإفراط في الزراعة (Castle 2008). فطبقة مياه أوغالالا Ogallala

الجوفية التي تجري من السهول الكبرى شمالاً إلى تكساس جنوباً تدعم حصة كبيرة من إنتاج الحبوب في الولايات المتحدة. وقد تعرضت هذه المياه الجوفية للضخ المفرط على مدى سنوات، وقد خرجت أجزاء من تكساس من الزراعة بسبب جفاف المياه الجوفية. فقد أظهرت أرقام المخزون العالمي من الأرز لعام 2007 بحسب وزارة الزراعة الأمريكية أن مخزون الأرز لا يتجاوز 72 مليون طن فقط، أي نصف ذروة الإنتاج في عام 2000-2001 والأضعف منذ عام 1983-1984. وتخشى هيئات المساعدة الآسيوية العجز عن إطعام الجياع، وما يرافق ذلك من ارتفاع في أسعار الأرز، الأمر الذي يسبب توترات سياسية في كثير من البلدان الآسيوية. فقد استضافت رئيسة الفلبين [السابقة] غلوريا أرويو، قمة غذائية في إبريل 2008 لتبدي خشيتها حيال هبوط إنتاج الأرز وتضاعف أسعاره منذ عام 2004 (Associated Press 2008). كما تتوقع الصين انخفاض محصول الحبوب بنحو 10٪ إضافية بسبب ظاهرة الاحتباس الحراري. ومما يعقد هذا الوضع، وجود منافسة على الحبوب من قبل منتجي اللحوم لتلبية طلبات الطبقة الوسطى الصينية (التي تتزايد ثراءً) من البروتين الحيواني (Toy 2007). كما أن ديناميات سوق الغذاء وارتفاع تكاليف الأسمدة يجعل من الصعب على الحكومات المحافظة على إنتاج المحاصيل لدعم أعداد السكان المتزايدة في ظل مناخات تزداد جفافاً.

شح المياه

تشكل المياه فرصة إما لصنع السلام وإما للتسبب بصراع مستقبلي، وإما لكليهما معاً. وسوف يحاجّ أكاديميون مرموقون وبأسلوب مقنع أنه وعلى مدى آلاف السنين لم تخض الدول حرباً على موارد المياه بحد ذاتها (Wolf et al. 2005). ولكن صانعي السياسات أمثال آرييل شارون وبطرس بطرس غالي يتحدثون بالحماسة نفسها عن دور المياه في الصراعات الدولية. فالصراعات التي تنشب داخل الدولة على المياه وقعت بالتأكيد، وشارون يوضح أن حرب عام 1967 في الشرق الأوسط بدأت فعلياً قبل سنتين عندما تدخلت إسرائيل لمنع تحويل منابع نهر الأردن من قبل سوريا (Sharon and Chanoff

(1989. ولهذه الأسباب، وسواء كانت قضية قائمة بحد ذاتها أو أنها آثار مضاعفة لتوترات موجودة مسبقاً، ستؤدي المياه دوراً متزايد الأهمية في الاستقرار والأمن الإقليميين. كما ثبت أن المياه أداة ممتازة للتفاوض على اتفاقيات التعاون بين الدول التي بينها عداوات، ولتعزيز التواصل والتعاون.

يعتبر أمن المياه متغيراً حاسماً في استدامة الثقافات والحكومات. ويؤثر تغيير المناخ في توزيع المياه والاحتفاظ بها في مجالات أساسية كثيرة. فارتفاع الحرارة العالمية يؤدي إلى ذوبان الجبال الجليدية التي كانت تخزن المياه لسكان المدن ذوي الأعداد الكبيرة والمتزايدة وللزراعة. والتحولات الجغرافية في أنماط الهطولات المطرية تؤدي أصلاً إلى الهجرة القسرية، وتسبب الصراع في الدول الإسلامية التي لها دور حاسم في جهود الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب. فالمياه ضرورية للإنتاج الصناعي والزراعي، وكثيراً ما تتحكم بأمكنة الصناعات المربحة. ويعتمد النمو الاقتصادي لكل من الهند والصين على موارد المياه العذبة التي يتزايد شحها. كما أن اتباع النمط الدينامي لشح المياه في المناطق التي تعتبر مهمة لمصالح الأمن القومي الأمريكي، يعتبر مهماً لإدارة الصراع والحفاظ على الاستقرار.

تعد الإشكالات السياسية العالمية للأمن البيئي مهمة بالنسبة للسياسة الخارجية الأمريكية. تقدم التهديدات البيئية التي نوقشت أعلاه إطاراً للتحليل يجري من خلاله تحديد المناطق والوظائف والدول ذات الأولوية للشؤون الخارجية الأمريكية. وسوف تختلف تأثيرات هذه التوجهات من حيث الزمان والمكان في المناطق التي تتسم بالأهمية للأمن القومي للولايات المتحدة.

نتائج وتوصيات

تبذل وزارة الدفاع جهوداً كبيرة لحل مسألة الأمن البيئي، لكن يبقى كثير مما ينبغي القيام به. ويجب على المحللين الأمنيين التفكير في المؤسسة العسكرية على أنها مصدر لتطبيق الأمن البيئي على جميع المشكلات الأمنية، ليشمل التغيير البيئي. فلا حاجة للجيش

كي يتولى القيادة، بـل يمكنـه تـوفير المصـادر الضــرورية أو اسـتخدام النفـوذ للتـأثير في القضايا الأمنية التي تتناولها المؤسسات الأخرى. وقيامه بذلك قد يشكل فارقاً بين النجاح والفشل.

فقد ثبت أن الأمن البيئـي عمليـة يمكـن مـن خلالهـا اسـتخدام المشـكلات البيئيـة للمساهمة في تحقيق أهداف الأمن القومي، سواء في الحد من التوترات بشأن القضايا البيئية أو باستخدام المشكلات البيئية الشائعة، كإجراءات لبناء الثقة والتوفيق بين الدول التي قد يكون لديها أسباب أخرى للتوتر. وللجيش مصلحة في الأمن البيئي لأن أمامه مهمة تعزيز الاستقرار الإقليمي، وقد وجد أن منع الصـراع أقل تكلفة من إدخال القوات المقاتلة فيه. بالإضافة إلى ذلك، وبسبب الطبيعة الحميـدة لقضـايا الأمـن البيئـي فهـي تصـلح لتعزيـز التعاون المتعدد الأطراف في مناطق التوترات الكبيرة مثل جنوب آسيا وشمال شـــرقي آسـيا. فالجيش الأمريكي وجيش الدولة المستضيفة مؤهلان بشكل فريد لمعالجـة كثـير مـن قضـايا الأمن البيئي. ويتميز الجيش باتصالاته الجيدة وحضوره على الحدود وفي المنـاطق الحدوديـة، وامتلاكه لوسائل المواصلات الجيدة والخبرات التقنية، بالإضافة إلى مهمته الأمنيـة ودوره في الاستعداد للكوارث والأزمات الأخرى. وعلاوة على ذلك، يوفر إشــراك الجـيش في هـذه القضايا دعماً للسلطات المدنية، ويبني الشــرعية، ويضـيف مصـدراً يمكـن للحكومـة مـن خلاله أن تلبي متطلبات الأمن البشـري الملقاة على عاتق النظام السياسـي.

الفصل الخامس

البيئة والأمن الإقليمي: إطار عمل للتحليل

آمي ريتشموند كراكوكا

مقدمة

تعد الصلة بين الصـراعات العنيفة والتدهور البيئي مسألة جدلية نوعـاً مـا. إلا أن الأحداث الأخيرة أظهرت علاقة بين الإجهاد البيئي والصـراع؛ ذلك أن هـذا الإجهـاد يزيد الشـروخ العرقية والسياسية، مما يقوض الأمن. وتشير الأدلـة إلى أن هـذا التوجـه سوف يستمر؛ لأن التغيير البيئي سوف يستمر بإجهاد البيئـات الهامشـية والحدوديـة في الأمكنة التي فيها حكومة ضعيفة أصلاً. وقد سببت هذه الأحداث قبـولاً للعلاقـة بـين الاسـتقرار الإقليمـي والعوامـل البيئيـة، كـما تمثـل أرضـية خصـبة للتحليـل الجغـرافي العسكري بسبب أبعادها الزمانية والمكانيـة الواضـحة (Butts 1994; Homer-Dixon and Levy 1995).

ضمِن التقسيم الاستراتيجي للعالم خلال الحرب الباردة تحكماً كافياً بالأنظمة التابعة العميلة لمنع بؤر التوتر الإقليمية من تصعيدها إلى مواجهات عنيفة. إلا أن كثرة المنـاطق غير الخاضعة للسيطرة، باستثناء إرخاء قبضة تحكم القوى العظمى بأنظمة عميلة سابقة منذ نهاية الحرب الباردة، مكّن العـداوات العرقيـة والسياسـية الكامنـة مـن الانفجـار؛ لتتحول إلى صـراعات عنيفة اشتعلت غالباً بفعل "الإجهاد البيئـي" (Renner 2002). وقد تعقدت هذه المعضلة بفعل الممارسات البيئية غير المستدامة والهجرة ونقص المصـادر (Schwartz and Randall 2003; Gleditsch, Nordås, and Salehyan 2007).

ولا ندعي في هذا الفصل أن طبيعة الصراع الحديث جديدة، فالتمرد والصدامات العرقية والحرب الأهلية هي من الأشكال القديمة للحرب، إلا أنه يؤكد بأن الإجهاد البيئي العالمي يؤدي إلى زيادة في تواتر الصراعات ذات المضمون البيئي. وعلاوة على ذلك، فإن الصراع الذي يندلع لأسباب بيئية تؤججه عمليات بيئية حيوية ومعقدة ومتفاعلة. ومن ثم، فإن وجود إطار عمل خاص للتحليل مفيد في فهم الأسباب والعواقب.

مع وجود صراعات سابقة في الصومال والبوسنة ورواندا وتيمور الشرقية وكوسوفا، فإن استخدام الغرب والأمم المتحدة لقوتيهما العسكريتين بهدف معالجة الأبعاد الإنسانية للصراع الإقليمي أصبح أمراً راسخاً بشكل جيد حالياً، رغم أن الأمم المتحدة والقيادة الغربية تعاملت مع هذه الالتزامات بنفور شديد (Dulian 2004). ومع ذلك، أدت الصراعات ذات المضمون البيئي مقرونة بأبعاد عرقية مثيرة للقتال؛ كتلك التي لاحظناها في رواندا، إلى زيادة الضغط على الغرب والأمم المتحدة لإشراك الموارد العسكرية في جهود تحقيق الاستقرار (Drapeau and Mignone 2007).

في الواقع، إن وثائق السياسة الاستراتيجية التي أصدرها مجلس الأمن القومي في الولايات المتحدة (NSC 1991) ووزارة الدفاع (DoD 2005) حددت المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة في حالة انعدام الاستقرار الناجمة عن أسباب بيئية. فقد أصبحت البيئة عنصراً في استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية لأول مرة عام 1991، عندما أشار مجلس الأمن القومي إلى أن الضغط الناجم عن تحديات بيئية يساهم فعلياً في الصراع السياسي (NSC 1991: 2; Butts 1994). وبحلول عام 2005، عرّفت وزارة الدفاع انعدام الاستقرار الناجم عن أسباب بيئية بأنه من المخاوف الاستراتيجية الأساسية نظراً لوجود الأدلة على أن الإجهاد البيئي كان عاملاً مهماً مساهماً في الصراعات المعاصرة. إضافة إلى ذلك، فإن الصراع البيئي يُظهر نفسه عادةً على أسس عرقية مما يجعل من الصعب إدارته دولياً (DoD 2005).

البيئة والأمن والصراع

إن حالة الصراع الذي تشعله دوافع بيئية ليست جديدة، فقد قدم الباحثون أدلة دامغة تشير إلى دور الإجهاد البيئي في تصعيد الحرب في الصين القديمة واندثار حضارات المايا وأناسازي والأكاديين (Gibbons 1993; Abate 1994; Diamond 2005; Mays 2007; Zhang et al. 2007). ويبدو أن الأمثلة الحديثة في تشياباس (المكسيك) ورواندا والصومال ودارفور تدل على أن الرابط بين الإجهاد البيئي والصراع العنيف هو واقع قائم، وأن شبح التغير البيئي المعاصر وشح الموارد قد يؤدي إلى تفاقم الصراع العنيف (Homer-Dixon 1999; Schwartz and Randall 2003).

لا يشعل الإجهاد البيئي وحده بالضرورة صراعاً عنيفاً، وتشير الأدلة إلى أنه يفعل ذلك عندما يكون مقروناً بحكومة ضعيفة وتفتت اجتماعي، مما يؤدي إلى تصعيد العنف، وعادة ما يقوم ذلك على انقسامات عرقية كامنة. والتوزيع المكاني للإجهاد البيئي المعاصر واسع الانتشار ولكنه ليس متماثلاً. إلا أن التوجهات المعاصرة تشير إلى أن العنف الناجم عن دوافع بيئية يتركز في دول العالم النامي أو المناطق الأخرى ذات التفتت الاجتماعي والانقسام الطبقي الحاد (Homer-Dixon 1999; Gleditsch, Nordås, and Salehyan 2007). والدول النامية هي الأكثر عرضة للصراعات العنيفة ذات الأسباب البيئية لأنها تتميز بزيادة الاعتماد على البيئة في إنتاجيتها الاقتصادية والتركيز العالي لزراعة الكفاف فيها،* ولأنها أظهرت ضعف الحكومة خلال العقد الماضي (Homer-Dixon 1999; Galgano 2007).

تعتبر الحكومة الضعيفة مشكلة أساسية في العالم النامي، فقد ارتفع عدد الدول الآيلة إلى الفشل منذ عام 1990. وأجرى البنك الدولي (Kaufmann, Kraay, and Mastruzzi 2003) دراسة للسيادة الفعالة من خلال رصد ستة معايير أساسية في وسيلة لقياس

* زراعة تعتمد على الاكتفاء الذاتي، ويركز المزارعون فيها على زراعة الأطعمة التي تكفيهم لإطعام أنفسهم وعائلاتهم. (المترجم)

مستوى الحكم. وتشير نتائجها إلى أنه من أصل 187 دولة تمت دراستها، أظهرت 92 دولة مستويات كبيرة من انعدام الاستقرار السياسي، ويمكن تصنيفها دولاً آيلة إلى الفشل. وفي فئة الفاعلية الحكومية، أظهرت 75 دولة مستويات كبيرة من انعدام الفاعلية، ومنها 20 دولة دلت على انخفاض مثير للقلق في سيطرة الحكومة منذ عام 1998 (Kaufmann, Kraay, and Mastruzzi 2003). ويظهر الجدول (5-1) العلاقات بين الحكومة والبيئة والاستقرار؛ ويبين الدول الخمس عشرة ذات الحكومات الأقل فاعلية والخمس عشرة دولة ذات الحكومات الأكثر فاعلية، موضحاً الانقسام العالمي في الحكم. كما شهدت الدول المبينة أسماؤها بالخط العريض في الجدول عنفاً على خلفية بيئية خلال العقد الماضي. ويشير الجدول إلى الدول التي شهدت مؤخراً عنفاً ذا مضمون بيئي كبير. ومن المفيد أن نلاحظ العلاقة بين الحكومة والعنف والمؤشرات البيئية الرئيسية.

تعد المنطقة غير الخاضعة للحكم مشكلة؛ لأن هذه الأمكنة ذات مساحات واسعة خارجة عن سيطرة الحكومة الفعالة، ومن ثم، يمكن أن تتأثر بشدة بالكوارث الإنسانية والإجهاد البيئي والصراع العرقي؛ لأنها تفتقر في العادة إلى المؤسسات الفعالة والموارد المالية والمادية لحماية السكان من تأثير الإجهاد البيئي (Galgano 2007). وبالنتيجة، يؤدي هذا إلى زيادة تعقيد المشكلة أمام قادة الحكومة ومديري المؤسسات غير الحكومية والهيئات الحكومية عندما تحاول تطوير استراتيجيات الإغاثة، وبخاصة أنه لا يوجد إطار فعال لفهم طبيعة الصراع وأسسه البيئية (deMenocal 2001).

الصراع البيئي: الأسباب والنتائج

سيؤدي الإجهاد البيئي دوراً واسع النطاق في صراعات المستقبل، لأن الرفاهية الاقتصادية لنحو نصف سكان العالم ترتبط بصورة مباشرة بالأرض، الأمر الذي سيجعل المساحات الزراعية والمياه والوقود والمساحات الزراعية من المؤشرات البيئية المهمة، ولاسيما في ما يخص النمو السكاني المتوقع والتغير المناخي المتوقع. وهذا مهم لأن نحو ملياري نسمة لا يحصلون على مياه الشرب النظيفة (Gleick 2008)، ونحو 75٪ من

سكان العالم الأكثر فقراً هم مزارعون يكسبون كفاف عيشهم من خلال قطع صغيرة من الأرض. ويعتبر الجفاف والتصحر وانحسار الغابات وتأكُّل التربة والاستنزاف هي المشكلات الرئيسية في هذه المناطق. والحقيقة التي تضاعف هذه المشكلات هي أنه ومع أن المساحات الزراعية ووقود الكتلة الحيوية والمياه هي من المصادر المتجددة، فإن الممارسات غير المستدامة في كثير من المناطق تستنزف هذه المصادر بشكل يفوق قدرتها على التجدد (Homer-Dixon 1999).

الجدول (5-1)

مستوى الحكم (1996-2002)، والمؤشرات البيئية الرئيسية

الدولة (المرتبة)	مؤشر الحكم[1]	مؤشر التنمية البشرية[2]	النسبة المئوية للأراضي الزراعية	المسحوب السنوي من المياه العذبة ٪ من المصادر
الصومال (198)	-1.99	-	70.50	54.83
جمهورية الكونغو الديمقراطية (197)	-1.94	0.41	-	-
العراق (196)[3]	-1.76	-	22.91	121.31
أفغانستان (195)[4]	-1.74	-	58.34	42.29
ليبيريا (194)	-1.74	0.80	26.99	711.33
بوروندي (193)	-1.65	0.41	91.16	2.85
هاييتي (192)	-1.55	0.53	57.69	0.90
رواندا (191)	-1.48	0.45	45.00	1.58
السودان (190)	-1.47	0.53	56.32	124.40
أنغولا (189)	-1.44	0.45	46.03	0.24
الكونغو (188)	-1.44	0.55	-	-
ميانمار (187)	-1.43	0.58	16.61	4.84
سيراليون (186)	-1.42	0.34	39.10	0.24

جمهورية أفريقيا الوسطى (185)	-1.39	0.38	8.26	0.02
ساحل العاج (184)	-1.38	0.43	-	-
الولايات المتحدة (15)	1.54	0.95	45.41	17.12
المملكة المتحدة (14)	1.55	0.95	-	6.58
أستراليا (13)	1.62	0.96	58.19	4.86
النمسا (12)	1.66	0.95	40.92	3.84
ليتشتينستين (11)	1.66	-	43.75	-
السويد (10)	1.73	0.96	7.73	1.73
الدنمارك (9)	1.74	0.95	62.90	21.17
نيوزيلندا (8)	1.74	0.94	64.38	0.65
سنغافورة (7)	1.76	0.92	1.78	-
النرويج (6)	1.77	0.97	3.44	0.57
هولندا (5)	1.78	0.95	13.57	72.18
آيسلندا (4)	1.84	0.96	22.75	0.12
فنلندا (3)	1.88	0.95	7.34	2.31
لوكسمبورغ (2)	1.89	0.94	49.42	-
سويسرا (1)	1.97	0.96	38.13	6.36

1. مؤشر الحكم الكلي المشتق من كوفمان، وكاري وماستروزي (Kaufmann, Kraay, and Mastruzzi, 2003). وتم تطويره من خلال دراسة ستة مقاييس (الصوت، ومساءلة الحكومة، والاستقرار السياسي، وغياب العنف، وفاعلية الحكومة، والجودة التنظيمية، وحكم القانون، ومكافحة الفساد) خلال أربع فترات بين عامي 1996 و2002. والنتائج الأكثر سلبية تدل على حكم ضعيف.
2. يقدم مؤشر التنمية البشرية مقياساً مركباً لثلاثة أبعاد للتنمية البشرية هي: متوسط العمر المتوقع، ومحو أمية الكبار، ومستوى المعيشة. انظر: http://hdr.undp.org/en.
3. تم تسجيل بيانات الحكومة العراقية قبل غزوها بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية عام 2003.
4. لم يتم تسجيل بيانات الحكومة الأفغانية لعام 2002، بعد إزاحة حكومة طالبان عن السلطة.

أصبح هذا السيناريو أكثر تعقيداً لأن النمو السكاني المتوقع، ولاسيما في العالم النامي، سيؤدي إلى ارتفاع معدلات الاستهلاك لكل نسمة، مما سيزيد الممارسات غير المستدامة. ومن ثم، من المتوقع أن الإجهاد البيئي سيساهم مساهمة كبيرة وعلى نحو متزايد في ثلاثة

أنماط من الصـراع: 1) حرب عرقية/ عنصـرية يسببها الإجهاد البيئي والضغط السـكاني؛ 2) حرب أهلية يشعلها الإجهاد البيئي والتدهور الاقتصادي؛ 3) حروب دولية على نطاق محدود على طول الحدود المتاخمة. ورغم أن هذه الأحداث هي بالأساس ذات نطاق محـلي، فإنها من المحتمل أن تصبح حروباً إقليمية كبيرة تتحدى الإدارة العالمية (Homer-Dixon 1999; Drapeau and Mignone 2007).

تعريف الأمن البيئي

يركز هذا الفصل على العلاقة بين الأمن البيئـي والصـــراع، ويعـرض إطـاراً تحليليـاً لتقييم كيفية تأثير الإجهاد البيئي في المواجهات داخل الدولة الواحـدة. ويـتم اعـتماد هـذا النهج الضيق نسبياً لأن أحد التعريفات المقبولة للأمن البيئي، أي «رفاهية مادية واجتماعية واقتصادية» (King 2000: 4)، هو تعريـف واسـع نوعـاً مـا وهـو بصـــراحة غـير نـافع للتخطيط والتحليل المنهجي للصـراع. ويقترح هذا التعريف أن الأمن البيئي يحيط بطيـف واسع من التفاعلات البشـرية-البيئيـة. وبالتـالي، فـإن هـدفي هـو التركيـز عـلى تـأثيرات الإجهاد البيئي من حيث زعزعة استقرار الدولة والأمن الإقليمي، ودراسة الطريقـة التـي يؤدي من خلالها إلى الصـراع العنيف.

لقد عرض الباحثون عدداً من التعريفـات المتخصصـة للأمـن البيئـي. وقـدم بـاتس (Butts 1994) أحد هذه التعريفات، والذي يقول فيه إنه ينطوي على قضايا بيئية تقـوض استقرار الأنظمة الديمقراطية. وقدم باحثون آخرون تعريفات أكثـر شـمولاً؛ فقـد عـرف جلين وجوردون وبيريليت (Glenn, Gordon, and Perelet 1998: 4) الأمن البيئي بأنه «مجموعة عوامل تهدد السلام حول العالم، وتشمل انعدام الاستقرار البيئي الـذي يضـعف السلامة العامة بسبب المخاطر البيئية التـي تسـببها الطبيعـة أو العمليـات التـي يقـوم بهـا الإنسان بسبب الجهل أو الحـوادث أو سـوء الإدارة أو التصـميم». أمـا تعريـف هـومر-ديكسون وليفي (Homer-Dixon and and Levy 2006: 196) فهـو مقتضـب، ولكنـه يتجاهل الدورات البيئية الطبيعية: «تـدمير للبيئـة، أو مجموعـة الممارسـات البشـــرية التـي

تؤدي إلى تدهور البيئة، إلى درجة أنها لا تستطيع تحمّل النشاط الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي العادي».

ولأغراض هذا التحليل، أقترح تعريفاً شاملاً للأمن البيئي، يتسق مع العلاقات بين الناس والحكم والضغوطات البيئية الطبيعية. وأرى الأمن البيئي عمليةً تشمل تحليل المخاطر البيئية بناءً على الروابط المتعددة الجوانب بين العمليات البشرية والطبيعية التي تزعزع استقرار البيئة وتساهم في انعدام الاستقرار أو الصراع. وتشمل المكونات الأساسية للأمن البيئي ما يلي: 1) العمليات البيئية التي تقوض الحكومات وتشجع انعدام الاستقرار؛ و2) العمليات البيئية التي تثير الصراعات الأهلية.

إطار عمل للتحليل

وقعت منذ عام 1990 صراعات عنيفة في كل من البوسنة وكوسوفا وكرواتيا ورواندا وساحل العاج وبوروندي وأنغولا ونيجيريا والسودان وتركيا وأذربيجان وجورجيا وكشمير وميانمار وسريلانكا والعراق و"الأراضي الفلسطينية" (Kaufman 1996; Renner 2002). وسيكون من السذاجة، وربما من الخطأ، أن نؤكد أن الإجهاد البيئي هو الذي أثار كل واحد من هذه الصراعات، ومن الصعب جداً الفصل بين مكوناتها البشرية والبيئية لأنها متشابكة ومعقدة. ولذلك إذا حاولنا اتباع نهج استباقي للتخفيف من الصراعات على الخلفية البيئية، من المفيد أن نضع إطار عمل تحليلياً نستطيع من خلاله إجراء تقييمات واعية (Butts 1994). ويجب أن يراعي هذا الإطار العمليات البشرية والبيئية الطبيعية، ويأخذ في الاعتبار القضايا الأساسية العرقية والاقتصادية والثقافية والسياسية التي تقف وراء انعدام الاستقرار الإقليمي، ويقر بأن كل مكان يختلف عن الأمكنة الأخرى (Homer-Dixon 1999).

ويحتج الذين ينتقصون من هذه النظرة في تحليل الصراع بأن الصراعات تنتج فقط من عوامل سياسية-عسكرية، والتي تتأثر قليلاً - في أحسن الأحوال - بالإجهاد

البيئي، وربما يلمحون إلى الحتمية البيئية. ينتج الإجهاد البيئي والندرة من التأثير المشترك للآثار البشرية على البيئة وضعف النظام البيئي. وتساهم الندرة والإجهاد في الصراع فقط في ظل ظروف معينة، ولكن لا توجد علاقة حتمية بين هذه المتغيرات (Percival and Homer-Dixon 1995). ومن الواضح أنه ليس كل أحداث العنف متساوية، كما أن تأثير الإجهاد البيئي في الصراع سيختلف من حيث الحجم من مثال إلى آخر. ومع ذلك، لا توجد أدلة مقنعة تشير إلى أن الإجهاد البيئي يؤدي إلى الصراعات العنيفة (Gibbons 1993; Abate 1994; Homer-Dixon 1999; Renner 2002; Schwartz and Randall 2003; Diamond 2005; Gleditsch, Nordås, and Salehyan 2007; Mays 2007; Zhang et al. 2007).

العلاقات بين الغذاء والنمو السكاني والمناخ والموارد البيئية والإجهاد البيئي جلية في كثير من الدول النامية (Homer-Dixon 1999). ويثير هذا النموذج المالتوسي [نسبة إلى توماس مالتوس] خلافاً كبيراً بين العلماء. إلا أنه ينبغي الاتفاق على نتيجة مؤكدة لا يمكن دحضها والتي كانت واضحة في رواندا عام 1994، وهي أنه: في نهاية المطاف، سيتم بشكل أو آخر حل مشكلتي النمو السكاني والإجهاد البيئي، المسؤولتينِ عن الانقسامات العرقية والسياسية. ويشير التاريخ والأحداث إلى أن حل هاتين المشكلتين يمكن أن يكون عنيفاً (Diamond 2005). وبالتالي، أقترح إطاراً لتحليل الصراع يحدد مصادر الإجهاد البيئي وعلاقاته بالأبعاد السياسية والثقافية والاقتصادية والعرقية. وقد تم وضع هذا الإطار بعد الأعمال التي قام بها باتس (Butts 1994) وبيرسيفال وهومر-ديكسون (Percival and Homer-Dixon 1995) وهومر-ديكسون (Homer-Dixon 1999) ودايموند (Diamond 2005). وليس المقصود من هذا الإطار أن يكون تنبُّئياً، بل مجرد أداة تحليلية تفسر العوامل الدينامية والمعقدة التي تساهم في الصراع القائم على خلفية بيئية.

وإطار العمل (الشكل 5-1) ليس قائمة بنود؛ لأن تلك البنود تميل إلى فصل عوامل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمتغيرات منفصل بعضها عن بعض بصورة مصطنعة. وبدلاً من ذلك، يشكل الإطار الأساس لرواية تفسر الروابط بين الإجهاد البيئي والصراع. كما يشير الإطار

إلى أن الصـراع المندلع لأسباب بيئية يقوم على أربع عمليات أساسية هي: 1) الممارسات غـير المستدامة التـي تـؤدي إلى تـدهور الـنظم البيئيـة، 2) التغـير أو الأحـداث البيئيـة الطبيعيـة، 3) الحكم والممارسات الحكومية، 4) النشاطات والعمليات البشـرية.

وتشكل هذه العمليات الأساس لإطار العمل وهي ليست متعارضة؛ فهي تحـدث في آن معاً، وتحدث عند التقاء المشهد الطبيعي والنشـاط البشـــري. ومـن ثـم تكـون النتـائج كثيرة: 1) نقـص المـوارد، 2) تـدهور الـنظم البيئيـة، 3) خسـارة الإنتاجيـة الزراعيـة، 4) الأمراض، 5) التدهور الاقتصادي، 6) التغـير السـكاني، 7) انحـدار الحكـم الفعـال، 8) الصـراع العنيف.

الإبادة الجماعية في رواندا عام 1994

نتج من الصـراع في رواندا عام 1994 إبادة جماعية بحق مئات الآلاف من الناس مـن عرق التوتسـي والمتعاطفين معهم من الهوتو، وكان ذلـك أكـبر عمـل وحـشــي يرتكـب خلال الصـراع الذي دام لمدة 35 عاماً (Department of State 2002). وعلى الرغـم مـن أن نشوب الصـراع في عام 1994 كان الأكثر وضوحاً، فإن العنـف العرقـي بـين جماعـات الهوتو والتوتسـي لم يقتصـر على تلـك الأحـداث؛ غـير أنـه كـان الأكثـر كارثيـة وحظـي بالتغطية الأوسع نطاقاً. فبين عامي 1959 و1994، تعرض الآلاف من الهوتو والتـوتســـي للذبح في جزء مـن الكفـاح السياســي للفـوز بالسـيطرة عـلى روانـدا في أعقـاب الحكـم الاستعماري البلجيكي. ومع ذلك، فإن المتغيرات البارزة التـي تميـز هـذا الحـدث هـي أن الممارسات البيئية غير المستدامة والجفـاف وانخفـاض الإنتـاج الزراعـي والنمـو السـكاني السـريـع والانهيار الاقتصادي قد زعزعت استقرار المجتمع الرواندي، مما أدى إلى تفـاقم الانقسامات العرقيـة، وضـعف قـدرة الحكومـة عـلى الحفـاظ عـلى ظـروف عـيش آمنـة (Percival and Homer-Dixon 1995; Dulian 2004).

الشكل (5-1)

الإطار الأمني البيئي لتحليل الصـراع

العمليات المزعزعة للاستقرار		النتائج
1. العمليات غير المستدامة مثال: الإفراط في استخراج الموارد والممارسات الزراعية غير المستدامة، والتخطيط الضعيف لاستخدام الأراضـي، وانحسار الغابات وتلوث النظام البيئي. 2. التغير/ الأحداث البيئية الطبيعية مثال: تغير المناخ والتقلب المناخي وأحوال الطقس القاسية والكوارث الطبيعية والأنواع الغازية. 3. نشاطات الحكومة مثال: الاضطهاد، والسياسة المصـرفية، والفساد، والسياسة الاقتصادية، والنشاط العسكري. 4. النشاط البشـري مثال: الصـراع العرقي، وممارسات امتلاك الأراضـي، والممارسات الزراعية، والنمو السكاني والهجرة، والبنية التحتية الموجودة.	←	1. نقص الموارد (مثل الماء والطاقة والغذاء والوقود الحيوي). 2. تدهور النظام البيئي (مثل التربة والغابات والهواء). 3. خسارة الإنتاجية الزراعية. 4. الأمراض (مثال الإيدز والأوبئة والأمراض الوراثية). 5. التدهور الاقتصادي (مثل خسارة السوق، وانخفاض قيمة العملة). 6. التغير السكاني (مثل الهجرة والتركيبة). 7. الفعالية الحكومية (مثل انهيار المؤسسات). 8. الصـراع العنيف (مثل الصـراع العرقي، والحروب الأهلية، والحروب بين الدول).

وقعت جرائم الإبادة الجماعية عام 1994 على يد اثنتـين مـن جماعـات مليشـيا الهوتـو المتطرفة، وهما الإنتراهاموي وإيمبوزموغمبي، خلال الفـترة الممتـدة بـين شـهري إبريـل ويوليو. وتشير بعض التقديرات إلى أن أعداد القتلى راوحت بين 800 ألـف ومليـون؛ ممـا يعني نحو 75٪ من السكان التوتسـي ونحو 11٪ من إجمـالي سـكان روانـدا (Newbury 1995). وهذا الحجم من عمليات القتل بشع جداً، ولاسيما أن السلاح الذي استخدم فيها كان المنجل، وتقـول تقـديرات الأمـم المتحـدة إن 1000 شـخص مـن الروانـديين كـانوا يضـربـون بهذا السـلاح حتـى المـوت كـل 20 دقيقـة في ذروة عمليـات الإبـادة الجماعيـة (Melvern 1999). إذاً، كيف تكوّنت العلاقة بين الاحتكاك العرقي والحكم غير الفعـال والإجهاد البيئي معاً لتتيح إمكانية القتل الجماعي؟

الثقافة والمجتمع والحكم

إن الخلاف بين الهوتو والتوتسـي ليس عرقياً أو عنصـرياً بشكل صـريح، بـل أفضـل ما يوصف به أنه اقتصادي. فالسكان الهوتو هم مزارعون، والتوتـسـي مربّو مواشٍ كـانوا

يتمتعون بازدهار اقتصادي أكثر من الهوتو. وقد سيطر التوتسي على المنطقة سياسياً وأطلقوا على السكان الأصليين اسم "الهوتو". ولذلك، أصبحت الهوتو هوية عبر عرقية مرتبطة بالخضوع والعبودية (Mitchell 1997). أما البلجيكيون، وخلال سعيهم إلى تفسير المجتمع المعقد الذي وجدوه في المستعمرة، فقد كانوا يميزون بين الهوتو والتوتسي على أساس عرقي، فأصدروا بطاقات هوية عرقية، وعاملوا التوتسي معاملة تفضيلية منحتهم مناصب إدارية واقتصادية؛ مما زاد من عمق الانقسامات العرقية الكامنة (Newbury 1995). وحصلت رواندا على استقلالها في عام 1961، ودخلت فترة دامت 35 عاماً من الاضطرابات المدنية والصراع والهجرة القسرية تخللتها فترات من الهدوء النسبي (Diamond 2005).

وكان إسقاط طائرة الرئيس الرواندي بتاريخ 6 إبريل 1994 هو الشرارة التي أشعلت عمليات الإبادة الجماعية، وكانت عمليات القتل منظمة جيداً بدعم من الحكومة (Department of State 2002). وعند بداية هذه العمليات، كانت مليشيا الهوتو قوية وتضم 30 ألف مقاتل منظم موزعين في جميع أنحاء البلاد. كما كانت هناك أمثلة واسعة النطاق عن مشاركة الجنود التابعين للحكومة في أعمال العنف أيضاً (Department of State 2002). واستمر العنف – مع وقوف الغرب على الحياد من دون تصرف – حتى تمكنت الجبهة الوطنية الرواندية من السيطرة على البلاد، وأنهت العنف فعلياً في منتصف يوليو 1994 (Mitchell 1997).

تمهيد الطريق: النمو السكاني في رواندا

لعل الضغوطات البيئية المؤثرة في رواندا تمثلت بكثافتها السكانية ودوامة تدهور النظام البيئي الذي سببته. فرواندا تقع في شرق أفريقيا (انظر الشكل 5-2)، التي فيها أعلى نسبة من النمو السكاني الإقليمي في العالم، حيث يبلغ معدله 4.1٪، وقد تضاعفت النسبة خلال 17 عاماً. ورواندا من بين البلدان الأكثر اكتظاظاً بالسكان على مستوى العالم، والأكثر اكتظاظاً على مستوى أفريقيا؛ فقد بلغ عدد سكانها عام 1995 نحو 7.5 ملايين نسمة بمعدل

نمو قدره 4.7٪. ومما زاد الطين بلة أن عمليات نزوح اللاجئين داخلياً قد دفعت أعداداً متزايدة من الناس إلى مناطق حساسة بيئياً (Percival and Homer-Dixon 1995).

وقد حدث الانفجار السكاني نتيجة لعدد من العوامل البشرية المترابطة: اعتماد المحاصيل غير الأصلية، وتحسن مستويات الصرف الصحي، والرعاية الصحية، والاستقرار السياسي النسبي؛ مما فتح المجال لزراعة المناطق التي كان متنازعاً عليها. كما أن مميزات المشهد الطبيعي في رواندا سهلت النمو السكاني أيضاً، حيث تتميز بتضاريس أعلى نسبياً ودرجات حرارة معتدلة. وهذا أمر مهم لأن درجات الحرارة المنخفضة تحدّ من حركة السكان الناقلين للأمراض مما قلل من انتشارها (Diamond 2005). كما تشهد رواندا هطْل كميات معتدلة من الأمطار في موسمين اثنين (انظر الشكل 5-2)، ما يسمح بالزراعة على مدار العام، ويحدّ من تسرب العناصر الغذائية. علاوة على ذلك، فإن التربة البركانية تتميز بخصوبتها، وتتيح البنية الجيولوجية الظروف المناسبة للحصول على موارد مياه جوفية مستدامة. ولذلك، فإن الممارسات الزراعية المستدامة يجب أن تتيح للروانديين إنتاج محاصيل تدعم النمو السكاني (Mitchell 1997; Diamond 2005).

ولكن بحلول عام 1994، أدى النمو السكاني والممارسات الزراعية غير المستدامة إلى تدهور بيئي خطير وانخفاض الإنتاج الغذائي إلى ما دون المستويات المقبولة. ويعني النمو السكاني في رواندا أنه لم يعد هناك ما يكفي من الأراضي المفيدة والصالحة للزراعة. وباستثناء ذلك، فإن نحو نصف النشاطات الزراعية في رواندا تتم على تلال منحدرة بأكثر من 10 درجات. كما أدى الإفراط في الزراعة، والزراعة على الأراضي الهامشية إلى زيادة التعرية وانخفاض خصوبة التربة (Clay, Reardon, and Kangasniemi 1998). وبالنتيجة، هبطت رواندا من مستوى الدول الرائدة في الإنتاج الغذائي للفرد في المنطقة عام 1980، إلى أسوأ مستوى لها في عام 1990. ومع أن الإنتاج الإجمالي للغذاء ارتفع بنسبة 10٪ بين عامي 1980 و1990، فقد انخفض إنتاج الفرد بنحو 20٪ (Percival and

(Homer-Dixon 1995. وتمثلت المشكلة الأساسية في أن النمو السكاني تصاعدي تقريباً، ولكن إنتاجها الغذائي ازداد على نحو يقارب معدلاً خطياً كان قد بدأ بالهبوط. وقد أضر الإجهاد البيئي بالنظام الزراعي وانخفض الإنتاج الغذائي. ومن ثم، أصبح الغذاء نادراً وتحولت الهجرة الداخلية إلى عادة شائعة؛ ما أدى إلى ضغط خطير على الانقسامات العرقية الكامنة وبدأت الحكومة بفقدان الشرعية (Diamond 2005).

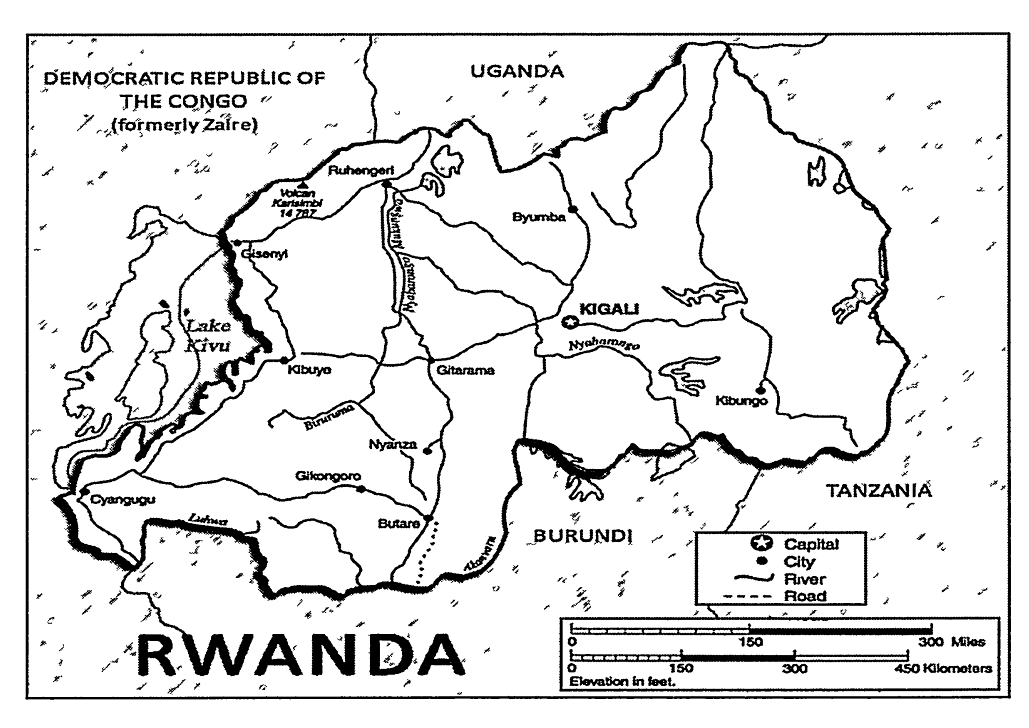
استخدام الأراضي وتخريب البيئة

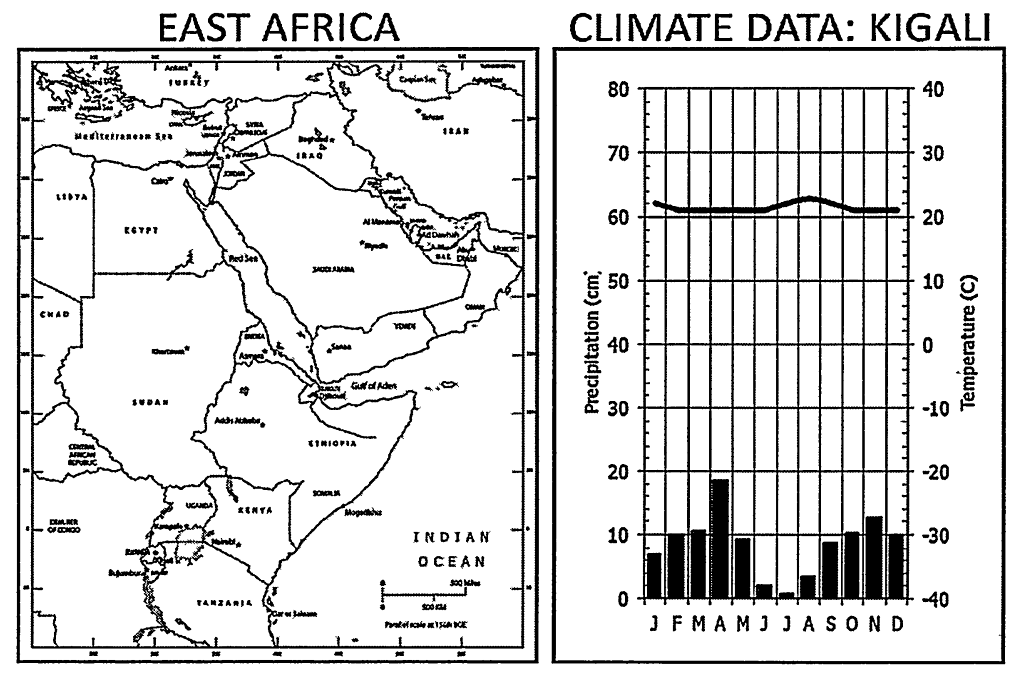
ترتبط الأسس البيئية للتدهور البيئي في رواندا بالنمو السكاني السريع وبسلسلة من الممارسات غير المستدامة في استخدام الأراضي، والتي عززتها فترة جفاف دامت عشر سنوات.

وبحلول عام 1990، مرت رواندا بفترة من الهدوء والازدهار النسبي دامت 15 عاماً. فقد حققت فائضاً تجارياً قائماً على صادرات البن والشاي، واستقطبت استثمارات تنموية ضخمة من خلال البنك الدولي وغيره من المؤسسات الغربية الأخرى. ويبدو بكل المقاييس أن رواندا كانت دولة أفريقية نموذجية (Diamond 2005). ولكن الأحداث لم تبدد هذا الوهم، وربما تضافرت لإشعال شرارة الإبادة الجماعية عام 1994. وكان أولها هو الهبوط الحاد في أسعار البن والشاي العالمية، الأمر الذي لم يتمكن الاقتصاد الرواندي من استيعابه، فانهار نتيجة لذلك، وتبعه سحب الدعم النقدي الخارجي. أما العامل الثاني فكان بيئياً، الأمر الذي سرعان ما كشف عن الممارسات القائمة وغير المستدامة في استخدام الأراضي والتي أفرطت في إجهاد البيئة. وخلال عقد التسعينيات من القرن العشرين، ضربت موجة جفاف كبرى منطقة شرق أفريقيا، وبخاصة رواندا. وانخفض إجمالي الهطولات المطرية بمقدار 30٪، ولكن الأهم من ذلك أن الجفاف كشف عن مجموعة من المشكلات البيئية الأساسية في استخدام الأراضي، ولاسيما إزالة الغابات وتعرية التربة واستنزافها (Newbury 1995; Diamond 2005).

الشكل (5-2)

خريطة رواندا وشـرق أفريقيا





اعتمد سكان رواندا بعددهم الكبير على زراعة الكفاف التي اضطرتهم إلى الانتقال إلى الأراضي الهامشية. ومن الملاحظ أنه حتى في رواندا التي كانت دولة مزدهرة نسبياً، فإن النمو السكاني لم تقابله التقنيات الزراعية والممارسات الزراعية الأكثر كفاءة. وبدلاً من ذلك، تم تحويل مزيد من الأراضي إلى أراضٍ زراعية. وهكذا، بحلول عام 1985، كانت تجري زراعة جميع الأراضي الصالحة للزراعة في رواندا، باستثناء تلك التي كانت مخصصة لتكون متنزهات وغيرها من الأراضي الأخرى المخصصة لاستخدام الحكومة (Percival and Homer-Dixon 1995). ولتنفيذ ذلك، تم قطع الغابات وتجفيف المستنقعات مما عرّض المنحدرات للانزلاق والتآكل؛ وقد أدى ذلك إلى تقليل كميات الأمطار التي تنفذ إلى مخزون المياه الجوفية. وأصبحت فترات راحة الأرض قصيرة ما أدى إلى استنزاف التربة. وأدت إزالة الغابات إلى تآكل التربة بشكل شديد وخفض منسوب المياه إلى درجة أن الجداول بدأت بالجفاف. ومن ثم، عندما بدأ المناخ بالتغيّر إلى دورة جفاف عقدية (أي لعشر سنوات)، فُقدت القدرة على الري. وتمت إزالة الغابات أيضاً نتيجة للاستهلاك الكبير للأخشاب وقوداً في رواندا، والتي كانت تستهلك 2.3 مليون متر مكعب أكثر مما كانت تنتجه (Mitchell 1997).

المتغير النهائي في عملية تخريب البيئة هذه كان ممارسات حيازة الأراضي التي يستخدمها المزارعون الروانديون. فكانت مساحة قطعة الأرض الزراعية العادية في عام 1980 تبلغ نحو 2.5 فدان لكل عائلة. ومع نمو عدد السكان، تم استصلاح مزيد من الأراضي الصالحة للزراعة، ومع ذلك لم يستطع الإنتاج الغذائي أن يلبي حاجة السكان. كما انخفضت مساحة قطعة الأرض الزراعية العادية إلى أقل من فدان لكل عائلة، حيث كان العرف يقول إن الابن الأكبر عادةً هو من يرث مزرعة العائلة. وحالما كانت تتم حيازة جميع أراضي العائلة الصالحة للزراعة، كان الأبناء الأصغر سناً يبقون في المنزل، وهكذا فإن مزارع العائلة الواحدة كانت تقسم إلى حصص متناهية الصغر، وكانت العائلات الأكبر تضطر إلى الحصول على الغذاء من قطع أرض زراعية تتزايد في الصغر وغير منتجة (Clay, Reardon, and Kangasniemi 1998).

الشكل (5-3)

ملخص إطار العمل الخاص برواندا

إطار الأمن البيئي لتحليل الصـراع: ملخص جرائم الإبادة الرواندية (إبريل-يوليو 1994)

العمليات المزعزعة للاستقرار

1. العمليات غير المستدامة
   - الزراعة غير المستدامة
   - الزراعة في الأراضـي الهامشية
   - استنزاف التربة
   - إزالة الغابات
   - استخراج الوقود الحيوي
2. التغير/ الأحداث البيئية الطبيعية
   - الجفاف
3. نشاطات الحكومة
   - توقف الاستثمارات الرأسمالية الخارجية
   - دعم الجماعات المتطرفة (مثال: الإنتراهاموي)
   - التلاعب السياسـي بانعدام الثقة العرقية
   - المشاركة في العنف العرقي
   - انهيار المؤسسات الرئيسية
   - ضعف الإشـراف البيئي
4. النشاط البشـري
   - نمو السكان
   - الإفراط في تقسيم مزارع العائلة
   - الهجرة إلى الأراضـي الهامشية
   - انهيار سوق البن
   - الصـراع العرقي (هوتو-توتسي)

النتائج

1. نقص الموارد
   - الغذاء
   - الماء
   - الوقود الحيوي
   - الأراضـي الصالحة للزراعة
2. تدهور النظام البيئي
   - انخفاض منسوب المياه
   - خسارة التنوع الحيوي
   - خسارة الغطاء النباتي
   - تآكّل التربة
3. خسارة الإنتاجية الزراعية
   - انخفاض 20٪ للفرد
4. التدهور الاقتصادي
   - الميزان التجاري
   - خسارة الاستثمارات الأجنبية
5. التغير السكاني
   - نمو عدد السكان
   - الهجرة
6. الفعالية الحكومية
   - العجز/ عدم الرغبة بحماية السكان
   - انهيار نظام الأمن الداخلي
7. الصـراع العنيف
   - العنف العرقي
   - الحرب الداخلية
   - الغزو الخارجي: الجبهة الوطنية الروانديـة

يبين الشكل (5-3)، وباختصار، المكونات الأساسية لإطار الأمن البيئـي في روانـدا. فقد كانت المشكلة الأساسية أن رواندا فيها عدد كبير من السكان بكثافة عاليـة يعتمـدون على الأرض للحصول على المصادر التي كانت تتناقص بسـرعة، وذلك بسبب الممارسـات

غير المستدامة والتغير البيئي. فنحو 90٪ من الروانديين كانوا يعملون في زراعة الكفاف على أراض تتزايد في الصغر مع تراجع في الإنتاجية. وبحلول عام 1994، تخطى عدد السكان معدل الإنتاج الغذائي بصورة واضحة. ولعل هذه العوامل البيئية، بالإضافة إلى انهيار سوق البن العالمية والمشكلات العرقية الكامنة والمنافسة السياسية هي التي دفعت هذا المجتمع إلى حافة الهاوية.

الخلاصة والنتائج

يُعرف الأمن البيئي لأغراض هذا التحليل، بأنه عملية تشمل تحليل المخاطر البيئية بناءً على فهم التفاعلات المعقدة بين العمليات البشرية والطبيعية والتي تؤدي إلى تدهور البيئة، وتساهم في زعزعة الاستقرار والصراع. ولتفعيل هذا التعريف، أقترح إطاراً تحليلياً لاتنبُّئياً؛ بل هو طريقة لتنظيم العوامل البيئية المتنوعة والدينامية المعقدة التي تسبب انعدام الاستقرار الإقليمي وتسمح بالصراع العنيف داخل الدولة. والمقصود من إطار العمل الخاص بتحليل الأمن البيئي، وضع الأساس لرواية تفسر الروابط بين الإجهاد البيئي والصراع، لتشمل: الممارسات غير المستدامة التي تخرب النظم البيئية، والتغير أو الحوادث البيئية الطبيعية، والممارسات الحكومية، والنشاط البشري.

ليس هناك صراعان متماثلان، ما يبرز الحاجة إلى تقييمات دقيقة للظروف الإقليمية والمحلية من أجل فهم كيفية تأثر التوترات العرقية والاقتصادية والسياسية بالإجهاد البيئي. والمثال الرواندي يوضح المشكلة الأساسية مع هذا النوع من التحليلات: عوامل المشهد البشري والإجهاد البيئي لا يستبعد بعضها الآخر، بل هي معقدة ويرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، ما يجعل من الصعب تحديد مدى دور البيئة في تمكين اندلاع صراع عنيف. ورغم ذلك، فإن المثال الرواندي يوضح أيضاً أن مشكلات النمو السكاني والإجهاد البيئي الشديد الناجم عن الممارسات غير المستدامة، التي فرضت نفسها على انقسامات عرقية وسياسية كامنة، سيتم حلها في نهاية المطاف بأساليب عنيفة جداً أحياناً.

إن العوامل المعقدة والمتفاعلة فسحت المجال أمام وقوع الإبادة الجماعية في رواندا، كما تتيح الجغرافيا العسكرية رؤية مقنعة وموقع مراقبة قيّماً وخاصاً يتم منه إجراء تحليل للصراع والأمن البيئي. فعمليات الإبادة الجماعية في رواندا، كالصراعات العنيفة الأخرى، لها جذورها العميقة في مسألة انعدام الثقة العرقية القائمة منذ وقت طويل، والتلاعب المشحون سياسياً والحكومة الضعيفة، ولكن التفاوت الاقتصادي والإجهاد البيئي كان من العوامل المساهمة بكل تأكيد. فقد ثبت في حالة رواندا أن المجتمع الريفي أساساً، والذي اعتمد كثيراً على زراعة الكفاف واستخراج الموارد من البيئة، سريع التأثر، وبخاصة بآثار الإجهاد البيئي الذي هدد استقراره حتى قبل وقوع عمليات الإبادة الجماعية عام 1994. لكن الأدلة تشير إلى أنه في عام 1994، عجّلت هذه الضغوط مقرونةً بالانهيار الاقتصادي وضعف الحكومة، من حدوث مشهد العنف الذي دام ثلاثة أشهر والذي قلما شهد العالم مثيلاً له.

الفصل السادس

تغير المناخ واحتمال زعزعة الاستقرار الإقليمي في منطقة القطب الشمالي

إيوجين بالكا

مقدمة

يجري دائماً تذكير الجغرافيين بأن التغيرات الحاصلة في البيئة الطبيعية يمكن أن يكون لها آثار اجتماعية وسياسية واقتصادية عميقة. فالزيادات الملحوظة في معدل درجات حرارة الهواء والمحيطات حول العالم، وذوبان الجليد والثلوج على نطاق واسع وارتفاع منسوب مياه البحار عالمياً، تشكل أدلة لا شك فيها على تغير المناخ العالمي (IPCC 2007). ويتوقع كثيرون أن تغير المناخ سيكون له تأثير سلبي، ولاسيما في تلك المناطق من العالم التي يكافح فيها السكان للعيش على أراض هامشية. ولا تقل أهمية عنها تلك المناطق ذات الكثافة السكانية المنخفضة، والمناطق غير المستغلة في أقصى الشمال، والتي تستقطب حالياً اهتماماً كبيراً؛ لأن تغير المناخ يعِد بإطلاق طاقاتها غير المستغلة من قبل.

إن منطقة القطب الشمالي معروفة منذ زمن طويل باعتبارها مستودعاً مهماً لأنواع الوقود الأحفوري. لكن، وباستثناء منحدر ألاسكا الشمالي ومشاريع التنمية البرية والبحرية في منطقة القطب الشمالي التابعة لروسيا والنرويج، تبقى المنطقة متخلفة إلى حد كبير بسبب عامل التكلفة المرتبط بموقعها وبيئتها القاسية. أما من الناحية التاريخية، فإن الممر الشمالي الغربي كان ذا فائدة قليلة؛ لأنه كان محاطاً بالجليد معظم أوقات السنة. ولكن ارتفاع درجة حرارة الأرض يمكن أن يسهم في فتح القارة القطبية الشمالية أمام مزيد من عمليات التنقيب عن النفط والغاز الطبيعي، والاستفادة من خطوط النقل الجديدة مع

استمرار انحسار مساحات الجليد البحري. وربما لن يحدث هذا السيناريو إلا وسط جدل كبير - إن لم يكن نزاعاً - بين عديد من الدول؛ إذ إن لكل من كندا وروسيا والدنمارك والنرويج والولايات المتحدة الأمريكية مصلحة كبيرة، إن لم تكن مطالب سيادية، بأجزاء من المنطقة المذكورة. فإذا استمرت التوجهات الحالية، يمكن أن يؤدي تغير المناخ والمصالح المتنافسة إلى تحويل حدود القارة القطبية الشمالية إلى واحدة من أكثر المناطق إثارة للخلاف في العالم (Goodman 2007).

ويتناول هذا الفصل أحدث نماذج الجليد البحري في منطقة القطب الشمالي، ويدرس تأثير اتجاه ارتفاع درجة حرارة الأرض المتواصل في أقصى الشمال، حيث إنه يتعلق بمسألة إمكانية الملاحة عبر ممر الشمال الغربي، واستخراج مخزونات المعادن والنفط الكامنة تحت المحيط المتجمد الشمالي، والاستقرار الإقليمي. وأبدأ هذا الفصل بنظرة عامة جغرافية على منطقة القطب الشمالي، ومناقشة الخلفية التاريخية للممر الشمالي الغربي، وذكر بعض الجوانب ذات الصلة من اتفاقية قانون البحار. وأصف تغير المناخ الجاري بشكل عام، وأطرح القضايا الاستراتيجية والعسكرية التي قد تثار بين كندا وروسيا والولايات المتحدة والدنمارك والنرويج.

نظرة جغرافية عامة على منطقة القطب الشمالي

قد يختار المرء عموماً تعريف منطقة القطب الشمالي بأنها تلك المنطقة من سطح الأرض الواقعة شمالي الدائرة القطبية الشمالية (أو خط العرض 66.5 درجة شمالاً)، وهو الشمال الموازي الذي لا تشرق عليه الشمس في منتصف الشتاء أو لا تغرب في منتصف الصيف. وهناك تعريف أوسع وأكثر فائدة، ويشمل غالباً الأرض الموجودة شمالي حدود خط العرض الذي لا تنمو بعده الأشجار العادية، وشمالي المحيطات المتأثرة بالكتل المائية في منطقة القطب الشمالي (Thomas and Goudie 2000). ويغطي المحيط المتجمد الشمالي 13,960,100 ميل مربع؛ وهو عبر تاريخه مغطى بالجليد معظم أوقات السنة (National Geographic 2007؛ الشكل 6-1). وتوجد خمس دول (روسيا وكندا

والولايات المتحدة والنرويج والدنمارك) لها أراض و/ أو جزر و/ أو أن أجزاء من جرفها القاري تمتد شمال الدائرة القطبية. وبسبب اتساع أراضي الاتحاد السوفيتي السابق وروسيا حالياً، والممتدة شمالي الدائرة القطبية الشمالية، فقد استمر تطوير حقول المعادن (مثل النيكل في منطقة نوريلسك) والوقود الأحفوري في هذه الأرض المثيرة للخلاف. وخلال القرون الأربعة الماضية، وبغض النظر عن عدد قليل من البعثات، لم يكن لدول أقصى الشمال مصالح كبيرة في المحيط المتجمد الشمالي. ولكن مؤخراً، أدى الاحتباس الحراري إلى تقليص نطاق مساحة الجليد البحري وسماكته في منطقة القطب الشمالي. وأثار هذا الاحتباس اهتماماً كبيراً في ثلاثة مجالات محددة:

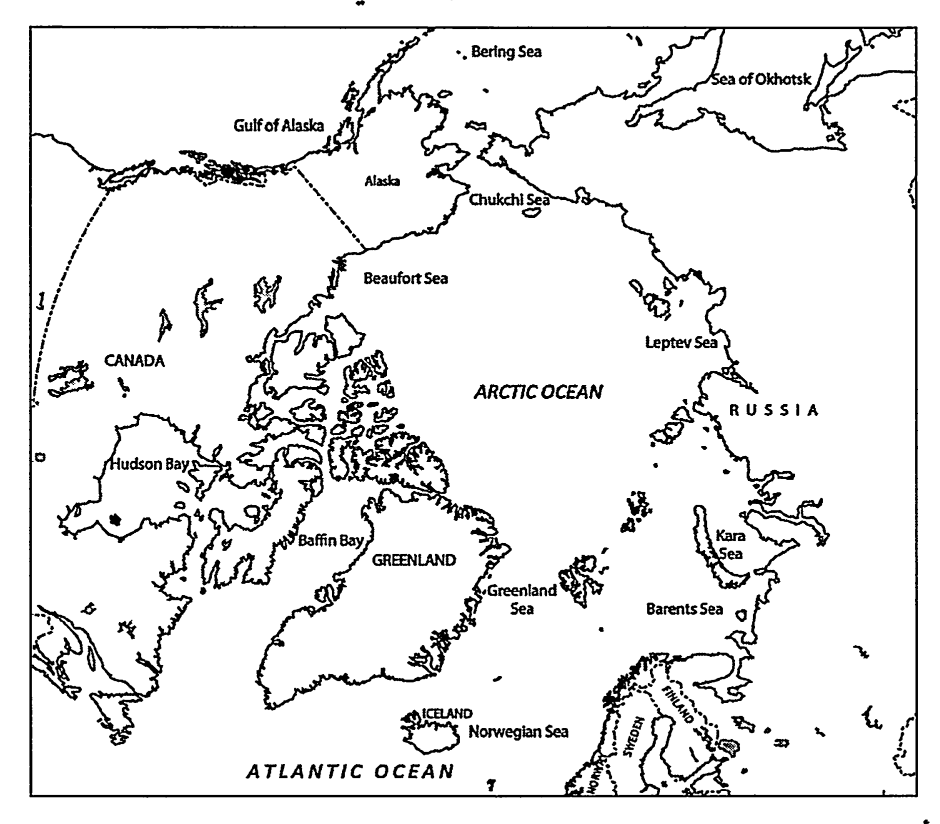
أولاً، منطقة القطب الشمالي عموماً، والممر الشمالي الغربي بخاصة، يمكن أن تصبح مفتوحة للملاحة الدولية، وهو سيناريو سيختصر آلاف الأميال من المسارات البحرية بين أوروبا وآسيا، في حين سيثير مخاوف بيئية وأمنية لعدد من الدول ولاسيما كندا. ثانياً، ربما تصبح مكامن النفط والغاز التي كانت تعتبر من الثروات التي لا يمكن استخراجها متاحة للاستخراج. وتقدّر هيئة المسح الجيولوجي في الولايات المتحدة أن أكثر من 22٪ من احتياطيات النفط والغاز غير المستغلة حول العالم موجودة في شمال الدائرة القطبية (USGS 2008). ويقدّر البعض أن أكثر من 10 مليارات طن متري من الهيدروكربون مدفونة تحت قاع المحيط المتجمد الشمالي (Geotimes 2007). ثالثاً، تمتلك الدول المجاورة حالياً الحافز لإرسال بعثات علمية سعياً للحصول على الأدلة اللازمة لتبرير قيامها بتوسيع مناطقها الاقتصادية الساحلية إلى أكثر من 200 ميل بحري.

وليس مفاجئاً أن قاع المحيط المتجمد الشمالي لم يتم مسحه جيداً، نظراً لموقعه البعيد والظروف البيئية القاسية وفائدته المحدودة في الماضي. ولكن حالياً، تقوم جميع الدول الساحلية بعمليات المسح الهيدروغرافية والجيوفيزيائية من أجل رسم الحدود الخارجية لجروفها القارية بصورة أفضل (IBRU 2008). ونلاحظ بشكل خاص الجهود الروسية للمطالبة بملكية حيد لومونوسوف Lomonosov (انظر الشكل 6-2). وكانت لجنة حدود الجرف القاري التابعة للأمم المتحدة قد رفضت طلب روسيا سابقاً في عام 2002،

ولكن الاستكشافات العلمية الروسية ازدادت رغم ذلك أملاً في الحصول على أدلة مقنعـة لعرضها على اللجنة مرة ثانية عام 2009 (Geotimes 2007).

الشكل (6-1)

منطقة القطب الشمالي



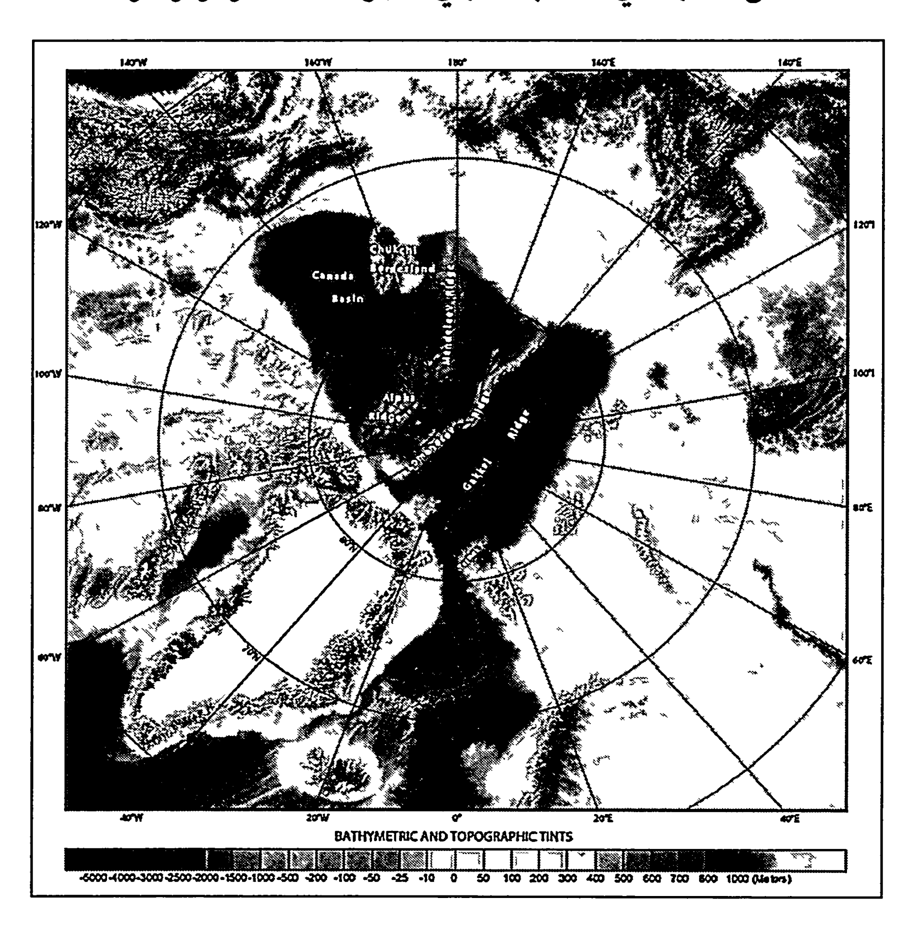
المصدر: مأخوذة من موقع Geology.com (2008).

إن حيد لومونوسوف هو إحدى المزايا الطبيعية المميزة للمنطقة القطبية الشمالية التـي تمتد على مساحة تزيد على 1800 كيلومتر وترتفع نحو 3700 متر فوق قعر المحيط المتجمـد الشمالي (Rozell 2005). اكتشفته البعثات السوفيتية إلى خطـوط العـرض العليـا في عـام 1948 وأسمته تيمناً بميخائيل لومونوسوف. ويقسم هذا الحيد المحيطي حـوض المحـيط المتجمـد الشـمالي إلى جـزأين رئيسـيين: همـا حوضـا أوراسـيا وأميراسـيا Amerasia (Jakobsson et al. 2003). وفي صيف عام 2007، أطلقت الدنمارك بعثة دام عملها مـدة

شهر بهدف إثبات أن الحيد الموجود تحت الماء كان في يـوم مـن الأيـام ملتصـقاً بجرينلانـد (أرض دنماركية)، ممـا يجعلـه امتـداداً جيولوجيـاً لأراضـيها (Olsen 2007). وفي الآونـة الأخيرة، وفي محاولة ملحوظة لدحض النتائج الروسية، تعاون علماء مـن كنـدا والـدنمارك لإجراء دراسة مشتركة في محاولة لإثبات أن الحيد هـو امتـداد للقـارة الأمريكيـة الشـمالية (Boswell 2007). وسوف تتواصل المطالبات بالحيد المغمور بالمياه ويبقى مثار خلاف إذا صحت توقعات وزير الموارد الطبيعية الروسـي بأن حيد لومونوسوف يمكن أن ينـتج مـا يصل إلى 5 مليارات طن متري من الوقود المكافئ (Energy Daily 2007).

الشكل (6-2)

قياس الأعماق في القطب الشمالي يظهر فيه حيد لومونوسوف



المصدر: الخريطة الدولية لأعماق المحيط المتجمد الشمالي (2008) IBCAO.

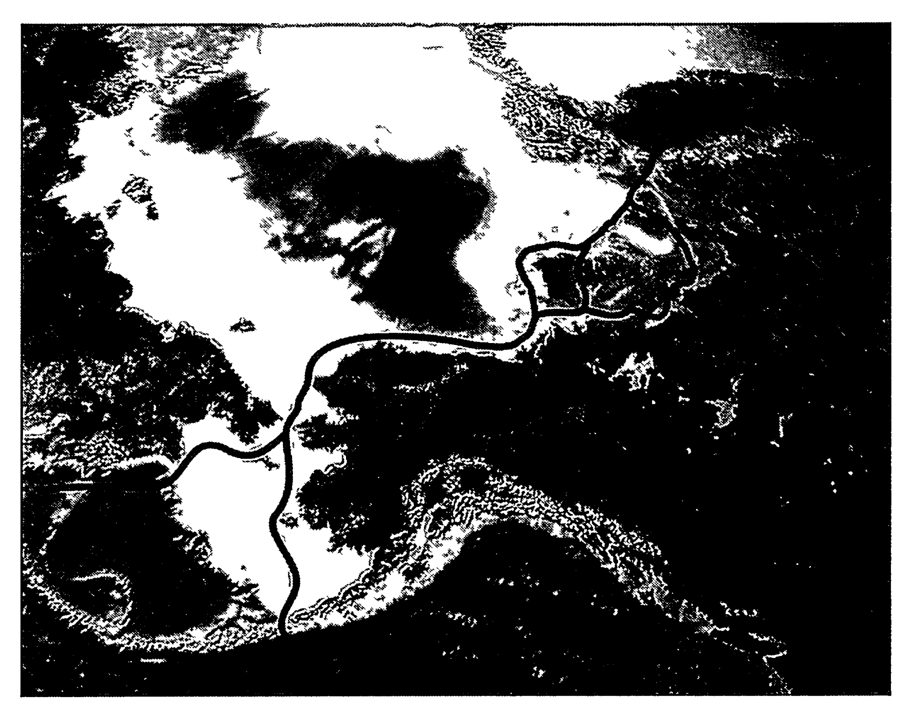
الممر الشمالي الغربي: خلفية تاريخية

من المزايا الجغرافية الأخرى للمنطقة القطبية الشمالية الكندية التي حظيت باهتمام كبير هناك الممر الشمالي الغربي؛ وهو مسار بحري يمر عبر أرخبيل منطقة القطب الشمالي لكندا ويصل بين المحيطين الأطلسي والهادي (انظر الشكل 6-3). وقد بدأ البحث عن ممر كهذا في عام 1497 عندما أرسل الملك هنري السابع المستكشف جون كابوت John Cabot للبحث عن مسار من أوروبا إلى المشرق يتيح للسفن تجنب الإبحار حول أفريقيا (NASA 2007). واستمرت البعثات بشكل دوري خلال القرن التاسع عشر من دون تحقيق كثير من النجاح. وأخيراً في عام 1906 أصبح مستكشف نرويجي يدعى رولد أماندسن Roald Amundsen وطاقمه أول المستكشفين الذين يقطعون الممر بأكمله بحراً، رغم أن الرحلة دامت أكثر من ثلاث سنوات (Zorzetto 2006). ويقع الممر الشمالي الغربي تقريباً على بعد 800 كيلومتر شمالي الدائرة القطبية الشمالية و1930 كيلومتراً تقريباً من القطب الشمالي الجغرافي (NASA 2007). وستكون منافع وجود ممر مفتوح كبيرة للتجارة الدولية وبخاصة بين أوروبا وآسيا. وسوف يتم اختصار بعض خطوط النقل الحالية بين القارتين بنحو 2500 ميل، في حين يمكن نقل النفط والمعادن من ألاسكا والشمال الكندي بسهولة أكبر إلى الأسواق الأوروبية (Geology.com 2008). ولكن للأسف، فإنه في معظم الوقت منذ تاريخ اكتشاف الممر لم يكن مساراً مجدياً لخطوط الشحن العالمية بسبب ضحالة المياه في بعض مناطقه وانسداده بمساحات واسعة من الجليد معظم أوقات السنة.

ولكن، لعل الممر الأسطوري يصبح خياراً قابلاً للتطبيق في المستقبل القريب بفضل الاحتباس الحراري وما يرافقه من تقلص للغطاء الجليدي في منطقة القطب الشمالي وذوبان الجليد البحري. وبناءً على التغيرات غير المسبوقة التي حصلت عامي 2007 و2008، توقع بعضهم أن تكون منطقة القطب الشمالي في فصل الصيف خالية من الجليد خلال عقد من الزمن (Biello 2008).

الشكل (6-3)

الممر الشمالي الغربي



المصدر: NASA (2006).

انعكاسات اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار

إن وجود المحيط المتجمد الشمالي في حالة تسمح بالإبحار فيه ووجود ممر شمالي غربي مفتوح، يتيح كثيراً من الفرص، وبخاصة للدول المجاورة له. إلا أن احتمال دخوله واستخدامه وملكيته هو في الأصل مثار جدل كبير. والوثيقة الواعدة أكثر من غيرها بخصوص تنظيم استخدامه هي اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار، التي تستمر بالتطور.

والمعاهدة المعروفة رسمياً باسم اتفاقية الأمم المتحدة الثالثة لقانون البحار، تم اعتمادها في عام 1982. وهذه الاتفاقية بموجب نصوصها وأحكامها تلزم الموقعين عليها باعتماد اللوائح والقوانين لمكافحة تلوث البيئة البحرية؛ كما تتضمن أحكاماً اقتصادية، وترسم الحدود القضائية للمناطق المحيطية التي يحق للبلدان المطالبة بها، وتشمل بحراً

إقليمياً بعرض 12 ميلاً ومنطقة اقتصادية خالصة بعرض 200 ميل بحري (Ridenour 2006). لكن الاتفاقية تنص أيضاً على أن الدول الساحلية تمتلك قاعاً بحرياً يزيد على المنطقة التي يبلغ عرضها 200 ميل بحري، ويمتد إلى 350 ميلاً بحرياً في حده الأقصى إذا كان امتداداً لجرفها القاري. وهذه نقطة خلاف استدعت اجتماع كندا والدنمارك والنرويج وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية في جرينلاند في قمة دامت يومين من أجل مناقشة قضايا السيادة الدولية في منطقة القطب الشمالي (Reuters 2008). وفي هذه الأثناء، أنهت الولايات المتحدة بعثة مهمتها رسم خريطة لقاع البحر بتكلفة 1.2 مليون دولار، تؤكد أن الجرف القاري بالنسبة إلى ألاسكا يمتد أكثر من 100 ميل بحري عن سواحل الولايات المتحدة زيادة على ما كان مقدراً سابقاً (Lee 2007). أما كندا، فلكي لا يتفوق عليها أحد، فقد أطلق رئيس الوزراء الكندي ستيفن هاربر برنامجاً لرسم الخرائط الجيولوجية بتكلفة 100 مليون دولار في محاولة لتحديد مكامن النفط والغاز والمعادن في منطقة القطب الشمالي الكندية والدفاع عن سيادتها (CBS News 2008).

وبالإضافة إلى مشكلات الحدود المتداخلة، كان هناك قلق ناشئ (ولكنه أساسي) من موضوع لم تتطرق إليه الاتفاقية، وهو مسألة مَن الذي يمكنه عبور الممر الشمالي الغربي. وترى كندا أن الممر موجود بالكامل ضمن المياه الداخلية التاريخية لأرخبيلها في منطقة القطب الشمالي، مما يفترض عدم وجود حق مضمون للسفن الأجنبية بالمرور البريء (IBRU 2008). ولكن الولايات المتحدة تعتبر القنوات المتعددة للممر بوصفها مضايق تستخدم للملاحة البحرية، ومن ثم، فهي ترى أنه يحق للسفن الأجنبية عبور الممر (IBRU 2008). ومع تزايد سهولة وإمكانية الملاحة في الممر معظم أوقات السنة، من المفترض أن تبدي مزيد من الدول اهتمامها باستخدام الممر لنقل البضائع والمواد بين أوروبا وآسيا. ومع أن التوترات موجودة أصلاً بين الولايات المتحدة وكندا حول استخدام الممر الشمالي الغربي، فمن المحتمل أن تأتي دول أخرى بحجج حول استخدام المسارات البحرية عبر وسط المحيط المتجمد الشمالي أو "طريق البحر الشمالي" Northern Sea Route.

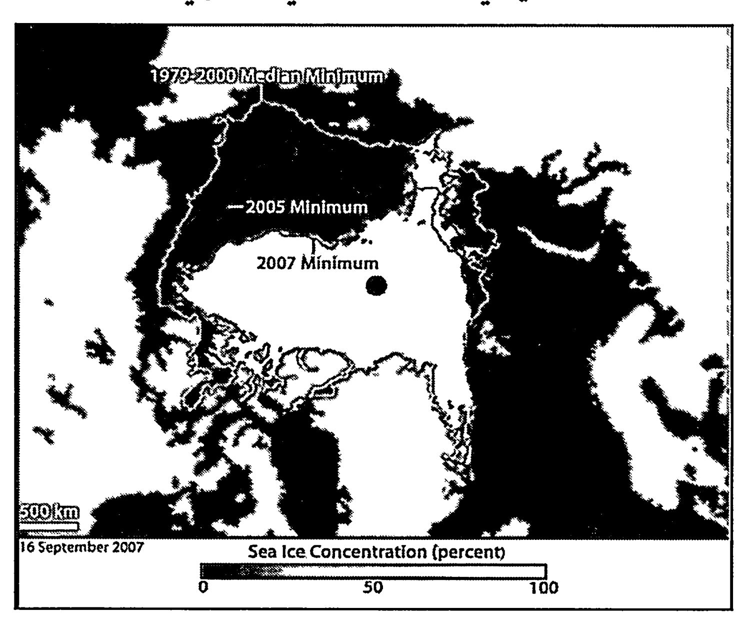
تغير المناخ وآثاره المتوقعة

مع أن المناخ يؤدي إلى زيادة الأمور تعقيداً، يبدو أن تغيره وآثاره المتوقعة هي من المحفزات الضرورية من أجل المضي قدماً في الجدل بين الدول ذات الحدود البحرية المتاخمة لبعضها. وبحسب سجلات أجهزة قياس درجة حرارة سطح الأرض، والمحفوظة منذ عام 1850، فإن 11 من أصل 12 سنة ممتدة من عام 1995 إلى 2006 تصنّف بين السنوات الاثنتي عشرة الأكثر ارتفاعاً في درجات الحرارة (IPCC 2007). ومع أن متوسط الحد الأدنى للغطاء الجليدي البحري كان ثابتاً نسبياً بين عامي 1979 و2000، فقد حصل انخفاض كبير في متوسط الحد الأدنى للحيز المساحي للجليد البحري خلال الفترة الممتدة بين عامي 2000 و2005 (انظر الشكل 6-4). وقد تسارعت عملية الذوبان بين عامي 2005 و2007 لتفتح المضايق التي كان الجليد يغلقها سابقاً معظم أوقات السنة. وبناءً على صافي معدل الذوبان الإضافي الذي حدث بين عامي 2005 و2007، فإن إجمالي الحد الأدنى لحيز الغطاء الجليدي تقلص بشكل قياسي إلى 4.1 ملايين كيلومتر في عام 2007، بعد أن كان يزيد على 5.3 ملايين كيلومتر في عام 2005 (NSIDC 2008a؛ انظر الشكل 6-5).

كان الممر الشمالي الغربي خالياً من الجليد في وقت ما من عام 2007، ومع حدوث ثاني أكبر انخفاض في حيز الغطاء الجليدي خلال صيف عام 2008، يبدو أنه يعِد بطريق شحن تجاري دولي مجدٍ في المستقبل القريب (انظر الشكل 6-6). ويقول المركز الوطني لبيانات الثلج والجليد التابع للولايات المتحدة US National Snow and Ice Data Center في أحد توقعاته، إنه إذا استمرت معدلات ارتفاع درجة حرارة الأرض الحالية، فإن المحيط المتجمد الشمالي يمكن أن يصبح خالياً من الجليد بحلول عام 2060 (Zellen 2008). كما تقترح نماذج توقعات المناخ الحالية أن الارتفاع سيستمر خلال القرن الحادي والعشرين مع أكبر ارتفاع للحرارة على البر وفي معظم خطوط العرض الشمالية، وارتفاع أقل في المحيط المتجمد الجنوبي وأجزاء من شمال الأطلسي (Homer-Dixon 2007؛ الشكل 6-7).

الشكل (6-4)

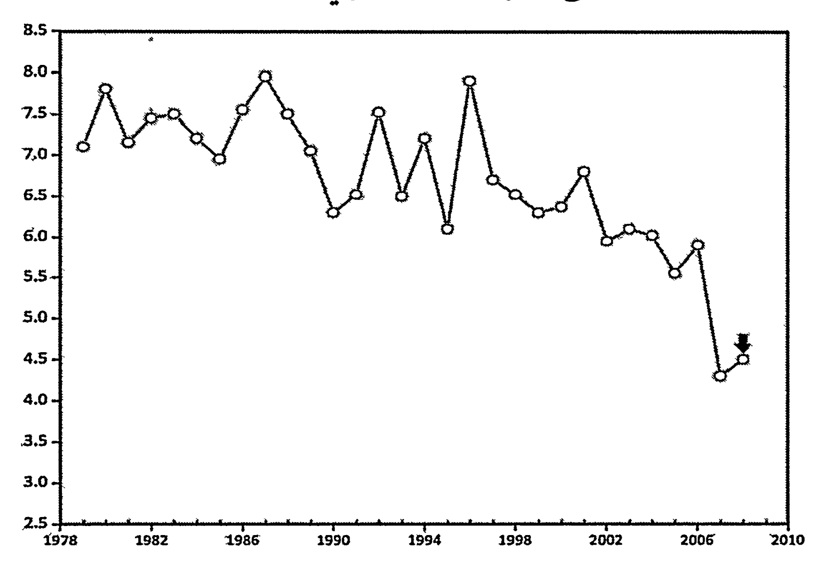
التغير في الغطاء الجليدي البحري



المصدر: NASA (2007).

الشكل (6-5)

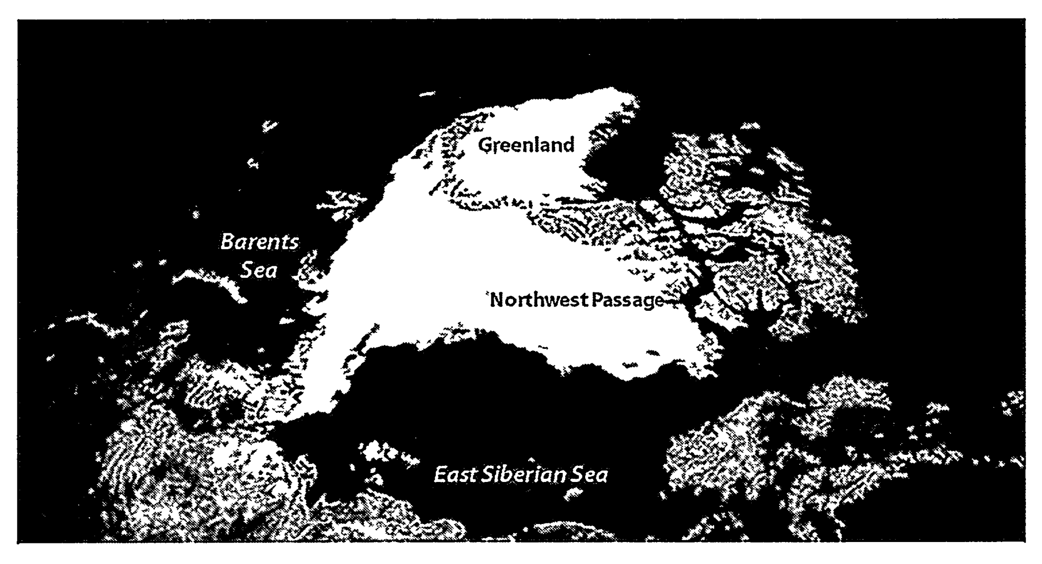
الحد الأدنى لحيز الجليد البحري (1979-2008)



المصدر: NSIDC 2008a.

الشكل (6-6)

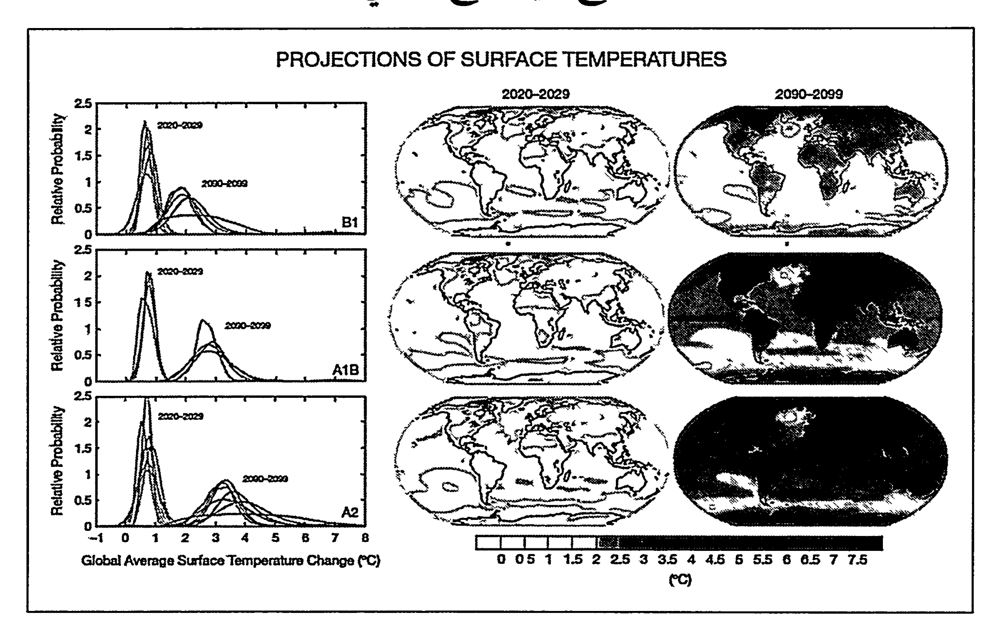
الممر الشمالي الغربي مفتوح



المصدر: NASA (2007).

الشكل (6-7)

نماذج تغير المناخ العالمي



المصدر: IPPC (2007).

اعتبارات عسكرية استراتيجية

عندما نسلم بتأثير تغير المناخ على الناس والأمكنة حول العالم، فإننا نتوقع أنه قد يؤثر سلبياً في تلك المناطق من العالم التي يكافح فيها النـاس للعيش عـلى الأراضـي الهامشـية (Goodman 2007; Gore 2006; Palka 2007). ولكن، وفي الوقت ذاتـه، فـإن ارتفـاع الحرارة المستمر لمياه منطقة القطب الشمالي وذوبان الجليد البحري فيهـا قـد يفـتح حـدوداً جديدة، بالإضافة إلى إمكانية الوصول إلى موارد طبيعية لم يتم استغلالها من قبـل. ويمثـل هذا سيناريوهاً هشاً؛ لأن الدول تتنافس على الموارد الطبيعية المربحة أو تتنافس للحصـول على إذن باستخدام خطوط الشحن الجديدة المتوافرة.

إن توقع فتح الممر الشمالي الغربي هو تطور حديث ذو مصلحة اقتصادية كبيرة لأوروبا وأمريكا الشمالية والبلدان الآسيوية التي تمارس التجارة العالمية. فالذوبان المستمر للجليـد في منطقة القطب الشمالي قد ألهم الروس لزرع أو نصـب علمهـم تحـت القطـب الشـمالي، وألهم كندا لإعادة تأكيد مطالبها السـيادية عـلى الممـر، والولايـات المتحـدة لتصـبح أكثـر حساسية في ما يخص ألاسـكا وحـق المـرور الحـر (BBC News 2007; Zellen 2008). وتشترك الدول الثلاث في مصلحة تحسُّنِ إمكانيـة الوصـول إلى مخزونـات الـنفط والغـاز المحتملة. وقد اتخذت كندا إجراءات لبناء قواعد وزيادة وجودها العسكري في المنطقـة، في حين قامت روسيا بعمليات تنقيب واسعة تحت الماء، وأجرت طلعات جوية عسكرية فوق المنطقة قامت بها قواتها الجوية (Zellen 2008). والأمر الذي لا يمكن تجاهله هـو إظهـار الدنمارك لتصميمها في 13 أغسطس 2002، عندما قطعت كاسحة جليـد دنماركيـة مضـيق ديفيس، لرفع علمها على هضبة جرداء على جزيـرة هـانز، وطالبـت بمسـاحة كبـيرة مـن الأرض شمالي خط العرض 69 (Polczer 2008). وجاء الرد الكندي بعد ثـلاث سـنوات عندما أنزلت سفينة تابعة للبحرية قواتها على شاطئ الجزيرة لوضع علم كنـدي بـدلاً مـن الدنماركي. أما النرويج ذات التجربة الأوسع في مجال التنقيـب في منطقـة القطـب الشـمالي (Gjertz and Morkved 1998)، فهي تطالب حالياً بنظام حكم طويل الأمد على منطقـة

القطب الشمالي (Hundley 2007). وفي هذه الأثناء، تنهمك البلاد بتوسيع صناعاتها الخاصة بالنفط والغاز الطبيعي وصيد الأسماك في مياه منطقة القطب الشمالي. ومازال النرويج وروسيا تعانيان جراء الحوادث المتكررة المتعلقة بمناطق صيد الأسماك بالقرب من جزيرة سفالبارد Svalbard النرويجية.

مع استمرار تغير المناخ بتعديل إمكانية الوصول إلى مياه منطقة القطب الشمالي وعبرها، ستكون هناك مخاوف مشتركة بين الدول المجاورة حول إمكانية الدخول والاستخدام والسيادة والأمن والحماية البيئية. ولن تعني الإشكاليات بالنسبة إلى القوات العسكرية الروسية والأمريكية والدنماركية والنرويجية والكندية بالضرورة تحولاً كبيراً عن مناطق المصالح التاريخية، بل يحتمل أن تحفز مزيداً من عمليات المراقبة و/ أو الوجود الجوي أو البحري داخل منطقة القطب الشمالي، وحتى ربما قوات برية من الولايات المتحدة وكندا وروسيا.

تحافظ الولايات المتحدة الأمريكية على وجود عسكري قوي في ألاسكا منذ الحرب العالمية الثانية، وتستمر بتشغيل قواعد عسكرية وبحرية وجوية داخل الولاية. وتتم مراقبة منطقة القطب الشمالي بوساطة نظم موجودة على منشآت قائمة، وعبر منصات جوية، وأخرى تحت الماء. كما ترددت الغواصات وطائرات الاستطلاع الروسية أيضاً على منطقة القطب الشمالي في الماضي. وفي صيف عام 2008، أطلقت روسيا تدريبات عسكرية واسعة النطاق بهدف حماية مواردها الشمالية (Cook 2008).

تزايدت محاولات كندا لفرض سيادتها إلى حد كبير تحت قيادة رئيس الوزراء ستيفن هاربر، الذي كان من بين مبادراته إنتاج ثماني سفن دوريات بحرية في منطقة القطب الشمالي، ونشر كاسحات الجليد العسكرية، وتركيب شبكة استشعار عن بعد (Environment News Service 2007). كما أعلن هاربر عن خطط لزيادة الوجود العسكري والذي يشمل مركزاً لتدريب الجيش على ظروف الطقس الباردة في خليج ريزوليوت، وإنشاء ميناء في المياه العميقة خاص لأهداف بحرية ومدنية في نانيسيفيك،

الواقعة على الطرف الشمالي لجزيرة بافن، ذات الموقع الاستراتيجي على المدخل الشرقي للممر الشمالي الغربي (redOrbit 2007). وفي صيف 2008، أجرت كندا أيضاً مناورات تدريبية عسكرية كبرى أطلقت عليها اسم "عملية نانوك 08" Operation Nanook 08، ذات أهداف محددة تتمثل بفرض السيادة وإظهار أنها صاحبة سيادة وأمن، تعلم كيفية العيش بشكل أفضل في البحر أثناء العمل في البيئة الشمالية (CTV News 2008).

خلاصة

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة سلسلة من ظواهر المناخ والطقس الكارثية حول العالم. وقد تشمل التغيرات المستقبلية: ارتفاع منسوب مياه البحار، وتغيرات واضحة في أنماط درجات الحرارة، والهطولات المطرية، وانحرافات في مسارات العواصف (Dando 2007. وجميع هذه التغيرات المناخية المتوقعة، أو أي منها، يمكن أن يكون له آثار كبيرة على الناس وأساليب حياتهم حول العالم. إلى ذلك، يمكن لكثير من هذه الحوادث المتعلقة بالمناخ أن تعمل بوصفها عوامل مثيرة لانعدام الاستقرار الإقليمي، حتى في المناطق النائية والقليلة الكثافة السكانية حول العالم (Goodman 2007; Palka،2007).

دلّ الحد الأدنى لنطاق الجليد البحري في عام 2008 على استمرار المنحى التنازلي الذي يتخذه الجليد البحري في منطقة القطب الشمالي (NSIDC 2008a؛ انظر الشكل 6–5). ومع أن الحد الأدنى كان في عام 2008 أكبر بقليل مما كان عليه خلال صيف 2007، فمن الجدير بالذكر أنه وللمرة الأولى منذ البدء بتسجيل التقارير بهذا الشأن تراجع الجليد بعيداً عن السواحل على طول الحدود الخارجية للمنطقة القطبية الشمالية بأكملها، ليفتح بذلك الممرين الشمالي الشرقي والشمالي الغربي (NSIDC 2008b).

يتوقع كثيرون أن الاحتباس الحراري الذي يسببه البشر، وذوبان الغطاء الجليدي والجليد البحري عن منطقة القطب الشمالي، وما يرافقه من ارتفاع في مستوى مياه البحر، سوف يستمر خلال القرن الحادي والعشرين (Douglas et al. 2001; Harvey 2000;

(Victor 2004. فإذا ما أصبحت هذه التوقعات المناخية واقعاً، فمن المحتمل حينئذ أن يكون الممر الشمالي الغربي متاحاً (على الأقل منطقياً) على أنه مسار بحري تمكن الاستفادة منه، ويمكن أن تكون المسارات الأخرى متاحة عبر المحيط المتجمد الشمالي المتوسط، وسوف تزداد بشكل كبير إمكانية الوصول إلى مخزونات الوقود الأحفوري الموجودة في منطقة القطب الشمالي. وإذا ما تحقق سيناريو من هذا القبيل، عندها يمكن أن تصبح منطقة القطب الشمالي مستقبلاً هي الحدود المتنازع عليها عالمياً.

حالياً، اتفقت الدول المطالبة بملكية المناطق القطبية الشمالية على جعل الأمم المتحدة تحكم بموضوع المطالبات الإقليمية المتضاربة (McLaughlin 2008). ولكن اتفاقية قانون البحار في حالتها الراهنة، وهي الأداة الرئيسية للأمم المتحدة التي ستكون الأساس في عملية اتخاذ القرارات، تبدو غير كافية لمعالجة كثرة من القضايا المستجدة. وفي هذه الأثناء، تقوم الدول الخمس الساحلية على منطقة القطب الشمالي بنصب معداتها العسكرية، وتستمر بإرسال بعثاتها الخاصة بالمسح ورسم الخرائط على الخطوط الساحلية للمنطقة القطبية الشمالية والجروف القارية وقاع المحيط المتجمد الشمالي.

الفصل السابع

إرث الأراضـي العسكرية الفيدرالية في الولايات المتحدة الأمريكية: نظرة إلى جغرافيا الماضي

وليام دو الثالث

مقدمة

تعدّ الجغرافيا التاريخية واستخدام الأراضـي العسكرية ذات الصلة بالمنشآت العسـكرية في الولايات المتحدة مكوناً مهماً من مكونات المشهد الاتحادي، وغالباً ما يسـاء فهمـه. وتبعـاً لاستخدام المنشآت العسكرية وارتباطها بالشأن العسـكري، تشـمل: الحصـون، والمخـافر، والمعسكرات، والمحطات، والقواعد، والمستودعات، والملاحق، والمراكز. وفي هـذا الفصـل يتم اسـتخدام مصـطلح "القاعـدة" base عـلى نحـو شـامل لوصـف كـل هـذه المنشـآت. والأراضـي المكونة لهذه القواعد هي مجموعة معقدة ومتنوعة جغرافياً من المساحات المؤجرة والمملوكة اتحادياً، والتي تعتبر رصيداً وطنياً مهـماً نظـراً لاسـتخدامها الأساسـي باعتبارهـا مناطق تدريب واختبار ولجميع عواملها البيئية والاجتماعية/ المجتمعية. وقـد تطـورت هـذه الأراضـي على مدى الـ150 سنة الماضية لدعم المتطلبـات الدفاعيـة للـبلاد، حيـث وفـرت إرثاً وعلامة مميزة مهمة لبداية بلدنا وتطوره وتوسعه غرباً. كما تعكس هذه المنشـآت الـنماذج المتغيرة للطريقة التي قامت من خلالها الحكومة بوضع واستخدام قواتها العسكرية على مدى قرنين من الزمن (Doe and Palka 2009).

أما اليوم، فتشكل الأراضـي العسكرية أكثر من 30 مليون فدان من الأرض الاتحادية في جميع أرجاء الولايات المتحدة، وتوفر مصـدراً مهـماً للتـدريبات العسـكرية ونشـاطات الاختبار. كما توفر هذه الأراضـي مسـاحة لتموضـع القـوات وإسـكان أفـراد عـائلاتهم،

وتقدم مزايا اجتماعية واقتصادية مهمة للمجتمعات المحيطة بها. وكما سنناقش في هذا الفصل، تقدم أيضاً هذه المنشآت مزايا بيئية غير مقصودة للمجتمع، من حيث الموارد الطبيعية والثقافية على حد سواء، وذلك نظراً لمواقعها المتفردة والحماية من التطورات الخارجية. ففي كثير من الحالات، أصبحت الأراضي العسكرية ملجأً أساسياً لكثير من الأنواع المهددة والمعرضة لخطر الانقراض. ومن المعلوم أن النشاطات العسكرية على هذه الأراضي يمكن أن تكون مدمرة بحد ذاتها، مما يسفر عن مجموعة متنوعة من الآثار البيئية التي تجب معالجتها وتخفيفها من خلال القوانين التنظيمية وممارسات إدارة الأرض بصورة مستدامة. وتخضع هذه الأراضي بشكل متزايد للتدقيق العام، ويتم التعدي على ما يقرب من حدودها من قبل نشاطات القطاعين الخاص والعام وقطاع التجارة. ولذلك، فإن هذه الأراضي وإرثها تواجه تحديات جديدة تفرضها ظواهر طبيعية داخلية وخارجية لها ظروفها وإشكالاتها الجغرافية والبيئية والاجتماعية على مدى العقود المقبلة. كما أن الأساليب الجديدة والناشئة في إدارة الأراضي داخل المنشآت وخارجها آخذة في التبلور، وستحدد مستقبل كثير من هذه الأراضي.

تعرّف الأراضي العسكرية في الولايات المتحدة بأنها الأراضي الاتحادية التي تسيطر عليها القوات العسكرية الأربع (أي البرية، والجوية، والبحرية، ومشاة البحرية "المارينز") في خمسين ولاية وإقليمياً. وتتألف هذه الأراضي من ملكيات موروثة من الحكومة الاتحادية وأراض مسحوبة بموجب موافقة الكونجرس من مخزون الأراضي الاتحادية عموماً. في العادة، يتم تقديم الأراضي المسحوبة إلى الجيش لمدة 25–50 سنة، وتشمل في الغالب أراضي من مكتب إدارة الأراضي في غربي الولايات المتحدة. ويمكن تجديد تلك المدة بموافقة من الكونجرس وعند إتمام فحص بيئي كامل. ورغم أن القوات العسكرية قد تتدرب على أراض عامة أخرى، وبشكل أقل على أراض خاصة لفترات قصيرة، فإنه لا يشار عادةً إلى هذه الأراضي على أنها أراض عسكرية. وبالإضافة إلى المساحة الحالية للأراضي العسكرية، ثمة كثير من القواعد التي كانت تستخدم في السابق، والتي أعيدت إلى القطاع العام أو الخاص.

لقد احتفظت بعض هذه الأراضي بكثير من خصائصها العسكرية، رغم أنها لم تعد تستخدم لهذا الغرض. ومن أبرز أمثلة ذلك، المركز العسكري السابق، بريزيديو سان فرانسيسكو، المطل على خليج سان فرانسيسكو وجسر البوابة الذهبية في شمالي كاليفورنيا. ففي عام 1898، عند اندلاع الحرب الإسبانية-الأمريكية، أصبح البريزيديو من المراكز العسكرية الرئيسية للدولة. وفي عام 1989، قرر الكونجرس وجوب إغلاق البريزيديو من حيث هو مركز عسكري؛ وفي عام 1994، تم تحويل أراضيه إلى خدمة المتنزهات الوطنية ليصبح جزءاً من منطقة الاستجمام الوطنية في البوابة الذهبية. وتشكل هذه 1480 فداناً من الأراضي الساحلية ذات القيمة العالية والمستقرة نسبياً، ومن الجروف ذات القمم المغطاة بالأشجار المطلة على خليج سان فرانسيسكو. وأصبحت الأبنية والمنازل والمساحات التي استخدمها الجيش في السابق مساكن ومتنزهات لمجتمع يضم 2500 شخص، وشركات لحوالي 4000 شخص حالي (National Park Service 2009). والقصة الكاملة لهذا التحول الذي طرأ على البريزيديو من مركز عسكري إلى متنزه وطني هي قصة مذهلة وموثقة جيداً عن إرث الأراضي العسكرية في خليج سان فرانسيسكو- جزيرة ألكاتراز. ورغم الشهرة الكبيرة لهذه الجزيرة في زمانها بوصفها سجناً اتحادياً، فقد طوّر الجيش الجزيرة في السابق واستخدمها حصناً على ساحل المحيط الهادي في منتصف عقد الخمسينيات من القرن العشرين لحماية مدينة سان فرانسيسكو المتنامية (Benton 1998).

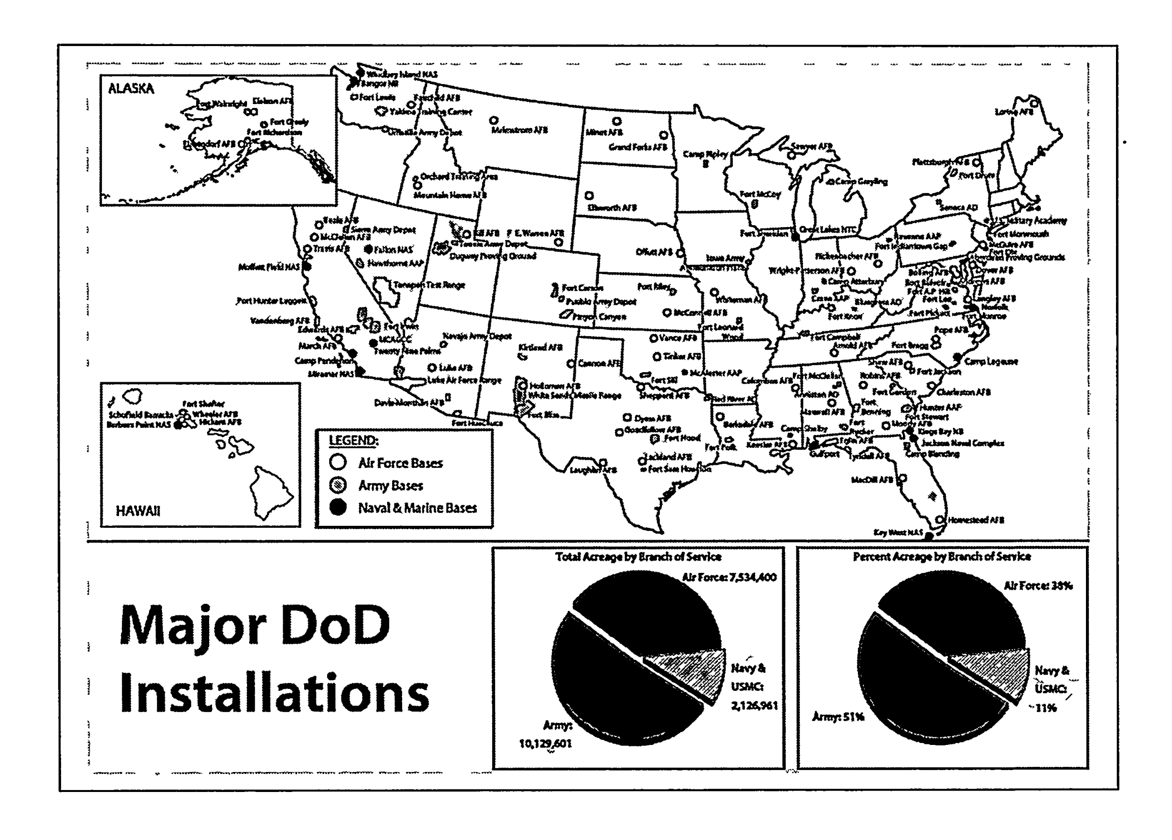
تعريف الأراضي والمنشآت العسكرية

يشمل مصطلح الأراضي العسكرية جميع الأراضي ضمن حدود منشأة عسكرية، ليشمل منطقتين رئيسيتين: 1) المعسكر؛ وهو مكان مكتظ بالمباني أو "مدينة" تضم وتدعم الموظفين العسكريين وعائلاتهم (المعسكرات الأكبر يمكن أن تدعم ما يصل إلى 50 ألف موظف حكومي وعنصر عسكري وعائلاتهم). و2) الميدان ومجمع التدريب؛ ويتألف من ميدان للتدريب على الرمي بالذخائر الحية ومناطق إجراء المناورات لتدريب العناصر والوحدات والمعدات واختبارها (Doe and Palka 2009). ويوجد أكثر من 3700 موقع

حيث تقوم وزارة الدفاع بإدارة الأرض في خمسين ولاية. ولتوضيح التنوع الجغرافي لهذه المواقع، فإن الشكل (7-1) يبين 200 موقع من مواقع أكبر المنشآت، التي تضم نحو 18 مليوناً، أو نحو 60٪ من إجمالي الأراضي العسكرية حالياً. كما يصور الشكل ملكية الأراضي الخاصة بأقسام الجيش الأربعة. ويظهر من الرسوم البيانية الدائرية أن الجيش يدير أكبر نسبة مئوية من الأراضي (نحو 51٪)، في حين يدير سلاح الجو نحو 38٪ منها، وسلاح البحرية ومشاة المارينز نحو 11٪. ويمكن أن يختلف حجم هذه المنشآت اختلافاً كبيراً، ويراوح من عدة آلاف من الفدادين المتجاورة إلى ما يزيد على مليون فدان. وتقع أكبر هذه المنشآت في جنوب غربي الصحراء حيث سهّل الاتساع والاستيطان حيازة الأراضي الاتحادية عبر التاريخ (Doe et al. 1999; Doe et al. 2007).

الشكل (7-1)

خريطة تبين 200 منشأة عسكرية في الولايات المتحدة



عادةً ما يخصص القسم الأكبر من المنشأة لمهمات التدريب والاختبار؛ لأن المساحة الواسعة تلزم لدعم نظُم إطلاق الأسلحة والمناورة بالمركبات المجنزرة وذات العجلات وهبوط الطائرات وإرساء السفن والتدريب التكتيكي ونشاطات العمليات الأخرى. وتضم منطقة المعسكر السكان العسكريين العاملين في المنشأة وأفراد عائلاتهم، ومعظم البنية التحتية لدعم أعمال الصيانة والإمدادات اللوجستية والقيادة والتحكم بالوحدات العسكرية. وغالباً ما يشار إلى منطقة المعسكر بمنطقة الحامية. والمنشآت العسكرية الكبرى هي في الأساس مدن صغيرة، وتماماً مثلما يكون لأية مدينة أو بلدة صغيرة بنية تحتية أساسية، كذلك يكون لكل منشأة عسكرية منشآت لتوليد الطاقة ومراكز لتدوير النفايات ومحطات لمعالجة المياه والمواصلات ولوازمها، على سبيل المثال، وتشكل جميعها جزءاً لا يتجزأ من منطقة المعسكر.

ومن ثم، فإن منطقة المعسكر هي المكون الذي يضم أبنية المنشأة؛ وهو مخصص لإسكان ودعم العسكريين وعائلاتهم، بالإضافة إلى الخدمات اللوجستية والصيانة والمنشآت التشغيلية لدعم الوحدات التابعة المتعددة المخصصة للقاعدة. وداخل منطقة دعم الحياة المكتظة بالسكان هذه، يلاحظ المرء وجود مدارس ومتجر واحد أو أكثر خاص بالقاعدة (يشبه المتاجر الكبيرة)، ومخزن تموين، ومحطات خدمة، وعديد من المحلات ومطاعم الوجبات السريعة، ودور السينما، والمتاجر الحرفية، والمستشفيات، ومكتب بريد، وتشكيلة من المباني الإدارية، ومنشآت الترفيه والاستجمام؛ لدعم عناصر الخدمة وعائلاتهم. بالإضافة إلى ذلك، توجد أنواع متعددة من المنشآت المصممة لإيواء الوحدات التنظيمية ومركباتها وطائراتها وسفنها ومنظومات أسلحتها ومعداتها. وهناك أيضاً مجموعة المركبات المخصصة لاستخدامات العسكريين ومحلات الصيانة والمستودعات وحظائر الطائرات ووسائل الاتصالات والمرافق الأخرى التي تحيط بالمقارّ وثكنات الوحدات التابعة الخاصة بالمنشأة (Doe and Palka 2009).

ويتوافق حجم منطقة المعسكر ونطاقها مع حجم الوحدة الرئيسية و/ أو مجموعة المؤسسات والوظائف الخاصة بالمنشأة. وقد يراوح عدد السكان المقيمين في القاعدة من

بضع مئات إلى ما يزيد على 84 ألفاً كما في حالة محطة نورفولك البحرية (Military Times 2009)، أو 91 ألفاً في حالة حصن بينينج العسكري في جورجيا (Military Times 2009). وفي أيام العمل، تتضخم أعداد السكان في القاعدة بسبب تدفق الموظفين المدنيين من المجمعات المجاورة. ومع أن لكل فرع من فروع الخدمات العسكرية منشآت مختلفة قليلاً لدعم مهماته المحددة، فإن جميع مناطق المعسكرات متشابهة جداً من حيث التصميم والوظائف التي يمارسونها (Doe and Palka 2009).

إن تخطيط المنشآت العسكرية وتصميمها وبناءها يعد عملاً يكلّف عدة ملايين من الدولارات تدعمه مؤسسات هندسية تجارية لها علاقة وثيقة بوزارة الدفاع. وغالباً ما يتم تنفيذ التصاميم القياسية لتحقيق الاستخدام الأمثل للمساحة والحفاظ على الوظائف العسكرية والمدنية منفصلة في قاعدة ما. ينجم عن تصميم مساكن العائلات والمدارس حيّ ومجتمع متماسك يدعم أفراد الخدمة والانتشار المستمر والضغوط التي ترافق الحياة العسكرية (Doe and Palka 2009). وفي الآونة الأخيرة، تم بناء مناطق السكن العسكرية وصيانتها بموجب عقود طويلة الأجل مبرمة مع قطاع الإسكان التجاري، وهي تشبه بشكل ملحوظ التقسيمات التقليدية في المجتمعات المدنية المحيطة بها.

التطور التاريخي للأراضي العسكرية

بدأ تطور الأراضي العسكرية في الولايات المتحدة أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، عندما قام الجيش ببناء سلسلة من الحصون ذات المواقع الاستراتيجية على طول السواحل وممرات المياه الداخلية في بعض الولايات الشرقية، وغرباً حتى نهر الميسيسبي، للحماية من الهجمات الخارجية والداخلية. من الأمثلة على ذلك، لاتزال هناك منشأة عسكرية عاملة حتى اليوم، وكانت في السابق قلعة تم بناؤها على نهر هدسون في ويست بوينت، نيويورك، والتي أصبحت لاحقاً موقعاً للأكاديمية العسكرية الأمريكية في عام 1802. وتعتبر ويست بوينت حالياً موطناً لـ 4400 طالب، وعدة آلاف من الموظفين

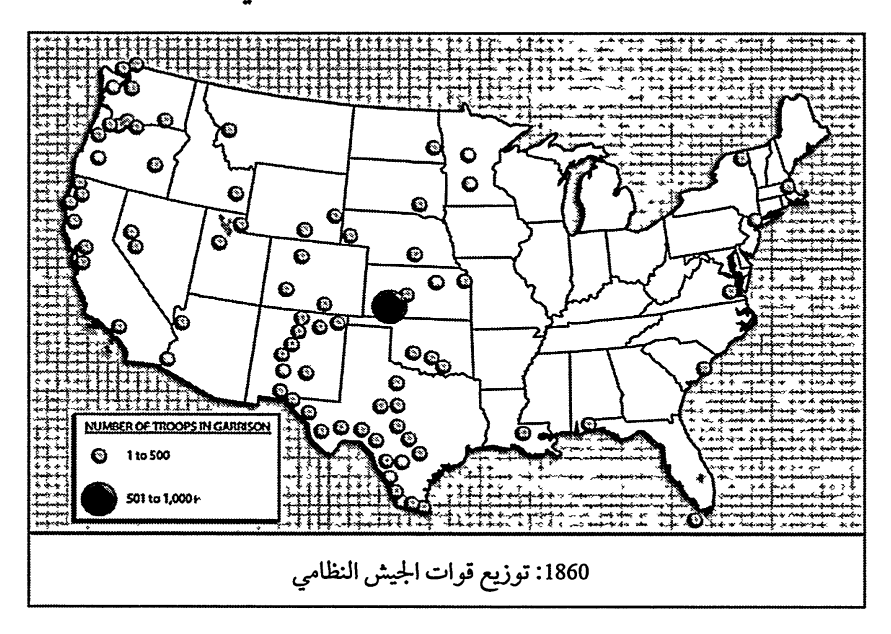
وأعضاء هيئة التدريس وأفراد عائلاتهم (Doe 2009b; Doe and Palka 2009). وتشمل الأمثلة الأخرى خلال الحقبة المذكورة، قلاع الخليج التي بنيت على طول مرفأ مدينة نيويورك (مثل حصون جاي وهانكوك وهاملتون)، والقلاع الساحلية على طول الساحل الشرقي وخليج المكسيك؛ ومنها حصون مورجان وجاينس في ألاباما وحوض سفن البحرية في بنساكولا في فلوريدا (Balbach et al. 2008).

تم نشر قوات الجيش أولاً باتجاه الغرب في عام 1845 عند اندلاع الحرب المكسيكية-الأمريكية، قبل توسع المستوطنين الكبير باتجاه الغرب. وقد جلبت بداية الحروب الهندية في عام 1860 كثيراً من القوات إلى ولايتي كنساس وجبال روكي (انظر الشكل 7-2). ومع انتهاء الحرب الأهلية، ازداد حجم الجيش الاتحادي إلى حد كبير، وتمركزت القوات في أنحاء الولايات الجنوبية، وأيضاً في أنحاء الغرب والنصف الغربي (انظر الشكل 7-3). وخلال الفترة 1850-1895، تمت إقامة مجموعة من حصون الحدود التابعة للجيش عبر السهول والغرب الداخلي والسواحل الغربية لدعم هجرة المستوطنين عبر منظومة ممرات قائمة، وبناء شبكة سكك حديدية قارية. ومن أمثلة ذلك، هناك حصن فورت سكوت وحصن فورت ريلي في كنساس، والأخير هو المحطة التي انطلقت منها فرقة فرسان الجنرال جورج كاستر السابعة لتلاقي مصيرها في معركة ليتل بيغهورن؛ وهي من أشهر المواجهات في الحروب الهندية (Balbach et al. 2008).

واليوم، يعتبر كثير من هذه الحصون الأصلية، مثل فورت لارند في نبراسكا، وفورت لارامي في ولاية يومنغ، وفورت يونيون في نيو مكسيكو، مواقع تاريخية وطنية يديرها نظام المتنزهات الوطنية، وهي مفتوحة للعامة بوصفها ذكرى تاريخية. وكثير من مواقع الحصون الأصلية الأخرى من منتصف عقد الستينيات من القرن التاسع عشر، مثل كامب كولينز على ضفاف نهر كاش لا بودر في إقليم كولورادو سابقاً، لم تعد موجودة، ولكنها تحولت إلى مراكز كبرى مأهولة بالسكان بعد قرن من الزمن، مثل مدينة فورت كولينز على طول سلسلة جبال كولورادو (Doe 2009b; Doe and Palka 2009).

الشكل (7-2)

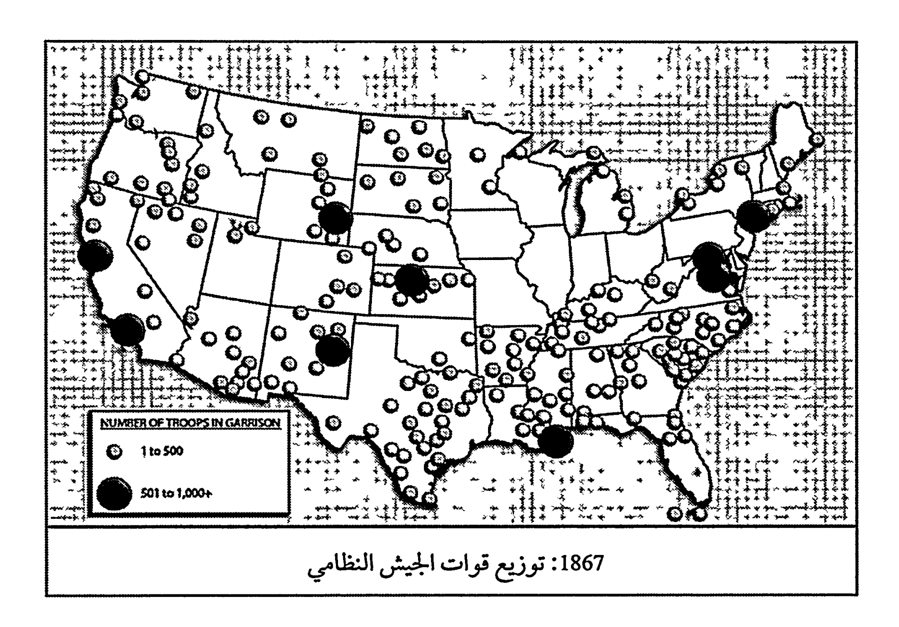
خريطة تمركز قوات الجيش الأمريكي 1860



1860: توزيع قوات الجيش النظامي

الشكل (7-3)

خريطة تمركز قوات الجيش الأمريكي 1867



1867: توزيع قوات الجيش النظامي

شهدت الفترة 1900–1950 توسعاً كبيراً للأراضي العسكرية في الولايات المتحدة، وبشكل خاص لحشد القوات وتدريبها من أجل القتال خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. ومن أمثلة القواعد التي تم إنشاؤها خلال الحرب العالمية الأولى هناك فورت مونماوث وفورت ديكس في جيرسي، وفورت درام (كان في الأصل معسكر باين) في نيويورك، وفورت بيننج في جورجيا، وفورت ماكليلان في ألاباما (Balbach et al. 2008).

وهناك مثالان على التوسعات في الحرب العالمية الثانية؛ وهما الأراضي التي تم الحصول عليها لدعم مناورات لويزيانا في جنوب شرقي الولايات المتحدة استعداداً للمعركة البرية في أوروبا، والتدريبات المسلحة للجنرال جورج باتون في صحراء موجاف، وذلك في إطار مركز تدريب الجيش في صحراء موجاف (على طول تقاطع حدود ولايات كاليفورنيا وأريزونا ونيفادا). وتشغل منطقة مناورات لويزيانا مساحة تبلغ 2.2 مليون فدان (89000 هكتار) من الأرض، وقد تم استخدام أكثر من 56 مليون فدان (ضعف ما تملكه وزارة الدفاع حالياً من الأراضي) من قبل الجنرال باتون وقواته المسلحة من أجل التدريب على المدرعات تحسباً لنشرها في شمال أفريقيا وأوروبا. كما تم إنشاء عدد من المعسكرات الأساسية في أنحاء صحراء موجاف، وبدأت البلدات الصغيرة بالنمو حولها (Bischoff 2000). تبقى صحراء موجاف حالياً مكاناً مهماً لتدريب الجيش في الصحراء، رغم تقليص مساحات الأرض إلى حد كبير. وبقي كثير من معسكرات الجيش الأصلية التي أنشئت قبل الحربين العالميتين الأولى والثانية وخلالهما، من المنشآت العاملة حتى يومنا هذا. وهي تشمل فورت براغ (كارولينا الشمالية) وفورت بيننج (جورجيا) وفورت كامبل (كنتاكي) وفورت هود (تكساس) وفورت كارسون (كولورادو) (Doe 2009b; Doe and Palka 2009; Balbach et al. 2008).

خلال الحرب العالمية الثانية، أقام الجيش علاقات تعاون مهمة مع الوكالات الاتحادية والإدارية الأخرى، ولاسيما جهاز "خدمة الغابات الأمريكية". ويعود التدريب العسكري في الغابات الاتحادية إلى الحرب العالمية الأولى مع تفعيل معسكر شيلبي بولاية ميسيسبي ضمن غابة ديسوتو الوطنية. في عام 1941، تم إنشاء فورت فولك، لويزيانا،

داخل غابة كيساتشي الوطنية من أجل التدريب على حرب الأدغال، كما تم إنشاء معسكر هيل في الغابة الوطنية للنهر الأبيض في كولورادو من أجل تدريب القوات على تسلق الجبال ومهارات البقاء على قيد الحياة في ظروف الطقس الباردة. وأصبح معسكر هيل مقراً للفرقة الجبلية العاشرة خلال الحرب العالمية الثانية. وبالمثل، أقامت مشاة البحرية مركزاً للتدريب على حرب الجبال في غابة همبولد-توياب الوطنية عام 1951 لتدريب العناصر الذين توجهوا إلى مسرح الحرب الكورية (Doe 2009b; Doe and Palka 2009).

شهدت حقبة الحرب الباردة استمرار إنشاء منشآت عسكرية دائمة لدعم القوات المسلحة التي يتزايد حجمها، مع أن كثيراً من الوحدات تمركزت خارج الولايات المتحدة في كوريا وأوروبا. وجاء هذا النمو تلبيةً للحاجة إلى تدريب منظومات الأسلحة البعيدة المدى واختبارها، واستيعاب الحركة المتزايدة للمركبات المدرعة وتشكيلات القوات التي يتم حشدها. فخلال هذه الحقبة، حصلت تطورات مهمة في ما يخص القوى الجوية والقواعد البحرية لدعم ترسانة منظومات الأسلحة الحديثة المشتركة بالحرب الباردة. وبقي كثير من الأراضي التي تم الحصول عليها خلال هذه الفترة، ولاسيما لصالح سلاح الجو الأمريكي، منشآت عسكرية فاعلة بما فيها القواعد الكبرى مثل قاعدة ليتل روك الجوية (أركنساس) وقاعدة إدواردز الجوية (كاليفورنيا)، بالإضافة إلى أكاديمية القوات الجوية الأمريكية في كولورادو سبرينغز (كولورادو) (Doe and Palka 2009).

خلال القرن الماضي، كانت المشاركة العامة قليلة في عمليات حيازة الأراضي العسكرية. وتم إجراء المعاملات العقارية عموماً من خلال إجراءات إدارية مرتبطة بشؤون الأمن القومي. ولم تنشأ نزاعات الأراضي حتى أواخر عقد الخمسينيات من القرن العشرين، فتم وضع المبادئ التوجيهية القائمة على السياسة. وقد نشأت هذه النزاعات نتيجة الخطط التوسعية لوزارة الدفاع من أجل حيازة 13 مليون فدان إضافي من الأراضي في الولايات الغربية (Crotty 1995). وبين عامي 1945 و1970 رصد

الكونجرس أكثر من 100 مليار دولار للمنشآت العسكرية الغربية، ما جعل وزارة الدفاع هي المؤسسة الكبرى في الغرب (Nash 1999). وتماشياً مع طلب وزارة الدفاع المتزايد على الأراضي خلال منتصف عقد الخمسينيات من القرن العشرين، عقد عضو الكونجرس كلير إينجل من كاليفورنيا أولى جلسات الاستماع المعروفة بجلسات إينجل، لمعالجة مسألة سحب الأراضي من الأملاك العامة. وكانت النتيجة النهائية لهذه الجلسات إصدار قانون إينجل لعام 1958، الذي وضع المبدأ الأساسي الذي ينص على أن قيام وزارة الدفاع بسحب أراض تزيد على 5000 فدان يتطلب إصدار قانون من الكونجرس مع ما يرافقه من جلسات استماع عامة (Wilcox 2007). باختصار، وضع هذا القانون حداً للممارسات التي كانت تجري بموجبها المعاملات العقارية العسكرية من دون رقابة عامة.

في أواخر عقد السبعينيات وخلال عقد الثمانينيات من القرن العشرين، كان هناك قراران بارزان لهما تأثير في الحضور العسكري في الولايات المتحدة، ولاسيما في الغرب. حدث الأول في عام 1979 عندما أعلنت إدارة كارتر عن خطة لبناء منظومة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات إم إكس على مضمار سباق بمساحة 25 مليون فدان في منطقة الحوض العظيم في ولايتي نيفادا ويوتا (Crotty 1995). وقد اعترض على هذه الخطة مُلّاك الأراضي الخاصة، وهيئات إدارة الأراضي الاتحادية والمجموعات البيئية. وقد فشلت خطة كارتر بعد الانتخابات الرئاسية عام 1980، عندما أصبح رونالد ريغان رئيساً للبلاد واختار نشر صواريخ إم إكس في صوامع معدلة، بسبب التكاليف الباهظة لخيار مضمار السباق والمعارضة القوية التي لقيها في الغرب. والثاني، قانون الأراضي العسكرية (القانون العام 99-606)، الذي وضع موضع التنفيذ في عام 1986، وسمح بسحب عديد من الأراضي الكبيرة في الغرب، ولكنه حدد مدتها بخمسة عشر عاماً، وطلب إعداد بيانات الأثر البيئي الشامل (Wilcox 2007). كما أصبح عموم الأمريكيين خلال هذين العقدين أكثر وعياً بالقضايا البيئية والتأثيرات السامة التي خلفتها عمليات إنتاج الذخائر والمواد الكيماوية في الحروب السابقة، بالإضافة إلى صراع فيتنام (Doe and Palka 2009).

أدت نهاية الحرب الباردة في مطلع عقد التسعينيات من القرن العشرين وتقليص حجم الجيش الأمريكي إلى سلسلة من عمليات إغلاق وإدماج المنشآت بموجب أمر رسمي من الكونجرس، كان يعرف سابقاً بـ "إعادة ترتيب القواعد وإغلاقها" (Balbach et al. 2008). ومع أن هذه التغييرات أثرت في كثير من المجتمعات المدنية المجاورة، فقد جرت محاولات كثيرة لتحويل هذه المنشآت والأراضي إلى استثمارات محلية لدفع النمو الاقتصادي.

الظروف البيئية والنظام البيئي

بالإضافة إلى الدور المهم الذي تؤديه الأراضي العسكرية في توفير المساحات اللازمة للتدريب والاختبار، فقد أصبحت موضع تقدير كبير من حيث دورها في النظم البيئية وقيمتها البيئية. وهذه الحقيقة هي – نوعاً ما – من الأمور غير الواضحة للعامة، الذين يعتبرون القواعد أراضي قفراء تغطيها الذخائر غير المنفجرة وفضلات الأطعمة ونفايات الذخائر العسكرية وغيرها من بقايا النشاطات العسكرية. وبالفعل، بعض أجزاء هذه الأراضي العسكرية، وبخاصة المناطق التي تتأثر بإطلاق نيران الذخائر الحية لمعرفة مداها، تتأثر بشدة وتحتوي على مكونات خطرة وسامة من الذخائر. ولكن هذه المناطق المخصصة لتكون "مناطق للتضحية بها" لا تمثل سوى جزء صغير من إجمالي الأراضي العسكرية. وفي الواقع، تبقى معظم القواعد سليمة نسبياً أو كلياً من دون أن تتغير عن حالتها التي كانت عليها قبل أن تشغلها المؤسسة العسكرية، وغالباً ما تمثل النظم البيئية غير المضطربة نسبياً في المنطقة، ولاسيما المناطق التي يكون فيها التطور التجاري منتعشاً. ومن أمثلة هذه الظاهرة حصن فورت كارسون (كولورادو) في مدينة كولورادو سبرينغز. عندما تم إنشاؤه أول مرة في أربعينيات القرن العشرين، كان فورت كارسون (سابقاً معسكر كارسون) منفصلاً جغرافياً عن المدينة، ثم عن مجتمع ناشئ يضم نحو 50000 – 75000 نسمة. واليوم، فإن فورت كارسون محاط بمظاهر التطور التجارية والسكنية مع نمو كولورادو سبرينغز لتصبح ثاني أكبر مدينة في الولاية، بعدد سكان يزيد على 350000 نسمة (Doe and Palka 2009).

إن الحفاظ على البيئات الطبيعية الموجودة في المنشآت العسكرية مهم جداً من أجل إجراء تدريبات نوعية للقوات المسلحة. وتوفر المنشآت في الولايات المتحدة نظائر جغرافية لكثير من المناطق التي ينتشر ويعمل فيها الجيش. وبالتالي، فهي توفر ظروفاً بيئية مماثلة يجري فيها تدريب الجنود واختبار المعدات (Doe and Bailey 2007; Doe et al. 2005; Shaw et al. 2000; Shaw and Doe 2005). إن القدرة على استخدام التمويه الطبيعي لأغراض التغطية والتمويه، والتحرك عبر الطبيعة من دون عوائق، هو أيضاً مهم للتدريب الحقيقي (Doe et al. 1999; Doe and Palka 2009).

ونتيجة لذلك، أصبح كثير من الأراضي العسكرية، عبر تسلسل غير مقصود نوعاً ما، ملاذات طبيعية لمئات الأنواع من النباتات والحيوانات المعرضة للخطر والمهددة بالانقراض. وبالمقارنة مع هيئات إدارة العقارات الاتحادية الكبيرة الأخرى ذات المساحات الأكبر بكثير، تحتوي الأراضي التابعة لوزارة الدفاع عدداً أكبر من السكان ونسبة أكبر من الأنواع المهددة بالانقراض، والتي يتم تنظيمها بموجب القوانين البيئية الاتحادية (Stein 2008). وبناء عليه، فإن إدارة الأراضي العسكرية ينبغي ألا تدعم فقط الاستخدام العسكري، بل يجب أن تكون مسؤولة أيضاً عن الحفاظ على الأنواع والاستخدامات العديدة الأخرى مثل الغابات والمراعي والاستجمام. وعلى مدى السنوات العشرين الماضية، قامت المؤسسة العسكرية بتطوير عديد من برامج الحفاظ على البيئة وإدارة الأراضي، مثل برنامج إدارة مناطق التدريب المتكاملة وبرنامج المناطق الطبيعية المستدامة، من أجل تحقيق التوازن بين متطلبات التدريب والحفاظ على البيئة (Balbach et al. 2008).

الصراعات الناشئة على الأراضي

على الرغم من المزايا البيئية المتأصلة، فإن تأثير منشآت وزارة الدفاع لا يخلو من الجدل. فإدارة الأنواع والموارد الأخرى التي يسمح بها القانون غالباً ما تتناقض مع حاجات التدريب العسكرية. وهناك أمثلة كثيرة على هذه الصراعات التي تنتهي أحياناً

بـإغلاق منـاطق المنشـآت التدريبيـة المهمـة أو برفـع الـدعاوى القانونيـة ضـد المؤسسـة العسكرية. ومن أكثر القضايا الجديرة بالملاحظة، كان هناك قضية إغلاق حقل رمـي مهـم متعدد الأغراض في فورت براغ (كارولينا الشمالية) في أواخر عقد الثمانينيـات مـن القـرن العشـرين عندما نجحت الهيئة الأمريكية لحماية الأسماك والحياة البريـة بإيقـاف اسـتخدام الجيش للأراضـي، بسبب انتهاكات قانون الأنواع المهددة بالانقراض بفعل التأثير الضـار في طيور نقار الخشب الأحمر وبيئتها. كما أن سياسة هذه القضية وجوانبها القانونيـة موثقـة جيداً (Rubenson et al. 1993). وفي هاواي، لم يتم قط افتتاح ميـدان رمـي تـم إنشـاؤه حديثاً عندما تم اكتشـاف نـوع مـن النباتـات المهـددة بـالانقراض خـلال عمليـة المسـح الجيولوجي للمنطقة.

كثير من الأراضـي العسكرية التي كانت ريفية في البداية وبعيدة جداً عن المجتمعات الكبرى، محاطة حالياً بمشاريع تطـوير سـكنية وتجاريـة متوسـعة؛ مـا أدى إلى صـــراعات إضافية على استخدام الأراضـي. وفي أواخر التسـعينيات مـن القـرن العشـــرين، عرّفـت وزارة الدفاع الأمريكية مصطلح "التعـدّي" بأنـه «النتيجـة التراكميـة لأي مـن العوامـل المؤثرة الخارجية أو جميعها التي تمنع التـدريبات والاختبـارات العسـكرية المعتـادة» (US Government Accounting Office 2003: 1). وشملت هذه العوامل المؤثرة الشكاوى من الضوضاء، ونظم تقسيم المناطق، ومخاوف تتعلق بسـلامة هبـوط الطـائرات وإطـلاق نيران الذخائر، وغيرها من القضـايا. وكـان مـن النتـائج الأوليـة للتعـدي عقليـة "نحـن ضدهم" التي أشعلت خلافاً بين المؤسسة العسكرية والأحياء المجاورة المحيطة بها. ولكن السنوات الخمس الأخيرة شهدت تعاوناً من قبل كلا الجانبين. فقـد بـدأت وزارة الـدفاع والهيئات الاتحادية الأخرى والمؤسسات غير الربحية وملاك الأراضـي المحليون بمعالجـة وحل قضـايا التعـدي بصـورة ابتكاريـة مـن خـلال الشـــراكات والتعـاون في اسـتخدام الأراضـي. وتوظف هذه الاستراتيجيات كثيراً من الأساليب المختلفة مثل تخطيط الطرق، وحقوق المرور، والمناطق الفاصلة، ولوائح تقسيم المناطق. على سبيل المثال، يسمح برنامج استخدام المناطق الفاصلة الملائمة للجيش، للمؤسسة العسكرية أن تنفق أموالها من خلال

مؤسسات غير ربحية لدعم عدم تطوير الأراضي من قبل ملاك الأراضي الخاصة المحيطة بمنشأة ما، ومن ثم، خفض احتمال تأثير الضوضاء والغبار والتأثيرات الأخرى على جيران المنشأة. وقد برز كثير من هذه الاستراتيجيات مع نمو المجتمعات وازدياد القيود على استخدام الأراضي العسكرية، ومع تهديد بعض المجتمعات بفعل إجراءات "إعادة ترتيب القواعد وإغلاقها". وتم مؤخراً إنشاء مناطق فاصلة متاخمة لحصون فورت كارسون وكولورادو وفورت ريلي وكانساس، من خلال العمل التعاوني للحفاظ على البيئة. ويعتبر نجاح تنفيذ هذه الاستراتيجيات في غاية الأهمية إذا كانت الأراضي العسكرية والمجتمعات ستتعايش من أجل المستقبل.

الأراضي العسكرية في القرن الحادي والعشرين

عديد من العوامل الجيوسياسية كان له تأثير في الطبيعة ونطاق الأراضي العسكرية في الولايات المتحدة خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فقد تم نقل معظم القوات العاملة إلى العراق وأفغانستان تاركين وراءهم عائلاتهم لتعيش في منشآت عسكرية، في الوقت الذي تغير فيه عدد مرات نشاطات التدريب وكثافتها على الأراضي العسكرية. كما انخفض عدد القوات العسكرية المتمركزة في أوروبا إلى حد كبير، وتمت إعادتها إلى الولايات المتحدة، ما أدى إلى زيادة الحاجة إلى مساحات الإسكان والتدريب في بعض المنشآت مثل حصن فورت بليس وتكساس وفورت كارسون وكولورادو. كما أن منظومات وتقنيات الأسلحة الجديدة، كالطائرات من دون طيار، زادت الحاجة إلى الأراضي والمجالات الجوية. وقد اصطدمت هذه التوجهات مع تغيير مفاهيم المجتمع حول التعدي والتنمية والتعايش مع جيرانهم العسكريين. ومن ثم، في بداية القرن الحادي والعشرين، هناك كثير من التحديات التي تواجه سبل الحفاظ على الأراضي العسكرية في الولايات المتحدة. ومع ذلك فالشيء الذي لم يتغير هو الروابط التي لا تنفصم والذكريات وأهمية هذه الأراضي العسكرية بالنسبة لأولئك الذين يعيشون ويعملون ويتدربون عليها، وللمجتمعات المدنية المجاورة التي تدعمها وتخدمها.

القسم الثاني

الجغرافيا العسكرية التاريخية والعملياتية



القسم الثاني

الجغرافيا العسكرية التاريخية والعملياتية

لقد أثبت التاريخ وجود علاقة واضحة وثابتة بين العمليات العسكرية والجغرافيا؛ فكان لعوامل الجغرافيا تأثير مكمل وأحياناً حاسم في المعارك عبر التاريخ. وفي الآونة الأخيرة، انتشر تأثير الجغرافيا بشكل واسع النطاق في العمليات العسكرية في أوقات السلم والعمليات غير الحربية على حد سواء. وبالمثل، يجب أخذ المفاهيم الجغرافية المهمة عن الموقع والزمان والفضاء والنطاق والمسافة في الاعتبار أثناء تخطيط أي عملية عسكرية وتنفيذها. وفي النتيجة، يضطر الجغرافي العسكري إلى توظيف نهج متكامل في دراسة بيئة عملياتية والتحقق من كيفية تأثير الجغرافيا المحتمل في العملية. وحتى على النطاق التكتيكي الأصغر، فإن بيئات العمل معقدة. ولذلك، تستفيد أفضل التحليلات من أسلوب متكامل يوفر إطاراً شاملاً يمكن اتخاذ القرارات المدروسة بالاستناد إليه. ولإنجاز هذه المهمة، اعتمد الجغرافيون العسكريون على أسلوب دراسة الحالة باستخدام نهج تاريخي وعملياتي لتحليل الروابط بين العمليات العسكرية والمشهد الطبيعي.

إن البيئات العملياتية - وهي الأمكنة التي تجري فيها العمليات العسكرية - فريدة وتظهر مزايا طبيعية وثقافية متميزة. وهذا مهم للجغرافي العسكري؛ لأن هذه المزايا تضفي أهمية استراتيجية وعملياتية وتكتيكية على الأمكنة وتمنحها الطابع والإمكانات والمعنى. ولهذا السبب، يعنى الجغرافيون العسكريون بتحديد تفاصيل الأمكنة وتحليلها، ولاسيما في التعرف على الرابط بين المشهدين الطبيعي والبشري. وقد أثبتت دراسة الجغرافيا أن الأمكنة لها أهميتها؛ فكل مكان فريد بحد ذاته ويظهر مجموعة مميزة من الحتميات الجغرافية. إلى ذلك، فإن الأمكنة تتفاعل، ومن ثم، تخلق ظروفاً قسرية وأحياناً صعبة يجب على الوحدات العسكرية العمل فيها.

أدرك كارل فون كلاوسفيتس طبيعة المكان عندما أطلق على بيئة العمل العسكري اسم طبيعة الأرض أو التضاريس، وبحسب رأيه فإنها تتكون من «الأرض وسكان مسرح الحرب بأكمله». كما أوضح كلاوسفيتس أن الأهمية التشغيلية لبيئة العمليات تختلف بالمهمة والتنظيم ونوع الوحدات العسكرية المشاركة والتقنيات والظروف الراهنة. بعبارة أخرى، يبقى الموقع ثابتاً ولكن الوضع يتغير مع مرور الزمن، ولذا يجب أن تكون التحليلات الجغرافية دينامية وشاملة. ومن ثم، فإن تقييم الجغرافي العسكري للمكان ينبغي أيضاً أن يتغير.

ولطالما درس القادة العسكريون الجغرافيا بسبب العلاقة التي لا تقبل الجدل بين المشهد الطبيعي والحرب. وفي ذلك السياق، فقد ربط الضباط العسكريون على مر التاريخ الجغرافيا العسكرية بالمصطلح العسكري العام "تحليل التضاريس". في الواقع، خلال السنوات الأولى لفرع الجغرافيا – ولاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية – ركز الجغرافيون العسكريون بشكل أساسي على تحليلات وصف الخرائط للمنطقة ودراسات الحالة التاريخية. وهذه الأنواع من الدراسات مفيدة لأن تحليل التضاريس – في سياق عسكري – يمنح دراسة البيئة العملياتية هدفاً ويجعل لها تطبيقاً. وقدّم "دليل الميدان الأمريكي" US *Field Manual 30-10* (الاستخبارات الجغرافية العسكرية) لسنوات كثيرة تعريفاً عملياً لتحليل التضاريس بأنه «عملية تحليل منطقة جغرافية لتحديد أثر المزايا الطبيعية والمزايا التي يصنعها البشر على العمليات العسكرية». ومن ثم، فإن تحليل التضاريس بأبسط صوره ينطوي على مجرد وصف للمشهد الطبيعي والثقافي الموجود، وتقييم أثر ذلك المشهد على العمليات العسكرية.

ومن الواضح أن هذا النوع من المعرفة الواقعية له مكان في الجغرافيا العسكرية لأنه يسمح لنا بوضع الأحداث والمواقع والظواهر في محيط مكاني مفيد. ومع ذلك، فإن معرفة سبب وجودها وفهمه في أمكنة منفصلة هو أهم بكثير، وهذه هي العلاقة الحقيقية للجغرافيا العسكرية. وهكذا، فالجغرافيا العسكرية هي أكثر بكثير من مجرد معرفة أسماء

الأمكنة ووصف جوانب المنطقة. والعمليات العسكرية الحديثة معقدة جداً، وعلى الجغرافيين العسكريين المعاصرين أن يفهموا الأمكنة والعلاقة بينها، ومن ثم، فإنهم يركزون جهودهم على فهم العلاقة بين العمليات العسكرية والمشهد الطبيعي. ولفهم هذه العلاقة، يجب على المختص بالجغرافيا العسكرية أن يفهم ديناميات وعمليات المشهدين الطبيعي والبشري، وكذلك أنماطهما المكانية والزمانية.

ولحسن الحظ أن الجغرافيا العسكرية تطورت لتصبح فرعاً دراسياً تكاملياً أغنى بكثير، ويتضمن أكثر من مجرد وصف لمنطقة جغرافية وتحليلات تاريخية لتأثيرات الجغرافيا في المعارك. واليوم، يسعى الجغرافيون العسكريون لشرح العمليات التي أوجدت مشهداً فريداً من خلال فهم الجغرافيا وباستخدام منظورها المكاني المميز. ومع ذلك، فإن التحليلات التاريخية ودراسات الحالات تخدم هدفاً غاية في الأهمية بالفعل، كما أن هذه المنهجية تساعد الجغرافيين العسكريين فعلياً في سعيهم للإجابة عن نسخة فريدة من الأسئلة الجغرافية الشاملة: «كيف تبدو بيئة العمل؟» و«لماذا هي بهذا الشكل هنا؟» و«كيف ستؤثر في العمليات؟». بالتأكيد، هذه الأسئلة الثلاثة راسخة في اهتمام الجغرافي العسكري بتنوع فضاء الأرض وهي ترتبط بالتقاليد الجغرافية الأساسية.

وللإجابة عن هذه الأسئلة، يعتمد المختص بالجغرافيا العسكرية على الفكرة العامة القائلة بأن الجغرافيا هي علم مكاني والقاسم المشترك في جميع الأبحاث هو التعرف على النماذج المكانية وديناميات المشهد الطبيعي والبشري التي تخلق ذلك التنوع. وهذه هي نقطة الانطلاق الأساسية لفهم الرابط بين المشكلات العسكرية والبيئة. ومن ثم، بالنسبة إلى الخبير بالجغرافيا العسكرية، فإن مفهوم الفضاء المكاني يفسر الطريقة التي تتسبب بها العمليات والديناميات في توزيع الأشياء، فضلاً عن الأنماط الزمانية المرتبطة بالظواهر التي تضفي الطابع الفريد على الأمكنة. ومن ثم، فإن المختص بالجغرافيا العسكرية يدرك أن مضمون الأمكنة وديناميات الظواهر الطبيعية منظمة ويمكن تفسيرها.

ينطوي تطوير استراتيجية عسكرية على اختيار أهداف وأسلوب وتسلسل عمل وحركة القوة العسكرية نحو منطقة الهدف. واليوم، في سياق العمليات غير الحربية، يمكن أن تواجه القائد الميداني مجموعة من المتغيرات الصعبة والملتبسة في بيئة عملياتية معقدة للغاية. وفي تلك الحالة، لن يقوم القائد بالإعداد لمعركة، بل ربما يخطط للإغاثة من كارثة متعددة الأوجه أو عملية لحفظ السلام. من الواضح أن الأهداف السياسية والوسيلة الاقتصادية والوسائل المتاحة تؤثر في الاستراتيجية. وفي إحدى الحالات، قد يكون الهدف تدمير قوات العدو، ولكن في حالات أخرى، قد يكون الهدف نقل إمدادات الإغاثة إلى منطقة تعاني ظروفاً قاسية بسبب كارثة طبيعية. ومع ذلك، وبغض النظر عن الاستراتيجية، يعتمد نجاح أي عملية عسكرية – في زمن السلم وفي أثناء الحرب – على خطة سليمة تأخذ في الاعتبار تحليلاً مقنعاً لبيئة العمل العسكري.

تكشف دراسة للتاريخ العسكري الحديث عن الطبيعة الجغرافية للحرب. وقد أثبتت العمليات المعاصرة في أفغانستان والعراق العلاقة التي لا ريب فيها بين الجغرافيا والعمليات العسكرية. وبالتأكيد، فإن إدماج التضاريس بمهارة في التخطيط للمعارك والذي قام به كل من روبرت لي وإرفين رومل ودوجلاس ماك آرثر وجورج باتون تعد من روائع الجغرافيا العسكرية. وبالتالي، لم تفقد دراسة الجغرافيا العسكرية التاريخية والعملياتية – على شكل دراسة حالة – قوتها على إدماج ديناميات البيئة العملياتية والتقنيات الحربية والعنصر البشري للقيادة.

في الفصل الثامن، يدرس فرانسيس جالجانو خصائص المشهد الطبيعي النهري وتأثيره في العمليات العسكرية. ويقدم في هذا الفصل تحليلاً جغرافياً للدور الذي أدته الأنهار خلال الحرب الأهلية الأمريكية، كما يقدم دراسة حالة توضح كيف تغلب جيش الاتحاد على الحواجز التي شكلها نهر الميسيسبي في الجزيرة رقم 10 عام 1863. وفي الفصل التاسع، يعرض هندريك سميت، وهو من جنوب أفريقيا، نظرة فريدة ونادرة عن حملة شنت خلال حرب البوير. ويوضح تحليل سميت الجغرافي لحملة كيب الشمالية عام

1899، المشكلات المعقدة التي تفرضها المسافة والبيئات القاسية والظروف شبه القاحلة، بالإضافة إلى كيفية تكيف مختلف القادة مع الظروف الجغرافية. وفي الفصل العاشر، يدرس إيوجين بالكا بيئة قاسية تتسم بذات القدر من الأهمية. وفي دراسة بالكا للحملة الأمريكية لاستعادة آتو في عام 1943، يسلط الضوء على مجموعة صعبة جداً من المشكلات الجغرافية التي واجهها الأمريكيون خلال حملتهم في جزر ألوشن، والتي كانت المعركة الوحيدة التي جرت على التراب الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية.

في الفصل الحادي عشر، يستخدم إيوجين بالكا وفرانسيس جالجانو حملة بونا في غينيا الجديدة أثناء الحرب العالمية الثانية لإيضاح الأثر العميق الذي يمكن أن يخلفه المرض على القوة العسكرية. ولعل الإنزال البرمائي في إنشون في كوريا عام 1950، هو ربما من أكثر الحركات الالتفافية حسماً في التاريخ العسكري، ففي الفصل الثاني عشر يقيّم جالجانو التحديات الجغرافية المرتبطة بهذا الإنزال، ويصف كيف أن الظروف الجغرافية الصعبة جداً ربما ساهمت في التألق الاستراتيجي للخطة.

الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا القسم مكرسة لدراسات الحالة التي هي أكثر معاصرة وتركيزاً على تفاعلات مقنعة بين المشهدين الطبيعي والبشري خلال العمليات العسكرية في فترة ما بعد الحرب الباردة. ففي الفصل الثالث عشر، يفسر ستيفن أولويك الجغرافيا التاريخية ليوغسلافيا السابقة، ويثبت العمليات الأساسية التي أدت إلى الانهيار والعنف العرقي المقوض للاستقرار في البوسنة خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين. وفي الفصل الرابع عشر، يفسر إيوجين بالكا بيئة العمليات في أفغانستان وتأثيرها في عملية الحرية الدائمة، والجهود المتواصلة لتحقيق الاستقرار في هذا المشهد البشري الممزق. وأخيراً، في الفصل الخامس عشر، يقدم كل من إيوجين بالكا وفرانسيس جالجانو ومارك كورسون لمحة شاملة عن الأحداث التي أدت إلى عملية حرية العراق والتي تلتها. وفي هذا الفصل، يفصح المؤلفون عن تحليل مفصل للمشهد الطبيعي المروع والمشهد البشري المعقد للغاية والمثير للحيرة، وتأثيراته في الصراع الدموي الطويل الذي نتج في أعقاب الغزو الأمريكي.

في الإجمال، تثبت فصول هذا القسم الفائدة الواضحة والمؤكدة من الجغرافيا العسكرية في سياق الحرب. ومادام القادة العسكريون مضطرين إلى توظيف القوات وخوض المعارك في بيئات عملياتية على أراضٍ بعيدة عن أوطانهم، عندها يجب عليهم مراعاة العوامل المجهولة والمتغيرة التي تشمل التضاريس والنباتات والمناخ والطقس والمشهد البشري. فقد أثبت التاريخ أن هذه العوامل يمكن أن تكون حاسمة.

الفصل الثامن

المجاري المائية والمشهد العسكري

فرانسيس جاجانو

مقدمة

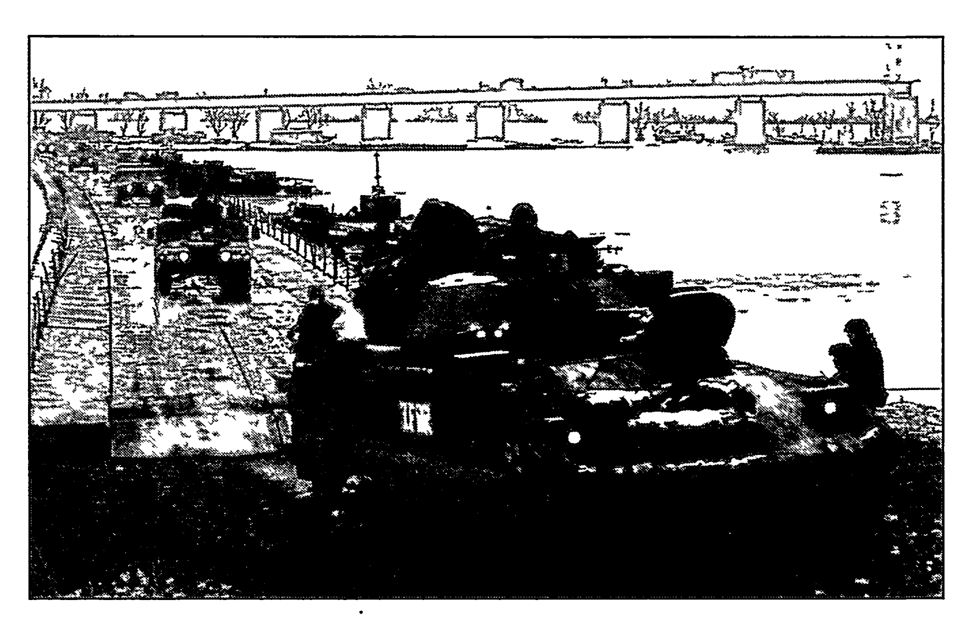
لطالما أدت الأنهار دوراً مهماً في الحروب؛ إذ إن نهراً بتعرجاته وسهوله الفيضية، ينطوي على مشكلات جغرافية مربكة لأي جيش. على سبيل المثال، بدأ مخططو قوات التحالف بالإعداد لعبور نهر الراين قبل أشهر كثيرة من العملية الفعلية في مارس 1945 (MacDonald 1984)، وقد عزز النجاح المذهل الذي حققته خطة "بليتزكريج" الألمانية في دخول الاتحاد السوفيتي في يونيو 1941 عمليات عبور النهر التي خُططت ونُفذت بكل عناية، والتي استخدمت فيها مدرعات تم تعديلها بشكل خاص لذلك الغرض (Ziemke and Bauer 1987). إن نطاق العمليات العسكرية في المشهد النهري واسع جداً، ويجري في العادة تصنيف العمليات التي تجري على الأنهار والمجاري المائية الداخلية جميعها تحت مسمى "العمليات النهرية". وسيدرس هذا الفصل كيفية تأثير المشهد النهري في العمليات العسكرية على النطاقين الاستراتيجي والتكتيكي، ويعرض دراسة حالة توضح كيف تغلبت قوة اتحادية بحرية وبرية على التحديات الطبيعية التي فرضها نهر الميسيسبي خلال الحرب الأهلية الأمريكية.

لقد شكلت الأنهار عائقاً شبه تعجيزي أمام الجيوش القديمة. ومع التطورات التقنية تحسنت القدرة على إدارة معابر الأنهار أيضاً. ومع ذلك، فإن هذه الابتكارات لم تضمن النجاح. فعمليات العبور الكارثية التي تمت على طول نهر رابيدو في إيطاليا في يناير 1944 (D'Este 1992) وعمليات التحالف المحمولة جواً التي فشلت في عبور نهر الراين في سبتمبر 1944 (Ryan 1974) هي شواهد على هذه الحقيقة. كما أن الصعوبات التي

واجهها الجيش الأمريكي في عبور نهر سافا إلى البوسنة في يناير 1996 (انظر الشكل 8-1) توضح التعقيدات المرتبطة بعمليات عبور الأنهار حتى عندما لا يعترضها قتال. ورغم أن الأنهار تعتبر بصورة عادية عوائق، فقد استخدمتها القوات الغازية طرقاً عامة مهمة. ولم تظهر هذه الفكرة في أي مكان آخر بصورة أوضح مما ظهرت عليه في المسرح الغربي للحرب الأهلية الأمريكية.

الشكل (8-1)

مركبة فرسان الكشافة M3 من السرية الأولى، التابعة لوحدة الاستطلاع الأولى، تعبر نهر سافا إلى البوسنة والهرسك في يناير 1996



المصدر: US Army Photograph.

دور الأنهار في العمليات العسكرية

المشهد النموذجي لعملية نهرية هو العبور المدروس لنهر ما؛ مثل عبور نهر الراين خلال الحرب العالمية الثانية، أو الهجوم المصري الذي تم بعبور قناة السويس خلال حرب أكتوبر 1973 (Herzog 1984). فالعبور المدروس لنهر محصن هو عملية يفضل

معظم الجنود عدم المجازفة بخوضها. ومع ذلك، فإنها عمليات عسكرية شائعة. فعمليات عبور الأنهار ترتبط بالخوف لأنها تتيح قدرة على الدفاع لا مثيل لها تقريباً (Patton 1947).

ويمثل نهر يتم الدفاع عنه بشدة كابوساً لأولئك الذين عليهم شق طريقهم إلى الطرف الآخر. وعلى الرغم من تنظيم أي قوة معادية، فإن العمليات على المشاهد النهرية يمكن أن تحبطها الطبيعة. ويستطيع عدو ماهر يدافع عن نقطة عبور أن يضخّم أصغر مزية من مزايا التضاريس. ويمكن للطرق المستنقعية والضفاف الشديدة الانحدار والتيارات المضطربة ومجاري الأنهار غير المستقرة والغطاء النباتي الكثيف والجروف العالية الشديدة الانحدار أن تعوق أي عملية بسهولة. علاوة على ذلك، يمكن تضخيم التأثير النسبي لأي واحد من هذه العوامل في غضون ساعات بفعل عاصفة مطرية عابرة أو الذوبان المبكر للثلوج. وجميع هذه العوامل مجتمعة، مع مشكلات صعوبة مراقبة المرور وعلاقات القيادة المربكة، يجب أن تؤخذ في الاعتبار أثناء التخطيط الدقيق لهذا النوع من العمليات (Spiller 1992).

رغم أن العمليات على المشهد النهري تعتبر في العادة ضمن سياق عملية عبور ما، فإن لها أدواراً أخرى بالأهمية ذاتها في الحروب. فقد يكون النهر جزءاً من منطقة حيوية من الناحية الاستراتيجية، وبالتالي قد يمثل شكلاً طبيعياً أساسياً مثل نهر هدسون إبان الثورة الأمريكية. في الواقع، أملت الهندسة الاستراتيجية لتلك الحرب أنه كان على الطرف الرابح أن يحتفظ بالسيطرة على النهر من أجل تحقيق النصر (Palmer 1969). وبالمثل، أدى هاربرز فيري؛ وهو يشكل ثغرة نهرية مهمة في الجبال على طول نهر بوتوماك، دوراً حيوياً في الحملات الأولى خلال الحرب الأهلية الأمريكية (Foote 1958).

يتمثل الدور النموذجي لأي نهر بكونه حاجزاً يجب تخطيه. وفي هذه الظروف، يعتبر النهر حاجزاً يمكن للجيش المدافع استغلاله. فالنهر يحد من الحركة ويشتتها، وعادةً ما يمثل مجموعة واضحة من المزايا الدفاعية. والتاريخ غني بالأمثلة عن الأنهار التي تؤدي هذا الدور. فعلى سبيل المثال، أدى نهر الراين دوراً حيوياً عبر التاريخ الأوروبي من زمن

الرومان وحتى الحرب العالمية الثانية (Howard 1976). فالحملة الإيطالية المرهقة خلال الحرب العالمية الثانية شملت سلسلة من العوائق النهرية، التي استغلها الألمان ببراعة لإعاقة تقدم الحلفاء (Doughty et al. 1996). في كوريا، اعتمد خط الدفاع الأخير على طول محيط بوسان بشكل كبير على الدفاع عن خط نهر ناكتونج (Center for Military History 1989). كان الاستيلاء غير المتوقع على جسر ريماجن في ألمانيا في مارس 1945 (MacDonald 1984)، والعبور الإسرائيلي لقناة السويس إبان هجومها المضاد في سيناء عام 1973 (Herzog 1984) من الأمثلة الممتازة على عمليات العبور السريع للأنهار.

وقد يخدم النهر بكونه خطاً للعملية. وفي هذا السيناريو، يعمل النهر محوراً للعملية العسكرية ويعزز إمكانية الحركة والعمليات اللوجستية والاتصالات. وقد جرت عملية تقليدية من هذا النوع خلال الحملة البريطانية على مصر والسودان عام 1898. استخدم البريطانيون نهر النيل لربط قاعدتهم الأساسية في الإسكندرية بهدفهم الاستراتيجي في الخرطوم (Macdonald 1985). وفي السياق ذاته، تثبت العمليات على أنهار كامبرلاند وتينيسي والميسيسبي خلال الحرب الأهلية الأمريكية المزايا العديدة ذات الصلة بالأنهار باعتبارها خطوطاً للعمليات. فقد استغلت قوات الاتحاد إمكانية الحركة الطبيعية والمزايا العملياتية التي أتاحتها الأنهار لاختراق عمق المناطق النائية الكونفيدرالية (Coombe 1996).

التجربة الأمريكية

أجرت القوات البرية والبحرية الأمريكية عمليات على أنهار منذ حرب الاستقلال الأمريكية. واعتمدت طبيعة هذه العمليات وتواترها بشكل كبير على الجغرافيا، بالإضافة إلى الإعداد العملياتي. على سبيل المثال، خلال الحرب الأهلية الأمريكية، كانت قوات الاتحاد والقوات الكونفيدرالية في الغرب مقيدة بصورة قوية بالأنهار بسبب طبيعة حوض الميسيسبي، ولكن بصورة أقل في المسرح الشرقي. ومع أن العمليات على الأنهار لم تكن دائماً حاسمة من الناحية العملية، فإنها قدمت بصورة اعتيادية مساهمة كبيرة في المتابعة الناجحة لأية حملة (Fulton 1985).

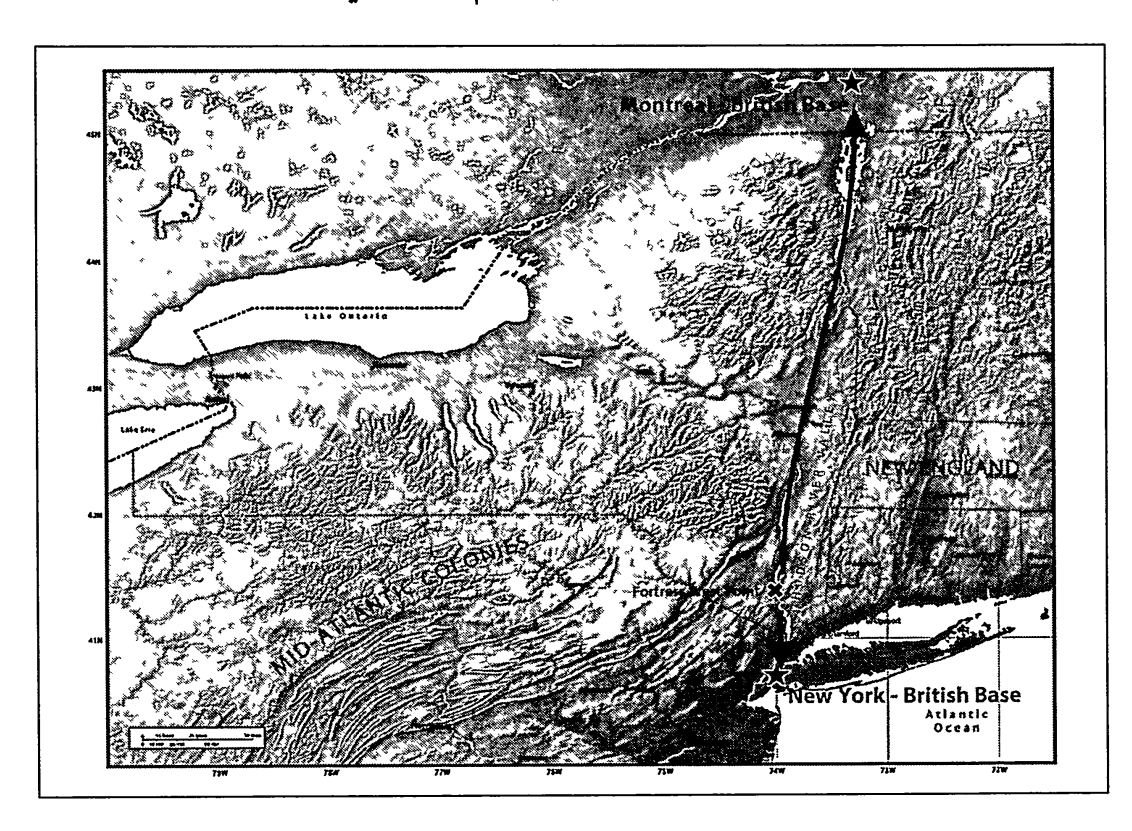
لعل العمليات العسكرية الأجدر بالذكر خلال حرب الاستقلال الأمريكية هي التحصينات والمعارك بهدف السيطرة على نهر هدسون، والتي أدت في نهاية المطاف إلى إنشاء قلعة ويست بوينت. وأصبحت هذه التحصينات ضرورية لأن نهر هدسون كان مركز الثقل الاستراتيجي في الحرب، والسيطرة على هذه المزية المهمة كانت حاسمة (Palmer 1969). ومن ثم، لم يدم الأمر طويلاً بعد بدء الحرب حتى سعت القوات البريطانية والأمريكية للسيطرة على شبكة الممرات المائية الاستراتيجية لـ "نهر هدسون-بحيرة تشامبلين-نهر سان لوران" التي كانت حيوية في الهندسة الاستراتيجية للحرب؛ وذلك لسببين: الأول، أنها كانت الخط الطبيعي الفاصل بين نيوإنجلاند ومستعمرات إقليم الأطلسي الأوسط [يضم نيويورك ونيوجرزي وبنسلفانيا]، وبالسيطرة عليها، استطاع البريطانيون دقَّ إسفين بين مركز التصنيع والمركز الزراعي للمستعمرات، وبالتالي كسر المجهود الحربي. والثاني، أن هذا الممر المائي مرتبط مادياً بالقواعد البريطانية في مدينة نيويورك ومونتريال (انظر الشكل 8-2). ومن ثم، كان الاستيلاء على الممر المائي من قبل المستعمرين ضرورياً للحيلولة دون تركيز الجهد العسكري البريطاني وتفتيت قدراته على العمل في انسجام تام (Palmer 1969).

إبان حرب عام 1812، اشتبكت القوات الأمريكية والبريطانية مرة أخرى على الممرات المائية. وشهدت الحرب على المنطقة النهرية اشتباكات حاسمة ساهمت إلى حد كبير في مساعدة الجهود الأمريكية في منطقتين مهمتين استراتيجياً هما: بحيرة إري ونهر سان لوران، ثم لاحقاً بالقرب من نيوأورلينز. في عام 1813، قام العميد البحري بيري بتجميع أسطول على بحيرة إري لمجابهة تهديد بريطاني من كندا. وتولى بيري قيادة هذا الأسطول في سلسلة من الانتصارات المهمة على قوات البحرية البريطانية، وفاز بالسيطرة على البحيرات العظمى ونهر سان لوران، ليسمح لاحقاً للأمريكيين بالتقدم إلى داخل كندا (Fulton 1985). وانتقلت مواضع الحرب عندما تحرك البريطانيون ضد نيوأورلينز في ديسمبر 1814. وعندما تجمعت قوات البحرية البريطانية في خليج المكسيك، تعاون الأمريكيون تحت قيادة العميد البحري باترسون لتشكيل قوة نهرية صغيرة لصدّ تقدمهم

هذا. وانسحب الأسطول النهري الأمريكي الصغير وضم قواته إلى قوات الجنـرال أنـدرو جاكسون للدفاع عن نيوأورلينز. وخلال المعارك البرية حول المدينـة، استخدم باترسـون أكبر زورقين حربيين لديه، وهما كارولينا ولويزيانا، لإنهاك قوات البحرية البريطانية. وقـد ساعد هذا العمل إلى حد كبير على هزيمة البريطانيين على أبواب هذه المدينـة ذات الأهميـة الاستراتيجية (Doughty et al. 1996).

الشكل (8-2)

توضح هذه الخريطة الموقع الاستراتيجي لنهر هدسون. فقد كان النهر صلة الوصل الجغرافية بين القواعد البريطانية الرئيسية في مدينة نيويورك وكندا، وفصل مستعمرات نيوإنجلاند عن المستعمرات الموجودة في إقليم الأطلسـي الأوسط والجنوب



خاض الجيش والبحرية الأمريكية طويلاً بأسلوب المعارك القتالية المنخفضة الحدة خلال حروب سيمينول (1835–1842) في فلوريدا. وعملت القوات البرية والبحرية يداً بيد باستخدام المداخل والخلجان الصغيرة والمستنقعات في فلوريدا إيفرجليدس للمشاركة في حرب محبطة. ومرة أخرى، عمل المشهد النهري وسيلةً للمواصلات وخطاً للعمليات. فقد شهدت حرب سيمينول بناء مراكب نهرية متخصصة جداً تم إنشاؤها للقتال حصراً في البيئة النهرية الفريدة، وهي مزية فريدة من مزايا الحروب التي ستندلع مرة أخرى خلال الحرب الأهلية الأمريكية ولاحقاً في فيتنام. فالأنهار تتطلب مراكب ذات عمود إدارة قليل العمق، ومراكب مائية مستقرة قادرة على دعم التسلح الثقيل (Coombe 1996). وبالتالي، قامت القوات الأمريكية تحت قيادة العقيد و. ج. وورث والضابط البحري ج. ت. ماكلافلين بتجميع أسطول متخصص يضم قوارب ذات أرضيات مسطحة وبطاريات مدفعية عائمة وقوارب صغيرة ومواصلات خاصة للقوات من أجل العمل في المستنقعات والأنهار الضحلة في المنطقة (Fulton 1985).

شهدت الحرب الأهلية الأمريكية عمليات نهرية من جميع الأنواع، ولعلها مثلت العمليات النهرية الأكثر انتشاراً من أي حرب (Coombe 1996). على المسرح الشرقي، عملت الأنهار مثل عوائق للمناورة، حيث تطلبت تخطيطاً أكثر عناية وعمليات عبور أوسع. أما على المسرح الغربي، فقد تدفق نهر الميسيسبي وروافده الرئيسية بصورة اعتيادية بموازاة خطوط التقدم الاتحادية، وبالتالي عملت مثل خطوط عمليات. ولذلك، فإن الحرب الأهلية الأمريكية شهدت تطوير مراكب نهرية على درجة عالية من التخصص، وكانت مصممة أحياناً للتعامل مع الخصائص الطبيعية الفريدة لنهر معين (Coombe 1996). كان كثير من أهم انتصارات الاتحاد عبارة عن حملات نهرية، وربما ساهمت أكثر من أية معارك أخرى، في تسريع انهيار القوات الكونفيدرالية (Miles 1994).

مثّلت الحرب الأهلية ذروة العمليات الأمريكية على الطبيعة النهرية حتى الحرب العالمية الثانية وحرب فيتنام. ذلك أن الجبهة الغربية الجامدة للحرب العالمية الأولى قد

تسببت بعمليات صغيرة ضيقة النطاق فحسب، ولم يكن لها تأثير كبير في نتائج الحرب. ومع ذلك، استلزمت العمليات خلال الحرب العالمية الثانية عدداً من عمليات عبور الأنهار الرئيسية، وأحياناً كانت تستوجب مشاركة كل الفيالق والجيوش. في فيتنام، استلزمت العمليات في دلتا نهر ميكونج تشكيل قوة نهرية مشتركة من الجيش والبحرية. وتم تشكيل هذه القوة من المراكب المائية الفريدة المصممة للتعامل مع المتطلبات العملياتية للطبيعة النهرية (Fulton 1985). ومما لا يثير الدهشة أن كثيراً من المراكب النهرية في زمن الحرب الفيتنامية بدت مشابهة بشكل ملحوظ لقريباتها من المراكب التي استخدمت في زمن الحرب الأهلية.

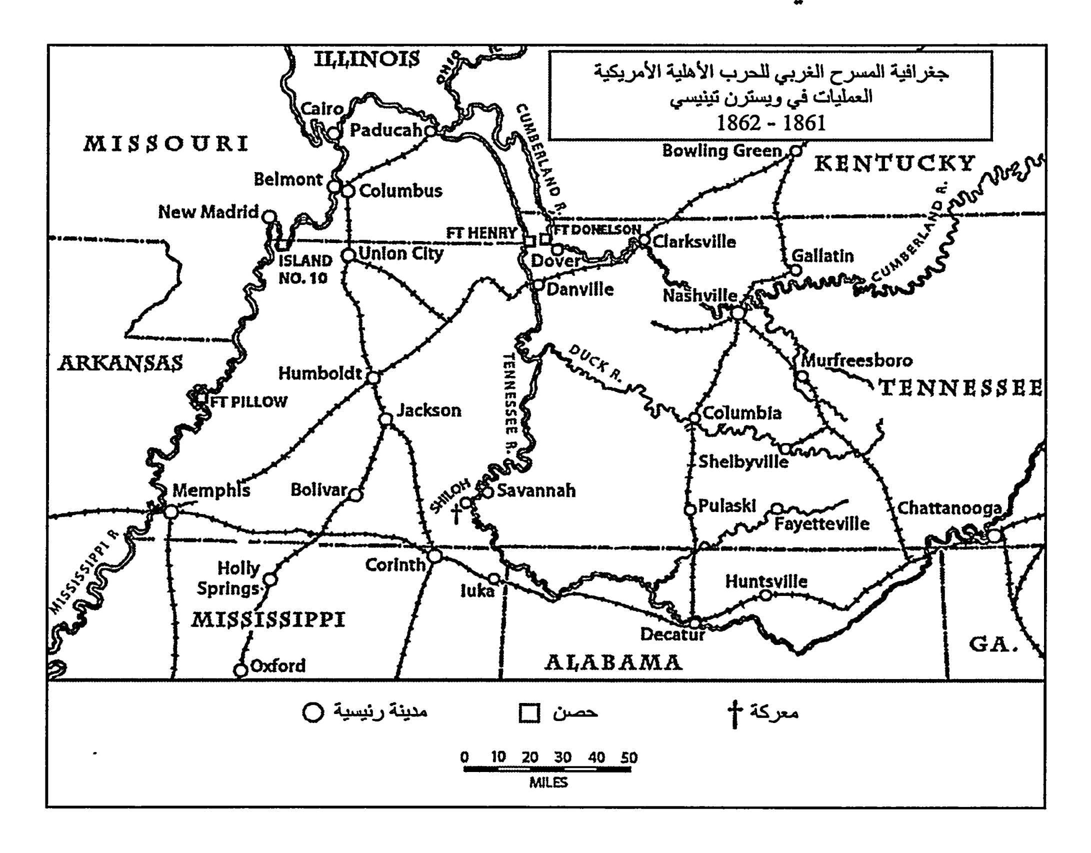
المجاري المائية ومشهد الحرب الأهلية

في بداية الحرب الأهلية الأمريكية، أملت الاستراتيجية الفيدرالية حملة منسقة عبر نهر الميسيسبي لتقسيم الكونفيدرالية وفتحها أمام تجارة الاتحاد (أي ما يسمى خطة أناكوندا، التي وضعها الجنرال وينفيلد سكوت). في الواقع، شكل كل نهر من الأنهار العظيمة على المسرح الغربي طريقاً سريعاً للغزو، حيث تستخدمها لاحقاً الجيوش الاتحادية لاختراق الجناح الأيسر للخط الكونفيدرالي (انظر الشكل 8-3). وكان الجنرال يو. إس. جرانت والرئيس لينكولن السباقينِ إلى إدراك أهمية هذه الأنهار (Catton 1989). فقد رأى لينكولن المزايا الجغرافية الهائلة التي أتاحتها هذه الشبكة النهرية لقضية الشمال بكل وضوح. فامتلاك واحد أو أكثر من هذه الأنهار سيؤدي إلى اختراق كبير في الخاصرة الغربية لخط التمرد ويقسم الكونفيدرالية.

علاوة على ذلك، اعتبر لينكولن أن الاستحواذ على نهر الميسيسبي هو الهدف الأوحد للحرب، ووجّه تعليماته إلى قائد الجيوش هنري كوليك من أجل نقل هذه الرؤية إلى قادته الغربيين في مذكرة عامة صدرت في مطلع فبراير 1862، قال فيها: «يعتبر الرئيس أن فتح نهر الميسيسبي هو الهدف الأول والأهم من جميع عملياتنا البرية والبحرية» (The War of Rebellion 1883).

الشكل (8-3)

أنهار المسرح الغربي. توضح هذه الخريطة النموذج الشجري لمجاري الأنهار في حوض نهر الميسيسبي وملاءمتها لتكون خطوطاً لعمليات قوات الاتحاد



المصدر: خريطة مقتبسة من: Catton (1989).

أدرك يوليسيس جرانت ببساطة أن نهري كمبرلاند وتينيسي يتجهان مباشرة إلى قلب تينيسي التي تتمتع بأهمية استراتيجية (Grant 1885). ومن شأن عملية اختراق سريعة لهذه الولاية والسيطرة على أنهارها أن تربك الخاصرة الغربية لجيش الجنرال الكونفيدرالي ألبرت سيدني جونستون ويفتح ناشفيل وتشاتانوجا أمام هجوم فيدرالي سهل. وعمل جرانت على هذه الخطة بمساعدة أسطول نهري قوي من أساطيل الاتحاد، واستولى على حصنَي هنري ودونلسون في فبراير 1862. وكان هذا انتصاراً بارزاً لأن جرانت أجبر جونستون على سحب الخط الكونفيدرالي جنوباً إلى كرويْنث (الميسيسبي)

وهو انسحاب بمسافة 200 ميل منح جيش الاتحاد السيطرة على كنتاكي وناشفيل وكامل الجهة الغربية من تينيسي، تقريباً من دون قتال (Catton 1989). وأتبع جرانت هذا النجاح بتقدم سريع عبر نهر تينيسي نحو رصيف بيتسبرغ، حيث ستندلع معركة شيلوه الدموية يومي 6 و7 إبريل 1862. ومع أن جيش جرانت كافح من أجل حياته على طول الجرف النهري في شيلوه، فقد كانت هناك معركة أخرى بذات الأهمية تبلغ ذروتها على الجزيرة رقم 10 بالقرب من بلدة نيو مدريد (ميسوري) على طول نهر الميسيسبي (انظر الشكل 8-3).

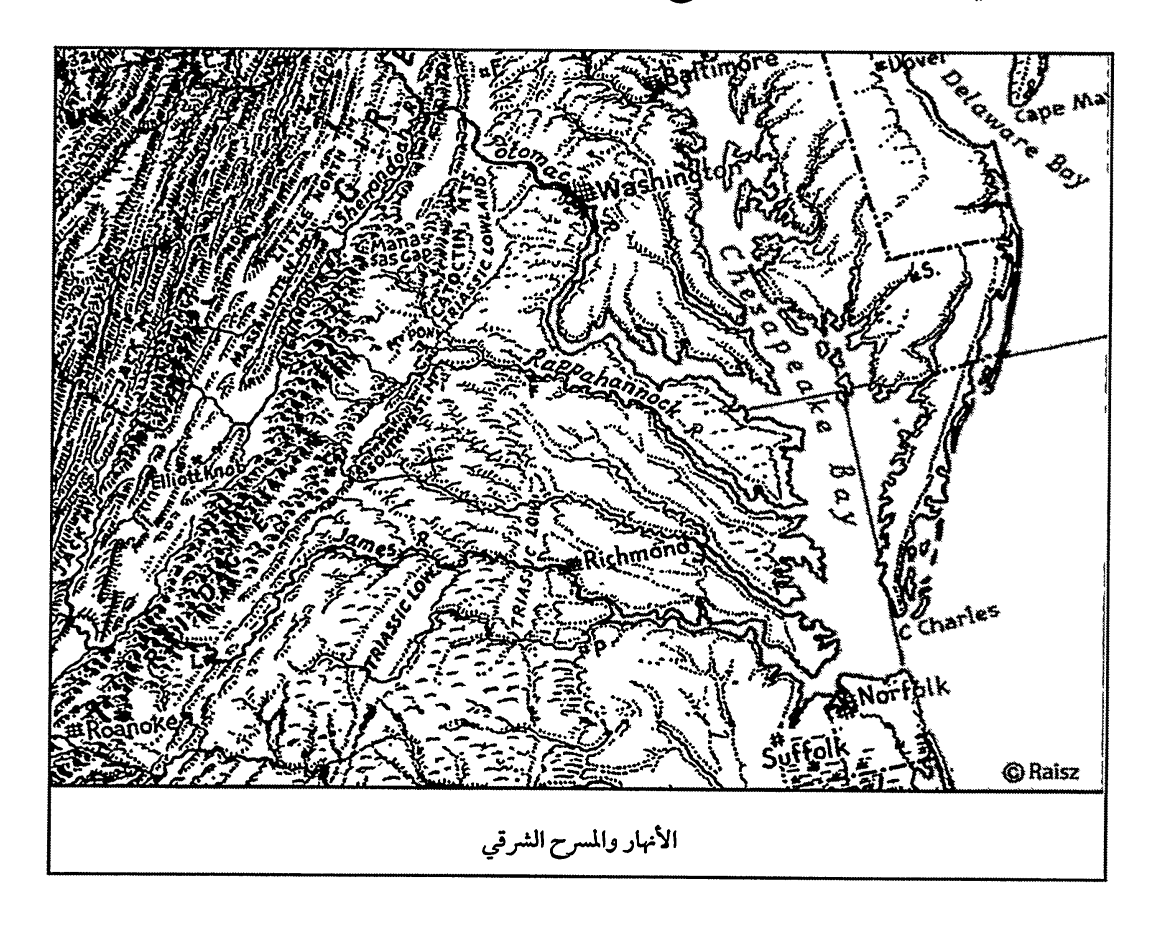
المحيط الطبيعي: المسرح الشرقي مقابل الغربي

كانت العمليات النهرية في المسرحين الشرقي والغربي للحرب الأهلية مختلفة جداً نظراً للفروقات في جغرافيتها الطبيعية. فقد كان المسرح الشرقي محدوداً بمنطقة شرقي بلو ريدج، بين واشنطن العاصمة، وريتشموند، والمشهد الجغرافي مؤلف من تشكيلة سفوح الجبال المرتفعة والسهول الساحلية (Fenneman 1938). ويشمل المشهد نموذج التصريف المائي المتشعب بالأنهار التي تتدفق عمودياً نحو الساحل عبر خط العمليات مباشرةً (انظر الشكل 8-4). وفي النتيجة، شكلت الأنهار الشرقية عقبات، واقتصرت أغلبية العمليات على عمليات مدروسة لعبور الأنهار أو تحصين الممرات النهرية التي يسهل خوضها.

كانت الإشكالات الجغرافية للمشهد النهري مختلفة جداً في المسرح الغربي، حيث تدفقت الروافد الكبرى لنهر الميسيسبي عبر منطقة ذات جغرافيا طبيعية تشمل حوضاً داخلياً كبيراً (Fenneman 1938). وتشمل هذه المنطقة مساحة كبيرة من الطبقات المتموضعة أفقياً، والتي تنحدر قليلاً نحو خليج المكسيك بنمط تصريف مائي ذي تعريش شجري متميز. وفي هذا المشهد الجغرافي، تميل الأنهار الكبيرة إلى التدفق جنوباً، بشكل متعامد مع الخطوط الكونفيدرالية. ولذلك، أمكن توظيف الأنهار لاختراق وإرباك استراتيجية الدفاع الكونفيدرالية في الغرب (Catton 1989).

الشكل (8-4)

نمط تصريف مائي ذي تعريش شجري للمسرح الشرقي، حيث تتدفق الأنهار الرئيسية في المنطقة بشكل متعامد مع الساحل وعبر الخطوط الرئيسية للحركة



الأنهار والمسرح الشرقي

المصدر: خريطة مقتبسة من: Raisz (1957).

ويوضح الشكل (8-3) مدى جسامة هذه المعضلة الجغرافية بصورة واضحة. فنهر كمبرلاند يوفر خطاً مباشراً للتقدم نحو ناشفيل، ليعمل على أنه مركز مواصلات رئيسي ومركز للتصنيع. وعندما تم اختراق الخط الكونفيدرالي على طول هذا النهر في حصن دونلسون، انتهى مصير ناشفيل، ولم يتمكن جنرالات التمرد من القيام إلا بعمل ضئيل لمنع سفن الاتحاد المدرعة من دكّ جسور السكك الحديدية وموانئ الأنهار، حيث عاثوا بحرية عبر كمبرلاند.

كانت خسارة حصن هنري أكثر صعوبة (انظر الشكل 8-3). وإلى الجنوب من ذلك الحصن، يخترق نهر تينيسي وسط مدينة تينيسي وشمالي ألاباما على شكل صنارة صيد ضخمة (Foote 1958). وعندما استولى جرانت على حصن هنري في فبراير 1862، أصبح مركز الخط الكونفيدرالي في الغرب بأكمله مفتوحاً أمام تقدم قوات الاتحاد التي تتحرك عبر النهر، وفي الواقع، فقد وصلت زوارق الاتحاد المزودة بالمدفعية جنوباً إلى ألاباما لتعيث دماراً حيثما انتقلت وتدمر جسور السكك الحديدية والزوارق النهرية والمصانع (Coombe 1996). وقد استغل جرانت هذه المزية الجغرافية وتقدم بسرعة على طول النهر إلى شيلوه في مارس وإبريل 1862 (Catton 1989).

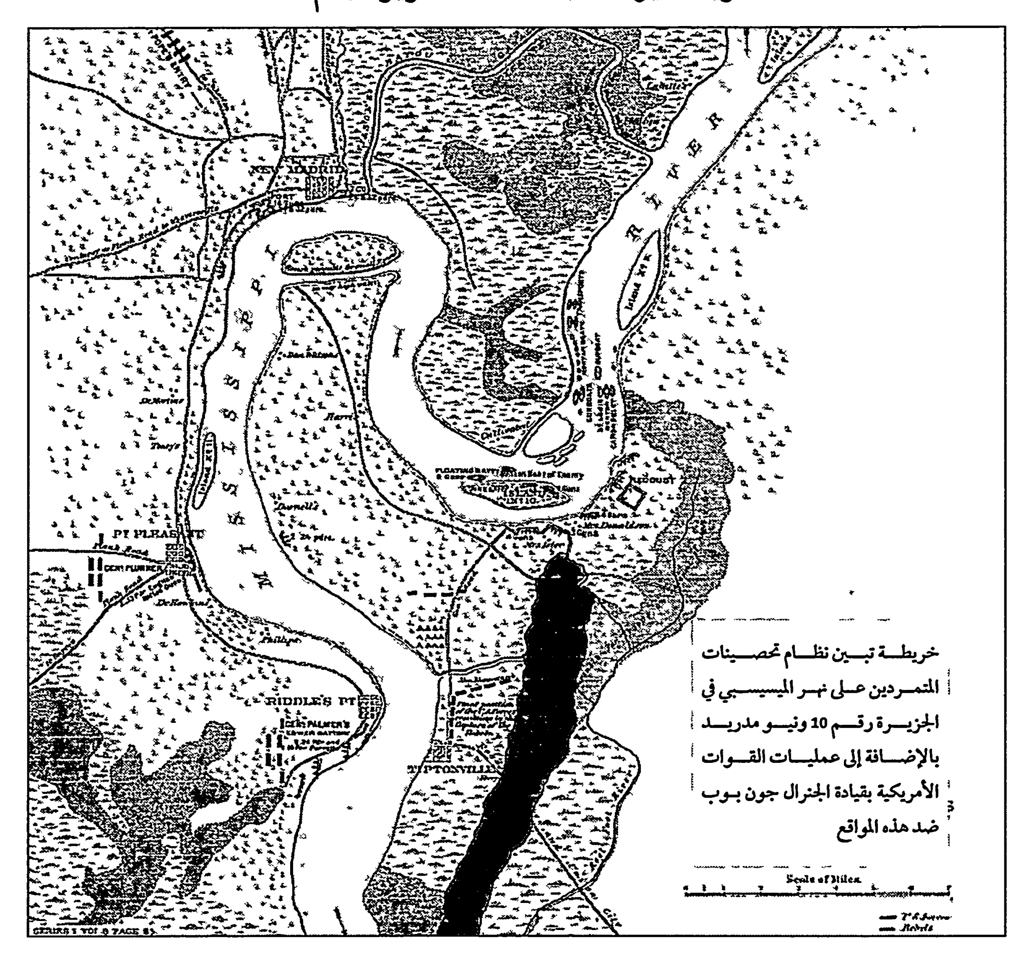
وفي آن معاً، وضمن إطار تقدم الاتحاد نحو الجنوب، شنّ جيش اتحادي آخر هجوماً للاستيلاء على المعقل العسكري الكونفيدرالي الذي يسد الميسيسبي عند الجزيرة رقم 10 مقابل نيو مدريد في ميسوري (انظر الشكل 8-3). وهنا يقوم الميسيسبي بأحد تعرجاته الهائلة. وكان هدف الاتحاد هو الجزيرة رقم 10، التي سميت كذلك لأنها كانت عاشر جزيرة جنوبي تقاطع نهر أوهايو مع الميسيسبي (Nevin 1994). فجغرافية الجزيرة رقم 10 أكسبتها أهمية استراتيجية كبيرة؛ فقد اختارتها القوات الكونفيدرالية معقلاً عسكرياً رئيسياً، لأنها اضطرت إلى التخلي عن مزيد من حصونها الشمالية الرئيسية في كنتاكي (انظر الشكل 8-3)، التي تم الالتفاف عليها بعد خسارة حصني هنري ودونلسون.

كانت الجزيرة رقم 10 هي المنطقة الوحيدة التي يمكن الدفاع عنها على نهر الميسيسبي، شمالي ممفيس، وقد اعتبر الجنرال ب. ت. ج. بيورجارد الاحتفاظ بهذا الحصن أمراً أساسياً لخطوط الكونفيدرالية في الغرب (The War of Rebellion 1883). كما اعتبر أن الجزيرة رقم 10 هي النقطة الاستراتيجية الحاسمة على طول نهر الميسيسبي لأنها وقفت بثبات في وجه التقدم الاتحادي المرتقب جنوباً على طول محور النهر. فموقع الجزيرة رقم 10 في قاعدة التعرج، بالإضافة إلى الضفاف المغمورة بالفيضان على طول شاطئ تينيسي، قد منع العمليات النهرية من نيو مدريد إلى ممفيس. مما أجبر بيورجارد على إصدار أوامره بإنشاء سلسلة حصون على الجزيرة، بحيث تتمكن المدفعية الثقيلة من تغطية

كل ممر ممكن على طول النهر والضفاف المجاورة. وتم وضع أكبر الأسلحة المتاحة للمتمردين في التحصينات (The War of Rebellion 1883).

الشكل (8-5)

خريطة نيو مدريد - حملة الجزيرة رقم 10



المصدر: Cowles (1895).

كانت الجزيرة رقم 10 تقع (لم يعد لها وجود) في قاعدة التعرج الجنوبي، وكانت بلدة نيو مدريد تقع في أعلى الحلقة الشمالية لنهر الميسيسبي في عام 1862 (انظر الشكل 8-5). والمسافة الممتدة على خط مستقيم من الجزيرة رقم 8 إلى نيو مدريد تبلغ نحو 10 أميال، ولكنها تبلغ 24 ميلاً عبر النهر. وبالمثل، تبلغ المسافة براً من الجزيرة رقم 10 إلى تيبتونفيل

10 أميال، ولكنها تبلغ 26 ميلاً عبر المياه. وكان معظم الأراضي المحيطة بالحصن مغمورة بالمياه وعلى شكل مستنقعات، مما عوّق بشكل شديد الحركة إلى الحواجز المجاورة للنهر (The War of Rebellion 1883).

بحيرة ريلفوت (انظر الشكل 8-5) هي بحيرة اصطناعية تشكلت بفعل زلزال نيو مدريد الذي حدث عام 1811 وكانت تعتبر حاجزاً لا يمكن عبوره، حيث منع حركة القوارب (Coombe 1996). ولذلك لم يكن من الممكن شن هجوم للاستيلاء على الحصن إلا من خلال عبور النهر، أو من جهة الشمال من خلال الطريق التي كانت تمر عبر تيبتونفيل (Dodge 1897). وكان الحصن نفسه، الذي اعتبره كثيرون منيعاً، يتألف من سلسلة من الأعمال الأرضية مع تسعة وأربعين مدفعاً ثقيلاً و9000 جندي محنك، تدعمهم خمس مدفعيات إضافية على ضفة نهر تينيسي (The War of Rebellion 1883). كما كان هناك مدفعية عائمة وأسطول صغير من الزوارق الحربية لتعزيز الدفاعات الأرضية. ولذلك كان على القوات الاتحادية أن تخوض معركتين صعبتين: واحدة ضد هذه المجموعة الكبيرة من القوى الاتحادية؛ والأخرى، ضد الجغرافيا المتمثلة بالأرض المغمورة بالمياه والتيارات الغادرة والحواجز الرملية الموجودة ضمن عقدة المنعطف النهري المجاور للحصن (Nevin 1994).

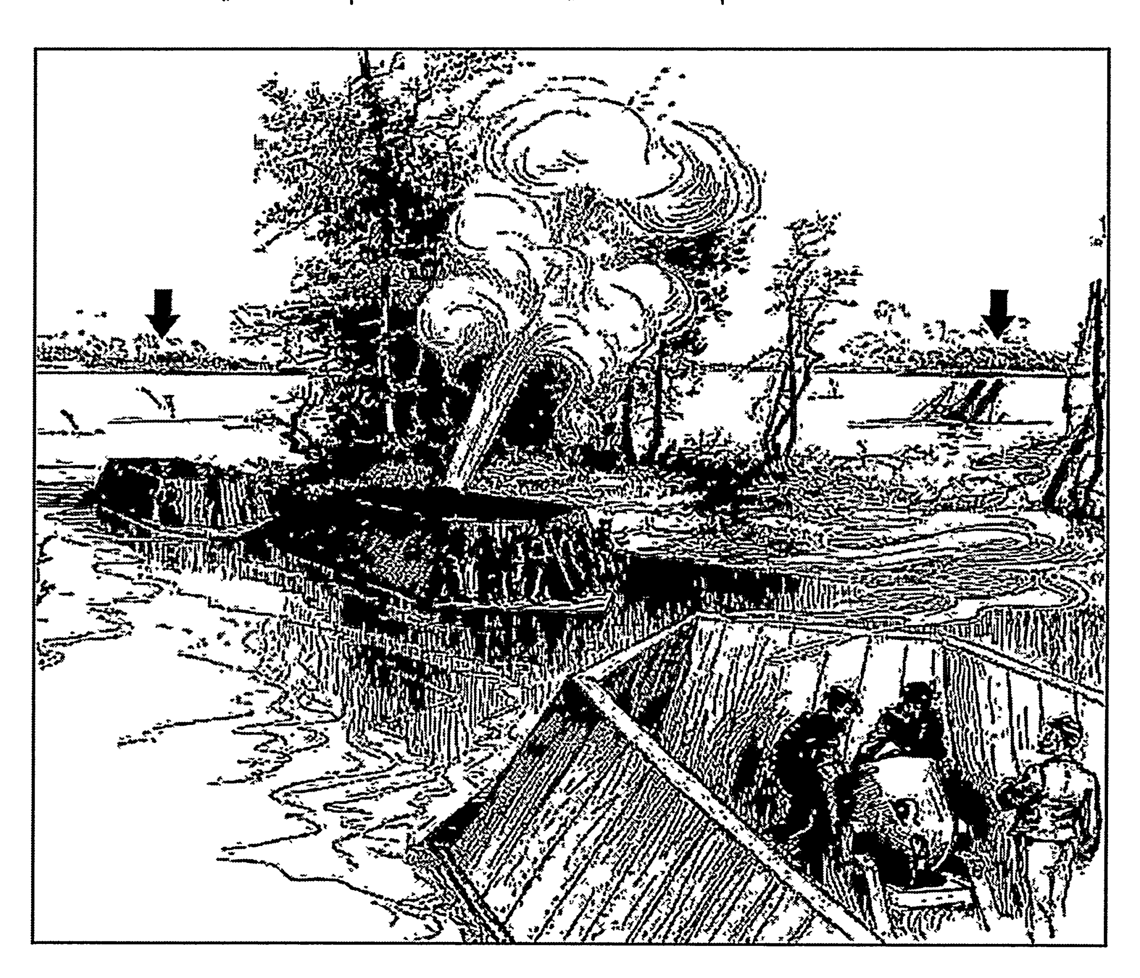
المعركة على الجزيرة رقم 10

تولى الجنرال جون بوب John Pope قيادة جيش اتحادي قوامه 20000 جندي، يدعمهم الأسطول النهري الاتحادي بقيادة الضابط فوت Foote (Nevin 1994)، وسارت هذه القوة المشتركة لتنفيذ مهمة فتح الامتداد الشمالي لنهر الميسيسبي إلى ممفيس. ولم يكن هذا النوع من العمليات غريباً على فوت؛ فقد كان قائداً بحرياً نجح في الاستيلاء على حصنَي هنري ودونلسون بالإضافة إلى حصن جرانت في فبراير 1862 (Catton 1989). ومع أن تعداد القوات الاتحادية فاق عدد المتمردين، فإن اجتماع التحصينات مع المزايا الجغرافية شكل عقبات مادية هائلة. والطريق البري العملي الوحيد إلى الحصن كان

على طول الضفة الغربية لنهر الميسيسبي عبر نيو مدريد، ولكن للوصول إلى الحصن، كـان جيش بوب بحاجة إلى وسائل نقل لعبور الميسيسبي وزوارق حربية لإسكات المدافع عـلى شاطئه. ولكن التحصينات القويـة عـلى الجزيـرة رقـم 10 حالـت بـين الجيش الاتحـادي والأسطول النهري.

الشكل (8-6)

زوارق تحمل مدفعية الاتحاد تقصف الجزيرة رقم 10 أثناء المحاولة الفاشلة التي قام بها الضابط فوت لسحق المدافعين عن الجزيرة وإخضاعهم. هذا المشهد من جهة الشمال حيث تكون الجزيرة رقم 10 ظاهرة في أعلى يمين الرسم التصويري



المصدر: Harper's Weekly.

وبدأت المعركة جيداً بالنسبة إلى بوب، فقد استولى على نيو مدريد في 14 مارس، وأراد إرسال جنوده عبر النهر جنوب الجزيرة رقم 10 لتطويق حاميتها والاستيلاء عليها (Dodge 1897). إلا أن هذا كان صعباً لأن الجزيرة رقم 10 ستبقى آمنة ما لم يعبر النهر بسبب بقاء سبيلين مفتوحين لإمداد المتمردين وفرارهم. وقرر الضابط فوت من جهته أنه من الخطير جداً أن يضع زوارقه المدرعة ووسائل نقله في مرمى نيران المدفعية الثقيلة للحصن (Official Records 1884). واقتضت خطة فوت شن عملية قصف بعيد المدى (انظر الشكل 8-6)، ولكن سرعان ما تبين أنها عملية غير مجدية (Official Records 1884).

في هذه الأثناء، قامت قوات مشاة الجنرال بوب بعدة محاولات لعبور النهر، ولكنها لم تحقق نجاحاً يذكر. وبعد عدة أسابيع، تعب بوب من عملية القصف غير المجدية التي يشنها فوت، وقرر أن يحاول وضع خطة جديدة لتجاوز الجزيرة، فقضت خطته بفتح قناة عبر قاعدة التعرج المغمور بالمياه شمالي المنعطف الذي يكون على شكل حرف "S" (انظر الشكل 8-5). ومن ثم، فإن القناة المقترحة ستصل بشكل مباشر النهر من المنطقة الواقعة بين الجزيرتين 8 و9، ونيو مدريد. وهذه الطريق المختصرة ستستفيد من جغرافية التعرج لتجاوز الجزيرة بوسائل المواصلات اللازمة لعبور النهر (The War of Rebellion 1883).

وقام المهندسون وفوج من المشاة بحفر القناة عبر الحقول المغمورة بالمياه والأراضي المنخفضة المتشابكة، واخترعوا أدوات مبتكرة لقطع الأشجار تحت مستوى مياه الفيضان (The War of Rebellion 1883). وفي نهاية المطاف حفر نحو 600 جندي قناةً بعرض 50 قدماً، وطول 8 أميال في غضون ثلاثة أسابيع. وأخيراً، وفي يوم 4 إبريل، تم اختراق الحاجز الواقع فوق الجزيرة رقم 9، وركبت زوارق النقل موجة الفيضان بسلام نحو نيو مدريد. وفي الوقت ذاته، نجحت اثنتان من سفن الاتحاد المدرعة في العبور ليلاً متجاوزةً مدفعية الجزيرة رقم 10. وأصبح الجنرال بوب يمتلك الوسائل لنقل جيشه والمدافع الكبيرة الموجودة على السفينتين المدرعتين "كارونديلت" و"بيتسبرغ" عبر النهر لدحر المدفعية الموجودة على الشاطئ وتغطية عبوره للنهر (Dodge 1897).

بدأت الحملة للاستيلاء على الجزيرة رقم 10 من الخلف بشكل جدي. وفي 6 إبريل، قامت السفن المدرعة بتطهير مدفعيات المتمردين على شاطئ تينيسي، وتلك الموجودة قبالة بوينت بليزنت (انظر الشكل 8-5). وهاجمت السفينتان المدرعتان: "كارونديلت" و"بيتسبرغ"، رصيف واطسون في صباح 8 إبريل، ثم غطت عبور جيش بوب إلى الضفة الشرقية للنهر. وسرعان ما قامت قوات بوب بإغلاق منافذ الهروب من خلال الاستيلاء على تيبتونفيل والبرزخ الضيق بين الميسيسبي وبحيرة ريلفوت. وفي الظهيرة، كانت حامية الجزيرة رقم 10 معزولة، وفي الساعة 21:00 استسلم كثير منهم. وفي وقت مبكر من يوم 8 إبريل (بعد نهاية معركة شيلوه مباشرة)، استسلمت آخر القوات الكونفيدرالية أمام جنود بوب (Nevin 1994). وكان ذلك انتصاراً مذهلاً، قام خلاله جيش الاتحاد بعكس اتجاه المزايا الجغرافية للأرض وأجبر القوات الكونفيدرالية على الاستسلام. ووقع في الأسر أكثر من 5000 جندي كونفيدرالي، بالإضافة إلى الاستيلاء على أكثر من 100 مدفع وكمية هائلة من الذخيرة (Foote 1958). ولم يكن الثمن الذي دفعته القوات الاتحادية لسحق ركيزة الجناح الأيسر للقوات الكونفيدرالية في الغرب باهظاً؛ إذ إنها لم تخسر إلا عدداً قليلاً جداً من جنودها.

موجز العوامل الجغرافية

لا شك في أن الجغرافيا كان لها أثر عميق في المعركة من أجل الجزيرة رقم 10. ويبدو أن الأرض المغمورة بالمياه وتعرجات نهر الميسيسبي منحت القوات الكونفيدرالية حصناً مثالياً وشبه منيع ضد الهجمات البرية. فقد كانت قناة النهر واسعة وفي أعلى مستوياتها منذ سنوات. ولكي تعبر نهر الميسيسبي، احتاجت قوات مشاة الجنرال بوب إلى وسائل النقل التي كانت محتجزة على الجانب الآخر من التعرج. ولمساعدة بوب، اضطر قادة البحرية الاتحادية إلى مقارعة التيارات القوية والحواجز الرملية بالإضافة إلى محاربة التحصينات الهائلة. ومن هنا، فقد أضفى التعرج خدعة جغرافية شيطانية على خطة الاتحاد الساعية للاستيلاء على الحصن، لأن وسائل المواصلات الحساسة بقيت محصورة شمالي الجزيرة لا يفصلها عن نيو مدريد سوى 10 أميال، حيث بقي جنود المشاة من دون حراك. وتمكن

قادة قوات مشاة الاتحاد من الحراك فقط حول محيط الحصن، حيث صدّتهم الأرض المنخفضة التي تغمرها مياه النهر. ولم يكن بالإمكان الوصول إلى الجزيرة رقم 10 إلا من طريق واحد عبر تيبتونفيل، وهنا تكمن إحدى مفارقات هذه المعركة. فحالما حصل جنود بوب على موطئ قدم على طول ضفة ميسوري، انعكس تأثير هذه المزية الجغرافية، وأصبح طريق الدخول الوحيد عبر تيبتونفيل هو نقطة ضعف المدافعين.

من الواضح أن نهر الميسيسبي كان أهم تأثير جغرافي في المعركة. فقد شكل موقعه واتجاهه المتعرج لغزاً تكتيكياً فريداً لجيش الاتحاد. وعلاوة على ذلك، كان موقع الجزيرة رقم 10 في قاعدة التعرج موقعاً محصناً بالنسبة للمتمردين؛ لأن التيار النهري من شأنه أن يجبر سفن الضابط فوت الحربية الثقيلة على الوقوف بشكل مباشر قبالة بطاريات المدفعية الموجودة على النهر (انظر الشكل 8-5). وتفاقمت هذه المشكلة؛ لأن فيضان النهر كان في أعلى مستوى له في تاريخه حتى ذلك الحين (The War of Rebellion 1883). وأدى ارتفاع منسوب المياه إلى توليد تيار قوي جداً بحيث اضطرت سفن الاتحاد المدرعة إلى الرسو على الشاطئ لأن محركاتها لم تكن قوية كفاية للحفاظ على موقعها في النهر. إلا أن أكبر مشكلة واجهها الضابط فوت كانت اتجاه التيار، فعند حصنَي هنري ودونلسون، تدفقت الأنهار باتجاه الشمال، ومن ثم، فإن أي سفينة تتعطل بفعل إصابتها بقذيفة ستنجرف إلى الوراء باتجاه خطوط الاتحاد. وعند الجزيرة رقم 10 كان الوضع معكوساً، حيث اضطر الضابط فوت أن يتعامل مع تيار ذي اتجاه جنوبي، سيجرف أي سفينة معطلة باتجاه الجنوب ويجعلها في متناول القوات الكونفيدرالية. وأدى هذا العامل دوراً أكثر من أي عامل آخر في جعله يعتمد على قصف الجزيرة قصفاً بعيد المدى، ولكنه ضعيف على ما يبدو (The War of Rebellion 1883).

كانت الضفاف المغمورة بالفيضان والمستنقعات تشكل عامل أمان رئيسياً للقوات الكونفيدرالية المحتشدة على الجزيرة رقم 10. وكان الهجوم من النهر من ناحية ولاية تينيسي غير وارد بسبب المستنقعات غير السالكة. وقد تعززت هذه الأرض المغمورة

ببحيرة ريلفورت التي ارتبطت مع نهر الميسيسبي على بعد نحو 14 ميلاً نحو الجنـوب، ولم يكن من السهل عبور بحيرة ريلفوت لأنها كانت مغلقـة تمامـاً. بالإضـافة إلى ذلـك، فقـد أُحبطت أيضاً الجهود التي بذلها بوب لاحـتلال المنعـرج المقابـل للجزيـرة رقـم 10 بفعـل الأرض المغمورة بالفيضان والمستنقعات العميقة (The War of Rebellion 1883).

لكن الأمان الذي وفرته الأرض المغمورة بالفيضان المجاورة للنهر وأسلوب الطريق الواحد سـرعان ما استحال ضـرراً كبيراً للقوات الكونفيدرالية. فبعد الاستيلاء عـلى نيـو مدريد يوم 14 مارس، وضع الجنرال بوب المدفعية في ريـدلز بوينـت عـلى طـول جنـوب الحاجز الطبيعي (انظر الشكل 8-5)، مما أدى في نهاية المطاف إلى عكس تأثير المزية النسـبية التي أتاحتها التضاريس، وكانت مهمـة لسـببين: الأول، أن بطاريـات مدفعيـة الاتحـاد في ريدلز بوينت سيطرت على النهر عند الجزيرة رقم 10، ومنعت تقريباً عمليات إعادة التزود بالإمدادات بوسـاطة المراكـب النهريـة، وأنهـا أجـبرت المتمـردين عـلى سـحب أسـطول زوارقهم الحربية الصغير من المنعطف النهري، مما سهل لاحقاً مرور سفن الاتحاد المدرعـة مساءً يومي 5 و6 إبريل (Coombe 1996). ثانياً، سيطرت مدفعيات ريـدلز بوينـت عـلى الطرق البرية إلى تيبتونفيل من الجنوب. وبما أن الأرض جنوبي تيبتونفيـل كانـت مغمـورة بالمياه، فلم يكن هناك مجال للحركة إلا على طريق مرتفعـة وحيـدة أو عـلى طـول الحـاجز الطبيعي الذي كان هدفاً سهلاً ضمن مدى مدفعية قوات الاتحاد.

الخلاصة

شكّلت المعركة في سبيل الجزيـرة رقـم 10 نصــراً رئيسـياً للاتحـاد أدى إلى فـتح نهـر الميسيسبي على مدينة ممفيس بولاية تينيسـي، 150 ميلاً إلى الجنوب، وقوض خطط القوات الكونفيدرالية الرامية إلى الدفاع عن الخط الأمامي على طول النهر. وتعتـبر المعركـة مثـالاً ممتازاً لتأثير التضاريس في العمليات العسكرية، وتدل على العوائق الجغرافيـة ذات الصـلة بالعمليات النهرية. وكانت قوات الاتحاد قادرة على التغلب عـلى الحصـن الحصـين الـذي تحميه الجروف العالية والأراضـي المغمورة بالمياه على طول نهر عريض وسـريع الجريـان.

وانتهى هذا النصر بالاستيلاء على الحامية الكونفيدرالية بأكملها وعلى كميات كبيرة من الأسلحة الثقيلة والذخائر، ولم يخسر الاتحاد سوى عدد قليل من الجنود. وشهدت المعركة براعة في إنشاء القناة لتجاوز الجزيرة رقم 10. أما من حيث العمليات المشتركة، فإنها عملية شبه تقليدية توضح التعاون بين القوات البرية والبحرية في الأوقات التي لا يوجد فيها قواعد رسمية تأمر بالعمل المشترك.

ومن سخرية الأحداث أن تبقى هذه المعركة المهمة مجهولة عملياً. ربما خفت صيت هذه المعركة بفعل المعارك الدامية في شيلوه التي أثارت جدلاً كبيراً واستولت على عناوين الصحف في الشمال. إلى ذلك، سرعان ما أصبح الجنرال بوب طي النسيان بعد هزيمته الكارثية في معركة ماناساس الثانية لاحقاً في ذلك الصيف. ورغم الغموض النسبي، كانت المعركة التي دارت في سبيل الجزيرة رقم 10 أول عملية اشتباك كبرى على نهر الميسيسبي، وكانت نموذجاً لعدد من المعارك التالية. وفي الواقع، عندما واجهتها مشكلة جغرافية مماثلة على المنعرج المقابل لمدينة فيكسبيرغ على الميسيسبي في عام 1863، سرعان ما استعانت قوات الاتحاد بالحل الذي تم استخدامه عند الجزيرة رقم 10 وحاولت تجاوز مدفعياتها النهرية بالطريقة نفسها تماماً. ولكنهم، ولسوء الحظ، لم ينجحوا في ذلك واضطروا إلى خوض معركة طويلة، لأن ظروف نهر الميسيسبي لم تدعم عملية تنظيف القناة وصيانتها بالطول الكافي لتعويم وسائل النقل عبر المنعرج، إلى ما وراء مدافع فيكسبيرغ.

الفصل التاسع

حملة كيب الشمالية بقيادة ميثوين

الحرب بين إنجلترا والبوير (1899-1902)

هندريك سميت

مقدمة

في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، اندلعت حرب مدمرة في المنطقة التي تعرف اليوم باسم جمهورية جنوب أفريقيا، حيث تحدّت جمهوريتان صغيرتان من البوير جبروت الإمبراطورية البريطانية، ومن أكتوبر 1899 إلى مايو 1902، اضطرت بريطانيا إلى مواجهة عدو خاض حرباً متقنة في سبيل الوجود والاستقلال.

في نهاية الصراع في مايو 1902، استطاعت بريطانيا أخيراً وبفضل تفوقها العسكري والاقتصادي أن تدحر مقاومة البوير العنيدة، لتنهي الحرب بتوقيع معاهدة سلام في فيرينجين جنوبي جوهانسبرغ. لقد كلّفت الحرب جمهوريتي البوير استقلالهما ودمرت المشهد الطبيعي. فقد دمرت الحرب حوالي 30000 مزرعة وأكثر من أربعين بلدة بالإضافة إلى أعداد هائلة من المواشي. وبلغ عدد الضحايا 28647 جندياً بالإضافة إلى مقتل أكثر من 42000 مدني من جنوب أفريقيا من جميع الأعراق داخل ما كان يسمى "معسكرات الاعتقال". وكان البريطانيون هم من وضعوا هذا النظام لمنع الطعام عن جنود البوير، والحيلولة دون حصولهم على الدعم من السكان المدنيين، ولإضعاف عزيمة البوير.

كانت حملة كيب الشمالية التي قادها الفريق بول سانفورد، البارون الثالث في عائلة ميثوين، هي الخطوة الافتتاحية للهجوم البريطاني الأولي. ومع أن هذه الحملة توضح تأثير الجغرافيا في حملة عسكرية، فإنها تعطي دروساً مهمة تتجاوز تلك الفترة بالذات، وربما تنطبق على عمليات اليوم.

أهمية الجغرافيا في الحرب

يشير أوسوليفان وميلر (O'Sullivan and Miller 1983) إلى أن المشكلات الاستراتيجية والتكتيكية الأساسية للحرب هي مشكلات جغرافية بطبيعتها. والتحليلات التاريخية للمعارك تضفي مصداقية على هذه الفكرة، وتخدم في إيضاح العلاقة بين الجغرافيا والحرب. كما أن الدراسات الحديثة مثل وينترز (Winters 1998) وبالكا وجالجانو (Palka and Galgano 2005) تؤكد هذه الفكرة. وحقيقة أن العوامل الجغرافية كالتضاريس والطقس والمناخ تؤثر تأثيراً قوياً في النشاطات البشرية والعسكرية، هي حقيقة معروفة جيداً وكانت موضع بحث شامل. ومع ذلك، يوضح التاريخ أيضاً أن العوامل الجغرافية لم تؤخذ دوماً بالاعتبار خلال العمليات العسكرية، والتي غالباً ما كانت نتائجها وخيمة.

ويمكن الاطلاع على مثالين تقليديين عن الاستخفاف إلى حد مهلك بعاملي المناخ والتضاريس، في حملات كل من نابليون وهتلر في روسيا (Blond 1995; Winters 1998). كما توجد أمثلة كثيرة أخرى تثبت الدور الحساس الذي تؤديه العوامل الجغرافية في العمليات العسكرية في الأدبيات العالمية كما هي مسجلة، في جملة أمور أخرى، من قبل: وينترز (Winters 1999) وميتزجر (Metzger 1992)، وبايلز (Bayles 1993) وجالجانو (Galgano 1994) وباكت (Puckett 1994) وبالكا وجالجانو (Palka and Galgano 2000, 2005) وكولينز (Collins 2003). وبإشارة خاصة إلى الحرب في منطقة جنوب أفريقيا، فقد سجل أوبرمان (Opperman 1981) وبيري (Perry 1996) وبريتوريوس (Pretorius 2002) التأثير المهم للمشهدين البشري والطبيعي في الحرب.

العوامل الجغرافية التي أثرت في حملة كيب الشمالية

لذلك، قم بالقياس من حيث خمسة أشياء، واستخدم هذه التقييمات لإجراء المقارنات، وهكذا تجد ما هي هذه الظروف. الأشياء الخمسة هي: **الطرق والطقس والتضاريس** [التشديد من قبل المؤلف]، والقيادة والانضباط (Cleary 1988: 42).

التضاريس

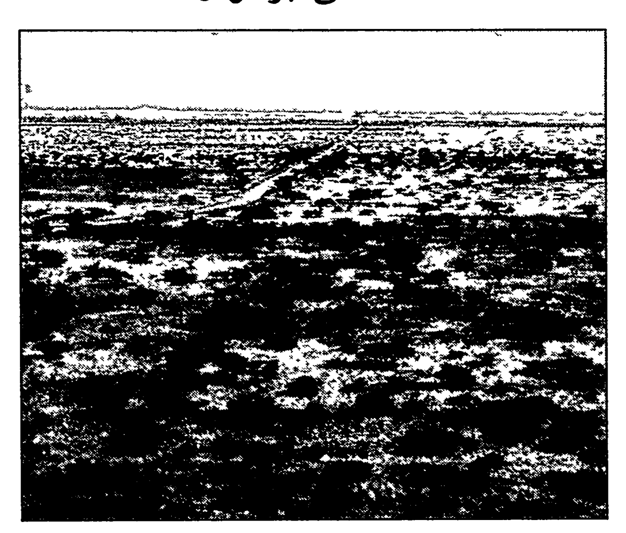
اعتبرت السيطرة على الأراضي المرتفعة ضرورةً استراتيجية وتكتيكية (Deighton 1985; Stephenson 2003)؛ لأن السيطرة على الأراضي المرتفعة تتيح مراقبة تحركات العدو واستخدام النيران ضده بصورة فعالة من مسافات طويلة. كما تتيح هذه الظروف متسعاً من الوقت للرد على تحركات العدو، أو لإعاقة قدرته على القيام باستطلاع فعال. وجرى التشديد على هذين الأمرين الضروريين كليهما خلال الحروب الدفاعية، وتم اعتبارهما من الأمور المعهودة خلال الحرب بين إنجلترا والبوير. ونظراً لقبول هذه المبادئ، خاضت قوات البوير أول معركتين (أي بلمونت وجراسبان) من التلال المطلة على السكة الحديدية المتجهة إلى كيمبرلي. إلا أن الخبرة في الميدان خلال هاتين المعركتين أجبرت المدافعين البوير على إعادة النظر في الخطة المعروفة وإيجاد الخطط الجديدة، التي كانت أكثر ملاءمة لظروفهم التكتيكية المحددة. ومن بين أمور أخرى، تعلموا أن يكونوا أكثر ابتكاراً في استخدام المزايا المتنوعة للأراضي المرتفعة والأنهار لأغراض استراتيجية وتكتيكية.

وكالأراضي المرتفعة، تعتبر الأنهار عادةً موقعاً دفاعياً جيداً. يفرز النهر مجموعة من اعتبارات التخطيط التكتيكي الصعبة لأي جيش (Galgano 2005). ومن وجهة نظر تكتيكية، تعتبر خصائص الأنهار كالطول والعمق والضفاف والحجم ومعدل التصريف والسرعة وعدد التعرجات وحجمها، من الجوانب المهمة التي يجب أن تأخذها في الاعتبار أي قوة مهاجمة (Van den Berg 1997; Collins 1998; Winters 1998). علاوة على ذلك، يوفر النهر كميات كبيرة من مياه الشرب للمدافعين، في حين يمنع المهاجمين عنها. وفي الظروف القاحلة أو شبه القاحلة، كتلك التي تشهدها جنوب أفريقيا، يمكن أن يشكل هذا مزية حاسمة.

جرت كل معركة من المعارك الأربع خلال حملة كيب الشمالية التي شنها ميثوين، على أرض مسطحة نسبياً، يراوح ارتفاعها ما بين 1100-1200 متر (3600-4000 قدم) عن سطح البحر، تتخللها تلال من الصخور البركانية (الديابيز) يراوح ارتفاعها بين 74-133 متراً (240-450 قدماً) فوق الأراضي السهلية المحيطة (CDSM 1988; 1997)، وعلى السهول المغطاة بشكل طبيعي بالأعشاب الطويلة، وتتخللها بقع تحتوي على الأشجار الشوكية وكثيبات النمّال المعزولة [كومة من الرمال وغيرها التي شكلتها النمل] (انظر الشكل 9-1). كما أن حفر خنزير الأرض (آكل النمل) والشجيرات الشوكية تعقد الحركة في الليل أكثر مما يبدو للوهلة الأولى (Pakenham 1979). وقد اضطر ميثوين إلى عبور نهرين خلال حملته للاستيلاء على كيمبرلي، ونهر أورانج هو أكبر هذين النهرين، ومع ذلك لم يكن له دور خلال الحملة، لأن الجسور كانت بأيدي البريطانيين. ولكن السكة الحديدية عبرت نهراً آخر، هو نهر مودر، بعد بضعة أمتار من نقطة التقائه مع نهر رايت، مما أجبر ميثوين على التعامل مع كليهما. ونظراً لتقنية الوقت، شكل هذان النهران عقبةً صعبةً أمام قوة ميثوين رغم أنهما كانا صغيرين نوعاً ما.

الشكل (9-1)

التضاريس النموذجية لكيب الشمالية كما تمكن رؤيتها من تلال ماجسفونتين المطلة على نهر مودر



المصدر: H. A. P. Smit.

البنية التحتية

عند اندلاع الحرب، كان في جنوب أفريقيا مراسٍ ومرافئ جيدة، جميعها كانت بيد البريطانيين. ولكن مشكلات البريطانيين بدأت عندما تركوا المرافئ؛ ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت تحركات القوات والإمدادات مقيدة إلى حد كبير بالمنطقة التي تجتازها السكة الحديدة. وتفاقمت هذه المشكلة بفعل النقص الشديد في حيوانات النقل في المنطقة. ورغم أن المنطقة تخللها عديد من الطرق المتقاطعة، منها ما هو مغطى بالحصى ومنها الطرق الزراعية الأصغر، فإنها لم تكن ملائمة لحركة الوحدات العسكرية الكبيرة (Breytenbach 1969). وكانت المزية الأساسية لمصلحة ميثوين هي أنه كان تحت تصرفه خط حديدي جيد يربط كيب تاون مع كيمبرلي والأراضي النائية التي بعدها. ولكن هذه السكة الحديدية كانت مشكلة بالنسبة إلى ميثوين؛ فقد وفرت له خط إمدادات ممتازاً، ولكنها ربطته أيضاً بخط عمليات ضيق جداً ويمكن التنبؤ به خلال تقدمه إلى كيمبرلي. ومن المؤكد أن البوير عرفوا هذا ودمروا الجسور بالإضافة إلى الأجزاء الضعيفة من السكة الحديدية، وركزوا دفاعهم في النقاط الحساسة على طول خط السكة الحديدية.

تخلل المشهد عدد من مستوطنات صغيرة. ومن وجهة نظر عسكرية، لم تكن هذه المستوطنات مهمة لأنها كانت مجرد بضعة منازل ومحلات تخدم المجتمعات المحيطة. كانت كيمبرلي البلدة الوحيدة ذات الأهمية في المنطقة، وأصبحت أول بلدة مزدهرة في جنوب أفريقيا عند اكتشاف الألماس عام 1870. وبحلول عام 1882، كانت المدينة الوحيدة في جنوب أفريقيا، وفي نصف الكرة الجنوبي حقيقةً، التي فيها إنارة كهربائية للشوارع. وبعد سبع عشرة سنة، عشية اندلاع الحرب بين الإنجليز والبوير، كانت كيمبرلي ثانية أكبر مدينة في مستعمرة كيب، ولم تفُقْها مدينة أخرى سوى كيب تاون، بعدد سكان بلغ 20000 نسمة من الأوروبيين و30000 نسمة من الأفريقيين. وتشير التقديرات إلى أنها أنتجت 90٪ من معروض الألماس في العالم (Pakenham 1979).

الطقس والمناخ

لعل الطقس والمناخ من أهم العوامل التي تؤثر في العمليات العسكرية على جميع مستويات الحرب. فالتعرض لهواء الجو بدرجات حرارة تتجاوز المجال الأمثل وهو 20-25 درجة مئوية (68-77 فهرنهايت)، قد يؤدي إلى خسارة الجسم أو اكتسابه للحرارة بشكل مفرط، مع تأثيرات فسيولوجية كبيرة. وإذا استمرت هذه العملية، فإن "عمليات التنظيم الحراري" سوف تفشل في الحفاظ على الحرارة الأساسية للجسم، مما يؤدي إلى فرط انخفاض أو ارتفاع حرارة الجسم (Morgan and Moran 1997). ويمكن للحالتين كلتيهما أن تكون قاتلة، ويتعين على القادة العسكريين معرفة المخاطر المرتبطة بتعريض الجنود لدرجات حرارة مفرطة، وتأثيراتها المحتملة على جهوزيتهم القتالية (Blond 1995; Winters 1998). ومعركة مونماوث (28 يونيو 1778)، وهي مثال من الحرب الثورية الأمريكية، توضح تأثير المناخ في نتيجة المعركة. فبعد المعركة، أعلنت القوات البريطانية بقيادة الجنرال كلينتون عن 65 حالة وفاة نتيجة إصابات في المعركة و59 حالة وفاة أخرى نتيجة ضربة شمس (Wade 1998).

ومثل درجة الحرارة، كان لهطولات الأمطار تأثير مهم في حملة ميثوين؛ فهذه المنطقة من جنوب أفريقيا تشهد تركيزاً لهطولات الأمطار في الصيف. وتبعد كيمبرلي نحو 30 كيلومتراً (19 ميلاً) شمالي نهر مودر، وقد راوح معدل الأمطار فيها بين 300 و750 ملم (12-30 إنشاً) سنوياً خلال السنوات العشر التي سبقت عام 1899 (War Office 1899). وبحسب مكتب الطقس الجنوب أفريقي، فإن معدل الأمطار السنوية لهذه المنطقة يراوح بين 250 و500 ملم (10-20 إنشاً). وينتج المطر عادة عن العواصف الرعدية وزخات المطر، ويكون مصحوباً بالبرَد أحياناً (Schulze 1986).

يراوح متوسط سطوع الشمس اليومي بين 70 و80 بالمئة، حتى خلال ذروة موسم الأمطار، ونمط الحرارة الموسمية هو النمط النموذجي للمناخات القارية. درجات الحرارة القصوى في يناير (أي الصيف) تراوح بين 30 و33 درجة مئوية (86-91 فهرنهايت)، وتصل في أقصى حد إلى 41 درجة مئوية (106 فهرنهايت). وفي يوليو (أي في الشتاء)،

تبلغ درجة الحرارة القصوى نحو 17 درجة مئوية (63 فهرنهايت)، في حين قد يصل أقصاها إلى 28 درجة مئوية (82 فهرنهايت). درجات الحرارة الدنيا الطبيعية خلال فصل الصيف (أي يناير) تبلغ 15 درجة مئوية (59 فهرنهايت) وتهبط إلى صفر درجة مئوية (32 فهرنهايت) في الشتاء (أي في يوليو)، مع حالات مفرطة في التدني تصل إلى 3 درجات مئوية (37 فهرنهايت) في الصيف و-11 درجة مئوية (-9 فهرنهايت) في الشتاء. تكون الرياح عادةً شمالية غربية، وتبلغ أقصى سرعة لها خلال فترة ما بعد الظهر. وتعد العواصف الرعدية والرياح الجنوبية الغربية القوية والعاصفة التي تدوم لفترة قصيرة، ويصاحبها انخفاض حاد في درجة الحرارة، من الملامح المشتركة في هذه المنطقة (Schulze 1986). ومن ثم، كانت أحوال الطقس والمناخ في جنوب أفريقيا قاسية وأثبتت أنها غير مألوفة وشاقة للغاية على الجنود البريطانيين، الذين وصلوا إلى جنوب أفريقيا مباشرة من فصل الشتاء في نصف الكرة الشمالي. وكان الغبار والحرارة والشمس القاسية والتغيرات الحادة في درجات الحرارة النهارية، وعدم توافر المياه بسهولة، من العوامل التي أثرت سلبياً في القدرة القتالية للجنود البريطانيين خلال المعارك التالية.

الحرب بين إنجلترا والبوير (1899-1902)

كانت الحرب بين إنجلترا والبوير حدثاً بارزاً في جنوب أفريقيا، وقد كتب عن الصراع أكثر مما كتب عن أي صراع آخر خاضه الجنوب أفريقيون (Saunders 2001). كما كان الصراع الأكثر دموية والأوسع نطاقاً بين البيض وشعب جنوب أفريقيا، رغم أن تأثيراته لم تقتصر قط على السكان البيض (Wessels 1991).

بتاريخ 9 أكتوبر 1899، أرسل بول كروجر، رئيس جمهورية جنوب أفريقيا، إنذاراً إلى بريطانيا من شأنه أن يقود إلى هذه الحرب، التي كانت لها عواقب بعيدة المدى على جنوب أفريقيا (Muller 1977; Pakenham 1979). انتهى هذا الإنذار بتاريخ 11 أكتوبر 1899، وشنت جمهوريتان من البوير، هما جمهورية جنوب أفريقيا ودولة أورانج الحرة، الملتزمتان بمعاهدة، هجوماً على الإمبراطورية البريطانية (Sleigh 1979; Scholtz, 1999).

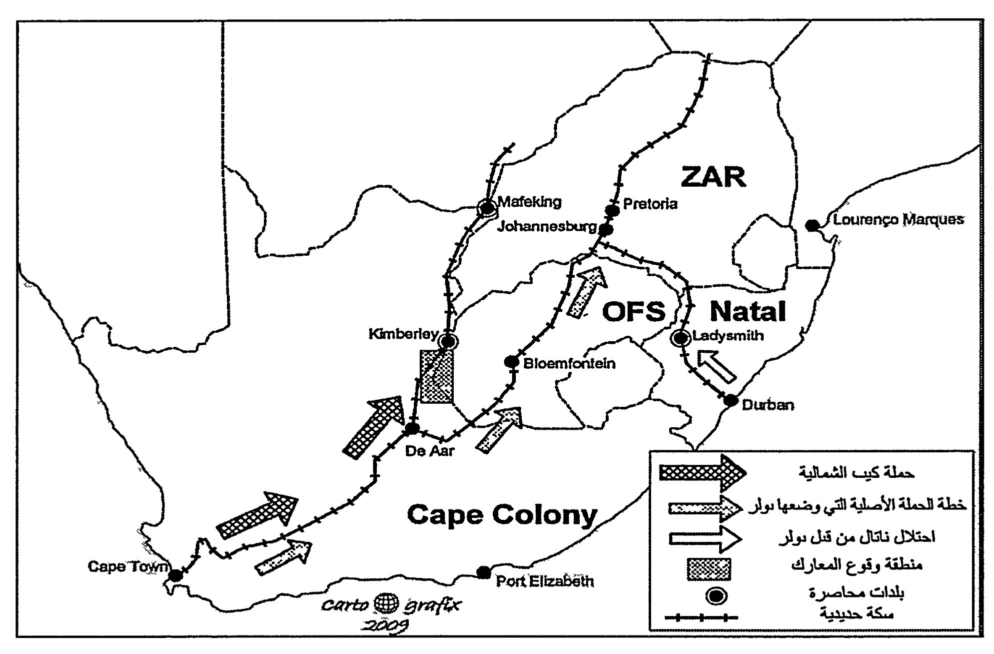
وباعتبار أن جمهوريتي البوير كانتا تتحديان جبروت الإمبراطورية البريطانية، فقد واجهتا نقطة ضعف كبيرة في القوة البشرية. ففي بداية الهجمات، كان لدى بريطانيا نحو 22104 جنود في جنوب أفريقيا أو في طريقهم إليها. منهم 14704 جنود تم إرسالهم إلى إقليم ناتال (12000 جندي بحسب Pakenham 1979)، وكان هناك 7400 جندي فقط في مستعمرة كيب. كما تم إرسال نحو 4900 جندي إضافي من المستعمرات إلى القوة البريطانية في جنوب أفريقيا. وبالمقابل، استطاعت جمهوريتا البوير تجنيد عدد من الرجال يراوح بين 61500 و78000 رجل، منهم جنود من ألمانيا وهولندا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا وأيرلندا والنمسا-هنغاريا وروسيا والولايات المتحدة (Wessels 2001). ورغم هذه القوة الكبيرة كما تبدو، يجب أن نضع في الاعتبار أن قوات البوير كان معظمها من المدنيين ذوي التدريب القليل، وأن عدد الذين خدموا منهم لمرة واحدة على الجبهة في ما مضى لا يزيد على 47000 جندي تقريباً (Wessels 1991). ومع ذلك، وبمجرد أن بدأت الحرب، ضربت قوات البوير بسرعة وصدمت البريطانيين خلال الأسابيع القليلة الأولى. وغزت جيوش البوير ناتال وحاصرت السير جورج وايت ومعه 14500 رجل في ليديسميث (Pakenham 1979). وعلى جبهة كيمبرلي، حوصرت مافيكينج وكيمبرلي (انظر الشكل 9-2) وجرى غزو مدن أخرى (Wessels 1991).

بتاريخ 31 أكتوبر، وصل القائد الأعلى للقوات البريطانية في جنوب أفريقيا، الجنرال السير ريدفيرس بولر، إلى كيب تاون على متن السفينة دَنوتار كاسل. وحتى تلك المرحلة، وضع بولر استراتيجية بسيطة: حشد رجاله البالغ عددهم 46000 رجل و114 مدفعاً و47 رشاشاً آلياً على الجبهة الشمالية الشرقية لمدينة كيب، وأطلق هجوماً مباشراً ضد دولة أورانج الحرة ومن ثم جمهورية جنوب أفريقيا. ولكن الحقائق الجديدة للحرب أجبرته على إعادة النظر في خطته. كان سيسيل جون رودس، وهو أحد أبناء الإمبراطورية البريطانية المفضلين، محاصراً في كيمبرلي، في حين كان وايت ورجاله البالغ عددهم 14500 يرزحون في ليديسميث (Miller 1999; Judd and Surridge 2002). ولذلك، قرر بولر إرسال الفريق بول سانفورد، البارون الثالث في عائلة ميثوين، مع 15000 رجل لإغاثة كيمبرلي، في حين يأخذ بولر 21000 رجل لإنقاذ وايت في ليديسميث (Waters 1904) (انظر

الشكل 9-2). وهكذا، وعلى المرج القاسي في كيب الشمالية بالقرب من كيمبرلي، حيث اعترضته قوات البوير بقيادة الجنرالين كوس دي لا ري وبيت كرونجي، كان اللورد ميثوين على وشك أن يتلقى دروساً قاسيةً في الجغرافيا العسكرية وتأثيرها القوي في العمليات والأسلحة والجنود (انظر الشكل 9-3).

الشكل (9-2)

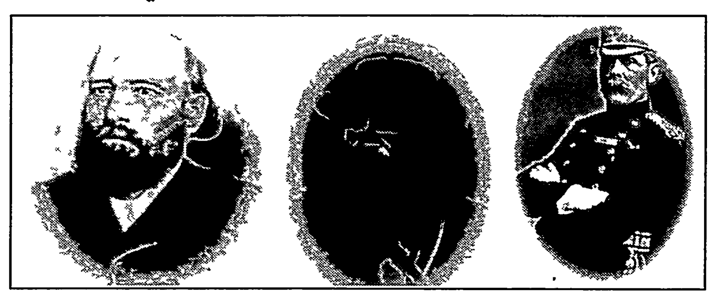
حملة كيب الشمالية بقيادة ميثوين



المصدر: J.A. Jacobs.

الشكل (9-3)

الجنرالات المعارضون: (من اليسار إلى اليمين): كرونجي، دي لا ري، ميثوين



المصدر: War Museum of the Boer Republics, Bloemfontein.

الجغرافيا ومعارك حملة كيب الشمالية

معركة بلمونت (23 نوفمبر 1899)

وقعت المعركة الأولى لحملة كيب الشمالية بقيادة ميثوين في بلمونت. وهنا، اتخذ نحو 2000 رجل من البوير بقيادة الجنرال جاكوبوس برينسلو موقعهم بين الأخاديد شرقي مركز بلمونت، فكان أن أدت الجغرافيا دوراً حاسماً منذ البداية. علمَ البوير أن ميثوين اضطر إلى الهجوم على طول السكة الحديدية، لأنها كانت الوسيلة الوحيدة الفعالة لتقديم الإمدادات لقوته الضخمة. إلى ذلك، كانت تلك الفترة بداية موسم الأمطار، ومن الصعب على قوة ضخمة كتلك الحصول عليها في مروج كيب الشمالية القاحلة.

ومع أن ميثوين مرتبط بخط تقدم يمكن التنبؤ به، فقد عانى جيشه جراء قلة الخرائط المفيدة، وبالتالي، تم اللجوء إلى عمليات الاستطلاع اليومية من أجل رسم مسودات خرائط (Waters 1904). واعتاد الطبوغرافي البريطاني الذي رسم مسودة الخريطة أن يصور تضاريس أرض المعركة، وقلل المسافة بين الخط الحديدي ومواقع قوات البوير بمقدار 1000 خطوة كاملة. وهذا الخطأ، ومعه التقدم البطيء للجنود عند محاولتهم ذلك في الليل، جعل البريطانيين يتأخرون عن اتخاذ مواقعهم الهجومية أكثر مما كان مخططاً له، ما ألغى عنصر المفاجأة والغطاء الذي وفره الظلام (Amery 1902; Breytenbach 1973). وبرغم المشكلات التي واجهها البريطانيون، فقد استسلمت قوات البوير في نهاية المطاف لقوة ميثوين المتفوقة عددياً، وللقصف المدفعي الفاعل للغاية الذي نفذه جيشه. وفي منتصف فترة الصباح، انهارت مقاومة البوير، وتمكن ميثوين من متابعة زحفه إلى كيمبرلي (Wessels 1991).

معركة جراسبان (25 نوفمبر 1899)

بعد ذلك بيومين، نشر الجنرال دي لا ري قواته في التلال إلى الشرق والغرب من خط السكة الحديدية بين جراسبان وإنسلين، وكان يقود نحو 2000 جندي. وقد وصف

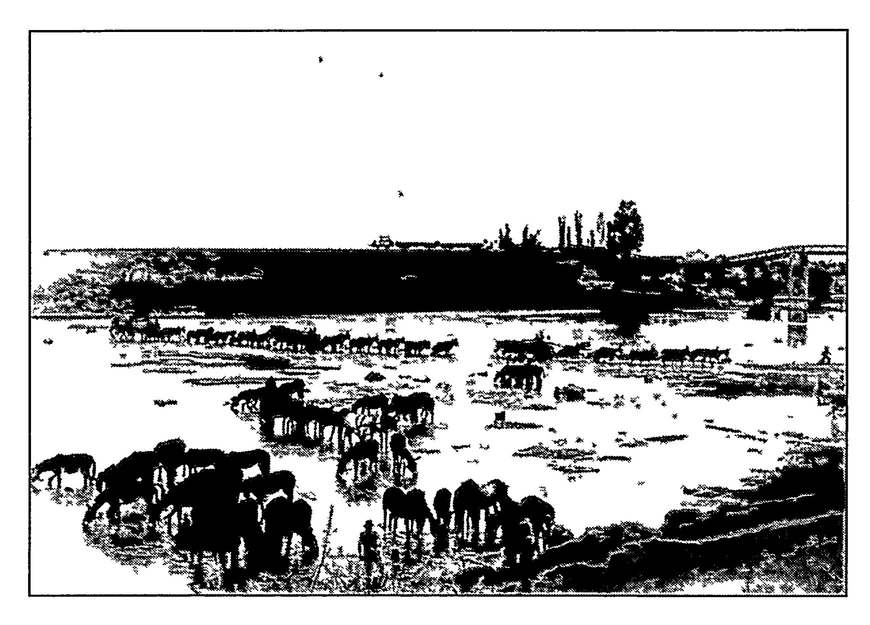
ذلك اليوم بأنه «يوم حار وقاس بشمسه الساطعة التي لا ترحم حتى بدت السماء بلون النحاس المصقول» (Creswicke 1900: 93). وقد عانى الجنود البريطانيون المهاجمون غير المعتادين لهذه الظروف معاناةً كبيرةً جراء الحرارة، ولكن من جديد استخدم ميثوين مدفعيته وعدداً هائلاً من القوات لإجبار البوير على التراجع (Amery 1902).

معركة نهر مودر (28 نوفمبر 1899)

أثبتت القوة البشرية والتقنية البريطانية أنها تستطيع التغلب على العوائق الجغرافية الكبيرة خلال أول معركتين ضمن حملة ميثوين. ولكن العائق الجغرافي التالي المتمثل بنهر مودر في المنطقة الواقعة مباشرةً شمالي نقطة التقائه مع نهر ريت Riet (انظر الشكل 9-4)، سيثبت أنه أكثر صعوبة. كما ستزداد مشكلات ميثوين تعقيداً بفعل قوات البوير التي فهمت واستوعبت بشكل صحيح دروس الجغرافيا بعد فشلها في هزيمة البريطانيين خلال أول معركتين.

الشكل (9-4)

جسر سكة الحديد المدمر ومنطقة رواسب في نهر مودر



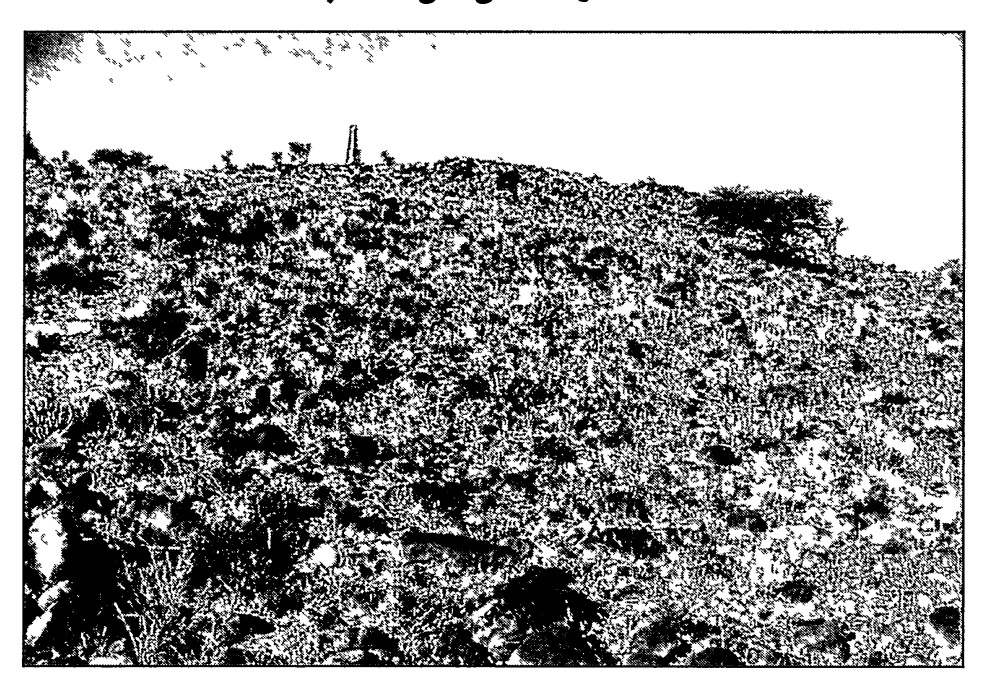
المصدر: مقتبسة من: Anon (1901).

أدركت قوات البوير، بسبب معاركها الدفاعية الفاشلة في بلمونت وجراسبان، أن بنية التلال في المنطقة ضيعت الفائدة التقليدية للأرض المرتفعة. وبحسب آميري (Amery 1902)، فقد اكتسب الجنرال دي لا ري بصيرة جغرافية وتكتيكية مهمة من تحليله للهزيمتين اللتين منيت بهما قوات البوير في بلمونت وجراسبان. وأدرك أن التلال الشديدة الانحدار التي اختارتها قوات البوير موقعاً لها، تسببت بهزيمتها فعلياً. إذ إن احتشاد جنود البوير على التلال شكل هدفاً مثالياً للمدفعية البريطانية، في حين أتاح شكلها المحدب للمهاجمين بمجرد وصولهم إلى أسفل التل الاحتماء بالفضاء الميت بعيداً عن أنظار المدافعين. بعدها، استخدم البريطانيون الأرض الميتة قاعدةً محصنة لإطلاق هجومهم النهائي ضد المدافعين في أعلى التلال. علاوة على ذلك، أدت الصخور البركانية (الديابيز) المستديرة التي تشكلت منها التلال إلى تعزيز فاعلية شظايا المدفعية البريطانية، مما زاد من فاعلية القصف البريطاني وجعل التلال أمكنة اختباء بالغة الخطورة (انظر الشكل 9-5).

ولذلك، قررت قوات البوير اتخاذ مواقع على الأرض المنخفضة على طول الضفاف الجنوبية لنهري ريت ومودر، بدلاً من التراجع إلى الخط التالي من التلال، كما قد يكون البريطانيون قد توقعوا (Wessels 1991). ومن تحليل الصور الجوية الحديثة والخرائط الطبوغرافية بمقياس 1:50,000، يتضح أن ضفاف نهري مودر وريت و"تربتهما الرسوبية" اللينة التي تم فحصها بدقة، جعلت منها موقعاً دفاعياً ممتازاً. ويبلغ عرض نهر مودر 8-12 متراً فقط، ولكن الأمطار الغزيرة أدت إلى فيضان النهرين بحيث أصبح عرضهما 25 متراً (حوالي 90 قدماً) في يوم المعركة. وبين مجرى القناة وحافة "السهل الفيضي"، ارتفعت الضفتان بانحدار خفيف. وكانت هذه المنطقة بعرض راوح بين 18 و189 متراً (حوالي 60-650 قدماً) وانتهت عند حافة السهل الفيضي بجدار شبه عمودي ارتفاعه متران تقريباً شكّل "خندقاً" طبيعياً. فأتاح هذا لجنود البوير الاختباء في المنطقة الواقعة بين النهر وهذا الحاجز الترابي الطبيعي، وإطلاق نيرانهم من موقع مرتفع (Breytenbach 1971). وقد استخدم شعب كيمبرلي الأرض المسطحة العديمة الملامح التي جرى هجوم البريطانيين عليها، ميداناً لسباق الخيل، وبالتالي فقد شكلت حقل رمي ممتازاً (Amery 1902). ومما عزز هذه المزية أيضاً إزالة النباتات قبل الهجوم البريطاني.

الشكل (9-5)

التضاريس الصخرية للتلال في معركة بلمونت. لاحظ الصخور البركانية (الديابيز) المستديرة وشكل التل المحدب



المصدر: H. A. P. Smit.

احتل نحو 2200 جندي من البوير هذا الموقع الدفاعي الطبيعي، مدعومين بخمسة أو ستة مدافع وأربعة مدافع رشاشة. وبسبب خرائط ميثوين الضعيفة واعتماده على رسومات غير مكتملة للتضاريس، فشل في إجراء تحليل شامل للمنطقة جنوبي مركز نهر مودر، لأن الأرض المفتوحة جعلت من الصعب تماماً إجراء عمليات استطلاع فعالة. إلى ذلك، فإن الذخائر التي لا تصدر دخاناً التي استخدمتها قوات البوير، بالإضافة إلى مهارتهم في الرماية، أتاحت لهم إصابة فرق الاستطلاع البريطانية من مسافات بعيدة من دون التخلي عن مواقعهم. وبالتالي، اضطر ميثوين إلى الاعتماد على مسودات خرائط بسيطة و"غير مكتملة" لنهر مودر، لم تغط سوى المناطق المجاورة مباشرة للجسر. وكان هذا المستوى من المعلومات الخاصة بالتضاريس ضعيفاً إلى حد ميئوس منه، وقد تسبب الجنرال بتعقيد المشكلة بعدم قيامه بالإجراءات الكافية لجمع معلومات أفضل عن

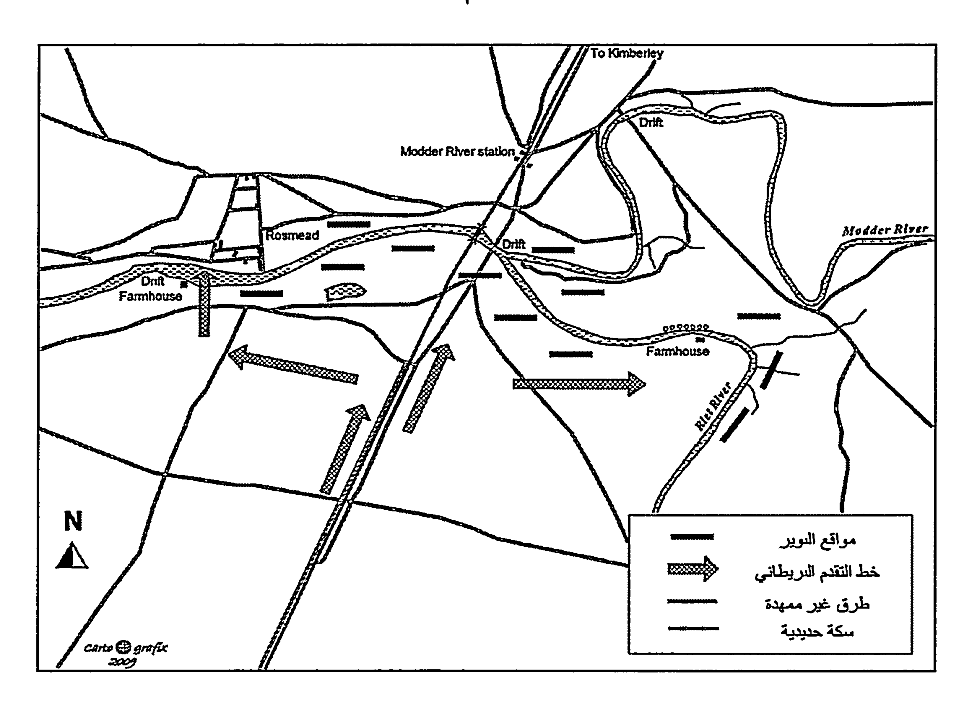
التضاريس قبل أن يأمر قواته بشن المعركة يوم 28 نوفمبر. ولذلك، كان ميثوين يهاجم كالأعمى عملياً، وقد افتقر إلى معلومتين جغرافيتين أساسيتين هما: مدى امتداد مواقع قوات البوير إلى الشرق من السكة الحديدية، وحقيقة أن نهر الريت انحرف بشدة إلى الجنوب نحو الحد الشرقي الأقصى لمواقع قوات البوير (انظر الشكل 9-6).

كما أن نقص المعلومات المناسبة عن تضاريس الأرض تفاقم بفعل تجارب ميثوين في المعركتين السابقتين في بلمونت وجراسبان، التي فضّل البوير خلالها الدفاع عن مواقع محصنة على التلال، ما أعطاه شعوراً تاماً بأن قوات البوير ستنتظره في تلال ومرتفعات سبايتفونتين وليس على ضفاف نهر مودر؛ وأخطأ استنتاجه بأن مواقع البوير على طول النهر كانت مجرد موقع أمامي يغطي ما كان يتوقع أنه القوة الرئيسية في سبايتفونتين. ونتيجة لذلك، كانت خطة ميثوين تقضي بمهاجمة قوات البوير من المقدمة والجانبين. ومما أيد فهمه الخاطئ أن السكة الحديدية قسمت ميدان المعركة فعلياً إلى ميدانين. فإلى الجانب الشرقي من السكة الحديدية، تم الهجوم البريطاني في البداية بحسب الخطة المرسومة، ما عزز اعتقاد ميثوين بأن مواقع البوير تحتوي فقط على قوة صغيرة من الجنود.

لكن عند الساعة 08:00، فوجئت أرتال القوات البريطانية بنيران كثيفة من ضفة النهر، ما حشر القسم الأكبر من قوتها وجعل من المستحيل عليهم شن هجوم مضاد. كان جنود البوير قد تلقوا أوامر بالانتظار حتى يصبح الجيش البريطاني على بعد 300 خطوة فقط قبل فتح النيران عليهم، ولكن عدم انضباطهم التام جعلهم يفتحون النيران عندما كان البريطانيون ما يزالون على بعد 700 إلى 1200 خطوة، مما أنقذ ميثوين من كارثة محتمة. إلا أنه فقد مع ذلك كثيراً من الجنود، وتم إيقاف الهجوم على الجانب الشرقي لأرض السكة الحديدية. وما أرعب الجنود البريطانيين الذين حاولوا المناورة حول الجناح الشرقي لقوات البوير، أنهم واجهوا الضفاف الوعرة لنهر ريت الذي فاضت مياهه وتعرضوا لوابل نيران قوات البوير على طول جناحهم الأيمن (Ackermann 1957). وقد أدى هذا العمل إلى شل حركة الجزء الأكبر من القوات البريطانية شرقي السكة الحديدية.

الشكل (9-6)

معركة نهر مودر، حيث يدل غياب خطوط الكنتور (الكفافية) عن الخريطة على انبساط الأرض بشكل تام حول النهرين



المصدر: J.A. Jacobs.

كان الجنود البريطانيون، بقدر ما كان موقعهم التكتيكي في خطر، على وشك الوقوع في محنة رهيبة. ويقول بريتنباخ (Breytenbach 1971) إن درجة الحرارة وصلت خلال المعركة إلى 43 درجة مئوية (110 فهرنهايت) على التربة العارية، حيث حوصر الجنود البريطانيون، وبحسب باكنهام (Pakenham 1979)، فقد وصلت درجة الحرارة إلى 35 درجة مئوية (90 درجة فهرنهايت) في الظل. وقد عانى الجنود الإسكتلنديون أكثر من غيرهم بسبب ارتدائهم لتنانيرهم التقليدية، حيث لفحت الشمس أرجلهم العارية، بالإضافة إلى العطش الشديد، ما أجبر بعض الجنود على الرجوع زحفاً إلى النهر من أجل الحصول على الماء (Creswicke 1900; Pakenham 1979). إلا أن أي حركة على السهل الفيضي الأجرد كانت تستتبع رداً مباشراً من قناصي البوير، وقد خسر حرس كولدستريم Coldstream Guards (جنود النخبة في فرقة الحرس البريطاني) تحديداً كثيراً من الرجال بهذه الطريقة.

وفيما كان الجنود البريطانيون في حالة يأس، كان الجنود البوير يحصلون على إمدادات كثيرة من المياه العذبة من نهر مودر ونهر ريت، حتى إن بعضهم حصل على المزية الإضافية بالتمتع في الظل البارد تحت أشجار الصفصاف على طول ضفتي النهر. ومع انقضاء النهار ببطء، ظل الجنود البريطانيون على الجناح الأيمن في هذا الوضع الذي لا يطاق لأكثر من عشر ساعات (Colville 1901). وخلال الفترة المتبقية من المعركة، جعلت الأرض المنبسطة الاتصال الفعال بين الجنود البريطانيين مستحيلاً عملياً بسبب قنص الرسل حتى من مسافات بعيدة بشكل استثنائي (Amery 1902).

أما على الجناح الأيسر للجيش غربي خط السكة الحديدية، فقد كان الجنود البريطانيون أفضل حالاً. فبعد المفاجأة الأولية بهجوم الجنود البوير، زحفت القوات الاحتياطية البريطانية غرباً خلف تل منخفض وتقدموا خفية إلى مسافة تبعد نحو 2000 خطوة من النهر على الجناح الأيمن لجيش البوير. وفي تلك النقطة واجه الجنرال بول كارو ورجاله مقاومة شرسة من القائد جريلينج، قائد قوات البوير الذي كمن على تل منخفض وفي مزرعة على بعد 300 خطوة جنوبي نهر مودر مقابل قرية روزميد الصغيرة.

كان رجال جريلينج يحرسون إحدى مناطق "الرواسب النهرية المنقولة"، حيث كان من الممكن عبور نهر مودر. وعندما أدرك بول كارو هذا، ضاعف جهوده للاستيلاء على هذا الموقع لأنه سيمنحه المفتاح للحصول على موطئ قدم على الضفة الشمالية. وقد ساعدته الجغرافيا في محاولته هذه. وكان هناك وهد غير عميق، فشل البوير في احتلاله، يمتد من هذا الموقع إلى قناة نهر مودر. وأرسل رجاله على طول هذا الخندق لمهاجمة قوة جريلينج. وعندما فتح مدفع بريطاني نيرانه على جريلينج ورجاله وجد وحدته تحت هجوم من الجهتين، فهرب هو ورجاله فوق النهر. وعند الساعة 11:30، أمّنت قوة بول كارو منطقة الرواسب النهرية وعبرت النهر، واستولت على روزميد وبدأت الزحف نحو الجناح الغربي لقوات البوير. ولكن بعد هذا النجاح الأولي، شن الجنرال دي لا ري هجوماً مضاداً عليهم، وأجبرهم على التراجع إلى روزميد حيث قضوا ليلتهم

(Breytenbach 1971). في تلك الليلة قرر الجنرال كرونجي سحب قواته من النهر، لأنه استنتج أن قوات البوير لن تستطيع الاحتفاظ بالموقع ضد الهجمات البريطانية المتجددة في اليوم التالي، وذلك بسبب التفاوت في الأعداد (Wessels 1991). ولكن، في هذه المرة وقفت جغرافيا المكان إلى جانب البريطانيين. وقد يبدو الأمر غير قابل للتصديق، فجنرالات البوير فشلوا في تأمين الحراسة الكافية لمنطقة الرواسب النهرية على طول الجناح الأيسر للجيش البريطاني، والتي كانت المكان الوحيد الذي يمكن منه عبور النهر بسهولة. وقد أتاح هذا للجنود البريطانيين ترسيخ موطئ قدم على الضفة الشمالية، وأجبر كرونجي على التراجع عن قراره.

معركة ماجسفونتين (11 ديسمبر 1899)

بعد إخلائهم لموقع نهر مودر، قرر الجنرال دي لا ري أن جيش البوير سيحتل موقعهم التالي على طول سلسلة من التلال تسمى ماجسفونتين. مما سيضعهم مباشرة على محور تقدم قوات ميثوين على طول الخط الحديدي الرئيسي إلى هدفه في كيمبرلي. ومع أن ماجسفونتين هي مجرد تل منخفض نسبياً، فقد أطلت على مسافة أميال من المنطقة المحيطة (انظر الشكل 9-7). ولكن في هذه المرة، ستبقى قوات البوير بعيداً عن القمة وتحفر خنادق على طول المنطقة أسفل التل. وقد كانوا يهدفون من إخفاء خنادقهم استدراج البريطانيين إلى كمين، وفي الوقت ذاته، تجنب تأثيرات مدفعيتهم المتفوقة. وقد تعزز موقف البوير لأن خنادقهم كانت أضيق بكثير من الخنادق التقليدية في حينها. فقد حفر البوير خنادق بعمق نحو 1.2 متر وعرض متر تقريباً مما وفر لهم أقصى حماية لأن الجندي لم يظهر منه للمهاجمين سوى الجزء الأعلى من جسمه؛ فالجزء الأسفل من جسمه كان محمياً من نيران البنادق والشظايا المتطايرة (Breytenbach 1969).

أراح ميثوين جنوده بسبب محنتهم عند نهر مودر ريثما تصل التعزيزات، ليرفع عديد قواته إلى 15000 رجل وثلاثين مدفعاً وستين مدفعاً رشاشاً. وفي هذه الأثناء، كان الجنود

البوير البالغ عددهم 820 جندياً متمركزين في موقعهم الدفاعي على طول 7 كيلومترات مدعومين بخمسة مدافع من نوع كروب Krupp وخمسة مدافع رشاشة، بانتظار الهجوم البريطاني. وأخيراً، اقتربت القوات البريطانية من موقع البوير، وفي يومي 9 و10 ديسمبر، دك البريطانيون التلال بمدفعيتهم. كان هذا أعنف قصف بريطاني منذ الهجوم على سيباستوبول في عام 1854 أثناء حرب القرم. ولكن لم يكن للقصف المدفعي الهائل تأثير يذكر في جنود البوير، لأنهم كانوا بأمان في الخنادق على طول أسفل التل (انظر الشكل 9-8).

الشكل (9-7)

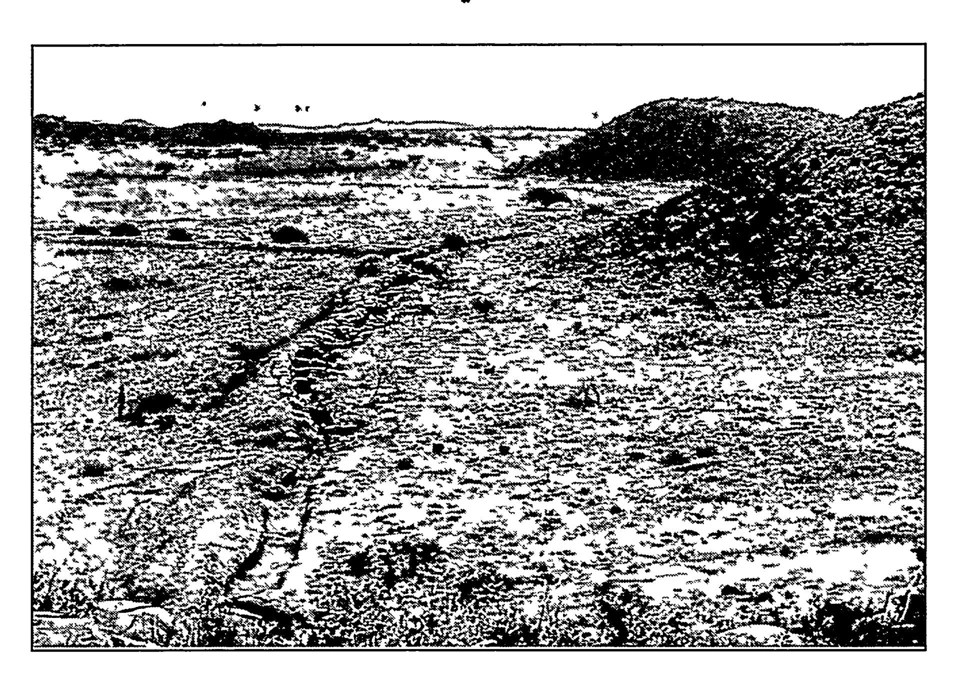
تلال ماجسفونتين من زاوية الرؤية لدى القوات البريطانية. توضح الصورة عدم وجود ملجأ يحمي من النيران القادمة



المصدر: H. A. P. Smit.

الشكل (9-8)

الخنادق في ماجسفونتين. تبين الصورة الفرق بين الأرض الطرية أمام التلال والتضاريس الصخرية على التلال نفسها. لاحظ أن هذه الصورة أخذت بعد أن هجرت قوات البوير في النهاية المواقع في ماجسفونتين بعد شهرين. وأثناء المعركة لم تكن الخنادق واسعة أو عريضة، كما هي مصورة هنا



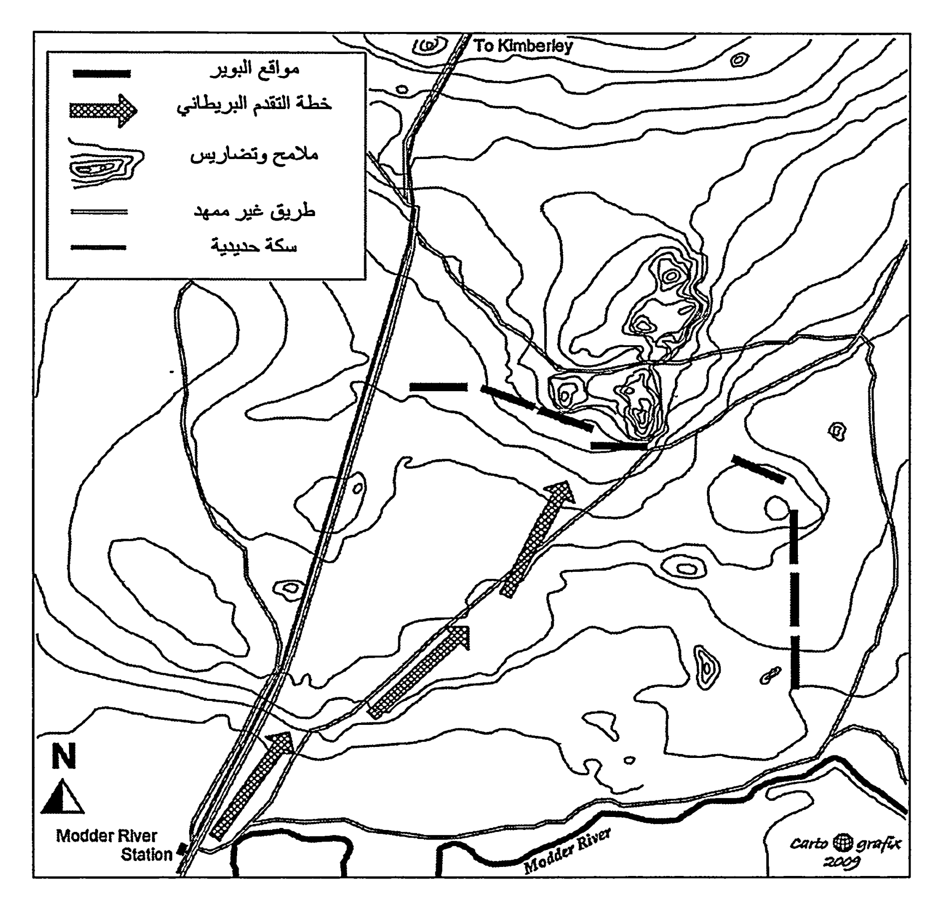
المصدر: Anon (1901).

وبعد القصف، شن البريطانيون هجومهم في ساعات الصباح الأولى من يوم 11 ديسمبر. وقد وصف شاهد عيان على المعركة، وهو برينك (J. N. Brink 1940: 12)، الجو أثناء الهجوم البريطاني تلك الليلة بأنه «قارس البرودة وشديد الظلام مع غيوم كثيفة». بالإضافة إلى ذلك، بدأت السماء تمطر خلال الليل، ثم تطور الأمر في نهاية المطاف ليتحول إلى عاصفة رعدية تامة. وقد أجبر الظلام ميثوين على تجميع جنوده في تشكيلات ليضمن عدم ضياعهم (Brink 1940; Kemp 1946; Ackermann 1957; Pakenham 1979). وتذكر اللواء كلوفيل (H. E. Colvile, 1901: 13) تلك الليلة بقوله: إنها «تقريباً أشد الليالي التي أتذكرها سواداً.. إنها إحدى تلك الليالي التي لا يستطيع خلالها المرء أن

يرى يده لو مدها أمام عينيه». وانتهت مسيرة الليـل بكارثـة، حيـث زحـف البريطـانيون مباشـرة إلى الفخ قبل الفجر بقليل. وقد قضت قوات البوير على الطوابير المكتظة للجنـود المشاة البريطانيين قبل أن يتمكنوا من فتح أجنحتهم للهجـوم النهـائي ضـد الـتلال التـي افترضوا أن قوات البوير تختبئ فيها (انظر الشكل 9-9).

الشكل (9-9)

معركة ماجسفونتين



المصدر: J.A. Jacobs.

مرة أخرى، وقعت القوات البريطانية في الفخ على المرج المفتوح، ومرة أخرى، تحمـل الجنود الإسكتلنديون وطأة الشمس الأفريقية الرهيبة (Pakenham 1979). وقـد أخـذوا ما استطاعوا من الأغطية الصغيرة لأن برد الليل القـارس كـان ينتهـي بفجـر يـوم شـديد

الحـرارة (Brink 1940). يقـول بريتنبـاخ (Breytenbach 1971): إن بعـض الجنـود الإسكتلنديين تعرضوا لحروق شمسية شديدة إلى درجة جعلـتهم يتلقـون الرعايـة الطبيـة بعد المعركة رغم أنهم لم يكونوا جرحى. وقد أكدت هذه المزاعم تقـارير بريطانيـة رسـمية عن الحوادث الناجمة عن ضـربات الشمس التي وجدت في الأرشيف الوطني (National Archives, War Office 108/89, Army Book 120, Casualties report for the period 26/12/99–26/2/00).

ومما زاد الطين بلة بالنسبة إلى البريطانيين هذه المرة عدم وجود وِهاد جافة أو منطقة رواسب نهرية لمساعدتهم في الهجوم، وباءت هجماتهم الأمامية اللاحقة ضد قوات البوير المتمركزين في الخنادق، بالفشل الذريع. وعندما نجح القادة البريطانيون في نهاية المطاف باقتلاع رجالهم من ميدان المعركة، تركوا وراءهم 288 قتيلاً و700 جريح و100 مفقـود أثناء القتال. وفي المقابل، تكبدت قوات البوير 71 قتيلاً و184 جريحاً (Wessels 1991). وبذلك، أتاحت الدروس المأخوذة من المحاولات الأولى، وتحليلاتهم الدقيقة لجغرافية أرض المعركة، لقادة جيش البوير تكبيـد البريطـانيين خسـائر فادحـة، مما جعـل هـذه المعركة أكثر المعارك دموية في الحرب. كما أدت إلى تأخير تقدم ميثوين إلى كيمبرلي بأكثر من شهرين.

الخلاصة والنتائج

يتضح من وصف حملـة ميثـوين أن الجغرافيـا أدت دوراً حيويـاً في معـارك بلمونـت وجراسبان ونهر مـودر وماجسـفونتين. فقـد اسـتغل جنـرالات جـيش البـوير وميثـوين التضاريس لمصلحتهم، ولكن الجانبين ارتكبا أخطاءً فادحة. كما أن محدودية البنى التحتيـة للمواصلات أجبرت ميثوين على اتباع مسار الخط الحديدي في زحفـه إلى كيمـبرلي. ومـع أنها وفرت له وسائل نقل سـريعة وفاعلة، إلا أنها قيدته أيضاً بخـط تقـدم ضـيق ويمكـن توقعه. كما أن قلة الخيل والمواشـي الأخرى جعلته أكثر اعتماداً على السكة الحديدية. كانت هذه المشكلات معروفة جيداً لجنرالات البوير، وبالتالي تمكنوا من اختيار أفضل مـواقعهم

الدفاعية مدركين أن ميثوين لم يكن أمامه أية خيـارات أخـرى عمليـاً. وفي النتيجـة، فقـد أتاحت هذه المزية الجغرافية المهمة لقوات البوير تركيز قواتهم المحدودة وقتال البريطـانيين في أمكنة اختاروها هم.

في بلمونت وجراسبان، أجبر التفوق العددي للقوات للبريطانية جنـود البـوير عـلى الخروج من مواقعهم في التلال. وسـلطت هاتـان المعركتـان الضـوء عـلى عوامـل أخـرى للجغرافيا أيضاً. فقد ازدادت فاعلية المدفعية البريطانية بفعـل الصـخور البركانيـة والتـي عززت بالمصادفة – وليس عن عمد – فاعلية قصفهم. وبـاحتلال قـوات البـوير للـتلال، تجمعت في منطقة يمكن تمييزها بسهولة، مما أتاح للمدفعيـة البريطانيـة أهـدافاً سـهلة. إلى ذلك، فإن الشكل المحدب للـتلال سـاعد البريطـانيين عـلى تـوفير أرض ميتـة اسـتغلوها لتكون قاعدة أطلقوا منها هجماتهم النهائية ضد المدافعين المتمركزين في أعلى الـتلال. لقـد عانى معظم جنود البوير تجربة نفسية مرعبـة إثـر تعرضـهم لقصـف المدفعيـة البريطانيـة. ولكن حقيقة أن التضاريس ساعدت الجهود البريطانية لم تمر على الجنرال دي لا ري الـذي سيستفيد من هذه الدروس القاسية في المعـارك اللاحقـة، مـا سيشـكل خيبـة أمـل كبـيرة للجنرالات البريطانيين الذين فشلوا في معرفة كيف تساعد التضاريس هجومهم.

عند نهر مودر، أتاحت قناة النهر العميقة ملاذاً جيداً لقوات البوير، في حـين شـكلت الأرض الشديدة الانبساط والتي اضطر البريطانيون إلى الهجوم منهـا منطقـة قتـل مثاليـة. وكانت أقرب أرض مرتفعة تبعد 16 كيلومتراً (9.6 أميال) عن نهري مودر وريت، بعيـدة جداً لمساعدة ميثوين في عمليات استطلاعه لمواقع البوير. ونتيجة لذلك، دفع بقواتـه عـبر النهر إلى داخل موقع مثالي للكمين. ودفع جنوده ثمناً باهظاً لقاء افتقاره إلى المعلومات عن تضاريس الأرض وعدم إصـراره على إجراء عمليات استطلاع أوسع.

وساعدت طبيعة الأرض جنود البوير في الكمين الذي نصبوه على طـول نهـر مـودر؛ فالسهل المنبسط المجرد من النباتات لم يوفر الغطاء الكـافي للجنـود البريطـانيين، والغطـاء الطبيعي الوحيد الذي توافر كان كثيبات النمّال التي تناثرت هنا وهناك. فكان البريطانيون

يقاتلون عدواً شبه خفي، ومن موقع خطير من الناحية التكتيكية. فقد أحبط فيضان نهر الريت جهود الجنود البريطانيين عندما حاولوا تطويق قوات البوير بالتحرك شرقاً. ولكن الجغرافيا لم تمنح البريطانيين ضربة الحظ التي أصبحت هي مفتاح المعركة. فقد استغل الجنرال بول كارو الوهاد الجافة غير المحصنة لنقل جنوده إلى ضفاف نهر مودر، وأتاحت منطقة الرواسب النهرية المقابلة لروزميد للجنود البريطانيين ترسيخ موطئ قدم على الضفة الشمالية للنهر. والخطأ التكتيكي الفادح الذي ارتكبه كرونجي نتيجة تقديره الخاطئ لتضاريس الأرض، سيكلفه ثمناً باهظاً. فهو أهمل توفير القوة الكافية لحماية منطقة الرواسب النهرية في روزميد، مما أتاح للبريطانيين الوصول إلى الضفة الشمالية. وحالما حصل البريطانيون على موطئ قدم هناك، استنتج كرونجي استنتاجاً صحيحاً بأن جنود البوير لن يكونوا قادرين على تحمل هجوم آخر من قبل العدو، وسحب قواته إلى ماجسفونتين.

لقد علّمت معركتا بلمونت وجراسبان الجنرال دي لا ري أن القتال من أعالي التلال المكشوفة لم يكن حلاً تكتيكياً فعالاً، في حين أقنعته طبيعة المعركة في نهر مودر بقيمة الخنادق والتمويه. كما أكدت اعتقاده أن الأرض الطرية من شأنها أن تحد من فاعلية المدفعية البريطانية. وبأخذ هذه الأمور في الاعتبار، خطط لنصب كمينه للقوات البريطانية أمام التلال في ماجسفونتين ودحر ميثوين بفضل براعته في فهم الجغرافيا.

اعتمد ميثوين، الذي أربكته قلة الخرائط الجيدة، على استطلاع الأرض من أجل إعداد خرائط مناسبة، وهنا أيضاً، أحبطت الجغرافيا محاولاته. فعدم وجوده على أرض مرتفعة، حال دون حصوله على المعلومات الحيوية التي احتاجها من أجل تقدير دقيق لظروف أرض المعركة. وكما حصل عند نهر مودر، فإن الأرض الشديدة الانبساط جنوبي ماجسفونتين مكنت قناصة البوير من القضاء على أي محاولة للاستطلاع بالقرب من خنادق جنود البوير. ومع عدم وجود أرض مرتفعة في الجوار ليتم منها مراقبة تحركات جنود البوير ومواقعهم، لم يستطع ميثوين رؤية موقع قوات البوير وحجمها بدقة، والأهم من ذلك أنه لم يتمكن من معرفة تأثير القصف المدفعي الذي سبق هجوم المشاة.

أدت أحوال المناخ والطقس في جنوب أفريقيا إلى مصاعب لا تطاق تقريباً خلال ساعات المعركة في النهار. كما أن درجات الحرارة الحارقة في النهار بالإضافة إلى قلة المياه المتوافرة، استنزفت قوة الجنود البريطانيين. وكثيراً ما تحطمت معنويات الجنود البريطانيين بفعل الحرارة، كما عانوا أضراراً جسدية إلى درجة أنهم اضطروا إلى طلب العناية الطبية. وقد تفاقم هذا الوضع نتيجة قلة المياه العذبة في المروج، ما أجبر الجنود البريطانيين على الخروج إلى مناطق مكشوفة سعياً للحصول على الماء، معرضين أنفسهم لنيران القناصة. كما أن التعرض طويلاً لهذه الظروف سبَّب فرط حرارة في أجسام كثير من الجنود. وحتى خلال المرحلة الأولى من فرط ارتفاع الحرارة (أي الإنهاك الحراري)، فإن أعراضاً كالتعرق الغزير والتقيؤ والضعف العام ستضعف قدرة الجندي وإرادته على القتال. أما خلال المرحلة الثانية (أي الحرارة أو ضربة الشمس) فيصبح نبض الضحية سريعاً وقوياً، ويظهر سلوكاً ذُهانياً، وقد يتدهور وضعه ليدخل حالة اللاوعي (Morgan and Moran 1997). سبّب التعرض لساعات طويلة لأشعة الشمس الأفريقية الصعبة أعراضاً كتلك المذكورة أعلاه، مما أدى بشكل مباشر أو غير مباشر إلى سقوط كثير من الضحايا. وفي الليل، أصبحت عملية التقدم صعبةً جداً بفعل الظلام الدامس؛ في حين أصبح شن هجمات فعالة أمراً بالغ الصعوبة بسبب العاصفة التي هبت أثناء معركة ماجسفونتين وما رافقها من برد قارس خلال الليل. وكان هناك تأثير آخر لليالي الحالكة الظلام تمثل في أن القوات البريطانية وصلت إلى أهدافها بثبات في وقت متأخر عما كان متوقعاً، مما ألغى عنصر المفاجأة والتخفي الذي أتاحه الظلام.

مع أنه سيكون من التبسيط الزائد للأمور أن نقول بأن الجغرافيا يمكن أن تكون هي المسؤولة عن فشل حملة كيب الشمالية بقيادة ميثوين، فمن المؤكد أن "تفسير" المزايا الجغرافية لميدان المعركة أثر في النتائج، ومن ثم، في الخسائر أيضاً خلال الحملة، مما يثبت أن الاستخبارات الجغرافية العسكرية يمكنها فعلاً إما أن تكون حليفاً قوياً وإما أن تكون خصماً قاتلاً في حال غيابها.

الفصل العاشر

المعركة من أجل آتو: التحديات الجغرافية الطبيعية لحملة ألوشن في الحرب العالمية الثانية

إيوجين بالكا

مقدمة

وصفت الحرب في جزر ألوشن Aleutian بأنها «الحرب المنسية» (Chandonnet 1993)، و«جبهتنا الخفية» (Gilman 1944)، و«حرب الألف ميل» (Garfield 1969). وكل واحدة من هذه الأوصاف تقود إلى الطبيعة المغمورة لحملة ألوشن وتأثيرها الضئيل نسبياً خلال الحرب العالمية الثانية. وبالفعل، تنبع هذه الإشارات من عدد زهيد من المنشورات التي تسلط الضوء على صراع الحرب العالمية الثانية الدموي وشبه المجهول، بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان في شمالي المحيط الهادي.

ومن الحقائق غير المعروفة أن إحدى المعارك الاستثنائية على الجزيرة خلال الحرب العالمية الثانية حدثت على الأرض الأمريكية. وبنسبة مئوية من مجموع القوى المعنية، فقد جاءت المعركة في سبيل استعادة آتو Attu في المرتبة الثانية من حيث التكلفة بعد آيو جيما باعتبارها المعركة الأكثر تكلفة في حملة المحيط الهادي (Garfield 1969). ومما جعل هذه المعلومة أكثر غموضاً واحتجاباً صعوبة تحديد موقع جزيرة آتو على معظم الخرائط. وفي بعض النواحي، لم تكن الحملة برمتها في جزر ألوشن أكثر من معركة هامشية في سياق حرب عالمية، أو حتى حرب في المحيط الهادي. ومع ذلك، فإن المعركة لاستعادة آتو كلّفت أمريكا حياة 459 أمريكياً، و1148 جريحاً، بالإضافة إلى 2100 ضحية أخرى عانوا المرض أو التعرض للأخطار أو الإصابات الناجمة عن أسباب أخرى غير المعارك (Hutchison 1994). والأمر المهم الآخر الذي لا يمكن تجاهله هو ملايين الدولارات التي أنفقت على

البنية التحتية وجموع الأفراد والأسلحة والمعدات الضرورية لاستعادة الجزيرة. ومع أن اليابان استولت في البداية على الجزيرة دونما مواجهة، فقد منيت لاحقاً بمقتل 2350 جندياً يابانياً وأسر الباقين وعددهم 29 (Hutchison 1994). وخلال حملة ألوشن، تسببت الظروف الجغرافية الطبيعية بسقوط أعداد كبيرة من الضحايا في صفوف القوات البرية والبحرية والجوية اليابانية والأمريكية. وبالفعل، فإن الموقع النائي والظروف القاسية جعلت الإجراءات الروتينية تحتاج إلى وقت وموارد تزيد على الحد. وفي النهاية، فإن الطبيعة القاسية للبيئة الطبيعية والموقع النسبي حدّ من فائدة آتو من حيث هي أرض رئيسية، وشكك في منطق التوغل الياباني في المقام الأول. إلا أن المعركة في سبيل آتو أثبتت بوضوح مدى صعوبة القيام بعمليات عسكرية في بيئات وعرة وفي أمكنة نائية من هذا القبيل. ودفعت هذه الحقائق القاسية إلى تغيير مباشر في عقيدة الجيش الأمريكي وأسلحته وزيّه ومعداته.

يعد هذا الفصل مثالاً عن الجغرافيا العسكرية التاريخية الموضحة في إطار عملياتي واستراتيجي (Palka 2003). وهدفي هو وصف أثر البيئة الطبيعية الفريدة والموقع النائي على العمليات العسكرية، والتوسع في شرح بعض الدروس التي تعلمتها المؤسسة العسكرية الأمريكية وطبقتها لاحقاً في مكان آخر.

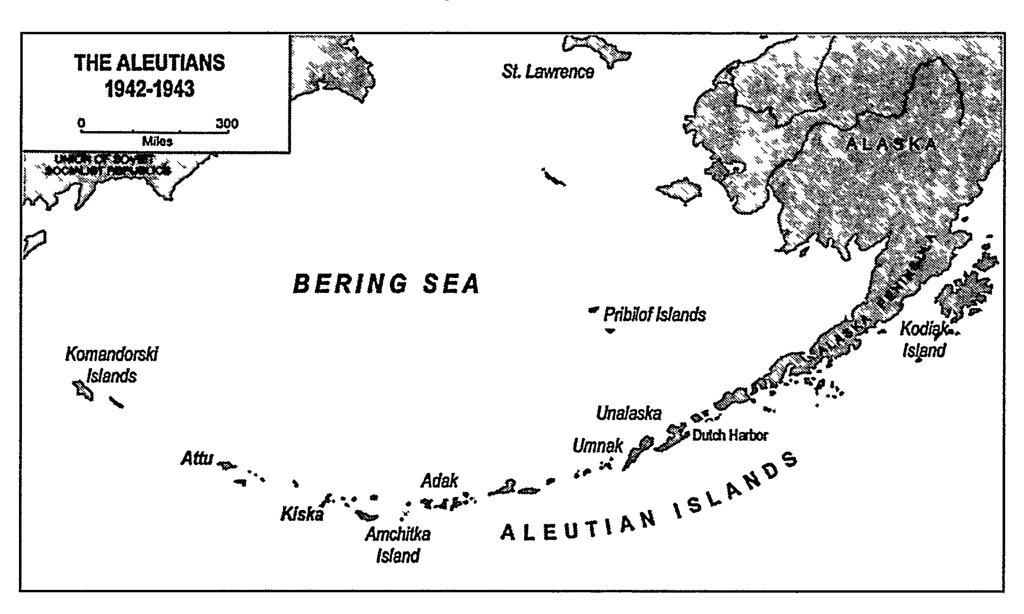
المشهد الطبيعي

الموقع

تمتد جزر ألوشن لأكثر من 1200 ميل إلى الغرب من طرف شبه جزيرة ألاسكا، لتفصل بين شمال المحيط الهادي وبحر بيرينج (انظر الشكل 10-1). وتمتد السلسلة المقوسة المكونة من الجزر البركانية من الشرق إلى الغرب من غربي خط الطول 165 درجة تقريباً إلى شرقي خط العرض 170 درجة تقريباً، وتمتد بزاوية منفرجة بخط موازٍ شمالي خط العرض 53 درجة. وحتى إن نظرة خاطفة على الخريطة تتيح للمرء استخلاص عدد من الحسابات العامة حول المناخ والغطاء النباتي والخصائص المتعلقة بشكل جزر ألوشن وتضاريسها.

الشكل (10-1)

جزر ألوشن



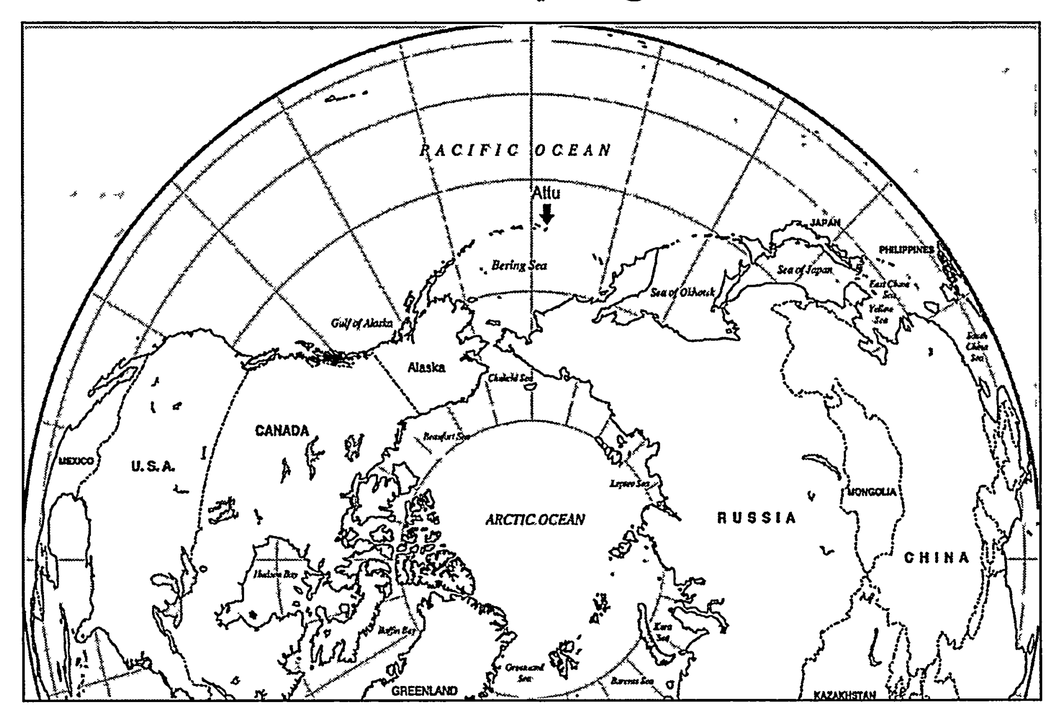
المصدر: Naval Historical Center (1993).

ومع أن الموقع المطلق لجزر ألوشن قد يتيح للمرء تشكيل انطباع حول الطبيعة المادية للمكان، فإن الموقع النسبي للسلسلة، وتحديداً لجزيرة آتو، أكثر أهمية لجهة تفسير الأسباب التي جعلت هذا الموقع مكاناً متنازعاً عليه خلال الحرب العالمية الثانية. فضمن سلسلة الجزر، تقع جزيرة آتو في أقصى الغرب، وهي - عملياً - أقصى نقطة شرقية من الولايات المتحدة، تمر عبر خط الطول 180 درجة (ومع ذلك تم تعديل خط التاريخ الدولي ليلتف حول آتو). وبالنسبة إلى المراقب العادي، فإن جزر ألوشن، ولاسيما جزيرة آتو، بعيدة عن كل من أمريكا القارية واليابان. ولكن المسافة الممتدة بخط مستقيم تعرضت لتحريف كبير في كثير من إسقاطات الخرائط المستخدمة على نطاق واسع. ويوفر إسقاط قطبي منظوراً توضيحياً يكشف أهمية الموقع النسبي لجزيرة آتو بالنسبة إلى كل من الولايات المتحدة واليابان (انظر الشكل 10-2). وباتباع مسار دائري كبير كما هو مصور على الخريطة السابقة، قد يفاجأ المرء بأن جزيرة آتو تبعد تقريباً 650 ميلاً فقط عن جزر كوريل اليابانية (انظر الشكل 10-3). إذ توحي معظم الخرائط بأن المسار المنطقي والأكثر

مباشـرةً من الساحل الغربي للولايات المتحدة إلى اليابـان سـيمر عـبر جـزر هـاواي. وفي الحقيقة، عند السفر من سان فرانسيسكو إلى طوكيو، ستكون الطريق أقصـر كثيراً إذا سافر المرء عبر المسار الذي يمر على طول جزر ألوشن، مما لو سافر مروراً بجزر هاواي. والمسار الأول هو أقصـر فعلياً بنحو 1000 ميل من المسار الثاني (انظر الشكل 10-4). وبناء عليه، فإن الموقع النسبي لجزيرة آتو أهم بكثير من موقعها المطلق خلال الحرب في المحيط الهادي.

الشكل (10-2)

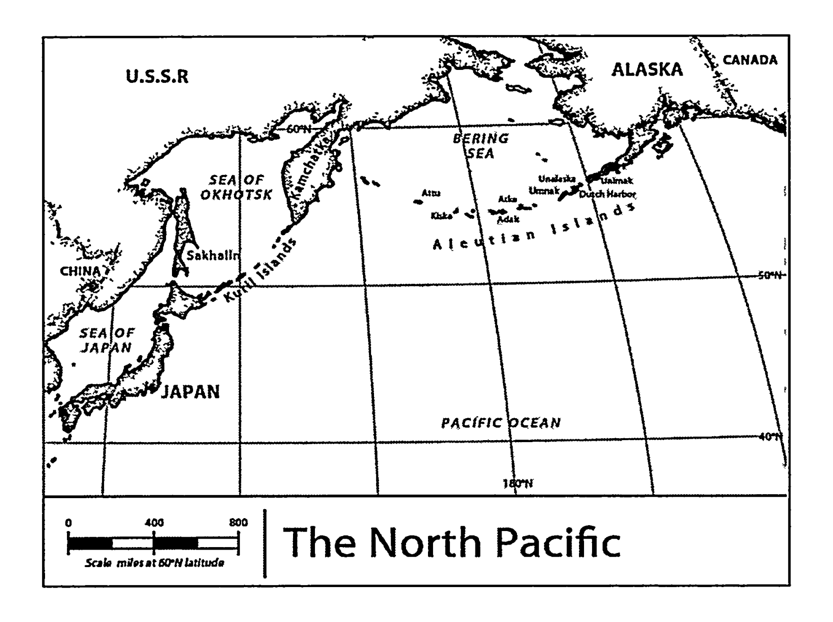
الموقع النسبي لجزر ألوشن



وتحتل جزيرة آتو موقعاً فريداً في منتصف المسافة تقريباً بين المنطقتين الأكبر من حيث الكثافة السكانية في اليابان والولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تعتبر مفيدة لتكون قاعدة أمامية لعمليات توغل محدود إلى داخل المناطق النائية في أي من البلدين. إضافة إلى ذلـك، اعتقد البعض أن الجزيرة ربما توفر قاعدة لدعم العمليات الرامية إلى التحكم بشمال المحيط الهادي.

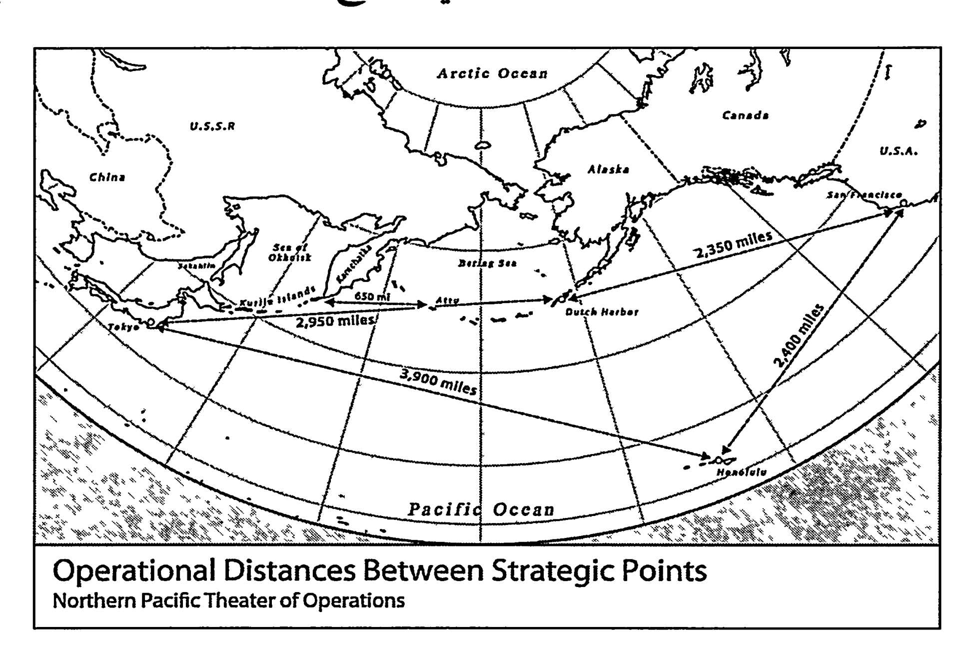
الشكل (3-10)

القرب النسبي لجزيرة آتو من جزر الكوريل اليابانية



الشكل (4-10)

المسافات العملياتية بين النقاط الاستراتيجية في مسرح عمليات شمال المحيط الهادي



المصدر: مستمدة من: Alaska Geographic Society (1995*a*).

الجغرافيا الطبيعية

تعد البيئة الطبيعية التي وجدت على جزيرة آتو وعلى جزر ألوشن، بيئةً ذات مجموعة كبيرة من المشكلات للعمليات العسكرية. فطبيعة التضاريس والمناخ والغطاء النباتي والتربة والبحار تجتمع معاً لتشكل واحدة من أكثر بيئات العمل صعوبة التي اختبرها الجيش الأمريكي حتى الآن.

التضاريس

تعد جزر ألوشن أطول أرخبيل مؤلف من جزر صغيرة في العالم، حيث يمتد نحو 1200 ميل. وتتألف جزر ألوشن من نحو 120 جزيرة جميعها ذات طبيعة صخرية وقاحلة وذات منشأ بركاني (Department of the Navy 1993). الجزر الرئيسية هي القمم المكشوفة لسلسلة من الجبال المغمورة بالمياه التي تفصل بحر بيرينج عن المحيط الهادي، وتشمل سبعة وخمسين بركاناً، منها سبعة وعشرون لا تزال نشطة ويتخطى ارتفاعها 5000 قدم (Faust and Bailey 1995). الجبال الداخلية مخروطية الشكل ومغطاة بالرماد البركاني، في حين تتألف الخطوط الشاطئية من تشكيلات صخرية متعرجة ومغمورة (Department of the Navy 1993).

المناخ

تشمل الضوابط الرئيسية التي تجتمع لتشكل مناخ جزر ألوشن، خطوط العرض والتيارات البحرية والكتل الهوائية والتضاريس الجبلية. ويبلغ معدل درجة الحرارة صيفاً 45 درجة فهرنهايت، في حين يبلغ معدل الحرارة شتاءً نحو 30 درجة فهرنهايت (Faust and Bailey 1995). وعلى الرغم من أن معدل الهطولات المطرية لا يتجاوز 50 إنشاً تقريباً في السنة، تشهد السلسلة غطاءً من السحب بمعدل 90٪ وما يزيد على 200 يوم من الهطولات المطرية التي يمكن قياسها (Faust and Bailey 1995). والقاسم المشترك هو الرياح العالية الحاضرة دائماً، حيث يؤثر عامل تبريد الرياح الناتج منها بشكل كبير على درجات الحرارة، وتسهم في اضطراب البحار.

مع أن المناخ العام لجزر ألوشن لا يظهر درجات حرارة قاسية أو أمطاراً غزيرة، فإن الطقس (الذي ينظر إليه على أنه الأحوال الجوية في مكان وزمان محددين) محلي للغاية، ولا يمكن التنبؤ به في كثير من الأحيان. وتتعرض خطوط العرض العالية والتضاريس الجبلية الوعرة إلى تلاقي تيار اليابان الاستوائي والكتل الهوائية السيبيرية. وينتج من هذه التركيبة الفريدة عواصف عنيفة وظروف مناخية قاسية تشمل العواصف الثلجية والضباب الكثيف والبحار المضطربة ودرجات الحرارة القارسة، والرياح التي يمكن أن تصل سرعتها إلى أكثر من 140 ميلاً في الساعة (Garfield 1969). والرياح المفاجئة Williwaws، التي يمكن أن تصل إلى قوتها العاصفة خلال نصف ساعة، هي ظاهرة محلية فريدة تفرض مشكلات كبيرة على الملاحة الجوية والبحرية.

الغطاء النباتي

بسبب قرب جزر ألوشن من آسيا فهي تستضيف بعض النباتات المشتركة بين آسيا وبقية جزر ألوشن (Faust and Bailey 1995). إلا أن جزيرة آتو، وكمعظم جزر ألوشن، هي أحد سهول التندرا [سهل جليدي] التي لا تغطيها أي أشجار أو نباتات تذكر. حيث تفرض درجات الحرارة والرياح العاتية والتربة الرقيقة قيوداً تحد من نمو الغطاء النباتي.

معظم سهل التندرا هو من النوع الجبلي المرتفع – بعكس التندرا المنخفضة التي وجدت في معظم مناطق الأرض المنخفضة داخل ألاسكا – الخالي من أي أجمات أو تلال تذكر. ومناطق الأرض المنخفضة على جزيرة آتو والجزر الأخرى مغطاة بالأهوار؛ وهي طبقة نباتية كالسجادة الإسفنجية يوجد تحتها طبقة من الجليد الدائم غير المترابط. وخلال الأشهر الأكثر دفئاً، توفر هذه الطبقة الجليدية سطحاً سبخاً متحركاً يصعب حتى على الجنود المشاة عبوره. ولكن التندرا توفر مجموعة متنوعة من الأزهار البرية والعشب والأشنيات والطحالب والأعشاب البرية التي تجتمع لتنتج نسيجاً ملوناً في أواخر الصيف وأوائل الخريف.

ما فائدة جزيرة آتو وجزر ألوشن؟

في إطار الجغرافيا الاستراتيجية، أشار وليام جاكوبس (Jacobs 1993) إلى شمال المحيط الهادي باعتباره "مياهاً محجوزة استراتيجية". وقال إن جزر ألوشن تقع على طول مسار دائري كبير من الساحل الغربي للولايات المتحدة إلى اليابان، وإن وظيفتها "تبدو" ذات مزايا استراتيجية (Jacobs 1993). لكن كثيراً من الاستراتيجيين عرفوا التحديات العديدة التي تواجه العمليات العسكرية بفعل البيئة الطبيعية لشمال المحيط الهادي، وشككوا في أي أساس منطقي لتأمين جزر ألوشن. وحتى بعد أن احتل اليابانيون جزيرتي آتو وكيسكا، احتج كثيرون بأن السياسة المثلى تتمثل بتجنب الجزر، تماماً كما تصرفت القوات الأمريكية مع كثير من الجزر الأخرى التي كانت تستولي عليها اليابان في شمال المحيط الهادي (Allard 1993).

ومن بين جميع جزر ألوشن، بدت جزيرة آتو أنها تتمتع بالإمكانات الكبرى لكل من الولايات المتحدة واليابان، والسبب ببساطة هو أنها كانت الجزيرة التي تقع في أقصى غرب سلسلة الجزر وعلى بعد 540 ميلاً فقط من القاعدة العسكرية اليابانية الرئيسية الموجودة على الطرف الشمالي لجزر الكوريل. كما أن قيمة جزيرة آتو كانت لاتزال مثار جدل بين القادة العسكريين والسياسيين في كل من البلدين. فالجزيرة تقع على مسافة كبيرة من أي تجمع سكاني كبير سواء في الولايات المتحدة أو اليابان؛ كما أنها لا تحوي أي مصادر طبيعية تذكر؛ ولم يسكن الجزيرة أكثر من بضع عشرات من السكان الذي يواصلون ممارسة نمط حياة كفافي تقليدي. وأخيراً، فإن الوصول إلى جزيرة آتو ممكن فقط من خلال رحلة طويلة وخطيرة عبر البحار الغدارة أو الجو المضطرب.

الاستراتيجية اليابانية

هناك عدد من التفسيرات المعقولة، إن لم تكن القابلة للمناقشة، لأسباب غزو اليابان واحتلالها لجزيرتي آتو وكيسكا. وخلصت بعض المصادر إلى أن اليابان لطالما كان لها

مطامع في ألاسكا وجزر ألوشن، وأن كثيراً من القادة العسكريين اعتبروا قواعد التمركز الأمامية ذات الحماية الضعيفة في السلسلة أهدافاً سهلة وممراً منطقياً لغزو أمريكا الشمالية (Department of the Navy 1993). لقد توقعت مصادر استخباراتية مختلفة استيلاء اليابان على جزر ألوشن لمنع الولايات المتحدة من غزو اليابان من الشمال (Hutchison 1944). كما أشارت بعض التقديرات الاستخباراتية إلى هدف اليابان من إعاقة الاتصالات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في شمال المحيط الأطلسي (Hutchison 1944). كما رفض البعض التفسيرات الهجومية والدفاعية معاً وتطلعوا إلى الأسباب النفسية. فعلى سبيل المثال، زعم جارفيلد (Garfield 1969) أن اليابانيين حاولوا التعويض نفسياً عن خسارتهم في "ميدوي" من خلال الاستيلاء على الأرض الأمريكية غير المحمية في جزر ألوشن وشد الانتباه إلى هذه الأخيرة. وهناك تأييد كبير للتفسير القائل إنه باستيلائهم على جزيرتي آتو وكيسكا بعد خسارتهم الكارثية في ميدوي، تمكن قادة اليابان السياسيون والعسكريون من "حفظ ماء الوجه" والحفاظ على الروح المعنوية العالية في المؤسسة العسكرية، واستعادة الدعم الشعبي على الجبهة الداخلية للبلاد (Russell 1993; Nishijima 1993; Garfield 1969).

استراتيجية الولايات المتحدة

في الدوائر السياسية والعسكرية الأمريكية، تعود الأهمية الاستراتيجية لجزر ألاسكا وألوشن إلى مطلع عقد العشرينيات من القرن العشرين (Braisted 1971). وبحلول عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، اعتبر المخططون العسكريون ألاسكا جزءاً من المثلث الاستراتيجي الذي يربط هاواي مع بنما، ويشكل الإطار الأساسي للاستراتيجية العسكرية الأمريكية في المحيط الهادي (Allard 1993). ولكن، رغم المصلحة التاريخية، لم تكن هناك أي خطط تذكر لتحصين جزر ألوشن الغربية عند اندلاع الأعمال العدائية مع اليابان.

بدأ الوضع الاستراتيجي بالتغير عندما قصف اليابانيون ميناء دوتش يومي 3 و4 يونيو 1942، وبعد ذلك غزت اليابان كيسكا وآتو يومي 6 و7 يونيو. ولكن حتى بعد

احتلال جزيرتي آتو وكيسكا من دون منازع، اعتبرت هيئة الأركان المشتركة أن الجانب الغربي الأقصى لجزر ألوشن غير ذي أهمية في إطار الحرب العالمية في أوروبا والمحيط الهادي (Morton 1989). لم تتوقع هيئة الأركان المشتركة والاستراتيجيون العسكريون في الولايات المتحدة أنه ستكون هناك حاجة لعمليات عسكرية كبيرة في شمال المحيط الهادي من أجل استعادة آتو أو كيسكا. فقد اعتقد أن هذه الموارد العسكرية أكثر أهمية لاستخدامها في أمكنة أخرى، كما اعتبرت الظروف الخاصة بالعمليات العسكرية خطيرة، ولم يبد البر الرئيسي لألاسكا معرضاً للخطر بما أن الجزر تبعد أكثر من 1000 ميل عن قلب البر الرئيسي للدولة، وحتى أكثر بعداً عن الولايات المتحدة القارية (Morton 1989).

ولكن بعد الحض المستمر من المسؤولين السياسيين والقيادة العسكرية في ألاسكا، بدأت هيئة الأركان المشتركة التفكير في مفاهيم استعادة آتو وكيسكا. وتزايد ضغط الرأي العام مع التهديد الملحوظ لأمن ألاسكا. وكان من الأمور الأخرى المثيرة للقلق الحاجة المحتملة للحفاظ على خطوط المواصلات البحرية والجوية مع الحلفاء السوفييت عبر شمال المحيط الهادي، ولاسيما لضمان التدفق المستمر لإمدادات الإعارة-التأجير (Jones 1969). ولكن لعل الأهم من ذلك، كان الفخر الأمريكي الذي تجلى بالدعوة الملحة إلى استعادة الأرض الأمريكية (Allard 1993). ومن ثم، فإن الحافز النفسي هو الذي وقف وراء محاولة الولايات المتحدة استعادة جزيرتي آتو وكيسكا، تماماً مثلما كانت العوامل النفسية هي الدافع وراء التوغل الياباني.

ملخص تاريخي للمعركة

قبل بدء الولايات المتحدة الأمريكية بمهمة استعادة جزيرتي آتو وكيسكا، احتلت القوات اليابانية الجزيرتين لما يقارب أحد عشر شهراً، مما أتاح لها التحصن فيها جيداً. وقد اعتبرت كيسكا الهدف الأساسي لأنها وفرت مرافق جوية يحتمل أن تكون أفضل، واحتوت على ميناء مقبول أكثر، بالإضافة إلى أن تضاريسها كانت أكثر ملاءمة لإنشاء قاعدة عسكرية (Department of the Navy 1993). إلى ذلك، فقد اعتبرت تقديرات

الاستخبارات الأمريكية أن جزيرة كيسكا أشد تحصيناً، ولذلك فقد شكلت الخطر الأوشك على ألاسكا. ومع ذلك، دعت الخطة الأمريكية إلى استعادة جزيرة آتو أولاً بسبب عدم توافر الإمدادات اللوجستية والنقل البحري والقوى البشرية اللازمة للهجوم على جزيرة كيسكا الأشد تحصيناً (Coox 1993; Department of the Navy 1993).

وافقت هيئة الأركان المشتركة على الخطة بتاريخ 3 مارس 1943. وشنت حملة قصف جوي منسق بشكل فوري تقريباً من أجل "تليين" الأهداف. وتم التركيز على جزيرة كيسكا أكثر من آتو في محاولة لإخفاء النيات الأمريكية، وتحقيق عنصر المفاجأة، وإضعاف دفاعات كيسكا قبل الغزو. تحول القصف الجوي إلى جزيرة آتو في 1 مايو دعماً لليوم المعهود المحدد بتاريخ 7 مايو.

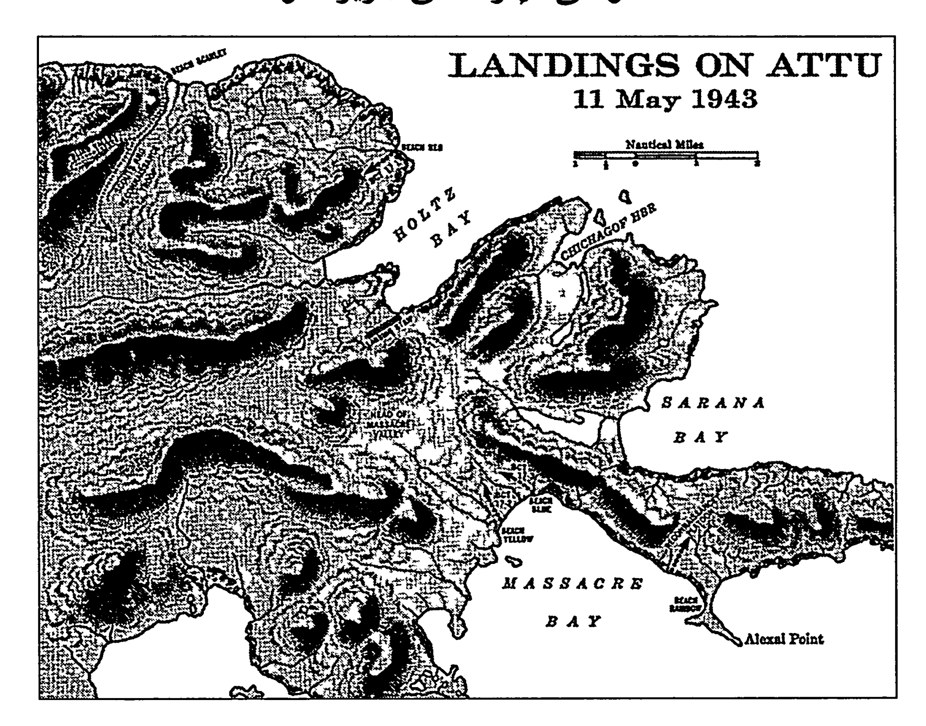
دعت الخطة الأمريكية إلى دعم ناري جوي وبحري كثيف قبل الإنزال البرمائي وأثناءه على خمسة شواطئ مختلفة على طول النصف الغربي من جزيرة آتو (Department of the Navy 1993؛ انظر الشكل 10-5. كما تضمنت الخطة طلعات جوية استطلاعية مستمرة. وكان من المقرر أن تغادر قوات الغزو الأمريكية من خليج "كولد باي" في جزر ألوشن يوم 3 مايو، ولكن سوء الأحوال الجوية والبحر المضطرب أخّر عملية الإبحار حتى 4 مايو (Department of the Navy 1993). وبالتالي، تم أيضاً تأجيل اليوم المعهود حتى 8 مايو. وأثناء وجود القوة المهاجمة في البحر مسبقاً، تم تأجيل اليوم المعهود مرة أخرى بسبب الضباب الكثيف والرياح العاتية والأمواج المتكسرة الخطيرة حتى 11 مايو.

ومع مواجهة صعوبات بسبب الضباب الكثيف والأحوال الملاحية، نزلت الفرقة السابعة الأمريكية على الشاطئ الشمالي حول خليج هولتز وعلى الشاطئ الجنوبي عند خليج ماساكر، وواجهت أدنى حد من المقاومة. وكان القائد الياباني العقيد ياسويو ياماساكي قد ركز دفاعاته في الداخل ووضع فقط مدافع ساحلية واثني عشر مدفعاً مضاداً للطائرات لاعتراض عمليات الإنزال المتوقعة (Coox 1993). ورغم المشكلات الأولية، أثبت الضباب الكثيف أنه نعمة ونقمة على القوات الأمريكية. فمع أنه ألغى

تقريباً أي نيران جوية أو بحرية أو دعم مدفعي، فإنه أخفى عمليات الإنزال عن أعين اليابانيين. وفي نهاية اليوم الأول، نزل نحو 3500 جندي على جزيرة آتو (Campbell 1995). نزل نحو 400 جندي مقاتل على الشاطئ القرمزي Beach Scarlet، و1100 جندي على الشاطئ الأحمر Beach Red، و2000 على الشاطئ الأزرق Beach Blue والشاطئ الأصفر Beach Yellow (Chandonnet 1993).

الشكل (10-5)

شواطئ الإنزال على جزيرة آتو



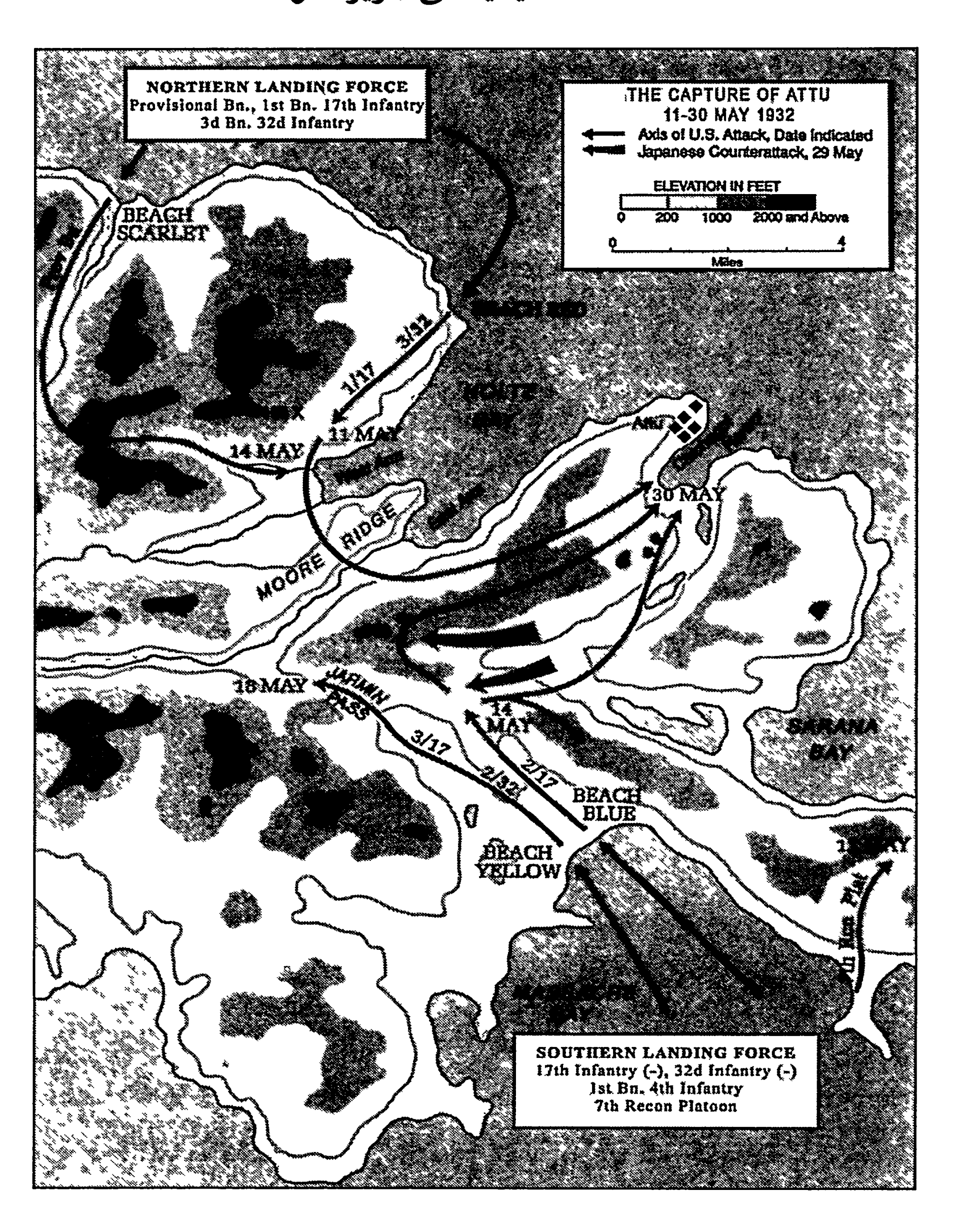
المصدر: Department of the Navy 1993.

ومع وجود الدفاع الياباني على الأرض المرتفعة والأرض الداخلية بين خليجي هولتز وماساكر، سرعان ما أصبح واضحاً أن العملية الأمريكية سوف تستغرق أكثر من الأيام الثلاثة التي كانت متوقعة في البداية. إضافة إلى ذلك، ضمنت الطبيعة الوعرة للتضاريس وسهل التندرا المستنقعي والوحل، وظروف الطقس القاسية، معدل تقدم بطيئاً غير متوقع للقوات الأمريكية. وبحلول 17 مايو، نزل أكثر من 12500 جندي على جزيرة آتو،

وتكبدوا أكثر من 1100 ضحية في العملية (Hutchison 1994). ولكن بحلول 18 مـايو، اجتمعت القوات الأمريكية الشمالية والجنوبية بالقرب من ممر جارمين وطوقت المـدافعين اليابانيين في شمال شـرقي جزيرة آتو (Hutchison 1994، انظر الشكل 10-6).

الشكل (10-6)

الخطة التكتيكية على جزيرة آتو



المصدر: US Army, 1992.

ونظراً لطبيعة المواقع الدفاعية اليابانية المحصنة، والطقس القاسي الذي حد من إمكانية الرؤية والدعم الجوي والمدفعي، وطبيعة الأرض الوعرة، انخفض مستوى الهجوم الأمريكي إلى "زحف" من 18 إلى 28 مايو. ورغم ذلك استمر الإصرار؛ فبحلول 29 مايو، تم تطويق القوات اليابانية على جزيرة آتو بشكل تام. وفي محاولة أخيرة، قامت القوات اليابانية المتبقية (وتقدر بين 800-1000 مقاتل) بهجوم مضاد انتحاري ضد المواقع الأمريكية. فتم صد الهجوم المضاد الأول، ومع ذلك، قام اليابانيون بهجمات متتالية معتقدين أن الموت بشرف كان أفضل من الاستسلام (Campbell 1995). وقد قتل جميع الجنود اليابانيين تقريباً في القتال القريب بالسلاح الأبيض بعد ذلك. وقام الجنود الذين ظلوا على قيد الحياة بالانتحار من خلال تفجير أنفسهم بقنابل يدوية (Handleman 1943) أو ماتوا بفعل حقن المورفين التي أمر بها القائد الياباني (Campbell 1995).

في 29 مايو، تم تأمين جزيرة آتو، وأعادت القوات الأمريكية الاستيلاء على الجزيرة الصغيرة والوعرة والنائية، ولكن ذلك كلفهم حياة 549 جندياً أمريكياً، وجرح 1148 جندياً، وإصابة 2100 آخرين بالأمراض أو تعرضهم للأخطار (Hutchison 1994). وبلغ إجمالي الخسائر اليابانية 2350 قتيلاً، و29 أسير حرب (Hutchison 1994).

العوامل الجغرافية المؤثرة في المعركة

كان للجغرافيا الطبيعية لجزر ألوشن، ولجزيرة آتو تحديداً، أثر عميق على سير العمليات العسكرية. فقد برزت مجموعة كبيرة من العوامل، ولاسيما تلك المتعلقة بالموقع والخطوط الساحلية والطقس وظروف الأمواج المتكسرة والغطاء النباتي والتضاريس، لتفرض تحديات مستمرة للمهاجمين والمدافعين على حد سواء. فخلال المعركة لاستعادة جزيرة آتو، قاتلت القوات الأمريكية واليابانية عوامل الطقس والأرض، حيث كانت معاناتها من دون حدود في بعض الحالات، وقامت في حالات أخرى بتعديل خططها وتكتيكاتها وفقاً لذلك بهدف التغلب على المحنة التي فرضتها البيئة الطبيعية.

الموقع النائي

فرض موقع جزيرة آتو النائي مشقة على كلا الجانبين الأمريكي والياباني. ومنذ انطلاق العمليات تعرضت للإعاقة بسبب عدم توافر خرائط موثوقة للجزيرة ومخططات للمياه المجاورة لها، وهي نواقص عزيت إلى بُعد المكان. وكانت الجزيرة بعيدة عن أي قاعدة عسكرية أو مركز مأهول بالسكان في أي من البلدين. وحالما هاجم اليابانيون واستولوا على الجزيرة، واجهتهم صعوبة شديدة عند محاولتهم مواصلة العمليات ودعم القوة المحتلة. وبالمثل، واجه الجيش الأمريكي كابوس الإمدادات اللوجستية عند محاولته الحشد والنقل والحفاظ على القوات والمعدات والإمدادات اللازمة لاسترداد الجزيرة.

الشكل (10-7)

الخط الساحلي الوعر لجزيرة آتو وموقعها الصعب شكل تحدياً لقوات الإنزال، والمعدات والإمدادات اللوجستية



المصدر: Official US Navy photo, 1943; University of Alaska, Fairbanks.

الخط الساحلي وأحوال البحر

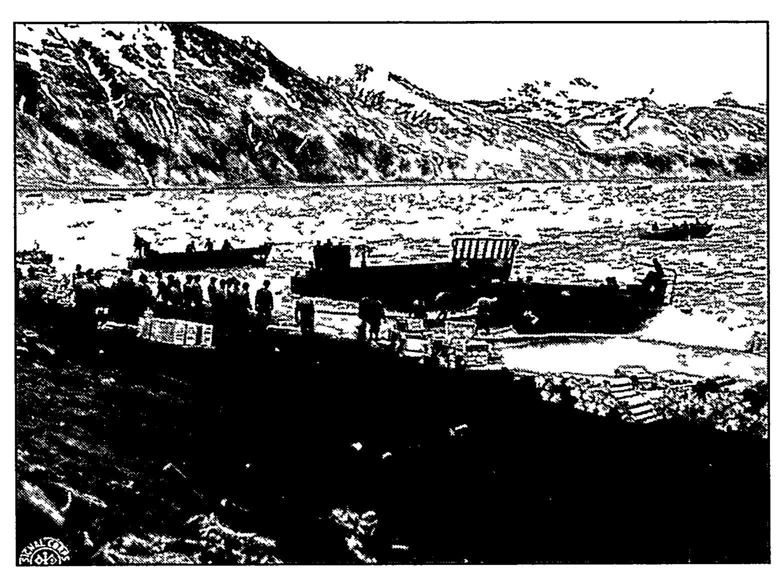
إن الخط الساحلي لجزيرة آتو وعر للغاية نظراً لمنشأ الجزيرة البركاني. والمنحدرات البحرية والجروف الوعرة، والبروزات الصخرية على طول الساحل شكلت عقبات كبيرة أمام عمليات الإنزال البرمائية بشتى أنواعها، ولاسيما أثناء الأمواج العاتية (انظر الشكل 10-7). وما زاد الطين بلة أن خرائط الساحل البعيد كانت سيئة، وكان كثير من مواقع المياه

المجاورة غير معروف من قبل. إلى ذلك، غالباً ما كانت الشواطئ الرملية أحياناً مليئة بـأكوام الأخشاب الطافية التي جرفتهـا الميـاه؛ بارتفـاع بلـغ 8 إلى 10 أقـدام وعـلى بعـد 200 يـاردة بالقرب من الشاطئ العادي بسبب العواصف المتكررة. وحتى موانئها المثالية لم تكن مناسـبة لملاحة السفن البحرية الضخمة (Department of the Navy 1993، انظر الشكل 10-8).

وكانت أحوال البحر عبر جزر ألوشن تعتبر غير مناسبة للعمليات البحرية قبل وقت طويل من عملية استعادة جزيرة آتو. كـما أصبـحت البحـار المضـطربة أكثـر غـدراً بفعـل الأمواج العاتية التي كانت تضـرب أحياناً (Campbell 1995). فهذه الأمواج هي أمواج منفردة هائلة أو ملتفة ترتفع فوق الأمواج الأخرى، وتتضمن أحياناً أحواضاً عميقة جـداً يمكن أن تسقط فيها السفن وتغـرق بعـد ذلـك بفعـل الموجـة العاليـة التاليـة (Bascom 1980). وهذه الظروف مقرونة بـدرجات الحـرارة القارسـة والرؤيـة المحـدودة والريـاح العاتية والمعدات الملاحية التي لا يمكـن الاعـتماد عليهـا، شـكلت أكـبر تحـدٍّ بيئـي حتـى للعمليات البحرية الروتينية.

الشكل (10-8)

يقوم الجنود بتحسين موقع الإنزال ويعملون على تنزيل المعدات في خليج هولتز



المصدر: Official US Navy photo, 1943.

الطقس

شملت جوانب الطقس التي أثبتت أنها صعبة على هذه الجزيرة: درجات الحرارة الباردة، والغيوم التي تغطي السماء على نطاق واسع، والرياح العاتية، والضباب الكثيف. ولعب سوء الأحوال الجوية دوراً حاسماً منذ بداية حملة ألوشن، مما أثر سلبياً في العمليات البحرية والجوية والبرية. تم تأجيل اليوم المعهود في مناسبات عدة بسبب سوء الأحوال الجوية. وأشار كلو (Cloe 1990) إلى أن طائرات الحلفاء التي دُمِّرت، وعددها 225، كانت الأحوال الجوية السيئة سبب تحطم 184 طائرة منها.

وأثبت الضباب الكثيف أنه نعمة ونقمة على القوات الأمريكية؛ فمع أنه حجب عمليات الإنزال في اليوم المعهود عن أعين اليابانيين، إلا أنه تسبب أيضاً بسقوط أول الضحايا في صفوف الجيش الأمريكي؛ فقد غرق أربعة جنود عندما أنزلت إحدى السفن سلم النزول باكراً قبل وصولها إلى الشاطئ، لتمتلئ بالماء وتغرق (Campbell 1995). كما وقعت إصابات أخرى عندما اصطدمت السفينتان "سيكارد" و"ماكدوناف" أثناء عملية الإرساء الأولية (Department of the Navy 1993). وبعد الإنزال، كان الضباب المستمر مفيداً في إخفاء المناورات البرية التي أجرتها القوات الأمريكية، ولكنه حال دون استخدام الدعم الجوي أو المدفعي. ولكن في بعض الأحيان، كان انقشاع الضباب في غير محله، حيث عرض القوات الأمريكية للنيران اليابانية. وفي إحدى المرات وخلال ضباب كثيف، وقعت معركة مأساوية في ما بين القوات الأمريكية؛ بين الجنود الحراس، وحاملي النقالات لديهم (Gilman 1944). ولعل الأهم هو أن الضباب الكثيف قد حدَّ من استخدام القصف الجوي أو البحري دعماً لعملية الإنزال والعمليات الهجومية اللاحقة.

وكان لغطاء الغيوم المستمر الأثر الأكبر على العمليات الجوية، حيث خفضت السماء الملبدة بالغيوم من مدى الرؤية، وحالت دون استخدام الاستطلاع الجوي أثناء التخطيط للعمليات وفي مراحل تنفيذها. كما تحكم هذا الغطاء أثناء الهجوم بالأوقات التي أمكنهم فيها استخدام الدعم الناري الجوي. وغني عن القول أن انقشاع بعض الغيوم في السماء نادراً ما تصادف الحالات التي كانت الحاجة فيها إلى الدعم أكثر إلحاحاً.

وأثبتت الرياح العاتية أنها خطيرة على العمليات الجوية والبحرية، لأنها تسببت باضطراب البحار وبأحوال جوية سيئة للطيران. شعرت القوات البرية بأثرها من خلال الانزعاج الشخصي من عامل البرودة الزائدة التي تتسبب بها الرياح، وانقطاع تدفق الإمدادات اللوجستية عبر البحر أو الجو. وقد وصلت سرعة العواصف في جزر ألوشن إلى 140 ميلاً في الساعة خلال الأحوال الجوية العاصفة (Garfield 1969). وفي ظل هذه الظروف السيئة، كان من شبه المستحيل على القوات البرية تشغيل الأسلحة والمعدات بكفاءة، أو حتى إقامة المأوى المناسب والحفاظ عليه. كما أن التيارات الهوائية التي تهب من الجبل إلى البحر (وهي عواصف من الرياح الباردة المفاجئة والعنيفة بشكل لا يصدق) عاثت خراباً، وتسببت بأضرار جسيمة لمخابئ المعدات وخيام الصيانة وملاجئ الإسعاف ومراكز الاتصال ومحطات التنبؤ بالطقس والطائرات والسفن.

الشكل (10-9)

المسعفون يدلكون رجلي جندي وقدميه بسبب الطقس البارد

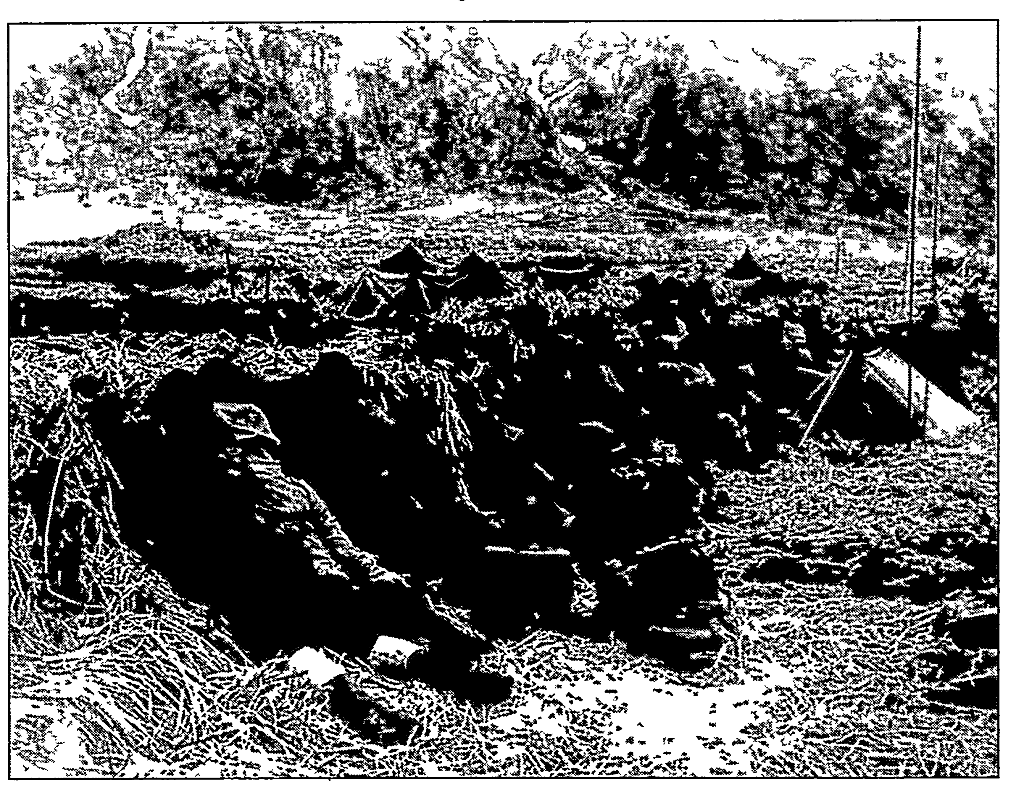


المصدر: US Army, Signal Corps photo, 1943; Alaska State Library historical collection.

أثبتت درجات الحرارة المنخفضة أنها مصدر خطر لكل من القوات اليابانية والأمريكية على حد سواء. وقد أصيب الجنود ذوو التجهيز غير الكافي بحالات قدم الخنادق (مرض يصيب أقدام الجند في الخنادق بسبب البرد) وقدم الغطس (مرض يصيب الأقدام بسبب وجودها لوقت طويل في المياه الباردة) وقضمة الصقيع، أكثر من حالات الإصابة بنيران العدو (Handleman 1943؛ الشكل 10-9). وكان أداء المركبات والطائرات والأسلحة والمعدات سيئاً أو أنها تعطلت في البرد القارس. ومما زاد الطين بلة، أن سهول التندرا الجرداء والأرض المتجمدة جزئياً لم تتح فرصة للقوات البرية كي تجد لها مأوىً من البرد (انظر الشكل 10-10).

الشكل (10-10)

الجنود يحتمون من نيران القناصة في سهل التندرا الوعر والمتحرك بالقرب من شاطئ ماساكر



المصدر: Official US Navy photo, 1943; University of Alaska, Fairbanks.

الأرض والتضاريس

فرضت الأرض الوعرة تحدياً كبيراً على القوات الأمريكية أثناء الهجوم؛ فالمنحدرات الشديدة والجروف الوعرة والأخاديد الواسعة والمرتفعات التي تزيد على 4000 قدم، ازدادت صعوبتها بسبب طبيعة سطح الأرض. وكانت أرض التندرا الطينية والمستنقعية المتحركة غير مناسبة للسير عليها من قبل العربات والجنود على حد سواء. كانت الحركة على الأرض بطيئة ومنهكة للجنود الراجلين، وكان من الصعب جداً نقل المركبات والأسلحة والنظُم والإمدادات. هذا بالإضافة إلى صعوبة إجلاء الضحايا على وجه الخصوص (انظر الشكل 10-11).

الشكل (10-11)

مع صعوبة الحركة والتنقل بسبب الأرض الوعرة على جزيرة آتو، يكافح الجنود لإجلاء مصاب



المصدر: Official US Navy photo, 1943; University of Alaska, Fairbanks.

ولأن الاستخدام الواسع للمركبات الآلية وذات العجلات غير عملي، أو محدود للغاية بمناطق متباعدة، فقد وقع عبء نقل الجرحى والإمدادات على عاتق الجنود الراجلين. إلا أن التضاريس الوعرة لم تكن مرهقة بالمستوى نفسه للمدافعين الذين تمركزوا في مواقع ثابتة. فقد عمل اليابانيون على تخبئة الإمدادات والأسلحة والمعدات اللازمة للدفاع عن الجزيرة. إضافة إلى ذلك، فقد اختاروا مواقع أساسية لا يمكن الوصول إليها وفرت لهم الحماية، بالإضافة إلى المراقبة البعيدة المدى والمجال الناري الواسع.

الخلاصة

شكلت جزيرة آتو للقوات العسكرية الأمريكية "مياهاً مجهولة" و"أرضاً غامضة". فقبل حملة جزر ألوشن، لم يحصل الجيش الأمريكي ببساطة على التدريب اللازم ومنظومات الأسلحة والمركبات والإمدادات والمعدات الضرورية المصممة خصيصاً للمناطق التي تتميز بمناخات رطبة وباردة ورياح عاتية ورؤية محدودة وأرض وعرة. وفي النتيجة، كانت الدروس المستفادة مكلفة من حيث الموارد والضحايا. وبالنسبة إلى عدد القوات المستخدمة، فقد جاءت معركة آتو في المرتبة الثانية من حيث المعارك الأكثر تكلفة في مسرح المحيط الهادي، بعد معركة آيو جيما (Garfield 1969). وتم تصنيف عدد كبير من ضحايا الأمريكيين البالغ عددهم 3829، على أنها إصابات بفعل الطقس البارد، وكانوا أول ضحايا البرد الذين يسقطون في المعركة، والذين تكبدتهم القوات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية (Garfield 1969).

إن استعادة جزيرة آتو والاستيلاء لاحقاً على جزيرة كيسكا أعاد جزر ألوشن الغربية إلى الولايات المتحدة. كما أتاحت السيطرة على سلسلة جزر ألوشن نقطة "انطلاق" محتملة لغزو اليابان. كما أن احتلال الأرخبيل سهّل من السيطرة على شمال المحيط الهادي. ولكن الأمر المثير للجدل يتمثل في ما إذا كانت المعارك في سبيل جزيرة آتو وجزيرة كيسكا لاحقاً ذات أهمية استراتيجية، أو ما إذا كانت أهميتها نفسية محضة. بغض النظر عن ذلك، فقد تم

تطبيق الدروس المستفادة لاحقاً على العمليات التي جرت في المحيط الهادي وأوروبا، وساهمت إلى حد كبير في النجاح على المسرحين.

كشفت المعركة من أجل جزيرة آتو بوضوح الأثر العميق، إن لم يكن الحاسم، للظروف الجغرافية الطبيعية على العمليات العسكرية في خطوط العرض العليا. ولحسن الحظ أن تلك التجربة دفعت إلى إجراء مزيد من البحوث والتطورات ضمن مجموعة كبيرة من المجالات. وأدت ردود فعل الأطباء الذين درسوا أحوال المحاربين القدامى على جزيرة آتو، إلى تغييرات مختلفة على الأحذية والملابس العسكرية والخيام والفراش المحمول والمواد الغذائية الخاصة بالجيش (Garfield 1969). كما أن إصلاح طائرة مقاتلة يابانية من طراز زيرو سهّل تدريبات الطيارين الأمريكيين على الاستراتيجية القتالية (Campbell 1995). وفي محاولة للتعامل مع المشكلة المزمنة المتمثلة بالرؤية المحدودة، أصبحت جزر ألوشن أرضاً عملية لإجراء التجارب الخاصة بأبحاث رادارات المراقبة المحمولة جواً (Russell 1993). ولعل الأهم من ذلك، هو تعديل تكتيكات الإنزال البرمائي وتطبيقها لاحقاً بنجاح كبير في أمكنة أخرى ضمن مسارح المحيط الهادي وأوروبا. وخلال حملة جزر ألوشن وما بعدها، تم إجراء مجموعة كبيرة من التعديلات التقنية على الطائرات والمركبات من أجل تعزيز عملها وقوة تحملها وبقائها في ظروف الطقس والمناخ الشديدة والقاسية. وأخيراً، تمخضت براعة الأمريكيين في أدنى الفروع العسكرية عن عدد من الاختراعات المختلفة خلال محاولات التغلب على التحديات التي فرضتها البيئة الطبيعية. وشملت أمثلة ذلك، الحصيرة المصنوعة من النباتات لمنع مدافع الهاوتز من الغرق في الوحل عند إطلاق النار منها؛ و"حصيرة مارستون" المعدنية التي تستخدم في إنشاء مهابط مؤقتة للطائرات في سهول التندرا المستنقعية أو مناطق الوحل؛ ورافعة الحمولة على شكل حرف A (التي تم تطويرها في خليج ماساكر) لإنزال الحمولة من الزوارق في المياه الضحلة في الخلجان الصعبة. وتم في ما بعد تطوير هذه الاختراعات وغيرها واعتمادها وتوظيفها في أمكنة أخرى في ظل ظروف مشابهة. وبذلك، أثبتت جزيرة آتو أنها أدت دوراً محفزاً لأوساط البحث والتطوير في المؤسسة العسكرية.

لم تكن معركة آتو قط جزءاً يحتفى به في التاريخ العسكري الأمريكي. ولم يكن الاستيلاء على جزيرة آتو أو استعادتها أمراً ذا أهمية عسكرية كبيرة خلال الحرب العالمية الثانية. إلا أنها كانت المعركة الوحيدة في الحرب العالمية الثانية التي جرت وقائعها على أرض أمريكية، وكانت تكلفة الاستيلاء على الجزيرة البركانية الصغيرة واستعادتها مرتفعة جداً من دون شك لكل من اليابانيين والأمريكيين على حد سواء. وفي إدراك متأخر لأهميتها، فإن الفائدة العسكرية لمكان مماثل يبقى مثار شك نظراً للموارد والاستعدادات الواسعة اللازمة لأي قوة عسكرية للهجوم والدفاع والعمل في بيئة قاسية وذات تحديات طبيعية كهذه.



الفصل الحادي عشر

حماية القوات:
الجغرافيا الطبية وحملة بونا-غونا

إيوجين بالكا وفرانسيس جاجانو

مقدمة

يعتبر القادة العسكريون بجميع رتبهم مسؤولين عن إجراء تقييمات الخطر في جزء لا يتجزأ من جهود تصميم التدريبات وتخطيطها وتنفيذها، بغض النظر عما إذا تم ذلك في المقر الرئيسي أو في أمكنة أخرى داخل الولايات المتحدة القارية أو ما وراء البحار. ويتولى القادة المسؤولية الموروثة ذاتها عند تخطيط المهمات العملياتية وتنسيقها داخل الوطن وخارجه في أوقات السلم والحرب على حد سواء. وتشمل عملية التخطيط في جزء لا يتجزأ منها، معالجة المخاطر الصحية البيئية المحددة التي قد تنشأ في مكان معين.

وتعود الجغرافيا الطبية – باعتبارها حقلاً فرعياً من الجغرافيا – زمنياً إلى أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا، حيث حاز هذا الحقل مصداقيةً كبيرة ضمن الجغرافيا الأكاديمية في الولايات المتحدة في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين. وكان من أوائل مؤسسي الجغرافيا الطبية جاك ماي Jacques May ورالف أودي Ralph Audy. وحاز كلاهما كثيراً من الخبرة في خضم تجربتهما العسكرية.

تلقى جاك ماي تعليمه في باريس، ومن ثم مارس الطب في جنوب شرقي آسيا خلال الفترة الممتدة من عقد العشرينيات من القرن العشرين إلى الثلاثينيات منه. كما مارس مهنته

في فيتنام قبل الحرب في الهند الصينية، وكان رئيس الأطباء الفرنسيين في هانوي. وكان أول من وصف البيئة المستولدة للجراثيم، وأدرك أن كل مرض كشف نمطاً أو جغرافيا محددة للانتشار، وأن السلوك البشري كان جزءاً لا يتجزأ من أي تجمع للأمراض. كان ماي كاتباً غزير المؤلفات، وقد وضع عدد من مؤلفاته الأولى الأساس للجغرافيا الطبية، مما أكسبه تميزاً ليوصف بأنه "أبو هذا الحقل الفرعي" في الولايات المتحدة.

سافر رالف أودي مع الجيش البريطاني في أنحاء منطقة جنوب شرقي آسيا والهند وماليزيا. وكان هو الطبيب الذي اكتشف مسببات التيفوئيد المداري (الأكالي) في ماليزيا، وعمل لاحقاً رئيساً لمعهد الأبحاث الطبية في ذلك البلد. جاء أودي بعدها إلى الولايات المتحدة وعمل رئيساً لعدة مؤسسات بحثية؛ وتم تبني مفهومه "للصحة" في سياق الجغرافيا الطبية ومن قبل منظمة الصحة العالمية.

وكما استنتج جاك ماي (May 1958)، فإن بعض البيئات تشكل أخطاراً بيئية مختلفة. لجميع الأمراض أسبابها المحددة التي يمكن وصفها باستخدام معيار جغرافي طبيعي أساسي. ولذلك، يجب أن نولي اهتماماً رئيسياً لتحديد مخاطر الأمراض المحتملة، وبالتالي حماية الجنود من التقاط الأمراض من خلال اتخاذ مجموعة واسعة من التدابير الوقائية (كالتطعيمات والجلسات التثقيفية والنشرات والملابس الوقائية وأنواع معينة من النظافة الشخصية...إلخ). وفي حالة الإصابة بمرض ما، عندها يجب إعطاء العلاج المناسب في الوقت المناسب على يد كادر طبي مدرب، ويجب بذل كل الجهود لمنع انتشار المرض.

وتقييم المخاطر الصحية لمنطقة معينة من وجهة نظر عسكرية، يشكل أيضاً جانباً آخر من التحليل الفعال للمنطقة أثناء عملية التخطيط للعمليات. وتركز الجغرافيا الطبية بصورة خاصة على التفاعل بين الناس وبيئتهم، وتركز على النشاطات التي تعرض الجنود والمدنيين للمخاطر الصحية (Palka 1994,2005). ومما لا شك فيه أن هذا الحقل الفرعي من الجغرافيا تحديداً ذو صلة بالعسكريين من منظور التطور المهني والمنظور العملي معاً.

تستخدم الجغرافيا الطبية مفاهيم وتقنيات هذا الفرع من المعرفة للبحث في مجموعة واسعة من الموضوعات المتعلقة بالصحة. فهو يفسر توزع الصحة والمرض، ويعرف الطرق الفعالة للتدخل وتوزيع الكادر المدرب والتقنيات من أجل توفير الرعاية الصحية الفاعلة. الحقل الفرعي المتمثل بالجغرافيا الطبية وثيق الصلة بعلم الوبائيات ودراسة الأوبئة والأمراض الوبائية. ولكن علم الوبائيات يميل إلى التركيز على مستوى واحد أو مستويين. وبالمقارنة، نجد أن حقل الجغرافيا الطبية أوسع بكثير؛ فهو يغطي مستويات متعددة قد تراوح من منزل واحد إلى منطقة ثقافية بأكملها. علاوة على ذلك، تستخدم الجغرافيا الطبية جميع الجغرافيات المنهجية على مستويات متنوعة مع مرور الوقت، وبالتالي، فإنها تكاملية إلى حد بالغ في نهجها. وأخيراً، فإن نطاق الجغرافيا الطبية لا يقتصر على وجود المرض أو غيابه، بل يدرس مجموعة كاملة من الشؤون الصحية ضمن إطار مكاني.

والتاريخ حافل بأمثلة المعارك والحملات والحروب، حيث حصدت الأمراض ضحايا أكثر مما حصدته نيران العدو. ويقدم هذا الفصل لمحة عامة عن الجغرافيا الطبية، ويعيد إلى الذاكرة حملة بونا-غونا خلال الحرب العالمية الثانية في وسيلة للتأكيد على علاقة هذا الحقل الفرعي المحدد بالعمليات العسكرية وخوض الحروب.

الصحة ضد المرض

بدايةً، سوف ندرس الفكرة الأساسية للصحة، التي تشكل مصدر قلق أساسياً لجميع الوحدات العسكرية في جميع الحالات تقريباً. فالصحة هي التمتع بحالة جسدية وعقلية واجتماعية جيدة، ولا تعني مجرد غياب الأمراض أو الضعف (Meade and Earickson 2000). ولعل الفهم الأفضل للصحة هو باعتبارها خاصية مستمرة يمكن قياسها بمدى قدرة الفرد على التعافي من مجموعة واسعة وكبيرة من الالتهابات أو الأذيّات (Audy 1971). وتشمل هذه الأخيرة التأثيرات الناجمة عن المنبهات الكيميائية والجسدية والمُعدِية والنفسية والاجتماعية. ويمكن فهم الالتهاباتَ بصورة أفضل باعتبارها مجموعة

من الجوانب البيئية السلبية التي تؤثر في شخص ما وتدفع إلى رد فعل جسدي. ويمكن أن تدل الالتهابات الجسدية على جودة الهواء ودرجة الحرارة والرطوبة والضوء والصوت والضغط الجوي والإصابات، على سبيل المثال لا الحصر. وقد تشمل الأذيّات الكيميائية غبار الطلع، أو الأسبستوس، أو الملوثات المتنوعة، أو الدخان، أو حتى الطعام. وتشمل الإصابات المعدية الفيروسات، والريكتسية،* والبكتريا، والفطريات، والطفيليات، والديدان. وعلاوة على ذلك، يمكن أن تشمل الأذيّات النفسية/ الاجتماعية الازدحام و/ أو العزلة و/ أو الخوف و/ أو القلق و/ أو الإثارة و/ أو روح الدعابة و/ أو الاغتراب. وبغض النظر عن المكان أو الوظيفة أو نمط الحياة، يتعرض كل فرد لمجموعة من الأذيّات المستمرة منذ ولادته وحتى وفاته. وبالتالي، تعتبر الصحة مقياساً حاضراً دائماً لمدى حيوية الشخص بصورة عامة. وبالنظر إلى مجموعة الأذيّات المذكورة، من السهل أن نرى أن الجنود يتعرضون وبصورة روتينية لكثير من – إن لم يكن لمعظم – الاحتمالات أثناء التدريب في أوقات السلم وأثناء الحرب.

يدل المرض على تغير في الخلايا أو الأنسجة الحية بطريقة تعرّض حياتها للخطر في بيئتها (May 1961). ويهتم المختصون بالجغرافيا الطبية بعدة فئات كبيرة من الأمراض. فالأمراض الخلقية هي تلك الأمراض الموجودة عند الولادة. والأمراض المزمنة هي الأمراض الموجودة أو المتكررة على مدى زمني طويل. والأمراض التنكسية تشمل ضعف أحد أجهزة الجسم أو تدهور خلاياه وأنسجته. وأخيراً، الأمراض المعدية تنجم عن غزو الطفيليات وتكاثرها في الجسم. ونظراً للفئات المتنوعة المبينة أعلاه، فإن المؤسسة العسكرية تهتم أكثر بالأمراض المعدية لأنه يمكن التقاطها بصورة أسهل نسبياً، ومن ثم فإنها تنتشر ضمن وحدة معينة. إضافة إلى ذلك، ونظراً للفحص الطبي الروتيني الذي يخضع له كل الجنود في بداية حياتهم المهنية، فإن الفئات الثلاث الأولى نادراً ما تنطبق على الجنود المتطوعين أو حتى المجندين.

---

* جنس جراثيم من فصيلة الرِّيكِتْسِيَّات وهي تسبب أمراضاً مُعدية للإنسان. (المترجم)

يمكن أيضاً تصنيف الأمراض اعتماداً على الحالات أو الظروف التي تحدث فيها. ويحدث مرض نقص عنصر ما في الجسم عندما لا يتسم النظام الغذائي للمرء بالتنوع الكافي لتلبية جميع حاجات الجسم. وقد تكون المواد المهمة للصحة غير موجودة في الطعام الذي يتناوله الشخص وذلك لأسباب ثقافية أو جسدية. ويعد مرض كواشركور Kwashiorkor مثالاً واسع الانتشار، وهو يحدث بسبب نقص البروتين في الغذاء الذي يتناوله بعض السكان الفقراء في المناطق التي تزرع الأرز في أفريقيا وجنوب شرقي آسيا. والمرض أو الإصابة المهنية بسبب الظروف الموجودة في مكان العمل. على سبيل المثال، مرض الصدر المسمى بداء السُّحار السيليسي، يتعلق منذ وقت طويل بالعمل في مناجم الفحم وتنفس غبار الفحم الضار. وفي بعض الحالات، قد يظهر المرض بسرعة، على حين في حالات أخرى، تبقى الأعراض خفيّة لسنوات كثيرة بعد التوقف عن العمل في هذه المهنة. وتحدث أمراض الإجهاد عندما تكون الضغوط البيئية شديدة جداً إلى درجة لا يستطيع الفرد تحملها. ويمكن أن يكون الاكتظاظ في منطقة حضرية أو نوع معين من أنواع الضغوط الاجتماعية الكثيرة هو أساس المشكلة.

ويستند نظام التصنيف الثالث الذي يستخدم بشكل روتيني في البلدان غير المتطورة أو المتخلفة من العالم، إلى العلاقة بين المرض والمياه. فالأمراض التي تحملها المياه تنتقل من خلال تناولها عبر الفم. ومن أمثلتها هناك الحمى التيفية (التيفوئيد) والكوليرا والخُنّاق (الدفتريا) وشلل الأطفال والزُّحار العَصَوي. والأمراض التي تغسل بالمياه هي تلك الأمراض التي يمكن تجنبها بوساطة النظافة المناسبة وغيرها من التدابير الوقائية. والحمى التيفية والطاعون والديدان المعوية المختلفة هي أمثلة على تلك الأمراض والتي تنشأ عادة في ظل ظروف غير صحية. في الأمراض المعتمدة على المياه، لا يلتقط الناس المرض مباشرة من الماء، بل إن ناقل المرض يحتاج إلى المياه. ومن الأمثلة المحددة على هذه الأمراض والنواقل المرتبطة بها، هناك الملاريا (من البعوض)، والعمى النهري (من الذبابة السوداء)، والبلهارسيا (من الحلزون). ونظراً للطبيعة العالمية للبعثة العسكرية الأمريكية، فإن كلاً من فئات الأمراض ذات الصلة بالماء والمذكورة أعلاه تشكل مصدر قلق خاصاً.

مفتاح المصطلحات المتعلقة ببيئة الأمراض

كما هي الحال مع أي فرع من فروع المعرفة، يتضمن قاموس الجغرافيا الطبية كثيراً من الأفكار الأساسية التي يجب فهمها وتطبيقها في السياق المناسب. والمصطلحات التالية مترابطة ومهمة بشكل أساسي للمختص بالجغرافيا الطبية في إطار سعيه أو سعيها إلى فهم كيفية التقاط الأمراض وانتشارها إلى أمكنة مختلفة:

- "عامل" Agent: هو الكائن الحي المسبب للمرض، ويشمل الحيوانات والفيروسات، ويراوح حجمه بين الكائنات الحية الأحادية الخلية إلى الديدان والحشرات الطفيلية.

- "مضيف" Host: هو الكائن الحي الذي يصاب بعامل المرض. وبعد إصابة المضيف (الشخص أو الحيوان أو الطائر أو الكائن المفصلي الأرجل) بمرض مُعْدٍ، فإنه يدعم الكائن المسبب للمرض من خلال توفير المثوى أو القوت.

- "مستودع" Reservoir: يدل على عدد كبير وعلى كثافة المضيفين بين مجموعة من الناس، والتي يمكن للمرض أن ينتشر أو يتفشى انطلاقاً منها. يعيش العامل المعدي ويتكاثر عادةً ضمن المستودع. وبالتالي، قد يعمل مستودع ما مصدراً مستمراً للعدوى التي يمكن أن تصيب البشر.

- "ناقل" Vector: هو ناقل المرض والذي يمكنه نقل هذا الأخير بين المضيفين. وغالباً ما يمر العامل بتغييرات شكلية في دورة حياته داخل الناقل. وموطن الناقل قد يحدد مكان المرض. والنواقل البيولوجية (كالحشرات أو القوارض) تكون على قيد الحياة، وتوفر الموطن المناسب للعامل كي يتطور أو يتكاثر داخله قبل أن يصبح معدياً. فعلى سبيل المثال، النواقل غير البيولوجية أو الميكانيكية كالماء أو التراب أو الطعام أو البراز، ليست أساسية لدورة حياة العامل، ولكنها قد تعمل وسيلةً لنقل العامل المعدي.

انتشار الأمراض وتفشّيها

تمشياً مع الممارسات التقليدية، يعنى المختصون بالجغرافيا الطبية بأسئلة: ما هو؟ وأين؟ ولماذا؟ لأنها أسئلة تتعلق بالحقل الفرعي الذي يعملون فيه. تحديد أمكنة محددة من خلال التحليل الجغرافي، وتحديد النطاقات المساحية أو المناطق، والتعرف على آليات الانتشار، جميعها من المحاور التي يتركز عليها البحث. يتسم عديد من المصطلحات بأهمية خاصة لفهم النطاق المساحي وتفشي الأمراض. ولكن، للأسف فإن مهمات الأفراد العسكريين في أثناء الحرب تتطلب منهم وبشكل روتيني المغامرة بالدخول إلى مناطق موبوءة.

يشير مصطلح "وبائي" epidemic إلى تفشي مرض مفاجئ وخطير يؤدي إلى نسبة مئوية مرتفعة من الإصابات به وعدد كبير من الوفيات. والمرض ذو النسب "الجائحة" pandemic يبدأ إقليمياً، ومن ثم ينتشر حول العالم (كما في حالة كثير من أشكال الإنفلونزا أو الإيدز). ويدل مصطلح "متوطن" Endemic إلى وضع يكون فيه المرض منقولاً من قبل كثير من المضيفين في حالة "شبه متوازنة" من دون أن يؤدي إلى وفيات سريعة، وعلى نطاق واسع بين السكان. وقد يؤدي مرض وبائي بين السكان إلى إضعاف تدريجي لقوة الأفراد، أو على الأقل يجعلهم أكثر عرضة لأمراض أخرى. وفي كلتا الحالتين، يؤدي المرض الوبائي إلى تخفيض كبير في متوسط العمر المتوقع. ومناطق الأمراض المستوطنة هي النطاقات المساحية المعروفة بشكل أفضل على أنها مناطق مستودعات، حيث توجد نسبة كبيرة من السكان المضيفين لمرض معين.

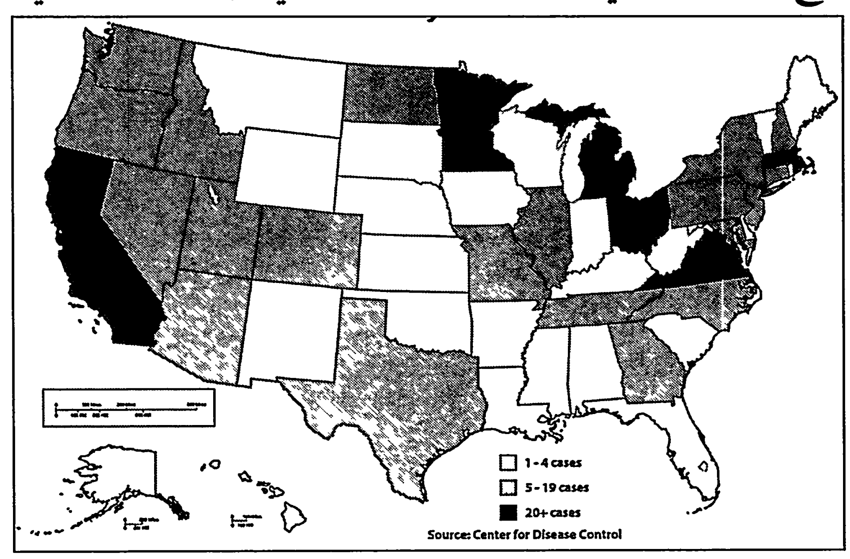
يعتمد المختصون بالجغرافيا الطبية اعتماداً كبيراً على استخدام الخرائط في إجراء التحليل المكاني، وتحديد المناطق اعتماداً على معايير محددة، ورسم مسار حدوث المرض، وتصوير انتشار المرض بشكل بياني. في الواقع، ربما يمكن أن يعزى ظهور الجغرافيا الطبية إلى الطبوغرافيا الطبية التي تطورت في أوروبا أواخر القرن الثامن عشر (Meade et al. 1988). كان الممارسون الأوائل عاملين طبيين أدركوا الفائدة الكبيرة لتحليل الجوانب

المكانية للمرض من أجل الوصول إلى أساس المشكلة. وكانت خرائط الحمى الصفراء ووباء الكوليرا في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر من أول الأمثلة على خرائط الأمراض. ولعل الخرائط المنقطة التي وضعها جون سنو عام 1854 والتي تبين أمكنة انتشار الكوليرا حول مضخة مياه برود ستريت في لندن، هي أشهر الخرائط الأولى التي أقنعت المحققين بجدوى الأداة الجغرافية الأكثر ديمومة.

على العموم، فإن الخرائط هي تمثيل ثنائي الأبعاد لكامل - أو لجزء من - سطح الأرض بالنسبة إلى المقياس. ويتم تصميم كثير من الخرائط لإظهار انتشار أمر معين لظاهرة محددة ضمن منطقة محددة. وفي إطار الجغرافيا الطبية، يمكن للخرائط أن تتناول طيفاً واسعاً من الموضوعات؛ بدءاً بأمراض محددة (انظر الشكل 11-1)، وصولاً إلى أوجه القصور مثل سوء التغذية أو نقص التغذية، وإلى بيئات طبيعية محددة توفر مواطن مثالية لمرض معين. إلى ذلك، يمكن رسم الخرائط على عدة مقاييس، مما يتيح للجغرافيين فحص النطاق المساحي للمرض على مستوى عالمي، أو التركيز على منطقة محددة ذات أهمية.

الشكل (11-1)

خريطة توضح الانتشار المكاني للسالمونيلا التيفية الفأرية في الولايات المتحدة في يناير 2009



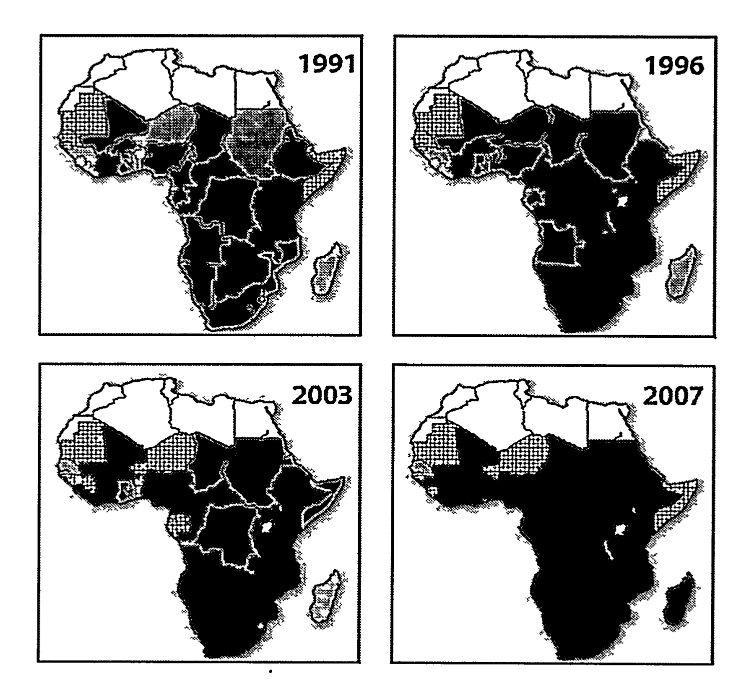
المصدر: Center for Disease Control.

وتقدم النسخة الحالية من **أطلس جـود العـالمي** *Goode's World Atlas* (Veregin 2004) عدة أمثلة عن الخرائط (الخرائط البيانية تحديداً) على المستوى العالمي، والتي تصور بيانياً إمداد السعرات الحرارية واستهلاك البروتين ومتوسط العمر المتوقع وعـدد الأطبـاء لكل عدد معين من السكان. ويتيح كل واحـد مـن هـذه العـروض البيانيـة للمـرء تقيـيم الصحة العامة للسكان في منطقـة محـددة. كـما تسـتطيع الخـرائط أن تقـدم سـجلاً تاريخيـاً يكشف عن مرض معين. وبتتبع مسار حدوث كل حالة لفـترة معينـة مـن الـزمن ضـمن منطقة محددة، تمكن ملاحظة تغييرات وتوجهات محددة (انظر الشكل 11-2).

قـارن المنـاخ والجغرافيـا الطبيعيـة وأنـماط اسـتخدام الأراضـي والتـوزع السـكاني والمناطق الإحيائية النباتية مع أنماط الأمراض. ما الأسئلة التي تثيرها هـذه الأنـماط؟ ومـا النتائج التي يمكنك استخلاصها؟

الشكل (11-2)

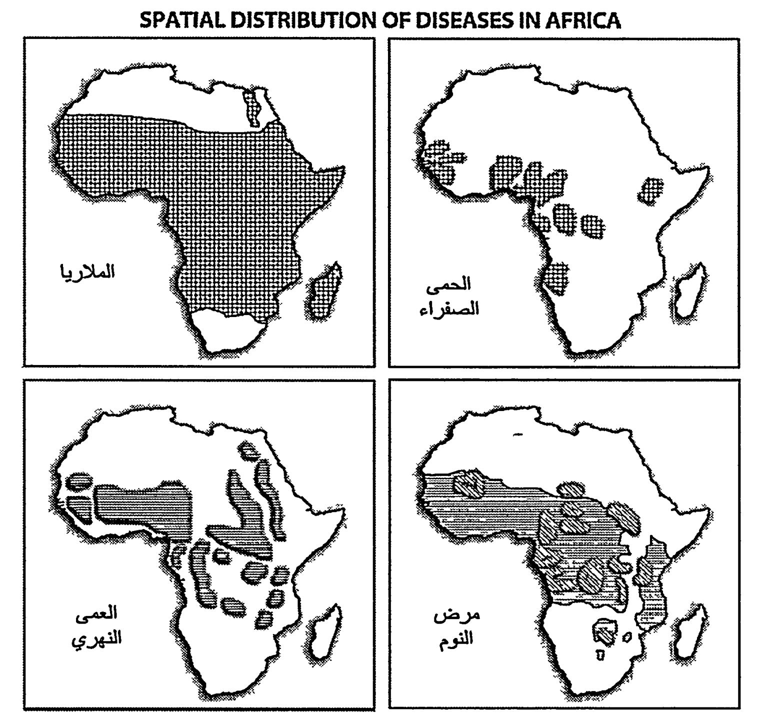
انتشار مرض الإيدز في أفريقيا (1991-2007)



المصدر: World Health Organization.

الشكل (11-3)

الأنماط المختلفة للأمراض في أفريقيا



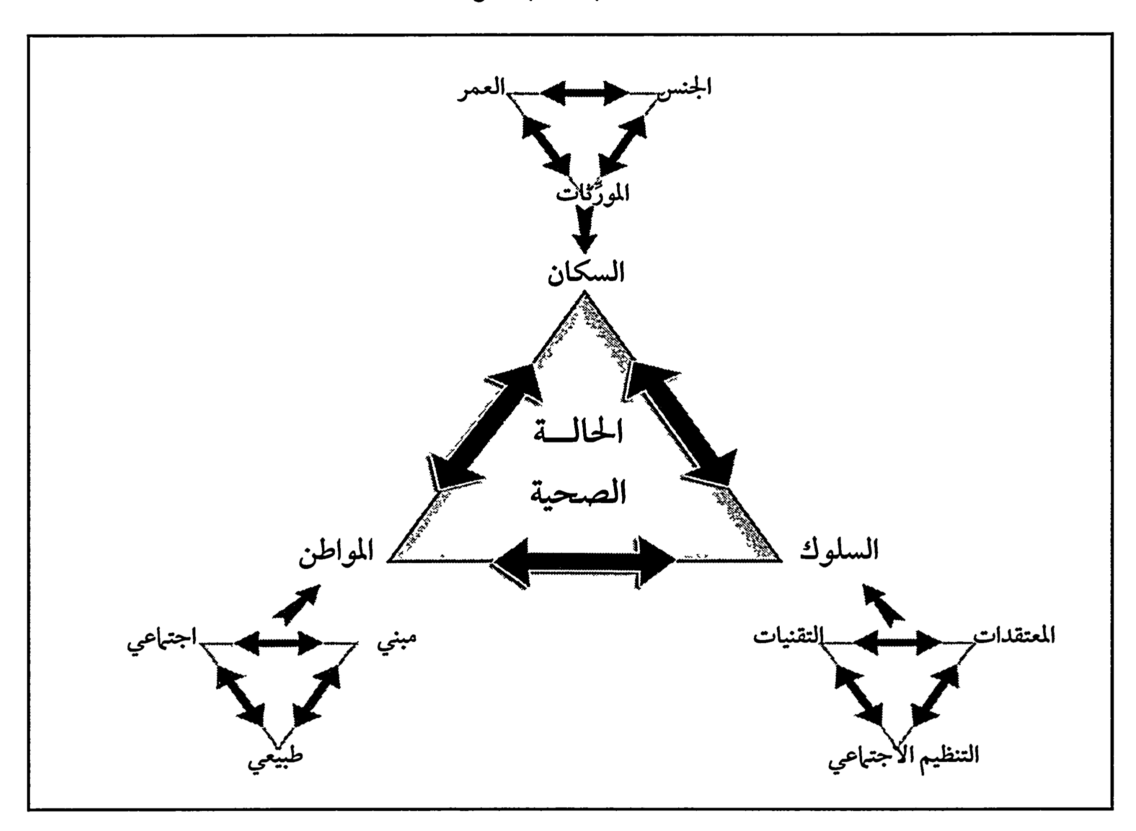
نظراً للأنماط التي تظهر في الخرائط المبينة في الشكل (11-3)، من المغري التوصل إلى استنتاجات سابقة لأوانها، واستدعاء النقاشات حول الحتمية البيئية. لكن عمليات التكيف الثقافي لها أثر كبير على ما إذا كان السكان يواجهون مرضاً معيناً أو لا. وعلاوة على ذلك، فالمعتقدات الثقافية تؤثر في كيفية قيام المجموعات المختلفة بمنع الأمراض أو علاجها. فالحواجز الثقافية تشير إلى السلوك أو الابتكارات التي تقي من المرض. والأمثلة كثيرة جداً، ولكن لننظر في التعميمات الثقافية التالية. يشرب كثير من الصينيين الشاي، وليس الماء؛ إذاً عليهم غلي الماء أولاً لصنع الشاي؛ وبالتالي، لا يتعرضون كثيراً للأمراض التي ينقلها الماء. ويحقق الأوروبيون فوائد مماثلة من شرب كميات معتدلة من النبيذ بدلاً من شرب الماء ذي الجودة الرديئة. وبالنظر في السمات الثقافية، أثبتت الصنادل أنها عائق أمام الديدان الخُطّافية في جميع أنحاء العالم. كما أن اختراعاً بسيطاً آخر، والمتمثل بالمناديل أو المحارم، دفع إلى إيقاف مرض السل في عديد من المناطق.

مثلث البيئة البشـرية

النموذج الوحيد الذي يسهّل فهم العلاقة بين الصحة ومكان معين هو مثلـث البيئـة البشـرية، الذي تصوّر مفهومه ميد وآخرون (Meade et al. 1988). ويتألف المثلـث مـن ثلاثة رؤوس هي: السكان والسلوك والموطن، ويتضـمن في داخلـه حالـة الصـحة (انظـر الشكل 11-4).

الشكل (11-4)

مثلث البيئة البشـرية



المصدر: Meade et al. (1988).

وفي إطار النموذج، يكون الموطن جزءاً من البيئة التي يعـيش فيهـا النـاس. ويشـمل البيوت وأمكنة العمل وأنماط الاستيطان ومناطق الترفيـه ونظـم النقـل. ويعتـبر السـكان

البشر هم المضيفين المحتملين لعديد من الأمراض. وتشمل العوامل التي تؤثر في السكان وتميزهم أيضاً الحالة التغذوية والمقاومة الوراثية والحالة المناعية والبنية العمرية والمخاوف النفسية والاجتماعية. ويشمل السلوك الجوانب الملحوظة للسكان وهو ينبع من التقاليد الثقافية. كما يؤثر بمن يحتكون مع مخاطر المرض، وفي ما إذا كان السكان يختارون بدائل أخرى أو لا.

ويعتمد مفتاح فهم صحة السكان في مكان معين على تقدير مدى قيام السكان من خلال سلوكهم بتطوير موطنهم والتفاعل معه. ولكل الأمراض تقريباً موطن مثالي أو بؤرة طبيعية. وهناك كثير من المواطن أو البؤر موجودة في الطبيعة بشكل مستقل عن النشاط البشري، ويشار إليها بالمناطق الصامتة التي تكون مجهولة للناس، إذ يحتكون بها ويصابون بالمرض. ولكن العامل البشري يفسر: مَن، ومتى، وأين، ولماذا يصاب الناس بالأمراض العديدة؟ ومن خلال عديد من المعتقدات والنشاطات، يصبح كثير من البشر معرضين لمرض ما، أو يزيدون أو يقلصون انتشاره، أو يقيمون حواجز ثقافية مختلفة في وسيلة لمكافحة دورة المرض (Palka 1994, 2005).

التغذية والصحة

يؤكد مثلث البيئة البشرية أن حالة الصحة البشرية ترتبط بعلاقات متبادلة بين الناس وسلوكهم والبيئة. وتعتمد "الصحة الجيدة" على أكثر من مجرد التجنب الناجح للأمراض. وهناك تفاعل ذو اتجاهين بين التغذية والصحة؛ إذ يمكن لحمية غذائية أن تعزز صحة المرء، في حين يمكن للأمراض الناجمة عن النقص؛ كسوء التغذية أو نقص التغذية، أن يكون لها تأثير عكسي في الصحة. ويحدث سوء التغذية نتيجة نقص في البروتين أو الفيتامينات أو المعادن في النظام الغذائي للشخص. ويكون مقدار السعرات الحرارية التي يأخذها المرء كافياً، ولكن عدم وجود نظام غذائي متوازن يؤثر سلبياً في قدرة الجسم على القيام بوظائفه. ولعل الأهم من ذلك أن سوء التغذية يجعل الشخص أكثر عرضة للأمراض والعلل الأخرى، ويجعله عاجزاً عن التعافي من الإصابات الجديدة. ومع أن

سوء التغذية يرتبط بنقص البروتين أكثر مما يرتبط بالغذاء غير الكافي، فـإن نقـص التغذيـة يرتبط بصورة مباشـرة بنقص السعرات الحرارية أو كمية الغذاء التـي يتناولهـا الشـخص. ومثل سوء التغذية، فإن نقص التغذية يجعل الشخص أكثـر عرضـة للأمـراض الأخـرى، وبالتالي فإنه يضعف الحالة الصحية.

يتمتع كل من سوء التغذية ونقـص التغذيـة بجغرافيـة متميـزة. فـالأنماط الأساسـية تتعلق بالعوامل البيئية والثقافية معاً. والعوامل البيئية، بما فيها كميات الأمطـار ودرجـات الحرارة ونوعية التربة وأشعة الشمس والتضاريس، قد تحد من تنوع المحاصيل أو الغلال. ويمكن أن تزداد محدودية الإنتاجية الزراعية بفعل فترات الجفـاف أو الكـوارث الطبيعيـة الأخرى. ويمكن لهذه الأخيرة أن يكون لها أثر مدمر على ملايين الناس في البلدان المختلفة التي تعتمد اعتماداً تاماً على زراعة الكفاف.

وتلعب التفضيلات الثقافية دوراً في كل من سوء التغذية ونقص التغذية. ففي ضـوء الضغط السكاني في الهند، يمكن للماشية أن توفر مصدراً مهماً للبروتين الـذي هـم بحاجـة ماسة إليه لو لم تحرمه الديانة الهندوسية. وبالمثل، ففي أجزاء عديدة مـن الشـرق الأوسـط وشمال أفريقيا، توفر الخنـازير البروتـين الضـروري لتعزيـز النظـام الغـذائي لكثـير ممـن ضـربهم الفقر، ولكن المسلمين أيضاً لا يأكلون لحم الخنزير. وحتى في الولايات المتحـدة، حيث الأمراض الناجمة عن النقص أقل بكثير، يفضل الناس الجوع على تناول أي لحوم من آلاف الكلاب التي تقتل يومياً في زرائب الحيونات يومياً عبر البلاد. فـالكلاب يمكـن أن توفر مصدراً مهماً للبروتين الضـروري لمن هم بحاجة ماسة إليه، ولكن الميول الثقافية تمنع الأمريكيين حتى من التفكير في هذا الخيار.

أما على نطاق عالمي، فإن خرائط إمدادات السعرات الحرارية واستهلاك البروتينـات تكشف نمطاً متميزاً في **أطلس جود العالمي** (Veregin 2004). ورغم أننا استطعنا شـرح جزء من الأنماط من حيث العوامل البيئية والتفضيلات الثقافية، قد ندرس أيضاً أثر الفقـر على التغذية والصحة. علاوة على ذلك، قد ندرس مدى توافر الرعاية الصحية في الأمكنـة

نفسها، ومن ثم نحاول أن نربط جميع العوامل المذكورة أعلاه بخريطة متوسط العمر المتوقع أو بمعدل وفيات الأطفال الرضع في عدة بلدان.

بفهم أفضل لبعض المفاهيم الأساسية للجغرافيا الطبية، فإن إدراك بيئة المرض والوعي بتأثيرات الظروف البيئية والحالة الغذائية على الصحة، تجعلنا نلتفت إلى نبذة تاريخية للتأكيد على علاقة الجغرافيا الطبية بالعمليات العسكرية. وإذ نضع باعتبارنا أن حملة بونا-غونا هي مجرد مثال نموذجي فقط، يمكننا بكل تأكيد أن ننظر تقريباً إلى أي حرب، ونكتشف أمثلة محددة عن الأمكنة التي أدى المرض و/ أو الأحوال البيئية السيئة إلى جعل قتال الجنود والوحدات غير مجدٍ.

حملة بونا-غونا Buna–Gona

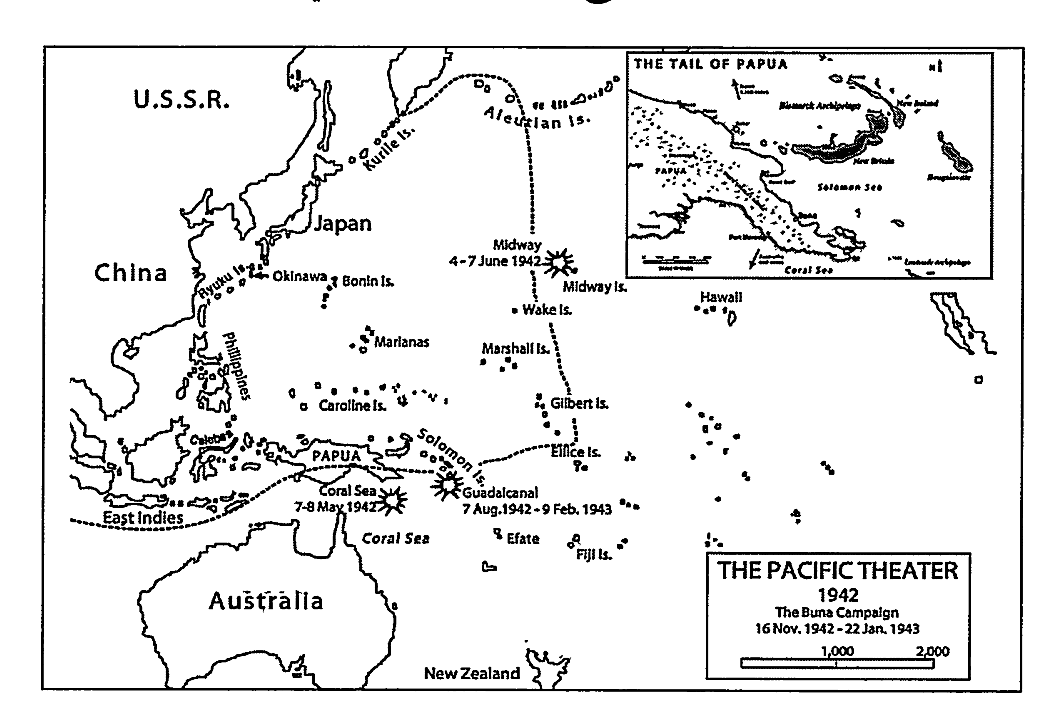
مقدمة

بابوا غينيا الجديدة (الشكل 11–5) هي ثانية أكبر جزيرة في العالم، وتقع عند خط العرض 8 درجات شمالاً، وفي أواخر عام 1942 أصبحت جزءاً حيوياً في استراتيجية الحلفاء الرامية إلى إيقاف اليابانيين في جنوب غربي المحيط الهادي (Weigley 1973). بابوا (التي عرفت في عام 1942) هي أرض تتألف من سلسلة جبال شاهقة وأدغال استوائية لا يمكن اختراقها، ومستنقعات ساحلية منخفضة، وأنهار فائضة، وسحب من البعوض. ويعتبر الساحل الشمالي من الجزيرة بلداً حاراً حيث مشهد الأمطار السيلية والحرارة التي لا تطاق والأمراض الاستوائية، وفي هذا المكان انتصر الجنود الأمريكيون والأستراليون في معركة حاسمة أوقفت الحملة اليابانية للاستيلاء على أستراليا (Martin 1967; Milner 1989). إلا أن القتال كلّف الأمريكيين نحو 10879 ضحية بين مصاب وقتيل منهم 7920 مصاباً نتيجة الأمراض الاستوائية والطعام السيئ والماء السيئ، والظروف الصحية المروعة؛ لأن الأدغال والمناخ الاستوائي الخانق والمرض كانت هي العدو الآخر (Center of Military History 1990). وكما يتذكر أحد المحاربين القدامى:

> لعل الجنود على الجبهة في غينيا الجديدة كانوا من بين الجنود الأكثر بؤساً ظاهرياً على الإطلاق ويرتدون البزات الأمريكية، حيث إنهم كانوا هزيلين وضعفاء مع دوائر سـوداء داكنـة تحـت أعينهم الغائرة. وكانت تغطيهم القروح المدارية، وكـانوا يرتـدون سـترات وسـراويل رثـة وملطخة. وأحذيتهم غارقة ومغطاة بالوحل اللزج والنتن. وقد خاض كثير منهم القتال لعدة أيام وهم مصابون بالحمى من دون علمهم... فقد أصابت الملاريا وحمى الضَّنْك والزحار، وفي بعض الحالات التيفوئيد، الرجال واحداً تلو الآخر. وبصعوبة كان هناك جندي مـن بـين آلاف الجنود الذين دخلوا الأدغال، لم يصب بنوع مـا مـن الحمـى لمرة واحـدة عـلى الأقـل. (Kahn 1943: 15)

الشكل (11-5)

خريطة مسـرح عمليات المحيط الهادي



تسببت الأمراض والمناخ الاستوائي الخانق بخسائر مخيفـة في صـفوف جنـود قـوات التحالف (انظر الشكل 11-6)، وازداد تأثير هذه المشكلات بفعل سوء التغذية والمياه غير الصحية. ولم تكن الملاريا وحمى الضَّنْك والأمراض الاستوائية الأخرى هي وحـدها التـي أصابت الجنود، بل إنهم أصيبوا أيضاً بالتسـمم الغـذائي والزحـار والاكتئـاب والخمـول

(Center of Military History 1990). تشكلت فرقة المشاة الأمريكية الثانية والثلاثـون من جنود منتصف غرب أمريكا ولم يكونوا متكيِّفين أو مستعدين جسدياً لهـذه الظـروف. علاوة على ذلك، لم تكن معداتهم ونظامهم الغذائي ملائمة لذلك المناخ، ولم يكـن الطـاقم الطبي مستعداً للتعامل مع تلك الظروف البيئية. وخلال أسبوعين بعد دخولهم الأدغـال، بدأ معدل المرض بالارتفاع، ولم يكن مستغرباً إدخال أكثر من نصف الجنود في كتيبة مشـاة إلى المستشفى للعلاج. وتشير أرقام الضحايا إلى أنه مقابـل كـل ضـحيتين تسـقطان بفعـل المعارك، كان هناك خمسة جنود تقعدهم المشكلات الصحية عن القتـال (Milner 1989). ومن اللافت أن هؤلاء الجنود استطاعوا إخراج اليابـانيين مـن بـابوا بـالنظر إلى الظـروف القاسية ومعدلات الضحايا الذين سقطوا في غير المعـارك، والتـي نـاهزت 80٪ في بعـض الوحدات (Center of Military History 1990).

الشكل (11–6)

جنود أمريكيون في الأدغال الاستوائية الكثيفة



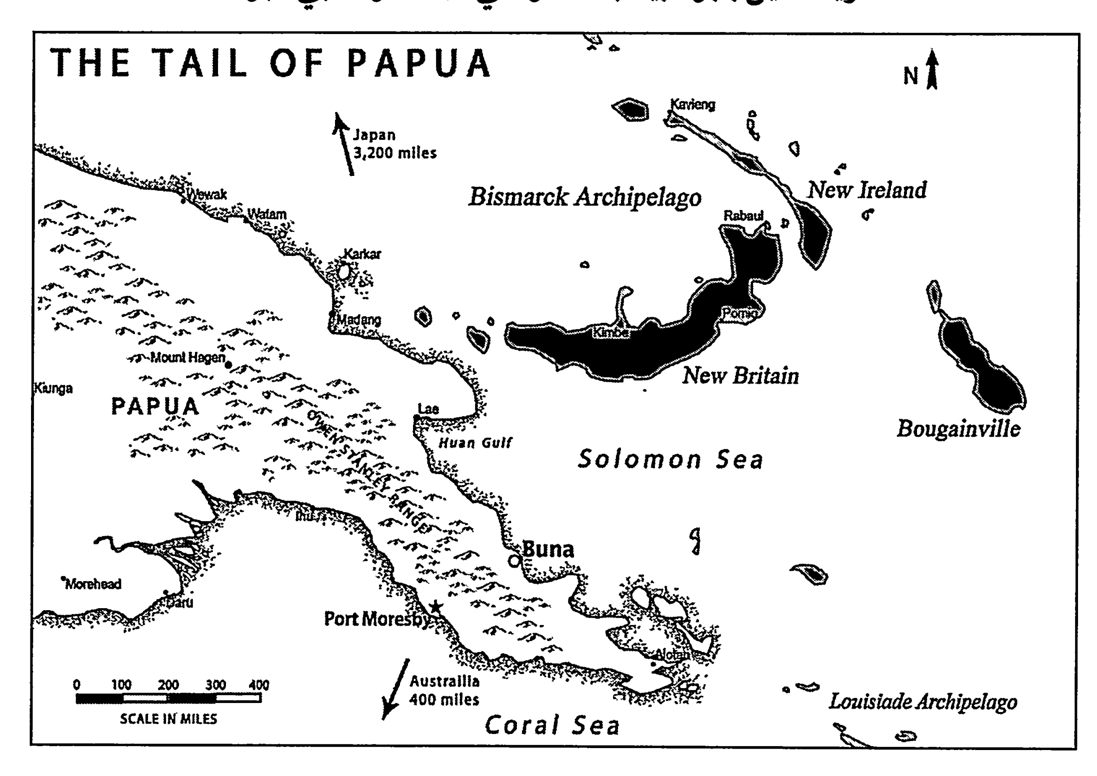
المصدر: US Army photograph.

الجغرافيا والمناخ

يفيدنا تقديم وصف موجز لجغرافية بابوا ومناخها في تفسير سير المعركة، ولماذا كان للمرض هذا الدور الرئيسي خلال العملية. فقد جرت الحملة على الذيل الطويل لجزيرة بابوا (انظر الشكل 11-7) بين ميناء مورسبي وبونا، حيث وقع أعنف قتال على طول الشريط الضيق من الأرض على طول الشاطئ الشمالي الشرقي لجزيرة بابوا والمتمركز حول بونا (انظر الشكل 11-8). وكان السهل الساحلي مزيجاً من الأدغال والمستنقعات غير السالكة ومزارع جوز الهند والحقول المفتوحة المغطاة بأعشاب كوناي Kunai التي يصل ارتفاعها إلى الكتف (Center of Military History 1990). كان الغطاء النباتي كثيفاً جداً مما جعله مكاناً مثالياً لتكاثر النواقل مثل البعوض وبراغيث النمل والبراغيث والقراد والجرذان والذباب اللاسع (Milner 1989).

الشكل (11-7)

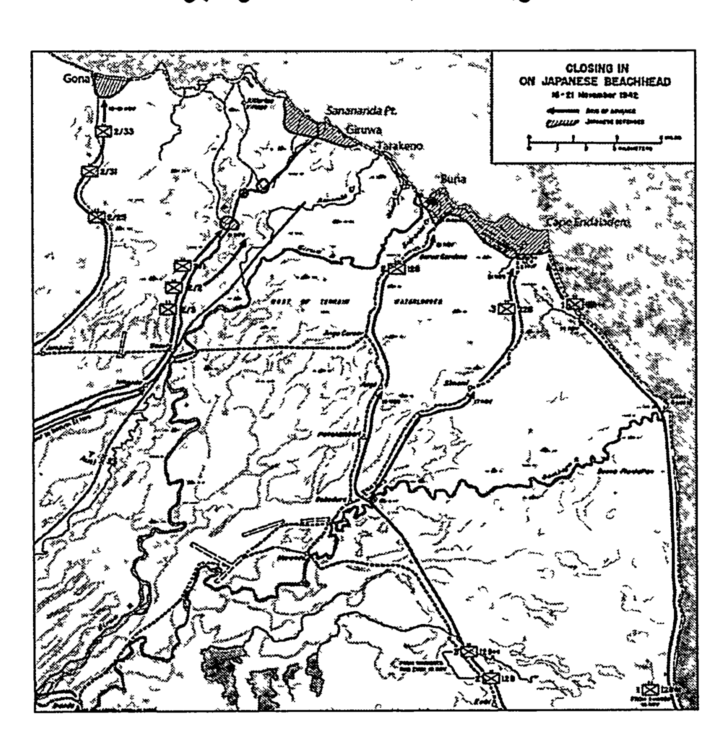
خريطة ذيل بابوا تبين بدقة موقعي ميناء مورسبي وبونا



السهل الساحلي حول بونا منخفض المستوى ونادراً ما يتجاوز ارتفاعه 5 أقدام فوق مستوى سطح البحر. ومن هنا، كان منسوب المياه مرتفعاً جداً والأمطار الهائلة غمرت المشهد الطبيعي بالمياه المتجمعة والمستنقعات الواسعة. وأعلى مستوى للأرض موجود فعلياً على طول الساحل وقد احتله اليابانيون، ولذلك اضطر جنود الحلفاء إلى العيش والقتال في مستنقعات نتنة أو على عدة قطع صغيرة من الأرض الجافة حيث مستوى المياه الجوفية موجود على عمق إنشات فقط تحت سطح الأرض. ولذلك عاش جنود الحلفاء في حالة من البلل الدائم. فقد اهترأت ثيابهم وأحذيتهم العسكرية وأصيبوا بتقرحات جلدية وفسدت المواد الغذائية لديهم وصدئت أسلحتهم؛ ورغم كثرة المياه الموجودة، فإنها كانت غير صالحة للشرب (Kahn 1943). وهذه الظروف مواتية جداً لانتشار الأمراض الاستوائية وغيرها من المشكلات الصحية.

الشكل (11-8)

خريطة عمليات القتال حول بونا



المصدر: Center of Military History (1995).

لم يكن في المنطقة أي طرقات أو بنية تحتية أخرى إلا على طول الهامش الساحلي. وقد جعلت الأدغال الكثيفة والمستنقعات الحركة الراجلة صعبة وشبه مستحيلة على المركبات (Martin 1967). وتغمر الأمطار الغزيرة طرقات الأدغال مما يبطئ حركة تقدم الإمدادات، فكان من الصعب توزيع الطعام والماء والإمدادات الطبية. كان من الطبيعي بالنسبة إلى الوحدات أن تبقى لأيام من دون طعام، مما يزيد من ضعف نظامها المناعي. وكانت هناك حاجة ماسة إلى هندسة شاملة لشق الطرقات للخروج من هذه الأدغال الكثيفة (Milner 1989). ولذلك تم توزيع مياه الشرب والطعام والإمدادات الطبية من قبل حمالين من السكان الأصليين، الأمر الذي لم يكن مجدياً في أفضل الأحوال (Kahn 1943). إلى ذلك، جعل الغطاء النباتي الكثيف من عمليات إنزال الإمدادات من الجو اقتراحاً غير مؤكد، ولم يصل سوى 50٪ من الإمدادات التي تم إنزالها من الجو إلى جنود الحلفاء (Milner 1989).

اضطر جنود الحلفاء إلى التكيف مع المشكلات الجسدية الناجمة عن مناخ الغابات المطرية الاستوائي في بابوا؛ ومنها معدل درجات الحرارة اليومية التي تناهز 29.4 درجة مئوية (85 درجة فهرنهايت) طوال العام مع درجات حرارة عظمى تقارب 37 درجة مئوية (100 درجة فهرنهايت). فقد سببت أحوال الحراراة والرطوبة في بونا للجنود انزعاجاً جسدياً. كما تفاقمت مشكلة المناخ لأن معظم الأعمال القتالية تمت بين شهري نوفمبر ويناير (أي في فصل الصيف في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية)؛ وهي الفترة التي تكون فيها معدلات هطْل الأمطار والحرارة والرطوبة في أعلى مستوياتها. فعلى سبيل المثال، خلال ديسمبر تراوح درجات الحرارة اليومية بين 22 و36 درجة مئوية (72-99 درجة فهرنهايت)، ومعدل الرطوبة 82٪، وتشهد المنطقة هطولات مطرية بمعدل 40 سنتيمتراً (16 إنشاً) تقريباً (Center of Military History 1990). ويتضح تأثير هذه الأحوال في السجل الميداني اليومي للسريّة "ف" F، الكتيبة الثانية، فوج المشاة 128 في يوم 9 ديسمبر 1942: «بقي من السرية مجموعة صغيرة من الفتيان المرضى جداً. لقد أمطرت السماء مرة أخرى ليلة البارحة، جميع الرجال مبللون وينامون في الوحل والمياه» (Milner 1989: 45).

ملخص الحملة: القتال في سبيل بابوا

في 22 يناير 1943، استولى عناصر الفرقة الثانية والثلاثين من المشاة الأمريكيين على بونا. وجاء هذا تتويجاً لهجوم مضاد شرس دام خمسة أشهر لدفع اليابانيين إلى التراجع عبر سلسلة أوين ستانلي (انظر الشكل 11-7)، وبقيامهم بذلك، تصدوا للغزو المخطط لأستراليا (Milner 1989). وخاضت القوات الأسترالية والأمريكية معاً القتال عبر الغابات المطيرة الجبلية الوعرة، وبعد ذلك في منطقة المستنقعات والأدغال الساحلية. وكان النصر مهماً جداً هنا لأنه حوّل الدفة لمصلحة الحلفاء في المحيط الهادي.

في أواخر ربيع عام 1942، كانت الآفاق المستقبلية لقوات الحلفاء في المحيط الهادي قاتمة، وواجهت سلسلة من الكوارث العسكرية؛ فقد استسلم 250 ألف جندي في سنغافورة بتاريخ 15 فبراير؛ وجلا البريطانيون عن رانجون في 7 مارس؛ واستسلم الألمان في جاوة يوم 8 مارس؛ واستسلمت باتان في 9 إبريل؛ وبحلول 29 إبريل سيطر اليابانيون على بورما. وامتدت الإمبراطورية اليابانية على مساحات واسعة من المحيط الهادي وجنوب شرقي آسيا (انظر الشكل 11-5). وفي مايو 1942، أطلقت الآلة العسكرية اليابانية التي لا يمكن إيقافها عملية بحرية وبرية ضد أستراليا بهدف توجيه ضربة قاضية إلى وجود الحلفاء في غربي المحيط الهادي. فكانت الخطوة الأولى هي الاستيلاء على ميناء مورسبي على طول الساحل الجنوبي لبابوا. كما أن الاستيلاء على ميناء مورسبي سيوفر لليابانيين منطقة انطلاق هي قاب قوسين أو أدنى من أستراليا، بالإضافة إلى قواعد قصف وقواعد قتال لتغطية عبورهم لبحر المرجان.

في 1 مايو، انطلق أسطول غزو كبير من القاعدة البحرية اليابانية في تورك بمهمة إنزال في ميناء مورسبي. وقد عبر الأسطول الممرات المائية لبريطانيا الجديدة، ودخل بحر المرجان حيث أوقفته مجموعة صغيرة مكونة من حاملة طائرات أمريكية والزوارق المرافقة لها. كانت المعركة المسماة معركة بحر المرجان التي حدثت يومي 7 و8 مايو 1942، مهمة لعدة أسباب: أولها، أنها سلطت الضوء على الهزيمة الأولى للهجوم الياباني الشرس عبر

المحيط الهادي منذ معركة بيرل هاربر. ثانيها، أنها ردت الغزو البحري الياباني المخطط له لميناء مورسبي وربما أنقذت أستراليا (Keegan 1989).

المعركة الأولية على بابوا غينيا الجديدة

رغم الذهول الذي أصاب اليابانيين بفعل هزيمتهم في بحر المرجان، لم يستغرقوا طويلاً حتى واصلوا هجومهم على ميناء مورسبي. فأنزلوا قوة غازية بالقرب من بونا بتاريخ 21 يوليو للاستيلاء على ميناء مورسبي من جهة اليابسة من خلال عبور سلسلة أوين ستانلي الصعبة. وتولى الجنرال هوري قيادة هذه القوة اليابانية عبر الجزيرة في مسيرة شاقة عبر الغابات الجبلية، وخسر نصف قوته بفعل العوامل والأمراض على الطريق (Milner 1989). وعندما وصل اليابانيون إلى أيوريبيوا ريدج بالقرب من ميناء مورسبي في أوائل سبتمبر، كانوا مجرد خيال للقوة التي انطلقت من بونا في يوليو. ونتيجة لذلك، في 18 سبتمبر، أمر الجنرال هوري بالتراجع إلى الساحل الشمالي. وأخضع الحلفاء القوات اليابانية لقصف كثيف، وتمت ملاحقتهم من قبل فرقة المشاة السابعة الأسترالية وفرقة المشاة الثانية والثلاثين الأمريكية (Center of Military History 1995). وبحلول 10 نوفمبر، كان اليابانيون قد عادوا إلى نقطة البداية بالقرب من مهمة بونا. ولكن الأدوار انقلبت الآن، فالحلفاء هم من أنهكهم التعب الآن، ووصلوا إلى نهاية خط إمدادات ضعيف (انظر الشكل 11-8).

اضطر الحلفاء إلى عبور سلسلة أوين ستانلي خلال ملاحقتهم لليابانيين سالكين الدروب الضيقة عبر الغابات التي تغطي الجبال (انظر الشكل 11-9). ولذلك دخلوا مضطرين في قتال ليس فقط ضد اليابانيين، بل أيضاً ضد الأحوال البيئية القاسية التي لم يكونوا مستعدين لها جيداً (Keegan 1989). رغم انتصار فرقة المشاة الثانية والثلاثين في نهاية المطاف، فقد دفعت غالياً ثمن إخراج اليابانيين من جنوب شرقي بابوا. ففي نهاية المعركة، كانت قد تكبدت 10879 ضحية؛ ولكن 7920 منهم سقطوا ضحية المرض (Center of Military History 1990). وبالمثل، تكبد الأستراليون ضحايا بسبب

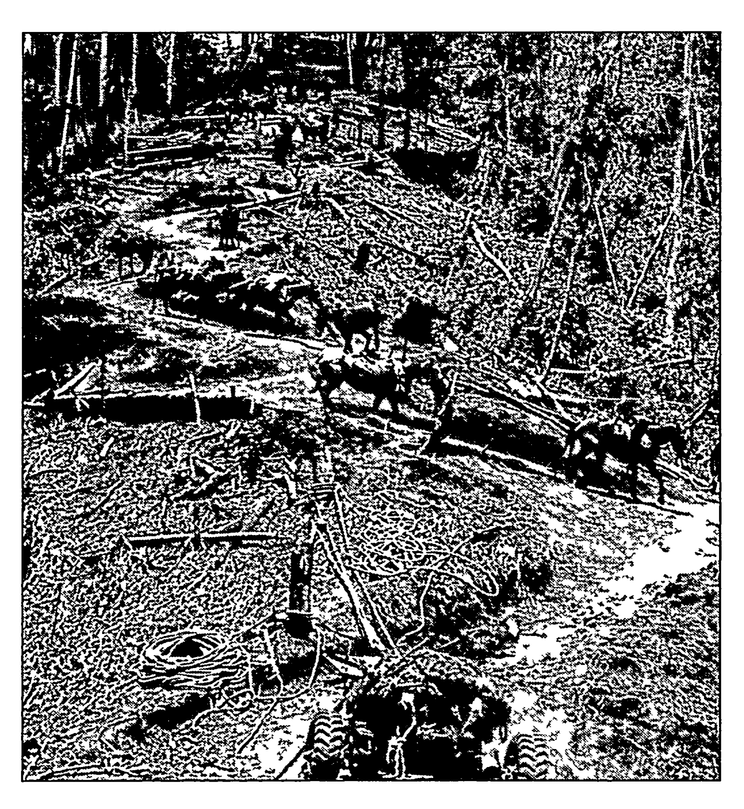
الأمراض بمعدل ستة جنود مقابل كل ثلاثة قتلوا بفعل الاشتباك المباشر مع العدو (Winters 1998). ويتضمن الجدول (11-1) قائمة كاملة بالضحايا الأمريكيين، ويبين النسب بين الضحايا الذين سقطوا في المعارك والذين سقطوا في غير المعارك من جنود فرقة المشاة الثانية والثلاثين وغيرها من الوحدات الأمريكية خلال حملة بونا.

المرض والصحة وحملة بونا غونا

إن أعداد الضحايا المبينة في الجدول (11-1) كاشفة تماماً. ومن الواضح أن الجيش الأمريكي كان يواجه كارثة طبية من حيث معدلات الضحايا الذين سقطوا بفعل أسباب أخرى غير المعارك وفاعلية الوحدات. مرت أوقات لم يكن فيها القادة متأكدين مما إذا كان باستطاعتهم مواصلة القتال لأن معظم الجنود كانوا في المستشفى، أو يعانون ضعفاً شديداً يمنعهم من القتال بصورة فاعلة (Martin 1967). من الممكن شرح أسباب المعدلات المرتفعة جداً من الضحايا الذين سقطوا في غير المعارك، وهي في الواقع مفهومة، نظراً لمعرفتنا بالجغرافيا الطبية والتقنيات الطبية في عام 1942. وتفاقم هذا الضعف عندما صاحبته هذه الظروف البيئة. فالمناخ الحار والرطب للغاية يشكل أرضاً خصبة شبه تامة لتكاثر العوامل المعدية والنواقل التي لم يكن الغربيون قد أصيبوا بها من قبل قط حتى هذه المرحلة (Milner 1989). تشهد بابوا أمطاراً سنوية يزيد معدلها على 342 سنتيمتراً (135 إنشاً)، وقد كافح جنود الحلفاء وتمرغوا في المستنقعات والأدغال على طول الساحل الشمالي خلال ذروة الموسم الماطر. وقد تسببت هذه الأمطار الكثيرة بالإضافة إلى التربة القليلة التصريف والمياه الجوفية المرتفعة المستوى، بتحويل مواقع القتال ومناطق المبيت المؤقت إلى خزانات صرف صحي. ومع مرور الوقت، أصبح جنود الحلفاء معرضين بشكل متزايد للأمراض والعدوى لأن الحرارة الشديدة وانتشار الرطوبة أضعفا أجهزتهم المناعية. إضافة إلى ذلك، في هذه الظروف فإن الجروح الطفيفة سرعان ما كانت تتقيح وتحتاج إلى رعاية طبية شاملة حتى لدى الأفراد الذين يتمتعون بالقدر الأكبر من الصحة (Kahn 1943).

الشكل (11-9)

الجنود والبغال يعبرون ممر كاكودا المنحدر فوق سلسلة أوين ستانلي



المصدر: US Army Photograph.

الجدول (11-1)

خسائر القوات: حملة بونا-غونا (سبتمبر 1942- يناير 1943)

الوحدات القتالية	بداية القوة	قتلى المعارك	وفيات أخرى	جرحى المعارك	المرضى	مجموع الضحايا
فرقة المشاة 32						
مشاة 126	3791	266	39	816	2285	3406
مشاة 127	2734	182	32	561	2813	3588
مشاة 128	3300	138	29	557	2238	2962
فرقة المشاة 41						
مشاة 163	3820	85	16	238	584	923
الإجمالي	**13645**	**671**	**116**	**2172**	**7920**	**10879**

المصدر: Center of Military History (1990).

وتفاقمت هذه الظروف المنهكة نتيجة الفشل اللوجستي والقيادي. وبمجرد أن بدأت مواجهة اليابانيين بالقرب من بونا، كانت قوات الحلفاء في نهاية خط إمدادات لوجستية طويل جداً في منطقة تكاد تنعدم فيها البنية التحتية (انظر الشكل 11-10). وعلى الرغم من أن الجنرال دوجلاس ماك آرثر أمر بعملية النقل الجوي، فإن الغيوم التي تغطي السماء على طول سلسلة أوين ستانلي والأمطار المستمرة، والغابات الاستوائية الكثيفة حدت من فاعليتها (Milner 1989). وكان هناك نقص متزايد في المواد الغذائية والأدوية والمستلزمات الطبية. وأصبحت أهمية معدات تنقية المياه تقريباً بقدر أهمية الدبابات وذخيرة المدفعية في أولويات إمدادات قوات الحلفاء.

استخدمت القبائل المحلية الأنهار على أنها مجاري صرف صحي مفتوحة لوثت كل الجداول تقريباً (Kahn 1943). وبالمثل، كانت المصادر الأخرى للمياه السطحية غير آمنة؛ لأن المياه احتوت على متعضيات البروتوزوا المسببة للزحار الخطير جداً والذي أمكنه تقليص حجم كتيبة قوامها 500 جندي إلى مجرد فصيلة في غضون أيام. وتسببت الأمراض التي تنقلها المياه بسقوط نحو نصف الضحايا الناجمة عن الأمراض خلال هذه الحملة. وكانت الآثار المضاعفة لهذه الظروف كبيرة جداً. فقد كان المعدل الوسطي اليومي للإصابة بالأمراض في صفوف فرقة أمريكية خلال الحرب العالمية الثانية 3.8٪ من قوتها (أي نحو 15000). أما المعدل الوسطي اليومي للإصابة بالأمراض في صفوف الفرقة الثانية والثلاثين خلال حملة بونا-غونا فقد بلغ نحو 24٪. وفي بعض الحالات، كانت الوحدات المقاتلة تخسر 50٪ من قوتها وهي لم تكن بعد قد أطلقت رصاصة واحدة (Center of Military History 1990).

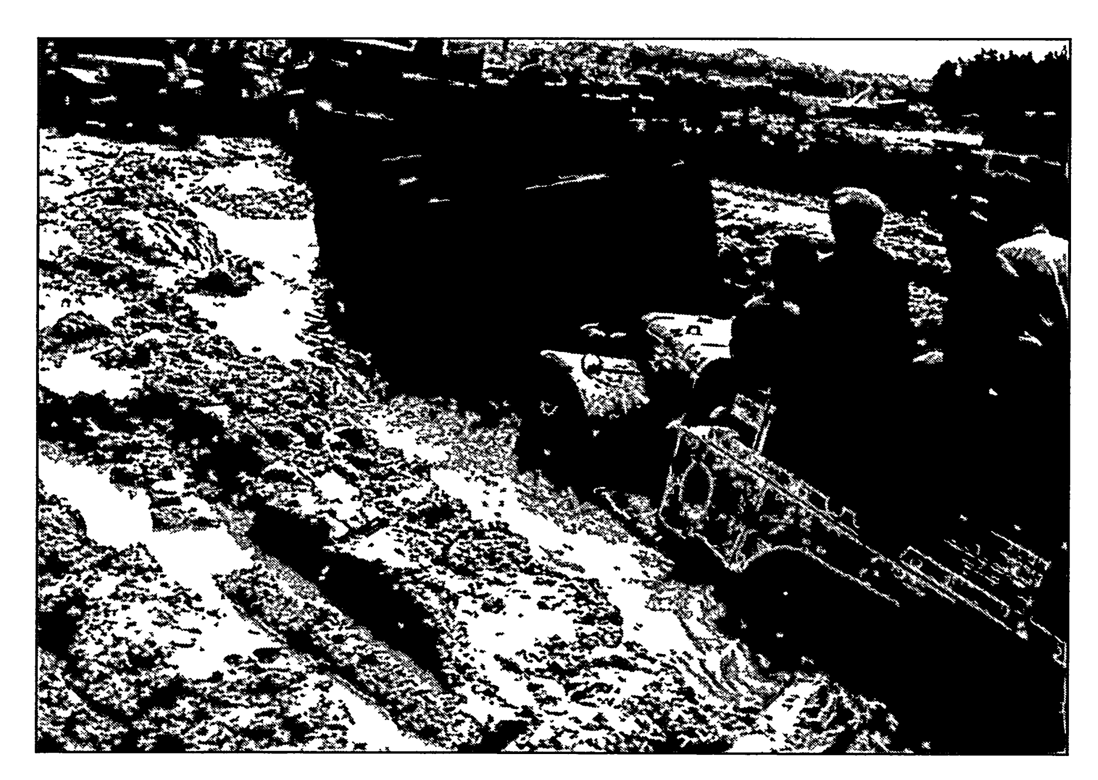
القيادة والمياه والأمراض

في هذا الإطار كان عنصرا القيادة والانضباط حاسمين، ومع ذلك، ارتكب عدد من الهفوات الكبيرة. وكانت ضوابط المياه والنظافة الصارمة ضرورية للغاية، ولكن وقائع الحرب اجتمعت ضد جنود الفرقة الثانية والثلاثين. ومن المعروف أن المعارك تودي بحياة

كثير من صغار القادة، فمع تدهور الأوضاع وتزايد أعداد القتلى من صغار القادة في المعارك، انهار الانضباط في نهاية المطاف. وحتى الأشياء العادية مثل شرب الماء جعلت أعداداً كبيرة من الجنود عديمي الجدوى في المعارك. وتدهورت المعايير الصحية الميدانية مع قضاء هجمات العدو على القادة ذوي الرتب الصغيرة، كما حطمت الظروف البيئية عزيمة الجنود ومعنوياتهم. وهذه النقطة واضحة في مدونات السجل الميداني للكتيبة الثانية من فوج المشاة 128 يوم 12 ديسمبر 1942: «لم يستحم الجنود منذ شهر، أو يرتدوا ثياباً جافة» (Milner 1989: 67).

الشكل (11-10)

عدم وجود طرقات بالإضافة إلى غزارة الأمطار جعل إيصال الإمدادات براً أمراً صعباً خلال حملة بونا. ويظهر في هذه الصورة كيف تكافح قافلة الإمدادات في الطين الذي يصل عمقه إلى أعلى العجلات



المصدر: US Army Photograph.

توقفت أعداد كبيرة من الجنود عن الحلاقة والاغتسال؛ وسرعان ما أصبحت بزاتهم وسخة وقذرة، ولكنهم لم يبدلوها بسبب عدم توافر بزات أخرى نظيفة لديهم. لم تكن المراحيض الميدانية مجهزة بالشكل المناسب، أو في كثير من الحالات لم تكن مجهزة على الإطلاق، مما زاد من تلوث المياه. ومع تدهور وضع إمدادات المياه، بدأ الجنود يشربون مياهاً غير معالجة من الجداول المحلية. وحتى عندما كانت أقراص الكلور تجد طريقها إلى الجبهة، فقد كانت أكياس التخزين الصامدة ضد المياه نادرة، وكانت الأقراص تتحلل قبل أن يمكن استخدامها (Kahn 1943). ولم يمكن إيصال معدات تسخين المياه إلى مناطق القتال الأمامية، ولم يكن لدى الجنود أي وسيلة لتنظيف أدوات الطهو والأكل جيداً. وفي هذا النوع من البيئة الحارة والرطبة، كانت هذه الهفوات ملائمة لانتشار الأمراض الموهنة التي تحملها أو تنقلها المياه. وأصبح الإسهال الحاد المرتبط بالزحار سيئاً جداً إلى درجة أن الجنود مزقوا بناطيلهم من الخلف لأنهم لم يعودوا قادرين على التحكم بأمعائهم (Milner 1989). وفي نهاية المطاف، أصيبوا جميعاً بالجفاف والانهيار الذي يحتاج إلى أسابيع من العلاج في المستشفى.

فشل النظام الطبي والتقانة

كانت حملة بابوا الأولى من نوعها بالنسبة إلى الأمريكيين في الحرب العالمية الثانية. وفي الواقع، أصيب جنود الحلفاء بأمراض مزمنة لم يعرفوها من قبل، فقد شملت المنطقة مجموعة من الأمراض كالملاريا وحمى الضنك والتيفوئيد المداري (الأكالي) والزحار العصوي والأميبي. وازدادت هذه الأمراض تعقيداً بفعل ظروف مثل القرحة المدارية والفطور الجلدية وقدم الرياضي (Milner 1989). وسرعان ما أصبح الجنود أكثر عرضة للإصابة بهذه الأمراض بسبب ضعف أجهزتهم المناعية. وفي معظم الحالات، من الواضح أن الجهاز الطبي لم يكن مستعداً أو في أحسن الأحوال كان مغلوباً على أمره. على سبيل المثال، تم تطعيم جنود الفرقة الثانية والثلاثين ضد التيفوئيد الأوروبي قبل نقلهم إلى بابوا. وهذه كانت مشكلة لأن التيفوئيد المداري هو المرض الذي كان موجوداً في هذه المنطقة، والتلقيح الأولي لم يكن له تأثير في هذا المرض.

شكل المناخ الحار والرطب ملاذاً للنواقل فقد ملأ البعوض والقُراد والبراغيث والذباب المنطقة بأعداد هائلة. والوحدات الأمريكية لم يكن لديها المواد الكافية لصد الحشرات، ولم يكن لديها ما يكفي من الناموسيات، ومن ثم، كان من الصعب عليها كسر دورة المرض عند أدنى وأبسط مستوى لها (Kahn 1943). هذا بالإضافة إلى نقص عام في الكينين Quinine [أول دواء فعال استخدم لعلاج الملاريا] والأتابرين Atabrine [يستخدم مضاداً للملاريا وأيضاً مضاداً للديدان] في المحيط الهادي. وعندما يكون بالإمكان جلب الإمدادات، فإنها سرعان ما تتعطل لأن وسائل مقاومة الماء كانت غير فعالة. وفي بابوا، كانت هذه الحبوب توزع على الجنود في محافظ ورقية صغيرة لم توفر أي حماية في الظروف شبه المشبعة بالماء. أما الأدوية الموجودة لعلاج الملاريا، فكانت تعالج الأعراض فقط؛ مما يجعل الملاريا تعاود المريض بحدة متزايدة تتطلب إجلاء كثير من الجنود. وأخيراً، كانت المستشفيات التي تمكنت من التقدم للأمام تعاني نقصاً في معدات التعقيم، وبالتالي تفشت عدوى المرض بكثرة (Center of Military History 1995).

التغذية

إن القتال في مناخ مداري عمل مرهق. ولا يمكن الحفاظ على صحة الجنود وكفاءة الوحدات إلا إذا تم تزويدهم بالغذاء المناسب وبكميات كافية، ولكن هذا الأمر كان صعباً في بابوا. فنظام الإمدادات لم يكن كافياً في أحسن الأحوال، وكان من الشائع بقاء الجنود من دون طعام لأيام في بعض الأوقات (Martin 1967). كما أن النظام الغذائي المتبع لم يكن مناسباً لتلك الظروف، وطريقة التخزين لم تكن ملائمة. فالمكون الرئيسي للنظام الغذائي كان منتج لحم البقر الأسترالي المعلب الذي كان يسميه الجنود Bully Beef (لحم البقر المعلب). كان هذا الطعام الشهير معلباً بزيت السمك الذي فسد بفعل درجات الحرارة المرتفعة في أدغال بونا وتسبب بحالة الجنود البائسة (Kahn 1943). إلى ذلك، سرعان ما صدئت أطراف اللحام على علب التخزين بسبب الرطوبة الشديدة ما أدى إلى فساد اللحم البقري. وبالتالي، لم يكن أمام الجنود الذين يتضورون جوعاً خيار سوى تناول

الطعام الفاسد والسيئ الذي سبب لهم الزحار والتسمم الغذائي. وكان الجنود الذين سلموا من هذه المشكلات، لايزالون عرضة لأمراض أخرى لأن مقاومتهم العامة ضعفت بفعل سوء التغذية (Milner 1989).

المعدات

في عام 1942، لم يكن لدى الجنود الأمريكيين بزات ومعدات مصممة خصيصاً للبيئات الاستوائية. وكان الزي الموحد لجنود المشاة مصنوعاً من الصوف، وهو غير مناسب بتاتاً لمناخ بابوا. فالصوف يحتفظ بالرطوبة وهو عازل ممتاز؛ وهاتان الخصيصتان غير ملائمتين في الغابة. تم اتخاذ قرار بصباغة بزات جميع الجنود باللون الأخضر المزركش للتمويه (Milner 1989). وقد تسببت هذه الفكرة المنطقية ظاهرياً بصعوبات كبيرة للجنود. أولاً، تحللت ألوان البزات حالما تعرضت للرطوبة والمطر الغزير في غابة بابوا، مما أصاب الجنود بطفح جلدي خطير تحول إلى قروح عميقة. ثانياً، سببت الصبغة انسداد المسام في قماش البزات التي أصبحت لا تطاق في الحر الاستوائي الشديد (Milner 1989). وسرعان ما تبع ذلك إعياء حراري وجفاف حاد.

كما ذكرنا سابقاً، لم تكن أساليب الوقاية من الماء كافية، وكان الجنود يحصلون على الفيتامينات والأدوية الأخرى بمقادير لا تكفي لأكثر من يوم أو يومين، لأن الأدوية سوف تتحلل بفعل رطوبة الجو (Martin 1967). وكان هناك نقص في أهم المواد كالصابون والجوارب والملابس الداخلية ومواد الصحة الفموية ومعدات الحلاقة والكِلل (الناموسيات). ومع تدهور نظام الإمدادات، كانت البزات النظيفة تعتبر من الكماليات التي ليس لها أولوية في ضوء الحاجة الضرورية للذخائر (Milner 1989). وكان هناك نقص في معدات تنقية المياه، مع كونها ثقيلة جداً بحيث لا يمكن نقلها إلى الخطوط الأمامية. أما النتيجة فكانت انخفاض الروح المعنوية وسوء النظافة الصحية التي عمت جميع الرتب على الخطوط الأمامية.

الاستجابة للكارثة الطبية

في مطلع ديسمبر 1942، أدى تأثير الظروف الاستوائية في صحة الجنـود والأمـراض مثل الزحار وحمى الضنك والملاريا مصحوبةً بإمدادات الميـاه الرديئـة وسـوء التغذيـة، إلى إضعاف الفاعلية القتالية لفرقة المشاة الثانية والثلاثين. وفي معظم الحالات، تقلص حجـم السـرايا التي كانت تضم 250 جندياً إلى حجم فصائل. وقد دوّن قائد الكتيبة الثانية التابعة لفـوج المشـاة رقـم 128، في السـجل التـاريخي لوحدتـه أن «جميـع الرجـال تبـدو علـيهم مؤشـرات أكيدة على الإعياء والمـرض» (Milner 1989: 68). وفي الأسـبوع الثالـث مـن ديسمبر 1942 كانت الفرقة شبه عاجزة عن القتال.

كانت تلك هي المرحلة التي تـدخّل فيهـا إل. تي. جـي. إتشـلبيرجر Eichelberger (قائد الفيلق الأول) ووضع سياسات لا هوادة فيها بخصوص النظافـة والبـزات، بهـدف تحسين الصحة والانضباط ورفع الروح المعنوية لجنـود المشـاة المحاصـرين. فقـد فـرض شـروط الحلاقة والاستحمام، وعمل على تحسين الإمدادات لضمان حصـول جنـوده عـلى كميات كافية من المياه النظيفة والطعام الساخن الجيد والملابس النظيفة. وضاعف الجهـود لنقل المساعدات جواً إلى منطقة القتال، وطالب بتحسين الطرق لتتـيح للسـيارات إيصـال الوجبات الساخنة إلى الخطوط الأمامية، فكان لهذه التدابير تأثير شبه فوري في كـل قـوات فرقة المشاة الثانية والثلاثين.

وفي مطلع يناير، استعادت الفرقة القوة الكافية على الأقل لدحر القوات اليابانية أثناء بعثة بونا. ورغم أن إتشلبيرجر تمكن من تخفيف الآثار التعجيزية لضـعف إمـدادات الميـاه ومعايير النظافة المخيفة ومشكلات التغذية، فإنه لم يجد حلاً لعدد كبير من العوامل المعديـة في المنطقة. واستمرت أمراض كالملاريا والحمى التيفية (التيفوئيد) وحمى الضنك في إصابة الجنود إلى أن تم تحسين تقنياتنا ومعارفنا الخاصة بالجغرافيا الطبية.

الخلاصة

غالباً ما نلاحظ أن الحرب في بابوا كانت حرب وحْل وجبال وملاريا وبعوض. وكانت تكلفة الاستيلاء على بونا هائلة رغم أن حصيلة قتلى وجرحى الاشتباكات مع العدو كانت صغيرة نسبياً. فحرب بابوا استمرت لسنة أخرى حتى تم تطهير الجزيرة في سبتمبر 1943. ولكن بحلول ذلك الوقت كانت المعدات والطب ومعرفتنا ببيئة الأمراض قد تحسنت إلى درجة أن الكارثة الطبية الوشيكة التي حدثت في بداية عمليات القتال بالقرب من بونا لم تتكرر.

العمليات القتالية صعبة وبيئة العمل العسكري (أي التضاريس والمناخ والطقس والمشهد الثقافي) تؤكد كذلك على الحاجة إلى قدرة الإنسان على التحمل وفاعلية الوحدة. ويمكن للأمراض أن تقوض فاعلية الوحدة حتى قبل الاشتباك الناري مع العدو، كما أن حماية القوات تشكل جانباً مهماً من جميع العمليات. ورغم أن حملة بونا-غونا تبدو صارمة، فإنها حالة نموذجية فعلاً. فعلى سبيل المثال، على مسرح منطقة الصين-بورما-الهند خلال الحرب العالمية الثانية، بلغت نسبة الضحايا نتيجة الأمراض 90٪ من إجمالي ضحايا الحرب جميعاً. وبالمثل، على المسرح الجنوب الغربي للمحيط الهادي، بلغت نسبة ضحايا الأمراض 83٪ من إجمالي ضحايا الحرب، ورغم التحسينات الواسعة التي حققناها في مجال التقنيات الطبية والوعي الجغرافي، فقد بلغت نسبة الخسائر التي حصدتها الأمراض 67٪ من إجمالي الخسائر المتكبدة في فيتنام. وكما يظهر بوضوح كبير في هذه الدراسة الخاصة بالحملة للاستيلاء على بونا-غونا، فإن الجغرافية العسكرية تتعلق وبشكل أساسي بالعمليات العسكرية ضمن أي سياق كان.

الفصل الثاني عشر

جغرافية الحرب البرمائية

فرانسيس جالجانو

مقدمة

في 15 سبتمبر 1950، عكس فيلق إكس كوربس X Corps الأمريكي تيار الحرب الكورية بحركة تحول حاسمة في إنشون في كوريا. ولعل عملية كرومايت Chromite كانت حركة التحول البرمائية الأكثر حسماً في التاريخ العسكري. ولكن رغم نجاحها المذهل، كانت عملية الإنزال محفوفة بالمخاطر. ربما كانت العمليات البرمائية هي العمليات الأصعب من حيث التخطيط والتنفيذ، ومن المؤكد أن عملية كرومايت لم تكن استثناءً لأن الأمريكيين اضطروا إلى التغلب على ظروف المد والجزر المعقدة والصعوبة في قياس الأعماق والشواطئ الرديئة. ولكن، ولهذه الأسباب بالتحديد، لم يفكر الكوريون الشماليون أساساً بالإنزال هناك. وبالتالي، فإن عملية إنزال ناجحة في إنشون من شأنها أن تسفر عن نتائج عملياتية لا حصر لها. لم يكن من المتوقع أن يفكر الجنرال دوجلاس ماك آرثر في هذه الجوانب، ولعله كان القائد العسكري الوحيد في أيامه الذي يتمتع بالخبرة والمؤهلات لتنفيذ هذه العملية بنجاح رغم صعوباتها الجغرافية.

وتعرضت عملية الإنزال لصعوبات جغرافية كبيرة كان من شأنها أن تصد الجميع ماعدا القادة العسكريين الأكثر إقداماً. وقد فهم ماك آرثر المزايا الكامنة التي تتعلق بالعمليات البرمائية والتأثير المدمر الذي تخلفه حركة التفافية عميقة ضد عدو مطمئن. وبموجب هذا التوجيه، تم تخطيط العملية على أعلى المستويات وتم إسنادها إلى تعاون من الدرجة الأولى بين القوات البرية والبحرية والمارينز والتي وثق ماك آرثر بها خلال حملاته

المتنقلة بين الجزر ضد اليابانيين (Utz 1994). وتعلّم واضعو الخطط لديه عملهم خلال الحرب العالمية الثانية وكانوا على درجة عالية من المهارة. وبين خبرتهم ورباطة جأشه، بدا نجاح العملية محققاً لو أمكن استغلال المد والجزر في توقيت عملية كرومايت (Weintraub 2000).

هذا الاستعراض هو مثال عن الجغرافيا العسكرية عبر التاريخ موضحةً في إطار استراتيجي وعملياتي. وسوف ندرس في هذا الفصل الاعتبارات الجغرافية التي تؤثر في العمليات البرمائية. وسوف يوضح هذا التحليل الجغرافي لعملية كرومايت كيف تدفع جغرافية عمليات الإنزال البرمائية نحو اتخاذ القرارات الاستراتيجية. ويهدف هذا الفصل إلى إيضاح تأثير مجموعة فريدة من المشكلات المرتبطة بالعمليات في المنطقة الساحلية، وأثرها على العمليات العسكرية.

العمليات البرمائية

يجتمع على الشاطئ ثلاثة مجالات جغرافية؛ مما يجعل من منطقة التقاء البر والبحر من أكثر البيئات دينامية على الكرة الأرضية. ومن ثم، فإن هجوماً برمائياً على شاطئ محمي ربما يكون العملية الأكثر صعوبة من بين العمليات العسكرية (Brown 1992). فخلال هجوم برمائي، يعبر الطرف المهاجم خط التماس على الشاطئ بعد مقارعة ظروف البحر الهائج والأمواج والتيارات ومجموعة من المشكلات المائية الأخرى، ومن ثم، لا بد من أن يدخل المهاجم في مواجهة مباشرة مع العدو على شاطئ مفتوح.

يتمثل الواقع الجغرافي للحرب البرمائية بوجود عدد محدود من الشواطئ المناسبة للإنزال، ولهذا فإن المُدافع بشكل خاص يتمتع بالأفضلية من حيث الزمان والمكان. والمدافع يعرف ظروف الأرض والمياه، في حين تكون معلومات المهاجم ناقصة في العادة. ويتمتع المدافع عادةً بمزية الوقت، ولذلك فإنه يستطيع إعداد دفاعاته بتحصينات مدروسة وبوضع كثير من العوائق (Brown 1992). في حين تقتصر خيارات المهاجم

على عمليات تتم خلال فُسَح ضيقة من الزمن عندما تكون ظروف المد والجـزر والأمـواج ملائمة للقيام بعملية إنزال. ومما يزيد تعقيدات ذلك حقيقة أن المهاجم يكـون تحـت رحمـة أحوال الطقس.

وعلى الرغم من أن العوائق الطبيعية تجعل عمليات الإنزال البرمائي خطـيرة بطبيعتهـا، فإن هذه العمليات تمنح المهاجم ثلاث مزايا رئيسية. تتمثل الأولى بأن القـوة المهاجمـة تتمتـع بإمكانية حركة لا مثيل لها؛ مما يجبر المدافع على تحصين خط ساحلي طويـل جـداً. والثانيـة أن المبادرة تكون بيد المهاجم الذي تمكنه الاستفادة من عنصـر المفاجـأة. فمزيـة أنـه قـادر عـلى الظهور بشكل غير متوقع من الأفق والنزول بسـرعة عـلى شـاطئ طويـل، لا تمكـن المبالغـة فيها. والأخيرة، أن قوة التغطية البحرية تستطيع تحييد أقوى التحصينات.

وكثيراً ما عززت الوحدات البرمائية الأمريكية هذه المزايـا إلى أقـصـــى حـد، حيـث أنجزت طريقة برمائية خلال الحرب العالميـة الثانيـة، وتكـرر اسـتخدام هـذه الطريقـة في إنشون. ويبدو أن ماك آرثر استوعب هذا عندما أصـر على بقاء إنشـون هـدفاً عملياتيـاً في عملية كرومايت في الوقت الذي حاول فيه الجميع تقريباً إقناعه بالعدول عن عملية إنـزال خطيرة كهذه (Utz 1994).

أشكال الحرب البرمائية

العمليات البرمائية هي في جوهرها مساعٍ مشتركة تتطلـب التكامـل بـين الوحـدات البحرية والبرية والجوية. وتعرف بأنها هجمات تشـنها القـوات البحريـة وقـوات الإنـزال انطلاقاً من البحر ضد شاطئ العدو (Department of the Army 1993)، وتتم لتحقيـق ثلاثة أهداف: 1) مواصلة تنفيذ مزيد مـن العمليـات البريـة؛ و2) الحصـول عـلى قواعـد ومراسٍ للعمليات المستقبلية؛ و3) منع العدو من الحصول على قاعدة أو منطقة.

ويمكن تقسيم العمليات البرمائية إلى خمسة أنواع مـن العمليـات المختلفـة: الهجـوم والإنزال والانسحاب واستعراضات القوة والغارات. ويعـد الهجـوم العمليـة الأصـعب

والأكثر تكلفة من بينها جميعاً. فالهجوم البرمائي عبارة عن عملية إنزال تكتيكي على شاطئ محمي. وفي هذا النوع من العمليات، يدافع العدو عن الشاطئ، ويكون خط الشاطئ هو خط التماس. وفي المقابل، فعملية الإنزال البرمائي عملية لا جدال فيها وتتم ضد خط ساحلي غير محمي، ويكون خط التماس هو المسافة الممتدة قليلاً إلى داخل البر (Miller 1989).

ولعل دنكيرك المثال الأشهر على عملية انسحاب برمائي (Polmar and Mersky 1988). ففي هذا النوع من العمليات، يتم العمل البرمائي لاقتلاع قوة ما. ويتم استعراض القوة البرمائية لخداع عدو ما، وبالتالي لا يمكن اللجوء إليها ضد عمليات في مكان آخر. فاستعراض القوة الذي قامت به فرقة المارينز قبالة شواطئ دولة الكويت خلال حرب الخليج عام 1991 أمام تمركز قوات الاحتياط العراقية الضخمة هو مثال تقليدي على هذا النوع من العمليات (Department of Defense 1992).

وأخيراً، تتم الغارات البرمائية ضد أهداف برية لغرض جمع المعلومات الاستخبارية وتدمير أهداف حيوية وخداع العدو. والصعوبة الأساسية في الغارة البرمائية هو أن قوة الإنزال ليس مقرراً لها البقاء على الشاطئ حال إتمام المهمة. ولعل الغارة التي شنتها فرقة كندية على مدينة دييب في عام 1942 من أشهر الأمثلة على هذا النوع من العمليات (Polmar and Mersky 1988).

خصائص العمليات البرمائية

تتميز العمليات البرمائية، نظراً لتعقيدها، بخصائص فريدة ليست موجودة في أي نوع آخر من العمليات العسكرية. ومما لا يثير الدهشة أن الجغرافيا تؤدي دوراً حاسماً فيها. فالقوة المهاجمة مكتفية ذاتياً بحكم الضرورة، ويجب أن تكون قادرة على العمل بشكل مستقل. ولهذا السبب تعتبر المسافة عاملاً رئيسياً فيها. وغالباً ما يتم نقل قوة برمائية إلى مسافة تبلغ مئات وأحياناً آلاف الأميال بعيداً عن قاعدتها. مثلاً، خلال عملية "تورش"

في نوفمبر 1942، تم نقل الوحدات البرمائية الأمريكية من نورفولك في فيرجينيا عبر المحيط الأطلسي لتنفيذ عملية إنزال في شمال أفريقيا الفرنسية (Morrison 1960).

ومن ثم، فإن التفوق الجوي والبحري شرط أساسي، لأن قوة الإنزال يتم نقلها في العادة على متن سفن بطيئة نسبياً ومدرعة بشكل خفيف. على سبيل المثال، كان جل تركيز معركة بريطانيا التي جرت أحداثها في صيف عام 1940 هو تدمير القوة الجوية الملكية حتى يتمكن الجيش الألماني من عبور بحر المانش (Addington 1984). وهكذا، فإن معظم العمليات البرمائية تتم فقط تحت غطاء قوة جوية صديقة. وتم اختيار مدينة أنزيو شاطئاً للإنزال في عملية "شينغل" خلال يناير 1944 مع أن تشيفيتافيكيا كانت موقعاً أفضل للإنزال، ويرجع سبب ذلك جزئياً إلى أن أنزيو أمكنت تغطيتها من قبل طائرات الحلفاء (Galgano 1993).

وأخيراً، من المزايا المهمة للعمليات البرمائية التحليل المفصل للتضاريس. وفي هذه الحالة، تشمل التضاريس سطح البحر وقاع البحر والشاطئ والمناطق الداخلية. وأي عملية إنزال ناجحة، يجب أن تأخذ في الاعتبار الأمواج والمد والجزر وقياس الأعماق وقاع البحر والمنحدر الشاطئي ونوع الرواسب والتيارات الشاطئية والطقس والأرض في ما بعد الشاطئ. والتاريخ غني بالأمثلة التي كافحت فيها قوات الإنزال ضد عناصر الطبيعة. فعلى سبيل المثال، أخطأ خبراء الخطط البحرية خطأً فادحاً في تقديرهم للمد والجزر في تاراوا، وكادوا يتهورون بإحداث كارثة (Russ 1975).

الطريقة البرمائية: وجهة نظر جغرافية

رسخت الطريقة البرمائية التي تم استخدامها في إنشون، خلال فترة ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى (Morrison 1963). والحرب البرمائية كما نعلم تم تطويرها وتحسينها على يد مشاة البحرية الأمريكية خلال فترة ما بين الحربين. ومع أننا نعتبر المهمة المؤقتة لمشاة البحرية الأمريكية بصفتها قوة برمائية أساسية أمراً مفروغاً منه، فإن الحال

ليست كذلك دائماً. وتم تنظيم هذا الدور في القانون بموجب قرار من مجلس الجيش والبحرية المشترك عام 1927، والذي نص على أن مشاة البحرية (أو المارينز) ستؤيد تطوير مبدأ «للعمليات البرية دعماً للأسطول في سبيل الأمن والدفاع الأولي عن القواعد المتقدمة وفي سبيل عمليات الإنزال المساندة باعتبارها أساسية لمتابعة الحملة البحرية» (Parker 1970: 47).

كانت الطريقة البرمائية التي طورتها قوات المارينز خلال فترة ما بين الحربين هي الطريقة الأكثر تطوراً من نوعها، وكانت تقوم على دراسة دقيقة لجغرافية الشواطئ والجزر في منطقة المحيط الهادي. وخلال السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الثانية، قاموا بتدريبات إنزال في مناطق جغرافية متنوعة تشمل الجزر المرجانية وشواطئ البر الرئيسي والجزر التي تشكل حواجز (Parker 1970). ونتج من ذلك، الطريقة البرمائية بالإضافة إلى خطط تفصيلية للمعدات والأسلحة المتخصصة وتكتيكات لدعم عمليات الاستيلاء على الشواطئ ذات الدفاعات الكثيفة (Costello 1981). وقد تبنى الجيش هذه الطريقة (أي قوة مشاة البحرية عامي 1934، 1944) وجرى تطويرها إلى حد كبير خلال الحرب العالمية الثانية، وربما كانت إنشون هي خاتمة هذه الطريقة (Knox 1985).

الخلفية والتطور

يعتبر مفهوم الهجوم البرمائي ضد السواحل المحصنة مبدأً راسخاً بقوة، ولكن الحال لم تكن كذلك دائماً. فبعد الحرب العالمية الأولى، كان هناك شك كبير بخصوص الهجمات البرمائية؛ ولذلك، كانت قوات مشاة البحرية مضطرة إلى التغلب على الجمود المهني الكبير (Parker 1970).

وكان الاعتقاد السائد بين المهنيين العسكريين في عام 1918 أن احتمالات نجاح عملية إنزال ناجحة على شاطئ محصن كانت محط شكوك قوية (Brown 1992). وكانت هناك أمثلة تاريخية كثيرة تؤيد هذا الاعتقاد. وكان المنطق الشائع يقول إن دقة الأسلحة

الحديثة وقوتها وسرعة إطلاقها للنيران جعلت عملية القتل فعالة للغاية في إنجاح هجوم برمائي. وتعززت هذه الآراء بعد الحرب العالمية الأولى، حيث استوعب الحلفاء كارثة جاليبولي التي أثبتت الموقف السائد بأن الهجوم البرمائي في مواجهة قوة نارية حديثة أمر ميئوس منه (Addinton 1984). فقد انتهت حملة جاليبولي بالفشل وكبدت الحلفاء في نهاية المطاف 252000 ضحية بين قتيل وجريح (Brown 1992). ورغم أن الهجمات الأولية كانت ناجحة إلى حد ما، فقد كُبح جماح قوات الحلفاء على الشواطئ ونشبت حرب استنزاف طويلة خلال الفترة ما بين مارس 1915 ويناير 1916. وبعد الحرب، أعلنت المطبوعات المتخصصة في بريطانيا أن العمليات البرمائية قد عفا عليها الزمن. وأشارت الأدبيات المتخصصة في الولايات المتحدة إلى أن معظم المختصين في المجال العسكري كانوا يشكون في الإمكانية المستقبلية للهجمات الشاطئية في ظل فشل جاليبولي (Weigley 1973).

ولكن في مطلع عقد العشرينيات من القرن العشرين، كانت مشاة البحرية تسعى لمهمة محددة، وكانت نظرتها ناقدة لعملية جاليبولي. وكانت على شفا انقراض مالي حيث كان الكونجرس يتطلع إلى إجراء تخفيضات كبيرة في الميزانية العسكرية بعد الحرب العالمية الأولى (Brown 1992). ومع أنها ليست مهمة رسمية، لطالما تولى مشاة البحرية واجب تأمين القواعد الأمامية للأسطول. فقيادة المارينز (وتحديداً القائد، اللواء جون آرتشر ليجيون) اعتبرت هذه المهمة مبرراً جديداً لوجودهم في ظل التهديدات المحتملة في المحيط الهادي، وبدأت بإجراء مراجعة ناقدة لعملية جاليبولي.

كانت دراسة جاليبولي ناجحة جداً، وقد أثبت عديد من مطبوعات البحرية وبدقة أن إدارة عملية جاليبولي كانت سيئة للغاية ولا تصلح درساً موضوعياً، إلا في ما يخص كيفية عدم القيام بعملية برمائية (Weigley 1973). وبدأت مجموعة تقدمية من مشاة البحرية بقيادة المقدم البحري كارل إي. إليس، والتي اعتبرها معظمهم أم الطريقة البرمائية الأمريكية الحديثة، بالكتابة وإلقاء المحاضرات حول موضوع الهجمات البرمائية في مطلع

عقد العشرينيات من القرن العشرين. واستفادت هذه الجهود من انتشار الوعي بأن اليابان كانت عدواً خطيراً محتملاً، وكانت الاستراتيجية بحاجة إلى التعامل مع صراع مستقبلي في المحيط الهادي. واقترح إليس بأنه «سيكون من الضروري لنا إطلاق أسطولنا وقوة الإنزال عبر المحيط الهادي وشن حرب في المياه اليابانية» (Parker 1970: 46). وقد لقي هذا الرأي قبولاً أوسع في البحرية لأن قيادتها توصلت إلى نتائج مماثلة.

بين الحربين: خطة أورانج

بذل بعض المفكرين المحنكين أمثال الرائد إليس واللواء ليجيون جهوداً كبيرة في نفض غبار النسيان عن سلاح مشاة البحرية، بالإضافة إلى التقييم الاستراتيجي لحرب مستقبلية مع اليابان. وبعد الحرب العالمية الأولى، طوّر مجلس الجيش والبحرية المشترك ما سمي بخطة أورانج لوضع استراتيجية خاصة بالحرب ضد اليابان. وعندما وضعت الخطة، اتضح أكثر أن جغرافيا المحيط الهادي كانت عاملاً حاسماً. فالعدد الذي لا يحصى من الجزر والأرخبيلات التي انتشرت على مساحات واسعة من المحيط كانت هي التضاريس الرئيسية، ويتعين الاستيلاء عليها إذا أرادت الولايات المتحدة تحقيق النصر (Brown 1992). وصورت خطة أورانج الأصلية أن الحرب ضد اليابان ستتم على مرحلتين: 1) عملية إعاقة تنفذها قوات الحامية الأمريكية في أراضي الجزر البعيدة؛ و2) الهجوم المضاد الذي يشق الأسطول في أثنائه طريقه عبر المحيط الهادي لتخفيف العبء عن القوات المحاصرة، واستعادة الجزر التي تمت خسارتها، والوصول إلى ذروة الحرب بعملية يشنها الأسطول ضد اليابانيين (Weigley 1973).

إلا أن الواقع الجغرافي للحرب في المحيط الهادي بدأ بتغيير طريقة تفكير المخططين الاستراتيجيين بسبب قلة القواعد بين هاواي ومانيلا لدعم تقدم الأسطول باتجاه الغرب، ولأن المسافات العملياتية كانت شاسعة. فالمسافة بين سان فرانسيسكو وميناء بيرل تبلغ 2000 ميل، والمسافة من ميناء هاربر إلى طوكيو هي 3400 ميل. فمن دون وجود قواعد ومراسٍ على طول الطريق، لم تتمكن البحرية من التفكير في القتال عبر تلك المسافات

(Weigley 1973). وعلاوة على ذلك، فقد كان اليابانيون يسيطرون على عدد من الجزر على طول محور التقدم المقصود. ولذلك، بدأ التركيز بحدة على فكرة استخدام المارينز للاستيلاء على جزر العدو حيث عمل الجنرال ليجيون عام 1921 على تلخيص المعضلة الجغرافية كما يلي: «يوجد على كلا جانبي أسطول يعبر المحيط الهادي عديد من الجزر التي تناسب العدو لاستخدامها لنصب محطات لاسلكية أو قواعد جوية أو قواعد غواصات أو مدمرات» (Parker 1970: 47).

عملت ألعاب الحرب التي صممت لتقييم خطة أورانج على تغيير الآفاق المستقبلية الاستراتيجية في مطلع عقد العشرينيات من القرن العشرين. فقد أثبتت وجود أمل ضئيل في أن الحاميات الموجودة على الجزر النائية في المحيط الهادي ستتمكن من الصمود لمدة طويلة من الزمن في حال قرر اليابانيون الهجوم. وبالتالي، تحولت الخطط بسرعة إلى فكرة أن اليابانيين سيستولون على هذه الجزر ويسيطرون عليها، وبالتالي، ستتعين استعادتها إذا أرادت الولايات المتحدة أن تتقدم بأسطولها إلى داخل المياه اليابانية (Weigley 1973). ودلت الألعاب الحربية على أن خسائر الأسطول لن تكون مقبولة إذا حاولت الولايات المتحدة استعادة منطقة غرب المحيط الهادي من دون تأمين الجزر الواقعة تحت سيطرة العدو على طول الطريق (Weigley 1973).

ولذلك، تطورت خطة أورانج وتم تجاهل المعركة البحرية الهائلة التي كان من المتوقع أن تحسم الحرب. وتبنى المخططون بدلاً من ذلك طريقة جديدة، وهي أنه «يجب أن يتم التقدم العسكري والبحري نحو الشرق الأقصى من خلال عملية تطهير تدريجي يتم خلالها الاستيلاء على جميع الجزر الموجودة على طول الطريق واحتلالها عند المرور بها» (Weigley 1973: 254). دعت خطة أورانج الجديدة إلى استراتيجية التنقل بين الجزر لتأمين – أو الاستيلاء على – الجزر بوساطة الهجوم وإنشاء قواعد جوية ولوجستية ومراسٍ فيها من أجل تقريب القوات البحرية إلى مسافة تمكنها من ضرب اليابان. وأوكلت مهمة تنفيذ هذه الحملة والتنقل بين الجزر إلى مشاة البحرية؛ لأنهم على ما يبدو كانوا الأنسب لهذه المهمة بالتحديد، وكانوا أصلاً يفكرون في ذلك الاتجاه (Parker 1970).

باشر الرائد إليس سلسلة من الدراسات التي تتناول جدوى الاستيلاء على شاطئ بالهجوم. وكان تركيزه بطبيعة الحال منصباً على المحيط الهادي، حيث فرض الواقع الجغرافي للأنواع المختلفة من الجزر مجموعة جزئية فريدة من المشكلات على قوات المارينز. كان هناك كثير من الجزر الصغيرة جداً بحيث تكاد تنعدم إمكانية خداع العدو حول مكان وقوع الهجوم الرئيسي، مما يستدعي تطوير تكتيكات متخصصة وأسلحة وزوارق إنزال (Weigley 1970). علاوة على ذلك، اضطروا إلى التفكير بالهجوم ضد الجزر المرجانية والجزر البركانية الموجودة ضمن منظومة قوس الجزر وشواطئ البر الرئيسي على الجزر الأكبر، مثل أوكيناوا واليابان نفسها. وقد فرض كل نوع من الجزر تحديات جغرافية مختلفة.

أثبت إليس أنه مفكر لا يكل ولا يمل وثاقب البصيرة. فخلال مطلع عقد العشرينيات من القرن العشرين، جاب جزر المحيط الهادي وجمع المعلومات عن التضاريس والهيدروغرافيا [علم وصف المياه]، ووضع نظريات جديدة حول الهجمات البرمائية. وأرسى أساساً راسخاً لتطوير الطريقة البرمائية (Brown 1992). وفي عام 1921، نشر ورقة تتناول كيفية استعادة جزر المحيط الهادي. وقد تلقى توجيهاً من الجنرال ليجيون لإجراء دراسة مفصلة لتقييم الطريقة والتكتيكات والمعدات اللازمة لمواصلة حرب برمائية (Parker 1970). ولكن للأسف، توفي إليس بطريقة مشبوهة نوعاً ما في عام 1923 في حين كان في جولة على جزيرة بالاو التي كان يسيطر عليها اليابانيون. ومع ذلك فقد أثبتت مؤلفاته أنها نقطة تحول مهمة بعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاماً ستؤدي إلى تطوير الطريقة التي أفضت في نهاية المطاف إلى الفوز بحرب المحيط الهادي (Costello 1981; King 1946).

عملية كرومايت (سبتمبر 1950)

تمت عملية الإنزال البرمائي في إنشون بتاريخ 15 سبتمبر 1950 من قبل فيلق إكس كوربس الأمريكي، وغيرت العملية مجرى المعركة عندما بدت الأمور أكثر كآبة بالنسبة إلى

قوات الأمم المتحدة. وقبل عملية الإنزال، سيطرت قوات كوريا الشمالية تقريباً على كامل شبه الجزيرة الكورية باستثناء محيط صغير قدره 140 ميلاً حول مدينة بوسان المعروف باسم "محيط بوسان" (انظر الشكل 12-1). وبنجاح الجنرال ماك آرثر في عملية الإنزال في إنشون، قطع خطوط الإمدادات الكورية الشمالية ودفع الغزاة للاتجاه شمالاً، وربما أنقذ قوات الأمم المتحدة من الإبادة (Appleman 1992).

وصف الجنرال ماك آرثر عملية الإنزال في إنشون بأن فرص نجاحها كانت 5000/ 1. وقال أرلي كابس، وهو ضابط تخطيط في هجوم إنشون البرمائي: «وضعنا قائمة بكل عائق طبيعي ممكن تصوره، وقد تضمنت إنشون كل تلك العوائق» (Utz 1994: 16). وكان العائق الأكبر هو نطاق المد والجزر البالغ 32 قدماً في إنشون، وزاد في صعوبته وجود قناة متعرجة تتسم بتياراتها الغدارة، والمسطحات الطينية الواسعة والشواطئ السيئة والكواسر البحرية الضخمة. ووقف إلى جانب ماك آرثر فريق تخطيط برمائي ذو كفاءة عالية بالإضافة إلى عنصر المفاجأة المطلقة. أدى الهجوم البرمائي إلى استعادة سيئول وقطع خطوط اتصالات كوريا الشمالية بشكل تام وسحق الهجوم الذي شنته في الجنوب. لقد أصابت الحركة الالتفافية في إنشون جيش كوريا الشمالية بالشلل التام (Center of Military History 1989).

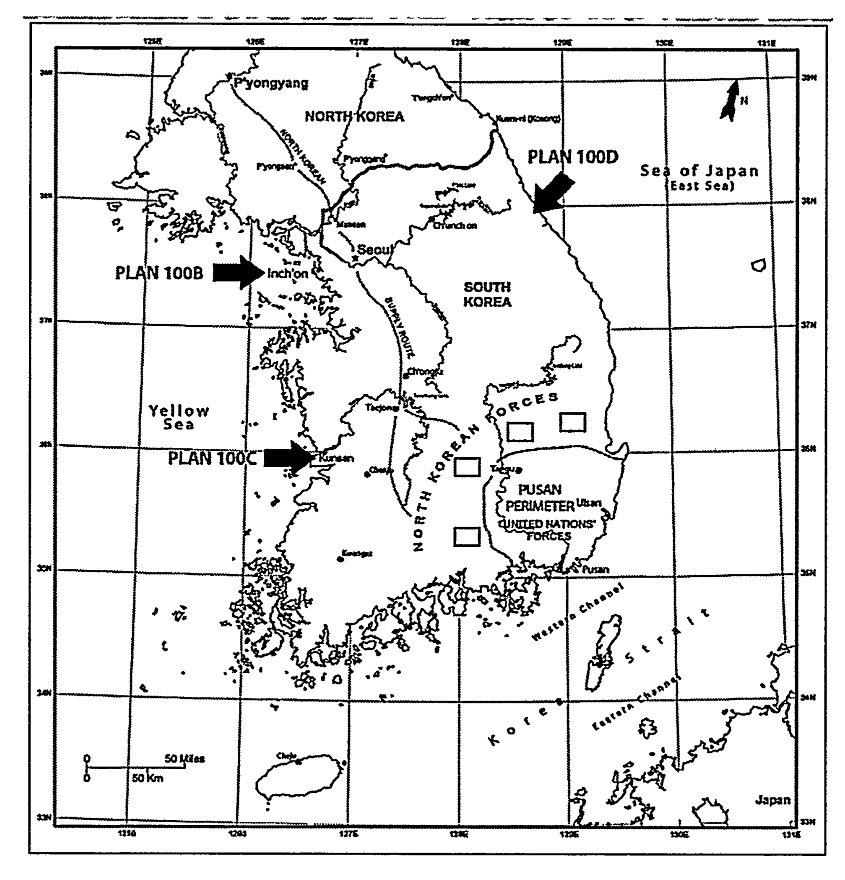
عملية بلوهارتس: التخطيط المبكر

قام ماك آرثر بتوجيه عملية التخطيط لهجوم برمائي ضد كوريا الشمالية خلال الأسابيع الأولى من هجومهم، لأنها كانت أقوى وسيلة تكتيكية في متناول يديه (Appleman 1992). وكانت خطته الأصلية، وهي عملية بلوهارتس، تدعو إلى إنزال برمائي بعد تقدم القوات الكورية الشمالية بتاريخ 22 يوليو 1950، إلا أنه تم التخلي عن ذلك بسبب تسارع وتيرة هجوم كوريا الشمالية، ونقل مزيد من الوحدات الأمريكية إلى شبه الجزيرة. وبقي ماك آرثر من دون رادع مركزاً على احتمالات القيام بحركة التفافية برمائية في العمق لقطع خطوط الاتصالات الخاصة بقوات كوريا الشمالية. وبأوامر صادرة

عنه، حشد العقيد دي إتش جالواي فريقاً من المخططين ذوي الموهبة الاستثنائية لإعداد خطط للحالات الطارئة. وخلال الأسابيع الأولى من يوليو 1950، وضع الفريق مجموعة من الخطط التفصيلية وأعيدت تسمية العملية بـ"عملية كرومايت" (Utz 1994).

الشكل (12-1)

خريطة الوضع



المصدر: مستمدة من: Knox (1985).

دعت عملية كرومايت إلى تنفيذ إنزال برمائي خلال شهر سبتمبر؛ هدفه الرئيسي الاستفادة من أحوال المد والجزر وهدوء البحر (Center of Military History 1989). وقدم فريق جالواي ثلاث خطط مختلفة: الخطة B100 دعت إلى عملية إنزال في إنشون يصاحبها في الوقت ذاته هجوم مضاد يشنه الجيش الثامن إلى الشمال من محيط بوسان.

والخطة C100 اقترحت عملية إنزال في كونسان على الساحل الغربي لشبه الجزيرة، وهو أقرب بكثير إلى محيط بوسان. أما الخطة D100، فقد دعت إلى عملية إنزال على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة الكورية في تشومونجين (انظر الشكل 12-1). وعلم المخططون بأن ماك آرثر فضّل عملية إنزال في إنشون، باعتبارها كانت الأكثر تطوراً بين الخطط الثلاث (Weintraub 2000). وفي 20 يوليو 1950، اختار ماك آرثر الخطة B100 لأن إنشون هي الموقع الأهم بحسب تقديره.

إن النجاح المفاجئ لهجوم كوريا الشمالية مصحوباً بقلة الوحدات الأمريكية المستعدة للقتال قلص من حظوظ كرومايت. وخصص ماك آرثر أصلاً فوج البحرية الخامس والفرقة الثانية مشاة من أجل عملية كرومايت. ولكن النكسات التي حصلت على شبه الجزيرة أجبرتهم على الالتزام بالخطوط الأمامية في أواخر يوليو. وبالمثل، فقد أُجبرت فرقة الفرسان الأولى على البقاء على الجزيرة مع استمرار القوات الكورية الشمالية بالتقدم جنوباً (Appleman 1992). ورغم هذه التغيرات، استمر ماك آرثر بالتشجيع على عملية الإنزال.

تم حشد فيلق إكس كوربس في اليابان باعتبارها مقراً للقيادة العامة لعملية كرومايت في يوليو. وتم تشكيل الفيلق من نخبة المخططين للعمليات البرمائية في قيادة الشرق الأقصى. والتفت ماك آرثر على مضض إلى الفرقة السابعة مشاة، وهي آخر وحدة أمريكية في اليابان لم تكن مرتبطة بعمليات، ولكنها كانت فرقة بالاسم فقط. فقد قامت بواجب الحامية في اليابان ولم تكن مدربة جيداً. كما كانت تعمل بنصف قوتها فقط بسبب تجريدها من جنودها الذين تم تعيينهم للخدمة بدلاء. فأعاد ماك آرثر تشكيل الفرقة حيث أضاف إليها 8600 جندي من الكوريين وبدلاء انتقاهم من الوحدات الأمريكية. وكانت الفرقة الأخرى في عملية كرومايت هي فرقة المارينز الأولى التي تم تشكيلها على عجل (Appleman 1992). وبذل عناصر ماك آرثر جهوداً جبارة وقاموا بجمع الإمدادات ونحو 230 سفينة لنقل القوات الغازية، وفي نهاية المطاف بدا أن عملية الإنزال ستتم.

جغرافية إنشون

كان الموقع النسبي هو الاعتبار الجغرافي الاستراتيجي الأكثر صعوبة بالنسبة لعملية كرومايت. وقد فضّل ماك آرثر منطقة إنشون لأنها المدينة ذات الميناء في سيئول وهي جزيرة لا تبعد سوى 18 ميلاً. فعملية إنزال ناجحة في إنشون يتبعها استيلاء سريع على سيئول كانت ستؤدي إلى انعكاسات استراتيجية بعيدة المدى. أولاً، كان من شأنها أن تضع الفيلق الأمريكي على جانبي خط الاتصالات الخاص بكوريا الشمالية مع عدم وجود احتياطيات كبيرة لاستعادة الموقف. ثانياً، كان ماك آرثر مقتنعاً بأن التداعيات النفسية والسياسية الناجمة عن استعادة السيطرة على سيئول كانت قوية. واحتج بأن هذا من شأنه أن يأسر خيال آسيا ويكسب التأييد لقضية الأمم المتحدة (Appleman 1992). وقد لخص الجنرال ماك آرثر الأهمية الجغرافية الاستراتيجية لإنشون في بيانه أمام هيئة الأركان المشتركة في 8 سبتمبر 1950:

> إن الاستيلاء على قلب نظام التوزيع الخاص بالعدو في منطقة سيئول سيصيب الإمدادات اللوجستية إلى قواته العاملة حالياً في كوريا الجنوبية بخلل تام، وبالتالي سيؤدي في نهاية المطاف إلى تشتتها. وهذا فعلياً هو الهدف الرئيسي للحركة... ولن يكون أمام العدو حيلة دون تمزقه (Appleman 1992: 495).

على الرغم من جاذبية إنشون من الناحية الاستراتيجية، فإنها أظهرت من الناحية التكتيكية مجموعة مخيفة من المشكلات الجغرافية. فهي تقع في مصب نهر "يومها"، وهو عبارة عن حوض منخفض بمستوى مد وجزر يقارب 32 قدماً. وفي حالة الجزر، تنحسر المياه لتكشف عن أرض موحلة بمساحة فدان. وكان الميناء مرتبطاً بالبحر الأصفر عبر قناة فلاينج فيش (قناة السمك الطائر) وهي ممر متعرج يتعين على قوات غازية قوامها نحو 230 سفينة أن تمر عبره. لم تكن هناك شواطئ فعلية في إنشون، وبدلاً من ذلك، واجه المخططون أراضي مساحتها فدادين من المسطحات الطينية التي تكشفها حالة الجزر (انحسار المياه) وكاسراً مائياً يحيط بالمدينة، وكانت شواطئ الإنزال مدعومة بمنطقة

حضـرية يبلغ عدد سكانها نحو 250 ألف نسمة (Utz 1994). وأخيراً، كان الميناء مقسوماً إلى قسم داخلي وآخر خارجي بوساطة جزيرة وولمي دو [ملاحظة: كلمة "دو" هـي كلمـة كورية تعني جزيرة] التي كانت تحتلها القوات الكورية الشمالية (Appleman 1992).

ولا شك في أن حالات المد كانت المشكلة الأصعب، ولاسيما عندما تكون مصـحوبة بالعوائق الطبيعية الموجودة في قناة فلاينج فيش. وكان غاطس سفن الإنـزال ونطـاق المـد والجزر يعني أن القوات المهاجمة كان أمامها ساعتان فقط لدخول الميناء ومغادرته. وكانت أكبر سفن الإنزال، سفينة الإنزال المخصصة لنقل الدبابات (LST)، تحتاج إلى ميـاه بعمـق لا يقل عن 29 قدماً، ولا تصل المياه إلى هذا العمق سوى مرة واحدة في الشهر، وهذه المـرة تصادف يوم 15 سبتمبر، وهو اليوم الوحيد الذي يصل فيه عمـق الميـاه بحـد أقصـــى إلى 31.2 قدماً فوق أرض طينية مسطحة، وكان هـذا مناسـباً للبحريـة (Appleman 1992). وكان يوم 27 سبتمبر يشهد الحد الأدنى لهذا المد، ولكن عندما أغلقت هـذه النافـذة، كـان من شأن الغزو أن يتأخر حتى 11–13 أكتوبر عندما يرتفع المد الربيعـي للميـاه مـرة ثانيـة ويجعلها بعمق 30 قدماً (Utz 1994).

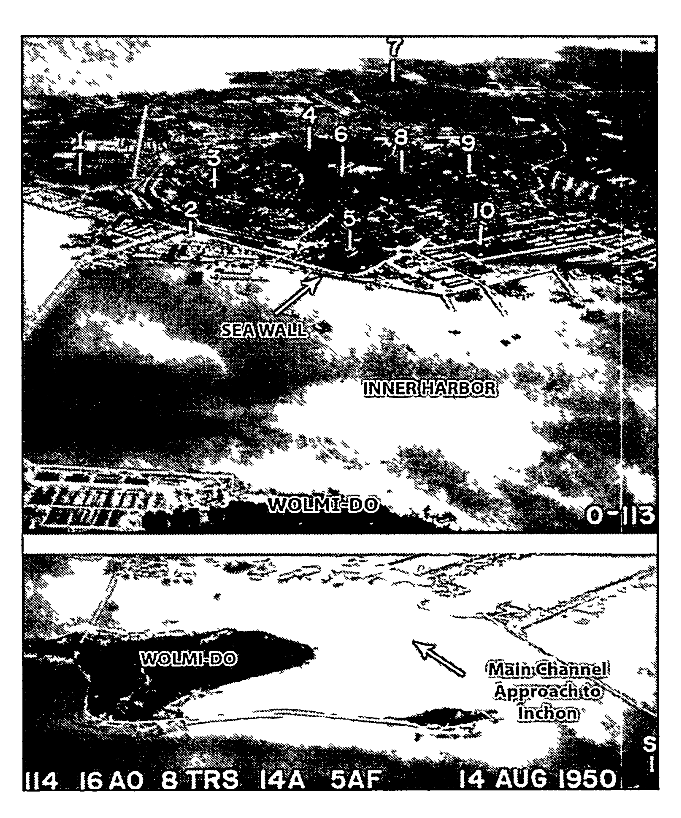
ويعني نطاق مد وجزر بهذا الحجم الكبير أن قدراً كبيراً من المياه يجـب تبادلـه عنـدما ينحسـر المد ويرتفع أثناء دورة المد والجزر. وبالتالي، فإن التيارات التي يخلقها انحسار المياه في القناة الرئيسية التي تبحر فيها القوارب تتجاوز سـرعة تقدم سفن الإنـزال، وهـذا مـن شأنه أن يوقف العمليات. والقناة الوحيدة ذات العمق الكـافي بـما يسـمح للقـوة المهاجمـة بدخول ميناء إنشـون كانـت تغـص بالصـخور والمنـاطق ذات الميـاه الضـحلة والشـعاب والجزر. فاجتماع تيارات المد والجزر والقناة الصـعبة اسـتدعت اتبـاع الأسـلوب النهـاري وعملية إنزال رئيسية خلال فترة المد العالي الذي يحدث في وقت متأخر عصـــراً (Center of Military History 1989).

وقد جعلت جزيرة وولمي دو هذا الأمر صعباً بسبب موقعها البـارز في المينـاء (انظـر الشكل 12–2). ولم يفكر واضعو خطط الغـزو في جـدوى أن تـتمكن قـوات الغـزو مـن

الإنزال من دون تأمين جزيرة وولمي دو قبل ذلك (Weintraub 2000). ولكن ظروف المد والجزر وأحوال القناة لم تسمح بعملية إنزال تتم على جزيرة وولمي دو والشواطئ الرئيسية في آن معاً. وبالتالي، تم التخطيط لعملية إنزال على جزيرة وولمي دو تنفذها الكتيبة الثالثة التابعة لفوج مشاة البحرية الخامس، عند الساعة 6:30 صباحاً، بالتزامن مع ارتفاع المد صباحاً، عبر الطريق الصعب جداً في قناة فلاينج فيش أثناء ساعات الليل. وخلال الاثنتي عشرة ساعة الفاصلة بين الفترتين، كانت الكتيبة أساساً تعتمد على ذاتها إلى أن تمكن الأسطول من العودة مع ارتفاع مياه المد في فترة ما بعد الظهر (Appleman 1992).

الشكل (12-2)

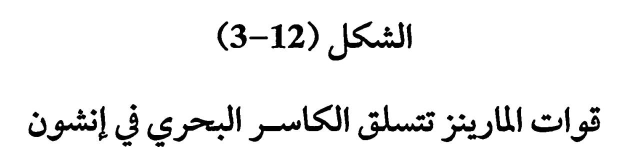
صور استطلاعية لإنشون وميناءها. الصورة العليا توضح طبيعة بناء الشواطئ والكاسر البحري. والصورة السفلى توضح كيف تسيطر جزيرة وولمي دو على الطرق الواصلة إلى داخل الميناء



المصدر: US Army Photograph.

كما واجهت عملية كرومايت تحديات صعبة أخرى منها الكاسر البحري بارتفاع 16 قدماً الذي يحيط بالمدينة والذي اضطر واضعي الخطط إلى تزويد القوات المهاجمة بسلالم (انظر الشكل 12-3). وكان على قوات المشاة ضمن القوة المهاجمة أن تتسلق حاجزاً صعباً انطلاقاً من سفن الإنزال المهتزة، وربما في مواجهة نيران العدو (Utz 1994). بالإضافة إلى ذلك، وحال بلوغ الشاطئ، دخلت القوات المهاجمة مباشرةً في منطقة حضرية (انظر الشكل 12-4). كان من الافتراضات المهمة لعملية كرومايت أن فيلق إكس كوربس يمكنه التوغل بسرعة في البر والاستيلاء على سيئول، وبالتالي قطع خطوط اتصالات كوريا الشمالية قبل أن يتمكنوا من استعادة قوتهم (Appleman 1992). ومن الواضح أنه كان بالإمكان لمعركة في منطقة مدنية تعطيل ذلك الجدول الزمني. لم يولِ ماك آرثر اهتماماً يذكر بذلك الخطر لأن عناصره الاستخباراتية أكدوا له أنه لا يوجد في المنطقة أكثر من 6500 جندي كوري شمالي وهم غير مدربين تدريباً جيداً (Weintraub 2000).

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان الطقس عاملاً حاسماً لأن شهر سبتمبر هو الفصل الانتقالي للرياح الموسمية. وعادة ما تكون البحار هادئة خلال فترة الصيف وتطغى ظروف ارتفاع منسوب البحار خلال الفترة ما بين أكتوبر ومارس (Appleman 1992). واعتقد واضعو خطط البحرية أن الأوضاع ستظل مناسبة خلال فترة الغزو المتوقع. ولكن سبتمبر هو ذروة موسم الأعاصير ويمكن لأي إعصار مهما كان حجمه أن يؤخر الغزو حتى أكتوبر، الذي يعتبر متأخراً جداً (Utz 1994). وكما تبين بعد ذلك، فقد تخلل عملية الغزو إعصاران؛ الأول هو إعصار جين الذي ضرب اليابان يوم 3 سبتمبر أثناء قيام قوة الغزو بتحميل السفن. وأصاب بعض السفن بأضرار، ولكنها لم تكن كبيرة بما يكفي لإيقاف العملية. أما الإعصار الثاني، إعصار كيزيا، فقد ضرب المنطقة يوم 13 سبتمبر، ولكنه حرف اتجاهه في آخر لحظة ممكنة ليسمح لسفن قوات الإنزال بالانطلاق من اليابان (Appleman 1992).



الشكل (12-3)

قوات المارينز تتسلق الكاسر البحري في إنشون



المصدر: US Marine Corps Photograph.

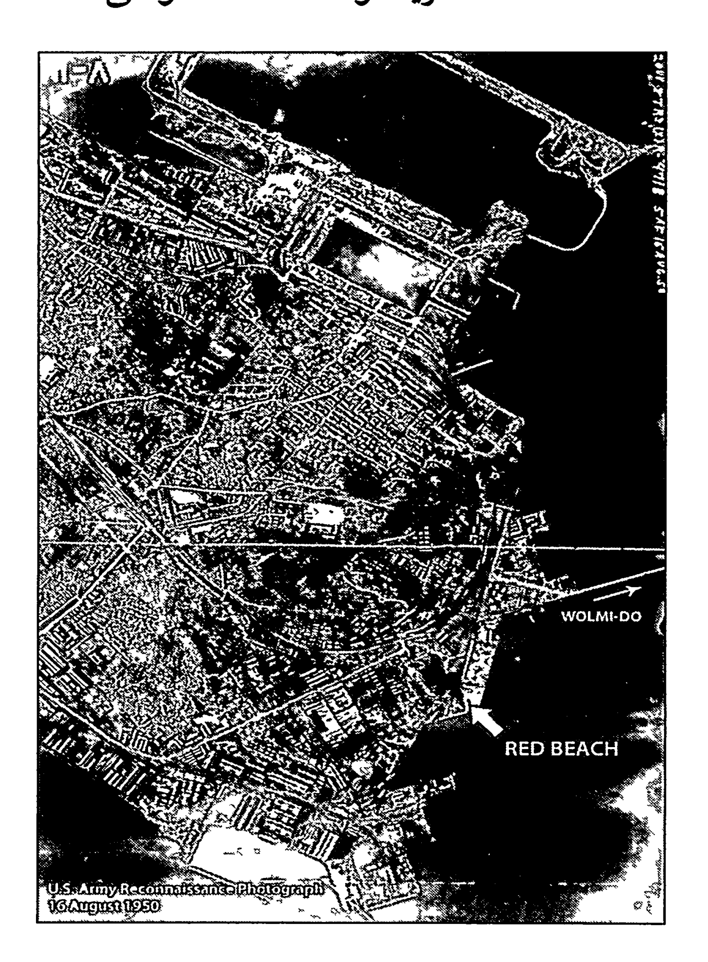
جدلية الإنزال

علمت هيئة الأركان المشتركة أن ماك آرثر أراد إنزال القوات في إنشون؛ ولكنها كانت تشعر بالقلق حيال التحديات الجغرافية التي تفرضها تلك المدينة. وتمحور اعتراض البحرية على الخطة بشكل كبير حول أحوال المد والجزر الصعبة والتوقيت المعقد اللازم للعملية. وكانت قوات مشاة البحرية قلقة من خطة ترك الكتيبة معزولة على جزيرة وولمي دو لمدة اثنتي عشرة ساعة، إضافةً إلى الطبيعة الصعبة لشواطئ الإنزال. وكانت البحرية وقوات المشاة تفضّل أن تكون كونسان هي المستهدفة في عملية كرومايت. وبناءً على ذلك، اجتمع رئيس أركان الجيش والجنرال كولينز ورئيس العمليات البحرية الأدميرال شيرمان، مع ماك آرثر بتاريخ 23 يوليو من أجل مناقشة مدى ملاءمة خطة إنشون. كما حضر ذلك الاجتماع أيضاً اللواء البحري جيه. إتش. دويل، القائد العام لأسطول الغزو،

الذي تحدث لمدة ساعة وقدّم الاعتبارات البحرية الخاصة بعملية الإنزال. وكان دويل متشائماً، بسبب عدد العقبات الجغرافية الهائلة والتوقيت المعقد اللازم لعملية الإنزال التي ستتم على مرحلتين. وطرح كولينز وشيرمان أسئلة كثيرة واضحة وحصل جدال حاد حول الخطة بين فريق ماك آرثر وممثلي البنتاجون. وأخيراً، طلب الأدميرال شيرمان من الأدميرال دويل تقديم تقييمه. فأجاب دويل قائلاً إن «العملية ليست مستحيلة، ولكنني لا أنصح بها» (Appleman 1992: 493).

الشكل (12-4)

صورة جوية عمودية مأخوذة لإنشون يوم 16 أغسطس 1950. وتوضح الصورة نطاق المنطقة الحضرية الواقعة خلف الشواطئ



المصدر: US Army.

وهكذا، لم يكن مصير عملية كرومايت مؤكداً بشكل واضح، ولم يقدم دويل الذي يعتبر من قدامى المحاربين في منطقة المحيط الهادي، دعماً قوياً للعملية. ولكن، ماك آرثر تدخل ومنح الحضور جميعاً مدة 45 دقيقة ليفكر كل منهم بينه وبين نفسه في المزايا الاستراتيجية والتكتيكية لخطة إنشون. وحاجّ بأن كونسان كانت فكرة جيدة، ولكنها الموقع الخطأ؛ فقد كانت قريبةً جداً من خطوط الجبهة وتتيح للكوريين الشماليين خطوطاً داخلية. وعلاوة على ذلك، لم تكن الحركة الالتفافية بالعمق الذي يكفي لانهيار وحدات الخطوط الأمامية للقوات الكورية الشمالية (Weintraub 2000). وأشار إلى أن العدو قد أهمل منطقته الخلفية التي كانت في نهاية خط لوجستي معرض للخطر. وزعت كوريا الشمالية عملياً جميع تشكيلاتها الجاهزة للقتال مقابل محيط بوسان، ولم يكن هناك أي جنود احتياط مدربين. ولذلك، كانت قدرة العدو على تعطيل الغزو محدودة (Appleman 1992).

أدرك ماك آرثر الأثر الاستراتيجي لقطع خطوط اتصالات العدو الكورية الشمالية بالإضافة إلى أثرها على المعركة. وأشار إلى أن العملية البرمائية كانت الوسيلة الاستراتيجية المتاحة الأكثر إلحاحاً، وباستخدامها بشكل حاسم في إنشون، تمكن من عكس مجرى الحرب. وكما رآه بوضوح، فإن الهدف السليم للهجوم البرمائي كان توجيه ضربة عميقة وقاسية إلى مؤخرة قوات العدو. وكانت عملية كونسان قليلة المخاطر، ولكنها أيضاً وعدت بمردود أقل من ذلك بكثير، ولم تستطع ضمان تغيير استراتيجي لمجرى الحرب (Appleman 1992).

لفت ماك آرثر الانتباه إلى حقيقة أن كل الأمور تشير إلى أن الكوريين الشماليين اعتبروا عملية الإنزال في إنشون أمراً مستحيلاً من الناحية الجغرافية، وبذلوا أدنى جهد لتأمين الميناء؛ وهكذا اكتملت المفاجأة. فأهم المزايا التي أتيحت له من عملية برمائية كانت إمكانية التنقل والمفاجأة والقوة النارية المطلقة والساحقة (Utz 1994).

تذكر ماك آرثر عملياته في الحرب العالمية الثانية. وأشاد بالبحرية التي جعلت الحملة التاريخية التي تنقل خلالها بين الجزر أمراً ممكناً. وأعلن عن اقتناعه بعملية إنشون وأن

البحرية ستتمكن من إنجازها. وأنهى حديثه بالقول إن «البحرية لم تخذلني قط من قبل، وأعلم أنها لن تخذلني الآن» (Appleman 1992: 494). وأقنع بالأدلة المشككين بعملية كرومايت ونال الموافقة عليها من هيئة الأركان المشتركة. ومن الجدير بالذكر أنه وفي ظل الظروف العادية، كان من المرجح ألا تتم عملية إنشون؛ فمن سوى ماك آرثر استطاع حمل هيئة الأركان المشتركة على تغيير رأيها، باعتبارها تتألف من ضباط أقل منه بالرتبة العسكرية؟ ولكن، لا يمكننا إغفال حقيقة أن خطة عملية كرومايت كانت محكمة ومرسومة بإتقان، وقد تمكن ماك آرثر من عرض رؤية واضحة تماماً لحاجاتها التكتيكية واحتمالاتها الاستراتيجية (Weintraub 2000).

خاتمة: النصر في إنشون

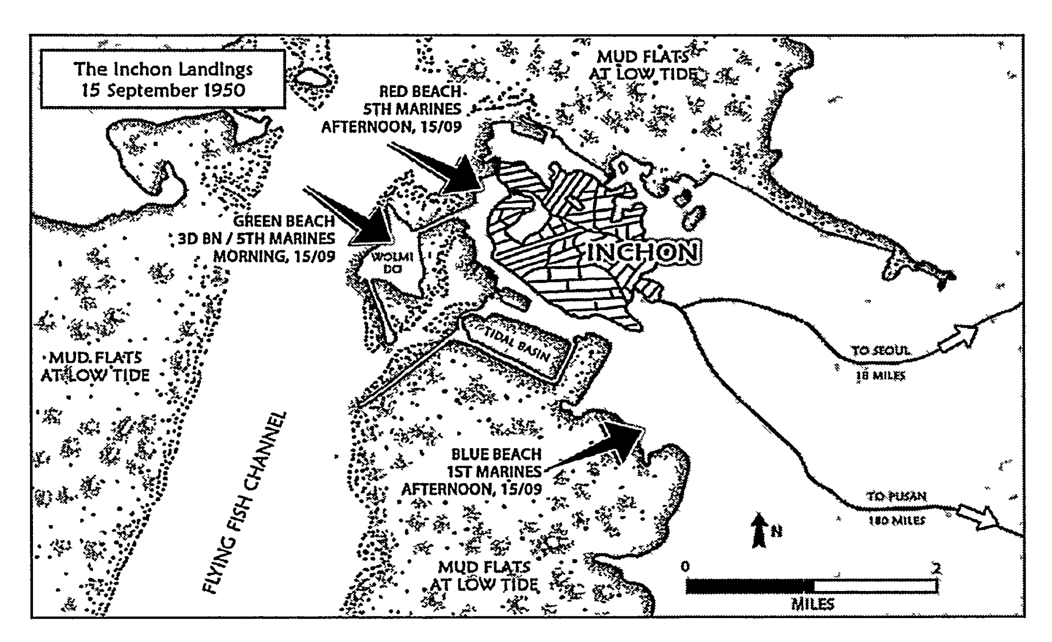
بدأ القصف التمهيدي العنيف من البحر والجو نحو جزيرة وولمي دو وشواطئ إنشون يوم 13 سبتمبر. ووصل فيلق إكس كوربس قبالة الشاطئ مع نحو 70000 مقاتل يوم 15 سبتمبر، واتخذت مجموعة الإنزال موقعها قبالة وولمي دو عند الساعة 05:30. ومع خيوط الضوء الأولى من الفجر نزلت الكتيبة الثالثة التابعة لفوج المارينز الخامس على الشاطئ الأخضر (جرين بيتش) لجزيرة وولمي دو (انظر الشكل 12-5). وقبل عملية الإنزال جرى قصف بحري قصير. وحقق هذا الهجوم نجاحاً باهراً وكان أول هجوم برمائي أمريكي يتم منذ أوكيناوا (Appleman 1992). ووصلت أول دفعتين من القوات المهاجمة إلى الشاطئ عند الساعة 06:45 ولم تواجه مقاومة تذكر. وتم إخضاع الجزيرة، وتم إعلانها منطقة آمنة عند الساعة 07:50. وقد ذهل الكوريون الشماليون بحجم وسرعة الهجوم، وأخذ مشاة البحرية نحو 400 أسير، في حين لم يتكبدوا خسائر تذكر (Appleman 1992).

بعد الاستيلاء السهل نسبياً على جزيرة وولمي دو، جاء الانتظار الطويل والمقلق خلال فترة انحسار المد عندما تم تعليق جميع النشاطات. وصعد بقية فرقة المارينز الأولى على متن سفينة الإنزال عند الساعة 15:30. ووجهت القوات الأمريكية قصفاً آخر عنيفاً

وقصيراً نحو الشاطئين الأحمر والأزرق (انظر الشكل 12-5)، وتسلق فوجا مشاة البحرية الخامس والأول الكاسر البحري عند الساعة 17:33 (Appleman 1992). وكان الكوريون الشماليون في كامل الانتباه هذه المرة، ما جعل القتال أكثر عنفاً عند وصول القوات الأمريكية إلى الشاطئ. ومع ذلك، اندفعت قوات المارينز بسرعة إلى داخل الجزيرة، وكان اقتراب الليل أكبر عائق أمامهم بعد الكاسر البحري. وهكذا فقد جرى الجدول الزمني للخطة المعقدة تماماً كما هو مخطط له تقريباً (Utz 1994).

الشكل (12-5)

خريطة غزو إنشون



المصدر: مستمدة من: Knox (1985).

الخلاصة

دُحر الغزاة الكوريون الشماليون بضربة واحدة قاضية. لماذا تم اختيار إنشون؟ قرر الجنرال ماك آرثر استخدام إنشون لأن - على حد قوله - «الحجج التي سقتموها في ما يخص الاستحالة [الجغرافية] التي تكتنف العملية، بالنسبة لي ستضمن عنصر المفاجأة.

لأن قيادة العدو ستفكر في أنه لن يكون هناك أحد من الطيش بحيث يقوم بمحاولة كهذه» (Utz 1994: 23). وقد نجحت عملية الإنزال في إنشون وتغير مجرى الصراع الكوري جذرياً.

إن جغرافية شبه الجزيرة الكورية وإنشون حفزت التخطيط العملياتي والتكتيكي للغزو. فموقع إنشون النسبي جعلها مكاناً حاسماً ووحيداً للقيام بحركة التفافية. وبالمثل، فإن المزايا الجغرافية لإنشون جعلت عملية الإنزال فيها بعيدة الاحتمال بحيث إن الكوريين الشماليين لم يضعوا حراسة قوية على المنطقة. وتمكن ماك آرثر من "فهم التضاريس" بوضوح والاستفادة من المزايا الملازمة للعمليات البرمائية في توجيه ضربة واحدة قاضية إلى نقطة حاسمة.

ولعل العمليات البرمائية هي أصعب العمليات من حيث التخطيط والتنفيذ نظراً لأنها تتم في بيئة دينامية جداً حيث تجتمع ثلاثة عوامل؛ فالتغييرات الطفيفة في أنماط الطقس يمكن أن تؤدي إلى تغيير ارتفاع الأمواج واتجاهها، ويمكن أن يتغير مجرى التيارات بسرعة، ويجب على المهاجم أن يكافح أوضاع المد والجزر الصعبة. ويزداد تعقيد الظروف الطبيعية بسبب محدودية عدد الشواطئ المناسبة لعمليات الإنزال، وأيضاً لأن العدو يعرف أمكنتها بصورة طبيعية. وفي النتيجة، يواجه المخططون العسكريون تحديات المتغيرات الطبيعية الصعبة والمعقدة كالأمواج وظروف المد والجزر، بالإضافة إلى التحدي التكتيكي المعقد المتمثل بالتفوق الذكي على العدو من أجل ضمان حصول القوة الغازية على فرصة معقولة لتحقيق النجاح.

الفصل الثالث عشر

البوسنة والهرسك 1992-1995: ملخص انهيار يوغسلافيا الدموي

ستيفن أولويك

مقدمة

«الماضي لم يمت. حتى إنه ليس ماضياً» (William Faulkner).

تميز انهيار يوغسلافيا الكارثي في التسعينيات من القرن العشرين بحرب وحشية وقاسية لم تشهدها أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية. وخلال الفترة 1992-1995، كانت البوسنة والهرسك في صميم هذه المأساة التي تؤلب الدول المتجاورة بعضها على بعض، على أساس الهوية والتاريخ والدين. وأدت الجغرافيا الثقافية والطبيعية للبوسنة دوراً رئيسياً في تمهيد الطريق للحرب الأهلية التي تلاعب بها السياسيون القوميون ببراعة.

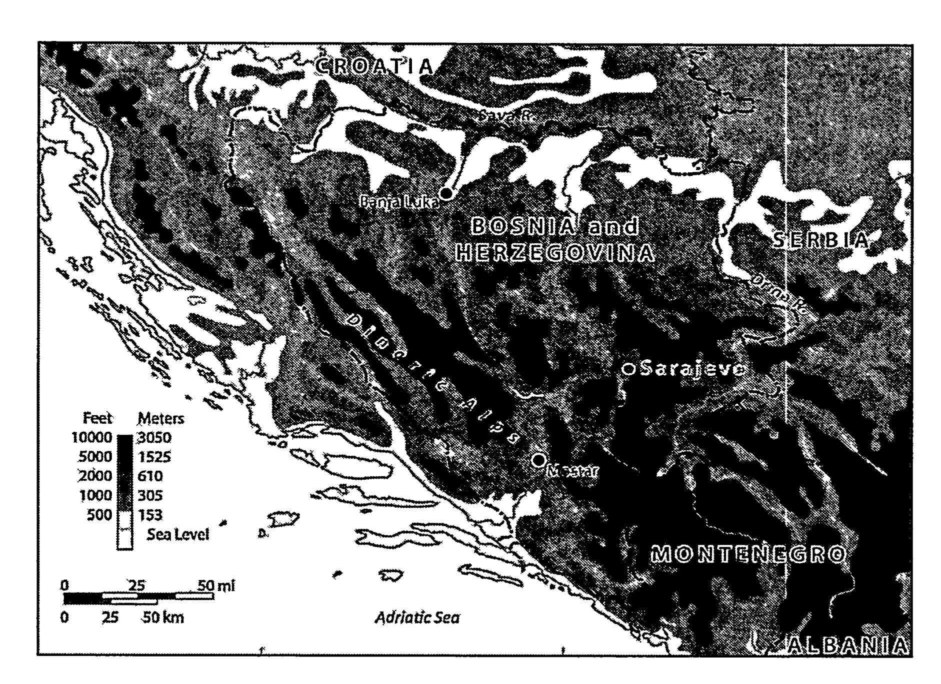
المشهد الطبيعي للبوسنة والهرسك

تطغى على الجغرافيا الطبيعية للبوسنة الجبال الوعرة والأودية، وفي الحقيقة فإن كلمة "بلقان" مترجمة من اللغة التركية وتعني الجبل. وتشكل جبال الألب الدينارية Dinaric Alps نحو 75٪ من طبيعة البوسنة، حيث تمتد إلى الجنوب الشرقي لتغطي معظم البلاد (انظر الشكل 13-1). وتشكل الجبال ذات الحجر الجيري والدولوميت [صخر رسوبي] حاجزاً يمنع السفر من الساحل إلى الداخل بسبب عدم وجود ممرات طبيعية. كما ترتبط الهضاب الكلسية بكهوف ومجارٍ مائية. كما تتخلل الجبال الوهاد والممرات الضيقة والأودية؛ مما يجعل التنقل والاتصال صعباً في أفضل الظروف، ومن شبه المستحيل في

أوقات الحرب كما أخبر كثير من الغزاة. كما أن المنطقة قليلة الكثافة السكانية، وتعتبر أعمال الحراجة والتعدين هي النشاطات الاقتصادية الرئيسية فيها. وتغطي الغابات الواسعة مساحات كبيرة من البوسنة، باستثناء الهضاب العالية والمناطقة القاحلة في الغرب والجنوب الغربي، مما يزيد للغاية من صعوبة التنقل عبر البلاد ويجعل معظم الأمكنة متباعدة في البوسنة.

الشكل (13-1)

خريطة البوسنة والهرسك



يجد المرء على طول الحدود الشمالية الطبيعية للبوسنة مع كرواتيا ونهر سافا فقط السهول الخصبة المنبسطة (انظر الشكل 13-1). وإلى الغرب، تشكل الجبال حداً طبيعياً آخر مع كرواتيا. وإلى الشرق، يشكل نهر درينا الحد التاريخي مع صربيا. ويعتبر كل من نهر درينا ونهر سافا عقبات هائلة، تقطعها في أمكنة قليلة جداً جسور ضخمة. وعلى الرغم من أن البوسنة تمتلك خطاً ساحلياً يمتد على طول خمسة أميال تقريباً، وميناء نيوم الصغير على طول البحر الأدرياتيكي، فإن الحواجز الجبلية وعدم وجود الطرق الرئيسية من المدن الكبرى والصناعية إلى الساحل يجعل من البوسنة والهرسك دولة شبه معدومة السواحل.

اتسم القتال الذي اندلع مؤخراً في البوسنة باستيلاء المقاتلين على المناطق الرئيسية، مثل قمم التلال وسلاسل قمم الجبال والأودية النهرية واحتفاظهم بها. كما أن الطرق الرئيسية وشبكات السكك الحديدية تتبع الأودية النهرية. وعندما اقترن المشهد الطبيعي للبوسنة بالتاريخ، فقد حدد أنماط الاستيطان والتطور الثقافي. وعلاوة على ذلك، فقد أعاق قدرة الحكام والغزاة على إحكام سيطرتهم في البوسنة خارج المناطق الحضرية.

سحقتها بقايا التاريخ

يمكن تتبع آثار بدايات وجود البوسنة إلى القرن الحادي عشر. فقبل وصول العثمانيين وبعد الانشقاق الكبير بين الكنيستين الشرقية والغربية عام 1054، كانت البوسنة واقعة بين سيطرة الكنيسة الغربية اللاتينية وسيطرة الكنيسة الشرقية البيزنطية (White 2000). وأدى هذا الانشقاق الشرقي الكبير إلى وجود كنيستين مسيطرتين هما الكاثوليكية التي تمركزت في روما، والأرثوذوكسية الشرقية التي تمركزت في القسطنطينية. وتتقاطع الحدود الكنسية مع البلقان. فحالما رسّخت الدولة العثمانية وجودها في القرن الخامس عشر، امتد الإسلام إلى جنوب شرقي أوروبا. وأصبحت البلقان منطقة حدودية بين هابسبورغ والإمبراطورية العثمانية لعدة قرون إلى أن تم "طرد" الإسلام خلال حروب البلقان 1912–1913.

وبحسب فاين (Fine 2002)، فقد جاء المسلمون إلى البوسنة من مصدرين: الأول، هم المهاجرون المسلمون الذين سافروا مع جيوش السلطان، والثاني، وهم الشريحة الكبرى إلى حد بعيد، المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام. لم تكن هناك حالات اعتناق للإسلام بالجملة، بل تم ذلك بالتدريج حيث اعتنق الإسلام أناس من جميع الكنائس المسيحية (Fine 2002; Malcolm 1994). وكان أصحاب الملل المسيحية التي يندرج ضمنها جميع أتباع السلطان، يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية، في حين كان أصحاب الملة الإسلامية يتمتعون بالأفضلية (Fine 2002; Stavrianos 2000). وقد سيطر المسلمون على الأراضي من خلال نظام إقطاعي، وتمكن كثير من مسلمي البوسنة من

ارتقاء سلم المجتمع التركي، واعتلاء مناصب مهمة في الإمبراطورية العثمانية (Pavlovich 1988). وقد تطورت النخب المسلمة في بلدات ومدن، حَكم العثمانيون البوسنة انطلاقاً منها. وقد اشتغل الفلاحون، الذين يوصفون بالرعية، في أراضي الإقطاعيين المسلمين، وكانت أغلبيتهم الساحقة تنحدر من الملة المسيحية.

رغم التأكيدات الإعلامية المتكررة بأن البوسنة كانت نموذجاً للتسامح والوئام بين الأعراق، فقد كان المسيحيون مواطنين من الدرجة الثانية في الإمبراطورية العثمانية. وكان المسيحيون مضطهدين؛ والتاريخ يسجل انتفاضات الصرب الواسعة النطاق في عقد التسعينيات من القرن السادس عشر وعقود الأربعينيات والخمسينيات والتسعينيات من القرن السابع عشر (Pavlovich 1988). وتشير الدلائل التاريخية إلى أنه عندما سقطت الإمبراطورية وأصبحت معروفة بلقب "رجل أوروبا المريض"، كان الفساد وسوء الحكم العثماني واضطهاده للمسيحيين وحشياً وغير مبال وقاسياً (Gerolymatos 2002; Jelavich 1983; Pavlovich 1988; Stavrianos 1965). وقد سبب هذا الإرث الذي خلفه الحكم العثماني معاناة كبيرة للسكان المسلمين البوسنة خلال الحرب الأهلية التي نشبت في الفترة 1992–1995، والتي استغلت أساساً للانتقام لمظالم الماضي التي عاناها المجتمعان الكاثوليكي والأرثوذكسي في يوغسلافيا.

جاءت فكرة العرق إلى البوسنة في القرن التاسع عشر. وبدأ مسيحيو البوسنة يكتسبون الأفكار العرقية والقومية من إخوتهم في الدين المجاورين لهم في صربيا وكرواتيا. ويدعي فاين (Fine 2002) أن هذه هي المرة الأولى التي يصبح فيها الصرب بوصفهم مسيحين أرثوذوكساً، والكروات بوصفهم مسيحيين كاثوليكيين، معروفين باعتبارهم قوميتين منفصلتين داخل البوسنة. فحتى ذلك الحين، بحسب فاين، لم تكن هناك حرب داخلية عرقية أو طائفية، رغم أن المسلمين سيطروا تماماً على البوسنة.

وقد سمحت معاهدة برلين عام 1878 للإمبراطورية النمساوية–الهنغارية احتلال البوسنة وإدارتها، رغم أنها بقيت ظاهرياً جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. وقد حدث ذلك

مع تخوف شديد من جانب الجماعات الدينية الثلاث في البوسنة. وقد استورد النمساويون نظام المدرسة العلمانية الذي وجد أن المسلمين متخوفون من أن يتم إجبارهم على اعتناق الكاثوليكية؛ دين إمبراطورية هابسبورغ. وينظر المسلمون المثقفون حالياً إلى الإسلام المعتاد "المريح" أو الذي يمارسه الناس بحرية أكبر على أنه مأزق. وقد زجت النخبة المسلمة بنفسها في شؤون القرى، وذلك في محاولة لدرء الأخطار التي تهدد دينهم. وأدى ذلك إلى تصاعد التوتر، الذي لم يكن موجوداً من قبل، بين النخب المثقفة في المراكز الحضرية والمسلمين في المناطق الريفية، مسلطاً الضوء على الانقسام بين المدينة والريف داخل المجتمع المسلم. كما أدى هذا الظهور الجديد للإسلام المعتدل إلى توتر في العلاقات مع سكان البوسنة المسيحيين، الذين كانوا دائماً ينظرون إلى المسلمين بعين الشك والريبة.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، حاول وزير هابسبورغ، بنيامين فون كالاي، حاكم البوسنة، إضعاف الأيديولوجيات الجشعة للنزعة القومية الكرواتية والصربية من خلال دعوة جميع المجتمعات إلى اعتناق مفهوم البوسنة وطناً (Malcolm 1994). كانت هذه محاولة لاستئصال النزعات القومية المتنامية والمتباينة من خلال إحياء مفهوم الصفة البوسنية المشتركة التي تشمل الجميع (Magaš 2003). وكان فشلها ذريعاً بين السكان المسيحيين للبوسنة، ولكنها وضعت بذور الهوية البشناقية بين النخب المسلمة (Glenny 1999).

قامت النمسا بضم البوسنة في عام 1908، وظلت هذه الأخيرة تحت سيطرة هابسبورغ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وكانت سراييفو، أكبر مدينة في البوسنة، بمنزلة المركز الإداري وعاصمة مقاطعة النمسا الجديدة. وقد حصل الكاثوليك خلال تلك الفترة على الأفضلية، كما عاش المسلمون تحت نعمة الإمبراطور. وبقي الأرثوذوكس الصرب، الذين تعيش الأغلبية العظمى منهم في المناطق الريفية، مواطنين من الدرجة الثانية. وأدى اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند [ولي عهد النمسا] وزوجته، على يد جافريلو برينسيب المتعصب للقومية الصربية عام 1914، إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى وإلى عمليات إعدام ومجازر على نطاق واسع بحق السكان الصرب في البوسنة.

تطور الأحقاد: 1918-1945

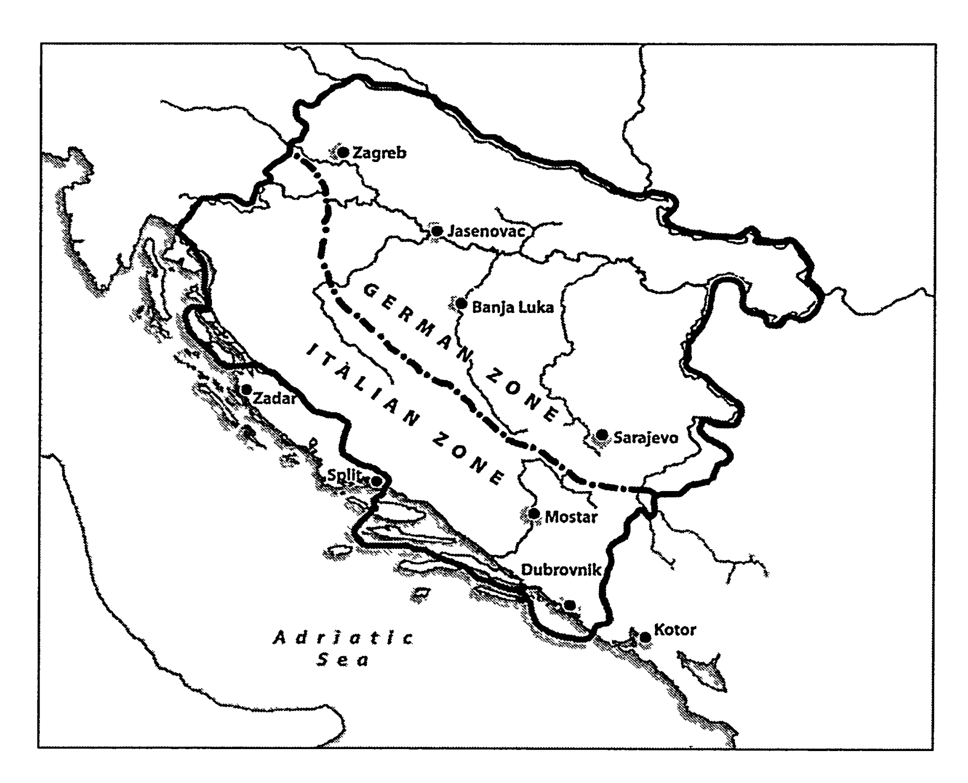
في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، كانت مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين في الأساس هي صربيا الكبرى. وكانت صربيا حليفاً مخلصاً للبريطانيين والفرنسيين والأمريكيين، وعانت معاناةً رهيبةً خلال السنوات الثلاث من احتلال دول المركز [ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا] لها. وأصبحت سلالة كاراجورجيفيتش Karageorgevic الصربية الملكية هي الحاكمة في المملكة التي تأسست حديثاً، لتتم إعادة تسميتها بـ "مملكة يوغسلافيا" في عام 1929، والتي ستحكم بشكل من الأشكال حتى عام 1941. كان السكان الكروات الخصم الأكثر صخباً لبلغراد، وقد استغل هتلر هذه العداوات حالما اندلعت الحرب العالمية الثانية.

سرعان ما اجتاحت القوات الألمانية والإيطالية والهنغارية والبلغارية يوغسلافيا في 1941. وبعدها بوقت قصير، أنشئت كرواتيا بصفة دولة فاشية مستقلة ذات حدود جديدة تضم معظم البوسنة وجزءاً من صربيا (انظر الشكل 13-2). وبما أن 20٪ فقط من سكان البوسنة كانوا من الكروات، فقد سعت الفاشية الكرواتية الجديدة أو قيادة أوستاشا [الحركة الثورية الكرواتية] بنشاط للحصول على دعم المسلمين ضمن إطار خطتها للقضاء على الصرب واليهود والغجر. وفي 22 يوليو 1941 أوضح ميلان بوداك، وزير التربية والتعليم الكرواتي، خطة الدولة للصرب عندما أعلن أن ثلثهم سيتم قتله، وثلثاً سيتحول عن دينه، وثلثاً سيتم نفيه (Trifkovi'c 1998). فأثارت حملة أوستاشا الإرهابية رد القوميين الصرب على ذلك، ما أدى إلى حرب عصابات شرسة ضد دول المحور الغازية، ولكنها استهدفت أيضاً الأوستاشا المدنيين البسطاء من الكروات والمسلمين وقراهم. وفي نهاية الحرب، أشارت التقديرات إلى إبادة عدد راوح بين 350000 و700000 من الصرب، بالإضافة إلى أن عدداً راوح بين 200000 و300000 شخص اعتنقوا الكاثوليكية (Jelavich 1983؛ Ivanovi'c 2002). وكانت تلك هي الفترة التي اتخذ فيها العنصر الإثني للبوسنة خلال الحرب العالمية الثانية بعداً دينياً، وخلق الأحقاد المستعصية التي مازالت قائمة حتى يومنا هذا.

أصبحت البوسنة مسرحاً غريباً للرعب حيث ارتكبت المجازر والمذابح الانتقامية بين المجموعات المحلية المختلفة. ولم تكتف الحركة الملكية للحكومة اليوغسلافية المنفية، أو كما تسمى "تشيتنيكس"، تحت قيادة الجنرال درازا ميخائيلوفيتش، وهو ضابط يوغسلافي سابق، بالقتال ضد الأوستاشا والألمان، بل قاتلت أيضاً أنصار الشيوعية المتنامية. وهكذا، شهدت يوغسلافيا السابقة حرباً أهلية ضمن إطار حرب عالمية.

الشكل (13-2)

خريطة دولة كرواتيا المستقلة 1941-1945



المصدر: Malcolm (1994).

ترفّع جوزيف بروز تيتو، زعيم جيش التحرير الوطني الشيوعي اليوغسلافي، عن الصراع العرقي ليعمل كقوة المركز الجاذبة لتوحيد كل الشعب اليوغسلافي ضد عدو مشترك (West 1942; Pavlovich 1992). ودعا اليوغسلافيين للوقوف صفاً واحداً تحت شعار (الأخوّة والوحدة). وقد شملت قضيته الحزبية جميع المجموعات العرقية في

يوغسلافيا، ولكن الصـرب تمتعوا بالأغلبية العددية. وفي سياق الحرب، نجح تيتـو في قيـادة يوغسلافيا إلى التحرر. ولكن الذاكرة الحية للكوابيس التي شهدتها يوغسلافيا خلال الحرب العالمية الثانية ستعود مع صعود النزعة القومية في عقد الثمانينيات من القرن العشـرين.

يوغسلافيا الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية 1945-1991

في عام 1945، كانت يوغسلافيا الشيوعية تتألف من ست جمهوريات، تقوم كل منها على أساس مجموعة عرقية مسيطرة. وكانت البوسنة هي الاستثناء الوحيد، حيث شـملت القوميات الصـربية والمسلمة والكرواتية. وأدرك تيتـو أن النزعـة القوميـة تشـكل تهديـداً مستمراً للدولة الجديدة، وأن التزام المرء القوي بدينـه يعـود إلى رابطتـه القويـة بمجتمعـه الوطني، الأمر الـذي قـد يـؤدي إلى النزعـة القوميـة الانفصـالية (Bringa 2002). وقـد حققت يوغسلافيا تقدماً كبيراً بوصفها دولة، ولكن انتهاج سياسة اللامركزية عـلى مـدى السنوات ترك السلطة المتزايدة بأيدي الجمهوريـات اليوغسـلافية. وبحلـول عـام 1968، أصبح المسلمون أمة معترفاً بها رسمياً في يوغسلافيا بعد أن أدركوا أنهم لم يتكيفـوا، سـواء بوصفهم "مسلمين كرواتاً" أو "مسـلمين صـرباً". وكـان لتسـميتهم "مسـلمين" معنـى مزدوج، مثلما حدث للجالية اليهودية، إذ إن المسلم الجديد المعترف به رسمياً كـان عضـواً في مجموعة دينية بالإضافة إلى كونها مجموعة عرقية.

ظلت البوسنة مجتمعاً علمانياً معظم فترة الـ 45 عاماً التي تلت الحرب العالمية الثانيـة. فالتوصيف الديني الفضفاض إلى جانب موقف الحزب الشيوعي المنـاهض للـدين، كـان يعني أن الدين أدى دوراً صغيراً في البوسنة. واتسع نطاق الزيجات المختلطة، فحوالي 40٪ من الزيجات الحضـرية كانت مختلطة، وقد أعلن أكثر مـن 20٪ مـن البوسـنيين في المنـاطق الحضـرية أنهم يوغسلافيون أو جنسيات غيرهـا خـلال السـنوات التـي سـبقت الحـرب الأهلية (Fine 2002). ويشير إحصاء عام 1991 إلى أن 16٪ من سـكان سـراييفو البـالغ عددهم 525980 نسمة كانوا يعتبرون أنفسهم من الجنسية اليوغسـلافية أو مـن جنسـيات أخرى. وكان هناك وئام من نوع ما بين المجموعات العرقية، وبشكل أساسـي في المنـاطق

الحضـريـة. وكانت أكبر خمس مدن في البوسنة وهي سـراييفو وبانيا لوكا وتوزلا وزينيتشا وموستار، لا تكاد تشكل ربع مواطني البوسنة البالغ عـددهم 4.4 ملايـين نسـمة في عـام 1992. وكان ثلاثة أرباع السكان يقطنون المناطق الحضـرية أو البلـدات الصـغيرة، حيـث كانت الاتجاهات السائدة مختلفة بشكل ملحوظ عن تلك السائدة في المدن (Bose 2002). وهذا يدل على انفصال جغرافي في هويات المجتمعات الحضـرية والريفية؛ الأمر الذي كان له أثر كبير في البوسنة ويوغسلافيا مطلع عقد التسعينيات من القرن العشـرين.

يميل المجتمع الريفي البوسني ليكون أكثر تحفظاً في سلوكه وفي أمور الدين والعرق. فقد اعتبر البوسنيون الحضـريـون أنفسهم أوروبيين، إن لم يكونوا عالميين، في حين حـافظ القرويـون عـلى ممارسـاتهم الدينيـة (Bringa 1995; Fine 2002). واصـطدمت القـيم والممارسات الإسلامية مع وجهات نظر الحضـر العلمانية حول الحياة. وعلاوة عـلى ذلـك، كان لدى المسلمين من سكان المدن قواسم مشتركة مع الصـرب أو الكـروات مـن سـكان المدن، أكثر مما لدى المسلمين القـرويين. وفي كثـير مـن الحـالات، إن لم يكـن في معظمهـا، كانت قرى بأكملها تنتمي إلى جماعة عرقية واحدة. وهذا التفاوت الجغرافي المهـم يعنـي أن العلمانية الحقيقية للمراكز الحضـرية ببساطة لم تكن موجودة في البلدات الصغيرة والقرى.

وعندما انفصلت كرواتيا وسلوفينيا في عام 1991، وقعـت يوغسـلافيا في حالـة مـن الفوضـى وتصاعدت التوترات العرقية في البوسنة. كما سعت كل مـن صـــربيا وكرواتيـا عبر وسائل الإعـلام الحكوميـة والدعايـة إلى استمالة إخـوانهم في العـرق الموجـودين في البوسنة للوقوف إلى جانبهم. وخلال الانتخابات الجمهورية في البوسـنة عـام 1990، فـاز ثلاثة أحزاب قومية هي الحزب المسلم البوسني المسمى (حزب العمل الديمقراطي المسلم SDA، والحزب الديمقراطي الكـرواتي HDZ، والحـزب الـديمقراطي الصـــربي SDS). وبحسب بعض الكتّاب كان حزب العمل الديمقراطي المسـلم، وهـو حـزب عـلي عـزت بيغوفيتش، هو الوحيد الذي دعا المجموعات الأخرى إلى الانضمام إلى حزبه السياسـي في الأيام الأولى للانفصال. والسبب بسـيط: فقـد أدرك عـزت بيغـوفيتش أن المسـلمين لـن

يتمكنوا من البقاء من دون الصرب أو الكروات لأنهم كانوا محاصرين بين كرواتيا الأقوى وما تبقى من يوغسلافيا.

إلى ذلك، كان عزت بيغوفيتش يظهر ميوله الإسلامية دائماً حيث كتب في كتابه **البيان الإسلامي** *Izlamska Deklaracija* عام 1969 وعبّر فيه عن أنه بالإمكان قيام دولة عصرية وتقانية مع الاحتفاظ بالقيم الإسلامية. وبالفعل، في عام 1984، خضع بيغوفيتش للمحاكمة وأدين مع زملائه بالتآمر والانتماء إلى نشاط سياسي قومي مسلم. وأثار القادة الكروات والصرب المخاوف من أن هدف عزت بيغوفيتش وحزبه "حزب العمل الديمقراطي المسلم" كان إقامة دولة إسلامية. وفي عام 1991 والفترة التي سبقت الاستفتاء على الاستقلال في عام 1992، تم خلق مناخ ضَمن عدم موافقة صرب البوسنة على تحركات مسلمي البوسنة نحو الاستقلال.

وفي استفتاء إبريل 1992 على استقلال البوسنة، صوّت المسلمون والكروات على الانفصال عن يوغسلافيا، في حين اختار الصرب مقاطعة الاستفتاء تماماً. وكان هناك سوء فهم شائع بأن دستور يوغسلافيا أعطى الجمهوريات الحق في الانفصال، وهذا ما فعلته، ولكن فقط إذا قامت أغلبية السكان الناخبين في كل جمهورية من الجمهوريات بالتصويت على الانفصال. ولكن الحال لم تكن كذلك في البوسنة أو كرواتيا، التي احتج فيها السكان الصرب بشدة على الانفصال. وبدأ صرب البوسنة على الفور تمردهم بدعم من الجيش الشعبي اليوغسلافي، الذي كان ضباطه من الصرب في المقام الأول.

اندلاع الحرب الأهلية في البوسنة

بداية النهاية

كان الانقسام العرقي في البوسنة قد بدأ أصلاً قبل استفتاء إبريل 1992، واستقطبت الحروب في سلوفينيا وكرواتيا سكان البوسنة. ولم يخفِ الكروات البوسنيون رغبتهم في الانتماء إلى كرواتيا مستقلة، وحافظ الصرب على موقفهم المتحدي بالبقاء في يوغسلافيا.

ولم يرغب عزت بيغوفيتش، الرئيس البشناقي لدولة البوسنة الحديثة العهد بالاستقلال، في أن ينحصر المسلمون البوسنيون في دويلة صغيرة غير ساحلية بين كرواتيا وصربيا (Nation 2003). وبالنظر إلى الواقع الديمغرافي المتمثل بارتفاع معدل الولادات بين مسلمي البوسنة، يؤكد نيشن (Nation 2003) أن إدارة عزت بيغوفيتش هدفت إلى الحفاظ على تماسك دولة وحدوية يسيطر فيها البشناقيون في نهاية المطاف.

وخلال المراحل الأولى من الحرب، على الرغم من احتواء سراييفو الواضح إلى عنصر عرقي وديني واحد، فقد كانت قوات الجيش والشرطة في العاصمة سراييفو متعددة الأعراق. وكان ثلث المدافعين من الصرب (Fine 2002; Nation 2003). ولكن نظراً للفظائع التي حدثت في المناطق الريفية وحصار سراييفو والعداوات العرقية والدينية الكامنة، أصبح الخوف من وجود مكوّن إسلامي في البوسنة نبوءة تحقق ذاتها. وبحلول خريف 1993، اقتربت النزعة القومية الإسلامية بضراوتها من النزعتين الصربية والكرواتية. وبدأت القيادة المسلمة، التي واجهتها جهود القادة الدوليين لتعزيز الانقسام العرقي بوصفه جزءاً من الحل، في تبني فكرة دولة قومية مسلمة هدفاً لها.

وفي ظل العقوبات المختلفة وحظر الأسلحة المفروض على جمهوريات يوغسلافيا السابقة، طلب البشناقيون الدعم المادي والمالي والمعنوي من إخوتهم في الدين في جنوب غربي آسيا والشرق الأوسط. وسرعان ما ضاعت فكرة وجود بوسنة متعددة الأعراق خلال المراحل الأولى من القتال؛ وتحولت إلى سيناريو "نحن" و"هم" الذي يشكل الدين والعرق مكونه الرئيسي. وقد تصاعد هذا الوضع بفعل وسائل الإعلام الغربية التي هوّلت الفظائع وادعاءات الإبادة الجماعية بشكل مدوٍّ. ودعا عزت بيغوفيتش المقاتلين المسلمين الأجانب، أو "المجاهدين"، إلى مساعدة الجيش البوسني المسلم الذي يتعرض للقصف، مما أدى إلى تغيير طابع الحرب وسمعة المسلمين البوسنيين إلى الأبد (Shrader 2003). وفي نهاية عام 1995، ضمت صفوف القوات البوسنية المسلمة مقاتلين أجانب راوح عددهم بين 600 و3000 مقاتل أجنبي، جلبوا معهم تعصبهم الإسلامي المتشدد (Oluic´ 2008).

وأدى تدفق اللاجئين المسلمين من الأرياف إلى تغيير الطابع والمناخ السياسي في معظم بلدات ومدن المسلمين، وبخاصة في سراييفو. كما ارتفع عدد اللاجئين المسلمين، مع تزايد نسبة الريفيين منهم. ونظراً للمعاملة التي تلقاها اللاجئون المسلمون على أيدي الصرب والكروات، فقد تبنى هؤلاء بسهولة موقفاً غير متسامح تجاه غير المسلمين في البوسنة. وتصاعدت التوترات بين سكان سراييفو العلمانيين وهؤلاء اللاجئين الجدد، وكان أن تغير طابع سراييفو إلى الأبد. وقد تغلغلت الرمزية والمعتقدات الإسلامية في المكاتب العامة والإدارات الحكومية والجيش بعد أن كانت في ما مضى متعددة الأعراق.

تُصور المفاهيم الشعبية الخاطئة طبيعة الحرب الأهلية في البوسنة بأنها شملت أعداداً كبيرة من المتمردين الذين ينشطون في الجبال في إطار حرب عصابات طويلة الأمد. ولكن حرب البوسنة شملت حرباً تقليدية، وموضعية [تتضمن حركة قليلة]، أقرب إلى الحرب العالمية الأولى من صراعات تيتو الحزبية خلال الحرب العالمية الثانية. ووقفت خطوط الخنادق والتحصينات التي تتقدمها حقول ألغام واسعة النطاق، بعضها في مواجهة بعض في جميع أنحاء البوسنة، عبر المنطقة الحرام التي كانت ستبدو مألوفة للجنود الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى. وحتى أواخر عام 1995، كانت معظم العمليات القتالية عبارة عن محاولات للسيطرة على الطرق الرئيسية والتلال والقرى التي تبعد بضعة كيلومترات أو أمتار عن خط الجبهة، وليست ضربات سريعة في عمق أراضي العدو (CIA 2002).

الانقسام بين المسلمين والكروات

كان اتحاد المسلمين والكروات في الشكل تحالفاً ضد قوات الصرب الأقوى عسكرياً. ومع ذلك، وبحلول صيف عام 1992 أعلن الكروات نيتهم إنشاء دولتهم الخاصة باسم دولة "الهرسك والبوسنة" ومركزها موستار. وفي 3 يوليو 1992، انفصل الكروات، معلنين الهرسك والبوسنة دولة ذات سيادة. وفي الواقع، فإن جيش كروات البوسنة، مجلس الدفاع الكرواتي، يخضع بشكل مباشر لسيطرة الجيش الكرواتي (Nation 2003). وكان الاحتكاك بين هؤلاء الحلفاء السابقين حاضراً منذ بداية الحرب.

حدث انهيار تام للتحالف بين الكروات والمسلمين في أوائل عام 1993. وكان التوتر بين الطرفين في ما يخص الحصص من الأسلحة وتوزيع الإمدادات وتنظيم القوات والقيادة والسيطرة بين القادة الكروات والمسلمين على سبيل المثال، شديداً في مراحل مبكرة جداً. وكانت هناك حالات من القتال في مواقع محددة بين الطرفين في أواخر عام 1992 في وسط البوسنة (Nation 2003). وبحلول إبريل 1993، أصبح الحليفان عدوين عندما بدأ القتال المفتوح بشكل جدي في غورني فاكوف وزينيتشا ووادي لاشفا وفي موستار نفسها (Nation 2003; Sells 2003; Shrader 2003). وأدى هذا الاقتتال إلى ارتكاب مجلس الدفاع الكرواتي مجازر وحشية بحق المسلمين في أهميتشي (16 إبريل 2004) وستوبني دو (أكتوبر 1993). وكان حصار الكروات للجزء الذي يسيطر عليه المسلمون من موستار بشعاً بقدر بشاعة حصار الصرب لسراييفو، ولكن الحصار لم يحظ بنفس المستوى من الاهتمام الدولي كحصار سراييفو.

ونظراً للتفوق العددي للمسلمين، فإن العمل العسكري على تضاريس تناسب عمليات المشاة سيكون على نحو متزايد في صالح جيش البوسنة والهرسك الذي طالما مكنهم من تجنب الهزيمة. وبحلول سبتمبر 1993، تم كبح الكروات على أرض المعركة، وبدأ المسلمون باسترجاع المكاسب التي كان جيش الدفاع الكرواتي قد حققها. ومن دون أي تدخل مباشر من قبل قوات من كرواتيا، وجد مجلس الدفاع الكرواتي نفسه في مواجهة مع جيش البوسنة والهرسك. وجاءت الهدنة التي اتفق عليها في فبراير 1994، لتضع حداً "لحرب داخل حرب".

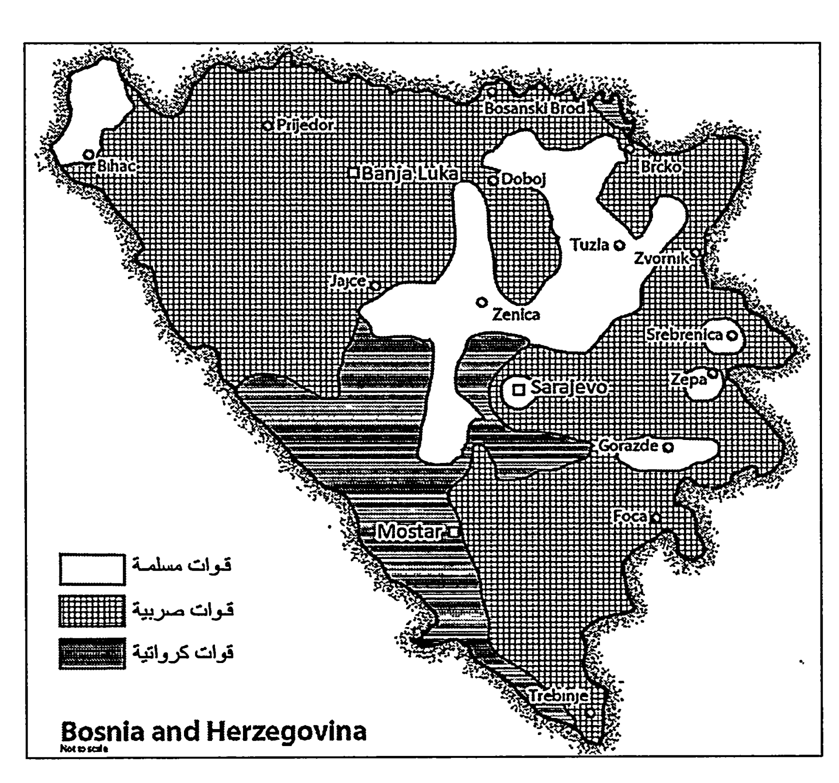
إن اندلاع القتال بين الكروات والحلفاء المسلمين، والحرب الداخلية بين المسلمين في جيب بيهاتش شمال غربي البلاد، يكشف عن تتابع حالات تغيير التحالفات على المستويات الإقليمية (Nation 2003; Burg and Shoup 2000). فقد دعم الصرب في مناسبات كثيرة جهود الجيش الكرواتي ضد المسلمين. وكانت هناك حالات عديدة خلال الحرب الأهلية انحدر فيها مستوى الحرب إلى سلسلة من الصراعات المضطربة من أجل

السيطرة المحلية، وتحالفات المصلحة من دون وجود شعور بأي هدف استراتيجي أوسع (Nation 2003).

وعند اندلاع القتال في البوسنة، كانت وحدات الجيش اليوغسلافي لاتزال تنسحب من كرواتيا إلى البوسنة في إطار اتفاق لوقف إطلاق النار تم برعاية الأمم المتحدة. وهذه القوات، بالإضافة إلى القوات التي كانت متمركزة أصلاً في البوسنة جنباً إلى جنب مع قوات الجيش الشعبي اليوغسلافي من صربيا الأم، شاركت في هذا القتال. وقد تمكن جيش صرب البوسنة، بعد أن ورث أسلحة كثيرة من ترسانة الجيش الشعبي اليوغسلافي، قبل مغادرته البوسنة، من السيطرة على معظم البوسنة بحلول منتصف عام 1993 (انظر الشكل13-3). وبذلك عوّض الصرب عما يفتقدون إليه من المشاة بالمدرعات والمدفعية.

الشكل (13-3)

خريطة تقريبية لمناطق السيطرة (مايو-يونيو 1993)



المصدر: Burg and Shoup (2000).

وقام المجتمع الدولي بمحاولات عديدة لإنهاء الحرب، كـان أشـهرها خطـة لشـبونة كوتيليرو التي انهارت في مارس 1992، وخطة فانس-أوين التي رفضها الصـرب في مـايو 1993، وخطة أوين-ستولتنبرغ التي رفضها المسلمون في سبتمبر 1993. وأصدرت الأمم المتحدة أكثر من 80 قراراً بشأن يوغسلافيا السابقة، وبالفعل فإن العمل الرئيسـي الوحيـد الذي قام به المجتمع الدولي كان نشـر قوات السلام التابعة للأمم المتحدة، والتي ازداد عـددها من 1500 جندي في عـام 1992 إلى أكثـر مـن 23000 بحلـول عـام 1995 (Nation 2003). وفرضت العقوبات على جميع الأطراف المتحاربـة في يوغسـلافيا السـابقة، ولكـن، بـما أن الصـرب والكـروات كـانوا متفـوقين بالعتـاد الحـربي، فـإن المسـلمين وجـيش البوسـنة والهرسك هم فقط من تأثروا بهذه العقوبات.

نظراً للغضب الشعبي بشأن الفظائع والتطهير العرقي الذي ارتكبـه الصـرب، فقـد تحولت سياسة الولايات المتحدة الأمريكيـة في المنطقـة نحـو مسـاعدة المسـلمين. وتجـدر الإشارة إلى أن التركيز الإعلامي وأسلوب إثارة المشاعر كان شبه غائب عـن جميـع الآثـام التي ارتكبها الصـرب عندما ارتكبت القوات الكرواتية والمسلمة الفظائع بحق الصـرب (Burg and Shoup 2000). وفي منتصف مايو 1993، كان السبب الأكبر في رفض خطـة فانس-أوين هو السياسة التي اقترحتها إدارة بيل كلينتون، والتي أطلق عليها اسم "الرفـع والضـرب"، أي رفع حظر الأسلحة المفـروض عـلى المسـلمين وتوجيـه ضـربات جويـة انتقائية من قبل حلف شمال الأطلسـي ضد الصـرب. ولم تكن أي من إدارة جورج بـوش [الأب] أو إدارة كلينتون مقتنعة بالمصالح الحيوية للولايـات المتحـدة في المنطقـة، وظلـت مترددة في قرارها حتى عام 1994.

وبحلول يونيو 1993، أنشأت الأمم المتحدة ستة ملاذات آمنة في البوسنة: سـراييفو وغوراجدة وسـريبرينيتشا وتوزلا وجيبا وبيهاتش. ومع ذلك، كـان المـلاذ الآمـن تعبـيراً ملطفاً لأن الجيوب التي كانت محاصـرة مـن قبـل جـيش صـرب البوسـنة، استـخدمها المسلمون في عديد من المناسبات لشن هجمات ضد الصـرب، لأن الأمم المتحدة لم تجعلهـا

منزوعة السلاح قط (Nation 2003; Burg and Shoup 2000). وتشير التقديرات إلى أن البشناقيين الذين يشنون عملياتهم انطلاقاً من سريبرينيتشا قتلوا أكثر من 3000 جندي ومدني صربي (Rohde 1997; CIA 2002).

أدت هذه الكارثة الإنسانية المستمرة والصور التي بثتها محطات التلفزة في جميع أنحاء العالم إلى مبادرات أكبر من قبل الغرب لوقف القتال. وقد ساعدت مذبحة سوق ماركال التي ارتكتب في فبراير 1994 في سراييفو، وراح ضحيتها 65 شخصاً وأكثر من 200 جريح، والتي يعتقد أنها ناتجة من قذيفة صربية، على حشد عزيمة الغرب لإنهاء الصراع. أعطى حلف شمال الأطلسي إنذاراً أخيراً لقوات الصرب لسحب جميع الأسلحة الثقيلة من "منطقة منزوعة الأسلحة تماماً" بعمق 20 كيلومتراً حول سراييفو (Nation 2003).

أدت تعديات الصرب على الملاذات الآمنة للأمم المتحدة، مثل غوراجدة، وانتهاك "مناطق حظر الطيران" التي فرضتها الأمم المتحدة، والحوادث التي وقعت مع قوات السلام التابعة للأمم المتحدة، إلى قيام حلف شمال الأطلسي بعمل عسكري ضد الصرب. واتسعت مشاركة الولايات المتحدة في البوسنة، لأن العلاقة بين الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي، وانتخابات التجديد النصفي القادمة وسمعتها في العالم الإسلامي ومكانة أمريكا بوصفها زعيمة للعالم أصبحت موضع شك (Nation 2003).

التدخل الغربي

طوال عام 1994، كان للنهج الأكثر حزماً بقيادة الولايات المتحدة تأثير تدريجي على سير الأحداث على الأرض. وكان الغرب يأمل في إمكانية أن تؤدي عملية تسوية الخلافات إلى إحراز تقدم نحو السلام عن طريق التفاوض، وأنه سيتم تحقيقه عن طريق اقتران الدبلوماسية مع العمل العسكري. وانتهى القتال الذي استمر لمدة عام بين الكروات والمسلمين بعد إبرامهم لاتفاقية واشنطن التي تمت تسويتها في بيترسبرغ في ألمانيا. مما أتاح لحزب العمل الديمقراطي المسلم والاتحاد الديمقراطي الكرواتي تنحية

خلافاتهم جانباً من أجل التركيز على عدو مشترك هو جيش صرب البوسنة. إلا أن الاتفاقية لم تؤدِّ إلى مؤسسات مشتركة أو أي التزام جاد بالتعايش (Nation 2003).

بناءً على النجاحات المحدودة التي تحققت في إطار الاتفاق على تشكيل اتحاد الكروات والمسلمين، أجريت محاولات لإعادة تنشيط الجهود الدولية مع تأسيس مجموعة الاتصال في إبريل 1994. واستخدمت هذه الهيئة الدولية المؤلفة من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا، بوصفها منتدى للتعاون ومتابعة مبادرات السلام. في الواقع، وبسبب زيادة عمل الولايات المتحدة، انتهى الأمر بالولايات المتحدة إلى تولي زمام المبادرة الدولية من خلال مجموعة الاتصال (Nation 2003; Burg and Shoup 2000).

وفي نهاية عام 1994 وحتى عام 1995، اخترق المتطرفون الإسلاميون جيش البوسنة والهرسك بشكل أخاف أعضاءه الكروات. ومع استمرار الحرب ازدادت الفظائع المرتكبة، وتدفق المقاتلون الجدد من مناطق المسلمين المنكوبة إلى جانب مقاتلين أجانب، مما أدى إلى دخول الرموز الإسلامية والاقتباسات القرآنية إلى وحدات الجيش.

قامت مجموعة الاتصال بصياغة إطار لتقسيم جغرافي بنسبة 51٪ إلى 49٪ بين اتحاد المسلمين–الكروات والصرب، وعرضته على الجانبين في يوليو 1994؛ فرفض الصرب في نهاية المطاف ذلك الإطار لأنهم غير مستعدين على ما يبدو لتسليم الأراضي التي كسبوها. وتوترت العلاقة بين قوة الأمم المتحدة بما لديها من قوات لحفظ السلام على الأرض في البوسنة، ومنظمة حلف شمال الأطلسي، التي فضلت العمل العسكري المباشر من خلال الضربات الجوية.

نهاية الهيمنة العسكرية لصرب البوسنة

مع بزوغ فجر عام 1995، كان الوضع الراهن في البوسنة غريباً. فقد تمسك الصرب بمكاسبهم، ولم يكن بوسع مجلس الدفاع الكرواتي وجيش البوسنة والهرسك سوى تصعيد الهجمات المحلية (انظر الشكل 13–4). وكان الجيش الكرواتي المدرب تدريباً

أمريكياً والمجهز بعتاد ألماني هو القوة الوحيدة القادرة على الاشتباك مع جيش صرب البوسنة (Nation 2003; Burg and Shoup 2000). واستعاد مجلس الدفاع الكرواتي السيطرة على غربي كرواتيا بالرغم من وجود قوة السلام التابعة للأمم المتحدة، وجر عشرات الآلاف من الصربيين إلى مناطق البوسنة التي يسيطر عليها الصرب وصربيا.

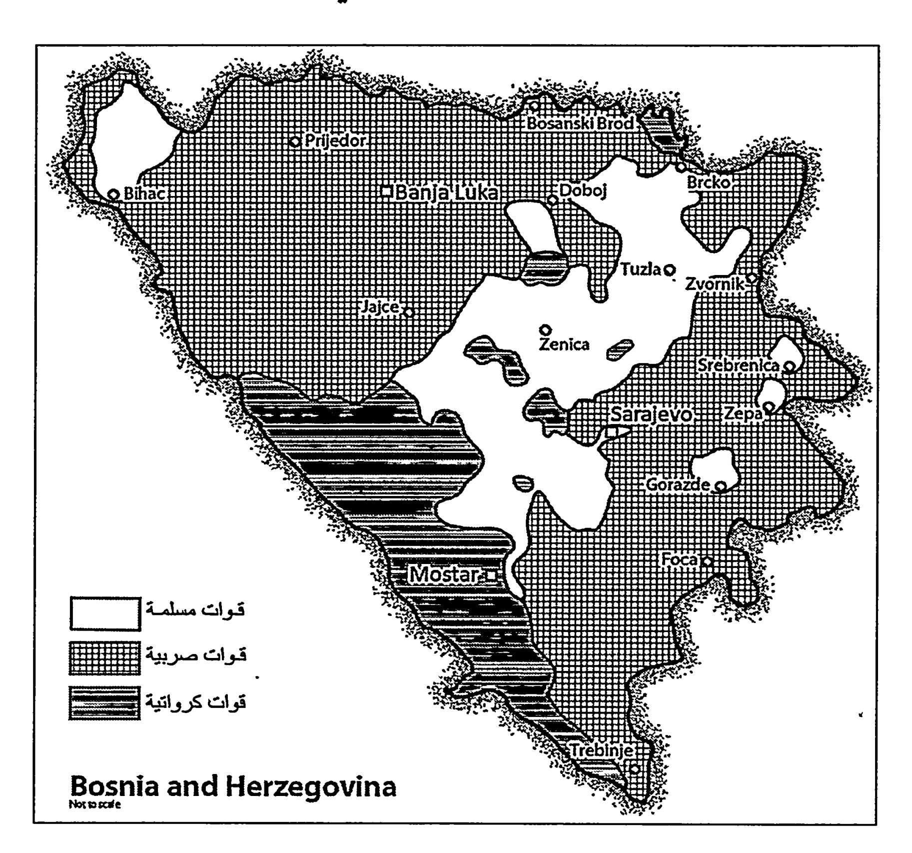
تفاقم العداء بين صرب البوسنة والأمم المتحدة ومنظمة حلف شمال الأطلسي بسبب الأحداث التي وقعت حول الملاذات الآمنة للأمم المتحدة في سريبرينيتشا وجيبا في يوليو 1995، حيث اجتاح الصرب المدينتين في غضون ساعات، ودفعوا بقوات حفظ السلام الهولندية الموجودة في سريبرينيتشا جانباً، وذبحوا الآلاف من السجناء الذكور المسلمين من كلتا المدينتين (Nation 2003; CIA 2002; Burg and Shoup 2000). على الرغم من أن المجزرة حصلت نتيجة الاستفزاز، لأن الملاذات الآمنة لم تكن منزوعة السلاح وكانت تستخدم على أنها قواعد لشن الهجمات منها ضد القرى الصربية، كانت المجزرة فريدة من نوعها نظراً لحجم الرعب الذي سببته ومستوى التخطيط اللازم لتنفيذ العملية. في الواقع، كان التطهير العرقي، الذي ترافق عادة مع الحروب في يوغسلافيا السابقة، واضحاً في سريبرينيتشا. وأسفر تأمين منطقة متنازع عليها لصالح فصيل عرقي عن تدمير منازل العدو وكنائسه أو مساجده ومقابره وكياناته الوطنية؛ وإزالة الأثر التاريخي لوجود المجموعة العرقية الأخرى. كانت جميع الأطراف تمارس هذه الظاهرة، وفي أواخر صيف 1993، كان هناك أكثر من 4 ملايين لاجئ ومشرد في يوغسلافيا السابقة (Nation 2003). وكان التطهير العرقي يعني عملية عسكرية بهدف تطهير الأرض من آثار جميع سكانها السابقين.

في شهري يوليو وأغسطس 1995، أعد الجيش الكرواتي عملية "العاصفة"، وأطلقها لاستعادة السيطرة على منطقة كراينا الصربية في كرواتيا. وبموافقة ضمنية ودعم جوي خفي من الولايات المتحدة، تم إخراج الصرب في غضون أيام، لتفيض البوسنة وصربيا من جديد بعشرات الآلاف من اللاجئين. وأدى ذلك إلى أكبر عملية تطهير عرقي في

الحروب اليوغسلافية، مع تحوّل أكثر من 250000 شـخص إلى لاجئـين (Nation 2003; Burg and Shoup 2000; Glenny 1996). كـان جيش صـرب البوسـنة عـاجزاً عـن مساعدة صـرب كرايينا، لأنه كان منشغلاً جداً بالهجمات التي كان يشنها كروات البوسـنة والمسلمون بالتنسيق مع عملية العاصفة.

الشكل (13-4)

خريطة تقريبية لمناطق السيطرة في مايو 1995



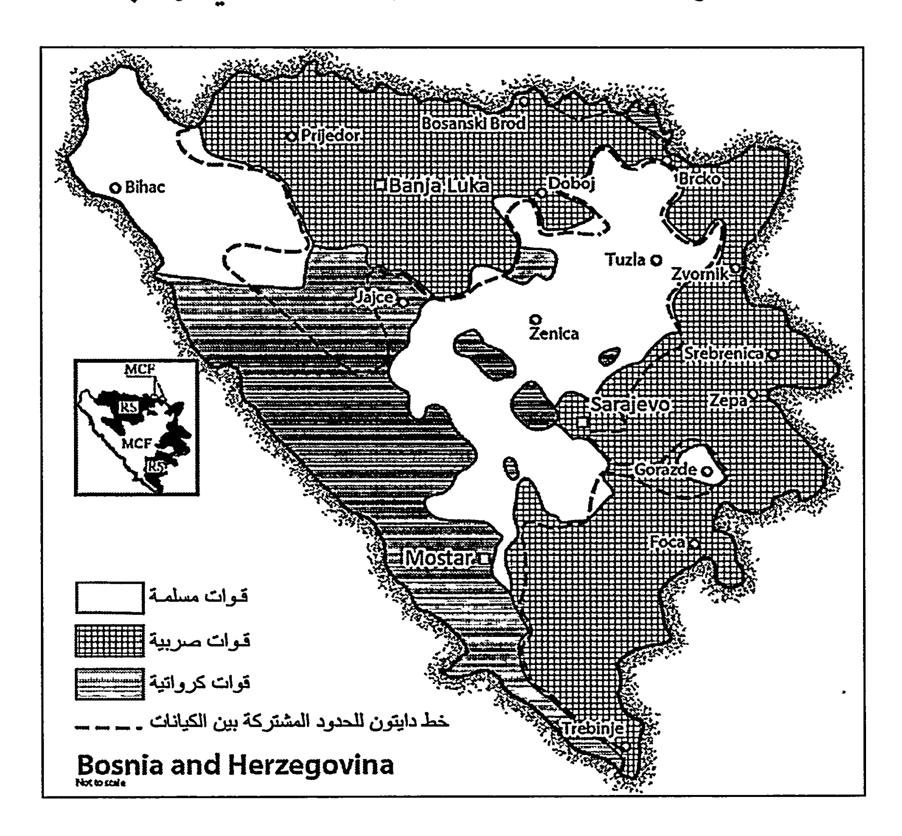
المصدر: Burg and Shoup (2000).

عند انتهاء الهجوم، كان الصـرب قـد فقـدوا أراضـي واسـعة. بالإضـافة إلى هـذه الكارثة، أعطت حادثة قصف أخرى في سـراييفو في 30 أغسطس حلف شمال الأطلسـي ذريعة لشن هجمات جوية واسعة النطاق ضد الصرب. وكانـت الغـارات الجويـة كبـيرة وتهـدف إلى كسـر الحصـار عـن سـراييفو (Nation 2003). وأدى ذلـك إلى تسـريـع

عمليات تقدم المسلمين والكروات، وتزايد خسارة الصرب للأراضي الواقعة تحت سيطرتهم، فأصبحت الخطة التي وضعتها مجموعة الاتصال لتقسيم الأراضي بنسبة 51٪ إلى 49٪ حقيقة واقعة (انظر الشكل 13-5). كان هناك خوف حقيقي من أن يستولي مجلس الدفاع الكرواتي وقوات الاتحاد على مزيد من الأراضي الصربية، ومن أجل وقف هذا التقدم، تظاهرت الأمم المتحدة ومنظمة حلف شمال الأطلسي بالقيام بعمل عسكري لحملهم على الامتثال لهم (Silber and Little 1997; CIA 2002).

الشكل (13-5)

مناطق السيطرة وخط الحدود المشتركة بين الكيانات في نوفمبر 1995



المصدر: Burg and Shoup (2000).

على الرغم من عدم هزيمة جيش صرب البوسنة في الحرب، فإنه لم يتمكن من الاشتباك مع قوات الكروات وكروات البوسنة والمسلمين على طول جبهته بالكامل

وتقليص مكاسبهم الإقليمية. وتغير ميزان القوى العسكرية بشكل كبير على حساب الصرب. وتم عبر الدبلوماسية التي يقودها ريتشارد هولبروك من جانب الولايات المتحدة، الإعلان عن وقف لإطلاق النار في 5 أكتوبر 1995. وقد مهدت المكاسب الميدانية التي حققها تحالف الكروات والمسلمين الطريق لمفاوضات السلام، وتقسيم أراضي البوسنة بموجب اتفاقية دايتون للسلام اللاحقة، إلى قسمين هما "جمهورية صربسكا" *Republika Srpska* التي يهيمن عليها الصرب، و"الفيدرالية البشناقية الكرواتية" *Federacija* ويقودها اتحاد المسلمين والكروات.

الخلاصة

أنهت اتفاقية دايتون للسلام عام 1995 القتال، وأسست البوسنة والهرسك الجديدة بوصفها دولة ذات كيانين. وكان يفصل بين جمهورية صربسكا والفيدرالية خط حدود مشتركة بين الكيانين بطول 1400 كيلومتر، والذي أوجد بجوهره دولتين إقليميتين فرعيتين. فأصبح الصرب يعتبرون بانيا لوكا عاصمتهم ويشرفون على كيان تسكنه أغلبية صربية. كما تنقسم الفيدرالية إلى أقاليم (كانتونات) تسيطر عليها أغلبية البشناق أو الكروات، مع اعتبار سراييفو عاصمة ليس فقط للفيدرالية بل للبوسنة أيضاً. وأصبحت موستار بحكم الواقع عاصمة للكروات التابعين للفيدرالية.

لم يحل اتفاق دايتون للسلام المظالم التاريخية، حتى إن إرث الحرب الأهلية أوجد مزيداً منها؛ فالتقارب لا يمكن تحقيقه. كما أنه أسس لدولة ضعيفة أنيطت السلطة السياسية الحقيقية فيها للكيانات، كما تم إعطاء سلطة التحكم بالدولة لمكتب الممثل السامي الذي يتمتع بحق الفيتو على التشريع البوسني، وسلطة تعيين وفصل الموظفين الحكوميين، والقدرة على اتخاذ تدابير صارمة لإرغام الجماعات العرقية في البوسنة على الامتثال. على الرغم من أن قوات حلف شمال الأطلسي لم تعد تقوم بعمليات حفظ السلام، فقد تولت هذه المهمة شرطة الاتحاد الأوروبي ذات الوجود الصغير في المنطقة.

وكانت العوامل الجغرافية والثقافية والمادية التي شكلت أساس الحرب الأهلية الدامية في البوسنة لاتزال موجودة. ولاتزال المظالم التاريخية والخلافات الدينية والجيران ذوو النزعات التحررية والسياسات القومية والخطب البليغة سائدة في الحياة العامة. وبعد خمسة عشر عاماً من نهاية القتال، لاتزال القوى المركزية ذاتها التي كانت موجودة قبل الحرب موجودة اليوم، وقد تثير مزيداً من الصراع في المنطقة.

الفصل الرابع عشر

أفغانستان:
عملية الحرية الدائمة والتحديات الجغرافية العسكرية

إيوجين بالكا

مقدمة

تتطلب الجغرافيا العسكرية تطبيق المعلومات والأدوات والتقنيات الجغرافية لحل المشكلات عبر طيف يمتد من السلم إلى الحرب. وكل سيناريو عملياتي بغض النظر عن مكان حدوثه على طول هذا الطيف، يفرض مجموعة فريدة من المشكلات. فبعد فترة قصيرة من الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من سبتمبر 2001، شن الجيش الأمريكي عملية الحرية الدائمة بهدف تدمير شبكة أسامة بن لادن التي تضم معسكرات لتدريب الإرهابيين، وتفكيك البنية التحتية للقاعدة، وخلع حكومة طالبان من الحكم. وتم توجيه العملية إلى أفغانستان، ذلك البلد الذي مزقته الحرب، ويبعد أكثر من 11000 كيلومتر عن البرجين التوءمين في نيويورك. وما بدأ بشكل عملية عسكرية بالغة الشدة في سياق حربي، تحول على ما يبدو إلى عملية استقرار ودعم في غضون سنتين، وبعدها بوقت قصير، بدأ الجيش الأمريكي والشركاء الآخرون في التحالف بتولي عدد من مهمات السلم في أفغانستان. وللأسف فقد تدهورت الظروف خلال السنتين الماضيتين، والولايات المتحدة متورطة حالياً في عمليات حربية وغير حربية. وقد أوضح الجنرال ستانلي ماكريستال، قائد قوات المساعدة الأمنية الدولية "إيساف"، التابعة لحلف شمال الأطلسي "الناتو" وقائد القوات الأمريكية في أفغانستان، خلال جلسة الاستماع لإقرار تعيينه أمام مجلس الشيوخ الأمريكي في يونيو 2009، أن السيناريو الحالي هو نتيجة لتمرد حركة طالبان الذي تكيف بسهولة مع الأوضاع الجديدة،

وزيادة مستويات العنف وانعدام القدرة على الحكم واستمرار الفساد وانعدام التنمية في المناطق الرئيسية وتجارة المخدرات والتأثيرات الضارة من بلدان أخرى (French 2009). ويشكل تأثير هذه العوامل مجتمعةً بيئة عمل صعبة للغاية ينبغي فيها للولايات المتحدة وقوات حلف شمال الأطلسي أن تشن حملة شاملة لمكافحة التمرد (French 2009).

وأفغانستان كالعراق تقدم حالة غير مسبوقة، حيث تجري العمليات العسكرية بكل أنواعها، وفي ظروف تفرض فيها الجغرافيا الطبيعية والبشرية معاً تحديات أساسية على قوات التحالف.

يساهم الموقع القاري لهذا البلد وقربه من جبال هملايا في تنوع مناخي ومجموعة متنوعة من الظواهر المناخية العنيفة، في حين أن موقعه بالنسبة إلى حدود إحدى طبقات القشرة الأرضية يؤدي إلى نشاط زلزالي مكثف وجغرافيا طبيعية شديدة الوعورة. في حين ينتج من تاريخ الصراع في البلاد والتنوع العرقي واللغوي وعدم الاستقرار السياسي والفقر والحدود القابلة للاختراق، سيناريو ثقافي معقد وديناميي.

يتناول هذا الفصل أثر جغرافية أفغانستان في العمليات العسكرية؛ إذ أشرح فيه التحديات الناشئة عن موقع البلاد، وأناقش التأثيرات المحتملة للبيئة الطبيعية على جهود محاربة الإرهاب وتحقيق استقرار البلاد وتقديم المساعدة الإنسانية. ومع أن هذا الفصل يركز بشكل رئيسي على الصعوبات التي تفرضها البيئة الطبيعية، فإنني أتناول بإيجاز الجغرافيا البشرية المعقدة التي تشكل على المدى الطويل عوائق أكبر أمام الاستقرار والتنمية الاقتصادية.

تأثير الموقع

يقع المركز الجغرافي لأفغانستان تقريباً شمالي خط العرض 33 درجة، وشرقي خط الطول 65 درجة. وبالنسبة إلى جندي سينتقل من فورت براغ في كارولينا الشمالية، إلى باغرام في أفغانستان، فإن أي تغيير في الموقع المطلق يعني مسافة تبلغ نحو 11500 كيلومتر،

أو نحو ثلاث عشـرة ساعة من السفر جواً، وفرقاً بين المناطق الزمنية يبلـغ تسـع سـاعات ونصف الساعة.

وأفغانستان بلد غير ساحلي يقع في آسيا الوسـطى وتحـده تركمانسـتان وأوزبكسـتان وطاجكستان من الشمال، والصين من الشرق وباكستان من الشـرق والجنـوب، وإيـران من الغرب (انظر الشكل 14-1). وأفغانستان أصغر قليلاً بـالحجم مـن ولايـة تكسـاس، ولكنها تقع على مفترق طرق غرب آسيا.

الشكل (14-1)

أفغانستان ضمن آسيا الوسطى



وكان لموقع أفغانستان تأثير مباشر في العمليات العسكرية خلال عملية الحرية الدائمة. أولاً، يقع البلد في منتصف طريق المسافر حول العالم بالنسبة إلى الولايات المتحدة، مما يجعل نقل الجنود والعتاد إليه مكلفاً ويستغرق وقتاً طويلاً وصعباً. ثانياً، إن عدم وجود حدود بحرية لهذا البلد الواقع في آسيا الوسطى يجعل من غير الممكن الدخول إليه إلا من الجو. وقد أدى هذان الظرفان إلى استنزاف كبير للموارد الجوية. ثالثاً، أفغانستان محاطة ببلدان لم تكن لها أي علاقات سياسية أو عسكرية طويلة الأجل مع الولايات المتحدة. ومن ثم، فإن استخدام المجال الجوي وقواعد الدعم لم يكن له مثيل تقريباً، وقد احتاج إلى مفاوضات واسعة النطاق في بداية الحملة. ومنذ عام 2001، كانت المناورات السياسية وتطوير البنية التحتية والتعويضات المالية الضخمة ضرورية لمواصلة استخدام القواعد الأساسية مثل قاعدة ماناس الجوية في قرغيزستان. وحققت الولايات المتحدة نجاحاً أقل مع كارشي-كاناباد K2، وهي مطار استراتيجي ومركز للإمدادات اللوجستية تم استئجاره من أوزبكستان منذ بداية عملية الحرية الدائمة، حتى أمرَ البلدُ المضيف الولايات المتحدة بالانسحاب في عام 2005. وبالتالي، هناك تحدٍّ مستمر أمام الولايات المتحدة ينشأ من موقع أفغانستان البعيد، بالإضافة إلى صعوبة الوصول إليها ضمن منطقة آسيا الوسطى.

المشهد الطبيعي

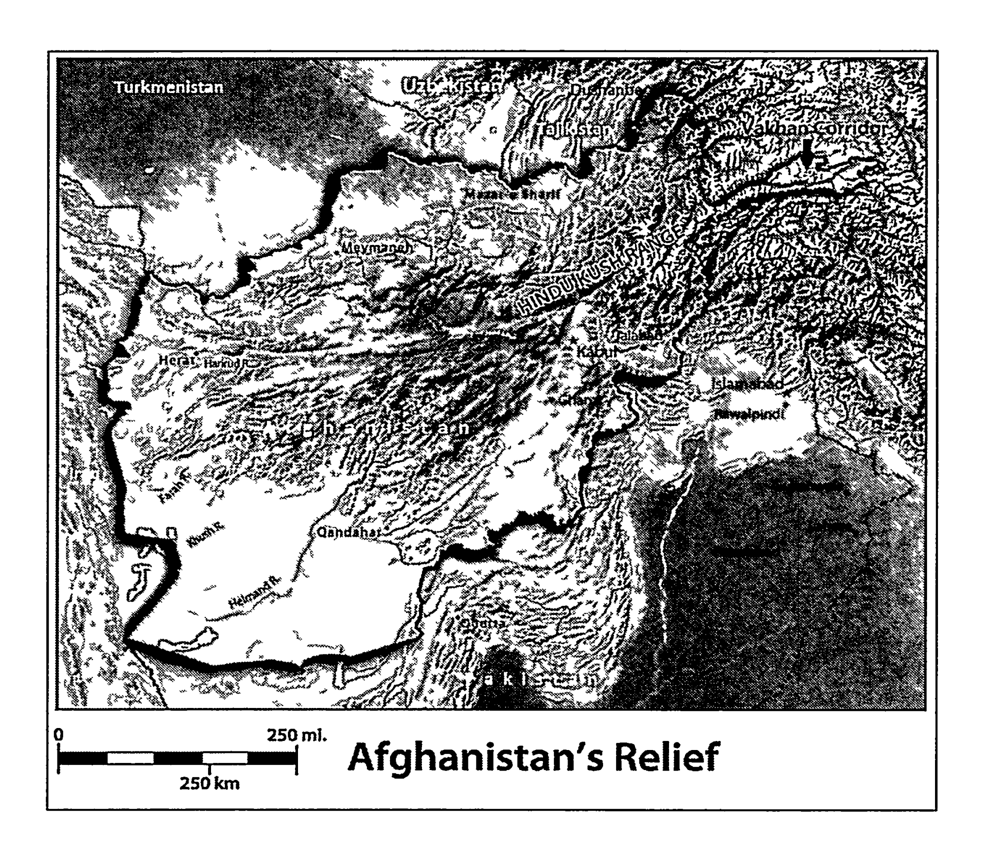
تتميز الجغرافيا الطبيعية في أفغانستان بتنوعها؛ فهناك تغيرات في الارتفاع بشكل حاد. ويتنوع المناخ، والتربة، والغطاء النباتي بشكل كبير من مكان إلى آخر. ورغم المفاهيم الشائعة حول بيئتها الطبيعية غير الملائمة، فإن الثقافات راسخة الجذور فيها حالياً منذ آلاف السنين (Palka 2001). وفهم المشهد الطبيعي هو خطوة أولى نحو استباق الآثار المترتبة على العمليات العسكرية، فضلاً عن فهم أساليب الحياة لسكان البلاد.

الطبوغرافيا

المشهد الطبيعي الدينامي في أفغانستان مستمر بالتشكل بفعل قوى الطبيعة وتغلب عليه التضاريس الجبلية. وتشكل سلسلة جبال هندوكوش حاجزاً بين المحافظات الشمالية وبقية البلاد. وتقسم سلسلة الجبال أفغانستان إلى ثلاث مناطق جغرافية مختلفة: المرتفعات الوسطى والسهول الشمالية والهضبة الجنوب غربية.

الشكل (14-2)

تضاريس أفغانستان وتظهر فيها سلسلة جبال هندوكوش الوعرة



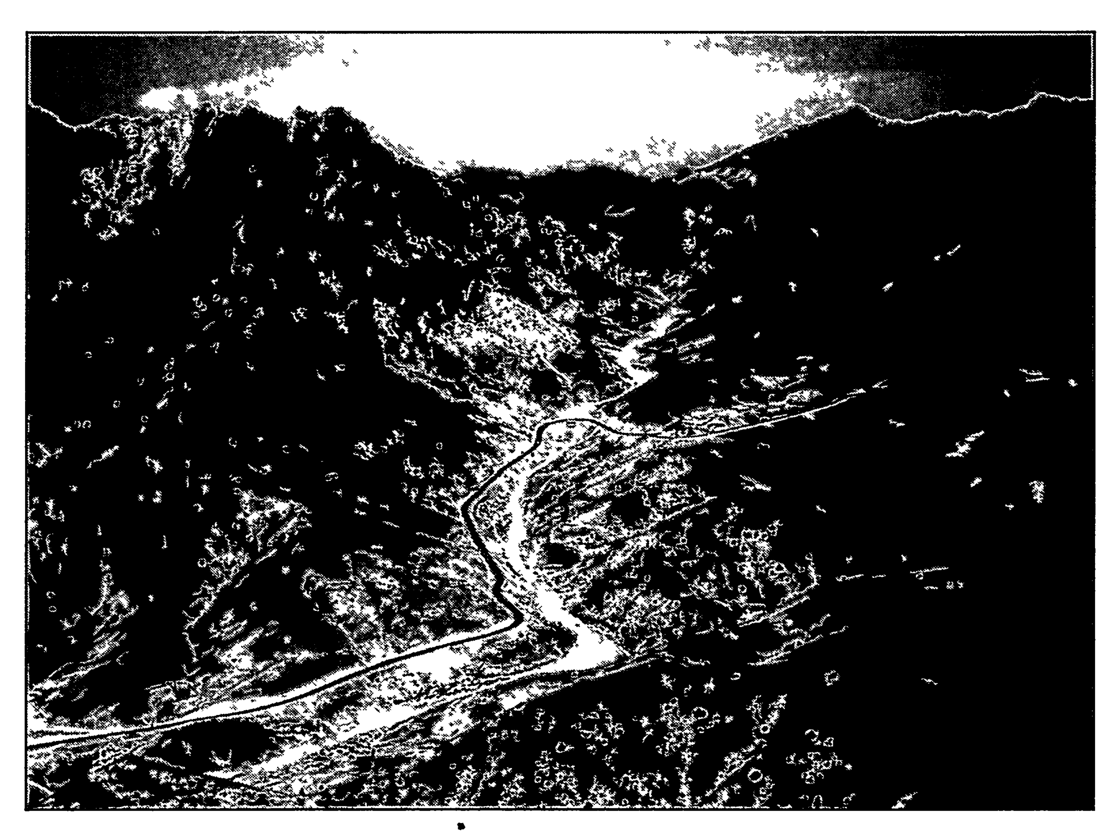
وتشكل المرتفعات الوسطى نحو 70٪ من مساحة البلاد، وتتألف بشكل رئيسي من سلسلة جبال هندوكوش، ومرتفعات وعرة ومغطاة بالثلوج، غالباً ما توصف بأنها إحدى أكثر مناطق العالم مناعةً على الاختراق. وتشكل سلسلة جبال هندوكوش الطرف

الغربي لجبال الهيمالايا وتمتد بطول 1000 كيلومتر تقريباً باتجاه الجنوب الغربي من ممر واخان في الشمال الشرقي تقريباً إلى الحدود مع إيران في الغرب (انظر الشكل 14-2). وتشكل السهول الغربية نحو 15٪ من مساحة البلاد، وتتألف من تلال وسهول يمر عبرها نهر آموداريا. ويبلغ متوسط الارتفاع فوق مستوى سطح البحر نحو 600 متر ("Land and Resources," Microsoft "Encarta" Online Encyclopedia 2001). وتتكون منطقة الهضبة الجنوب غربية من صحارى رملية وهضاب مرتفعة. ويبلغ متوسط الارتفاع نحو 900 متر ("Land and Resources," Microsoft "Encarta" Online Encyclopedia 2001).

أثرت طبوغرافية أفغانستان في العمليات العسكرية بعدة طرق. فالجبال الوعرة والمرتفعات العالية فرضت تحديات كبيرة على حركة القوات وعمليات الإمداد والاتصالات وعمل المعدات والأسلحة. وقليلة هي الطرق التي تخترق المرتفعات الوسطى، حيث تمت معظم النشاطات العسكرية خلال عملية الحرية الدائمة، كما أن الطرق التي تخترقها مقيدة للغاية (انظر الشكل 14-3). ولذلك يتم نقل الجنود بوساطة الطائرات الحوامة لأن الحركة على الأرض بطيئة وتشبه السير في قنوات، وغالباً ما تكون غدارة بسبب مخاطر الألغام الأرضية. ولكن على الارتفاعات التي تزيد على 8000 قدم، تنخفض قدرات الحمل بالنسبة إلى الطائرات الحوامة المهاجمة التابعة للجيش. ولذلك غالباً ما يتم استخدام الطائرات الحوامة من طراز شينوك (التي تستخدم عادة لنقل الإمدادات اللوجستية) لنقل الجنود وإعادة توزيعهم. وغالباً ما تكون الاتصالات سيئة بسبب اعتماد بعض النظم على علاقات "خط الرؤية" حتى تعمل بصورة فاعلة. وأحياناً تكون المعدات بجميع أنواعها معطلة بسبب ظروف البرد القارس أو الجليد أو الثلج التي تحدث في الارتفاعات العالية. وأخيراً، تكون تأثيرات بعض منظومات الأسلحة (مثل مدافع الهاوتزر) معدومة بسبب الحاجة لإطلاق النيران بزاوية عالية نظراً لشدة انحدار التضاريس ووعورتها. كما أن إعادة تموضع سلاح المدفعية صعبة، سواء تم ذلك على مسافات قصيرة أو طويلة بسبب الحاجة لاستخدام الطائرات الحوامة لدعم عمليات الإزاحة.

الشكل (14-3)

طريق حسنته وعبدته الولايات المتحدة شـرقي كابول يتناقض بشكل كبير مع المشهد الطبيعي الوعر والقاسي



المصدر: Eugene J. Palka.

الكهوف

تتألف سلسلة جبال هندوكوش إلى حد كبير مـن صـخور الصـوان والشسـت التـي برزت خلال فترة تراوح بين 5 و70 مليون سنة مضت. ويعلو هذه المواد الأساسية الحجـر الجيري، والطَفْل الطينيّ، والطين؛ وتعمل هذه المواد الأخيرة على خلـق الظـروف المثاليـة للكهوف. وتشكل المرتفعات الوسطى منطقة واسعة من تشكيلات الكهوف التي تنتشـر أفقياً لتغطي منطقة تبلغ مساحتها نحو ثلثي حجم ولايـة تكسـاس، في حـين تضـم أيضـاً سلسلة عمودية كبيرة من التضاريس.

تقدّر هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية أن هناك أكثر من 10000 كهف في النصف الشرقي من البلاد. وتمتد بعض شبكات الكهوف تحت الأرض لعدة أميال ولها عشرات الفروع. ومعظمها لم يتم استكشافه بعد على الرغم من حقيقة أنها وفرت المأوى – إن لم تكن الإقامة – لبعض سكان البلاد الحاليين والسابقين على طول مئات السنين. تتشكل الكهوف بشكل طبيعي، ولكن تم تطوير كثير منها باستمرار مع مرور الزمن لتلائم الحاجات المحددة لرعاة الماعز واللاجئين وحتى الإرهابيين (Palka 2008).

كان تنظيم القاعدة وحركة طالبان في وقت من الأوقات يعتبرون الكهوف ملاذات آمنة. وتعتبر مخابئ الأسلحة والذخائر والمعدات واللوازم والمختبرات تحت الأرض براهين على جدوى وأهمية التشكيلات تحت الأرض (Palka 2008). فقد كان من الصعب على القوات الأمريكية تحديد مواقع الكهوف والتأكد من أنه يتم استخدامها لأغراض حربية أو إرهابية. وعندما يتم تحديدها، يبقى من المعقد استهداف كهوف معينة بالذخائر ونظم الإطلاق المناسبة، وكذلك إرسال الجنود إلى داخل المجمعات للقيام بعمليات تفجير للمواقع الحساسة (انظر الشكل 14-4). وخلال عملية أناكوندا وما بعدها، صادرت القوات الأمريكية أو دمرت أسلحة العدو في الكهوف، وجعلت المجمعات غير صالحة للاستعمال ما أمكن ذلك (Palka 2008). ولكن هذه النشاطات كانت خطرة وتستغرق وقتاً طويلاً، وإنجازها في غاية الصعوبة بسبب قدرة بعض الكهوف على تحمل الذخائر التقليدية.

التربة

أفغانستان لديها أنواع من التربة التي تتوافق مع تضاريس مناطقها. فالسهول الشمالية تشكل المنطقة الأكثر خصوبة في البلاد، وتشكل نحو 15٪ من مساحة الأرض. أما منطقة الهضبة الجنوب غربية فتربتها عقيمة عموماً، ماعدا تربة الأراضي الممتدة على طول الأنهار. وتتنوع التربة في المرتفعات الوسطى تنوعاً كبيراً مع تنوع الارتفاعات. فأراضي الأودية هي الأكثر خصوبة، في حين الأراضي ذات الارتفاعات المتزايدة تربتها صخرية ورقيقة تتوافق مع المناخات غير المتمايزة في المرتفعات.

الشكل (14-4)

جندي من الفرقة المجوقلة 82 يفتش كهفاً في وادي باغني بأفغانستان أثناء مشاركته في عملية الحرية الدائمة



المصدر: US Army photo by SGT Vernell Hall.

تؤثر أنواع التربة وخصائصها في أفغانستان في العمليات العسكرية بعدة طرق: أولاً، وبغض النظر عن حجم الجسيمات أو تركيبها، فإن الهواء المحمل بالغبار والرمال يشكل مصدر إزعاج للجنود ويحد من مدى الرؤية. ثانياً، العواصف الترابية وما يرافقها من السحب الترابية التي تجعل ظروف الطيران في غاية الخطورة بالنسبة للطائرات الحوامة وتعقد عمليات الانتشال والإنزال. ثالثاً، إن الرمال التي تهب مع الرياح لها أثر كاشط على مكونات الطائرات ومنظومات الأسلحة ومعدات الاتصال. رابعاً، يعوق الغبار القدرات البصرية للأسلحة وأجهزة جمع الاستخبارات، ويعرقل تحقيق الأهداف. وأخيراً، تتكون السحب الغبارية أثناء هبوط الطائرات الحوامة وإقلاعها، وهذا يشكل دليلاً تمكن مشاهدته من على بعد أميال عديدة، مما يجعل من الصعب الحفاظ على أمن العمليات.

الزلازل

تعد المنطقة الشمالية الشرقية من أفغانستان واحدة من أكثر المناطق النشطة زلزالياً في العالم. ويقسم هذه المنطقة صدع متحول بين الصفائح الأوراسية والصفائح الهندية-الأسترالية. وتتحرك الصفيحتان مبتعدتين بعضهما عن بعض منتجتين نشاطاً زلزالياً متكرراً (Hudson and Espenshade 2000). ومن الزلازل الكارثية الأخيرة الزلزال الذي ضرب محافظة تاخار في 4 فبراير 1998، على بعد نحو 50 كيلومتراً من الحدود مع طاجكستان. وقد ضرب زلزال (شدته 6.1 درجات على مقياس ريختر) 28 قرية، وقتل حوالي 4000 شخص، وترك 20000 شخص من دون مأوى ("Thousands reported killed in Afghanistan quake" 1998). وبعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر فقط، في 30 مايو، وقع زلزال بلغت قوته 6.9 على طول الحدود من مقاطعتي بدخشان وتاخار مرة أخرى في شمال شرقي البلاد. وقتل ما يقرب من 4000 شخص، وقد تأثر بهذا الزلزال 70000 شخص في 70 قرية ("Impact of the earthquake" 1998).

بعد وقت قصير من بدء عملية الحرية الدائمة، ضربت ثلاثة زلازل كبرى منطقة شمال كابل. الأول حدث في 3 مارس 2002، وكان مركزه يبعد أقل من 150 ميلاً عن باغرام، حيث مركز القيادة وقاعدة العمليات الخاصة بقوات التحالف. وذهب ضحيته أكثر من 100 شخص. وحدث زلزالان آخران يومي 25 و26 مارس على بعد 50 ميلاً فقط من باغرام. أحدهما كانت شدته 5.9 درجات على مقياس ريختر، ولكن طبيعته السطحية خلفت أضراراً كبيرة وراح ضحيته بحسب التقديرات 1800 شخص.

في هذه المناطق الجبلية، عادةً ما تؤدي الزلازل إلى انهيارات أرضية مدمرة. كما أن الأمطار الغزيرة التي تسبق الزلازل تفاقم الأمور بفعل تحفيزها للانهيارات الطينية التي يمكن أن تسبب دماراً هائلاً وتجعل الطرق غير سالكة. كما أن المساكن المنتشرة على سفوح الجبال والمبنية من الطين المشوي تحت الشمس، يمكن أن تنجرف بعيداً بكل سهولة. كما يمكن أن تدمر الانهيارات الأرضية مصادر المياه من خلال انهيار الآبار

والينابيع (Impact of the earthquake" 1998"). وقد حدث كل من هذه الآثار خلال الزلازل التي ضربت في ربيع عام 2002. وفي خضم عملية أناكوندا، ساعدت جهود الإغاثة الضخمة التي قامت بها القوات الأمريكية في توفير الغذاء والرعاية الطبية والماء والمأوى ومواد البناء للحد من بعض آثار الدمار. وكانت جهود الإغاثة الإنسانية قضية نبيلة، ولكنها حرفت الموارد المهمة عما كان في ذلك الحين أطول حرب برية أمريكية منذ حرب فيتنام.

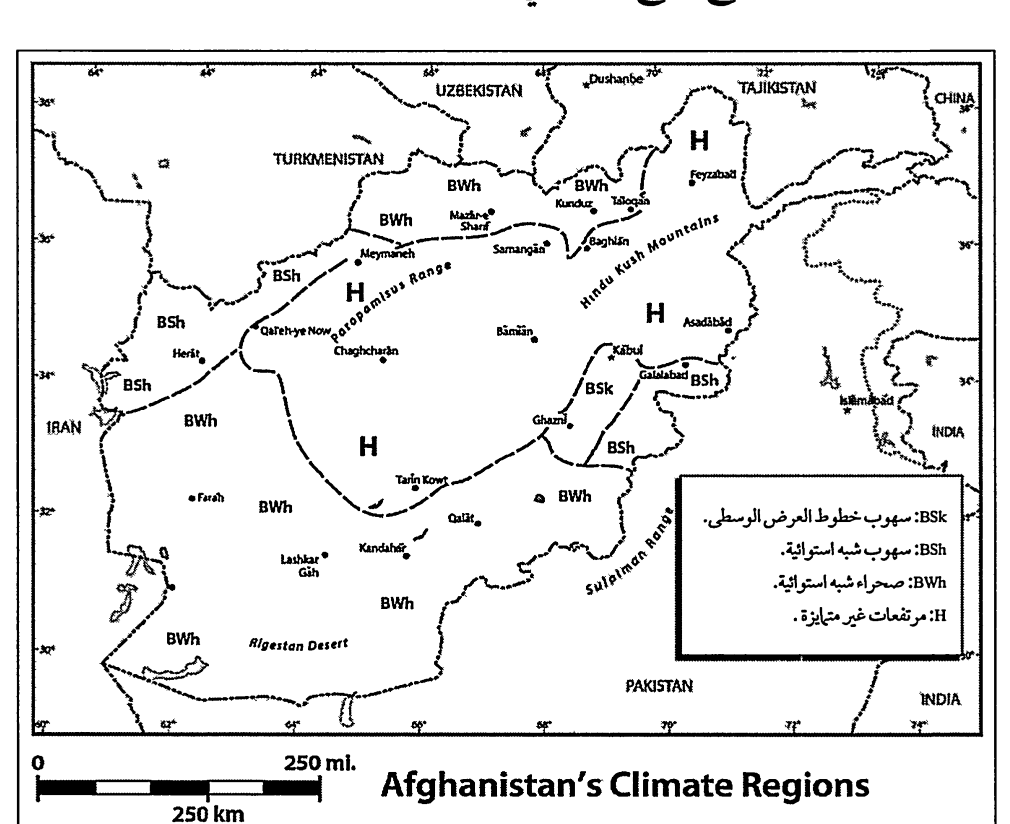
المناخ

يظهر مناخ أفغانستان سهوباً شبه استوائية إلى خطوط العرض الوسطى في معظم المناطق، وصحارى شبه استوائية أكثر جفافاً في أمكنة أخرى (انظر الشكل 14-5). وتشهد البلاد صيفاً حاراً وشتاءً بارداً، ومع ذلك، فإن فصل الشتاء في المناطق المرتفعة يكون أشد. وكثيراً من الأحيان تتجاوز درجات الحرارة في فصل الصيف 38 درجة مئوية، ولاسيما في جنوب غربي البلاد، في حين أن أدنى مستوياتها في فصل الشتاء يمكن أن تنخفض إلى أقل من -25 درجة مئوية (AFCCC 1995). تؤثر الجبال العالية في المناخات المحلية من خلال انخفاض درجات الحرارة على الارتفاعات العالية، والتأثير في نظم هطولات الأمطار. وأغلبية الهطولات المطرية تحدث في فصل الشتاء وبداية الربيع، حيث تكون الأحوال الجوية في مناطق مثل كابل غائمة وضبابية ومثلجة.

تؤدي سلسلة جبال هندوكوش دوراً رئيسياً في تحديد المناخ المحلي. فزيادة الهطولات المطرية بسبب الارتفاعات الجبلية وانخفاض درجات الحرارة تؤدي إلى مناخات غير متوقعة للمنطقة. فتغييرات الارتفاع والانحدار والرياح السائدة تجعل من الصعب توصيف الأراضي الوسطى في أفغانستان (Pannell 2004). ولذلك وصفت هذه الأخيرة بأنها مرتفعات غير متمايزة (H). فالظروف القاسية هي القاعدة، ويمكن لأحوال الطقس الشديدة مثل تساقط الثلوج بغزارة أن تجعل الطرق والممرات غير سالكة لأسابيع أو أشهر. ومن الشائع أن تكون الممرات العالية مغلقة خلال الفترة من نوفمبر وحتى أواخر مارس، وتكون الثلوج المتراكمة دائمة على الارتفاعات التي تزيد على 3655 متراً (AFCCC 1995).

الشكل (14-5)

نماذج المناخ الإقليمي بناءً على بيانات المحطة



المصدر: Air Force Combat Climatology Center, OCDS, 1995.

وتصنف المنطقة الشمالية حول مزار شريف على أنها صحراء شبه استوائية (BWh). وتصل الهطولات المطرية النادرة إلى ذروتها في مطلع فصل الربيع وهي متقطعة للغاية، وذلك اعتماداً على أعلى درجات الحرارة السيبيرية (Pannell 2004). والمنطقة محاطة بمناطق ذات هطولات مطرية متنوعة جداً بحيث يمكن تصنيفها بأنها سهوب شبه استوائية (BSh).

وتعتبر منطقة راجستان الجنوبية أكبر امتداد للصحراء في البلاد. والمنطقة حول قندهار وباست وفراه تغلب عليها درجات الحرارة المرتفعة شبه الاستوائية طوال العام

وهي جافة للغاية. وتحميها سلاسل الجبال إلى الشمال في فصل الشتاء من تـأثيرات الريـاح الموسمية الشمالية الغربية، مما ينتج منه ظروف جافـة. ومـع ذلـك، قـد تـنخفض درجـات الحرارة إلى ما دون الصفر. ويتميز فصل الصيف فيها بدرجات الحرارة الشديدة الارتفـاع التي تتجاوز 45 درجة مئوية في يوليو (AFCCC 1995).

وأخيراً، في مناطق السهوب الشـرقية حول كابل وجلال أباد، تكون الأحوال الجوية أبرد وأكثر رطوبة ولاسيما في فصل الشتاء. وتشهد كل من جلال أباد وخوسـت مناخـات السهوب شبه الاستوائية (BSh). ولكن هنـاك تـدرجاً في المنـاخ مـع تزايـد الارتفـاع إلى الغرب. وتتميز كل من كابل وغزني بارتفاعات أعلى إلى حد كبير، ويكون معدل درجـات الحرارة الشهرية فيها أقل من الصفر، ما ينتج منه مناخ سهوب خطوط العـرض الوسـطى (BSk).

وتؤثر ضوابط المناخ مثـل الارتفـاع والحالـة القاريـة تـأثيراً كبـيراً في نظـم درجـات الحرارة، في حين تؤثر نظم الضغط والحـواجز الطبوغرافيـة في أنـماط هطـولات الأمطـار. والنتيجة هي مناخ يصل إلى الحـدود القصـوى: صـيف لاذع وشـتاء قـارس، وصـحارى قاحلة، ومرتفعات تكسوها الثلوج.

كان المناخ والطقس من العوامل الرئيسية التي تؤثر في جميع خطط التحالف وعملياته تقريباً. فقد تم تأجيل عملية أناكوندا (فبراير ومارس 2002)، على سبيل المثال، لمدة ثلاثـة أيام بسبب سوء الأحوال الجوية في المناطق المستهدفة. وتعد الغيـوم المنخفضـة والضـباب الكثيف والعواصف الثلجية أو المطر المتجمد من الحوادث الشائعة خـلال أشـهر الشـتاء، وفي كثير من الأحيان تحد من الرؤية أو حتى تحول دون إقلاع عدة أنـواع مـن الطـائرات. وفي أشهر الربيع والصيف، يمكن للعواصف الترابية أن تربك عمليـات الطـيران بشـكل متكرر. وتكون عمليـات النقـل الجـوي التـي ينفـذها سـلاح الجـو، والطلعـات الجويـة التكتيكية، وطائرات الاستطلاع كلها غير فعالة خلال بعض الفترات التـي تشـهد طقسـاً شديد القسوة، وكذلك مروحيات الجيش.

تجري في العادة عمليات إعادة الإمداد اللوجستي في جميع أنحاء البلاد بالمقام الأول عن طريق الجو، وبدرجة محدودة عن طريق البر. في كلتا الحالتين، كثيراً ما تنقطع عمليات الدعم اللوجستي بفعل الأحوال الجوية السيئة. ويمكن أن تتضرر الحركة البرية بفعل الثلوج الكثيفة التي يمكن أن تغلق الممرات الجبلية، كما يمكن ألا تكون الظروف مواتية للتحليق أو القيادة بسبب العواصف الترابية التي قد تستمر لعدة أيام.

كما تؤثر ظروف ارتفاع درجات الحرارة والرياح سلبياً في العمليات العسكرية، حيث تحد من قدرات الطائرات التي تعمل من دون طيار، والتي لاتزال تستخدم على نطاق واسع خلال العمليات القتالية.

وينبغي ألا نغفل المشكلات المرتبطة بالمياه؛ لأن توافر المياه وجودتها يشكل مصدر قلق مستمراً في جميع المناطق القاحلة من أفغانستان. كما أن التضاريس الوعرة وعدم وجود الطرق المناسبة يزيد من صعوبة نقل الموارد الأساسية إلى المناطق التي تعاني النقص.

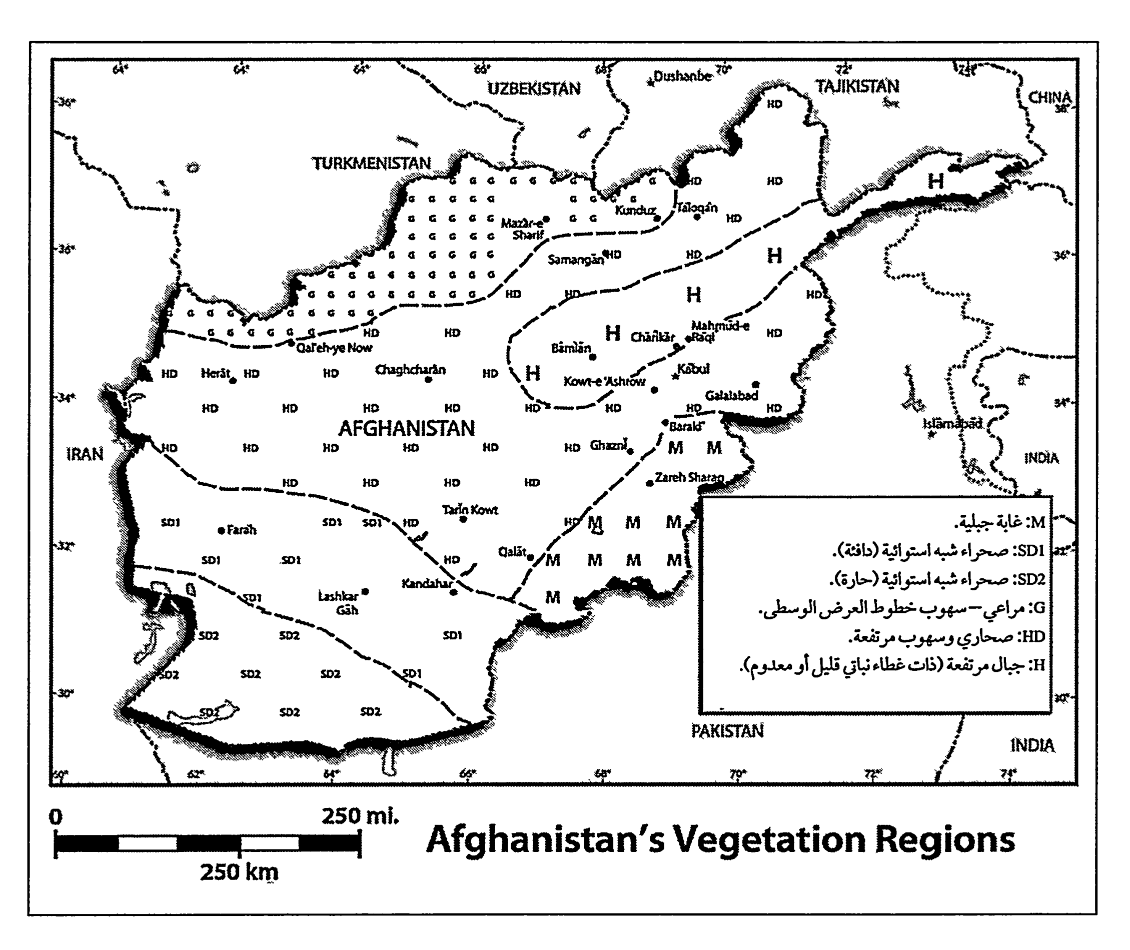
الغطاء النباتي

تشغل الجبال ثلثي مساحة أفغانستان، حيث الغطاء النباتي قليل أو معدوم؛ كما تشغل الصحراء سدس مساحة البلاد؛ وتشكل المراعي والأراضي الزراعية سدس المساحة أيضاً (Saba 2001، انظر الشكل 14-6). وتعد 3٪ من أراضي أفغانستان مكسوة بالغابات وهي تتركز في الجزء الشرقي من المرتفعات الوسطى. كما أن الأراضي الحراجية موجودة في الطرف الغربي الذي يشهد أمطاراً موسمية في الصيف.

وتصنف معظم المرتفعات الوسطى بأنها صحراء شبه استوائية وسهوب عشبية في خطوط العرض الوسطى. وتميل الأعشاب والنباتات العشبية ذات الأوراق العريضة إلى أن تكون متباعدة على نطاق واسع. وقد يكون الغطاء النباتي أكثر كثافة وامتداداً في مواقع محمية، أي على طول الممرات المائية والأمكنة الرطبة الأخرى (Anderson 2004). وبشكل عام، الغطاء النباتي متناثر في الصحراء ذات المرتفعات ومناطق السهوب.

الشكل (14-6)

أنماط الغطاء النباتي في أفغانستان



المصدر: Anderson (2004).

وتمتد الهضبة الجنوبية الغربية على مساحة قدرها 50 ألف ميل مربع من التربة الفقيرة (حيث التربة الجافة هي الأكثر شيوعاً) والغطاء النباتي المتناثر. كثير من النباتات هي نباتات صحراوية أو عوابر (قصيرة الأجل)، ولكن في المناطق الجنوب غربية الأشد حرارة، نجد الأرض جرداء.

ويصنف الغطاء النباتي في السهول الشمالية بأنه سهوب عشبية في خطوط العرض الوسطى. وتشمل هذه المنطقة التي تمتد على مساحة قدرها 40 ألف كيلومتر مربع أكثر

أنواع التربة خصوبة في أفغانستان ومناخاً مواتياً (Saba 2001). وتشمل النباتات الشائعة الأعشاب القصيرة والأعشاب ذات الأوراق العريضة في الأمكنة الرطبة، والأعشاب العنقودية والشجيرات الجافة في المواقع الأكثر جفافاً (Anderson 2004).

يتيح الغطاء النباتي إخفاء الجنود والمعدات ونظم الأسلحة، وبعض النشاطات. وتعني طبيعة الغطاء النباتي المتناثر في هذا البلد صعوبة الحصول على مزية التخفي الكافي عموماً. والنتيجة هي تعزيز المراقبة وزيادة قدرات رصد الأهداف، وهذه على العموم أخبار جيدة للقوات الأمريكية وسيئة لتنظيم القاعدة وقوات طالبان. وهناك مشكلة واحدة بعينها تخص موقع الغابات الجبلية في أفغانستان على الأراضي المجاورة للحدود مع باكستان. ففي هذه المنطقة بالذات، يعمل الغطاء الحراجي على تعزيز نفاذية الحدود من خلال إخفاء الممرات ونشاطات التنقل التي يقوم بها تنظيم القاعدة وقوات طالبان بين أفغانستان والمناطق القبلية الخاضعة لإدارة الحكومة الاتحادية في باكستان ووزيرستان.

البيئة البشرية

إن تأثير البيئة الطبيعية في أفغانستان يتناول مجرد جزء من التعقيدات التي تواجهها القوات الأمريكية وقوات التحالف (انظر الشكل 14-7). فالفقر المدقع والتناقض الثقافي الداخلي واستمرار الاضطراب السياسي والمشهد الثقافي الذي مزقته الحرب وانعدام البنى التحتية، جميعها عوامل تسبب انعدام الاستقرار وتعوق عمليات الإغاثة الإنسانية وجهود بناء الدولة التي كانت جارية طوال عملية الحرية الدائمة (انظر: see Economist 2001; Kaplan 2000; Lahood 2004; Lohman 2004; Malinowski 2004). وبكل المقاييس، تعد أفغانستان من الدول المصنفة في أدنى مستوى من حيث جودة الحياة في العالم؛ فقلة من المواطنين فيها يحصلون على دخل كاف ونظام غذائي مستقر والرعاية الطبية والتعليم والمياه النظيفة والحريات الشخصية، والتي تسهم مجتمعة في ترسيخ عقلية البقاء بين أغلبية السكان (انظر الشكل 14-8).

التعقيد الثقافي

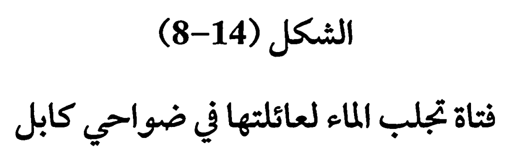
جـذبت أفغانسـتان بموقعهـا الجغـرافي بـين دول الإمبراطوريـات السـابقة في آسـيا الوسطى وبلاد فارس وجنوبي آسيا، الغزاة والمستعمرين على حد سواء. ولكن التضاريس الوعرة للمنطقة سهلت العزلة، بالإضافة إلى أنها أعاقت عملية التبادل الثقافي أو التقـارب الثقافي. وتشير التقديرات إلى وجود 45 لغة ضمن البلـد (Ethnologue 2001). وبعـض اللغات ترتبط عموماً بمجموعات عرقية محددة (انظر الشكل 14-9). ولكن مـن الجـدير بالذكر أن العرب ليسوا جزءاً من أي مجموعة عرقية في أفغانستان، ويتحدث بضـعة آلاف من الناس اللغة العربية خارج نطاق الشعائر الدينية (Malinowski 2004).

الشكل (14-7)

جندية أمريكية مع فريق إعادة إعمار المحافظات في جلال أباد تتحدث إلى أطفال أفغانيين خلال بعثة المساعدات الإنسانية التي أرسلت لمصلحة نحو 100 عائلة نازحة تعيش في ضواحي جلال أباد



المصدر: US Army Photograph.



الشكل (14-8)

فتاة تجلب الماء لعائلتها في ضواحي كابل



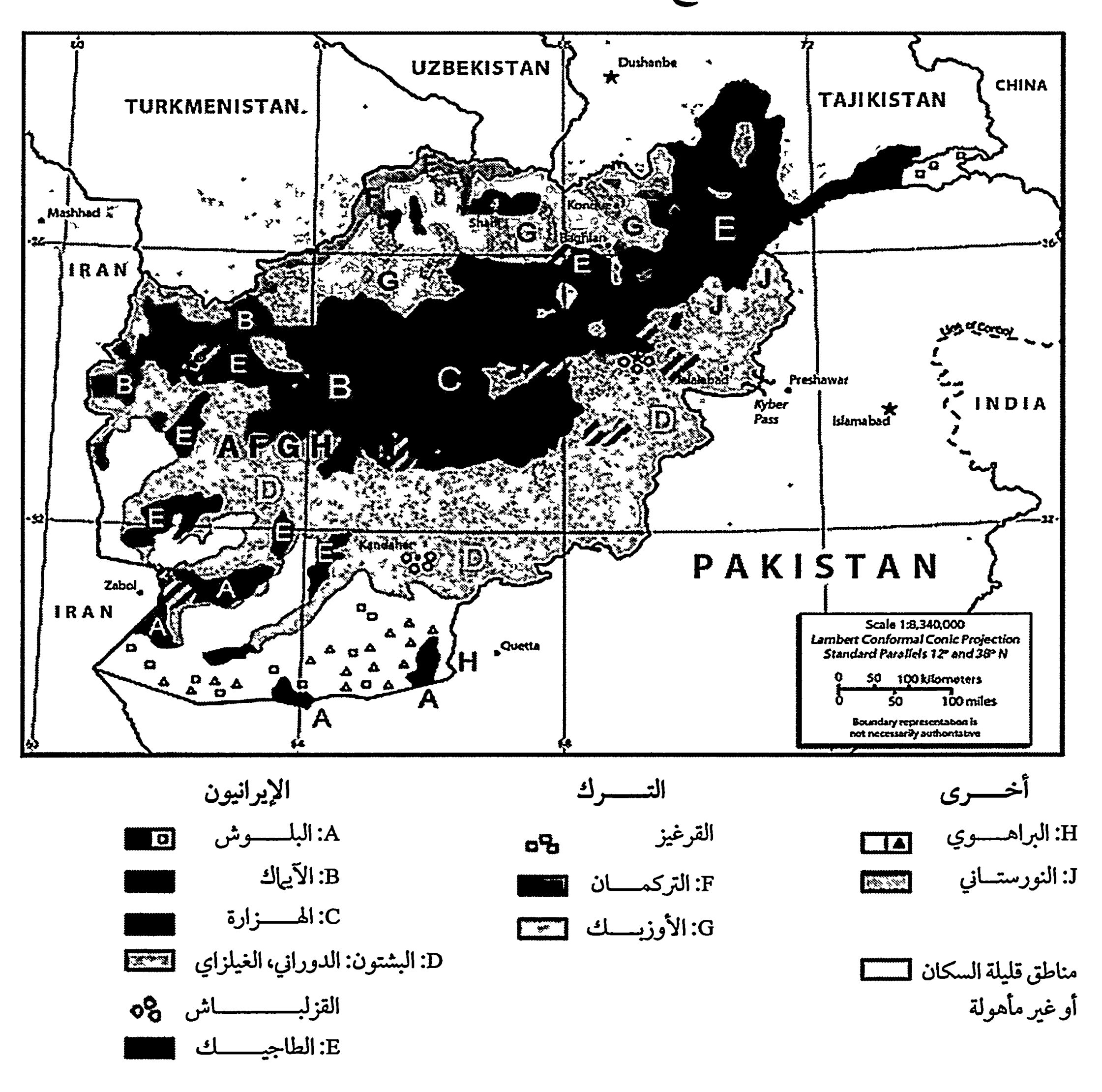
المصدر: W. Chris King.

الإسلام هو سمة الثقافة الأساسية المشتركة بين الجماعات العرقية كافة. على الرغم من أن الأغلبية الساحقة من الأفغان هم من المسلمين (حوالي 80٪ سنة و18٪ شيعة)، فإن الأعراف القبلية والطوائف المختلفة، والدرجات المتفاوتة من التطرف تحول دون أي شعور بالتوحُّد الديني. فالمعتقدات ما قبل الإسلامية والعادات والأعراف القبلية تساهم في اختلاف ممارسات الإسلام من مكان إلى آخر.

تمتد روابط أفغانستان العرقية إلى إيران والشرق الأوسط وجمهوريات آسيا الوسطى الحديثة الاستقلال وإلى باكستان والهند، مع غياب أي فكرة عن القومية الأفغانية. سيطرت العرقية البشتونية لعدة قرون على البلاد بشكل عام ونجحت في صد الغزاة. وهي تشكل حالياً نحو 40٪ من السكان وتحتل النصف الجنوبي من أفغانستان بالإضافة إلى منطقة الحدود الشرقية وتمتد إلى باكستان.

الشكل (14-9)

توزيع المجموعات العرقية اللغوية



المصدر: CIA, 1997.

تختلف السمات الثقافية اختلافاً كبيراً من قبيلة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر. على سبيل المثال، البشتونية (البشتونوالي) (أو "الطريقة البشتونية") هي الرمز القبلي الذي يمنح البشتون هوية جماعية، بالإضافة إلى مجموعة من الأعراف الاجتماعية الصارمة. ومن الركائز الأساسية للطريقة البشتونية: نانغ (الشرف)، والبدل (الثأر) وميلماستيا (كرم

الضيافة) وناناواتاي (طلب المغفرة) وهمسايه ("من يتقاسم نفس الظل"). لا يمكن للمرء أن يفهم البشتون وطريقتهم في الحياة إذا لم يدرك تأثيرات هذه المعتقدات وأثرها الجماعي باعتبارها ميثاق شرف. وتوفر البنى والقوانين القبلية المفاتيح إلى تقدير التنوع الثقافي لأفغانستان وإدراك الاختلافات الكبيرة بين المجموعات الثقافية فيها.

عدم استقرار الأوضاع السياسية

يبلغ طول الحدود الأفغانية أكثر من 5529 كيلومتراً (3317 ميلاً)، ولديها حدود مشتركة مع ست دول أخرى (الصين 76 كيلومتراً، وإيران 936 كيلومتراً، وباكستان 2430 كيلومتراً، وطاجكستان 1206 كيلومترات، وتركمانستان 744 كيلومتراً، وأوزبكستان 137 كيلومتراً) (CIA 2001a). وبرغم أن المندوبينِ البريطاني والفرنسي هما اللذان رسما تلك الحدود في القرن التاسع عشر، فقد أثبتت أنها حدود مستقرة نسبياً على الرغم من تقسيم عدة قوميات وتأسيس دولة من خليط غير متجانس من الجماعات العرقية واللغوية. وقد دفعت هذه الجغرافيا الثقافية المعقدة والمشهد الطبيعي الصعب، البعض إلى وصف الوضع السياسي الداخلي لأفغانستان بأنه وضع «غير قابل للحكم» (Weisbrode 2001). وازدادت الأمور تعقيداً بفعل الهجرات الجماعية الكبيرة للنازحين نتيجة للحرب على مدى السنوات الثلاثين الماضية. وقد شكلت المنطقة الحدودية بين أفغانستان وباكستان معضلة خاصة لقوات التحالف منذ بداية عملية الحرية الدائمة؛ إذ تنقل المسلحون بحرية ذهاباً وإياباً عبر الحدود التي يسهل اختراقها، مما أعاق جهود التحالف لتحقيق الاستقرار في المنطقة.

ومن منظور أكثر عموميةً، فإن الاضطرابات السياسية جعلت من الصعب للغاية بالنسبة للقوات الأمريكية إجراء المفاوضات وتنسيق جهود الإغاثة والأمن والمساعدة لبناء الأمة. ورغم أن الانتخابات الرئاسية التي جرت في أكتوبر 2004، كانت حدثاً لم يسبق له مثيل، فإن الآثار المترتبة على المدى الطويل لاتزال غير مؤكدة، وعملية الانتقال إلى الديمقراطية لم تكتمل. كما أن الانتخابات الرئاسية التي جرت لاحقاً في أغسطس 2009

شكلت حدثاً حاسماً آخر في سبيل الديمقراطية المتعثرة في البلاد. ورغم ما يبدو بأن الرئيس الأفغاني حامد كرزاي قد حصل على نسبة كافية من الأصوات لإعادة انتخابه رئيساً، فقد برز عدد من الخلافات، ولايزال النزاع قائماً حول النتائج حالياً.

الأحوال الاقتصادية

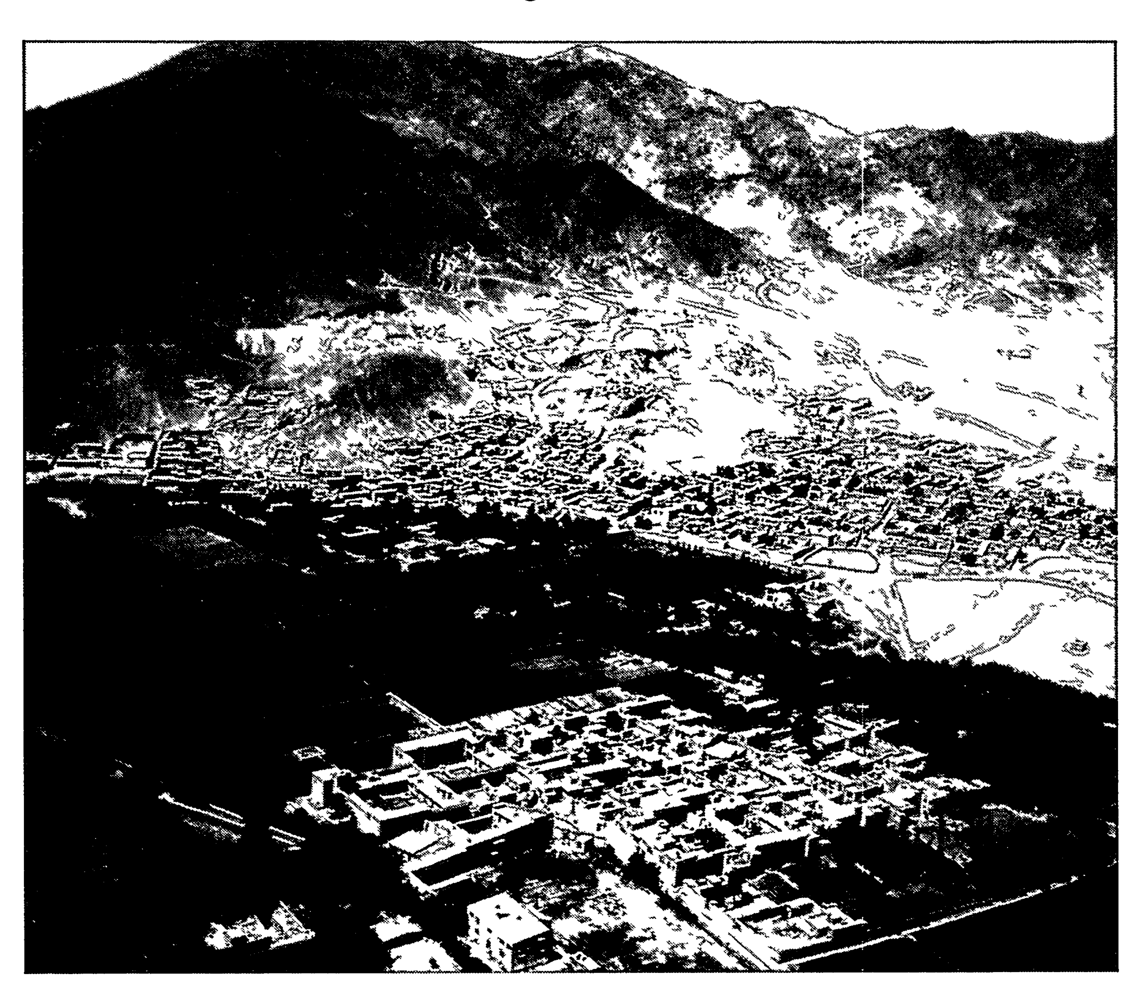
خلال عقد الثمانينيات من القرن العشرين، تسببت الحرب مع السوفييت بأضرار جسيمة للبنية التحتية الطبيعية في أفغانستان. كما دفع الصراع 6 ملايين شخص إلى الفرار من البلاد. وأدت هذه الأحوال مقرونة بصراعات القوى الإقليمية الداخلية على مدى عقد التسعينيات من القرن العشرين، إلى تعطيل شديد للاقتصاد المتخلف أصلاً. وتشير التقديرات إلى أن نسبة تراوح بين 67-85٪ من الأفغان يعملون بزراعة الكفاف والزراعة التجارية، ولكن 12٪ فقط من الأراضي صالحة للزراعة (Afghanistan Online 2001, CIA 2001b, Jackson et al. 2001). ونظراً إلى أن معظم سكان الريف يعيشون على الأراضي الزراعية أو بجوارها، فإن ذلك يعادل كثافة سكانية غير مواتية في المناطق الزراعية تبلغ نحو 250 شخصاً في الكيلومتر المربع ببعض الأمكنة (انظر الشكل 14-10).

كما أن شبكة المواصلات في أفغانستان غير كافية بالمرة. وعند بداية عملية الحرية الدائمة، كان طول الطرقات داخل هذا البلد يبلغ 21000 كيلومتر فقط، معظمها ذات أسطح وممرات غير محسنة، في حين أن الطرقات المعبدة والتي يمكن أن تسير عليها مركبات تجارية محدودة؛ فطولها 2793 كيلومتراً فقط (CIA 2001b). وقد استثمرت قوات التحالف منذ ذلك الحين موارد كبيرة لتحسين شبكة الطرقات الرئيسية، على الأقل بين المدن الرئيسية. كما أن نظام السكك الحديدية البالغ طولها 24.6 كيلومتراً هو أيضاً لا يكفي مطلقاً لتحفيز الاقتصاد. ومن بين المطارات العشرة التي فيها مهابط معبدة، هناك ثلاثة فقط يزيد طولها على 3000 متر وتستطيع استيعاب طائرة تجارية كبيرة. كما أن انعدام البنى التحتية يفرض تحديات جوهرية على توزيع الغذاء ومواد البناء والمعدات خلال جهود المساعدة الإنسانية (انظر الشكل 14-11). وأكبر دفعة لاقتصاد البلاد جاءت من

المساعدات النقدية الأجنبية والعقود المباشـرة الممنوحـة مـن قبـل الجـيش الأمريكـي إلى الشـركات الصغيرة والعمال الذين يلبون حاجات المنشآت العسكرية الرئيسية أو مشـاريع بناء الدولة المتناثرة في أرجاء البلاد.

الشكل (14-10)

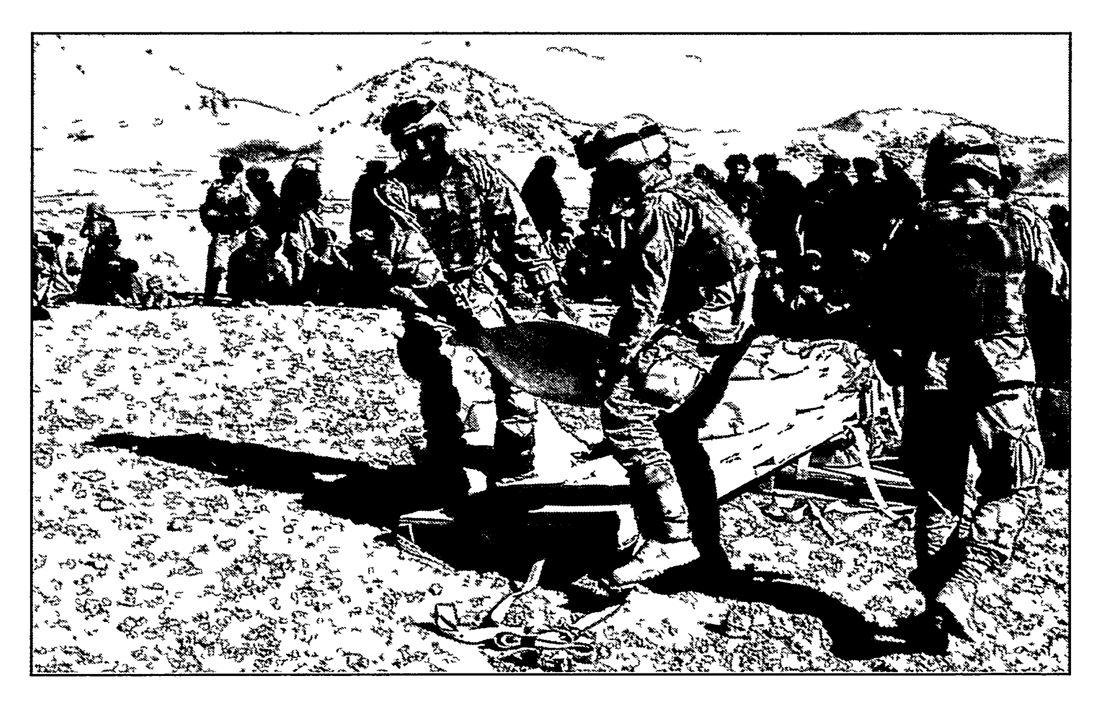
قرى ريفية شـرقي كابل تكشف التصميم المعماري المميز للعائلات الأفغانية ومساكن العائلات الواسعة، وتعرض الأنماط النموذجية في استخدام الأراضـي في المناطق الصالحة للزراعة داخل البلاد



المصدر: Eugene J. Palka.

الشكل (14-11)

جنود أمريكيون يقدمون الغذاء إلى شيوخ إحدى القرى خلال مهمة لتوزيع الغذاء في محافظة زابول بأفغانستان (أكتوبر 2004)



المصدر: US Army Photograph.

تأثير الألغام الأرضية

إن الحرب التي دامت لأكثر من ثلاثين عاماً كست أراضي أفغانستان بملايين الألغام الأرضية بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الذخائر التي لم تنفجر. وتتفاوت التقديرات الحالية لأعدادها، حيث تراوح بين أقل من مليون وأكثر من 40 مليون لغم أرضي (رغم أن معظم عمليات المسح تقدر أعدادها بين 7 و10 ملايين لغم) بأكثر من خمسين نوعاً مختلفاً (Palka 2007). كما تختلف أعداد الضحايا المدنيين بشكل كبير، ولكن تقديراً معقولاً لهذه الأعداد سيدل على أن نحو 15000 شخص قتلوا وأكثر من 800 ألف أصيبوا بسبب الألغام أو الذخائر غير المنفجرة منذ الاجتياح السوفيتي في عام 1979 (Palka 2007). كما أن الألغام الأرضية والذخائر غير المنفجرة حولت الأراضي الخصبة إلى أراضٍ لا يمكن

استخدامها، وتستمر بإعاقة جهود التنمية. وتستمر الجهود المتضافرة منذ سنوات كثيرة لتخليص البلاد من ألغامها ومن مخاطر الذخائر غير المنفجرة، ولكن وللأسف، فإن استمرار الحرب واللجوء في الآونة الأخيرة إلى استخدام العبوات الناسفة اليدوية الصنع (IEDs) على نطاق واسع أعاق عملية التقدم في البلاد. ومن المرجح أن يؤدي استمرار التمرد إلى تفاقم المشكلة.

الخلاصة

حاولنا في هذا الفصل دراسة تعقيدات الجغرافيا الطبيعية لأفغانستان وتقييم أثر العمليات العسكرية خلال عملية الحرية الدائمة. كما أن الجغرافيا البشرية للبلاد هي بذات التعقيد، وربما تكون حماية السكان وعزلهم عن المتمردين حالياً هما أكبر تحدٍ يواجه القوات الأمريكية والناتو (French 2009). وفي الوقت ذاته، فإن العنف المستمر والبنية التحتية البدائية والمشهد الثقافي الذي مزقته الحرب تستمر في إعاقة الجهود التي يبذلها التحالف.

وفي الوقت الحالي، تشارك الولايات المتحدة وقوات التحالف في عمليات من جميع الأنواع، وهو سيناريو مُلحّ جداً، بحيث من المتوقع إرسال 21000 جندي إضافي إلى أفغانستان بحلول أكتوبر 2009 (French 2009) [هذا التوقع كان بحسب تاريخ كتابة هذه الدراسة]. ومما لا شك فيه أن العمليات العسكرية الحالية والمستقبلية ستعمل مثل محفزات رئيسية للتغيير، ولكن كما حذّر الجنرال ماكريستال، قائد قوة المساعدة الأمنية الدولية (إيساف) التابعة للناتو قائلاً: «لن يكون النجاح سريعاً أو سهلاً» (French 2009). بالإضافة إلى ذلك، هناك تاريخ طويل من التفاعل الثقافي والسياسي والاقتصادي عبر الحدود السياسية للبلاد، ولذلك من الصعب التكهن بمستقبل البلاد ضمن السياق الأوسع لآسيا الوسطى، ولاسيما في ضوء الزيادة الأخيرة لأعمال العنف الدائرة بين حركة طالبان والجيش الباكستاني في منطقة وزيرستان والمناطق القبلية الخاضعة لإدارة الحكومة الاتحادية في باكستان.

إن موقع أفغانستان الذي لا يمكن الوصول إليه وتضاريسها الوعرة وظروفها المناخية القاسية والتعقيد الثقافي والفوضى السياسية وضعف البنى التحتية، قد حدّت كلها من نجاح العمليات القتالية إلى درجة ما، ولكن الأهم من ذلك ربما هو أن هذه المزايا نفسها اجتمعت لتعوق الاستقرار وعمليات السلام وبناء الدولة. وهذا الطلب الحالي على العمليات الواسعة من جميع الأنواع سيلقي مهمة هائلة على كاهل القوات الأمريكية وقوات الناتو في هذا البلد البعيد والمتقشف وذي التنوع الطبيعي والثقافي والسريع التأثر.



الفصل الخامس عشر

العراق وعملية حرية العراق: جغرافيا عسكرية

إيوجين بالكا وفرانسيس جالجانو
ومارك كورسون

مقدمة

يقدم هذا الفصل تحليلاً جغرافياً للعراق و"عملية حرية العراق". ونستهلّه بملخص لتاريخ العراق المعاصر، ومن ثم نركز على تأثيرات الجغرافيا الطبيعية والبشرية في سير عملية حرية العراق. ونصف الجغرافيا الطبيعية للعراق من حيث موقع البلد وحجمه وجغرافيته الطبيعية والمائية والمناخ والطقس، كما تتم مناقشة جغرافيته الطبيعية من حيث الثقافة والأعراق والسياسة والتنمية الحضرية. ويتناول القسم الأخير من الفصل التقنيات الجغرافية ذات الصلة؛ بما فيها الاستشعار عن بعد ورسم الخرائط الرقمية ونظُم المعلومات الجغرافية ونظم تحديد المواقع العالمية. كما يقدم تقييماً مختصراً لأهمية هذه التقنيات للعمليات العسكرية الحديثة. وكالجغرافيات العسكرية الأخرى، تستفيد وجهة النظر هذه من مجموعة من الفروع والأدوات والتقنيات الجغرافية من أجل فهم بيئة العمل العسكري المعقدة في العراق بصورة أفضل.

خلفية تاريخية

بعد الحرب العالمية الأولى، اكتسبت بريطانيا العظمى وفرنسا نفوذاً في المنطقة التي شملت العراق الحالي. وقسمت بريطانيا وفرنسا الشرق الأوسط، ووقع الإقليم الذي

سيشكل دولة العراق تحت السيطرة البريطانية. وشكّل البريطانيون العراق من ثلاث ولايات عثمانية: البصرة وبغداد والموصل (Dalton 2004). ومع أن هذه المنطقة بدت منطقةً متكاملة جغرافياً على الخريطة، فإن تشكيل هذه الدولة قد أدمج ثلاث مجموعات عرقية رئيسية مختلفة (وعدّة عرقيات صغيرة) في كيان سياسي واحد. وبعد عقد من الاحتلال المباشر والانشقاق المستمر، وضعت بريطانيا الملك فيصل على عرش البلد الجديد (Ochsenwald and Fisher 2004).

ورغم تنصيب ملك جديد، ظل العراق في حالة عدم استقرار، وخلال الفترة 1932-1979، شهد هذا البلد سلسلة من الانقلابات العسكرية. ففي عام 1958، أطاحت مجموعة من ضباط الجيش بقيادة الفريق عبدالكريم قاسم بالحكومة الملكية وقتلت الملك وعائلته ووزراءه. وتلقى قاسم دعماً رئيسياً من الشيوعيين، في حين جاء منافسوه الرئيسيون من حركة سياسية عربية قومية تدعى "حزب البعث". وفي عام 1963، أطاحت مجموعة من ضباط حزب البعث بقاسم، وأدت ممارساتهم العنيفة من اعتقالات جماعية وتعذيب وإعدامات إلى حدوث انقلاب مضاد كاد يدمر الحزب. وكانت هذه هي الفترة التي برز فيها صدام حسين بصفة عضو عامل ذكي وبلا رحمة في حزب البعث.

أدى انتصار إسرائيل في حرب يونيو 1967 إلى إحباط معنويات الأنظمة العربية، حيث شهدوا كيف دحرت إسرائيل جيوش كل من مصر وسوريا والأردن في حملة دامت ستة أيام. ومع أن مشاركة العراق في الحرب كانت محدودة، فقد أتاحت الهزيمة فرصةً للبعثيين، وبهذا فإنهم في يوليو 1968 تولوا السلطة بقيادة أحمد حسن البكر، ومرة ثانية قاموا بعملية تطهير لخصومهم من خلال التعذيب والإعدام. وخلال هذه الفترة أصبح صدام حسين رئيساً لجهاز المخابرات العراقي، وبدأ بتوسيع نفوذه وتعزيز سلطته. وفي عام 1979، تنحى البكر ليتمكن صدام حسين من تولي السلطة، وقام على الفور بتصفية 66 عضواً من كبار الأعضاء في حزب البعث من خلال إعدامهم رمياً بالرصاص على يد زملائهم الذين بقوا على قيد الحياة (Murray and Scales 2003).

حقبة صدام حسين

في الوقت الذي كان يعمل فيه صدام حسين على توطيد سلطته عام 1979، أطاح أصوليون مسلحون شاه إيران، وأسسوا حكماً ثيوقراطياً دينياً تحت قيادة آية الله خميني. ويعود تاريخ الاستياء العراقي من الإيرانيين الفرس إلى أيام هيمنة ملوك الفرس على بلاد ما بين النهرين. وقد ارتاب صدام من الشيعة والنظام الديني الإيراني الجديد، واعتبر إيران ضعيفة لأنها في خضم ثورتها (Swearingen 1988). وهكذا، في سبتمبر 1980، بدأ حرباً كانت غير مجدية ومدمرة مع إيران. مع أنها كانت ناجحة في البداية، فإن الصراع تحول إلى طريق مسدود على مدى ثماني سنوات. وفي الوقت الذي اتفق فيه الجانبان على السلام عام 1988، كان ما يقارب من مليون عراقي وإيراني قد لقوا حتفهم، وكان العراق على وشك الإفلاس، وبقي كل طرف مسيطراً على أراضيه (Tibi 1998).

وبعد انقضاء سنتين على إحباط صدام في إيران، حوّل تركيزه إلى من أحسنوا إليه سابقاً في الكويت حيث اتهمهم بسرقة نفطه. إلى ذلك، فقد اعتبر الكويت المحافظة التاريخية التاسعة عشرة للعراق. ولذلك فقد غزا الكويت في أغسطس 1990 وأحكم قبضته على البلاد في غضون ثلاثة أيام فقط. ثم حشد صدام قواته على الحدود مع السعودية مهدداً حقول النفط السعودية، وما يقارب ربع الاحتياطي العالمي المؤكد من النفط (Clark 2004). فردت الولايات المتحدة بتشكيل تحالف دولي لحماية المملكة العربية السعودية في ما عرف باسم "عملية درع الصحراء". وبدعم من الأمم المتحدة وبموجب قرار مجلس الأمن الذي يدعو العراق إلى مغادرة الكويت، شن التحالف في نهاية المطاف "عملية عاصفة الصحراء" في فبراير 1991. قامت القوات البرية بقيادة الولايات المتحدة بإخراج العراقيين من الكويت والاستيلاء على جنوبي العراق خلال معركة برية دامت 100 ساعة فقط. ونظراً لعدم امتلاك قوات التحالف تفويضاً لتغيير النظام، فقد انسحبت من العراق بعد إنجاز مهمتها في تحرير الكويت، ولكنها تركت صدام حسين في السلطة (DoD 1992).

بقيت آثار الحرب، ولكن وعلى مدى العقد التالي، عانى المواطنون العراقيون وطأة العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة وتسببت في نقص حاد. ولتخفيف العبء على الشعب العراقي، أطلقت الأمم المتحدة برنامجها السيئ السمعة والفاسد للغاية "النفط مقابل الغذاء". وقد صمم هذا البرنامج ليسمح للعراق ببيع ما يكفي من النفط لشراء الغذاء والدواء. ومع ذلك، يُزعم أن صدام حسين خصص نحو ثلث العوائد لإعادة بناء قواته العسكرية، ويشتبه أيضاً في أنه حاول إعادة تشكيل أسلحته الكيماوية والبيولوجية والنووية (Woodward 2008). وبتاريخ 11 سبتمبر 2001، كانت الأعمال العدائية التي قام خلالها إرهابيو تنظيم القاعدة بتدمير مركز التجارة العالمي في نيويورك والهجوم على البنتاجون، هي التي أشعلت فتيل الحرب العالمية على الإرهاب. وأثناء تركيز الرئيس جورج بوش الابن انتباهه على أفغانستان، حدد ثلاثة بلدان (العراق وإيران وكوريا الشمالية) على أنها "محور الشر"، وجرى تمهيد الطريق لصراع آخر مع العراق. وفي أواخر عام 2002 ومطلع عام 2003، روّجت إدارة بوش لقضيتها ضد العراق وسعت إلى إقامة تحالف مدعوم من قبل الأمم المتحدة لاستخدام القوة العسكرية ضد الدولة المارقة (Palka et al. 2005). وعندما أحبطت كل من روسيا وفرنسا وألمانيا جهود الرئيس بوش في الأمم المتحدة، أطلق من جانب واحد عملية حرية العراق بتاريخ 20 مارس 2003 (Murray and Scales 2003; Clark 2004).

عملية حرية العراق

في 21 مارس 2003، عقد وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ورئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز، مؤتمراً صحفياً لإعلان أهداف عملية حرية العراق. وشملت الأهداف المحددة: 1) إنهاء نظام صدام حسين؛ 2) تحديد أسلحة الدمار الشامل العراقية وعزلها وتدميرها؛ 3) القبض على الإرهابيين المقيمين في العراق وإخراجهم منه؛ 4) جمع المعلومات الاستخباراتية ذات الصلة بشبكات الإرهاب في العراق وخارجه؛ 5) تقديم الإغاثة الإنسانية إلى المواطنين العراقيين؛ 6) حماية حقول النفط والموارد العراقية؛ 7) مساعدة الشعب العراقي على إنشاء حكومة تمثيل ذاتي (Palka et al. 2005).

وعلى عكس الوضع خلال حرب الخليج في عام 1991، عندما حشد التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة ما يقارب نصف مليون جندي في المملكة العربية السعودية، فقد كان الوضع السياسي في عام 2003 مختلفاً جداً، كما أن السعودية لم تسمح باستخدام أراضيها قاعدة انطلاق. ومن ثم، أصبحت الكويت نقطة الانطلاق الرئيسية وقامت الولايات المتحدة بعمليات نقل رئيسية هناك، لأن بنيتها التحتية الممتازة أثبتت أنها قادرة على تحمل تدفق القوات والمعدات. استضاف الجزء الشمالي ذو الكثافة السكانية المنخفضة من البلاد (على الحدود مع العراق) عدداً من المعسكرات التي دعمت الحشد. وضم التحالف الذي قادته الولايات المتحدة قوات من 31 دولة. وكانت معظمها ذات وحدات صغيرة (ولكنها ذات أهمية سياسية)، باستثناء المملكة المتحدة وأستراليا البارزتين من خلال توفيرهما قوات كبيرة. وتألفت القوات الأمريكية الرئيسية من الفيلق الأمريكي الخامس وقوة مشاة البحرية الأولى (I MEF) (Murray and Scales 2003).

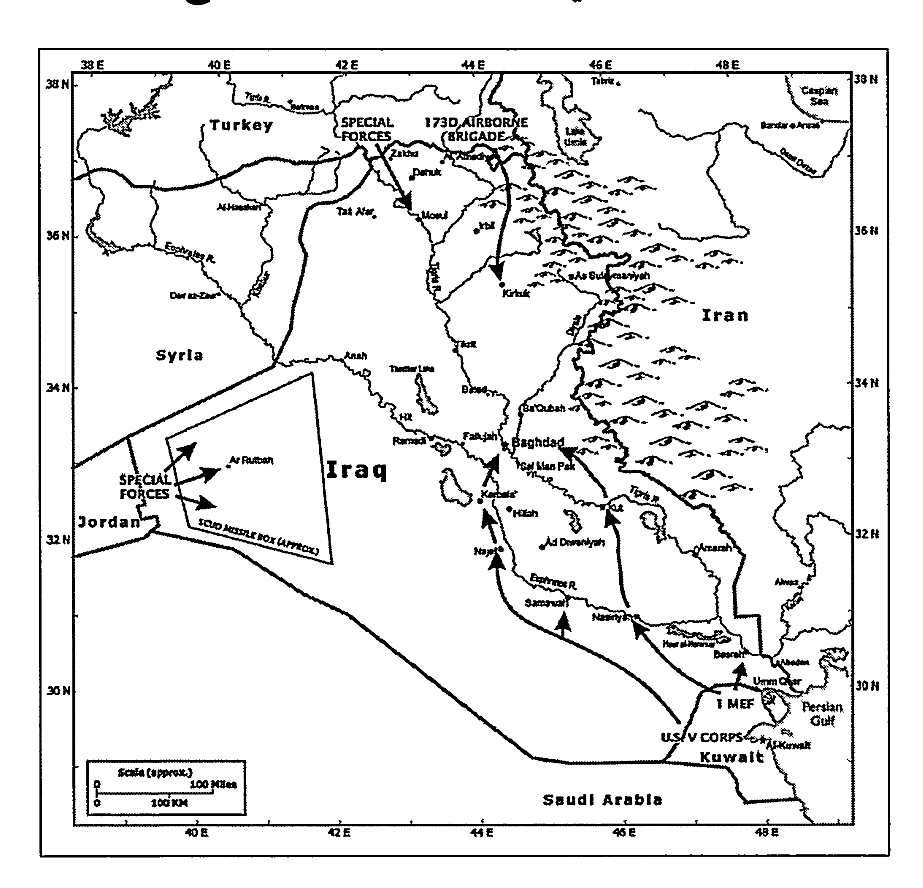
كان الفيلق الخامس يعادل ثلاث فرق، وشن هجومه من الكويت باتجاه بغداد، ولكنه بقي غربي نهر الفرات، وتحرك بسرعة عبر الصحراء وتجاوز معظم المناطق المأهولة (انظر الشكل 15-1). وفي الوقت ذاته، هاجمت قوة مشاة البحرية الأولى (التي ضمت الفرقة البحرية الأولى والفرقة المدرعة الأولى البريطانية) من الكويت عبر قلب العراق. وفي نهاية المطاف هاجمت فرقة المشاة الثالثة الأمريكية (الفيلق الخامس) بغداد من الغرب في حين هاجمت قوة مشاة البحرية الأولى بغداد من الشرق (Murray and Scales 2003). وقامت الفرقة المدرعة البريطانية الأولى بتأمين جنوب العراق من خلال الاستيلاء على مدينتي البصرة وأم قصر اللتين لهما موانئ، وبالتالي حماية خاصرة الأمريكيين (UK MOD 2003) (انظر الشكل 15-1).

ودخلت قوات العمليات الخاصة التابعة للحلفاء العراق من الأردن لإزالة خطر صواريخ سكود ضد إسرائيل. ومع أن الحكومة التركية رفضت السماح لفرقة المشاة الرابعة الأمريكية بمهاجمة العراق من أراضيها، فإنها سمحت للتحالف بإرسال قوات

خاصة إلى شمال العراق. وكانت هذه القوات الخاصة مرتبطة بقوات البشمركة الكردية، وكانت مدعومة من اللواء الأمريكي المجوقل 173، حيث قامت بحماية شمال العراق، وشاغلت عدداً كبيراً من القوات العراقية (انظر الشكل 15-1).

الشكل (15-1)

العمليات الرئيسية في بداية عملية حرية العراق، ربيع 2003



المصدر: Palka, Galgano and Corson (2005).

هذه المرة أيضاً، كانت الحرب البرية قصيرة وحاسمة، وفي 1 مايو 2003 أعلن الرئيس بوش انتهاء العمليات القتالية الرئيسية في العراق. وبدا لكثيرين أن المهمة أنجزت وأن بإمكان التحالف إعادة القوات إلى الوطن كما فعل في حرب الخليج الأولى (Woodward 2008). ولكن العراق لم تكن له حكومة قادرة على العمل، وقد أصيبت بنيته التحتية

بأضرار جسيمة بحيث اضطرت قوات التحالف إلى ترسيخ نفسها بصفتها قوة احتلال. وفي أكتوبر 2003، أذنت الأمم المتحدة بالاحتلال، في حين دعت إلى نقل مبكر للسيادة إلى العراقيين. وبُذلت جهود ضخمة لإعادة الإعمار واستعادة الخدمات الأساسية ومعالجة الضرر الأكبر الذي أصاب العراق نتيجة ثلاثين عاماً من الإهمال في زمن صدام حسين، وقيام العراقيين بعد الحرب بنهب البلاد (Palka et al. 2005).

وبحلول يونيو 2003، كان هناك تمرد متنامٍ واضح وجلي، حيث وجد عديد من المجموعات ذات الأجندات المختلفة سبباً مشتركاً لقتال قوات التحالف المحتلة (Clark 2004). وفي "المثلث السني" وسط البلاد شنت مجموعة من مؤيدي صدام البعثيين والقوميين العراقيين وعناصر إرهابية أجنبية، هجمات دامية ضد القوات الأمريكية. وثبت أن المتمردين واسعو الحيلة ويتمتعون بإمكانية التكيف، وبدؤوا باستخدام كميات هائلة من الذخائر المتبقية لصنع عبوات ناسفة يدوية زرعوها على جانبي الطريق على شكل قنابل يمكن تفجيرها عن بعد. أما في مناطق الشيعة في الجنوب، فقد أطلق رجل دين شيعي متطرف، وهو مقتدى الصدر، حركة تمرد لطرد قوات التحالف ووضع نفسه في موقف قوة. إن فرصة القتال ضد الأمريكيين استقطبت كثيراً من المقاتلين الأجانب، فتطوَّر النفق السري الافتراضي الذي يعبره الجهاديون ليجتذب الانتهازيين من كافة أنحاء المنطقة، وانضم كثير من هؤلاء المقاتلين إلى صفوف المتشددين الأردنيين وزعيم تنظيم القاعدة أبي مصعب الزرقاوي، الذي قتل لاحقاً خلال غارة جوية أمريكية يوم 7 يونيو 2006 (Woodward 2008).

ورد التحالف على حركة التمرد بالقوة العسكرية والمناورة السياسية. وفي منتصف عام 2004، كانت قوات الأمن العراقية في طور إعادة التشكيل، وجرى تنصيب حكومة عراقية مؤقتة يرأسها رئيس الوزراء إياد علاوي في يونيو 2004، ووضعت الخطط لإجراء انتخابات على مستوى البلاد لانتخاب حكومة جديدة يوم 30 يناير 2005. وفي هذه الأثناء، أطلقت مجموعات عديدة من المتمردين والإرهابيين الأجانب حملات تخويف وقتل لعرقلة الانتخابات، وتقويض المجتمع العراقي المدني الناشئ (Palka et al. 2005).

ورغم نجاح الانتخابات الديمقراطية في عام 2005، اكتسبت حركة التمرد المتعددة الأوجه زخماً في جميع أنحاء العراق. وخلال عامي 2006 و2007، عولجت مشكلة انعدام الاستقرار التي سببتها مجموعات المتمردين العديدة عن طريق زيادة عدد القوات البرية الأمريكية وحملة شاملة لمكافحة التمرد (Woodward 2008). ونفذت الوحدات الأمريكية عملياتها انطلاقاً من قواعد العمليات الأمامية المنتشرة عبر البلاد، وقامت بدوريات يومية وبعديد من المهمات داخل أكثر المناطق اكتظاظاً بالسكان في محاولة لحماية السكان المدنيين، في الوقت الذي واصلت فيه جهود بناء الأمة. فزيادة الوجود العسكري وإعادة الإعمار المتواصلة والدعم المستمر لمؤسسات العراق السياسية والعسكرية، ومجموعة من مشاريع التنمية الاقتصادية أدت إلى تحسينات هائلة في كافة أنحاء البلاد خلال عامي 2008 و2009. ولكن الانتخابات المحلية التي جرت في يناير 2010، والتوتر القائم بين الأكراد والعرب حول الأقاليم المتنازل عليها والعنف الطائفي والتزام الولايات المتحدة بسحب قواتها خلال عام 2010، تثير الشكوك في المراحل الأخيرة من عملية حرية العراق.

بيئة العمل العسكري في العراق

هناك صلة أساسية بين الجغرافيا والحرب، ويظهر كل موقع مجموعة فريدة من السمات الجغرافية التي تتفاعل لتشكيل بيئة مميزة. فبيئة العمل العسكري هي بناء مكون من جميع عوامل المشهد الطبيعي والثقافي التي تصوغ وتحكم مراحل مد وجزر المعركة. وانطلاقاً من هذا، اخترنا دراسة الجوانب الأساسية للجغرافيا المادية والبشرية في العراق، والتي تسهم في بيئة العمليات الفريدة من نوعها في هذا البلد.

الجغرافيا الطبيعية

عندما قامت قوات التحالف بغزو العراق، واجهت أساساً البيئة الطبيعية والتحديات ذاتها التي واجهتها إبان عملية عاصفة الصحراء التي كانت قد جرت قبل

عشر سنوات. ومع ذلك، لا بد من إعادة تقييم الآثار المترتبة على المشهد الطبيعي العراقي في ضوء العقيدة العسكرية والتكتيكات، والتقدم التقني الأكثر تطوراً في الآونة الأخيرة.

الموقع والحجم

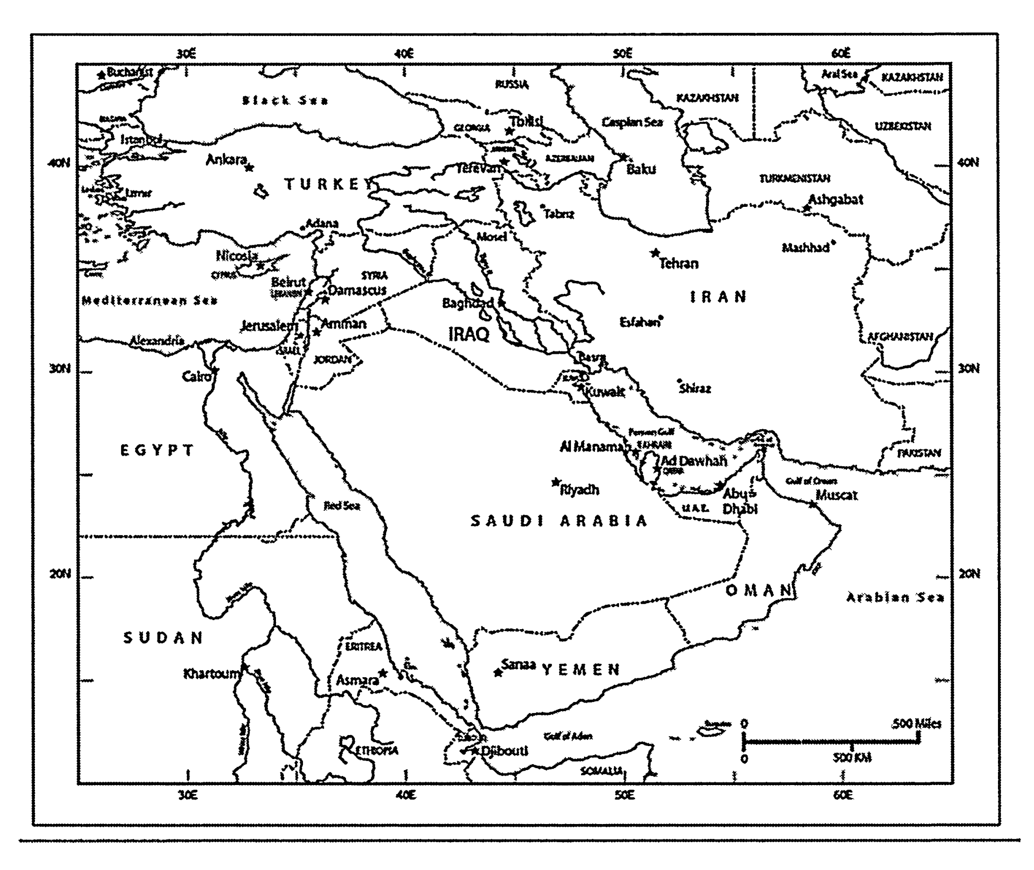
لفهم الجغرافيا العسكرية للعراق بالشكل الكافي، كان ضرورياً أن ندرس موقعه ونطاقه الإقليمي أولاً. يقع المركز الجغرافي للعراق تقريباً شمالي خط العرض 33 درجة وشرقي خط الطول 44 درجة، وهو خط العرض نفسه لولاية تينيسي (Thompson 2004). ويكاد يكون العراق دولة غير ساحلية بحجم كاليفورنيا تقريباً؛ وتحده إيران من الشرق وتركيا من الشمال وسوريا والأردن من الغرب والمملكة العربية السعودية والكويت من الجنوب (انظر الشكل 15-2).

وكانت المسافة الاستراتيجية من الاعتبارات المهمة أثناء الحرب؛ لأن العراق بعيد عن الولايات المتحدة؛ إذ يبعد نحو 9500 كيلومتر (حوالي 5900 ميل) عن الساحل الشرقي ونحو 11000 كيلومتر (6800 ميل تقريباً) عن الساحل الغربي جواً. ولذلك، فإن رحلة جوية من دون توقف من الولايات المتحدة تحتاج إلى نحو 12 إلى 12.5 ساعة طيران مع إجراء عديد من عمليات إعادة التزود بالوقود جواً (Corson 2001).

كما تعتبر المسافة والموقع إشكالية من حيث نشر القوات البحرية أيضاً. فمن الساحل الشرقي للولايات المتحدة، يتعين على السفن أن تعبر المحيط الأطلسي، ومن ثم عبور واحد أو أكثر من المضايق البحرية الحساسة في العالم. وإذا ما سلكت السفن المسار الشمالي الأقصى، فإن عليها عبور مضيق جبل طارق ومضيق صقلية وقناة السويس ومضيق باب المندب ومضيق هرمز. أما إذا اتخذت السفن المسار الجنوبي، ويبلغ طوله ضعف الأول، فإنها تحتاج إلى الملاحة في رأس الرجاء الصالح وقناة موزمبيق ومضيق هرمز. ومن الساحل الغربي، يجب على السفن عبور مضيقي ملقا ولومبوك المزدحمين جداً، يليهما المرور عبر المحيط الهندي الغربي ومضيق هرمز (Peele 1997). فعمليات نشر القوات تستغرق وقتاً طويلاً؛ إذ تحتاج إلى نحو 23 يوماً من الساحل الشرقي و14 يوماً من الغرب (Corson 2001).

الشكل (15-2)

خريطة العراق والدول المحيطة به



المصدر: Library of Congress.

تشكل الأزمنة والمسافات المذكورة أعلاه عبئاً على سفن النقل البحري التي عليها أن تنقل كثيراً من المعدات والإمدادات الثقيلة اللازمة لتنفيذ العمليات العسكرية واستمراريتها. كما أن عدم توافر ما يكفي من مركبات تحميل المعدات الثقيلة وتفريغها جواً وبحراً، ومركبات تحميل البضائع القادرة على التعامل مع شحنات ضخمة، والمركبات ذات الاكتفاء الذاتي، يزيد من صعوبة التحدي المتمثل بمواصلة العمليات العسكرية في أمكنة تقع على مسافات بعيدة جداً عن الولايات المتحدة (Collins 2003). بالإضافة إلى أن العواصف البحرية الموسمية يمكن أن تؤثر بشكل كبير في سلامة الممرات البحرية على المدى القصير.

الجغرافيا الطبيعية والمائية والمناطق الجغرافية

يحتوي العراق على ثلاث مناطق جغرافية (Collins 2003) ونهرين رئيسيين (انظر الشكل 15-3). كما يوجد فيه جبال عالية على طول حدوده مع تركيا في الشمال وإيران في الشرق. ويهيمن على وسط البلاد حوض دجلة والفرات الخصب، والذي يضم أغلبية السكان، وتتم فيه معظم الأعمال الزراعية للبلاد. وأخيراً، يتحول المشهد الطبيعي إلى صحراء صخرية جرداء، تسمى صحراء النفود، تمتد إلى الجنوب الغربي إلى داخل السعودية.

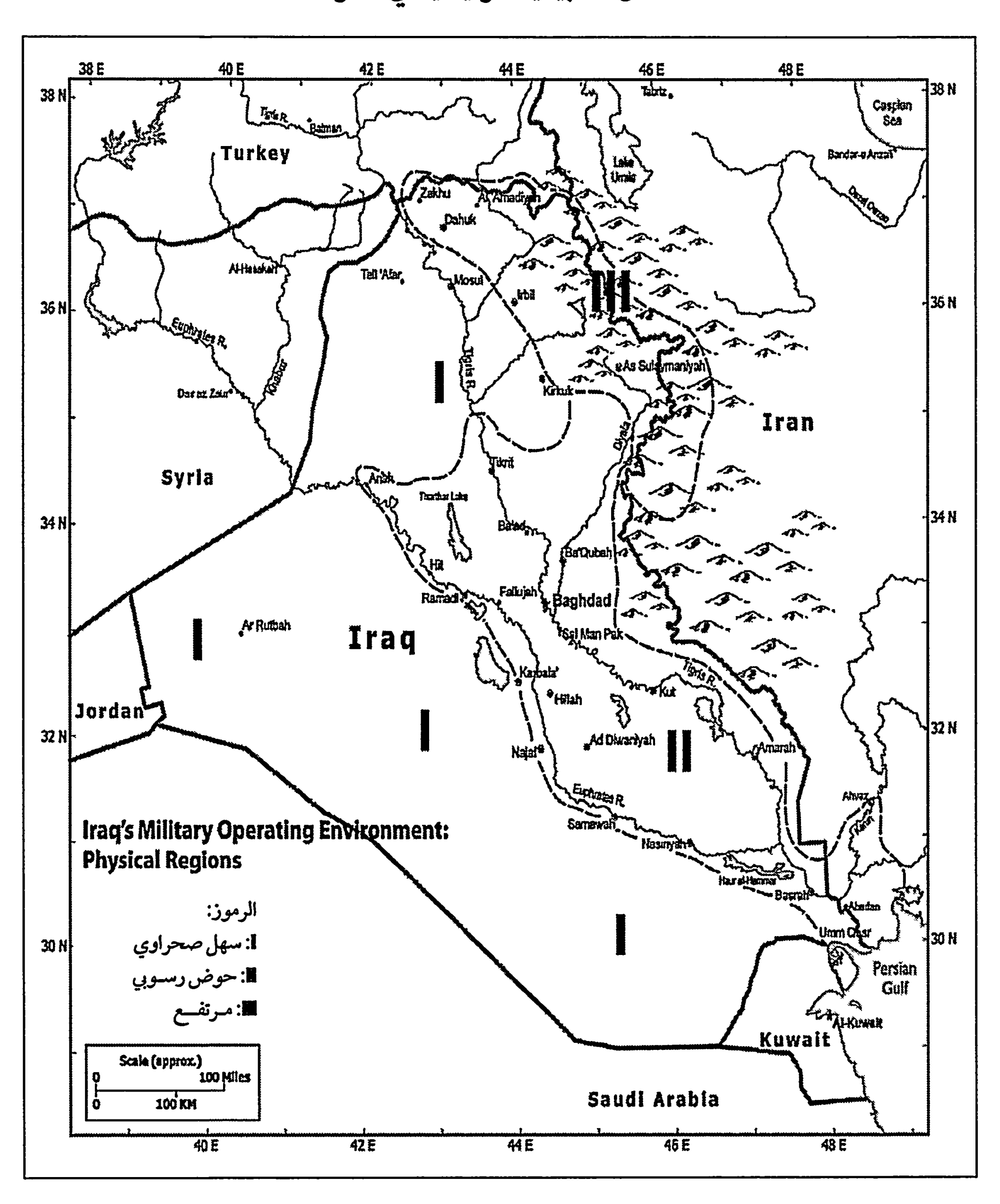
وينبع نهرا دجلة والفرات من مرتفعات تركيا، ويمران عبر وسط البلاد ليكسباها تربة خصبة ويوفرا المياه للزراعة. وكلا النهرين غريب من حيث إنه يتشكل في منطقة رطبة، ثم يتدفق عبر منطقة قاحلة. ويشكل النهران حوضاً رسوبياً ضخماً يمتد من منطقة شمال بغداد إلى الخليج، ويضم هذا الحوض النهري نحو 75٪ من سكان العراق وبنيته التحتية (Nyrop and Smith 1979). ويلتقي النهران عند شط العرب قرب الخليج ويشكلان منطقة أهوار بقيت موطناً لعرب الأهوار منذ آلاف السنين.

تتألف المنطقة I (في الشكل 15-3) من سهل صحراوي منبسط وقاحل يمتد من الخليج وشمالي المملكة العربية السعودية وحتى البحر الأبيض المتوسط. وهناك تضاريس قليلة، ومع ذلك تتضمن المنطقة كثيراً من الأودية وعدداً قليلاً من الجروف (Nyrop and Smith 1979). ويوجد في المنطقة I ثلاثة أنواع من الصحارى: العرق والرق والحماده. وصحراء "العرق" هي الشكل التقليدي لبحر الرمال ذي النطاق المكاني الصغير، ويوجد في الجيوب الصغيرة بالقرب من الحدود مع السعودية. والنوع الغالب من الصحراء هو الرق، وهي أرض حصباء ولعلها تتيح للوحدات العسكرية أفضل إمكانيات التنقل. أما الحماده فهي منطقة يغطي سطحها صخر أديمي ظاهر، وهذا النوع من الصحراء يقتصر على القسم الشمالي الأقصى من المنطقة I. وتشير الأودية إلى نماذج اتجاه تصريف المياه وهي تثير قلقاً كبيراً بسبب فيضانها في أوقات العواصف المطرية النادرة، ولكنها غزيرة

الأمطار. وقد تكون هذه المزايا معقدة جداً وربما تمثل عوائق رئيسية لحركة المركبات (US Army 1992; Collins 2003) (انظر الشكل 15-4).

الشكل (15-3)

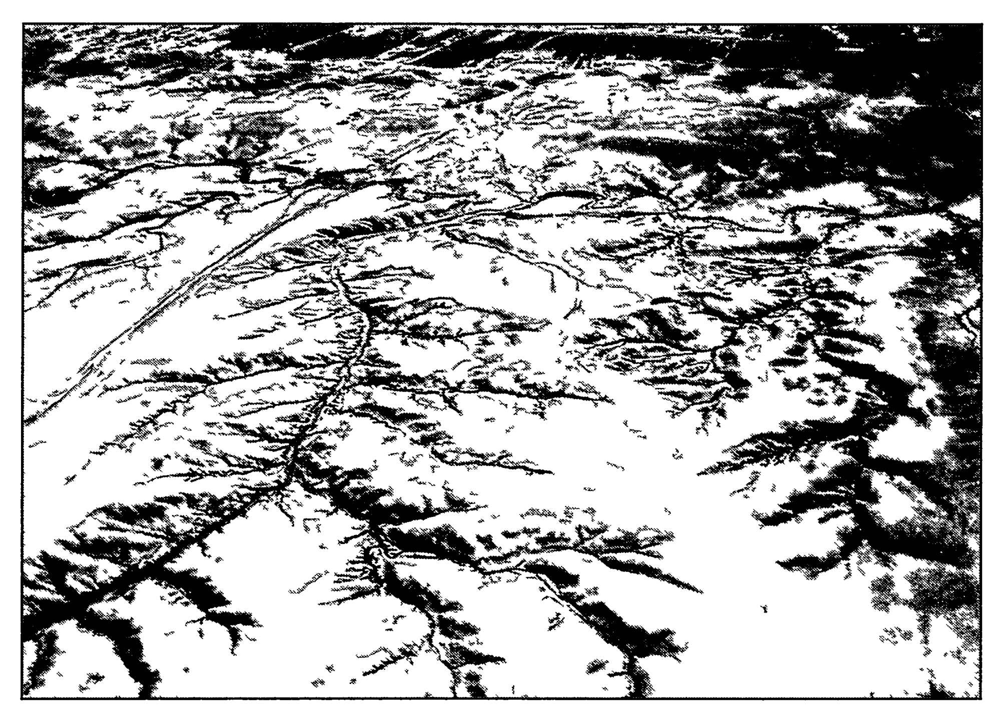
المناطق الطبيعية الرئيسية في العراق



المصدر: Collins (2003).

الشكل (15-4)

الأودية وهي تتغلغل في المنطقة إلى الشمال الغربي من تكريت، وتعوق إمكانية التنقل والمناورة بوساطة العربات المجنزرة وذات العجلات



المصدر: Eugene J. Palka.

أما المنطقة II (في الشكل 15-3) فهي الحوض الرسوبي الأوسط الذي يرتبط بمنطقة بلاد ما بين النهرين القديمة (Collins 2003). والمنطقة محصورة بين نهر دجلة من الشرق ونهر الفرات من الغرب. ويشكل النهران دلتا مشتركة بالقرب من مدينة البصرة وهور هائل يدعى "هور الحمّار"، ثم يلتوي باتجاه الجنوب إلى الخليج ليشكل شط العرب. وتضم المنطقة عديداً من المستنقعات والمسطحات الطينية والبحيرات والقنوات والمصارف المائية والسدود. وهكذا، فإن المجاري المائية والمسارات المستنقعية الأخفض تشكل عوائق تصعب مناورتها وتتطلب عمليات تركيب جسور من أجل مرور الوحدات المؤللة (US Army 1992). ومع أن المنطقة فيها كميات ضخمة من المياه، فإن معظمها ملوث وغير صالح للشرب. علاوة على ذلك، تعتبر المنطقة بؤرة لتكاثر البعوض والذباب الذي أدى

إلى انتشار عدد من الأمراض كالملاريـا وحمـى الـوادي المتصـدع. وتشـكل هـذه المخـاطر الصحية مشـكلة صـعبة لأن الحـوض الرسـوبي يتضـمن نحـو 75٪ مـن سـكان العـراق (Gamez and Watson 2004).

أما في المنطقة III (في الشكل 15–3)، فإن الارتفاعات تزداد من الجنـوب إلى الشـمال من المرتفعات الموجودة بالقرب من كركوك وإربيل حتى الجبال التي تمتد على طول الحدود التركية والإيرانية. وتوجد في هذه المنطقـة جبـال يصـل ارتفاعهـا إلى 3600 مـتر (11000 قدم). أما من الناحية الجيولوجية، فيلتقي العـراق وإيـران عنـد حـدود اللـوح القـاري–القاري بين اللوح التكتوني العربي والأوراسـي، لينتج منه سلسلة معقدة من الجبال المطوية والمنكسـرة. وتؤدي هذه الجيولوجيـا إلى حـدوث عديـد مـن زلازل المنطقـة والرواسـب النفطية الهائلة (Sampson 2004).

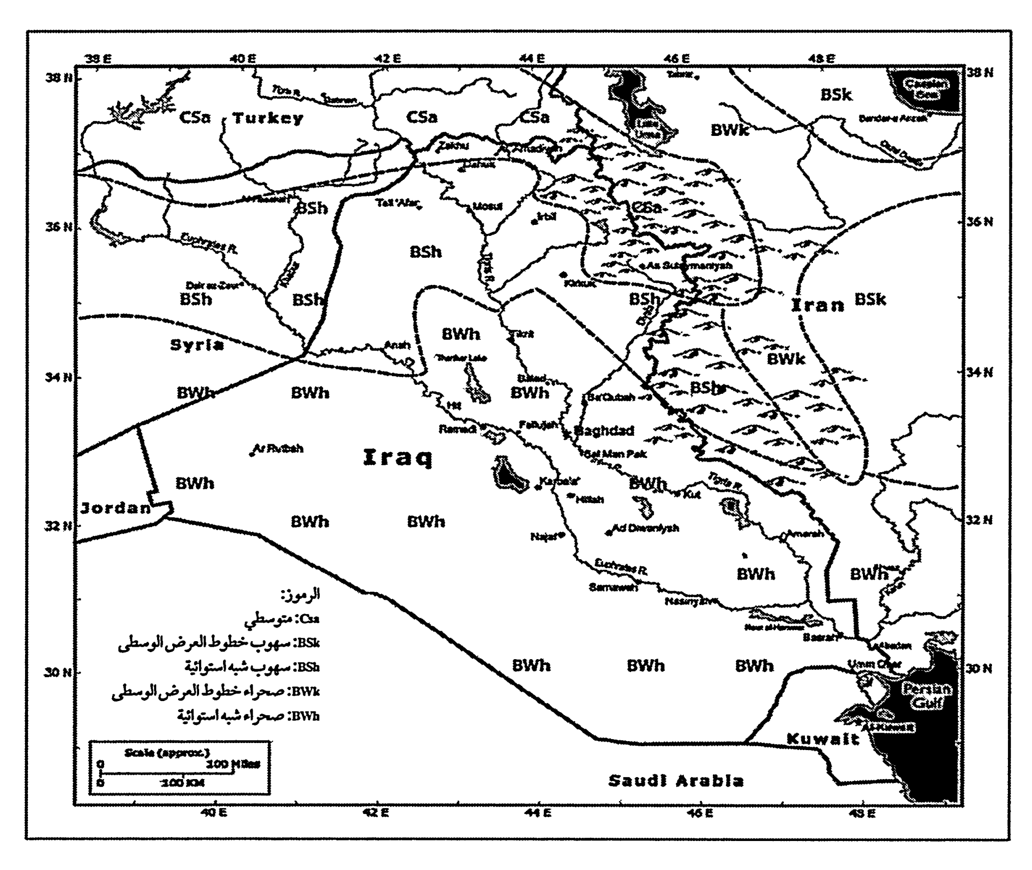
المناخ

على نطاق واسع، يتميز المناخ في العراق بأنه حار وجـاف صـيفاً ومعتـدل شـتاءً مـع كميات قليلة من الأمطار. ومع ذلك، هناك اختلافات محلية كثيرة عن هذا النمط. ويشكل الصيف (أي من يونيو إلى سبتمبر) والشتاء (أي من نوفمبر إلى إبريل) الفصـلين مـع فـترة انتقالية لمدة شهر واحد بين كل منها. وعادة ما تتجاوز درجـات الحـرارة 43 درجـة مئويـة (110 درجات فهرنهايت تقريباً) في الصيف، ونادراً ما تنخفض دون الصفر خـلال فصـل الشتاء، ماعدا المرتفعات (US Army 1992). ومتوسط الأمطار السـنوية أقـل مـن 12.5 سم (5 إنشات تقريباً)، وتمر بعض الأمكنة بفترات جفاف تمتد لسنوات من دون أن تشهد هطْل أي أمطار خلالها. وعادة ما تكون السماء صافية على مدار العام بسبب استقرار الجـو السائد، ومع ذلك يمكن أن تزداد كثافة الغيوم خلال أشهر الشتاء. والرؤية عموماً تكـون أفضل في الشتاء وتصل إلى أضعف مستوى لها في فصل الصيف بسبب الجو المغبر. ويؤدي انتشار الجفاف وانعدام الغطاء النباتي والرياح السائدة جنباً إلى جنب مـع المـواد السـطحية ذات الحبيبات الناعمة والمكشوفة إلى حـدوث ريـاح الشـمال (العواصـف الترابيـة) التـي تحدث بشكل رئيسـي خلال أشهر الشتاء.

وفي العراق ثلاث مناطق مناخية: الصحراء شبه الاستوائية، والسهوب شبه الاستوائية، والمتوسطية (انظر الشكل 15-5). فموقع العراق بين خطي العرض 39 درجة و37 درجة يعني أنه يتأثر إلى حد كبير بالضغط المرتفع شبه الاستوائي. كما أن نشاط المرتفع الجوي السائد يولد هواءً هابطاً مما يعني أن المنطقة ستبقى جافة طوال العام. كما يعني الهواء الهابط أن السماء ستبقى من دون غيوم، مما يؤدي إلى فائض صافٍ من الإشعاع الشمسي، والذي يتجلى في ارتفاع متوسط درجات الحرارة السنوية. كما أن الارتفاع المرتبط بالتضاريس الجبلية في شمال العراق يؤدي إلى انخفاض درجات الحرارة وزيادة طفيفة في هطولات الأمطار من خلال الارتفاع التضاريسي (الجبلي) (Nyrop and Smith 1979; Pannell 2004).

الشكل (15-5)

المناطق المناخية في العراق



المصدر: مستمدة من: Pannell (2004).

المنطقة الواقعة بين الجنوب الغربي للعـراق والخلـيج (أي أكثـر مـن نصـف الـبلاد) مناخها صحراوي شبه استوائي (BWh) (انظر الشكل 15-5). ويكـون الجـو شـديد الحرارة في الصيف، حيث تتجاوز درجات الحرارة في بعض الأحيان 54 درجة مئوية (130 درجة فهرنهايت)، وأكثر اعتدالاً في فصل الشتاء، إلا أن متوسط درجات الحرارة في الشتاء لا ينخفض أبداً إلى ما دون الصفر. كما أن الهطولات المطرية قليلة، ولكنها عندما تمطر قد تؤدي إلى حدوث فيضانات، وبخاصة في الأودية أو المناطق المبنية التي يكون فيها تصريف المياه سيئاً. والنباتات الطبيعية قليلة في منطقة جنوب العراق، ولكن النباتات النهرية تكثر على طول نهري دجلة والفرات (Palka et al. 2005).

والمنطقة الممتدة شمالي بغداد إلى كركوك عبارة عن سهوب شبه استوائية أو تتميز بمناخ الأراضي العشبية (BSh) (انظر الشكل 15-5). وتتميز هذه المنطقة بدرجات حرارة أبرد كما تشهد أمطاراً أكثر قليلاً في الشتاء نتيجة مرور جبهات هوائية متفرقة خلال أشهر الشتاء. كما أن توافر الرطوبة ودرجات الحرارة الأبرد قليلاً يخلق ظروفاً مواتية لنمو الأعشاب والشجيرات ذات الأوراق العريضة الدائمة الخضرة، وبالتالي، فإن هذه المنطقة هي أكثر اخضراراً بكثير من جنوب العراق (Pannell 2004).

إن المرتفعات الأعلى في شمال العراق تجعل المناخ أكثر رطوبة وبرودة نظراً للارتفاع. ويؤدي الارتفاع الجبلي إلى زيادة الهطولات المطرية في المنطقة (انظر الشكل 15-6). وتصبح الجبال باردة جداً في الشتاء، وتصبح الثلوج شائعة على الارتفاعات التي تزيد على 1000 متر (3300 قدم). كما أن مناخ العراق وطقسه يولد ثلاثة أخطار طبيعية رئيسية: الجفاف والفيضانات والعواصف الرملية. وقد أثرت الفيضانات والعواصف الرملية تأثيراً كبيراً في العمليات خلال المراحل الأولى من عملية حرية العراق [ملاحظة المحرر: للاطلاع على وصف كامل لهذه الحالة يرجى الرجوع إلى الفصل السابع عشر].

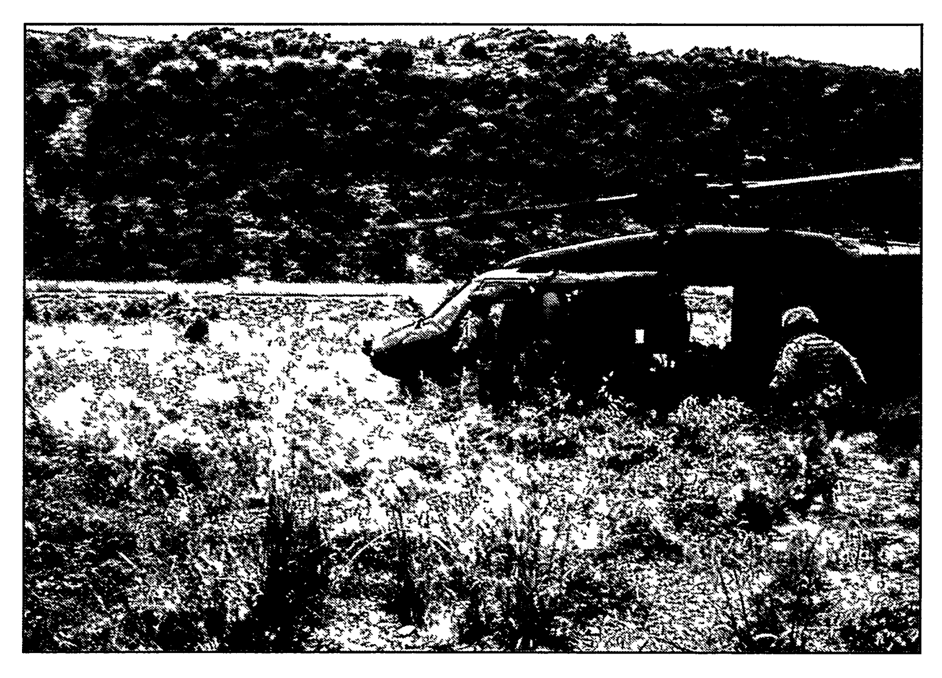
الجغرافيا الطبيعية والعمليات العسكرية

أثرت الجغرافيا الطبيعية تأثيراً كبيراً في العمليات العسكرية في العراق. فحجم العراق الكبير نسبياً يدفع الوحدات العسكرية إلى المناورة من مسافات بعيدة، مع خطوط

إمداد ضعيفة بطول تلك المسافات. وتفاقمت مشكلات المسافة بسبب طبيعة التضاريس والمناخ في العراق. فمعظم أراضي العراق عبارة عن صحراء مستوية ومن دون ملامح مع قليل من الغطاء النباتي الدائم خارج المناطق التي يغذيها نهرا دجلة والفرات. وبيئة العمليات هذه تفرض أربعة تحديات أساسية للعمليات العسكرية: الملاحة والتمويه، وانتشار الغبار، وتأثير درجة الحرارة والجفاف، وتأثير الملامح النهرية.

الشكل (15-6)

الغطاء النباتي في محافظة دهوك في شمال العراق يدل على مناخه المتوسطي



المصدر: Eugene J. Palka.

في نواح كثيرة، تعد ملامح الصحراء هي المشكلة الأكثر تحدياً في العراق، لأن الملاحة تكون بغاية الصعوبة في منطقة من دون معالم يسهل التعرف عليها. ولكن في الممارسة العملية، ثبت عموماً أن القوات الأمريكية تمكنت من التغلب على هذه المشكلة باستخدام نظُم تحديد المواقع العالمية. والأمر الأكثر خطورة على العمليات العسكرية المعاصرة هو حقيقة أن طبيعة الصحراء العراقية العديمة الملامح على ما يبدو يمكن أن تكون خادعة.

فعلى الرغم من أن الغطاء النباتي شبه الغائب والتضاريس المستوية ظاهرياً التي تسمح برؤية أوسع، فإن المنطقة تظهر قدراً كبيراً من التضاريس الدقيقة. وهذه التضاريس الدقيقة، التي تشمل الأودية وخطوط الرؤية المشتركة، تعتبر قليلة الأهمية من حيث إخفاء قوات حديثة وضخمة. ولكن قوات المتمردين الصغيرة والسريعة الحركة يمكنها الحصول على إمكانية التخفي بما يكفيها في أنحاء المنطقة (Hoffman 2004).

والتضاريس الدقيقة مع الصحراء الواسعة، عززت عمليات التمرد، ولاسيما في غرب العراق. فقد اضطرت القوات الأمريكية – التي تم تشكيلها وتجهيزها في البداية لكشف قوات مدرعة كبيرة ومحاربتها في الصحراء المفتوحة – لإعادة تنظيم نفسها واعتماد أساليب جديدة لاستخدام التقنيات المتاحة من أجل هزيمة هذه المزية المفاجئة لدى العدو (Hoffman 2004). ومنصات المراقبة الجوية، واستخدام طائرات من دون طيار، والنظم الإلكترونية لكشف الإشارات هي أمثلة على التقنيات المتاحة بسهولة والمصممة لتعزيز جمع المعلومات الاستخبارية، والكشف عن الأهداف في أمكنة صعبة كهذه. ومع ذلك فقد استفاد المتمردون في محافظة الأنبار الغربية من الطبيعة النائية للتضاريس في التسلل إلى المناطق الحضرية وشبه الحضرية من العراق (Hoffman 2004).

والتربة الجافة والفقيرة في الصحراء العراقية هي بطبيعتها غبارية. وهذه مشكلة كبيرة بشكل خاص للقوات المؤللة، لأن الغبار يضر بالمحركات ويحتم استخدام مرشحات (فلاتر) هواء خاصة، وزيادة عدد مرات التوقف من أجل الصيانة خلال العمليات. تتميز التربة الصحراوية في العراق بأنها فريدة من نوعها من حيث احتواؤها على كميات كبيرة من الكربونات والكبريتات والكلوريدات، بالإضافة إلى جسيمات بحجم ذرات الطمي وذرات الطين. وهذا النوع من الغبار عند امتزاجه مع عديد من زيوت التزليق، يشكل جسيمات بحجم حبات الرمل، وقد ثبت أنه يلحق ضرراً بالغاً بالبنادق والمدافع الرشاشة (McDonald and Caldwell 2005). ولذلك كان مطلوباً من الجنود المحافظة على أسلحتهم بطرق مختلفة غير تلك الطرق الموصى باتباعها في البيئات الأكثر اعتدالاً. كما

احتاجت الطوافات إلى شفرات دوارة خاصة من أجل العمل بأمان ضمن بيئة يسودها الغبار الشديد (Palka et al. 2005).

والغبار السائد هو في الحقيقة من الواقع اليومي في الصحراء العراقية، وكان له أثر ضار على الجنود. فالمواد السطحية في جنوب العراق هي عبارة عن طين ناعم بقوام مسحوق الطَلْق. وهذا الرمل يدخل إلى كل شيء، وكان له أثر سلبي على معنويات القوات والعمليات الجوية والبرية وعلى قدرة المعدات على العمل. وبسبب التجارب إبان حرب الخليج الأولى، فقد كان معظم المعدات الأمريكية مقاوماً للغبار، ولكن أداءه تدنى مع ذلك. ورغم التحسينات التي أجريت على نظم تصفية هواء المحركات، فإن انتشار الغبار الناعم تسبب بارتفاع درجات حرارة المحركات، وبالتالي تسريع تأكُّل مكوناتها وتراجع الكفاءة في استهلاك الوقود. بالإضافة إلى ذلك، فإن الجسيمات الصحراوية الناعمة التي يثيرها الهواء هي بطبيعتها مخرشة وتسبب خدوشاً في الأجهزة البصرية، مخففاً من كفاءتها بغض النظر عن التدابير الوقائية المتخذة. وأخيراً، فإن أحوال الطقس المحمل بالغبار تداخلت مع الأشعة الليزرية، فتسببت بضعف الذخائر الموجهة وأجهزة قياس المدى (Fontenot et al. 2005).

أدرك المخططون الأمريكيون أن الحرارة ستكون أحد الاعتبارات الرئيسية. وبالتالي، فقد شنت عملية حرية العراق تماماً قبل الانتقال من الشتاء إلى الصيف، عندما بدأت درجات الحرارة بالارتفاع، على أمل إنهاء العمليات قبل الصيف (Fontenot et al. 2005). ولكن العمليات استمرت خلال فصل الصيف وبحلول أغسطس جعلت الحرارة حتى النشاطات اليومية البسيطة صعبة. وبسبب تهديد الأسلحة الكيماوية المتصور، ارتدى جنود التحالف في بادئ الأمر البزات الثقيلة الواقية من الأسلحة الكيماوية، ما جعل الأمراض والإصابات الناجمة عن الحرارة تهديداً مستمراً (Palka et al. 2005). جعلت البزات الجنود يشربون كميات إضافية من الماء تعادل تقريباً ضعف الكمية المعتادة؛ ولكن طبيعة الملابس الوقائية تجعل شرب الماء صعباً جداً. ومن ثم، كثيراً ما يكون الجنود عرضة

للإعياء الحراري، ويمكن أن يصابوا بالدوار ومحدودية الرؤية مما يسبب لهم الدوار والارتباك. ومع أن هذه الظروف ليست مهددة للحياة، فإنها تخفض مستوى الكفاءة وتسبب إبطاء العمليات الروتينية إلى حد كبير (Fontenot et al. 2005).

ويعد الجفاف ودرجات الحرارة المرتفعة من اعتبارات التخطيط الضرورية في البيئات الصحراوية. وأوضح ما فيها هو مجموع آثار الجفاف والحرارة على الجنود. كما أن التأقلم التدريجي مع الظروف والحصول على الكميات الكافية من الماء مهمة إلى حد بعيد من أجل تخفيف هذه التأثيرات الناجمة عن الحرارة على المدى الطويل. وفترة التأقلم المقبولة في فصل الصيف هي حوالي ثلاثة أسابيع (Gamez and Watson 2004). فالحاجة إلى توفير مياه شرب نظيفة أمر بديهي. ولكن التأثيرات الأقل وضوحاً والناجمة عن الجفاف والحرارة هي تأثيراتها البدنية على الجنود، لأن قدرة التحمل البشرية للتغيرات المناخية محدودة للغاية في الواقع. فتغيرات درجات الحرارة بأكثر من 5 درجات فوق أو تحت مستوى 21 درجة مئوية سوف تضعف الأداء، وزيادة بمقدار 9 درجات مئوية فوق 21 درجة مئوية سوف تجعل الجسم العادي يتنفس بسرعة أكبر. وأخيراً، فإن زيادة بمقدار 18 درجة مئوية فوق 21 درجة مئوية سوف تهيئ الظروف للإعياء الحراري، وربما الإصابة بضربة شمس (Palka et al. 2005). في العراق، تفاقمت هذه الظروف بفعل الجفاف الشديد مما تسبب بإصابة الجنود بالجفاف بسرعة أكبر. ومن الظروف الفسيولوجية المصاحبة لهذا المناخ الحار والجاف والمغبر، التهاب العين والتشققات الجلدية الشديدة والعمى الشمسي ومجموعة كبيرة من المشكلات الأخرى. وبصورة فردية، تعتبر هذه الإصابات بسيطة على العموم، ولكن بالنسبة إلى جنود يعملون في بيئات صعبة، فإن اجتماع آثارها معاً يمكن أن يكون منهكاً.

ومن المفارقات أن الملامح النهرية أدت دوراً حاسماً ومفاجئاً ضمن حرب تجري في الصحراء. ولأن قوات التحالف توقعت من العراقيين تدمير الجسور من أجل إبطاء تقدمهم، قامت القوات الأمريكية بعمليات عبور الأنهار قبل اندلاع القتال وجلبوا معهم

كميات كبيرة من المعدات الخاصة بصنع الجسور. ولكن الخطة الأولية لهجوم عام 2003 أثبتت أن الفرقة الخامسة سيكون عليها القيام بنحو 800 عملية عبور فردية فوق الماء، وهو جهد يحتاج إلى معدات خاصة بالجسور أكثر بكثير مما كان متوافراً لدى الجيش. وقد أدى هذا التحليل الجغرافي إلى تعديل الخطة، وقامت الفرقة الخامسة بحملتها عبر الصحراء شرقي السماوة والنجف إلى منفذ الحِلة.

الجغرافيا البشرية

مع أن الجغرافيا الطبيعية للعراق تتنوع من جزء إلى آخر داخل هذ البلد، فإن النمط والظروف في كل من هذه الأمكنة ثابتة نسبياً من سنة إلى أخرى. ولكن جغرافيته البشرية تتغير باستمرار مع الوقت والمشهد الثقافي الدائم التطور. وعند فحص المكونات البشرية لبيئة العمليات، اعتاد واضعو الخطط العسكرية أن يأخذوا في الاعتبار الفروع العِديدة للجغرافيا من أجل تشكيل صورة متكاملة عن المشهد البشري. والنتيجة هي إجراء تقييم لسكان المنطقة والجماعات الثقافية والمؤسسات الثقافية وأنماط الاستيطان واستخدام الأراضي والنشاطات الثقافية والشبكات (مثل النقل والاتصالات). ومع أن المشهد الطبيعي في العراق فرض كثيراً من التحديات على العمليات العسكرية، فإن معظم تلك التحديات كان متوقعاً. ولكن النشاطات البشرية هي أكثر دينامية، ولذلك فإنها تزيد الأمور تعقيداً.

الأنماط الثقافية

إن العراق بلد مجزأ ثقافياً إلى ثلاث مجموعات عرقية/ دينية رئيسية تتقاسم تاريخاً طويلاً من الصراع، مما يؤثر بشكل خطير في الجغرافيا السياسية للبلاد (انظر الشكل 15-7). ومع أن أغلبية العراقيين مسلمون، فإنهم مقسمون بين عرب وأكراد (يتضمنون نسباً أصغر من الجماعات العرقية الأخرى كاليزيديين والتركمان)، في حين أن الانقسام الديني يحدث بين المسلمين الشيعة والسنة (وإلى درجة أقل بين المسلمين والمسيحيين والصابئة المندائيين واليهود).

يشكل العراقيون الشيعة الأغلبية بنحو 60٪ من السكان وهم يتركزون في جنوب البلاد وشرقها. وإيران التي تحد البلاد من الشرق هي عبارة عن حكومة دينية شيعية ولها علاقات ثقافية ودينية وثيقة مع بعض عناصر الشيعة العراقيين. وتاريخياً، تعرض الشيعة لقمع وحشي من قبل السكان السنة العراقيين، واستمر صدّام بهذا الظلم. وتقليدياً، فقد عاش الشيعة في المناطق الريفية أو المدن الهامشية الأصغر. وتعد البصرة في جنوب العراق من المدن الشيعية الرئيسية، وتضم كل من مدينتي كربلاء والنجف أهم الأمكنة الدينية لدى الشيعة. وللشيعة شكلهم الخاص من الحج الذي يستقطب عشرات الآلاف من الحجاج للسير من النجف إلى كربلاء، ولكن صدّاماً منع الشيعة من إقامة هذا الحج على مدى ثلاثة عقود من الزمن. ومع سقوطه، تابع الشيعة هذه الممارسة منذ عام 2003. ويؤدي رجال الدين الشيعة دوراً مهماً في توجيه مجتمعهم، ولديهم القدرة على تحريض أتباعهم على التمرد، أو إقناعهم بالتعاون والمشاركة في العمليات السياسية.

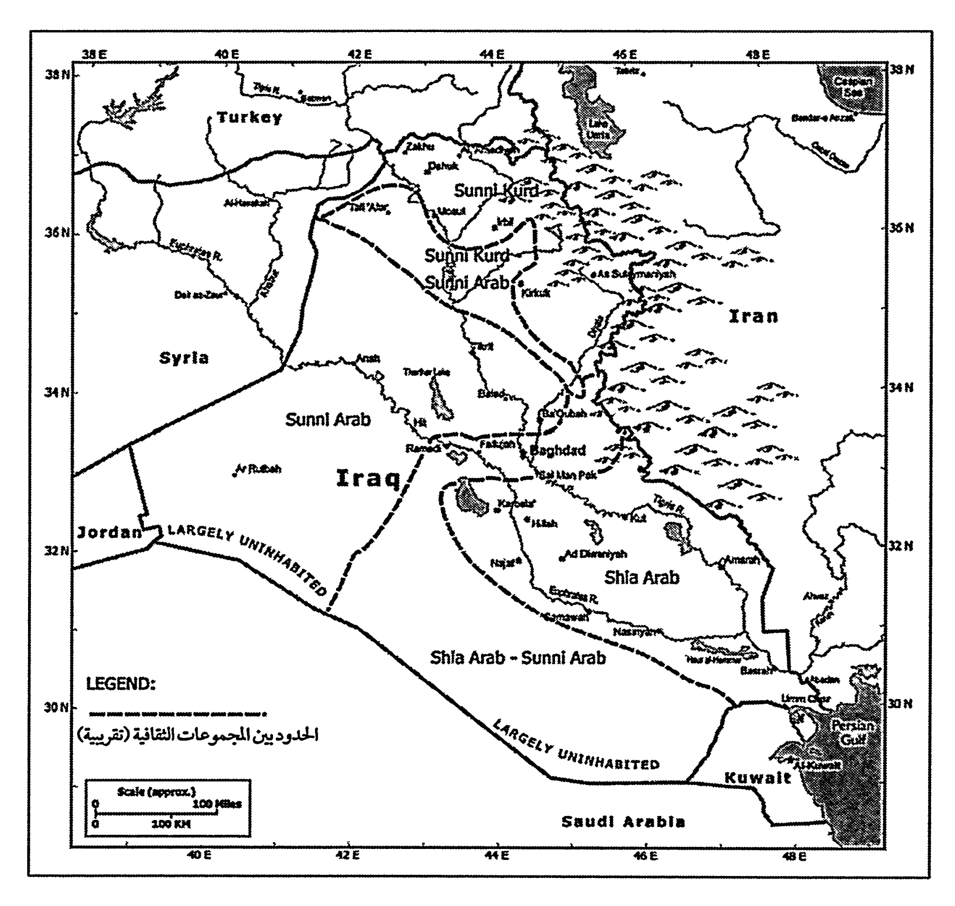
أما السنة العراقيون فهم أقلية (20٪ من السكان) ولكنهم تاريخياً العنصر الحاكم للعراق [ربما يقصد المؤلف العرب السنة؛ إذ إن نسبة السنة العرب والأكراد أكثر من ذلك]. وعندما أنشأ البريطانيون العراق، نصّبوا ملكاً من أهل السنة، وكان السنة هم الذين عاشوا في بغداد وحولها، وسيطروا على الحياة السياسية والاقتصادية. وكان صدام حسين سنياً من تكريت. وكان يخشى الشيعة والأكراد معاً، وعمل على قمع هاتين الجماعتين بوحشية خلال فترة حكمه.

الأكراد مسلمون، ولكنهم يختلفون من الناحية الثقافية عن العرب الشيعة والسنة، ولهم لغتهم الخاصة، ويمارسون الإسلام السني الخاص بهم [الأكراد والعرب السنة يختلفون في القومية وليس بنوع خاص من الإسلام السني]. ويشغل الأكراد وأقرباؤهم أجزاء من سوريا وتركيا وإيران أيضاً. وتعتبر كركوك المدينة الرئيسية، وهي من أكثر المدن تنازعاً عليها في الشمال الكردي. ويعد الأكراد قومية تقليدية من دون دولة؛ مما يعني أنهم مجموعة متجانسة ثقافياً لها هويتها الخاصة قومياً، ولكن ليس لهم دولة سياسية خاصة بهم.

ومن الناحية التاريخية، طمح بعض الأكراد إلى إنشاء دولة كردستان من أجزاء من العـراق وإيران وتركيا وسوريا. وتمخضت عن هذه الرغبة حركة تمرد في كل بلد. وقد قمع صـدام حسين الأكراد بوحشية على مدى عقود من الزمن وقتل الآلاف منهم بالأسلحة الكيماويـة خلال حملات الأنفال البغيضة التي شنها. ويحتوي الشمال الكردي أيضاً على أقليـة كبـيرة من التركمان والمجموعات العرقية الأخرى والتي تجمعـت في كركـوك وحولهـا. ويشـتهر الأكراد بـأنهم محبـون للحـرب، وهنـاك عـداوة تقليديـة بـين الأكـراد والسـنة العـراقيين الموجودين في الأراضـي المنخفضة إلى الجنوب (Malinowski 2004).

الشكل (15-7)

خريطة المجموعات الثقافية الرئيسية



المصدر: مستمدة من: Malinowski (2004).

في الوقت الحالي، يعترف الدستور العراقي بالمطالب التاريخية للأكراد ويتيح لهم حكم إقليم شبه ذاتي في الثلث الشمالي من البلاد، بما في ذلك أراضٍ ضمن محافظات دهوك وأربيل والسليمانية وكركوك وديالى ونينوى. ولكن المناطق المتنازع عليها (بما فيها مدينة كركوك الرمزية) أبعد ما تكون عن الحل، وهي تقع على الخط الأخضر الذي يفصل كردستان العراق عن بقية البلاد.

المجتمع العراقي عبارة عن تقارب بين القديم والحديث. وعلى الصعيد الوطني، كان للعراق حكومة علمانية ومناطق إدارية مختلفة، ومحافظون ومجالس للمحافظات. ولكن النظام القبلي على المستويين المحلي والإقليمي يؤثر تقريباً في جميع جوانب الحياة. ويتمتع شيوخ القبائل بنفوذ كبير في الشؤون المحلية، وتؤدي العضوية القبلية دوراً مهماً في تحديد السلطة السياسية. وقد أحاط صدام حسين نفسه بعائلته وأفراد قبيلته من مسقط رأسه في مدينة تكريت. كما أن أي جهد لبذل الإصلاح في العراق يجب أن يأخذ في الاعتبار كلاً من سياسة الحكومة الوطنية الرسمية، ووجهات نظر السلطات القبلية والدينية غير الرسمية. ومع أن النزعة القومية قد تكون هي الهدف النهائي، فإن العلاقات في العراق تبدأ بالعائلة وتتطور إلى فروع العائلة والعشيرة والقبيلة واتحاد القبائل.

الجغرافيا السياسية

إن الاختلافات الثقافية بين السنة والشيعة والأكراد لها تأثير كبير في الجغرافيا السياسية في العراق. ومن الناحية السياسية، كان العراق عبارة عن حكومة ملكية وديكتاتورية عسكرية تعاني الانقلابات. وحكم صدام حسين لمدة ثلاثين عاماً من خلال العنف والترهيب، وقمع الطموحات السياسية لكل من الشيعة والأكراد، وأي سني قد يتحداه. لم يعرف العراق الديمقراطية قط، وبعد خلع صدام حسين من الحكم، حكمته سلطة الاحتلال لفترة قصيرة ومن ثم حكومة مؤقتة. وبالتالي، كان عام 2005 بداية عهد سياسي جديد في العراق. وأجريت الانتخابات الوطنية في مطلع يناير 2005 بنسبة مشاركة تقدر بنحو 58٪ من الناخبين. ووافق الشعب العراقي على الدستور الدائم في

أكتوبر، وأجريت انتخابات وطنية في ديسمبر لانتخاب أول حكومة بموجب الدستور الجديد. وبنسبة مشاركة بلغت 77٪ من الناخبين. وقد أشيد بانتخابات ديسمبر 2005، باعتبارها حققت نجاحاً غير مسبوق، وبأنها نقطة تحول تاريخية. شملت انتخابات مجالس المحافظات (التي أجريت في 14 من أصل 18 محافظة) في 31 يناير 2009 أكثر من 14000 مرشح، منهم نحو 4000 امرأة (Basheer 2009). وكانت الجهود التي بذلها رئيس الوزراء نوري المالكي والرئيس جلال الطالباني جديرة بالملاحظة، إن لم تكن متميزة، ولكن يبدو أن الآمال أكبر مع اقتراب العراق من موعد انتخابات عام 2010 [بحسب تاريخ كتابة هذه الدراسة] وبقاء التحديات الطائفية.

والطائفة الشيعية هي الرابح الأكبر من الانتخابات، حيث يمكن لكل فرد بالغ أن يدلي بصوته. وبكونهم الأغلبية البالغة 60٪ من السكان، كانت انتخابات عام 2005 فرصتهم الكبرى للاستيلاء على السلطة السياسية بعد قرون من القمع. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها رئيس الوزراء المالكي، فإن الشيعة لايزالون غير موحدين. ولاتزال المنافسات قائمة مما يجعل من الصعب عليهم ترسيخ سلطتهم. وقد أثبت رجل الدين الشيعي الأقوى، آية الله علي السيستاني، أنه معتدل نسبياً بوجهة نظره تجاه التحالف المحتل والاتفاقية الأمنية والعملية السياسية. أما الشخصية الشيعية المركزية الأخرى فهو رجل الدين مقتدى الصدر، البالغ من العمر 35 عاماً [آنذاك] والذي كان معارضاً عنيفاً لقوات التحالف المحتلة، فقد حرّض على الأعمال الإرهابية ضد جنود التحالف والمدنيين العراقيين الذين أيدوا الحكومة المؤقتة، والذي يظل على خلاف مع النظام الحالي. يستميل الصدر جماهير الشباب الضعيفي التعليم والشباب الشيعي الغاضب في المناطق الحضرية ممن ضاقت آفاقهم الاقتصادية، أو قلت فرصهم في الحصول على وظيفة (Palka et al. 2005).

لايزال السنة منقسمين نسبياً في مواقفهم تجاه الانتخابات المقبلة. فقد عانى كثير من السنة في عهد صدام وكانوا مسرورين عندما شاهدوا إطاحته، ولكنهم بقوا يشعرون

بالمرارة من فقدانهم وضعهم السابق في المجتمع. واختار بعضهم المشاركة في انتخابات عام 2005 للحصول على نصيب من السلطة على الأقل من أجل حماية مصالحهم. ولكن كثيراً منهم اختاروا مقاطعة الانتخابات، وخسروا نتيجة ذلك صوتاً مهماً في الحكومة. وشهدت الانتخابات المحلية لعام 2009 مشاركة أكبر من ذلك بكثير بين السنة لأنهم كانوا يأملون استعادة بعض نفوذهم السياسي. ولكن، وحتى وقت كتابة هذه السطور، لايزال هناك عدد من المجموعات المتنافسة داخل السُنّة، ولكل منها أجندتها الخاصة بها واستعدادها لاستخدام العنف من أجل تقويض العملية السياسية والاستقرار في البلاد.

تمتع الأكراد بقدر من الحكم الذاتي في شمال العراق منذ حرب الخليج عام 1991. وبما أنهم تمتعوا بالحماية من قبل مقاتلي البشمركة ومنطقة الحظر الجوي التي فرضها الاحتلال، اضطر صدام حسين إلى السماح لهم بإدارة شؤونهم بأنفسهم. ويعتبر الأكراد مؤيدين مخلصين لقوات التحالف، فقد شاركوا في الانتخابات من أجل ضمان السيطرة المحلية على المحافظات الأربع التي يسيطرون عليها. ويتجلى الهدف الرئيسي للأجندة الكردية بضمان مستقبلٍ لعراق يتمتع بحكم فيدرالي أو لامركزي بطبيعته، وأن يواصلوا تمتعهم بحكم ذاتي كبير في الشؤون المحلية. وإذا تعرض حكمهم الذاتي لتهديد، أو إذا فشلت الانتخابات الوطنية ونشبت حرب أهلية، فمن المفترض أن يكافح الأكراد في سبيل استقلالهم. ومن شأن هذا أن يكون له آثار سياسية كبيرة على الأكراد في إيران وسوريا وتركيا، فضلاً عن العلاقات الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والعالم العربي.

وللمستقبل السياسي للعراق آثار إقليمية ودولية أيضاً. وأفضل سيناريو هو أن تنجح انتخابات يناير 2010. وتأمل إدارة الرئيس باراك أوباما أن تسير البلدان الأخرى في المنطقة على خُطا العراق وتجري إصلاحات ديمقراطية وتقوم بتحديث مجتمعاتها واقتصاداتها، وبالتالي تزيل الأسباب الكامنة وراء الإرهاب. أما أسوأ سيناريو فهو إما أن تفشل الانتخابات وإما أن تؤدي إلى قيام حكومة شيعية متطرفة غير مقبولة لأهل السنة والأكراد، الأمر الذي يؤدي إلى حرب أهلية وتدهور الأوضاع في البلاد. ومن شأن حالة

عدم الاستقرار هذه أيضاً أن يكون لها آثار وخيمة على الاقتصاد العالمي إذا ما دفعت إلى حدوث ارتفاع كبير في أسعار النفط أو انقطاع إمداداته.

الجغرافيا الحضرية والبنى التحتية

العراق بلد متحضر فيه ثلاث مدن يزيد عدد سكانها على مليون نسمة، وثماني مدن يزيد عدد سكانها على 500 ألف، وعدد كبير من المستوطنات الأصغر. حتى إن الخمسة ملايين عراقي الذين يعيشون في المناطق الريفية، يميلون إلى التجمع والعيش في مستوطنات (انظر الشكل 15-8). وكان لهذه الجغرافيا الحضرية آثار خطيرة على العمليات العسكرية في العراق، لأن ضرورة القتال في المدن أصبحت أمراً حتمياً لا مفر منه.

الشكل (15-8)

يعتبر تجمع قروي كهذا الموجود في جنوب شرقي الموصل تجمعاً نموذجياً من نماذج الاستيطان الريفي بالعراق



المصدر: Eugene J. Palka.

بغداد، عاصمة العراق، هي مدينة مترامية الأطراف تطل على نهر دجلة، ويبلغ عدد سكانها 5.6 ملايين نسمة (PRB 2005). وهي مزيج من السنة والشيعة، مع عديد من الأقليات الأخرى. وهي أيضاً كبرى مدن البلاد ومركزها. والموصل هي ثاني أكبر مدينة بعدد سكان يبلغ 1.74 مليون نسمة، وفيها عدد كبير من السكان الأكراد، ولكنها تتضمن أيضاً عدداً كبيراً من السكان السنة. وتقع البصرة على بعد حوالي 10 أميال فقط من الخليج، وهي مدينة الميناء الرئيسي البحري في العراق، ويقطنها 1.3 مليون عراقي معظمهم من الشيعة، وهي مركز رئيسي للنفط (PRB 2005).

من الناحية التقليدية، تتجنب القوات العسكرية القتال في المدن، ولكن التوجه العالمي نحو التحضر، وحقيقة أن المدن هي التضاريس الرئيسية تجعل من الضروري السيطرة عليها (Krulak 1999). وضعت قوات البحرية الأمريكية والجيش الأمريكي وطورت مبدأ القتال في المناطق الحضرية أثناء سير عملية حرية العراق، ووقع عديد من المعارك الرئيسية في المناطق الحضرية. فالاستيلاء على قصور صدّام في بغداد في إبريل 2003 كسر مقاومة النظام ومنع حدوث حصار طويل. إن المعركة التي نشبت ضد قوات الصدر في النجف وكربلاء ومدينة الصدر (بغداد) أجبرته على خوض غمار الساحة السياسية، وكان القتال في سبيل الفلوجة نصراً تكتيكياً حرم المتمردين من ملاذ آمن.

واستُخلص عدد من الدروس المستفادة من هذه المعارك. أولاً، يحتاج الأمر إلى قوة كبيرة من القوات المدربة تدريباً جيداً من أجل القتال بفاعلية في البيئة الحضرية. المسافات تتقلص، والاتصالات صعبة، ويجب على القادة الصغار مع المجموعات الصغيرة من الجنود أن يتخذوا زمام المبادرة وأن يعملوا بصورة روتينية بأسلوب لامركزي. ثانياً، القوة النارية الدقيقة أمر ضروري للحيلولة دون وقوع أضرار جانبية كبيرة. ثالثاً، إن القوة غير القاتلة غالباً ما توفر أفضل ضمان ضد وقوع الخسائر في صفوف المدنيين، وتكبُّد الأضرار الجانبية، أو استعداء السكان المحليين. وأخيراً، يودّ المتمردون عموماً القتال في المدن لأنها تتيح لهم فرصة الاحتماء بين السكان المدنيين، وفي بعض الحالات، تلغي بيئة الأبنية المزايا التقنية التي يتمتع بها الائتلاف (Fontenot et al. 2005).

كانت العربات المدرعة عبر التاريخ مقيدة عندما تعمل داخل المدن لأنها كانت عرضة للتشتيت أو للكمائن من الأعلى والخلف. في المعركة من أجل بغداد، أطلق اللواء الثاني من فرقة المشاة الثالثة هجوماً جريئاً وبسرعة عالية بالمدرعات موجهاً بشكل مباشر إلى مركز المدينة حيث استولوا على قصر الرئيس السابق صدام حسين. وحطم هذا الهجوم مقاومة النظام، وأثبت أن القوات المدرعة يمكن أن تقاتل في المناطق العمرانية. ولكن العوامل الرئيسية تمثلت بطبيعة المدينة (المفتوحة والحديثة نسبياً) والعدو (المجهز بمعدات قديمة ومعظمها بنادق وقذائف صاروخية). في النجف، وجد مشاة البحرية (المارينز) أنهم يتكبدون خسائر فادحة غير مقبولة على الرغم من تدريبهم المتقدم على القتال في المناطق الحضرية. ولكن وصول دبابات أبرامز ومركبات القتال برادلي، جلب القوة النارية للدروع المحمية التي كانت لازمة للتغلب على المتمردين.

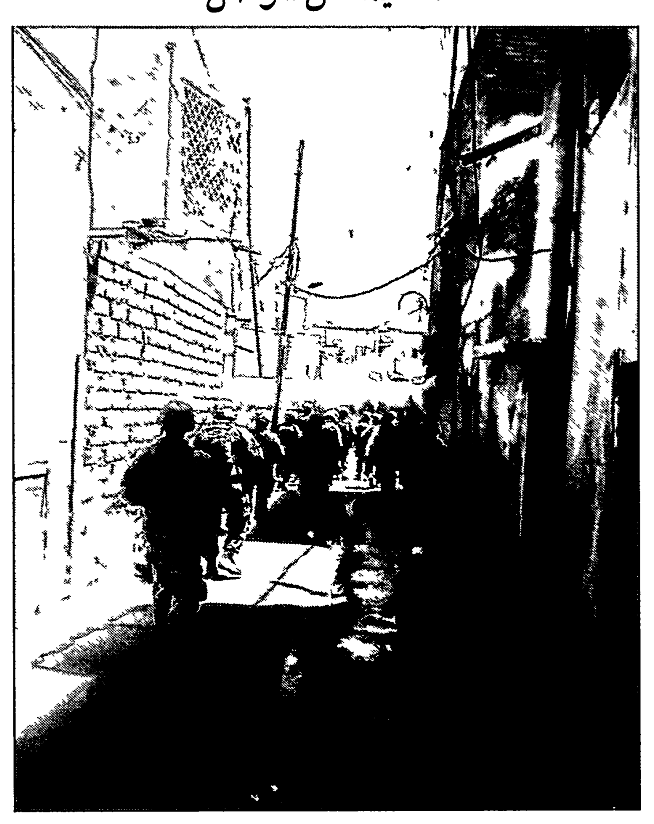
هناك أنواع مختلفة للبيئات الحضرية تراوح بين الأبنية المفتوحة الحديثة في وسط بغداد إلى الشوارع الضيقة والمباني المزدحمة بالسكان في المدن الأقدم (انظر الشكل 15-9). والمناطق المختلفة في المدينة نفسها فيها أنواع مختلفة من المباني وأنماط الشوارع، سواء كانت تجارية أو سكنية أو صناعية قديمة أو حديثة. كما أن المعلومات الاستخباراتية الجيدة والخرائط، وكذلك فهم التخطيط والبناء في المناطق الحضرية، هي من المعارف الأساسية لقادة الوحدات القتالية ضمن البيئات الحضرية.

هناك أمور كثيراً ما يتم إغفالها ولكنها على قدر كبير من الأهمية لإنجاح العمليات العسكرية، ومنها المهمات اللوجستية للإمداد والنقل والصيانة والرعاية الطبية. وتستفيد هذه المهمات اللوجستية من البنية التحتية للمناطق الحضرية والشوارع والطرق السريعة والسكك الحديدية والمطارات والموانئ البحرية. وكان لوسط العراق شبكة طرق محدودة لكنها مشيدة بشكل جيد بحيث مكنت قوات التحالف من التقدم بسرعة إلى بغداد. وكانت المدن الرئيسية مرتبطة عموماً بشبكة طرق ذات اتجاهين مشيدة جيداً، مما سهل حركة الجيش.

تم الاستيلاء على مطار صدام حسين في الجانب الغربي من بغداد في أقرب وقت ممكن خلال عملية حرية العراق. وكان المطار متوقفاً عن العمل منذ عام 1991 عندما فجرت قوات التحالف المدرج وفرضت الأمم المتحدة عقوبات تقيد السفر جواً. واستخدم التحالف ممراً طويلاً للطائرات لإعادة فتح المطار أمام طائرات النقل العسكرية، وأصلحت المدرج في نهاية المطاف. استؤنفت حركة الطيران المدني للمرة الأولى منذ أكثر من عشر سنوات، ولكن تهديد صواريخ أرض-جو المحمولة على الكتف جعل السفر خطيراً من المطار الذي أصبح اسمه "مطار بغداد الدولي". كما سارع التحالف إلى فتح المطارات المدنية في البصرة وكركوك.

الشكل (15-9)

غالباً ما تكون تحركات الوحدات مقيدة بالشوارع والأزقة الضيقة، كما هي الحال في المدينة القديمة من الموصل



المصدر: Eugene J. Palka.

كانت مرافق الميناء في البصرة، وبالقرب من ميناء أم قصر في حالة سيئة بعد عشر سنوات من العقوبات، والحرب بين إيران والعراق، وحرب الخليج الثانية. وكانت الألغام تشكل خطراً ماثلاً على الدوام بحيث لم يكن للموانئ دور يذكر في مطلع الحرب. وكرست قوات التحالف التي تقودها القوات البريطانية جهوداً كبيرة في إزالة الألغام من الممرات المائية وإصلاح البنية التحتية للميناء. وكان هذا العمل أساسياً لتحقيق التنمية الاقتصادية العراقية وللاستخدام العسكري المحتمل الذي يخفف قليلاً من ضغط العمل عن ميناء الشعيبة الكويتي الذي كان يستخدم بشكل كبير.

التقانة الجغرافية

اخترع علماء الجغرافيا وأنجزوا واستخدموا عدداً من الأدوات التي لا تقدر بثمن خلال العمليات العسكرية. أثبتت التقانة الجغرافية أهميتها الأساسية منذ الاستخدام المبكر لخرائط الملاحة والتخطيط، واستخدام الصور الجوية وغيرها من صور الاستشعار عن بعد، وصولاً إلى استغلال نظُم المعلومات الجغرافية ونظم تحديد المواقع العالمية. وتعتمد جميع عناصر ما يسمى الثورة في الشؤون العسكرية – بما في ذلك الضربات الدقيقة البعيدة المدى، والوعي المسيطر على ساحة المعركة، وحرب الفضاء الجغرافي – على التقنيات الجغرافية (Corson and Palka 2004).

لطالما كانت الخرائط أدوات حاسمة بالنسبة إلى الجنود. ولطالما كان التحدي يتمثل بإعداد خرائط دقيقة بقياسات مناسبة يمكن توزيعها بسرعة على القوات. تتمتع الولايات المتحدة وغيرها من جيوش الناتو حالياً بالقدرة على تحديث الخرائط وإعدادها بسرعة ضمن وحدات متنقلة. يوفر برنامج سلاح الجو المسمى "نظرة الصقر" خريطة رقمية لكل العراق يمكن تكبيرها وتصغيرها لتغيير المقاييس. وتتيح النسخة السرية منه تكبير الصورة لرؤية صور الأقمار الصناعية للمنطقة بدقة عالية جداً. ويمكن للمستخدمين الحصول على خرائطهم وطباعتها حسب الطلب وفقاً لحاجتهم. كما أن إدماج الخرائط الرقمية في نظم مثل نظام التتبع العسكري MTS ربط الخرائط الرقمية

بنظام تحديد المواقع العالمي. ويوفر نظـام التتبـع العسـكري عـرض الخـرائط الرقميـة مـع الرموز التي تبين موقع المرء وموقع الوحدات الأخرى المجهزة بنظام التتبع العسكري. كما أن هذا النظام يسهل إرسال الرسائل النصية عبر الأقمار الصناعية، ومن ثم فهو نظام ممتـاز للاتصالات البعيدة المدى.

منـذ أول اسـتخدام للطـائرات الورقيـة والبالونـات مـع كـاميرات تصـوير، كـان الاستشعار عـن بعـد أداةً للجنـدي. وكانـت صـور الأقـمار الصـناعية وبيانـات أجهـزة الاستشعار الأخـرى مهمـة في تحديـد مكـان قـوات العـدو. وشـملت التطبيقـات التـي استخدمت في عملية حرية العراق استخدام الطائرات من دون طيار مـن قبـل الوحـدات التكتيكية من أجل معرفة ما يوجد فوق التلة أو القرية التالية. وأتاح اسـتخدام الطـائرات الصغيرة من دون طيار التقنيات للجنود من أجل إطلاق طائرة صغيرة في الهـواء وتصـوير ملامح التضاريس التالية أو الشارع التالي ضمن منطقة حضـرية.

طـورت وزارة الـدفاع نظـم تحديـد المواقـع العالميـة GPS التـي تطـورت تطبيقاتهـا العسكرية. ولايزال نظام تحديد المواقع نظاماً ملاحياً مفيداً في تحديد مكـان الفـرد، ولكـن إدماجه مع الخرائط الرقمية في نظم مثل نظام التتبع العسكري حالياً يظهر موقع الفرد عـلى الخريطة، ويتيح له إجراء حسابات الملاحة. وقد أثبتت هذه التقنيات أنها مهمـة للعـاملين بالمهمات اللوجستية لأنها تتيح لهم الحفاظ على رؤيـة واضـحة للقوافـل والشـحنات أثنـاء عبورها. وكان من التطورات الأخرى في مجال استخدام نظام تحديد المواقـع، اسـتخدامها لأغراض الاستهداف. وأصبحت القذائف الانسيابية (صواريخ كروز) التي كانت تعتمد سابقاً على رادار تتبع التضاريس الأرضـية، تسـتخدم حاليـاً نظـام تحديـد المواقـع العـالمي لتصبح دقيقة للغاية، وقد حوّل هذا الجهـاز الـرخيص القنبلـة القديمـة غـير الموجهـة إلى ذخيرة هجومية مباشـرة مشتركة موجهة بدقة بوساطة النظام العالمي لتحديد المواقع.

ونظام المعلومات الجغرافية GIS هو نظام حاسوبي يجمع المعلومات المكانيـة ويخزنهـا ويحللهـا ويعرضـها مـن أجـل حـل المشـكلات. وبـاجتماع نظـام المعلومـات الجغرافيـة،

باستخدام الخرائط الرقمية والمعلومات التي تتم تغـذيتها في الوقـت الحقيقـي عـن طريـق الاستشعار عن بعد، مع الوحدات المجهزة بنظام تحديد المواقع، فإنه يخلق جيلاً جديداً من نظم القيادة والتحكم الرقمية. وتتيح هذه النظم للقادة الأمريكيين وقادة التحالف معرفـة مواقع الوحدات الصديقة والعدوة ونشاطاتها، وتحقيق إدراك تام يتيح الهيمنة على سـاحة المعركة. كما تبين نظم مثل نظام تتبع القوات الصديقة مواقع الوحدات الصـديقة والعـدوة على شاشة عرض الخرائط الرقمية. وبإمكان القادة المناورة بقواتهم على نحو أكثر فاعليـة، وإصابة الأهداف بدقة أكبر، والحد من الخسـائر الناجمـة عـن قـوات صـديقة. ويسـتخدم المتخصصون بالمهارات اللوجستية شبكة إمدادات الانتشار المشترك من أجل تتبـع توزيـع الإمدادات على القوات ومراقبتها. وهكذا، فإن نظماً مثل هذه تزيد الكفـاءة إلى حـد كبـير (Corson and Palka 2004).

وعلى الرغم من توفير مزية تقنية كبيرة، فإن جميع هذه النظم لها قيودها. ومـع ذلـك، فإن تطور هذه التقنيات المبنية على أساس جغرافي تثبت أنها ثورية وتتيح للقوات العسكرية أن تكون أكثر كفاءةً وفتكاً ودقةً في استخدام القوة للحد من الخسـائر في صـفوف المـدنيين والأضـرار غير المقصودة.

الخلاصة

تناول هذا الفصل الجغرافيا العسكرية للعراق وعمليـة حريـة العـراق؛ فمـن حيـث الجغرافيا الطبيعية، فإن العراق بلد بحجم ولايـة كاليفورنيـا فيـه ثـلاث منـاطق جغرافيـة رئيسية تتنوع بين المستنقعات والصحارى والجبال، ونهران كبيران يشكلان شـريان الحيـاة لهذا البلد. وهو بلد قاحل ذو بيئات صحراوية وسـهوب في المنـاطق الجنوبيـة والوسـطى، ومنطقة جبلية ذات مناخ متوسطي في الشمال. وتشكل الحرارة والغبار والمطر تحديات، كما يمكن لأخطـار أخـرى كالعواصـف الرمليـة والفيضـانات أن تـؤثر بشـدة في العمليـات العسكرية (Malinowski 2004).

أما الجغرافيا البشرية في العراق فهي أكثر تعقيداً؛ فعلى الرغم من أن معظم العراقيين هم من أصل عربي، و80٪ يتحدثون اللغة العربية، والأغلبية العظمى مسلمون، فإن الفجوة الثقافية/ السياسية كبيرة بين الشيعة والعرب السنة والأكراد. وتتحول هذه الاختلافات الثقافية إلى جغرافيا سياسية معقدة، حيث يجد العراق - وهو حديث عهد بالديمقراطية - نفسه في مواجهة الجولة الثانية من الانتخابات الوطنية في عام 2010 [بحسب تاريخ كتابة الدراسة]. وتؤيد الأغلبية الشيعية والأكراد الانتخابات كما يفعل معظم السنة، ولكن أقلية صغيرة وعنيفة لديها أجندات بديلة وطموحات لعرقلة العملية السياسية حتى يتسنى لها فرض رؤيتها للدولة العراقية الجديدة، سواء أكانت حكومة دينية إسلامية أصولية أم عودة إلى حكم البعث الاستبدادي. وجرت هذه الأحداث في إطار مشهد طبيعي متحضر، حيث يعيش معظم العراقيين في مدن كبيرة تعتبر ساحات معارك معقدة.

ويقف العراق على مفترق طرق. فحتى تاريخ كتابة هذه السطور، كانت العملية السياسية مستمرة، وكان لايزال من المقرر إجراء الانتخابات الوطنية في عام 2010، ولكن نجاحها ونتائجها ليست مضمونة. والزمن كفيل بإثبات ما إذا كان العراق سيصبح تلك الدولة المستقرة الديمقراطية المزدهرة التي تصورتها إدارة بوش سابقاً، والرئيس أوباما حالياً؛ أو سيتحول إلى دولة فاشلة تنحدر إلى حرب أهلية تزعزع استقرار المنطقة وتصبح منطلقاً لهجمات إرهابية إسلاموية ضد الولايات المتحدة والغرب. وفي كلتا الحالتين، فإن معرفة الجغرافيا الطبيعية والبشرية للعراق أو أي مكان آخر أمر ضروري لتحقيق النجاح في الحرب وبناء الأمة وصنع السلام.

القسم الثالث

الجغرافيا العسكرية التطبيقية



القسم الثالث

الجغرافيا العسكرية التطبيقية

حفز تطور البيئة الاستراتيجية العالمية بعد نهاية الحرب الباردة نهجاً جديداً تماماً من المصالح الأمنية العالمية ومجال الجغرافيا العسكرية. فقد حدّ أمر الواقع الاستراتيجي الذي قسم العالم خلال حقبة الحرب الباردة، من الصراعات الإقليمية، أو على الأقل ضمِن أن رقابة كاملة كانت تمارس على الأنظمة البديلة لمنع زيادة حدة معظم الصراعات وتحولها إلى حروب على نطاق واسع؛ مثل ما شهدنا خلال الصراعات الإسرائيلية-العربية. كانت لبعثات الإنقاذ من الصراعات العرقية والكوارث، وعمليات حفظ السلام والبعثات الإنسانية الأخرى، اهتمامات يعهد بها عادة إلى الأمم المتحدة أو أي منظمات غير حكومية. وقد تطلبت الحالة المعاصرة المتطورة جغرافيين عسكريين ليكونوا على علم باتساع واقع الاستراتيجية الجديدة وعمقها؛ ما استلزم رؤى أفضل في هذه القضايا المعقدة في هذه البيئة الدائمة التحول الاستراتيجي. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، كان تركيز الجغرافيين العسكريين بالدرجة الأولى على وقائع استراتيجية محدودة للحرب الباردة، ولذا أصيب التفكير العسكري والأكاديمي بالركود.

تغير كل هذا تغيراً واضحاً بعد نهاية الحرب الباردة. وبانهيار أنظمة الكتلة الشرقية السابقة وتأثيرات العولمة وصعود الجماعات الإرهابية الإسلاموية وانتشار مساحات غير خاضعة للحكم وغياب سيطرة القوى الكبرى، اندلعت عداوات إقليمية وعرقية ودينية وتحولت إلى صراعات إقليمية تحدت الإدارة الدولية. وهكذا استلزم الأمر بعثات جديدة ووقائع استراتيجية أيضاً، وفهماً بارعاً للعوامل الدينامية التي أشعلت انقسامات طويلة وحولتها إلى حرب عنيفة ومفتوحة. في ضوء هذا الواقع الجديد، قام الجغرافيون

العسكريون بتغيير تركيزهم من أجل الاستباق والاستجابة بصورة فعالة لحالات عدم اليقين في عالم التغيرات التقنية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ونتيجة لذلك، شهد العقد الأخير من القرن العشرين، والسنوات الأولى من القرن الحالي تطوراً سريعاً في الجغرافيا العسكرية استجابة للمتطلبات التي لم تنل التفكير فيها رسمياً من قبل القوات العسكرية، أو على الأقل لم تؤخذ في الاعتبار خلال الـ 45 عاماً التي تلت الحرب العالمية الثانية. من الواضح أن طبيعة الصراع الحديث ليست جديدة، ومع ذلك، نزعم أننا شهدنا زيادة في عدد هذه الصراعات خلال العشرين عاماً الماضية. ومن المؤكد أن نهاية الحرب الباردة أوجدت نهجاً جديداً تماماً بالنسبة إلى النظرة إلى العلاقة بين القوات العسكرية وتشكيلة أوسع من البعثات المحتملة. ومما لا شك فيه أنه كان للجغرافيين العسكريين دور حاسم في تقديم تحليلات مقنعة لدعم هذه النقلة النوعية. ومع الصومال والبوسنة ورواندا وكوسوفا لكونها حالات تمثل سوابق، فإن استخدام القوات العسكرية لمعالجة الأبعاد الإنسانية للصراع على المستوى الإقليمي أصبح راسخاً. كما زادت الصراعات ذات الصبغة البيئية والإنسانية والأبعاد العرقية، مثل تلك الصراعات في دارفور، من الضغط على الزعماء السياسيين ووزارة الدفاع الأمريكية للالتزام بتقديم وحدات عسكرية للمهمات الإنسانية وحفظ السلام.

وفقاً لذلك، يبحث هذا القسم من الكتاب العلاقة بين تشكيلة واسعة من المشكلات العسكرية المعاصرة، والجغرافيا، والقوات العسكرية؛ كل من وجهة نظر مهمة تتعلق بالجغرافيا العسكرية.

في الفصل السادس عشر، يدرس وليام دو الثالث مشكلة محيرة لتوفير نظائر مكانية تدريبية للقوات الأمريكية. ويعتبر هذا أمراً مهماً لأنه من المتوقع نشر القوات الأمريكية في أي مكان في العالم؛ لذا يتعين على وزارة الدفاع تحديد أمكنة تكون بمنزلة نسخ متماثلة لبيئات عمليات عسكرية عديدة من أجل احتمال تدريب وحدات بشكل صحيح واختبار معدات لمواجهة تحديات تلك البيئات. ومن إحدى هذه البيئات الخطرة الصحراء.

وفي الفصل السابع عشر يستخدم جوزيف هندرسون مهمة إنقاذ الرهائن الأمريكيين لدى إيران عام 1980 و"عملية حرية العراق"، لتوضيح المعوقات الكبيرة للعمليات الحربية والتحديات التي تفرضها المناطق القاحلة.

ومنذ الإعصار أندرو عام 1992، استُخدمت القوات الأمريكية لمواجهة عدد من الكوارث الطبيعية في الداخل والخارج. وقامت القوات الأمريكية بالأمر نفسه وقدمت إغاثة مهمة وفي الوقت المناسب في أعقاب موجة تسونامي في المحيط الهندي عام 2004، كما أن هذه القوات عملت على تحقيق الاستقرار للوضع المتردي الذي كان سائداً في نيو أورلينز في أعقاب إعصار كاترينا عام 2005. وفي ضوء هذا الواقع يقدم ويلي طومسون وجهة نظر ثاقبة، وفي وقتها، للتخطيط للحاجات اللازمة لحدث كارثي متوقع على ساحل ولاية أوريغون في الفصل الثامن عشر.

وفي الفصل التاسع عشر، نحول تركيزنا نحو الآثار العميقة والضارة التي تجرها العمليات العسكرية على النظم الإيكولوجية. لقد شهد تطور الصراع العسكري تغيرات في حجم القوات العسكرية وتقنيات الأسلحة؛ إذ أصبحت الجيوش أكبر وأصبحت الأسلحة أكثر فاعلية. وفي ضوء هذا، يبحث جوزيف هوبي في الفصل التاسع عشر تأثير العمليات العسكرية في الأراضي الخضراء في أعقاب حصار خي سانه في فيتنام. ويبين في هذا الفصل كيف أن التغيير في استخدام الأرض في أعقاب تلك الحرب أبطأ انتعاش النظم الإيكولوجية أو تعافيها.

أثبتت العمليات العسكرية في كل من العراق وأفغانستان أن الجهة التي تسيطر على الأرض هي جزء مهم جداً من البيانات الجغرافية خلال عمليات مواجهة التمرد. ففي الفصل العشرين، يستخدم دوجلاس باتسون نسخة حديثة من نظام نابليون للسجل العقاري لتحليل الأرض؛ لإثبات كيف أن عمليات مواجهة المتمردين يمكن أن تستفيد من هذه المنهجية. ويتبع هذا الفصلَ منظور تحليلي لسارة جين ميهارج حول تغيير الاتجاه الحديث للإبادة، التي أصبحت عنصراً مركزياً في الصراعات العرقية، وبخاصة في البلقان.

ففي الفصل الحادي والعشرين تبحث ميهارج إحراق المكتبة الوطنية والجامعية في البوسنة والهرسك، وكيف أن القوات الصربية استغلت هذه الحادثة، جزئياً، لمحو سجلات بوسنية تاريخية على درجة كبيرة من الأهمية، وهكذا محت هويتهم ومطالباتهم بالأرض.

وفي الفصلين الأخيرين، يبحث كليفتون بانيل وفرانسيس جالجانو قضيتين عسكريتين معاصرتين تثيران الاهتمام تواجههما الولايات المتحدة. ففي الفصل الثاني والعشرين يستكشف كليفتون المطالبات الاستراتيجية للصين التي تتوسع بسرعة في منطقتها، وتأثيرها العميق في الاستقرار الإقليمي والعالمي. وفي الفصل الثالث والعشرين يعرض فرانسيس جالجانو تحليلاً لمشكلة محيرة لمنطقة غير محكومة ولا تخضع لسلطة دولة، وعودة طالبان والقاعدة إلى غرب باكستان. وقد أصبحت هذه المنطقة بؤرة للحرب العالمية على الإرهاب، وعلى الغرب أن يتعامل مع جهات عنيفة غير حكومية تعمل أساساً باعتبارها حكومة موازية ضمن مناطق القبائل في غرب باكستان بقبول ضمني من الحكومة الباكستانية.

تمثل فصول هذا القسم مجتمعة عينة مهمة من بعض المشكلات المعاصرة الجذابة التي يدرسها الجغرافيون العسكريون. وتدل هذه الفصول على عديد من القضايا الأصيلة للأمن الإقليمي والعالمي الذي يتعلق بالعولمة وانتقال الحكم في كثير من الدول النامية وانتشار التوترات العرقية وشبه الوطنية التي تهدد بالحرب. وتبرهن هذه الفصول مجتمعة على قوة الجغرافيا وأهمية الجغرافيا العسكرية الواضحة في العالم المعاصر.

الفصل السادس عشر

الأراضي العسكرية من حيث هي نظائر مكانية لجيش في القرن الحادي والعشرين: بيئات طبيعية للتجارب والتدريب

وليام دو الثالث

مقدمة

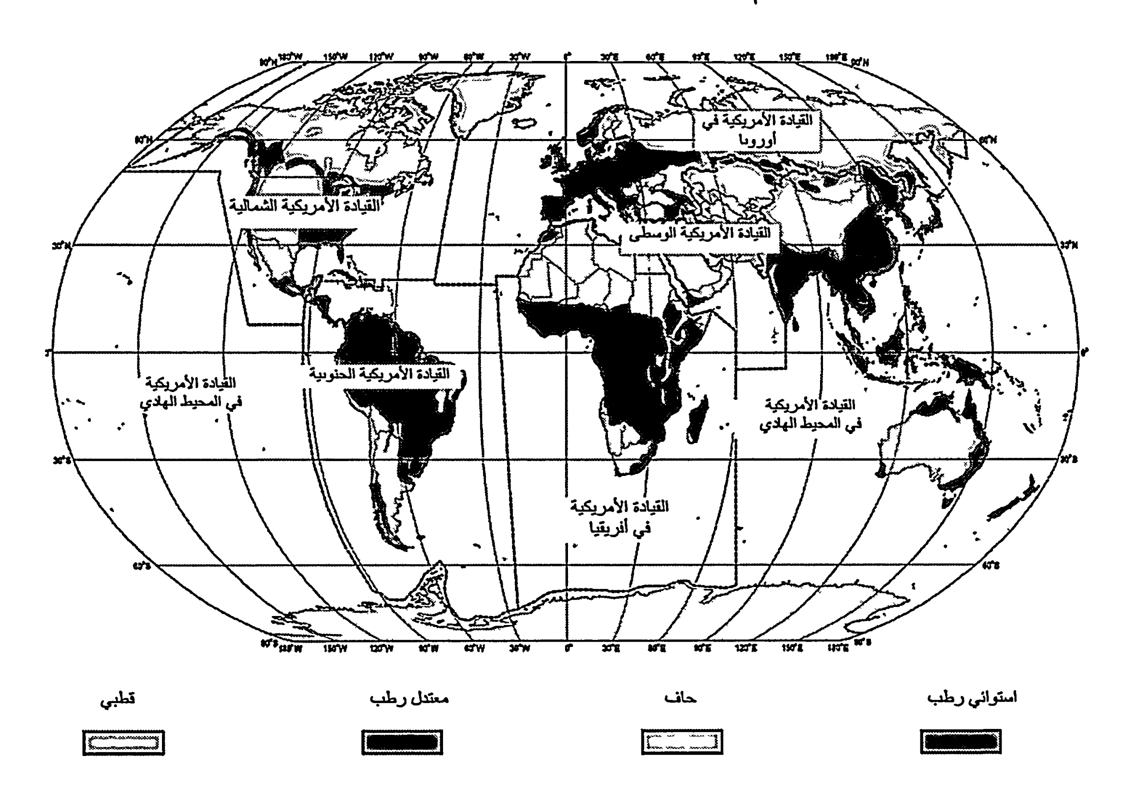
تضم المنشآت العسكرية الأمريكية نحو 30 مليون فدان من نظام إدارة الأراضي الاتحادية. وفي حين أن هذه الأراضي تمثل 7٪ فقط من مجموع الأراضي الاتحادية، وأقل من 1٪ من المساحة الكلية للولايات الأمريكية الخمسين، فإنها مهمة لوزارة الدفاع لتدريب العسكريين واختبار المعدات العسكرية. وبالمفهوم المكاني، تتوزع هذه الأراضي في أنحاء مختلفة وأشكال متنوعة من التضاريس والنظُم المناخية، ومن ثم، تمكِّن الجنود والمعدات من التعرّض للظروف التي يمكن أن يواجهوها في بيئات العمليات الحربية في سائر أنحاء العالم. في الأساس، تمثل هذه الأراضي العسكرية نظائر لأمكنة أخرى في العالم، حيث يمكن أن تعمل القوات الأمريكية (Doe and Bailey 2007). يدير الجيش الأمريكي الثلثين تقريباً من مساحة وزارة الدفاع (ما تعادل 18 مليون فدان). وهناك علاقة جغرافية مباشرة بين الأمكنة التي يدرب الجيش فيها الجنود ويختبر المعدات، والأمكنة التي يتم نشر هؤلاء الجنود فيها. إذ توفر الجغرافيا العسكرية دليلاً كافياً مفاده أن فهم البيئة الطبيعية والتكيف معها هو شرط مسبق لتحقيق النجاح في العمليات.

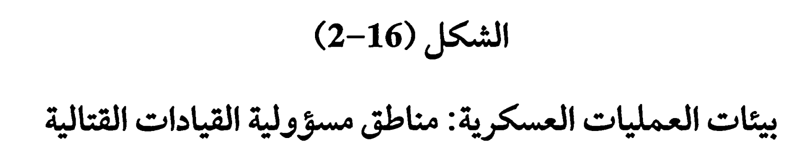
في الوقت الحاضر يتم نشر وحدات الجيش في أكثر من 120 بلداً في ست قارات، لدعم تشكيلة واسعة من المهمات، بما في ذلك العمليات القتالية وحفظ السلام وتحقيق

الاستقرار والاستجابة للحالات الإنسانية. وتحتوي المناطق الجغرافية الواسعة التي تعمل فيها القوات الأمريكية طيفاً واسعاً من البيئات الطبيعية التي تشكل تحديات عملياتية فريدة ومتنوعة للجنود والمعدات. وكما يظهر الشكلان (16-1) و(16-2) تُنشر هذه القوات تحت أوامر ست قيادات قتال إقليمية (انظر الشكل 2-1، في الفصل الثاني). وبما أن القادة المقاتلين يفكرون في نشر قواتهم ضد مجموعة من مصادر التهديد للأمن القومي، فإنه يتعين على كل واحد منهم أخذ العوامل البيئية التي سيواجهها المقاتلون في الاعتبار على أنها منطقة تقع تحت مسؤوليتهم. تُوضح الحدود الإقليمية لمراكز قيادة المقاتلين في الخريطة لست مناطق مناخية عالمية (انظر الشكل 16-2)، مع رسم البيئات الطبيعية والمناخية في جميع أنحاء العالم. وستتم مناقشة استخلاص المناطق المناخية العالمية وتطبيقاتها وبيئات العمليات العسكرية بمزيد من التفصيل في هذا الفصل.

الشكل (16-1)

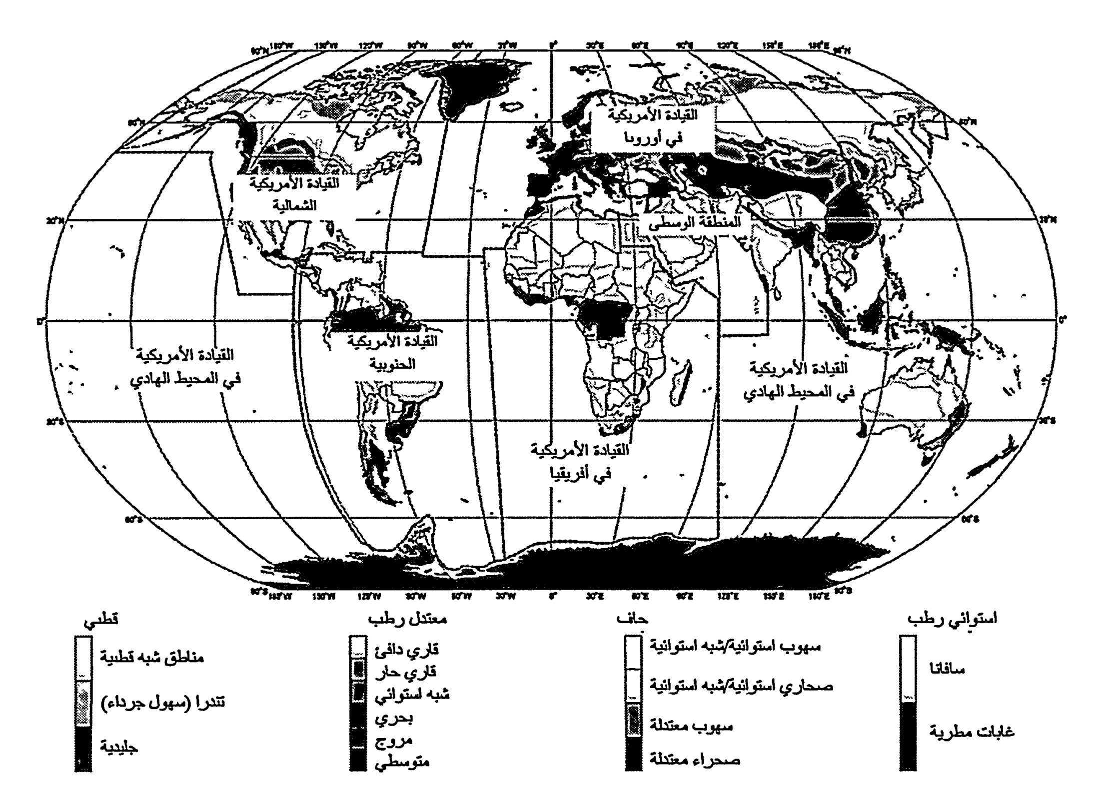
مناطق العالم المناخية: مناطق مسؤولية القيادات القتالية





الشكل (16-2)

بيئات العمليات العسكرية: مناطق مسؤولية القيادات القتالية

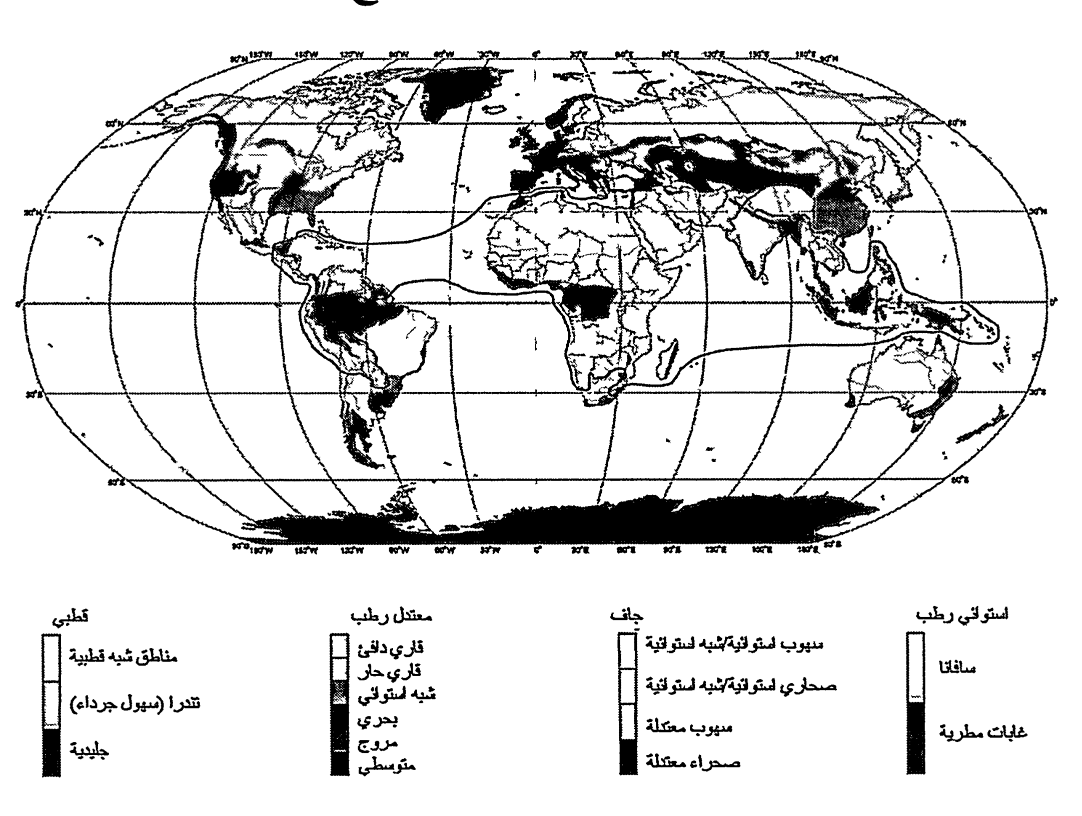


تشكل التهديدات الناشئة والمحتملة من قبل الأطراف الفاعلة والمنافسين الإقليميين والعالميين الناشئين، بالإضافة إلى الدول الفاشلة، مجموعة من العداوات والتحديات المعقدة والمتعددة الأبعاد في جميع أنحاء العالم. ويتعين على القوات الأمريكية أن تتكيف لمواجهة كل سيناريو فريد من نوعه. في الكتاب المفعم بالرؤى، **خريطة البنتاجون الجديدة** *The Pentagon's New Map*، يعرف توماس بارنيت (Barnett 2004) المنطقة العالمية، بأنها مناطق منفصلة عن الاقتصاد العالمي، غير قابلة للاندماج، وحصلت فيها معظم الصراعات والكوارث، ونُشرت فيها القوات العسكرية خلال الخمسين عاماً الماضية. وكما هو مبين في الشكل (16-3)، فإن مناطق الصراع هذه موضحة على خريطة عالمية، وهي تشمل في الأساس مناطق استوائية ومناطق في منتصف خطوط العرض في حوض الكاريبي وأفريقيا والبلقان والقوقاز وآسيا الوسطى والشرق الأوسط وجنوب غربي آسيا وجنوب شرقي

آسيا. تقع هذه المناطق خارج مـا يعرفـه بارنيـت بأنـه "مركـز العمـل"؛ أي منـاطق أمريكـا الشمالية، وأوروبا، وشـرق آسيا، وأستراليا. تتميـز منطقـة "الفـراغ" Gap region بـالمحيط الطبيعي المتنوع حيث إن الظروف البيئية: المرض والمجاعـة والفقـر التـي تسـببها الكـوارث الطبيعية واستغلال الموارد، تساهم في كثـير مـن الأحيـان في صــراعات عنيفـة أو تشـعلها. وتتكون هذه الأقاليم إلى حد كبير من مناطق صـحراوية واسـتوائية في بلـدان ناميـة، حيـث استغلال الموارد الطبيعية بالإضافة إلى تشكيلة واسعة من الكوارث الطبيعية والتغير المنـاخي تسبب صـراعات داخلية وهجرات السكان. وقد طرح عديد من التقارير الحديثة تـداعيات هذه الصـراعـات المتطورة على الأمن القومي (CAN 2007; Palka 2008). وعـلاوة عـلى ذلك أثارت المخاوف الناشئة بشأن توافر النفط واحتياطيـات الوقـود الأحفـوري الأخـرى المخاطر في الشـرق الأوسط وجنوب غربي آسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

الشكل (16-3)

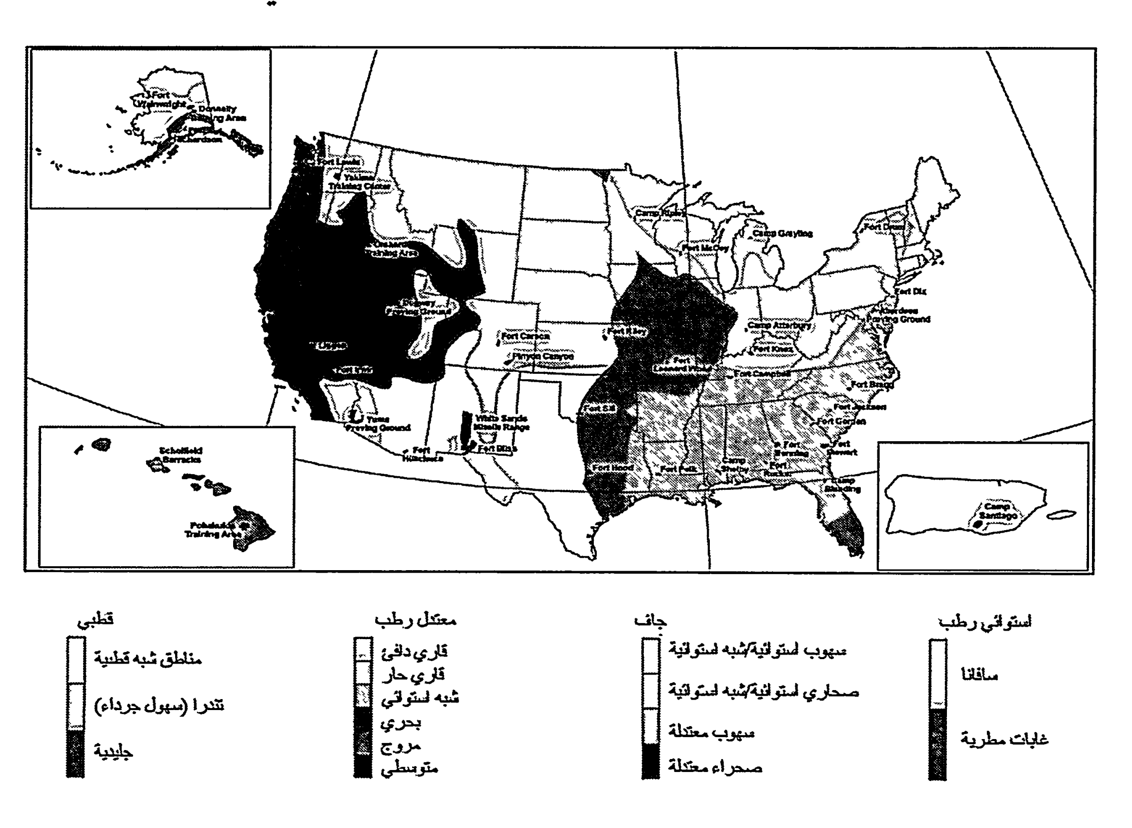
بيئات العمليات العسكرية: منطقة الفراغ غير المدمجة



لذلك، فإن من الأهمية المتزايدة أن تكون قوات الجيش قادرة على التدرب في مختلف البيئات الطبيعة والمناخية في منشآتها داخل الولايات المتحدة (Doe et al. 1999;Shaw et al. 2000). يصف الشكل (16-4) التوزيع المكاني والحجم التقريبي لمنشآت الجيش الرئيسية في الولايات الخمسين والمناطق. وفي حين أن الجيش الأمريكي يدير مئات من هذه المنشآت، فإن المنشآت الـ 40 هذه تمثل تنوع وحجم موجوداته من الأراضي. كما أن حدود المنشآت موضحة في الشكل (16-4) على خريطة "بيئات العمليات العسكرية" الموجودة ضمن الحدود الجغرافية للولايات المتحدة. جميع بيئات العمليات العسكرية، باستثناء التندرا ممثلة في الحدود الدنيا على أقل تقدير في موجودات الجيش من الأراضي. ومع ذلك، وكما سيتم بمزيد من المناقشة في هذا الفصل، هناك نقص خطير في موجودات الجيش في عديد من بيئات العمليات العسكرية، نظراً للتحديات الاستراتيجية المتوقعة.

الشكل (16-4)

بيئات العمليات العسكرية: نظائر منشآت الجيش الأمريكي الرئيسية



إطار بيلي للمناطق الإيكولوجية

تم تطوير إطار مناطق العمليات العسكرية من قبل لجنة خبراء من العلماء المدنيين ومخططي الجيش؛ من أجل فهم أفضل لأهمية الأراضي العسكرية القائمة وعلاقاتها المناظرة للبيئات العملياتية (Bailey 2007;King et al.1998, 2004, 2009 Doe and). وقد استمد هذا الإطار من نظام التصنيف الإيكولوجي ذي السلسلة الهرمية الذي صممه الدكتور آر. جي. بيلي من خدمة الغابات في الولايات المتحدة، ولذا، فإنه يعرف بنظام تصنيف بيلي للأقاليم الإيكولوجية (Bailey 1998a, 1998b, 2005). ويستخدم هذا النظام على نطاق واسع من قبل الهيئات الاتحادية والمحلية والإقليمية من أجل التخطيط البيئي والبحثي والتحليلي.

العامل الأساسي الذي يستخدم في نظام تصنيف بيلي للأقاليم الإيكولوجية هو النظام المناخي، الذي يعرّف بأنه تباين درجات الحرارة حسب المواسم ومعدل هطْل الأمطار. ويعتمد التوزيع العالمي وأنماط البيئات المتشابهة مناخياً بشكل واسع على ضوابط المناخ بشكل واسع. وتشمل هذه الضوابط خط العرض، والموقع القاري، وأنماط الغلاف الجوي العالمي، وأنماط الدوران في المحيطات. كما أن وجود سلاسل جبلية رئيسية يعدل بصورة أكبر هذه الأنماط وتوزيعها الجغرافي.

وبحسب تصنيف بيلي، فالمناطق الإيكولوجية واسعة، وهي نظم إيكولوجية على نطاق إقليمي. تستخدم المؤشرات المناخية لوضع اختلافات الأقاليم الإيكولوجية. ومع ذلك، لم تبذل أي محاولة لاستخدام المؤشرات المناخية لوضع حدود أقاليم إيكولوجية معينة. وبدلاً من ذلك، يستدل على الاختلافات المناخية من ظهور انقطاعات (عدم تواصل) في الجغرافيا الطبيعية (مثال، حيث تنتهي السهول المنبسطة بجبال) و/ أو ملامح الغطاء النباتي (مثال، حيث تتغير مروج العشب الطويل إلى سهوب عشب قصير أو السافانا). وفي حالات أخرى، تستخدم الحدود الجيولوجية؛ لأن أنواعاً مختلفة من الجيولوجيا تتجاوز التأثير المناخي (Bailey 2005). وبوجه عام، يرتبط كل مناخ بنوع من

الغطاء النباتي (مثل غابة الأوراق العريضة المتساقطة)، ويتميز بتماثل واسع في كل من المظهر الخارجي وتركيب الأنواع النباتية السائدة.

يقسم نظام بيلي للأقاليم الإيكولوجية سطح الكرة الأرضية إلى ثلاث فئات هرمية مختلفة، تزداد في نوعيتها أو خصوصيتها، وتسمى Domains (مجموعات مناخية متصلة)، وDivisions (أقسام تمثل المناخات ضمن المجموعات المناخية) وProvinces (أقاليم أو أقسام فرعية). ويمكن رسم خرائط لكل فئة من فئات نظام التصنيف على المستويات الجغرافية المختلفة استناداً إلى معايير بيئية محددة. واعتماداً على مقياس الجغرافيا المكانية. وتصمم الفئات لتعرض نماذج متماثلة في: (1) المناخ، و(2) الغطاء النباتي، و(3) الطبوغرافيا والتضاريس، و(4) الوظيفة الهيدرولوجية، و(5) شكل الأرض. على مستوى الأقاليم أو الأقسام الفرعية، تستخدم التشكيلات النباتية لمزيد من التمييز بين الاختلافات المناخية. وعلى مستويي القسم والقسم الفرعي، تتميز المناطق الجبلية عن تصنيف الأراضي المنخفضة المجاورة، لأن مناخ الجبال متمايز عمودياً استناداً إلى تغير درجات الحرارة وسقوط الأمطار التي تحدث مع الارتفاعات (Bailey 1998a). وفي مثال على تقسيم المناطق وفقاً للارتفاع، يمكن لسلسلة جبال عالية (على ارتفاع 4000 متر) أن تتميز بعدة مناطق مناخية بدءاً من القاعدة إلى القمة، مع وجود أنواع من الأغطية النباتية المتصلة بها تراوح بين المناطق الاستوائية وشبه القطبية.

تشكل "المجموعات المناخية" Domains الأقاليم الأربعة شبه القارية للمناطق المناخية التي ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً. وتضم هذه البيئات الكلية مناطق برية من مناخات ذات الصلة تتميز باختلافات واسعة في درجات الحرارة السنوية وهطْل الأمطار والتبخر والتي تتحكم بها خطوط العرض. ثمة ثلاث مجموعات مناخية رطبة ويمكن تمييزها استناداً إلى خصائصها الحرارية: قطبية من دون موسم دافئ، وممطرة ذات حرارة ورطوبة مع شتاء معتدل إلى قاس، واستوائية رطبة ممطرة من دون وجود فصل شتاء. أما المنطقة الرابعة فهي جافة، وتعرف فقط استناداً إلى الرطوبة وتتقاطع مع المناخات الرطبة التي تختلف عنها.

بالنسبة إلى الأقسام Divisions فهي فئات الدرجة الثانية المعترف بها استناداً إلى موسمية هطْل الأمطار أو درجة الجفاف أو البرد. يحدد بيلي 15 قسماً في جميع أنحاء العالم. وتماثل الأقسام مجموعات معينة من المناخ على النحو الذي تحدده المناطق ذات التشابه في الغطاء النباتي (مثال الغابات المطرية والتندرا) ضمن مناطق المناخ الإقليمي نفسها. المناخ ليس ذاته في كل الأقسام؛ فعلى سبيل المثال، هناك تشكيلة واسعة من الجفاف ضمن المناخات الجافة؛ بدءاً من الصحارى الجافة جداً، وصولاً إلى مناطق ذات مستويات انتقالية للرطوبة في اتجاه المناطق المجاورة الرطبة. تظهر في الجدول (16-1) معايير المناخ والغطاء النباتي التي تمثل كل قسم.

بيئات العمليات العسكرية

إذا اعتمدنا نظام بيلي للمناطق الإيكولوجية في الاستخدام العسكري، فإنه تجب إعادة تسمية المناطق الأربع ذات السمات الطبيعية الخاصة بـ "أقاليم المناخ العالمية"، وإعادة تسمية الأقسام الـ 15 لتصبح "بيئات العمليات العسكرية". تحدد مستويات التصنيف هذه المستويات العملياتية للبيئات الطبيعية التي يمكن أن تحصل فيها عمليات عسكرية (Doe and Bailey 2007).

يمكن تحديد ثلاث بيئات للعمليات العسكرية ضمن الإقليم المناخي العالمي القطبي: الغطاء الجليدي، الذي تسوده صفائح جليدية دائمة (مثال جرينلاند، القارة القطبية الجنوبية)؛ والتندرا حيث يراوح معدل الحرارة السنوي خلال أدفأ شهر بين 0-10 درجات مئوية (32-50 فهرنهايت)؛ وشبه قطبي حيث يكون معدل الحرارة خلال شهر واحد فقط في السنة فوق 10 درجات مئوية (50 فهرنهايت).

ويقسَّم الإقليم المناخي العالمي المعتدل الرطوبة إلى ست بيئات عمليات عسكرية استناداً إلى مجموعة متميزة من درجات الحرارة الشتوية والصيفية: إذ تتميز الأقاليم القارية الدافئة بشتائها البارد وبالثلوج وبصيفها الدافئ. أما الأقاليم القارية الحارة فشتاؤها بارد وصيفها حار. وتتميز الأقاليم شبه الاستوائية بهطْل الأمطار واعتدال شتائها وحرارة

صيفها. وبالنسبة إلى المروج فتصنف بأنها منطقة انتقالية بين المناخات الجافة والرطبة. وتتميز منطقة البحر الأبيض المتوسط بصيفها الحار الجاف وشتائها الممطر الدافئ. في حين تتميز البيئة البحرية بشتاء ممطر معتدل وصيف دافئ.

الجدول (16-1)

معايير نظام بيلي لتصنيف الأقسام

اسم القسم	الخصائص
الغطاء الجليدي	جميع الشهور تحت درجة الصفر مئوية (32 فهرنهايت). ثلج وجليد دائم.
التندرا	جميع الشهور تحت درجة 10 مئوية (50 فهرنهايت). ملامح الغطاء النباتي: تندرا.
المناطق شبه القطبية	ما يصل إلى 3 أشهر فوق 10 درجات مئوية (50 فهرنهايت). ملامح الغطاء النباتي: تغلب عليها الغابات الصنوبرية الكثيفة.
قارية دافئة	مثل القارية الحارة. أدفأ شهر تحت 22 درجة مئوية (71 فهرنهايت).
قارية حارة	4-7 أشهر فوق 10 درجات مئوية (50 فهرنهايت)، أبرد شهر تحت درجة الصفر المئوية، أدفأ شهر فوق 22 مئوية (71 فهرنهايت).
شبه استوائية	نفس منطقة البحر الأبيض المتوسط، لا يوجد موسم جاف.
بحرية	4-7 أشهر فوق 10 مئوية (50 فهرنهايت)، أبرد شهر فوق درجة الصفر مئوية (32 فهرنهايت).
مراعٍ طبيعية	شبه رطبة. ملامح الغطاء النباتي: أراضٍ عشبية.
البحر الأبيض المتوسط	8 أشهر فوق 10 مئوية (50 فهرنهايت)، الفترة الأبرد تحت 18 مئوية (64.4 فهرنهايت). صيف جاف.
سهوب استوائية/ شبه استوائية	شبه قاحلة: جميع الشهور فوق درجة الصفر مئوية (32 فهرنهايت).
صحراء استوائية/ شبه استوائية	قاحلة: هطولات الأمطار بمعدل نصف الهطولات في السهوب، جميع الشهور فوق درجة الصفر مئوية.
سهوب معتدلة	شبه قاحلة. الأشهر الباردة تحت درجة الصفر مئوية (32 فهرنهايت).
صحراء معتدلة	قاحلة. جميع الشهور جافة، الشهر البارد تحت درجة الصفر المئوية (32 فهرنهايت).
السافانا	نفس الغابات المطيرة، مع شهري جفاف في الشتاء.
غابات مطيرة	رطبة، ولا يوجد موسم جفاف.

ويمكن أن يقسَّم الإقليم المناخي العالمي الجاف إلى مناطق قاحلة (الصحارى) ومناطق شبه قاحلة (سهوب) تفصل المناطق القاحلة عن الأقاليم المناخية الرطبة. وتعرّف أربع بيئات عمليات عسكرية بأنها "سهوب استوائية/ شبه استوائية"، وهي: منطقة شبه قاحلة واسعة مع صحارى استوائية إلى الشمال والجنوب. وسهوب معتدلة تتميز بمناخ قاري شبه قاحل مع شتاء بارد وصيف دافئ إلى حار. وصحراء استوائية/ شبه استوائية تتميز بظروف قاحلة للغاية مع درجات حرارة عالية في الجو والتربة. وصحراء معتدلة وقاحلة مع صيف حار وشتاء بارد.

وفي الإقليم المناخي العالمي الاستوائي الرطب الذي يضم بيئتين للعمليات العسكرية لا يوجد فصل شتاء، ويكون معدل درجة الحرارة كل شهر فوق 18 درجة مئوية (64 فهرنهايت). وتتميز السافانا بفصولها الرطبة والجافة التي تؤدي إلى تطوير المراعي ذات الأعشاب الطويلة التي تتجلى بالشجيرات والأشجار المقاومة للجفاف. تقع الغابات المطيرة على مفترق خط الاستواء بين خط العرض 10 شمالاً و10 جنوباً، ومناخها رطب استوائي ولا يوجد فيها موسم جاف. ويوضح الشكل (16-6) نسبة توزيع بيئات العمليات العسكرية الـ 15 والأقاليم المناخية العالمية الأربعة.

يوضح الشكلان (16-5) و(16-6) نسبة توزيع الأقاليم المناخية العالمية وبيئات العمليات العسكرية ضمن كل "منطقةِ مسؤولية". وتعتبر هذه الرسوم البيانية مفيدة باعتبارها أدوات للتخطيط ضمن كل منطقة عسكرية. وبسبب تقسيم المناطق وفقاً لارتفاعها، حيث تتغير أنماط الأقاليم الإيكولوجية مع زيادة الارتفاع في مكان معين، فإن الجبال تشكل بيئات فريدة يتعين أخذها في الاعتبار ضمن نظام بيئات العمليات العسكرية. وقد تم إدماج الأقاليم الجبلية مع فئة الأراضي المنخفضة لمستوى التحليل هذا ضمن كل واحدة من بيئات العمليات العسكرية.

الجدول (16-2)

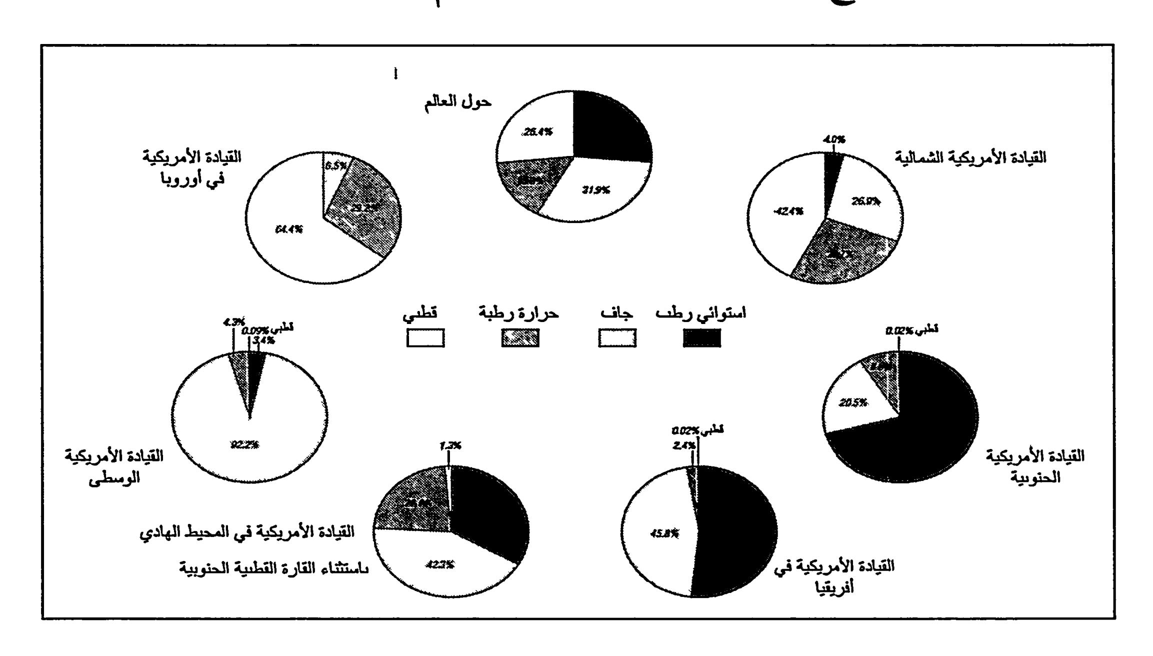
توزيع المساحات العالمية حسب بيئات العمليات العسكرية والأقاليم المناخية العالمية

فئة العمليات العسكرية	نسبة المساحة العالمية حسب بيئة العمليات العسكرية	نسبة المساحة العالمية حسب الإقليم المناخي العالمي
الغطاء الجليدي	٪10	٪27 قطبي
تندرا	٪4	
شبه قطبي	٪13	
قاري دافئ	٪2	٪16 معتدل رطب
قاري حار	٪2	
شبه استوائي	٪4	
بحري	٪2	
مروج	٪4	
البحر الأبيض المتوسط	٪2	
سهوب استوائية/ شبه استوائية	٪10	٪30 جافة
صحراء استوائية/ شبه استوائية	٪14	
سهوب معتدلة	٪2	
صحراء معتدلة	٪4	
سافانا	٪17	٪27 استوائية رطبة
غابات مطيرة	٪10	

ومع ذلك، من المفيد من منظور عملياتي فهم مواقع البيئات الجبلية، بغض النظر عن ارتفاعاتها المنفصلة أو القارة التي تقع فيها. يبين الشكل (16-7) المناطق الجبليـة في العـالم كما حددها نظام بيلي. وكما يظهر في الشكل تتوزع الأقاليم الإيكولوجية في أنحاء كل قـارة وتمثل حوالي 22٪ من سطح الكرة الأرضية (Bailey 1998a).

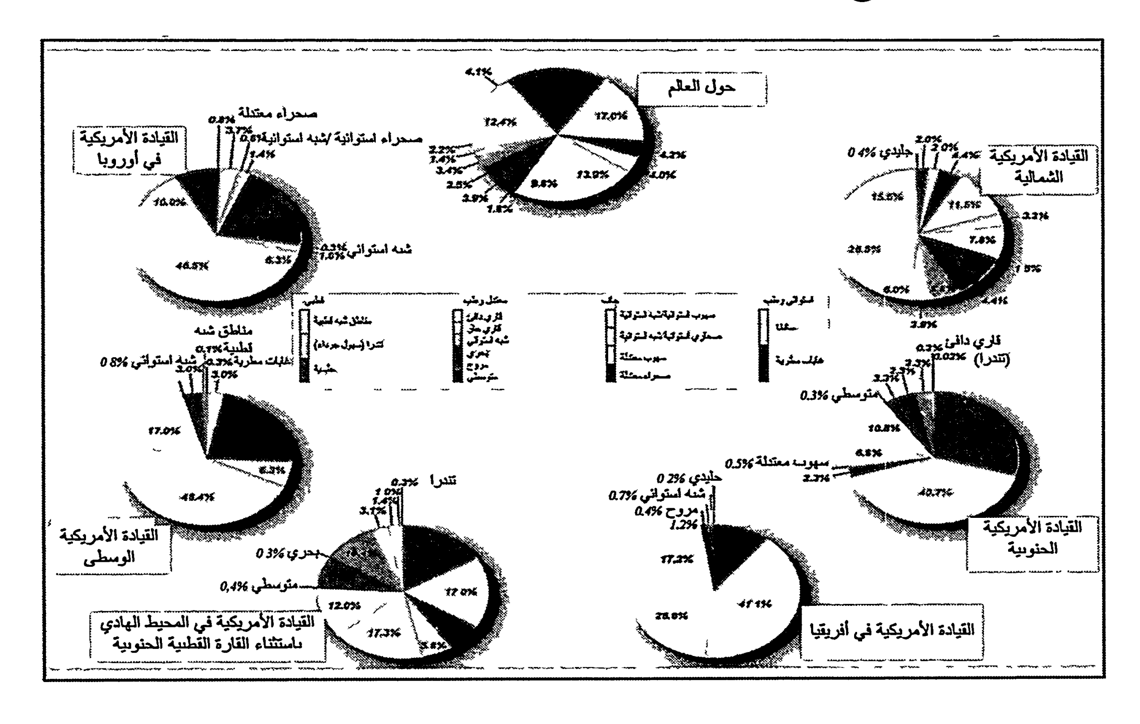
الشكل (16-5)

توزيع القيادات القتالية حسب الأقاليم المناخية العالمية



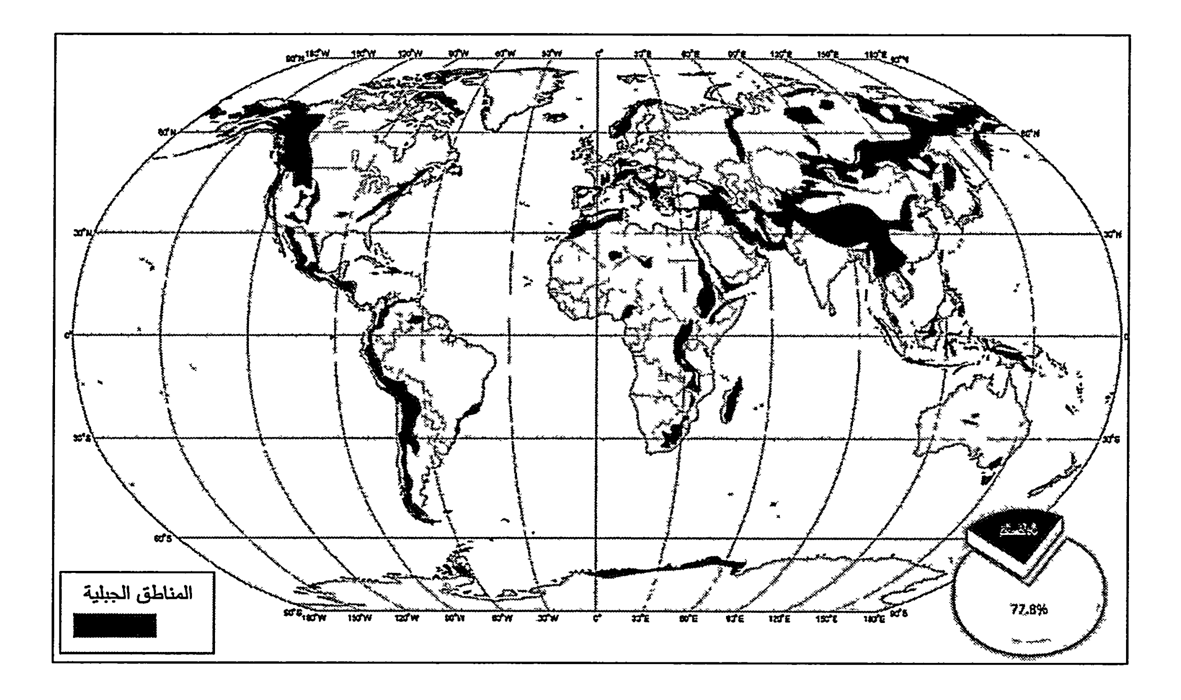
الشكل (16-6)

توزيع القيادات القتالية حسب بيئات العمليات العسكرية



الشكل (16-7)

تصنيف الجبال - بيئات العمليات العسكرية



منشآت الجيش بوصفها نظائر

يدير الجيش الأمريكي أصولاً متعددة من المنشآت في الولايات المتحدة وفي مناطق القواعد المتقدمة لتدريب قواته واختبار معداته قبل نشرها (Shaw et al. 2000; Doe et al. 1999). إن القدرة على القيام بنشاطات قبل نشر القوات في بيئات وظروف طبيعية مماثلة مسألة حيوية لنجاح المهمة. ويعتبر "مركز التدريب القومي للجيش" في صحراء موجاف بكاليفورنيا ومنشأة "يوما" لاختبار المعدات في المنطقة الصحراوية الواقعة في الجنوب الغربي لولاية أريزونا موجودات ضرورية للاستعداد واختبار الوحدات والمعدات من أجل القيام بعمليات كبيرة في بيئات قاحلة مماثلة، مثل عملية عاصفة الصحراء وعملية حرية العراق (King et al. 2004). وعلى نحو مماثل، توفر منشآت الجيش في ألاسكا وهاواي تدريباً واختباراً في الاستعداد لنشر قوات في مناطق جبلية

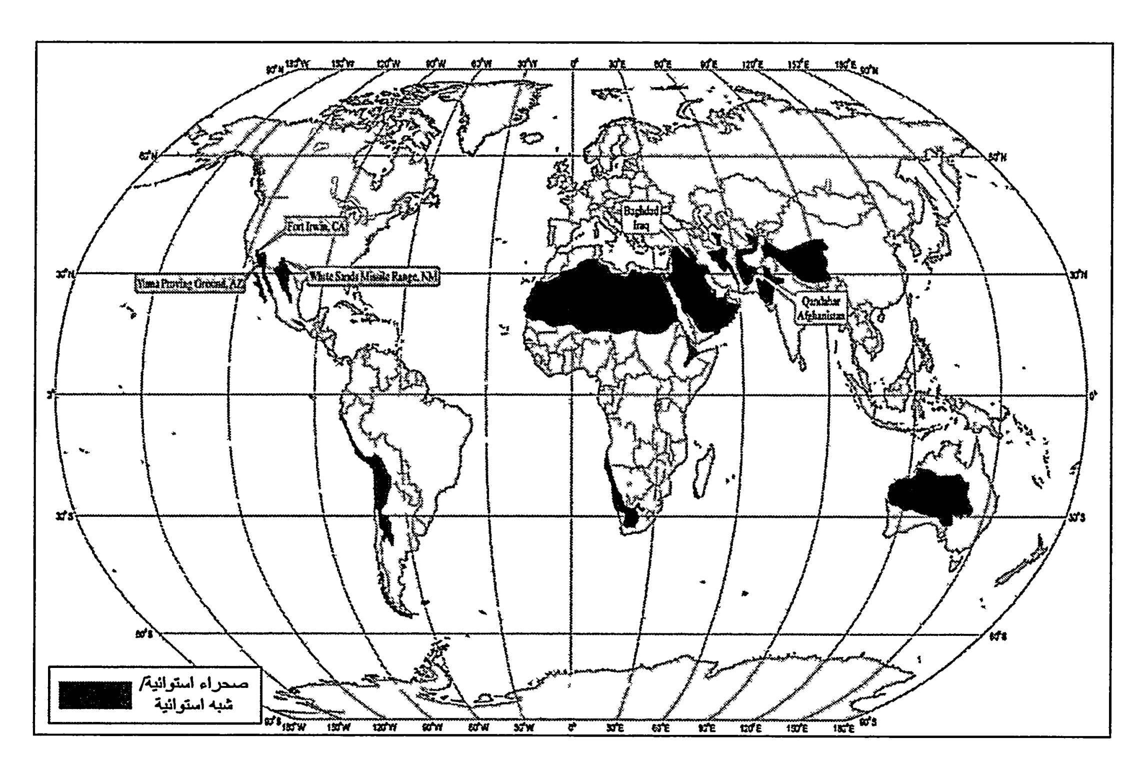
وباردة وبيئات استوائية على التوالي، تحاكي بيئات مماثلة في قارات أخرى (Doe 2009; Harmon et al. 2008; King et al. 2009). فعلى سبيل المثال شاركت القوات الأمريكية المنتشرة في أفغانستان في حملات رئيسية خلال عملية الحرية الدائمة في سلسلة جبال هندوكوش والمرتفعات الوسطى في شمال شرقي أفغانستان على الحدود مع باكستان، مع الحاجة لتكيف متخصص ومعدات تناسب البيئات الجبلية المرتفعة. وقد خبرت القوات المشاركة في مهمات إنقاذ إنسانية في جنوب شرقي آسيا وإندونيسيا ظروفاً بيئية استوائية، بما في ذلك الحاجة إلى تدريب على مكافحة الأمراض والحشرات الناقلة للأمراض والمياه والصرف الصحي ومواجهة الأعاصير. ويمكن أن تختلف مناطق الصراعات والكوارث المحتملة في المستقبل بصورة جوهرية عن العمليات الحالية بالنسبة إلى المناخ والجغرافيا الطبيعية والمعالم البيئية الأخرى. ولذا يتعين على الجيش الاستمرار في تقييم موجوداته من الأراضي لتوفير تنوع من البيئات للتدريب والاختبارات. يوضح الشكل (16–8) هذه العلاقة التناظرية لثلاث منشآت عسكرية في بيئات عمليات عسكرية استوائية/ شبه استوائية في الصحراء الجنوبية الغربية.

يعرض الجدول (16–3) أمكنة 40 منشأة رئيسية للجيش الأمريكي (موجودة في الشكل 16–4) وبيئات العمليات العسكرية المقابلة. ويحدد الجدول (16–4) المناطق الاستراتيجية الرئيسية لنشر القوات الأمريكية في الخارج. ويبدو واضحاً من التوزيع المكاني لهذه التوضيحات أن هناك عدداً من المنشآت العسكرية التي تقع ضمن المناخات القارية الحارة وشبه الاستوائية، ولذا فهي مماثلة في خصائصها الطبيعية لمناطق نشر القوات المحتملة (روسيا، كازاخستان، جورجيا، تركيا، أفغانستان، الصين، كوريا...إلخ). وكما يظهر الجدول (16–4)، فإن مواقع المناطق الجغرافية للصحراء الاستوائية/ شبه الاستوائية والصحراء المعتدلة (مثل العراق، وإيران، والسودان، ومصر، والجزائر) حيث تندلع الصراعات هي أيضاً ممثلة في منشآت الجيش. لكن هذه المقارنة

تكشف أيضاً عن افتقار شديد لموارد أراض كافية تمثل مناطق صراع محتملة لبيئة عمليات عسكرية في البحر الأبيض المتوسط والسافانا والغابات المطيرة. إن هذا مهم، ومثير للسخرية، في آن معاً؛ لأن الولايات المتحدة أعادت في أواخر تسعينيات القرن الماضي مناطق تدريب واختبارات استوائية قائمة إلى حكومة بنما، ملغية بذلك كلية حرب الغابات الأمريكية التي كانت تستخدم لتدريب الجنود منذ الأيام الأولى لحرب فيتنام.

الشكل (16-8)

بيئات العمليات العسكرية (الصحراء الاستوائية/ شبه الاستوائية) نظائر منشآت الجيش



كما تفتقر مناطق التدريب والاختبار القائمة في الأقاليم الإيكولوجية الاستوائية في هاواي وبورتوريكو إلى خصائص استوائية، وهي محدودة بسبب عدد من العوامل (King et al. 1998,2009).

الخلاصة

تعتبر منشآت الجيش والأراضـي العسكرية التابعة لها أصولاً طبيعية مهمـة لجهوزيـة الجيش من الناحية الاستراتيجية. وتمثل هذه المنشآت، باعتبارها ممتلكات فيدراليـة شـاملة مخصصة على وجه التحديد لتدريب القوات الأمريكية والمعدات واختبارها، نظائر مكانيـة موزعة جغرافياً لعمليات انتشار في مناطق حالية ومحتملة خارج البلاد. ويحدد هذا النظـام أربعة أقاليم مناخية وخمس عشـرة بيئـة عمليـات عسـكرية. وتوضـح هـذه المقارنـة أن موجودات الجيش من الأراضـي ملائمـة تمامـاً للمتطلبـات العملياتيـة، عـلى الـرغم مـن النقص الحاد في الأراضـي الموجودة المتعلقة بالمشاهد الطبيعية الخاصة بالمناطق الاسـتوائية والسـافانا. يتعـين عـلى الجـيش الاسـتمرار في تقيـيم حاجاتـه مـن الأراضــي للتـدريب والاختبار كلما برزت تهديدات وأهداف استراتيجية جديدة.

الجدول (16-3)

توزيع بيئات العمليات العسكرية لـ 40 منشأة رئيسية للجيش الأمريكي

بيئة العمليات العسكرية	نظائر منشآت الجيش الرئيسية
شبه قطبية	فورت وينرايت، ألاسكا. فورت ريتشاردسون، ألاسكا. دونيلي، فلوريدا، ألاسكا
قارية دافئة	معسكر جريلينج، ميتشغان.
قارية حارة	فورت نوكس، كنتاكي. فورت ليونارد وود، ميسوري. فورت كامبل، كنتاكي. فورت درم، نيويورك. معسكر ريبلي، مينيسوتا. فورت ماكوي، وسكونسن. فورت ديكس، نيو جيرسـي. معسكر أتيربوري، إنديانا.

بيئة العمليات العسكرية	نظائر منشآت الجيش الرئيسية
شبه استوائية	ميدان أبردين للتدريب، ميريلاند. فورت بيننج، جورجيا. فورت براج، نورث كارولينا. فورت ستيوارت، جورجيا. فورت بولك، لويزيانا. فورت راكر، ألاباما. فورت جاكسون، ساوث كارولينا. فورت جوردون، جورجيا. معسكر بلاندينج، فلوريدا. معسكر شيلي، ميسيسبي.
بحرية	بورت لويس، واشنطن.
مراعٍ طبيعية	فورت رايلي، كنساس. فورت هود، تكساس.
حوض البحر المتوسط	فورت هنتر ليغيت، كاليفورنيا.
سهوب استوائية/ شبه استوائية	فورت سيل، أوكلاهوما.
صحراء استوائية/ شبه استوائية	فورت إيروين، كاليفورنيا
	فورت بليس، تكساس. فورت هواشوكا، أريزونا. وايت ساند ميسايل رينج، نيو مكسيكو. يوما بروفينج جراوند، أريزونا.
سهوب معتدلة	فورت كارسون، كولورادو. موقع بينون كانيون للمناورات، كولورادو.
صحراء معتدلة	مركز ياكيما للتدريب، واشنطن. دوجواي بروفينج جراوند، يوتا. منطقة أورتشارد للتدريب، إيداهو.
سافانا	معسكر سانتياغو، بورتوريكو منطقة بوهاكولوا للتدريب، هاواي.
غابات مطيرة	ثكنة شوفيلد، هاواي

الجدول (16-4)

مناطق انتشار الجيش الأمريكي في أنحاء العالم حسب بيئات العمليات العسكرية

مناطق الانتشار المحتملة	بيئة العمليات العسكرية	نظائر منشآت الجيش
العراق، الكويت، السعودية، (جنوب شرقي آسيا)، أفغانستان	صحراء استوائية/ شبه استوائية	فورت إيروين، كاليفورنيا؛ فورت بليس، تكساس؛ يوما بروفينج جراوند، أريزونا؛ وايت ساند ميسايلز رينج، نيومكسيكو؛ فورت هواشوكا، أريزونا.
إيران، الصومال	سهوب استوائية/ شبه استوائية	فورت هود، تكساس؛ فورت سيل، أوكلاهوما.
كوريا	قاري حار	فورت كامبل، كنتاكي؛ فورت نوكس، كنتاكي؛ فورت درم، نيويورك؛ فورت ليونارد وود، ميسوري
هاييتي	سافانا، غابات مطيرة	لا شيء
بنما، نيكاراغوا، (أمريكا اللاتينية)	سافانا، غابات مطيرة	لا شيء
رواندا، ساحل العاج (أفريقيا)	سافانا، غابات مطيرة	لا شيء
الفلبين، إندونيسيا	سافانا، غابات مطيرة	لا شيء
البوسنة، كوسوفا	حوض البحر الأبيض المتوسط	لا شيء

الفصل السابع عشر

عوامل الرياح والعمليات العسكرية

جوزيف هندرسون

مقدمة

يمكن أن تؤثر عوامل الرياح، وبخاصة حمل الغبار ونقله، بشكل كبير في العمليات العسكرية في المناطق القاحلة. وعبر التاريخ، كانت العواصف الترابية تشكل عائقاً وبخاصة أثناء العمليات الصحراوية. خلال القرن العشرين، أظهرت الحربان العالميتان، مع حملات واسعة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، أن الغبار يمكن أن يكون خصماً عنيداً. في الآونة الأخيرة، أبطأت عاصفة رملية في مارس 2003 تقدم قوات الحلفاء نحو بغداد خلال عملية حرية العراق. لا يسبب الغبار مشكلات صيانة وإبطاء العمليات الهجومية على الأرض وحسب، بل ويمكن لهذه الحوادث أن تعوق العمليات الجوية بشكل كبير أيضاً.

يستخدم هذا الفصل مقالتين قصيرتين تاريخيتين لتوضيح تأثير العواصف الترابية. تمثلت الأولى في محاولة إنقاذ الرهائن الأمريكيين في إيران عام 1980، والتي تعرف أيضاً بـ "عملية مخلب النسر". أما الثانية فكانت عاصفة رملية أعنف أدت إلى إبطاء هجوم رئيسي بصورة كبيرة خلال عملية حرية العراق.

نظرة عامة إلى عوامل الرياح

يشير التعبير "هوائي" أو "ريحي" aeolian إلى العمليات الجيومورفولوجية [شكل الأرض وتضاريسها] المرتبطة بعمل الرياح. وتكون هذه العمليات أكثر تأثيراً في المناطق

القاحلة حيث الغطاء النباتي والرطوبة وأشكال الحماية الأخرى للرواسب السطحية الدقيقة غير المجمعة شحيحة. ومن ثم، تكون آثار عوامل الرياح على العمليات العسكرية أكثر وضوحاً في المناطق القاحلة. عمليات حمل الرواسب الرملية ونقلها بوساطة الرياح هي عمليات معقدة؛ لذا فإن مقدمة موجزة حول الموضوع لها ما يبررها.

الآليات الطبيعية لتعرية الغبار ونقله

التعرية والنقل هما عمليتان مسؤولتان عن تطوير جزيئات الغبار التي تحملها الرياح. وعملية التعرية هذه هي "انكماش"، حيث تُحمل الرواسب الدقيقة غير المجمعة على السطح في الهواء بوساطة حركة رياح عنيفة مفاجئة ومحلية (Leet et al. 1978). وينبغي أن تتوافر ثلاثة ظروف لهذه الرواسب لتصبح محمولة في الهواء. أولاً، ينبغي أن يكون السطح بشكل عام خالياً من الغطاء النباتي الذي يمسك بالرواسب في مكانها. ثانياً، يجب أن يكون السطح جافاً، حيث إن الرطوبة تضيف وزناً وتماسكاً لجزيئات التربة. ثالثاً، ينبغي أن تكون سرعة الرياح معتدلة إلى عالية، وهي قاعدة مهمة حيث ينبغي أن تزيد سرعة الرياح على 15 عقدة (نحو 17 ميلاً في الساعة) من أجل تحريك الغبار وإحداث دوامات اهتزازية على مستوى سطح الأرض (COMET 2003; El-Baz 1994). تكون التيارات الهوائية المفاجئة في حركة الرياح، كتلك التي تحدثها العواصف الرعدية، في غالب الأحيان مسؤولة عن انكماش الرواسب، والتي تكون بخلاف ذلك هادئة في طبقة غير سميكة من الهواء الساكن بالقرب من سطح الأرض (Leet et al.1978).

تشمل عمليات النقل: الزحف (انزلاق أو دحرجة)، والقفزات (ارتداد على طول السطح) والتعليق. والتعليق – حين تطفو جزيئات الغبار الدقيقة عالياً في الهواء بسبب الدوامات – هو الآلية الرئيسية للنقل خلال العواصف الترابية. في تغطيات الأخبار الرئيسية، يشار في كثير من الأحيان بصورة خاطئة إلى "العواصف الترابية" على أنها "عواصف رملية"، ولكن العمليات التي تسبب العواصف الترابية وخصائصها مختلفة عن تلك التي تسبب العواصف الرملية. ففي حين أن العواصف الرملية، التي تتكون من

جزيئات أثقل، تكون محدودة العلو بين 3–6 أمتار (نحو 10–20 قدماً) فوق سطح الأرض وتشمل أساساً حركات فجائية، فإن العواصف الترابية تمتد مئات الأمتار في الجو بسبب الطمي المعلق في الهواء وجزيئات الغبار الدقيقة.

ميز باجنولد (Bagnold 1941) الحد الأعلى لحجم جزيء الغبار بأنه يصل إلى 0.2 ملم، حيث السرعة النهائية للسقوط تصبح أقل من تيارات الدوامات التصاعدية. وتعرّف السرعة النهائية للسقوط على أنها المعدل الثابت لسقوط جزيء حين يكون التسارع الناجم عن الجاذبية متوازناً بوساطة مقاومة الهواء التي يسقط هذا الجزيء بوساطتها (Leet et al. 1978). وحالما تحمل الرياح جزيئات الغبار تظل هذه الجزيئات عالياً مدة أطول من جزيئات الترسبات الرملية التي تعتبر أكبر وأكثر وزناً. وبالتالي، يمكن لجزيئات الغبار التحرك لمسافات أفقية طويلة تزيد على 1600 كيلومتر (نحو 1000 ميل) (Macknight and Hess 2005). وبما أن هذا الفصل يحتوي على صورة موجزة تتضمن حوادث عواصف ترابية، فإن نظرة أكثر تعمقاً نحو العواصف الترابية ضرورية.

أنواع العواصف الترابية

العواصف الترابية عبارة عن أحداث تنجم عن نظُم الرياح التي تحمل جزيئات الغبار في الهواء، وتؤدي إلى تخفيض مدى الرؤية إلى أقل من 1000 متر (نحو 3280 قدماً) (Middleton et al.1986). يميز الانخفاض الشديد في الرؤية العواصف الترابية عن العواصف الهوائية الأخرى، وتصنف العواصف الترابية في العادة بوساطة نوع من حالات الظروف الجوية التي تشكلها. أما نوعا العواصف الترابية اللذان يناقشهما هذا الفصل فهما الهبوب الذي تولده العواصف الرعدية، والعواصف الترابية الأمامية التي تنجم عن موجات الأعاصير. وعلى الرغم من أن سحب الغبار التي تولدها مراوح الطائرات العمودية لا تعتبر عواصف ترابية بالمعنى الكلاسيكي، فإنه سيتم عرضها لأن آثارها على الطائرات ذات الأجنحة الدوارة كبيرة.

الـهَبوب

يُستمدّ المصطلح "هَبوب" من الكلمة العربية "هبَّ" وهو فعل ماض يتعلق بالرياح (Pye 1987). ويستخدم هذا المصطلح في السودان وإيران لوصف العواصف الترابية مهما كان أصلها. كما أن مصطلح "هُبوب التيار الهوائي إلى الأسفل" يستخدم بشكل أكثر دقة للعواصف الترابية التي يولدها تدفق الهواء البارد من السحب السوداء في العواصف الرعدية وتحتفظ بها كثافة التدرجات الأفقية (Lawson 1971). وتحدث ظواهر مماثلة في الجنوب الغربي للولايات المتحدة ويشار إليها بـ "الهبوب الأمريكية" (Idso et al. 1972). تتشكل الجدران الصلبة من الغبار في مقدمة هذه السحب الغبارية التي ولدتها العواصف الرعدية والتي لها شكل رأس تيار الهواء الدافئ الذي يطفو فوق التيار البارد. يتدفق رأس الهواء البارد على طول الأرض أمام الحزام الرئيسي للبرَد والمطر، ويتم حمل الغبار نتيجة لتقلبات الرياح والضغط المرتبطة بمقدمة رأس التيار. ويمكن أن يطور الرأس هيكلاً ذا فصوص بسبب جيوب من الهواء الدافئ تحتجز تحت تيار الهواء البارد المتقدم (Lawson 1971).

وبالمقارنة مع الأنواع الأخرى من العواصف الترابية، تعتبر الهبوب صغيرة مكانياً وقصيرة زمنياً. وتحدث هذه الرياح ضمن 90- 150 كيلومتراً (55-95 ميلاً) عند انهيار عاصفة رعدية، ويمتد متوسط طولها بين 2400-4200 متر (7500-13700 قدم)، وتستمر بفعل الخلط المضطرب داخل وخلف رأس التيار (Idso1976; Reusse 2002). ويمكن أن تبلغ سرعة الرياح ضمن الهبوب 90 كيلومتراً في الساعة (55 ميلاً في الساعة)، كما أن أحجام جزيئات الغبار صغيرة جداً عادة، وتراوح بين 10-50 ميكروناً (Edgell 2006). ويراوح متوسط مدى الهبوب الأفقي بين 95-145 كيلومتراً (نحو 60-90 ميلاً) (COMET 2003). وفي حين أن معدل أمد هذه الرياح ثلاث ساعات، فإن الرؤية تبدأ بالتحسن تدريجياً خلال ساعة واحدة (Reusse 2002). ومع ذلك، فإذا كانت العاصفة الرعدية التابعة لم تصل، أو أن المطر تبخر قبل أن يصل إلى الأرض، فإن الغبار قد يتأخر لعدة أيام (Idso 1976). إن الهبوب في العادة حدث موسمي؛ فعلى سبيل المثال، هذه

الرياح هي الأكثر شيوعاً في الصحراء العربية خلال أواخر الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والفترة الانتقالية بين شهري إبريل-مايو حين يكون نشاط العواصف الرعدية في أوجه (Reusse 2002).

العواصف الترابية الأمامية

على النقيض من الهبوب، تعتبر العواصف الترابية الأمامية أكبر بكثير ويمكن أن يصل مداها الجوي بسهولة إلى 100 كيلومتر (نحو 60 ميلاً). وترتبط العواصف الأمامية بنظم الضغط المنخفض المتأثر بالتيارات القطبية وشبه القطبية. وتنتشر هذه الأنواع من العواصف الترابية في الشرق الأوسط في فصل الشتاء وأوائل فصل الربيع عندما تؤثر هذه التيارات في المنطقة بالدرجة القصوى. أما الرياح الشمالية الغربية المسماة "شمال" Shamal (وهي كلمة عربية) فتؤدي إلى أكثر أنواع المناخات ضرراً في المنطقة (COMET 2003). إذ يبلغ أقصى متوسط سرعة الرياح هذه حوالي 55 كيلومتراً في الساعة (34-45 ميلاً في الساعة) مع هبات تصل إلى 74 كيلومتراً في الساعة (نحو 45 ميلاً في الساعة) (Edgell 2006).

وتعتبر العواصف الترابية الأمامية أكبر بكثير في أمدها مقارنة بالهبوب، حيث تستمر لأيام وليس ساعات. ونظراً للطبيعة المؤقتة لأعاصير الأمواج، تستمر رياح الشمال الشتوية من 3-5 أيام. وتهب رياح الشمال الصيفية أيضاً في الشرق الأوسط، ولكن هذه الرياح غير موسمية في طبيعتها وغير مرتبطة بأعاصير الأمواج. وبالتالي، فإن رياح الشمال الصيفية تستمر أكثر منها بكثير، وقد يطول أمدها لعدة أسابيع في حالات كثيرة (Edgell 2006).

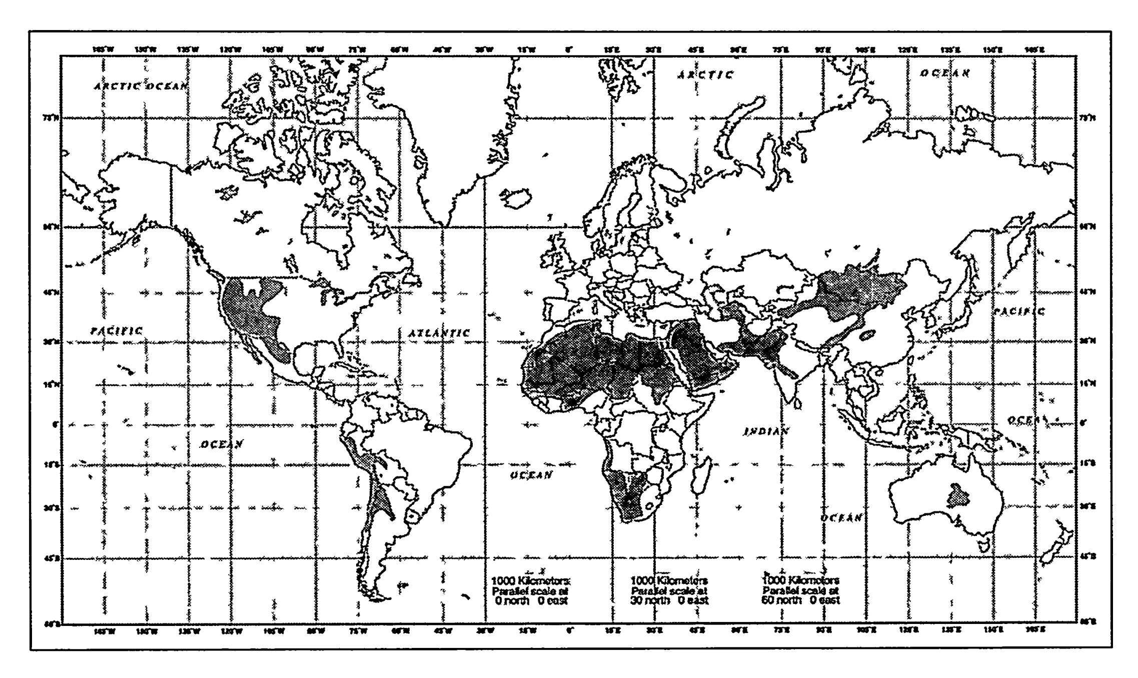
المناطق التي تعد مصدراً للعواصف الترابية

تشمل مناطق العالم التي تتميز بنشاطات العواصف الترابية المستمرة؛ الصحراء في الشرق الأوسط، وجنوب شرقي آسيا، ومنغوليا (انظر الشكل 17-1). وبالإضافة إلى ظاهرة الرياح المحلية التي تهب على نطاق واسع، كما هو موضح أعلاه، فإن كل هذه المناطق

تحتوي على أمكنة فيها رواسب دقيقة الحبيبات، والتي تعتبر أساسية لتكوين العواصف الترابية. محلياً، توجد هذه المناطق التي تحتوي على أنواع من التربة الغنية بالطمي والطين في الترسبات النهرية (Bagnold 1941). ويعتبر الطمي من سهول الفيضانات والبحيرات الجافة المصدر الرئيسي للترسبات التي تسحبها العواصف الترابية. توجد ترسبات الطمي بشكل كبير في كل من إيران والعراق، حيث الأمثلة التاريخية الواردة في هذا الفصل حصلت هناك. ويمكن أن توجد مصادر محلية للترسبات ذات الحبيبات الدقيقة في مناطق تضررت فيها أطراف الصحراء بفعل المناورات التي كشفت حبيبات الرمل الأكثر دقة والموجودة مباشرة تحت طبقة الحماية الصخرية (Gilewitch 2003).

الشكل (17-1)

المناطق العالمية المنتجة للغبار والأتربة. في جميع أنحاء العالم، يحدث معظم إنتاج الغبار والأتربة المتطايرة في المناطق القاحلة. والرياح هي الأكثر فاعلية في هذا الشأن حيث تكون التربة جافة، وينعدم وجود الغطاء النباتي؛ مما يسمح بتأكّل المواد السطحية الدقيقة. وتحدث غالبية العواصف الترابية في الصحراء الأفريقية، والشرق الأوسط، وجنوب غربي آسيا، ومنغوليا



المصدر: USGS.

التأثيرات في العمليات العسكرية

بعد دراسة العمليات الطبيعية التي يتضمنها تشكل عواصف مثيرة للغبار، يلي ذلك نقاش موجز للتأثيرات العامة لعوامل الرياح على العمليات العسكرية، تليه دراستا حالتينِ تبرزان التأثير الشديد لحادثين منفصلين. تسبب العمليات الهوائية متطلبات عالية من صيانة المعدات، كما أنها تؤثر سلبياً في صحة الجنود وفي العمليات التكتيكية بتخفيض مستوى الرؤية. وتصبح صيانة المعدات أكثر صعوبة بسبب أثر الكشوط على أسطحها المعرضة، مثل الريش الدوارة، وانخفاض الأداء وتلف المحركات والنظم الكهربائية والتشويش على الأسلحة (Scales 1994). وتعتبر صحة الجنود هاجساً كبيراً يمكن أن يؤدي إلى أمراض تنفسية وأمراض أخرى. وعلاوة على ذلك، فإن مجرد وجود غبار محمول في الجو بصورة مستمرة يمكن أن يكون له تأثير سلبي في المعنويات.

يمكن للرؤية المنخفضة أن تثير فوضى في العمليات العسكرية. ويمكن تقليص العمليات الجوية أو تعليقها كلية اعتماداً على قدرة نظام طائرات معينة. وبالمثل، يمكن أن تتوقف العمليات الأرضية كما حدث في المرحلة الأولى من عملية حرية العراق. كما أن الملاحة، من دون وجود نظم ملاحية متطورة مثل نظام تحديد المواقع، يمكن أن تتوقف حين تصل درجة الرؤية إلى الصفر، وكذلك فإن عمليات القيادة والتحكم يمكن، خلال عاصفة ترابية، أن تكون مستحيلة عملياً. ويمكن أن يتضرر عديد من نظم الأسلحة، بما فيها الذخائر الموجهة بصرياً وبالليزر بفعل جزيئات الغبار. ولا يشمل هذا الضرر الذي يشل القدرة على العثور على العدو والاشتباك معه وحسب، بل وتزداد أيضاً إمكانية قتل الأصدقاء كثيراً في مثل هذه الحالات. وأخيراً، فإن القدرة على جمع المعلومات الاستخبارية تعوَّق، وبخاصة بالنسبة للأقمار الصناعية ومنصات طائرات الاستطلاع.

وقد كان عدد من هذه الآثار الضارة واضحاً في دراستَي الحالتين التاليتين: أولاً، عملية مخلب النسر التي تأثرت برياح الهبوب، والثانية العاصفة الترابية التي حدثت بين 25–27 مارس 2003 خلال عملية حرية العراق، والتي كانت عاصفة غبار أمامية.

عملية مخلب النسر

كانت عملية مخلب النسر هي المحاولة الفاشلة التي جرت عام 1980 لإنقاذ الرهائن الأمريكيين في إيران. كما أن الدور الذي أدته أحداث البيئة في هذه العملية يساء فهمه في كثير من الأحيان، حتى داخل مجتمع الأرصاد في القوات الجوية، الذي يوفر معظم التنبؤات الجوية لوزارة الدفاع (Moyers, A., Chief, Air Force Weather History Office, Air Force Weather Agency, 2003, email correspondence). وقد تركز تسلسل الأحداث التي أدت إلى عملية مخلب النسر، على ما بعد التغيير الذي حصل في إيران بعد إطاحة النظام الموالي للولايات المتحدة وحلول زعيم إسلامي متشدد مكانه، والذي أراد التخلص من تأثير الولايات المتحدة في الدولة.

أجبرت انتفاضة في إيران في بداية عام 1979 الشاه محمد رضا بهلوي، وهو مؤيد قوي للولايات المتحدة، على الخروج إلى المنفى. وبعد ذلك تسلم رجل الدين الشيعي الأصولي آية الله الخميني السلطة، وأسس نظاماً متشدداً يستند إلى مفهوم إسلامي أصولي (Kreisher 1999). وفي نوفمبر 1979 وبموافقة من النظام، قام آلاف من الإيرانيين "الطلاب" بمهاجمة السفارة الأمريكية في طهران واحتجاز 50 دبلوماسياً أمريكياً رهائنَ لمدة 14 شهراً. وفي 11 إبريل، سمح الرئيس الأمريكي جيمي كارتر بشن مهمة إنقاذ أطلق عليها اسم مخلب النسر، بموعد مستهدف هو 24–25 إبريل 1980.

خطة الإنقاذ

خلال عملية مخلب النسر، كان ملاحو الطائرات العمودية الذين أوكلت إليهم مهمة نقل الرهائن من طهران إلى مطار جنوب غربي المدينة هم الطاقم الأكثر تأثراً بالغبار. تطلبت الخطة ثماني طائرات عمودية تابعة للبحرية الأمريكية من طراز RH-35s (انظر الشكل 17–2) للإقلاع من حاملة الطائرات نيميتز الموجودة على بعد 100 كيلومتر (نحو 60 ميلاً) عن الشواطئ الإيرانية، والطيران إلى موقع للتزود بالوقود تم تحديده مسبقاً ويسمى "صحراء واحد" Desert One، ويبعد نحو 430 كيلومتراً (نحو 270 ميلاً)

جنوب شرقي طهران (انظر الشكل 17-3). وكان من المقرر أن تتزود الطائرات بالوقود في "صحراء واحد" من صهاريج نقلت إلى الموقع بوساطة طائرات نقل من طراز C-130. كما كان مقرراً أن تسبق طائرات النقل C-130، المتمركزة خارج عُمان، الطائرات العمودية إلى موقع التزود بالوقود "صحراء واحد". بعد الإقلاع من "صحراء واحد"، تواصل الطائرات العمودية الطيران نحو طهران تاركةً فريق "دلتا فورس" في منطقة آمنة جنوب شرقي المدينة. ويتم نقل فريق دلتا فورس بسيارة شحن إلى السفارة، وحالما يتم تحرير الرهائن يتوجه الفريق والرهائن نحو الطائرات العمودية الموجودة في ملعب (ستاد) مجاور. وستطير الطائرات من تلك النقطة إلى مطار جنوب غربي طهران حيث يصعد فريق الدلتا والرهائن إلى متن طائرات من طراز C-141 لإخلائهم إلى مصر (Cogan 2003).

الشكل (17-2)

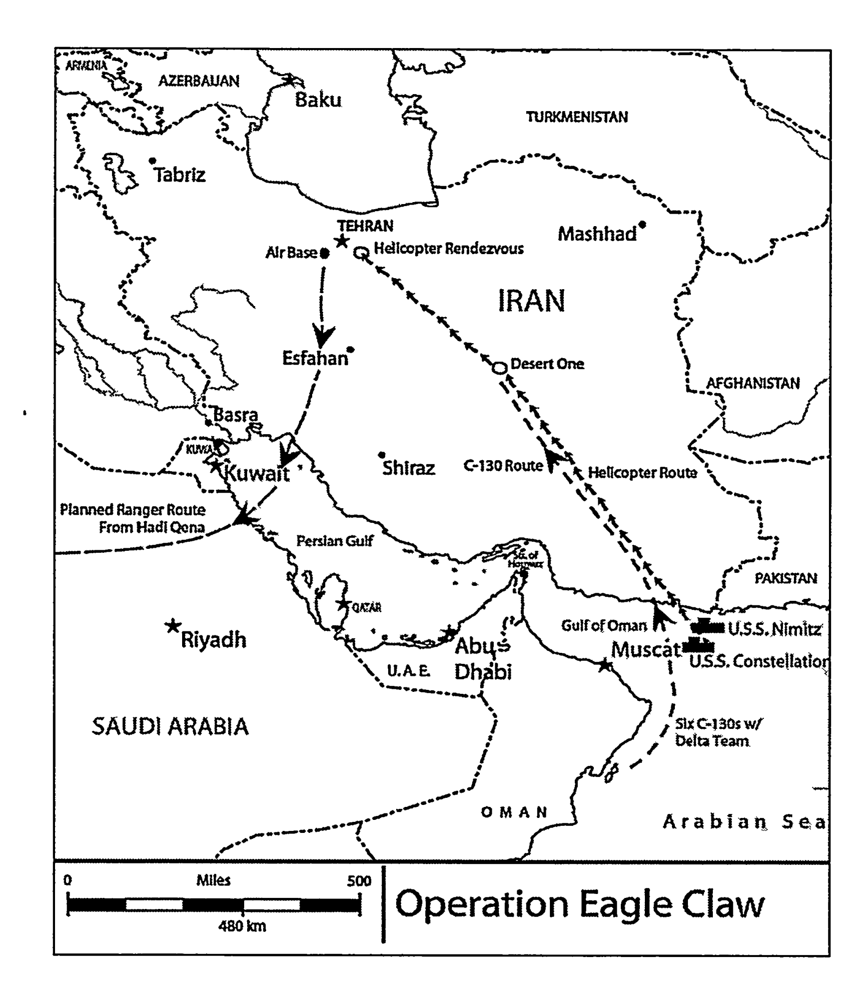
الطائرة الحوامة من طراز HR-53 Sea Stallion التابعة لسلاح البحرية الأمريكية تقلع من فوق حاملة الطائرات الأمريكية خلال عملية مخلب النسر



المصدر: US Navy Photograph.

الشكل (17-3)

خريطة عملية مخلب النسر



ما قبل المهمة: التنبؤ بالأحوال الجوية والتخطيط للمهمة

التنبؤ بالأحوال الجوية

تم تشكيل فريق من موظفي الأحوال الجوية في القوات الجوية في نوفمبر 1979 بقيادة كابتن الجو دون بوكانان، وهو ضابط فرقة العمل البيئي المشترك. بعد تعيين بوكانان وفريقه قاموا فوراً بجمع المسوحات المناخية لإيران وتحديد المحطات التي ترسل تقارير عن الطقس وتغطية الأقمار الصناعية لإعداد بيانات حول التنبؤات الجوية (Kyle 1990).

ركز الفريق، في تحليله للبيانات المناخية الخاصة بمنطقة العمليات بصورة محددة، على الأضرار المناخية التي يمكن أن تتعرض لها الطائرات العمودية في طريقها إلى الهدف (DoD 1980). كان فريق الطقس على دراية كاملة بالأضرار المناخية الجسيمة، بما في ذلك، الغبار/ أضرار الرمل وعدد مرات حدوث الرمال المعلقة وأمكنتها المذكورة بالتحديد في ملحق الطقس الخاص بخطة العملية؛ لأسباب تتعلق بأمن العمليات (Rayan 1985). وفي الحقيقة، لم يكن لدى فريق الطقس اتصال مباشر مع الملاحين الجويين، كما أن الطيارين تلقوا تقارير موجزة حول الطقس من قسم الاستخبارات. وعلى الرغم من أن السرية كانت في أقصى درجاتها، من أجل نجاح العملية، فإن قطع العلاقة التقليدية بين الطيارين والمتنبئين الجويين كان أحد العيوب التي أدت إلى عدم تبادل معلومات مهمة حول خطر يحيق بالعملية (DoD 1980). ونظراً لأن الطيارين لم يكونوا على علم بالخطر، فقد كان استعدادهم سيئاً للتفاعل وإعداد قرارات تكتيكية حين يجتاحهم الغبار.

وثمة سبب آخر حول عدم دراية الطيارين باحتمال حصول حادث عاصفة ترابية، هو أن ذلك لم يكن مذكوراً في التنبؤات الجوية. في الحقيقة، كانت الرؤية المحدودة على طول مسار الطائرات العمودية هي عنصر المناخ الوحيد في التنبؤ الجوي للفترة 24–25 إبريل، والذي لم ينطبق على منطقة الشرق الأوسط بأكملها (DAF 1980, Snellman et al.1980). على طول خط الرحلة، تحدث التنبؤ الجوي عن سماء صافية تقريباً مع رؤية واضحة، كما أن التنبؤ بالعواصف الرعدية إلى الغرب كان دقيقاً (US Joint Chiefs of Staff 1980). كانت الظروف الجوية الصافية في الحقيقة من متطلبات العملية التي فرضها المخططون ودفعت باتجاه التنفيذ الفوري (Kyle 1990).

التخطيط للعملية

نظراً للاعتماد الكبير على تنبؤ جوي واضح، لم يبدُ أن الإعداد والتدريب على المهمة أخذا في الحسبان احتمال وقوع ضرر بسبب عاصفة ترابية. وعلى الرغم من أن تدريب الطيارين (أصلاً في منطقة يوما، أريزونا) صُمِّم ليماثل بأكبر قدر ممكن مشهد العملية،

حيث يضم عمليات تزود بالوقود وعمليات برية ليلية (US Joint Chiefs of Staff 1980)، فقد كشف التحقيق بعد العملية أن الطيارين لم يكونوا مستعدين للطيران الطويل الذي واجهوه والمعتمد على أجهزة القياس (Rayan 1985). وبالنسبة إلى المعدات الملاحية البعيدة المدى، كانت الطائرة من طراز أوميغا RH-53، ونظمها الملاحية التي تعمل بالقصور الذاتي، متقدمة. لكن وفقاً لتقرير هولوواي Holloway، تلقى الطيارون تدريباً محدوداً على هذه النظم، ولم يكونوا واثقين من قدرتهم على استخدام المعدات (DoD 1980).

تنفيذ المهمة ومواجهة الغبار

بعد الظلام مباشرة في 24 إبريل، بدأت الطائرات العمودية طيرانها لمسافة 960 كيلومتراً (600 ميل تقريباً) نحو "صحراء واحد" محلقة على ارتفاع 30–60 متراً (نحو 100–200 قدم) فوق الأرض. بعد ساعتين من الإقلاع، حدث خلل في إحدى ريش المروحة الرئيسية في إحدى الطائرات، ما اضطر الطيار إلى الهبوط على الأرض والتخلي عن الطائرة. وبعد وصول منتصف الطريق بقليل – حوالي ثلاث ساعات من الطيران – دخلت الطائرات المروحية في أحوال كان الغبار فيها معلقاً في الهواء (DAF 1980).

علم الطيارون أن الغبار كان معلقاً لأنهم لم يسمعوا صوتاً أو يشاهدوا كشوطاً على مروحياتهم، ولكن بدلاً من ذلك شعروا بما يشبه مسحوق البودرة في أفواههم (Daf 1980). وصف الطيارون الهواء بأنه غير شفاف ويشبه الحليب المعتم اللون (US Joints Chiefs of Staff 1980). كما ارتفعت درجة الحرارة في قمرات القيادة لتصل إلى حوالي 34 درجة مئوية (نحو 93 فهرنهايت) (Rayan 1985). وبالتالي، أصبح تشكيل الطائرات العمودية غير منظم، لكنها عادت وتجمعت حين وصلت إلى جو صاف.

بعد ذلك بنحو ساعة، واجهت الطائرات منطقة أخرى من الرؤية المنخفضة كانت أوسع كثافة وأكبر من الأولى. وقدّر الطيارون المدى الأفقي للمنطقة بحوالي 320 كيلومتراً (نحو 200 ميل) على طول خط الطيران، وإلى علو 1830 متراً (6000 قدم) (Rayan 1985). لم يبلّغ الطيارون عن أي رياح عاصفة ضمن هذه المناطق وكان الهواء

مستقراً وهادئاً. كانت الرؤية خلال هذه الرحلة عادة أقل من 8 كيلومترات (نحو 5 أميال) (Daf 1980). عند هذه النقطة، بدأت حادثة الغبار بتأثيرها في المهمة، وتعرضت طائرة أخرى لأعطال ميكانيكية، ما أثر هذه المرة في وسائل الملاحة، وعادت الطائرة إلى حاملة الطائرات نيميتز. لكن ملاحي الطائرات المروحية لم يكونوا، حين أقفلوا عائدين، على علم بأنه بقي لهم 25 دقيقة من الطيران كي يخرجوا من منطقة الغبار، وهو مظهر آخر من مظاهر هذه الحادثة. وفي الواقع تعرض كافة الملاحين للدوار بسبب الطيران وهم يرتدون نظارات الرؤية الليلية في ظروف رؤية متدنية للغاية.

وقد فاقم التحليق بالطائرات عبر الغبار خلال ثلث الرحلة، هذه المهمة الصعبة جسدياً وعقلياً، والتي تطلبت الطيران مسافة 960 كيلومتراً (نحو 600 ميل) من دون توقف، كما تطلبت ارتداء نظارات الرؤية الليلية التي تغطي الوجه بأكمله. وقد ذكر بعض طياري البحرية أن الطيران خلال سحب الغبار كان أسوأ من أي حالة طيران واجهوها، بما في ذلك مهمات الاشتباك في فيتنام (Kreisher 1999). ومع ذلك واصل الطيارون التحليق على مستوى منخفض خوفاً من فقدان التعرف على ملامح التضاريس الموجودة على خرائطهم، ولتجنب اكتشافهم عن طريق الرادار (Kyle 1990). وصف سيك (Sick 1985) فشل الطيارين في الاعتماد على المعدات المثبتة على طائراتهم بأنه رد فعل إنساني عميق لحالة عدم اليقين التقني.

كانت الطائرات الست المتبقية قادرة على الاستمرار في الطيران وسط الغبار والخروج من المنطقة بعد 55 كيلومتراً (30 ميلاً) من موقع إعادة التزود بالوقود في "صحراء واحد". ونظراً للتأثير الشديد للغبار في الطائرات العمودية وملاحيها، تأخر الطيارون عن البرنامج الزمني؛ وحين هبطت طائرة أخرى نتيجة لخلل هيدروليكي جزئي، أجهضت المهمة لأن العدد الأدنى من الطائرات المطلوب للمهمة كان ست طائرات. لذا كان لرياح الهبوب تأثير حاسم في المهمة؛ فقد خفضت الرياح عدد الطائرات المتوافرة إلى أقل من الحد الأدنى اللازم، وجعلت عديداً من العناصر المختلفة من مهمة فريق الإنقاذ دونما أمل، وأخيراً سببت ظروف الطيران تعباً شديداً للملاحين؛ وكادت هذه العوامل مجتمعة أن

تقترب من نتيجة مأساوية. خلال عملية التزود بالوقود التالية وإعادة التموضع في العمليات في "صحراء واحد"، اصطدمت طائرة من طراز RH-53 بطائرة رابضة للتزويد بالوقود من طراز C-130، ما أدى إلى مقتل 8 طيارين في الحادث. كما أن سحب الغبار التي ولدتها مراوح الطائرات العمودية أدت إلى إيجاد ظروف مظلمة، ما ساهم في الحادث المؤلم. وقد تم التخلي عن كافة الطائرات العمودية وغادر جميع الأفراد بوساطة طائرات C-130 المتبقية.

الهبوب

استناداً إلى الدليل المتوافر، فإن سحابة الغبار التي أزعجت الطيارين كانت على الأرجح من نوع الهبوب الذي ولّده نشاط عاصفة رعدية فوق جبال زاغروس إلى الغرب من خط سير الطائرات. خلال الفترة التي شهدت أقصى درجة حرارة خلال النهار، أظهر تصوير القمر الصناعي الخاص بالأرصاد الجوية نشاطاً ركامياً على علو شاهق فوق سلسلة جبال زاغروس. كما أظهرت التغطية الثانية لقمر الأرصاد المناخية عواصف رعدية منفصلة تتحرك نحو الشرق مع سحاب فوق النتوء الجبلي في أقصى شرقي سلسلة جبال زاغروس الوسطى (Daf 1980). وقد تشكل اضطراب على مستوى عال فوق جنوب غربي إيران مسبباً نشاطاً لعاصفة رعدية؛ ليستمر ويتصاعد فوق منطقة جبال زاغروس (Daf 1980). وعلى الرغم من أن السماء فوق وسط إيران كانت غائمة، كانت السماء فوق الجنوب الشرقي صافية (Daf 1980).

توصلت مراجعتان منفصلتان لخدمة المناخ الجوي وفريق من خبراء المناخ المدنيين إلى نتيجة مفادها أنه كان هناك احتمال كبير بوجود طليعة عواصف (أو تيارات هوائية سفلية) من العواصف الرعدية فوق الجبال حوالي 80 كيلومتراً (نحو 50 ميلاً) إلى الغرب، وتحركت في الوادي مثيرة الغبار (Snellman et al.1980). ويمكن أن تكون حالة الاضطراب قد تسببت في تعليق الغبار الدقيق في الجو لعدة ساعات (Daf 1980). كما تكهن ضابط أرصاد جوية من قيادة قوات المارينز التابعة للقيادة الوسطى، على دراية بالطقس في

إيران، بأنه يمكن أن تكون الزيادة في الحرارة التي شعر بها الطيـارون جـاءت نتيجـة ارتفـاع درجة حرارة الهواء عند تدفقه من الجبال إلى الوادي الصحراوي (Reusse 2002).

تحليل ما بعد المهمة

استناداً إلى أنماط الطقس المكانية والزمانية، كان هنـاك توقـع معقـول بـأن الطيـارين يمكن أن يواجهوا عاصفة ترابية خلال المهمة. كان الخطأ الجغرافي القاتل في الخطة الكليـة هو الافتقار إلى الاستعداد لهـذا الحـدث الطـارئ. ومـن الواضـح أن الطيـارين لم يكونـوا مستعدين بما فيه الكفاية لأحوال الرؤية المنخفضة التـي تتطلـب تجنـب اتبـاع التضـاريس باستخدام نظاراتهم للرؤية الليلية. إن عدم تحطم طائرة واحدة أثناء الطيران في ظـل رؤيـة معدومة بالقرب من سلاسل جبلية يعتبر أمراً مدهشاً يضاف إلى الثقة في مهـارة الطيـارين وتصميمهم. إن التوتر والتعب الناجمين عن مهمة الطيران الطويلة (سبع ساعات في قمـرة القيادة) بالإضافة إلى الرؤية المنخفضة وضعت أعباء هائلة عليهم، كـما أن هـذه الظـروف أثرت مباشـرة في تنفيذ المهمة. أما في حادثة إعادة التزود بالوقود، فإن التعب الشديد الذي أصاب الطيارين، بالإضافة إلى الغبار الذي واجهـوه في سـيرهم، سـاهم في كارثـة إعـادة التزود بالوقود في موقع "صحراء واحد".

ونظراً لتوافر أحدث الأجهزة للتنبؤ الجوي في ذلك الوقت، هل كان بالإمكان توقـع الظروف المناخية المحلية؟ توصلت الفرق الخاصة بمراجعة الطقس إلى نتيجة أن المتنبئين لم يكن بإمكانهم توقع هذا الحدث المتوسط النطاق بدرجة المهارة التي تتطلبها هـذه العمليـة (Snellman et al. 1980; DAF 1980). فعلى سبيل المثال، لم تكن الأقمار الصناعية، على الأقل، في الثمانينيات، قادرة على التقاط صور دقيقة، وفي الوقت المناسب، لسـحب الغبـار (Rayan 1985).

إن حقيقة كون التنبؤات الجوية دقيقة جداً، عدا حوادث الغبار، يعتبر أمراً رائعـاً، إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه لم يكن هناك محطات تصدر تقارير عـلى طـول خـط الطـيران، وأن إيران منطقـة لا يتـوافر فيهـا سـوى بيانـات ضـئيلة عـن حالـة الطقـس (DAF 1980).

وللمفارقة، أنه كانت هناك محطتان مناخيتان آليتان على طول خط الطيران يمكن أن تـوفرا معلومات مفيدة. لكن هاتين المحطتين تعطلتا خـلال حكـم الخمينـي ولم يـتم إصـلاحهما (Sick1985).

إن اعتماد الفريق على طقس صاف على أنه شـرط مسـبق للمهمـة كـان خطـأ كبـيراً، وربما غير واقعي. فقد كانت هناك ثقة كافية بقدرة المتنبئ إلى درجة أنه لم يكن هنـاك سـعي لاستخدام الوسائل البديلة لظروف الطيران البصـريـة (DoD 1980). لقـد حالـت هـذه العقلية بين القيادة وتركيزها على أسوأ سيناريو محتمل وبين تطوير خطط لتخفيف أضـرار الطقس التي يمكن أن تواجهها المهمـة. لاحـظ تقريـر "هولـوواي" أن سـنوات المراقبـة ضـرورية لتوقع أنماط الطقس على نحو موثوق، وأنه كان على مخططـي المهمـة أن يكونـوا أكثر اجتهاداً في سعيهم للطوارئ، ما من شأنه أن يخفف من حالات عدم اليقين بالنسبة إلى المهمة (DoD 1980).

تحسين المعدات والتدريب في مرحلة ما بعد العملية

كانت عملية مخلب النسـر موضوع بحث مكثف، وبخاصة داخل مجتمعَي العمليات الخاصة والمناخ التابع للقوات الجويـة. وفي حـين اسـتمرت المناقشـة حـول مـا إذا كانـت العاصفة الترابية قد أدت إلى فشل المهمة أو لا، أدركت جميع الأطراف أن العاصـفة لم يـتم التنبؤ بها، وأن الطيارين كانوا غير مستعدين للتعامل مع الأضـرار التي سـببتها العاصـفة، وأن الغبار أعاق المهمة بشكل كبير.

طوّر الجيش الأمريكي وحدة النخبـة للطـائرات العموديـة ضـمن مجتمـع عمليـات الطيران الخاصة تعرف باسم "القوة 160" (Force 160)؛ لتتـدرب بكثافـة عـلى الطـيران لمسافات طويلة والتحليق على علو منخفض مع ارتداء نظارات الرؤية الليلية. ومـن أجـل جمع قـدرات العمليـات الخاصـة في كـل أقسـام القـوات المسـلحة بصـورة فعالـة، مـنح الكونجرس صلاحيات لقيادة العمليات الخاصة عام 1986. وقد تحسـنت حالـة القـوات

الخاصة الأمريكية بصورة كبيرة عما كانت عليه عام 1980، كما أن القوات تتدرب على الطوارئ وجاهزة للتفاعل معها بسرعة في ظروف التضاريس والمناخ المختلفة.

بالنسبة إلى مجتمع الطقس التابع للقوات الجوية، فإن الدرس الذي تعلموه هو أنهم كانوا بحاجة إلى تحسين قدرتهم على التنبؤ بحالات العواصف الرملية و/ أو الترابية. وكان من بين التحسينات التي أدخلت تطوير نموذج جهاز نقّال RWM؛ وهو ذو قدرة رقمية للتنبؤ بالطقس، صُمم خصيصاً لالتقاط العواصف الرملية/ الترابية في الصحراء. أما الجهاز الأكثر تطوراً من هذا، فهو جهاز تطبيق انتقال الغبار DTA، الذي يمكن أن يتنبأ بالمدى المكاني والزماني للعاصفة الترابية لعدة أيام مسبقاً (Kuchera 2003). وقد استخدمت هذه الإمكانيات الجديدة في التنبؤ لأول مرة خلال العمليات القتالية في عملية حرية العراق.

عملية حرية العراق (25-27 مارس 2003)

لم تأخذ عوامل الرياح وقتاً طويلاً للتأثير بشكل كبير في العمليات العسكرية خلال عملية حرية العراق. فبعد أقل من أسبوع على غزو العراق، اجتاحت عاصفة ترابية هوجاء القوات الأمريكية المتقدمة، وعطلت العمليات لما يزيد على يومين. وبالمقارنة مع العاصفة الترابية التي أثرت في عملية مخلب النسر، فقد كانت هذه الحادثة أكبر بكثير في مداها واستمرت مدة أطول. وتعتبر هذه الملامح من مميزات عاصفة ترابية رئيسية مثل "الشمال".

في الوقت نفسه، ضربت العاصفة الترابية يوم 25 مارس عناصر فرقة المشاة الثالثة في منتصف الطريق بين النجف وكربلاء، ضمن 150 كيلومتراً (93 ميلاً) بعيداً عن بغداد. وقد توقفت عمليات الطائرات العمودية للفرقة 101 الداعمة لهجوم الفرقة الثالثة مشاة لمدة ثلاثة أيام. تقدمت فرقة المارينز الأولى شمالاً، وكذلك نحو الناصرية في وسط العراق. وقد تسببت العاصفة الترابية في مشكلات لوجستية، حيث تم تعليق حركة مرور السيارات على الأرض لفترة، ووفرت فرصة تمويه سمحت للقوات العراقية بالاقتراب من الوحدات الأمريكية؛ وهو شيء لم يكن بإمكانهم القيام به سابقاً.

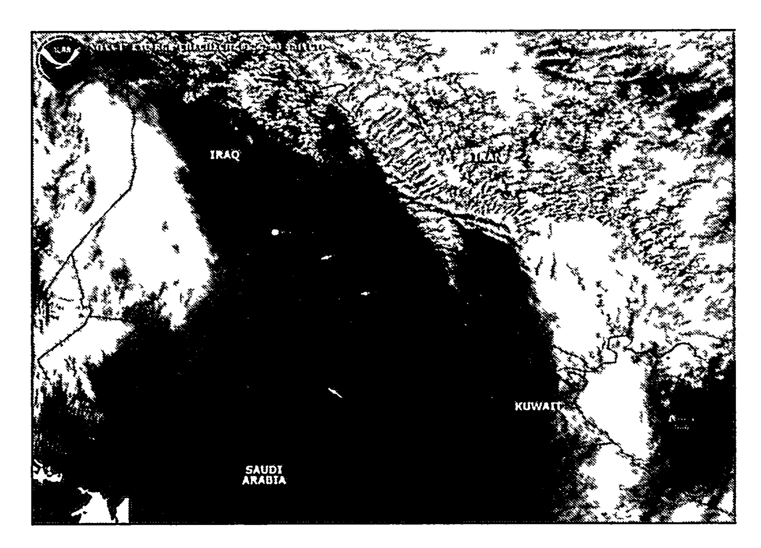
"أم العواصف الترابية كلها"

لقد تسببت موجة إعصار مع جبهة هوائية باردة تحركت نحو شـرق البحـر الأبـيض المتوسط (الشكلان 17-4 و17-5) في إثارة حبيبات التراب الدقيقة التي خنقـت القـوات العراقية والأمريكية. وكانت العاصفة الترابية التي وصفت من قبل القوات الأمريكية بأنها من نوع "الشمال"، ولكن كان يمكن تسميتها بجـدارة أكثـر باسـم "تـراب"؛ لأن الريـاح الشديدة التي هبت بشكل مفاجئ كانت إلى حد كبير جنوبية غربية وليست شمالية. وعـلى أي حال، ستسمى العاصفة باسم "شمال" في هـذا الفصـل، حيـث تشـبه ريـاح "شـمال" الشتوية التي ورد وصفها في المؤلفات (Anderson 2004). كان الغبـار كثيفـاً حتـى علـو كيلومتر ونصف الكيلومتر (ميل واحد تقريباً)، كما وصلت جزيئات الغبار في الجـو حتـى علو 10 كيلومترات (نحو 6 أميال). ويشير تحليل متوافر لبيانات الطقس أن من المرجح أن يكون ذلك بسبب حادثة هي الأولى من نوعها على مـدى 10 سـنوات (Grumm 2009). كانت الرياح قوية ومستمرة وتصل سـرعتها 50 عقدة (60 ميلاً في السـاعة) أو أكثـر عـلى سطح الأرض (Atkinson 2004). وفي صبيحة يوم 27 مـارس انقشـع الغبـار في منطقـة العمليات، حيث تحرك الضغط العالي في المنطقة.

خلافاً لرياح الهبوب التي أثرت في محاولة إنقاذ الرهائن في إيران، تم توقع هذه العاصفة بشكل جيد قبل 5 أيام من وقوعها (Anderson 2004). وقد استخدمت نـماذج تنبـؤ جويـة رقمية، بالإضافة إلى آخر التطورات – مثل جهاز تطبيق انتقال الغبار DTA – بدرجـة عاليـة من المهارة. وقد استفاد القادة بشكل تام من عمليات التنبؤ الجويـة لإعـداد خطـط المعركـة، وتنفيذ الإجراءات للاستعداد للأحوال المناخية. فعـلى سـبيل المثـال، سـمح الإنـذار المبكـر بالعاصفة الوشيكة للمخططين بتوجيه أوامر المهـمات الجويـة مـع تقـارير إضـافية قبـل بـدء الطقس السيئ. وعلاوة على ذلـك، تـم تغيـير حمـولات الأسـلحة المخططـة للمقـاتلات-القاذفات لصالح الذخائر الموجهة بنظام تحديد المواقع GPS (Anderson 2004).

الشكل (17-4)

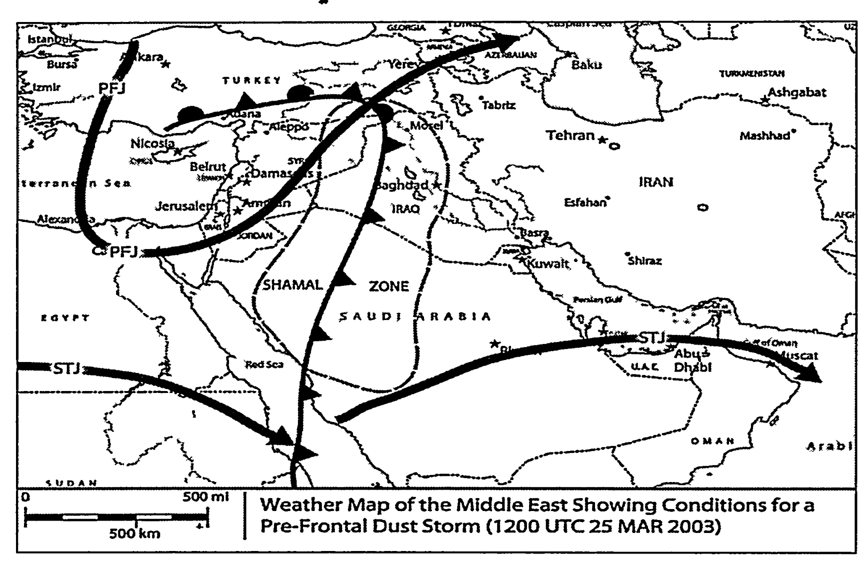
صورة مأخوذة بالقمر الصناعي NOAA 17 لعاصفة ترابية فوق العراق بتاريخ 26 مارس 2003. تشير الأسهم المبينة بلون فاتح إلى الأتربة المتطايرة



المصدر: National Oceanic and Atmospheric Administration.

الشكل (17-5)

خريطة الطقس ليوم 25 مارس 2003، وتظهر فيها الجبهة الباردة وموقع النفاث القطبي والنفاث شبه المداري



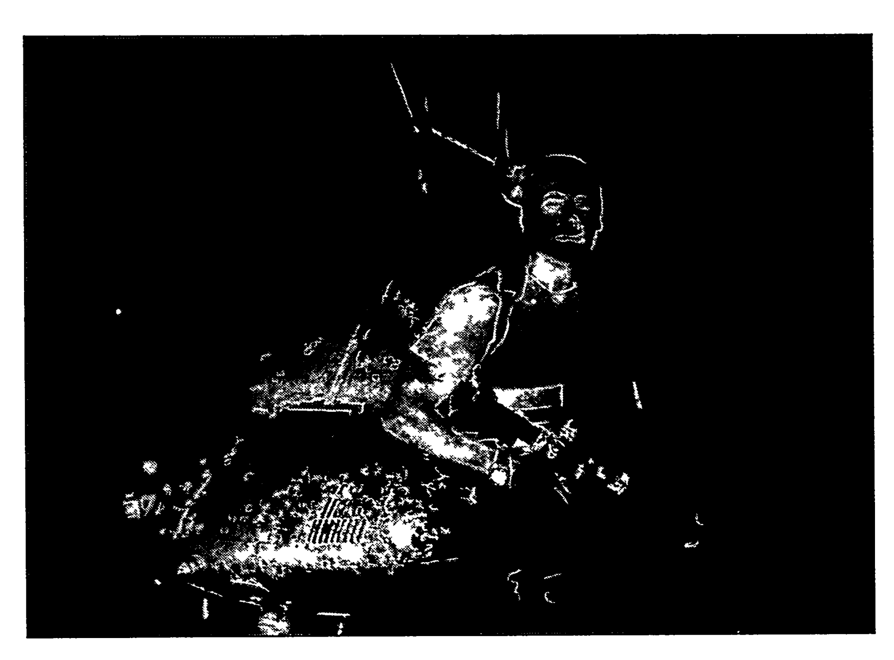
المصدر: Air Force Weather Agency.

آثار العاصفة الترابية

على الرغم من جهود الاستعداد للعاصفة الترابية، فإن آثارها كانت كبيرة، ومع أنها كانت في الأساس مصدراً للإزعاج، فلم تحوّل مجرى الحرب. ومع ذلك، كانت "شمال" قادرة على وقف تقدم قوة عسكرية قوية وجيدة التجهيز. وقد شابهت الرمال والأتربة التي هبّت بودرة بنية غطت المعدات والجنود، وأجبرتهم على استخدام جميع الوسائل المتاحة لتغطية أنفسهم ومعداتهم (Atkinson 2004). كذلك أعطى انكسار أشعة الشمس جزيئات الغبار الثقيلة في الغلاف الجوي السفلي الهواء لوناً برتقالياً يميل إلى القرمزي. وقد اختلطت نقاط من المطر مع الغبار، ما أعطى الجنود انطباعاً بأن الطين كان ينزل من السماء (Atkinson 2004) (انظر الشكل 17-6).

الشكل (17-6)

طيار في الجيش تابع للسرب الثالث، الفوج السابع لسلاح الفرسان الأمريكي، فرقة المشاة الثالثة، خلال عواصف ترابية في مارس 2003. لاحظ بقع قطرات المطر على الزجاج الأمامي للطائرة الحوامة من طراز OH-58D Kiowa Warrior



المصدر: CW3 Mitch Carver, 3rd Infantry Division.

كان الجنود في بعض المناطق غير قادرين على قراءة الخرائط وارتداء النظارات أو استخدام نظاراتهم للرؤية الليلية في الظروف المليئة بالغبار (Fontenot et al. 2004). توقفت عمليات جميع المركبات خلال أوج العاصفة بسبب مسائل الرؤية الصعبة، وقد أثر هذا بشدة على إعادة التموين، لذا أصبحت الفرقة الثالثة تعاني نقصاً خطيراً في المواد الغذائية والمياه (Atkinson 2004). كما تدخل الغبار في عمل الأجهزة البصرية والسمعية وأجهزة الليزر التي تستخدم في استشعار الأهداف عن بعد، ما زاد من فرص قتل الأصدقاء. أما المعدات الحرارية فقد استمرت، على أي حال، في العمل بشكل جيد نسبياً على الرغم من سحب الغبار الكثيفة (Anderson 2004).

استمر القتال بصورة مثيرة للدهشة في بعض المناطق، ولو ببطء، حيث اشتبكت وحدات الفرقة الثالثة عن قرب في النجف مع القوات العراقية. وبسبب الرؤية المنخفضة، تمكن العراقيون من الاقتراب ضمن بضع أقدام من القوات الأمريكية قبل التعرف عليهم بصورة إيجابية، وكانت الاشتباكات في كثير من الأحيان على مسافة قريبة (Fontenot 2004). حدث قتال من مسافة قريبة بين وحدات الفرسان التابعة للفرقة الثالثة مشاة ومقاتلين عراقيين شبه عسكريين في عربات مدنية وعلى الأقدام ومسلحين بأسلحة خفيفة وقذائف صاروخية "آر بي جي" ومدافع هاون (Fontenot et al.2004).

من المفهوم أن الطائرات العمودية كانت رابضة على الأرض خلال معظم مدة العاصفة، وكانت جميع العمليات الجوية فوق منطقة العمليات متأثرة بها في ذلك المنطقة الملاحية في شمالي الخليج العربي. وفي الحقيقة، خفضت حاملات الطائرات كيتي هوك Kitty Hawk، وأبراهام لينكولن Abraham Lincoln، وكونستلاشين Constellation، في الفترة 25-27 مارس الطلعات الجوية لطائراتها بنسبة 20٪ (Anderson 2004). لكن العاصفة الرملية لم تمنع عديداً من طائرات القوات الجوية الأمريكية، مثل طائرات B-1، من الاستمرار في مهاجمة الأهداف على الأرض بالطيران فوق الغبار واستخدام الذخائر الموجهة بنظام تحديد المواقع. وقد تم تعويق القدرة على إجراء تقييم دقيق للأضرار التي

أحدثتها هذه الضربات الجوية بسبب انخفاض قدرة الأقمار الصناعية وطائرات الاستطلاع على الرؤية من خلال الغبار "المسبب للعمى" (Atkinson 2004).

جهود مستمرة لتخفيف آثار الغبار

كما يشير المثال الذي ورد ذكره في عملية حرية العراق، فإن الجهود للتنبؤ بآثار العواصف الترابية وهبوب الغبار والتغلب عليها تحسنت منذ الهزيمة في عملية مخلب النسر. إن التنبؤ الأفضل باستخدام جهاز تطبيق انتقال الغبار DTA، ونظام التحليل والتنبؤ بالهباء الجوي، التابع للبحرية الأمريكية NAAPS، هما مثالان على تطورين جديدين في نماذج الحاسوب لدى وزارة الدفاع للتنبؤ بالعواصف الترابية، وقد استخدم كلا النظامين في عملية حرية العراق وفي أفغانستان.

ومن أجل تخفيف احتمال حدوث ظلام بسبب الغبار الذي تثيره الطائرات العمودية والعربات في ميدان المعركة والمنشآت العسكرية الأمريكية، تم تنفيذ عدد من الإجراءات. يمكن استخدام مجموعة من المواد المانعة لتسرب الأوساخ كغطاء سطحي مؤقت يشكل رصيفاً صلباً مانعاً للماء في مناطق إعادة التزود بالوقود وخطوط النقل. ولمزيد من المواقع الدائمة، يمكن نشر الحصى ومواد صخرية أخرى على السطح، ما يخفف بشكل كبير من الغبار المحمول بوساطة الرياح. وفي المنشآت العسكرية، ساعدت قيادة البيئة التابعة للجيش الأمريكي على تنفيذ مكافحة الغبار بتوفير إرشادات ميدانية حول مكافحة الغبار وتقنياتها. كما تساعد محطات مراقبة الغبار على الأراضي العسكرية الأمريكية القاحلة في تتبع كفاءة هذه الجهود لمكافحة الغبار المحمول في الهواء.

الخلاصة

تتأثر العمليات العسكرية في الأراضي القاحلة دوماً بعوامل الرياح، على الرغم من توافر أحدث تقنيات التنبؤ والملاحة والاستهداف. وحين لا يتم اتخاذ إجراءات لتخفيف آثار الغبار المحمول بالهواء، يمكن أن تترتب على ذلك نتائج كارثية، كما حدث خلال

عملية مخلب النسر في إيران. فقد خطط القادة والطيارون لعمليات في أجواء صافية، ولكنهم لم يواجهوا شيئاً من هذا القبيل. ومن الواضح أن أسوأ حالة خطر يمكن أن تحيق بالطيران، وهي رياح "الهبوب"، لم تكن أحد العوامل المأخوذة في الحسبان في تخطيط عملية مخلب النسر وتنفيذها، على الرغم من أن خبراء الأرصاد حددوا الخطر. ومن خلال هذه المهمة الفاشلة، أدخل الجيش الأمريكي تحسينات جوهرية على التنبؤ الجوي والاستعداد للمهمات، وقد أثمرت هذه التحسينات بعد عقود في عملية حرية العراق عام 2003. فقد تم التنبؤ بالعاصفة المسماة "أم العواصف الترابية كلها" قبل عدة أيام من حدوثها، وبذل القادة جهوداً لتخفيف هذه الآثار. ومع ذلك، توقف التقدم نحو بغداد لمدة أربعة أيام تقريباً وعانى الجنود على الأرض جراء الظروف البيئية القاسية. ومن الواضح أن القادة العسكريين والمخططين سوف يستمرون في مواجهة التحدي في العمليات المستقبلية بسبب نقمة الصحراء والغبار الذي تثيره الرياح.

الفصل الثامن عشر

ضعف البنية التحتية في حادثة كاسكاديا الكارثية والآثار المترتبة على الاستجابة للكارثة لساحل أوريغون

ويلي طومسون

مقدمة

يشير التصدع الكبير الذي أصاب منطقة الاندساس في كاسكاديا* Cascadia Subduction Zone, CSZ، وحوادث أخرى مماثلة ضربت المحيط الهندي خلال موجة تسونامي إلى أن أجزاء كبيرة من وادي ويلاميت في ولاية أوريغون الأمريكية، وسكان المجتمعات القائمة على الساحل، والمرافق والبنى التحتية، يمكن أن تتعرض لتصدع آخر في المستقبل (Wang and Clark 1999). لقد وقع آخر حادث زلزالي في كاسكاديا عام 1700 (Satake et al. 204; Ludwin et al. 2005)، ما أدى إلى زلزال بقوة 9.1 درجات على مقياس ريختر وتبعته موجة تسونامي كبيرة امتدت آثارها المدمرة إلى حوض المحيط الهادي. كما حدثت زلازل أخرى في الماضي في كاسكاديا (Atwater et al. 1995). وكان عدد من هذه الزلازل كبيراً، وكانت لها آثار كبيرة بما في ذلك إحداث هزات، وهبوط في مناطق من الأرض، وارتفاع مناطق أخرى، وتبعها موجات تسونامي. بعد التصدع الذي حصل في منطقة كاسكاديا، يمكن أن تشمل الأخطار المحتملة في المستقبل والمرتبطة

* في علم الجيولوجيا، يشير مصطلح "الاندساس" أو "الاستخفاض" أو "الانغراز" Subduction Zone إلى العملية التي تحدث عند الحدود المتقاربة التي وفقاً لها تنتقل صفيحة إلى أسفل صفيحة أخرى بفعل الزلازل. وتعرف المناطق التي تحدث عندها هذه العملية باسم نطاقات الاندساس. وعادة يتم قياس معدلات الاندساس بالسنتيمتر كل سنة. وكما يرد في نهاية هذا الفصل، فإن منطقة كاسكاديا في الشمال الغربي للمحيط الهادي، والواقعة في ولاية أوريغون، تعرضت قبل 310 سنوات لزلزال مدمر؛ ويتوقع أن يتكرر مثل هذا الزلزال في المنطقة بمعدل كل 500 سنة، ومن هنا يدرس هذا الفصل كيفية الاستجابة لسيناريو حدوث هذا الزلزال مرة أخرى، ربما في المستقبل القريب. (المترجم)

بزلزال وتسونامي على الأرجح ما يلي: اهتزاز الأرض، وحدوث إسالة أو إذابة، وهبوط في الأرض، وانهيارات أرضية، وفيضانات، وأضرار أخرى. وستشكل مثل هذه الأخطار تهديداً للسكان الذين يتعرضون لها، وللبنى التحتية على طول ساحل ولاية أوريغون. ونظراً إلى أن عديداً من موارد الولاية ستخصص للاستجابة للكارثة، فإن هذه الموارد ستتدهور أو تكون منشغلة في نشاطات ما بعد الكارثة في وادي ويلاميت ذي الكثافة السكانية العالية؛ ويمكن أن تكون هناك حاجة لمساهمات فيدرالية كبيرة أو موارد دولية لتنفيذ استجابة كبيرة للكارثة.

يبحث هذا الفصل دور الجغرافي العسكري في الاستعداد للكارثة والتعامل معها على نطاق واسع. ويقوم بذلك بمحاولة استكشاف إدماج الموارد العسكرية في عمليات مساعدات إنسانية بعد كارثة طبيعية على نطاق واسع. ومن خلال تتبع المساهمات، يستطيع الجغرافي العسكري أن يساهم في الاستعداد للاستجابة للكوارث، ومن ثم اقتراح خطة حقيقية لمواجهة كارثة حقيقية وواسعة النطاق ناجمة عن خطر طبيعي وشيك.

الجغرافيا والجغرافيون العسكريون ومواجهة الكوارث

تؤدي الجغرافيا دوراً حاسماً في دراسة الأخطار والكوارث. ويلاحظ ألكسندر (Alexander 2000: 30) أن مدارس الفكر الرئيسية التي تساهم في دراسة الكوارث هي «الجغرافيا، وعلم الإنسان، وعلم الاجتماع، ودراسات التنمية، والطب، وعلم الأوبئة، والتخصصات العلمية والتقانية مثل علم دراسة البراكين والزلازل والهندسة». يصلح تخصص الجغرافيا بصورة فريدة لتشكيل جوهر دراسات الكوارث. والجغرافيا بطبيعتها تستوعب نهجاً تخصصياً لحل المشكلات. يحدث كثير من الكوارث نتيجة لأخطار طبيعية (مثل الزلازل، والبراكين، والأعاصير، والفيضانات، والعواصف). ولمثل هذه الأخطار عناصر مكانية تمكن ملاحظتها، كما تمكن دراستها وحتى التنبؤ بها إلى مدى محدود بدراسة البيانات المكانية والزمانية. وعلاوة على ذلك، يصبح الخطر كارثة فقط حين تتقاطع آثاره مع شيء ما، سواء كان ذلك كائناً حياً أو أحد الموارد المعرضة للخطر.

تظهر آثار المشكلات المعقدة، مثل الكوارث، في نطاق جغرافي واسع، وتتطلب توظيف الموارد في هذا النطاق بصورة متزامنة. ومن ثم، تعد هذه المشكلات مناسبة فريدة لعمل الجغرافيين العسكريين. وفي حين أن مخططي الطوارئ على مستوى ولاية غالباً ما يكونون على معرفة جيدة بالموارد والقدرات المحلية، فإنهم يمكن أن يفتقروا إلى رؤية بشأن كيف تندرج خططهم في إطار جهد الاستجابة للكوارث في البلاد أو الإقليم على نطاق أوسع. ويمكن قول الشيء نفسه عن مخططي الدولة. وعلى الرغم من أنه يمكن أن تكون لديهم رؤية أفضل بشأن الأصول والقدرات الإقليمية والفيدرالية، فإنهم يفتقرون أيضاً إلى خبرة في التخطيط لحالات الطوارئ على نطاق واسع من أجل تطوير خطة استجابة شاملة تدمج الأصول على المستوى المحلي وعلى مستويي الولاية والدولة، وربما على المستوى الدولي. وعلى الرغم من الافتقار إلى التدريب والخبرة في إدارة حالة معينة من الطوارئ، فإن الجغرافي العسكري، الذي يقوم بدور المخطط للاستجابة للكارثة، يمكن أن يساهم في الاستعداد للاستجابة للكارثة بإدماج فهم مدى الأخطار الطبيعية التي تواجهها منطقة ما ومستواها، ومعرفة كيفية استخدام الأدوات الجغرافية لتطوير خطة الاستجابة الإقليمية. ويوظف الجغرافي العسكري معرفته بآثار التضاريس والطقس على العمليات الجوية والبحرية والأرضية؛ وهي عوامل رئيسية يمكن أن تؤثر في عملية الاستجابة للكارثة. ويمكن للجغرافيين العسكريين استخدام مقاييس وتحاليل مختلفة لتحديد نطاق الكارثة وتقدير مدى تأثيرها. وتعتبر كلتا الخطوتين ضرورية لتطوير خطط الدعم على مستويات متعددة. إن فهم الجغرافي العسكري لآثار الأخطار الطبيعية يمكّنه من تقدير الضعف المحتمل للموارد الموجودة، والاستثمار في الموارد التي ستبقى للاستجابة للكارثة، في حين يستطيع استكمال القدرات التي ضعفت بالاستعانة بإمكانات خارجية.

وبالإضافة إلى اكتساب معرفة الخطر، فإن تنسيق الاستجابة للكوارث على نطاق واسع يتطلب تصور عمليات معقدة في أنحاء المنطقة المنكوبة. وحين يجري تخطيط وتنسيق نشاطات عديد من المشاركين في عملية كبيرة، فإن المعلومات المكانية لا تقدر بثمن، كما أنها أداة معروفة بالنسبة إلى الجغرافي العسكري.

يعد الجغرافيون العسكريون على دراية بالخرائط على أي مستوى عملي، وبالأدوات الجغرافية الأخرى مثل نظُم المعلومات الجغرافية، التي تمكن المخططين من رؤية أبعد من حدود حواسهم الطبيعية وفهمهم الجغرافي المباشر. ولذا، تؤدي نظم المعلومات الجغرافية دوراً أساسياً في تقييم الأخطار والاستجابة للكوارث.

عملياً، أدى الجغرافيون العسكريون دوراً رئيسياً بوصفهم مخططين في الاستجابة الإنسانية لحادث زلزال جنوب آسيا عام 2005 (في كشمير) (Thompson and Halter 2006). ولكن لم تكن هذه هي المرة الأولى في استخدام القوات العسكرية أو الجغرافيين العسكريين في أعمال إنسانية على نطاق واسع (Walker 1992; Gaydosband Luz 1994;DoD 2001; Palka 2005). بعد بداية الخطر، يمكن استدعاء القدرات العسكرية لإكمال القدرات القائمة. وستستخدم القدرات العسكرية على الأغلب خلال المراحل الأولى لـ "دورة إدارة الطوارئ" (انظر الشكل 18-1). وقد سمي هذا في مكان آخر "دورة الاستجابة للطوارئ" (Cutter 2003) أو مجرد "دورة الكارثة" (Alexander 2000). وقد وضع النموذج لتصوير الدورة الكاملة للنشاطات بدءاً من حدوث الكارثة، مروراً بالاستجابة وتخفيف آثار الكارثة، ثم تعزيز الحالة في إعادة بناء المباني والنظم بشكل يقاوم الأحداث المستقبلية.

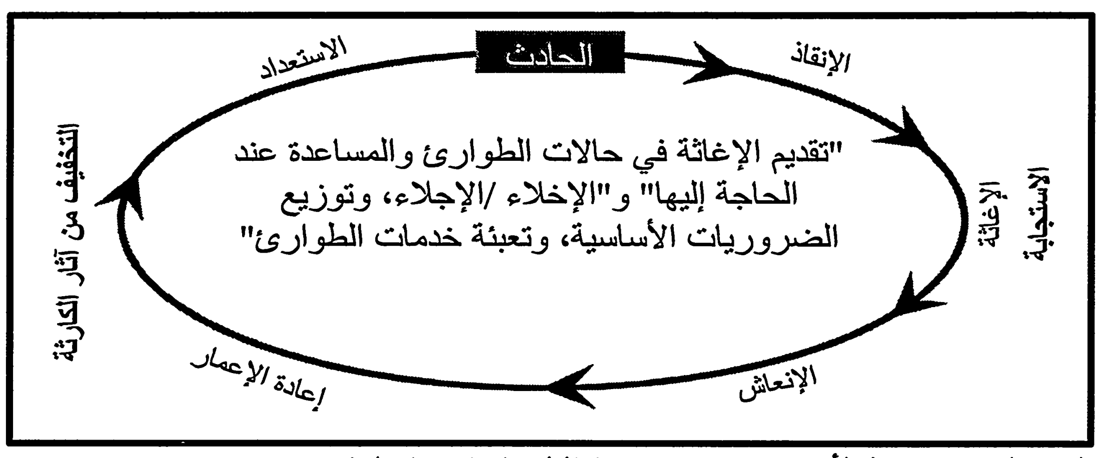
تعرّف **النشرة المشتركة** *Joint Publication 3-07.6* لوزارة الدفاع الأمريكية "المساعدة الإنسانية الخارجية" بأنها مصطلح عسكري مرادف للاستجابة للكوارث؛ أي العمليات التي تهدف إلى «إنقاذ أو تخفيف آثار الكوارث الطبيعية، أو تلك التي من فعل الإنسان، أو الظروف المتوطنة مثل المعاناة الإنسانية والمرض والحرمان الذي يمكن أن يشكل تهديداً خطيراً للحياة، أو الذي يمكن أن يؤدي إلى ضرر فادح أو خسارة أملاك» (DoD 2001: 1-1). في العادة تجد القوات الأمريكية نفسها منخرطة في أعمال الإنقاذ والإغاثة، وإلى حد أقل في مرحلة الإنعاش في هذه الدورة. وتوجد هذه المراحل ضمن الجزء المتعلق بالاستجابة في "دورة إدارة الطوارئ" (انظر الشكل 18-1). تعرف الاستجابة في الأدبيات العلمية بأنها «توفير مساعدة إغاثة طارئة عند الحاجة»، وكذلك

القيام بعمليات «إخلاء وتوزيع الحاجات الأساسية وحشد خدمات الطوارئ» (Alexander 1999: 407).

بحث الجغرافيون العسكريون دور الموارد العسكرية في الاستجابة للكوارث، واستمروا في المساهمة في فهم أفضل لذلك الدور من خلال التعليم والنشرات (Palka 2005). وكما هو موضح في هذا الفصل، يمكن للجغرافيين العسكريين أيضاً المساهمة بشكل جوهري في تخفيف آثار الخطر الطبيعي على المدى البعيد، ولذا يمكنهم التخفيف من حجم الكارثة التي تليه.

الشكل (18-1)

دورة إدارة الطوارئ



المصدر: الصورة مستمدة في الأصل من Cutter (2003)، وقام المؤلف بإجراء تعديل عليها.

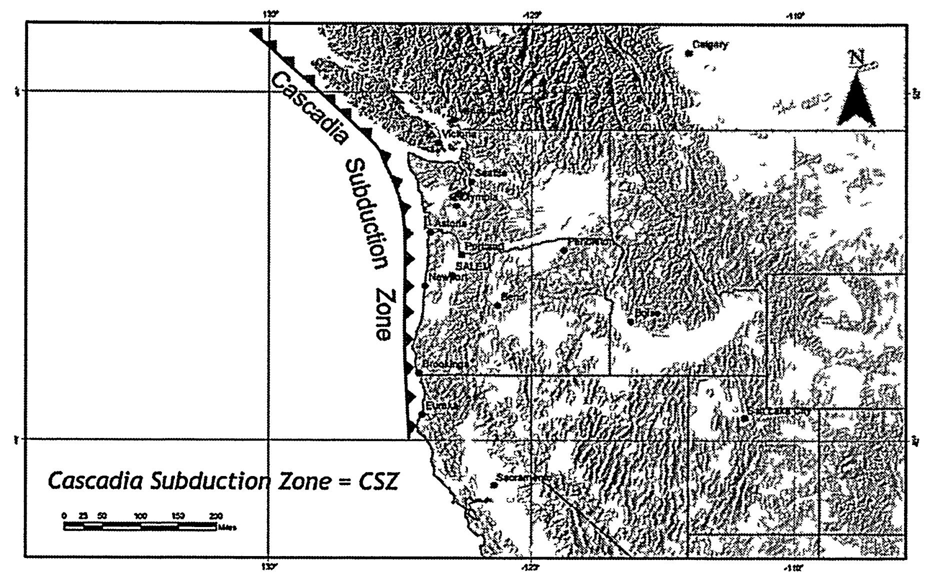
أحداث جديدة: أساس للتخطيط

توضح الحوادث الزلزالية الأخيرة مثل زلزال المحيط الهندي الذي حصل عام 2004 وموجة تسونامي التي تلته، والزلزال الذي حصل في جنوب آسيا عام 2005، التأثير الكبير الذي يمكن أن يحدثه الاضطراب في شرايين الحياة على السكان الذين يتعرضون للكارثة. كما أن هذه الأحداث تحدت قدرة المستجيبين للكارثة في توفير إنقاذ وإغاثة في الوقت

المناسب (Hicks and Pappas 2006;Ozerdem 2006). ويمكن للجغـرافي العسـكري أيضاً تحليل الأحداث وتقييم درجة تعقيد التصدع الناتج من الاندساس الـذي حـدث في منطقة كاسكاديا في الشمال الغربي للمحيط الهادي، وتأثيره المحتمـل في السـكان المحليـين وفي رجال الإنقاذ (انظر الشكل 18-2).

الشكل (18-2)

مجال الاهتمام يصور منطقة انغراز كاسكاديا



المصدر: الصورة من المؤلف.

نتج من زلـزال وتسـونامي المحـيط الهنـدي عـام 2004 خسـارة فادحـة في الأرواح وأضـرار جسيمة في شـرايين الحياة (Balantyne 2006). وكانت آثار الأضـرار منتشـرة على مسافات واسعة لدرجة أن المساعدة الخارجية يمكن أن تكـون موجـودة عـلى مسـافة أبعد مما كان يعتقد أصلاً، وأن المجتمعات المجاورة يمكن أن تكون في واقع الأمر مشغولة في دعم سكانها المحليين الذين تأثروا بالكارثة. كما أن المنطقة الزلزالية على امتداد "خنـدق جاوة" [يتضمن أعمق منطقة في المحيط الهندي وهي ذات نشاط زلزالي] الذي أثار زلـزال تسونامي عام 2004، هي منطقة مشابهة من الناحية الجيولوجيـة للبنيـة التـي نتجـت مـن اندساس صفيحة خوان دي فوكا Juan de Fuca تحت صفيحة أمريكا الشمالية شمال غربي

المحيط الهادي. وقد أنتجت منطقة الاندساس في كاسكاديا التي تمتد تقريباً من منطقة موندیسینو فراکشر Mondicino Fracture إلى الجنوب إلى إكسبلورار ريدج Explorer Ridge في الشمال زلازل قوية وموجات تسونامي في الماضي.

الشكل (18-3)

انهيارات أرضية في كشمير عطلت شرايين الحياة البرية وأوقفت تدفق فرق الإنقاذ وإمدادات الإغاثة



المصدر: الصورة من المؤلف.

في صباح يوم السبت 8 أكتوبر 2005، ضرب زلزال بقوة 7.6 درجات منطقة كشمير في شمالي باكستان والهند. وعلى الرغم من أن خاطري (Khattri 1999) أشار في السابق إلى احتمال كبير بحدوث زلزال قوي يؤدي إلى مقتل عدة آلاف من سكان جنوب آسيا وينجم عنه دمار اقتصادي كبير، فإن هذا الزلزال أخذ باكستان على حين غرة. ومن المحتمل أن تكون المفاجأة ناجمة عن حقيقة أنه لم يحصل حادث بهذا الحجم من قبل في المنطقة منذ 450-500 سنة (Bilham and Hough 2006; Thakur 2006). وقد أثار هذا الزلزال الذي ضرب منطقة جبلية في باكستان والهند عديداً من الانزلاقات الأرضية، مما جزأ شبكة الطرق الشمالية-الجنوبية، وعطّل بشكل كبير جداً التدفق الأرضي لفرق الإنقاذ ومؤن الإغاثة في المنطقة (انظر الشكل 18-3). كما أصبح عدد من الجسور غير ثابت

وقطعت خطوط الهواتف. وقد أدت الأعطال في شـرايين الحيـاة هـذه إلى عـزل عـدد مـن الأودية والقرى أو قطعها عن مواد الإغاثة من الكارثة من الناحية المادية والمعلوماتية.

تشبه تضاريس كشمير الجبلية بشكل كبير سلسلة الجبـال السـاحلية Coast Range Mountains في أوريغون. ويمتد كثير من الطرقات وخطـوط الطاقـة والخطـوط الهاتفيـة التي تربط وادي ويلاميت الآهل بالسكان مع المجتمعات على طول ساحل أوريغون، على طول قاع الوادي الذي تحيط به تضاريس حادة الارتفاع (انظر الشكل 18-4). وبصـورة مماثلة، فإن "طريق الساحل الباسيفيكي السـريع" (مثـل الطريـق السـريـع 101) الـذي يربط بين الشمال والجنوب على طول الساحل، يحتضن أطراف تضـاريس حـادة الارتفـاع ويعتمد على الجسور لتجاوز رؤوس الصخور البازلتية. إن احتمال قطع شـرايين الحياة من الشمال إلى الجنوب ومن الشـرق إلى الغرب في هذه المنطقة كبير جداً. وفي الحقيقـة، وحتـى من دون هزات زلزالية، فإن عديداً من الطرق غير صالح للاستعمال مؤقتاً بسبب الأمطـار الشديدة خلال عواصف الشتاء.

شـرايين الحياة

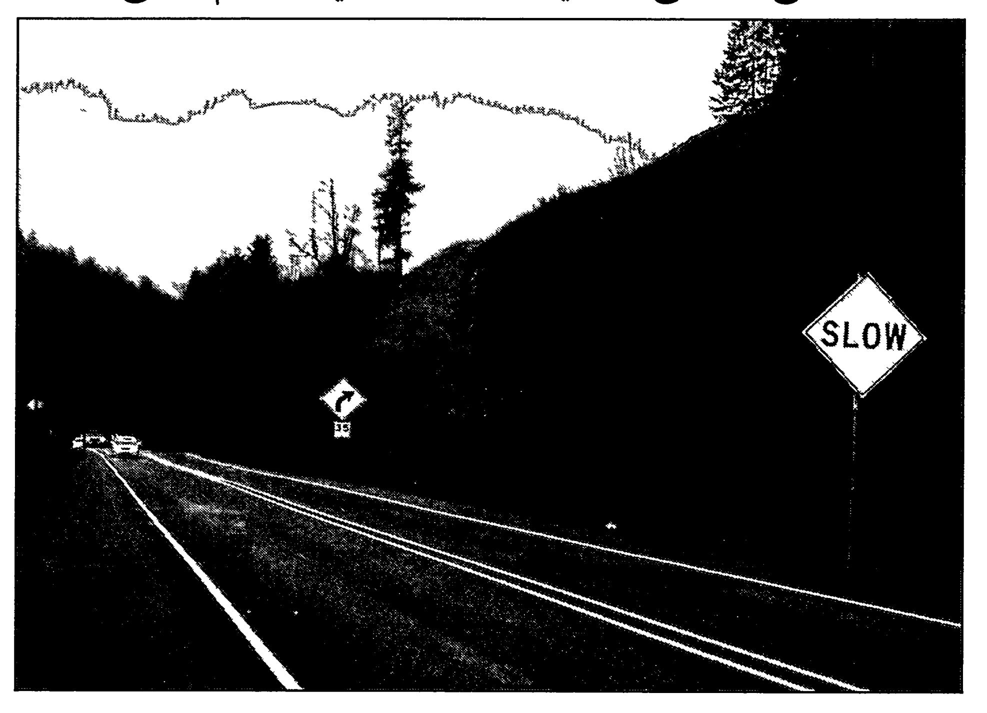
شـرايين الحياة عناصـر ضـرورية للحياة اليومية، ولكن قد تكون لها أهمية أكبر عقب أي كارثة. وتعتبر شـرايين الحياة «نظُماً أو شبكات تتيح تنقل الناس والبضـائع والخـدمات والمعلومات التي تعتمد عليها نشاطات الصحة والسلامة والرفاهيـة والاقتصـاد» (Platt 1991; 173). تشتمل شـرايين الحياة التـي تـدعم البنيـة التحتيـة عـلى: الطـرق والجسـور وخطوط السكة الحديدية ومرافق الموانئ ونقل الطاقة الكهربائية والميـاه ونظـم الصـرف الصحي وخطوط النفط والغاز الطبيعي ونظم الاتصالات.

في أثناء سيناريو الكارثة، تربط شـرايين الحياة المناطق المنكوبة مع العالم الخارجي؛ لذا حين تقطع كارثة ما شـرايين الحياة، يواجه المنقذون تحدياً في إحضار متطلبـات الاسـتجابة للكارثة والموارد لأولئك المحتاجين. كذلك يؤثر تـدهور شـرايين الحيـاة بشـدة في قـدرة

المجتمعات على نقل حاجاتها للجهات التي تهب لإنقاذها. وفي حين أن المقاربات المنهجية ليست عنصراً من عناصر هذا البحث، فإن لها آثاراً على شرايين الحياة في تقييم الآثار الزلزالية (Menoni et al. 2002)، وإذا استكملت فإنها تخدم أغراض إتمام هذا البحث.

الشكل (18-4)

سلسلة الجبال الساحلية في المنطقة. غالباً ما تتسبب حوادث التخريب الضخمة بإغلاق الطرق، ويمكن لعديد من الأحداث أن تعزل المجتمعات. سيتسبب زلزال كبير بعديد من الانزلاقات الأرضية في هذه المنطقة. وتأثيرات النشاطات البشرية، كما في الطريق المقطوع/ المصنوع المبيَّن في الصورة، قد تؤدي إلى تفاقم الوضع



المصدر: الصورة من المؤلف.

كما أن التخطيط للاستجابة لكارثة متعلقة بخطر ساحلي كبير له عنصر زمني أيضاً. إذا وقعت حادثة كاسكاديا الكارثية خلال أشهر الصيف، فإن على مديري الطوارئ المحليين وصانعي القرار المتعلق بعمليات الإغاثة الأخذ في الاعتبار حاجات عدد من الناس أكبر مما تشير إليه البيانات الإحصائية، وذلك بسبب وجود عدد كبير من السياح

العابرين. أما سيناريو إغاثة لحادثة كاسكاديا في فصل الشتاء فمن شأنه إيجاد مجموعة فريدة من متطلبات التخطيط. وفي حين أن السكان المتضررين يعكسون بيانات تعداد السكان، فإن قدرتهم على البقاء على قيد الحياة ستتضاءل بشكل كبير حين يتعرضون لظروف فصل الشتاء مقارنة بالظروف خلال الفصول الأخرى. وينبغي أن تشتمل الاعتبارات الأخرى للاستجابة لكوارث الشتاء على خسارة محتملة للخطوط الأرضية بسبب الثلوج أو الطرق الجليدية وخسارة شرايين الحياة الجوية في بعض الأحيان بسبب انخفاض العلو الآمن للطائرات والرؤية المنخفضة. وهناك كثير من شرايين الحياة من المناطق الأقل تأثراً تمر بشكل عابر خلال سلسلة الجبال الساحلية. وحين تتعرض التربة الرطبة لهزات، فإن احتمال سقوط المنحدر والانزلاقات الأرضية يصبح عالياً جداً. ومن المحتمل أن تسد الانهيارات الأرضية في سلسلة الجبال الساحلية شرايين الحياة البرية بين الشرق والغرب في المنطقة لمدة طويلة.

ومع قطع شرايين الحياة على الأرض، وتقلص قدرات أسطول السفن والبنية التحتية للموانئ، من المحتمل أن يلجأ مخططو الاستجابة للكوارث إلى الإمكانات الملاحية لخلق جسر جوي فوق سلسلة الجبال الساحلية. ومن المحتمل أن تستخدم هذه الإمكانيات في الجسر الجوي هذا لإيصال مؤن الإغاثة والمعدات إلى المناطق المنكوبة وإخلاء أي إصابات لا تتوافر معالجة محلية لها في موقع الكارثة.

الأضرار المتوقعة وجدوى شرايين الحياة: حالة كاسكاديا، شمال غربي المحيط الهادي

في حين أن كلاً من وادي ويلاميت وساحل أوريغون معرض للأخطار من التدمير المحتمل من منطقة تصدع اندساس في كاسكاديا، فإن المناطق الساحلية ستتعرض لضرر إضافي لأنها معرضة للخطر أيضاً من موجة تسونامي محتملة. تصل تقديرات الأضرار على مستوى الولاية إلى 8 آلاف مصاب، و300 ألف منزل مدمر، وما يربو على 12 مليون دولار خسائر اقتصادية (Wang and Clark 1999). وتشير دراسات أيضاً إلى أن 65٪

فقط من أجهزة الشرطة ومحطات الإطفاء ومراكز عمليات الطوارئ، بالإضافة إلى 66٪ من المدارس و82٪ من الجسور و71٪ من محطات البث الإذاعي ستكون صالحة للاستخدام في اليوم الذي يلي الزلزال (Wang and Clark 1999). وحين يضيف مديرو الطوارئ الخسائر من موجة تسونامي الناجمة عن الزلزال، فإن المشكلات التي تواجهها المجتمعات الساحلية ستزداد بصورة كبيرة.

تقع مدينة نيوبورت (ولاية أوريغون)، مركز مقاطعة لينكولن، في منتصف ساحل أوريغون (انظر الشكل 18-5). ويبلغ عدد سكانها 9532 نسمة (2000 US Census)؛ لكن سياح الصيف والسكان الذين يتم استخدامهم موسمياً يرفع عدد السكان المعرضين لخطر حادث كبير بـ 6500 نسمة. إن زيادة عدد السكان المعرضين للخطر له انعكاسات على عملية التخطيط والموارد بالنسبة إلى مخططي الطوارئ. ويقدر مديرو الطوارئ في مقاطعة لنكولن عدد الوفيات من جراء حادث كاسكاديا كبير بنحو 5000 شخص (Hawley 2008). وتشير التقديرات الحالية إلى أن مستشفى نيوبورت ومطارها سيظلان صالحين للاستخدام، على الرغم من أنهما سيكونان في حالة متدهورة، وفي ما يلي تقييم نوعي لشرايين الحياة:

المياه والمياه العادمة

تنقطع المياه الصالحة للشرب بسبب كسور الأنابيب. كما أن الآبار بالقرب من الساحل يمكن أن تشهد تسرب المياه المالحة، ما يجعلها غير صالحة للاستعمال. كما ستتعطل نظم نقل ومعالجة المياه العادمة، بما في ذلك نظم الصرف الصحي، ويمكن أن تشكل خطراً صحياً كبيراً إذا تعرضت مصادر المياه للتلوث.

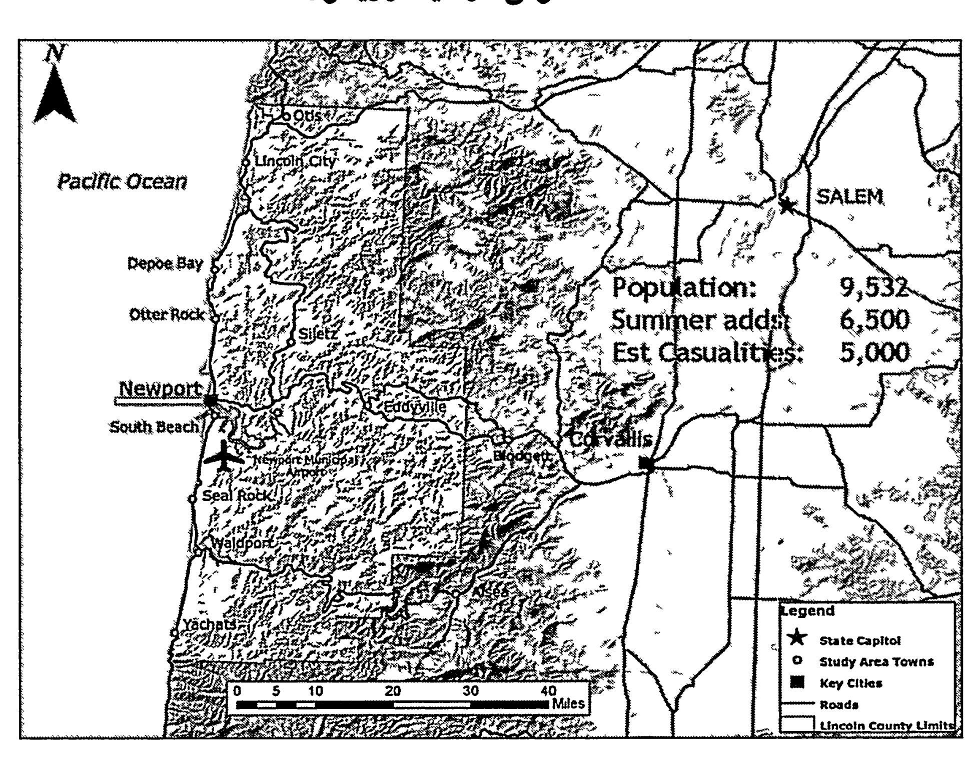
الاتصالات

ستتعرض وسائل الاتصالات للتدهور بسبب فقدان أبراج البث والاستقبال وخطوط الإرسال وفقدان الطاقة. ومن شأن هذا أن يحد من قدرة المجتمعات المتضررة

على إرسال المعلومات المتعلقة باحتياجاتها، كما يسبب تحدياً للمنقذين في تقييم احتياجات المساعدة ووضع أولويات لأعمالهم. لكن من المثير للملاحظة أنه بعد تسونامي المحيط الهندي عام 2004، تمت إعادة خدمة الهاتف الخليوي بسرعة، ما عوّض عن العطل الذي أصاب الهواتف الأرضية (Ballantyne 2006).

الشكل (18-5)

مقاطعة لنكولن (ولاية أوريغون)



المصدر: الصورة من المؤلف.

نظُم توزيع الوقود

يسبب الزلزال وموجة تسونامي ضرراً كبيراً في نظم إيصال الوقود وتوزيعها. كما سيلحق التدمير بمرافق التخزين، وإذا لم يكن ذلك في القدرة التخزينية، فإنه سيكون في القدرة على توزيع الوقود. وسيؤثر النقص في الوقود بشكل كبير في قدرة النظم المختلفة (مثل السيارات والمولدات وأجهزة التدفئة) على دعم جهود الإغاثة.

الطرق

تضم شرايين الحياة الأرضية الأساسية في مقاطعة لنكولن من وادي ويلاميت الطرق السريعة رقم 18 ورقم 22 التي تربط مدينة سالم بمدينة لنكولن، والطريق السريع رقم 20 من كورفاليس إلى نيوبورت، والطريق السريع رقم 34 من كورفاليس إلى والدبورت. كما يربط الطريق السريع رقم 101 المدن الساحلية. ومن شأن الانهيارات الأرضية في سلسلة الجبال الساحلية التي تحدثها الزلازل، بالإضافة إلى تصدع سطح الطرق بسبب الاهتزازات والإزاحة والخسارة الناجمة عن الإذابة أو الإسالة، من شأن ذلك كله أن يحدث عطلاً مؤقتاً في حركة مرور السيارات. ويشير الخبراء إلى أن جسر خليج ياكوينا سيدمر، إن لم يكن بفعل الهزات الزلزالية، فإنه سيكون بفعل تسونامي (Wang and Clark 1999; Wood and Good 2004). كذلك، فإن جسوراً أصغر يمكن أن تشهد نتائج مماثلة. ويتعين على المخططين توقع أن جميع الطرق لن تكون صالحة للاستخدام أو على الأقل ستكون مجزأة.

خطوط السكة الحديدية

تعرضت خطوط السكة الحديدية خلال زلزال وتسونامي المحيط الهندي للالتواء وأصبحت مثل القضبان الملتوية التي تستخدم في تنظيف الأنابيب (Ballantyne 2006). وبطريقة مماثلة، ستكون نظم السكة الحديدية المؤدية إلى الساحل غير صالحة للاستخدام على الأرجح لفترة طويلة. لكن الأراضي المسطحة التي بنيت عليها الخطوط الحديدية يمكن أن توفر خطوطاً برية للسيارات، إذا كانت جسور السكة الحديدية غير مدمرة بشكل كبير ولم تجعلها انهيارات المنحدرات غير صالحة للاستخدام.

المطارات

يقع مطار نيوبورت فوق منطقة مرتفعة يعود تكوينها إلى العصر الجليدي وهي على ارتفاع 160 قدماً عن سطح البحر. إن استقرار وتكوين المنطقة الواقعة تحت السطح يقلل

من الإذابة أو الإسالة، كما أن حقيقة وجودها فوق المناطق المتوقع أن تغمرها المياه بسبب تسونامي تشير إلى أن المطار سيكون صالحاً للاستخدام بعد حادث كاسكاديا، على الرغم من أنه سيكون في حالة متدهورة. أما برج المراقبة وعناصر المساعدة الملاحية فستكون على الأرجح مدمرة، ولكن مدرج المطار سيظل صالحاً للاستخدام. وسيكون المطار قادراً على استقبال الطائرات العسكرية من طراز جلوبماستر C-17 Globemaster (التي تحتاج إلى مدرج طوله 3500 قدم على الأقل)، وطائرات هرقل C-130 Hercules (وتحتاج إلى مدرج طوله 3000 قدم على الأقل)، وطائرات جيه سبارتان C-27 J Spartan (وتحتاج إلى مدرج طوله 1800 قدم على الأقل)، وذلك بفضل مدرجَيه المتوافرين بطول 5400 قدم و3000 قدم.

مرافق الميناء

يشير تحليل نظم المعلومات الجغرافية (Wood and Good 2004) إلى أنه لا الزلزال ولا التسونامي الذي يتبعه سيدمر معظم مرافق الميناء على طول شارع الخليج في نيوبورت، بما في ذلك الأحواض والوقود والمستودعات المبردة والطاقة ومرافق الصيانة والإصلاح ولوازم البحرية. ومن الممكن أن يؤدي تقلص عمق القناة الرئيسية بسبب سقوط حافة القناة والحطام إلى جعلها غير صالحة للاستخدام من قبل أسطول الصيد. أما القوارب غير الراسية خلال موجة تسونامي فتظل صالحة للاستخدام.

مفهوم الجسر الجوي

بعد انتهاء المقابلة مع مدير الطوارئ في مقاطعة لنكولن، اكتشف جيم هولي (Jim Hawley 2008) ومسؤولو الولاية أنه في حين يتوافر لدى مقاطعة لنكولن خطة استباقية لإيواء الأشخاص المتضررين في المنطقة، لم تكن هناك خطة على نطاق واسع لإكمال أو إعادة ربط شرايين الحياة إلى نيوبورت أو المجتمعات الساحلية الأخرى. ومن ثم، قدّم المؤلف توصية لتوفير خطة استجابة شاملة تستخدم الأصول الإقليمية الداخلية

والخارجية لاستعادة شرايين الحياة إلى المنطقة الساحلية المعزولة، من خلال استخدام البيانات التي تم جمعها خلال المسوحات والمقابلات التي أجريت في الموقع، ومراجعة الدراسات العلمية لجهود الاستجابة للكارثة السابقة، وإدماج خبرة الاستجابة العملية للكارثة على نطاق واسع.

بعد تصدع كاسكاديا الواسع، يمكن أن يكون العائق الفوري لمجهودات الاستجابة على نطاق واسع للمجتمعات الساحلية في أوريغون هو خسارة شرايين الحياة المتعلقة بالاتصالات. إن تدفق المعلومات الدقيقة ضروري لتنسيق الاستجابة للكارثة. وفي غياب نشر تقارير دقيقة حول الأضرار الحقيقية، فإنه يتعين على العاملين في الإنقاذ الاعتماد على تقديرات مستمدة سابقاً للأضرار، إلى أن ترد تقارير تؤكد الخسائر الحقيقية. لن تتعطل الاتصالات بسبب فقدان البنية التحتية على طول الساحل وحسب، ولكنها يمكن أن تتعطل أيضاً بسبب تدهور المرافق والبنية التحتية في وادي ويلاميت الآهل بالسكان أيضاً.

ومما يزيد من حدة تقييم الأضرار المتفاقمة وجهود الاستجابة خسارة استخدام الطرق الواصلة بين الشرق والغرب، والتي تربط بين وادي ويلاميت عبر سلسلة الجبال الساحلية وصولاً إلى المجتمعات الساحلية. وتشير الأبحاث والملاحظات السابقة إلى أن الضرر الهائل الذي تسببه الزلازل أو التصدع الذي يصيب الأرض سوف يعطل شرايين الحياة هذه. ومن شأن كلا الأمرين – أي فهم الموقف على الأرض، ومتطلبات الإنقاذ الفورية التي تتجاوز القدرة المحلية – أن يحصر اعتماد المنقذين في البداية على جسر جوي في خطة الاستجابة للكارثة.

على الأرجح، سوف تأتي مواد الإغاثة الأرضية والجوية في حالة حادث كبير من المناطق الأقل تضرراً في أوريغون الشرقية أو حتى من خارج الولاية. وعند تدفق هذه المواد إلى المناطق المتضررة، فإن الميل لوقفها وتقديم العون إلى وادي ويلاميت الآهل بالسكان سيكون بالغ الصعوبة. وفي الحقيقة، فإن هذه الإجراءات ستكون خطوة أولى منطقية. يعتبر وادي ويلاميت مركز السكان والحكومة في ولاية أوريغون، ويمكن القول

إنه الصلة المهمة لاستعادة القدرة الوظيفية والحيوية الاقتصادية. ولذا، ومن أجل ضمان أقصى درجات الفاعلية والكفاءة في الإغاثة، يتعين على مخططي الإغاثة الاعتماد في البداية، على نطاق واسع، على خطة الاستجابة لأوريغون الغربية التي تدعم الاستجابة القريبة والعميقة في الوقت نفسه. كما يتعين على مخططي الاستجابة إيجاد جسر جوي، شريطة أن تتجنب بعض الأصول الملاحية عمداً متطلبات الإغاثة في وادي ويلاميت، وتوجيه الجهود ومواد الإغاثة خارج نطاق سلسلة الجبال الساحلية إلى المجتمعات الساحلية. ونظراً لأن مطار نيوبورت هو أكبر مرفق جوي على الساحل والأقل هشاشة، فإنه سيظل متماسكاً، وينبغي تخصيصه على أنه منطقة انطلاق أمامية ونقطة التقاء وظيفية يمكن أن يبدأ المنقذون حولها في تجميع النشاطات الإغاثية.

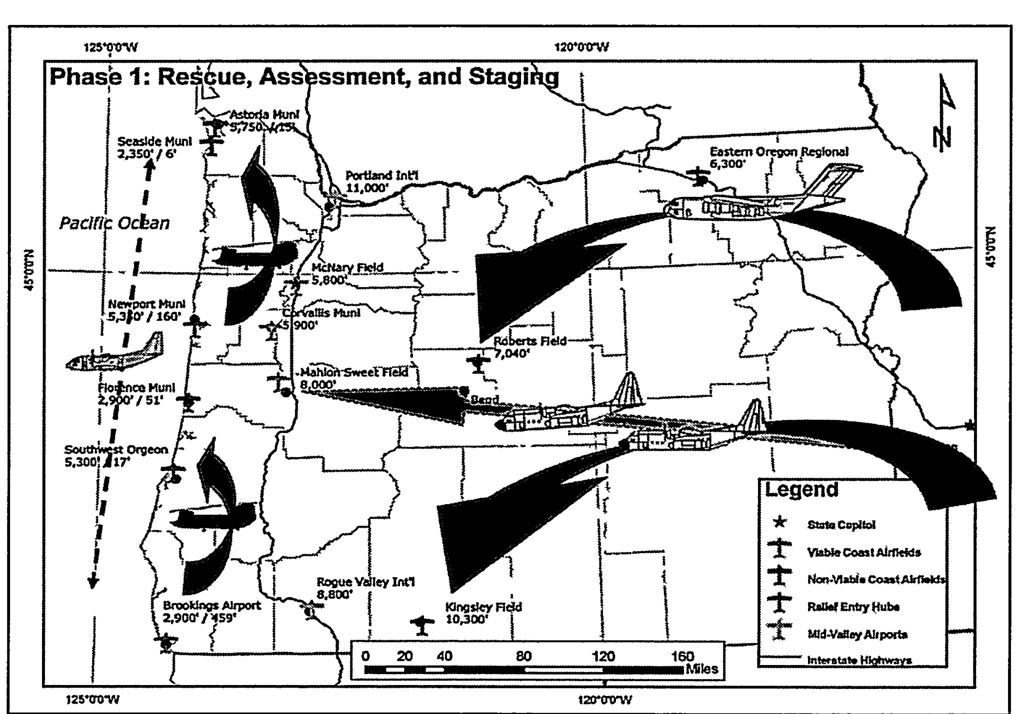
في حالة تصدع كاسكاديا وموجة تسونامي التي تلي ذلك، ينبغي تنفيذ الجسر الجوي للاستجابة في ثلاث مراحل. تتكون المرحلة الأولى من الإنقاذ الأولي وتقدير الضرر على طول الساحل، وإطلاق مواد الإنقاذ والإغاثة. وتشمل المرحلة الثانية نشاطات مستمرة للإنقاذ وتقديم الإغاثة وبناء القدرة للاستمرار في هذه النشاطات. أما المرحلة النهائية، فتشمل النشاطات التي تركز على الإغاثة والتعافي من آثار الحادث، والاستعداد لإعادة البناء. إن لكل مرحلة فرضياتها، والتي تعد ضرورية لمتطلبات التخطيط، وتمثل أفضل تقدير للظروف المتوقعة بما يستند إلى الخبرة والدليل التطبيقي في كوارث مماثلة. تشمل مهمات المرحلة الأولى الإنقاذ المبدئي، وتقدير الأضرار على طول الساحل، وإطلاق عمليات الإنقاذ ومواد الإغاثة (انظر الشكل 18-6).

تشمل النشاطات التي تقوم بها أطقم الطائرات كل واحدة من هذه المهمات. فعلى سبيل المثال، حين تتحرك الطائرة العمودية في المنطقة الساحلية المتضررة، ستكون محملة بمواد الإغاثة التي سيتم إسقاطها في قواعد الانطلاق. سيلاحظ طاقم الطائرات أثناء الطريق وحين التوقف في الأمكنة المقصودة، الظروف القائمة ليجمعوا أيضاً تقديرات عن الخسائر ويدعموا احتياجات الناس على الأرض. وقبل المغادرة من الساحل، تخلي

الطائرات أكبر عدد من الإصابات البالغة قدر الإمكان، إلى مرفق طبي. وتشمل الافتراضات لهذه المرحلة أن تكون مطارات مركز الدخول صالحة؛ مطار واحد في وسط الوادي يمكن أن يستقبل طائرات تقلع وتهبط في مسافات قصيرة. ويمكن لطائرات شينوك التابعة للحرس الوطني في أوريغون الانتشار في مواقع أمامية من مطارها في بيدلينتون بأوريغون. ويمكن أن يأتي النقل الجوي والشحن من خارج الشمال الغربي للمحيط الهادي؛ أما الحركة على الأرض بين المجتمعات الساحلية وإليها، فغير موجودة أو مقيدة للغاية.

الشكل (18-6)

خريطة تصور الإجراءات خلال المرحلة الأولى من مفهوم الجسر الجوي



المصدر: الخريطة من المؤلف.

مثل كثير من دورات إدارة الطوارئ، فإن المهمات التي تنفذ خلال الاستجابة لكارثة على نطاق واسع، ليست متميزة أو تمثل جهوداً متسلسلة، ولكنها أحداث متداخلة في كثير

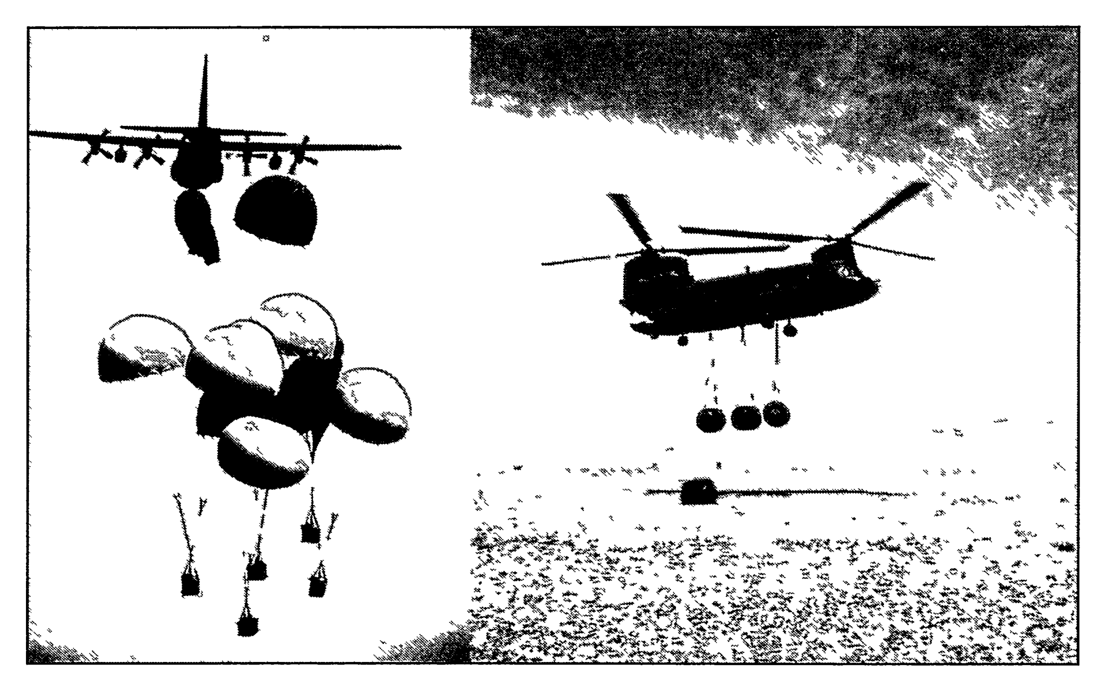
من الأحيان وشبه متزامنة. لكن إجراءات معينة في بعض الأحيان مثل وضع الطائرات في قواعد أمامية، يمكن أن يحصل فقط إذا تمت مواجهة الظروف الحرجة أو إذا تحققت القدرات. إذا كان بالإمكان إعادة تموضع الطائرات العمودية الأمريكية التابعة لخفر السواحل بين حدوث الزلزال وموجة تسونامي التالية، فإن بالإمكان تقديم الإنقاذ للمجتمعات المتضررة. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن لهذه الطائرات جمع المعلومات وإرسالها حول الأضرار.

ومن أجل توفير تغطية سريعة، والحصول على معلومات حول صلاحية المطار على طول الساحل بأكمله، وتقدير الأضرار، ينبغي استخدام طائرات ذات أجنحة ثابتة. يمكن للطائرات ذات الأجنحة الثابتة الانطلاق من مطارات وادي ويلاميت أو المطارات شرقي سلسلة جبال كاسكيد أو من خارج المنطقة. ونظراً للمسافات الطويلة، يتعين استخدام الطائرات من طراز CH-47 التابعة لخفر السواحل لتأكيد استطلاع طائرات الأجنحة الثابتة، وإيصال مؤن الإغاثة ذات الأولوية مثل الوقود والغذاء والمياه واللوازم الطبية وإخلاء الإصابات الخطيرة. ويمكن لهذه الطائرات نفسها نقل فرق الارتباط إلى مناطق متقدمة. ستجمع فرق الارتباط الأمامية معلومات حول متطلبات الإغاثة وإرسال هذه المعلومات لمناطق دعم الكارثة من أجل تحديد المصادر مستقبلاً. وفي حين تستمر طائرات CH-47 بالتحليق في مهمات الإنقاذ، يمكن بناء مؤن الإغاثة والقدرات في مناطق الانطلاق. وإذا كانت المطارات في نيوبورت وبروكينغز قادرة على استقبال الطائرات ذات الأجنحة الثابتة، يمكن للمنقذين إيصال مؤن الإغاثة الضخمة وإخلاء أعداد أكبر من المصابين ذوي الإصابات البليغة. أما في الأمكنة التي لا تستطيع استقبال الطائرات ذات الأجنحة الثابتة، فيمكن للمنقذين استخدام نظام توصيل الحاويات CDS أو إسقاط المؤن من الجو (انظر الشكل 18-7) لزيادة حجم مؤن الإغاثة. تستمر جهود الإنقاذ في المرحلة الثانية، ولكن من المرجح أن نرى تحولاً في الأولويات نحو زيادة الإغاثة وبناء القدرة (انظر الشكل 18-8).

ويتعين على المخططين أيضاً عمل افتراضات رئيسية خلال هذه المرحلة. ومن بين هذه الافتراضات أن اثنين من مطارات وسط وادي ويلاميت يمكن أن يستقبلا طائرات ذات أجنحة ثابتة، واثنين من مطارات الساحل صالحان للاستخدام، مع الأخذ في الاعتبار أن من المرجح أن يكون إما مطار نيوبورت وإما مطار بروكينغز قادراً على استقبال الطائرات التي تقلع وتهبط في مدارج قصيرة المدى.

الشكل (18-7)

أساليب الإمداد الجوي. الصورة اليسرى: طائرة من طراز AC-130 تقوم بتسليم إمدادات بوساطة نظم تسليم الحاويات (صورة من وزارة الدفاع). الصورة اليمنى: طائرة من طراز CH-47 Chinook في أفغانستان تقوم بعملية تسليم حمل معلق بالحبال يحتوي 500 جالون من الوقود



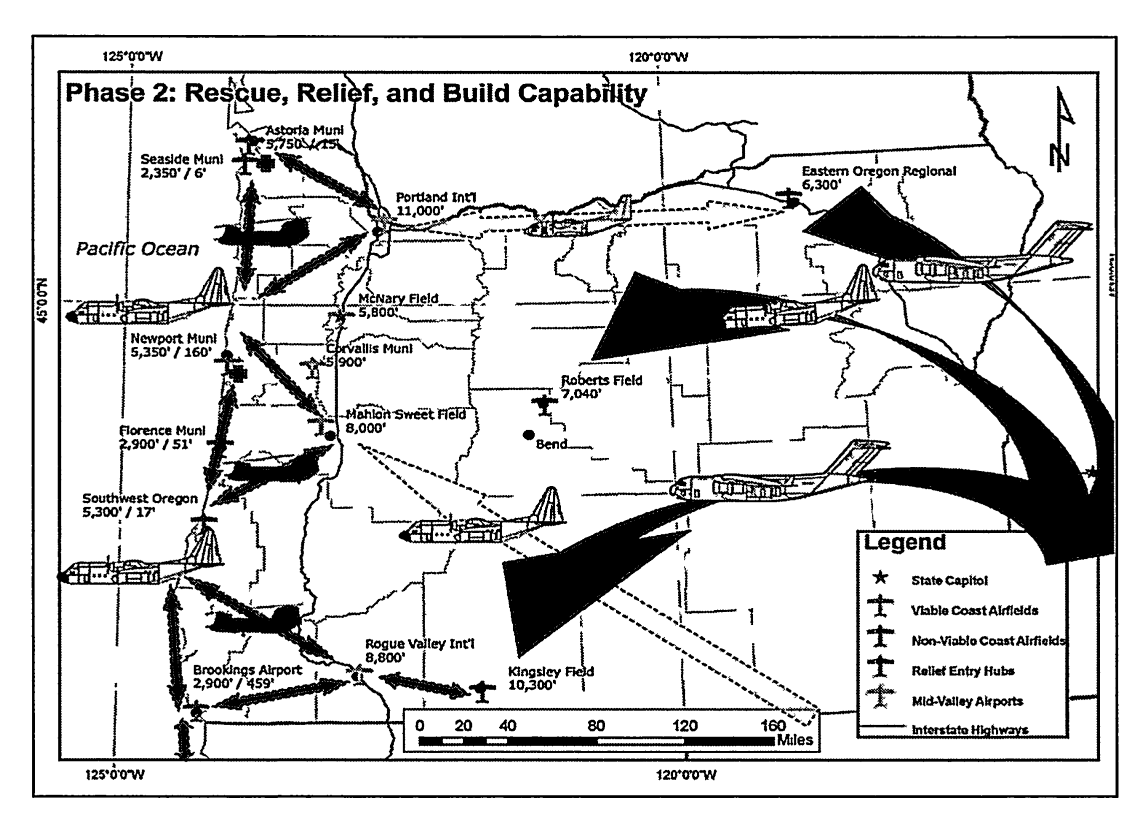
المصدر: الصورة من المؤلف.

وفي حين يزداد توافر الوقود والقدرة على دعم الحياة، يمكن نشر طائرات CH-47 التابعة لخفر السواحل في مواقع أمامية من بيندليتون حتى أمكنة في وسط الوادي. ومن

شأن ذلك تقصير المسافات التي تطير فيها الطائرات لتصل إلى منطقة الكارثة بشكل كبير، ولذا يزداد وقت تحليق هذه الطائرات وقدرتها على الشحن.

الشكل (18-8)

خريطة تصور الإجراءات خلال المرحلة الثانية من مفهوم الجسر الجوي



المصدر: الخريطة من المؤلف.

وفي حين تزداد القدرة وتتعزز النظم اللوجستية في المنطقة الساحلية، يمكن للمنقذين البدء بإنشاء مرافق أمامية للعلاج الطبي على الساحل. وينبغي أن يكون أحد هـذه المرافـق في نيوبورت نظراً لموقعها المركزي واحتمال بقاء المطار صالحاً للاستخدام. ثمة عامـل آخـر يميز المكان، وهو حجم الإصابات ونوعها. وفي حين تفتح الطواقم الخطوط البرية المؤدية إلى وسط وادي ويلاميت، وتقوم بإصلاحات للمطارات، يقوم المسؤولون عن العمليـات اللوجستية بزيادة كميات الوقود بصورة كبيرة. كـما أن الزيـادات في قـدرة تخزين الوقـود

وتوزيعه ينبغي أن تحصل في قواعد لوجستية أمامية على طول الساحل. وعبر نشر طائرات CH-47 في مواقع أمامية، تستطيع طواقم الطائرات البدء بتنفيذ سلسلة من "الطرق الدائرية" من وسط الوادي إلى الساحل لإيصال المؤن وإخلاء المصابين. ومع وجود أجزاء قصيرة من الطرق وتوافر الوقود في المواقع الأمامية، يمكن لطواقم الطائرات توسيع عمليات الاستطلاع لتشمل مزيداً من المناطق الريفية في سلسلة الجبال الساحلية. وفي حين يقوم الطيارُون بتحديد المتطلبات، يمكن للمنقذين الاستمرار في استخدام نظم إيصال الحاويات CDS من أجل توفير مؤن الإغاثة للمجتمعات المعزولة. وبالنسبة إلى المهمة الرئيسية اللازمة للانتقال من المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة؛ فهي الاستعداد لدفع قدرات قوية إلى الأمام في قواعد على طول الساحل. ويتعين على المخططين أن يتوقعوا حدوث ذلك بعد خمسة أو ستة أيام من الزلزال.

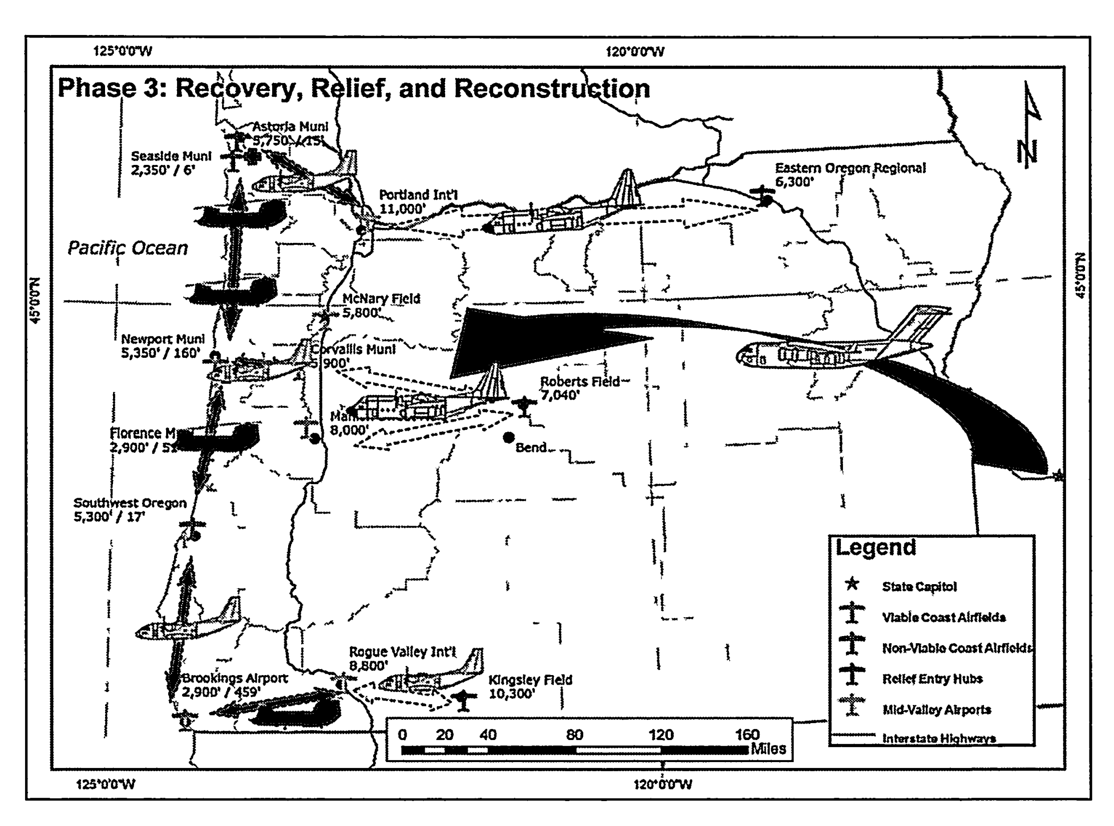
تشمل المرحلة الثالثة فترة انتقالية، بحيث يركز المنقذون بشكل أقل على الإنقاذ، وبشكل أكبر على الإغاثة، في الوقت الذي يستعدون فيه ويهيئون الظروف للتعافي وإعادة البناء (انظر الشكل 18-9). في العادة، تميل المساعدات العسكرية إلى الانتهاء التدريجي عند انتهاء عمليات الإغاثة. ويتعين على المخططين، خلال هذه المرحلة، توقع وجود أربعةٍ من مطارات وسط الوادي تستطيع استقبال الطائرات ذات الأجنحة الثابتة، واثنين من مطارات المنطقة الساحلية يمكن أن يستقبلا الطائرات التي تقلع وتهبط في مدى قصير STOL، وكذلك وجود مخزون كبير للوقود فيها. وينبغي أن تتوافر رعاية طبية روتينية في المستشفيات الأمامية على الساحل، كما أن مستشفيات وسط الوادي تستطيع أن تفي بجميع مستلزمات غرف العمليات الجراحية.

وبعد القيام بالإصلاحات المؤقتة وتنظيف الحطام، يمكن للطريقين السريعين 5 و84 استيعاب سيارات الشحن التجارية، بحيث تتمكن مواد المساعدة والتعافي وإعادة الإعمار الضخمة من التحرك على الطرق البرية في المنطقة. ومع تركيز أقل على الإنقاذ وزيادة توافر الوقود، تتمكن طواقم تنظيف الطرق من توفير وصول محدود عن طريق البر

من وادي ويلاميت إلى الساحل. في المقابل، تكون بعض أجزاء الطريق السريع 101 صالحة للاستخدام؛ إذ إن بعضها تكون مغلقة فقط بسبب كتل كبيرة من المواد التي نتجت من الحادث والجسور المهدمة.

الشكل (18-9)

خريطة تصور الإجراءات خلال المرحلة الثالثة من مفهوم الجسر الجوي



المصدر: الخريطة من المؤلف.

خلال المرحلة الثالثة ينسق المنقذون مع مسؤولي العمليات اللوجستية من أجل نقل الإمدادات الرئيسية ومناطق إطلاق العمليات من أوريغون الشرقية إلى أمكنة في وادي ويلاميت. وستشهد المطارات العاملة في الساحل تكدساً كبيراً للقواعد اللوجستية الأمامية. كما أن النقل الجوي في مسرح العمليات المشتركة سوف يشهد انكماشاً كبيراً ويستخدم حسب الحاجة، حيث إنه ينبغي أن يكون قادراً على سد معظم الاحتياجات

التشغيلية والطبية واللوجستية. وفي الوقت الذي يستمر فيه ترميم شرايين الحياة، تستمر طائرات CH-47 بالطيران في الخطوط الساحلية الدائرية، في حين يتم تدعيمها بطائرات من طراز شيرباس C-27 Sherpas. وتكون هذه المرحلة قد استكملت حين تقترب عمليات الإغاثة من نهايتها وينتقل التركيز إلى التعافي وإعادة الإعمار.

ما يتعلق بالتنفيذ

يستند السيناريو كما هو مبين أعلاه إلى فهم جغرافية الأخطار الطبيعية وآثارها الثانوية، وفهم مكان وقوع الكارثة والخبرة العالمية العملية الحقيقية للتخطيط وتنفيذ الاستجابة لخطر مماثل في حجمه. لكن الخطة هي مجرد خطة؛ فالخطط كما هو مبين أعلاه يجب تمحيصها والتحقق من صحتها من قبل مشاركين محتملين. وفي حين أن تكرار التدرب على الخطط الواسعة النطاق مكلفة من حيث الوقت والمال، يمكن للمخططين استخدام التدريبات على نماذج مصغرة أو على الخرائط أو المحاكاة للسماح لجميع المشاركين رؤية أنفسهم وأفعال الآخرين، من أجل تنسيق وعدم تضارب النشاطات في الزمان والمكان. وتعتبر هذه التدريبات ضرورية للتنفيذ الناجح والمساعدة على تجنب متلازمة الخطط الورقية، وهي الميل للاعتقاد أنه إذا كانت هناك خطة مكتوبة فإن المجتمع في حالة استعداد قوية للكارثة (Auf der Heide 1989).

ونظراً إلى أن زلزال كاسكاديا الكبير المحتمل سيؤدي إلى عزل عديد من المجتمعات، فإن الاستعدادات المحلية والاكتفاء الذاتي ضروريان. وبالإضافة إلى ذلك، فإن أي خطة استجابة على نطاق واسع ستكون أكثر نجاحاً إذا تم اتخاذ إجراءات لتعزيز الجهوزية على مستوى المجتمع. عديد من الإجراءات الأكثر فاعلية، وذات المردود المرتفع هي أيضاً منخفضة التكاليف. يتعين على الأفراد توفير صندوق أدوات للطوارئ في منازلهم. كما يتعين على الأحياء عقد اجتماعات استعداد للكارثة يحددون خلالها الناس من ذوي الاحتياجات الخاصة، وأولئك الأشخاص الذين يمتلكون قدرات فريدة من نوعها (طبية، كهربائية، مهارات، هندسية...إلخ) أو موارد مهمة (مولدات أو مناشير كهربائية متنقلة

تعمل بالطاقة). ويمكن لقيادات الأحياء أيضاً مناقشة أو مراجعة التحرك نحو أقرب ملجأ إلى الكارثة. وينبغي أن يكون لدى قادة المجتمعات نظم اتصالات زائدة على الحاجة مع سلطات قضائية عليا في المناطق المتاخمة. كما يتعين على الموظفين الرئيسيين وأعضاء المجتمع التدرب على خطط الكوارث. ويجب على مديري الطوارئ ملاحظة نقاط القصور في الخطة وتنفيذ الإصلاحات، فإن لم يكن في الحال، فعلى وجه السرعة لاحقاً.

لقد مضى 310 سنوات على آخر تصدع في منطقة كاسكاديا. وتشير البيانات إلى أن الفاصل بين تكرار الحادث هو بين 200–1000 سنة، وبمعدل كل 500 سنة (CREW 2005). بدأ العد التنازلي للتأهب، وحان الوقت للبدء بالاستعداد. إن امتلاك خطة استجابة ومراجعة شاملة هي خطوة أولى جيدة.

الفصل التاسع عشر

خي سانه، فيتنام
بحث آثار الحرب البعيدة المدى على المشهد الطبيعي

جوزيف هوبي

مقدمة

لا يوجد تقرير كامل عن معركة من دون تحليل للعلاقة مع الجغرافيا ووصف للبيئة الطبيعية التي جرت فيها. تزخر مثل هذه العبارة بقصص حول جيوش لم تكن مستعدة جيداً وقادة لديهم اطلاع ضعيف، لحقت بهم الهزائم بسبب عناصر المشهدين الطبيعي والبشري. فعلى سبيل المثال، هزمت جيوش قوية بسبب ظروف فصل الشتاء القاسية، أو تعرضت أساطيلها للتدمير بفعل العواصف البحرية، أو أحبطت مناوراتها التي خطط لها جيداً بسبب التضاريس التي لا ترحم، أو الأمراض التي شلت قدرة الدول على الاحتفاظ بجنودها في الميدان. وقد برهن التاريخ على أن هذه الأنواع من الكوارث العسكرية التي تسببها الجغرافيا، تعززت بسبب قلة الوعي الجغرافي، وفي بعض الأحيان الإهمال وعدم كفاءة القادة. هذه الروايات ليست قليلة؛ فعلى مر التاريخ تشاركت الحروب والبيئة بشكل وثيق في علاقة مترابطة. ولذا تأثرت نتائج عديد من المعارك والحملات أو حتى تعرضت لضربة استباقية بتأثير الجغرافيا (Winters et al. 1998).

من الواضح أن دراسة الجغرافيا العسكرية لن تكون كاملة من دون التركيز على تأثيرات البيئة الطبيعية على المعارك والحملات العسكرية. ومع أهمية بحث كيفية تأثير البيئة الطبيعية على العمليات العسكرية السابقة من أجل إدراك كيفية التعامل مع البيئة الطبيعية في الحملات العسكرية المستقبلية، من المهم أيضاً دراسة العكس؛ أي كيف ومتى

أثرت العمليات العسكرية بشكل كبير في المشهد الطبيعي (Hupy 2008). إن دراسة مفصلة لهذه العلاقة - بين المعركة والبيئة - يمكنها توسيع الجغرافيا العسكرية في اتجاهات جديدة ومثيرة.

إن البحث في تأثير النشاطات العسكرية في المشهد الطبيعي هو موضوع يتطلب انتباهاً كبيراً بسبب الظروف الحالية التي تحيط بوزارة الدفاع الأمريكية وعلاقتها مع الجمهور. يوجد شعور متزايد بالوعي البيئي بين الناس في الولايات المتحدة، كما أن الإدارة الصحيحة للأراضي العسكرية ليست استثناءً. ومن المتوقع من وزارة الدفاع الاحتفاظ بمستوى عال من الإشراف البيئي خلال نشاطاتها في أوقات السلم والحرب. تشكل أراضي وزارة الدفاع حوالي 3٪ من الأراضي العامة، كما أن حجم مرافق التدريب محدودة. وقد تأكّلت هذه الأراضي بسبب التجاوزات المدنية على مناطق التدريب العسكرية، في وقت يتطلب التقدم في التقنيات زيادة في مساحة هذه الأراضي. وبغض النظر، يتوقع من وزارة الدفاع تنفيذ خطط وتهيئة الظروف لإدارة بيئية صحيحة للأراضي العسكرية. في السنوات الأخيرة قامت وزارة الدفاع بعمل ممتاز في إدارة منشآتها التدريبية، وبعدد من الدراسات التي بحثت في تأثير التدريب العسكري في المشاهد الطبيعية. وبالفعل، أشارت دراسات حديثة إلى أن التنوع الحيوي - وهو دليل على الإدارة البيئية الجيدة - أعلى في الأراضي العسكرية منه في معظم الأراضي الفيدرالية (Cablk 2009).

في حين تبقى الإدارة الصحيحة لوزارة الدفاع للأراضي قضية مهمة، تبرز بوضوح الحاجة إلى الذهاب إلى أبعد من دراسات اضطراب المشاهد الطبيعية نتيجة للنشاطات التدريبية الروتينية. وبالمصادفة، هناك عديد من ساحات المعارك في القرن العشرين يمكن استخلاص دروس مقنعة منها بشأن اضطراب المشاهد الطبيعية (King 2001). توجد ميادين المعارك هذه في أنحاء العالم وفي مختلف الأطر الجغرافية، كما أنها تظهر آثار الحروب.

مع بداية القرن الحادي والعشرين، واجهت وزارة الدفاع شكلاً جديداً من أشكال الحرب. ففي هذا العهد الجديد لا تستهدف العمليات العسكرية في الغالب الحكومات،

ولكنها في كثير من الأحيان تستهدف جماعات معينة داخل بلد ما مثل الحكومات المارقة والمجموعات الإرهابية أو حركات التمرد. وفي العادة، يضع هذا النوع من الحرب القوات العسكرية في ظروف تقاتل فيها وحدات صغيرة من الأعداء على تراب أجنبي، محاطين بحاضنة سكانية صديقة. ويعتبر هذا الأمر مهماً؛ لأن التدهور البيئي المرتبط بالحرب يمكن أن يعمل على تأكّل معنويات السكان المحليين، ويمكن أن يؤدي إلى خسارة دعمهم. وبالإضافة إلى ذلك، يثقل الضرر البيئي الفادح كاهل وزارة الدفاع بواجبات محتملة (وتكاليف) التنظيف بعد انتهاء المرحلة القتالية من عملية أو حملة. ولذا، فمن المهم التقليل قدر الإمكان من مستوى الضرر البيئي عند تنفيذ الإجراء العسكري.

سيركز هذا الفصل على أثر الحرب على البيئة الطبيعية، وبشكل أقل على البيئة البشرية. سأبدأ بمناقشة موجزة لمختلف آثار الحرب. وتتبع هذه المناقشة، دراسة حالة ميدان معركة "خي سانه" في فيتنام. وتعتبر خي سانه دراسة حالة ممتازة لأنها لا تعطي فقط مثالاً لاضطراب حديث بسبب الحرب، بل لأنها أيضاً توضح كيف أن أنماط الاستخدام البشري للأرض لها أهمية في تشكيل تعافي أو استرداد المشاهد الطبيعية التي تأثرت بالصراع.

الآثار البيئية للحرب

يحدث الاضطراب البيئي المتعلق بالحرب حين تقوم الجيوش بصورة مقصودة بإزالة غطاء أو قاعدة موارد للعدو، أو على الأغلب بنتيجة غير مقصودة مرتبطة بالأعمال الحربية. واستناداً إلى هذه الفرضية، يمكن تصنيف الاضطرابات البيئية المرتبطة بالحرب تاريخياً في ثلاث فئات (Hupy 2008) وهي: الاضطراب البيئي والتدمير بفعل الأسلحة؛ والاستهلاك المباشر للموارد مثل الخشب والمياه والغذاء لدعم الجيوش؛ والاستهلاك غير المباشر للموارد من قبل المجمعات الصناعية العسكرية التي تموّن مستلزمات الحرب.

الأمر المشترك بين كل من فئات الاضطراب هذه - عندما ننظر إليها منذ القدم وحتى يومنا هذا - هو أن هناك زيادة كبيرة ومستمرة في نطاقها (Hupy and Schaetzl 2006).

فالابتكارات التقنية لم تمكن البشر من إلحاق الأذى بالعدو فحسب، بل وبالبيئة أيضاً. كل جانب من جوانب الحرب الحديثة، من حيث قوة الأسلحة بالتأكيد، له حجم أكبر من ذلك الجانب في الحرب قبل العصر الصناعي؛ فالجيوش وميادين المعارك أصبحت أكبر، كما أن الذخائر أقوى، والاضطرابات البيئية أكثر انتشاراً. لكن التحسينات الرائعة في الدقة فعلت كثيراً لتضييق مدى الضرر البيئي الناجم عن الحرب. ومع استثناءات قليلة، فإن الضرر الحاصل على البيئة كان عرضياً؛ أي أن الضرر الذي وقع على البيئة خلال الحرب حصل بسبب وجود العدو في تلك المنطقة، وإن العدو هو الذي كان مستهدفاً وليس البيئة الطبيعية. وسواء كان الضرر عرضياً أو متعمداً، سيركز هذا الفصل على الآثار المباشرة للمعركة على البيئة المحيطة.

الحرب ما قبل العصر الحديث وظهور البارود

في عالم اليوم الذي يتأثر جداً بالصور التي تعرضها وسائل الإعلام، من السهل تخيل أن الحرب كانت دائماً ملحمة مدمرة جداً. إن الصور التي تقدمها السينما الحديثة التي تستحضر مظاهر قذائف مدفعية وهي تنفجر في حروب القرن التاسع عشر - مثل تدمير ينابيع الأرض ونسف الجنود والأشجار وتطايرهم للأعلى - تصف بطريقة غير دقيقة القدرات التقنية للحرب في ذلك الزمن. فقد ظل البارود أو المسحوق الأسود مئات السنين بدائياً جداً للاستخدام، باستثناء استخدامه على أنه طاقة دافعة للأجسام الصلبة من فوهات المدافع. وتختلف القذائف قليلاً عن الأحجار التي يتم قذفها من المنجنيق الآلي الذي كان يستخدم في السابق. كانت كتلة قذيفة المدفع تستخدم لتدمير أو تعطيل الهدف وكان استعمالها بوصفها ذخيرة متفجرة محدوداً (Partington 1960). وبالإضافة إلى ذلك، كان الأفراد الذين يديرون قطع المدفعية يعتبرون الذخائر المتفجرة غير موثوقة وخطيرة. وكان يتم قذف تسديدة قوية من ماسورة مدفعية ملساء كانت توضع على امتداد الخطوط الأمامية، وتطلق نحو مسارات مستوية، ومن ثم، فإن القذائف قد تصيب تشكيلات القوات المحتشدة بضربات خاطئة (Bailey 2004). وبناء عليه، فإن الاضطرابات البيئية كانت محدودة وتقتصر على إحداث حفر وجحور. من منظور بيئي، يعتبر إدخال

المسحوق الأسود في الخدمة أنه فعل قليلاً في تغيير الآثار التدميرية المرتبطة بالأسلحة العسكرية، وبقي كذلك حتى أدخل البارود العديم الدخان في أواخر القرن التاسع عشر (Hupy 2008).

اختراع البارود العديم الدخان

لم يستفد العالم من كبسولات التفجير والنوع "الأكثر أماناً" من المتفجرات والمسمى عادة ثلاثي نترات التولوين TNT، حتى قدّم ألفريد نوبل للعالم البارود العديم الدخان خلال أواخر القرن التاسع عشر. وبعد هذا التطور بقليل، أدخل الفرنسيون ذخائر عالية الانفجار عام 1899. كانت تُملأ قذيفة المدفعية هذه بمسحوق متفجر (الكوردايت)، وبعد ذلك تطلق من بندقية صيد ارتدادية. وسرعان ما تبعهم البريطانيون وأدخلوا مادة "الميلانايت". وعرف العالم من خلال استخدام الكيمياء إمكانية إطلاق قذائف أقوى وأشد تفجيراً أكثر من أي وقت مضى (Hogg 1985, 1987). وقد بشرت هذه القذائف مع زيادة الإنتاج الصناعي بعهد جديد من الحروب يمكن لها أن تسوي الغابات والمشاهد الطبيعية بالأرض بصورة أكبر مما يمكن تخيله.

مكّن عديد من الحروب (كالفرنسية-البروسية، والروسية-اليابانية، والإسبانية-الأمريكية) الجيوش من اختبار الذخائر وتطويرها، ولكن لم يتم تنفيذ هذه التطورات بشكل كامل حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى. فبدلاً من بناء جيوش يبلغ تعدادها بالآلاف، نشرت الدول جيوشاً بالملايين مجهزين بآلاف المدافع، ما تطلب بنية تحتية قوية ومجمعاً صناعياً هائلاً لدعم هذه الجيوش الكبيرة. فخلال الشهور الأولى للحرب العالمية الأولى، على سبيل المثال، كان من الواضح أن الإنتاجية الصناعية توفر للدولة مزية واضحة مقابل عدو ذي قدرة أقل. وأدرك القادة أيضاً أن أيام تحريك أسلحة فرسان المشاة والبزات ذات الألوان الزاهية ونقلها بسرعة قد ولّت، وأن هناك حاجة لتكتيكات جديدة يجب تنفيذها (Keegan 1976, 1998).

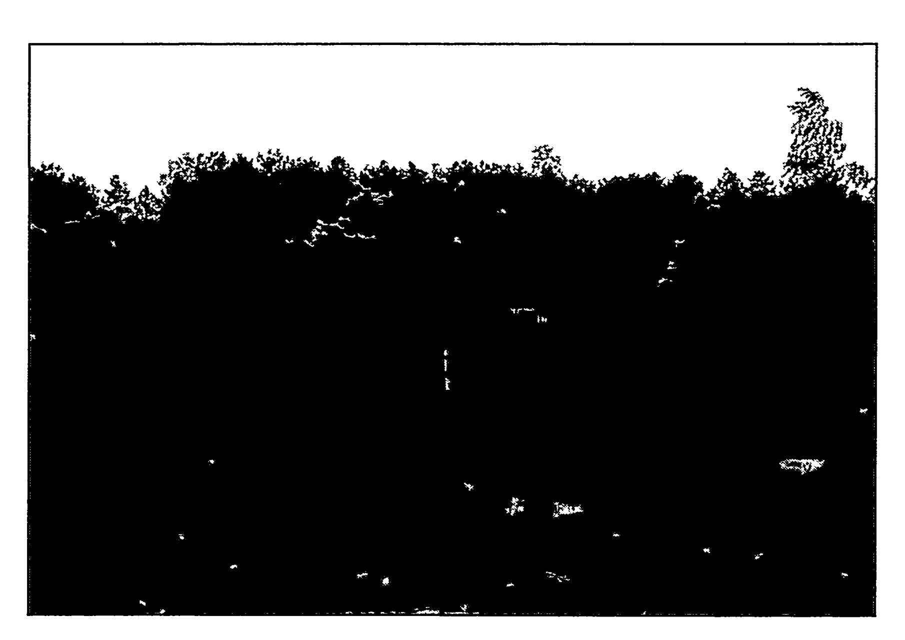
أجبرت أسلحة المشاة القاذفة ذات المدى الأبعد، ومعدلات إطلاق نار المدافع، القادة على إبعاد المدفعية عن الخطوط الأمامية بعد الخسائر المدمرة خلال المرحلة الأولى من الحرب العالمية الأولى. ولذا اتخذت طواقم المدفعية أمكنة في الخلف وأتقنت فن إطلاق النار غير المباشر. وعلاوة على ذلك، ازدادت النفقات على الذخائر بشكل هائل خلال الحرب. وسرعان ما تعلم قادة المدفعية أن الكميات الضخمة من القوة النارية ضرورية لتحقيق المكاسب في ميدان المعركة. وكان القصف المدفعي لعدة أيام أمراً شائعاً خلال السنوات الأولى للحرب. فعلى سبيل المثال، استبق البريطانيون هجومهم على منطقة سوم Soome عام 1916 بقصف استمر سبعة أيام استخدموا خلالها 1.7 مليون قذيفة (Keegan 1976). لكن هذا القصف الذي استمر عدة أيام لم يستمر طوال مدة الحرب، ففي نهاية الحرب عام 1918، أصبح القصف لمدة أقصر وأكثر تركيزاً، وذلك بتأثير من التغييرات التكتيكية التي نفذتها القوات الألمانية. كان لهذا النوع من الحرب آثار خطيرة على البيئة؛ فقد أزيلت الغابات ودفنت المشاهد الطبيعية بصورة كبيرة، ما خلق رقعة من الدمار بسبب مدى القذائف المدفعية. ولعل أفضل مثال على رقعة الدمار هذه نظام الخنادق في الجبهة الغربية. ويبلغ عرض القطاع المدمر من الأرض المجاور للجبهة 20 كيلومتراً، ويمتد من القنال الإنجليزي إلى الحدود السويسرية (انظر الشكل 19-1). وعلى الرغم من أن بصمة ميدان المعركة ازدادت بشكل كبير قياساً بالحروب السابقة، فإن الاضطراب ظل مقتصراً على الأبعاد التي تم التنبؤ بها بشكل جيد (Hupy and Schaetzel 2008). كانت الحرب العالمية الأولى فريدة من نوعها؛ لأن الجنس البشري أدرك لأول مرة أن التطورات التقنية في الأسلحة ظلت قادرة على إحداث تدمير أكبر بكثير من مجالات الحروب السابقة.

لم يُغفل مجتمع العلماء التدمير الذي حدث في الحرب العالمية الأولى. وكان القائمون على الغابات من بين الأوائل في المجتمع العلمي الذين لاحظوا الاضطراب البيئي الذي سببته الحرب. وفي نهاية الحرب بدأ القائمون على الغابات من الأوروبيين والأمريكيين بتقييم حصيلة الضرر الذي أصاب البيئة. وقد تم إنجاز هذا التقييم في الأساس بتحديد

الضـرر الذي لحق بالغابات من حيث حجم الخشب المفقود، والتدمير المباشـر، والتلـف بسبب انتشار الشظايا، والحصاد لدعم مجهود الحرب. وقدّر البـاحثون أن 2.5 مليـار قـدم من الخشب في الغابات الفرنسية قد دمرت خـلال الحـرب. وأبلـغ خبـير غابـات ملحـق بالجيش الأمريكي أن المدفعية لم تحول الغابات إلى قطع متناثرة عـلى طـول الجبهـة الغربيـة وحسب، بل وخلقت أيضاً حفراً وأضعفت النظام الإيكولوجي الثابت في التربة وحولتـه إلى أكوام من الرواسب السائبة التي لا تستحق أن تسمى تربة.

الشكل (19-1)

الوهاد تغطي منطقة Verdun في فرنسا في الوقت الحالي. تم تدمير هذا المكان الذي كان ميداناً للمعارك في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الغربية لأوروبا بفعل القصف المدفعي في الحرب العالمية الأولى



المصدر: Joseph P. Hupy, May 2003.

لكن، ولسوء الحظ، مهدت الحرب العالميـة الأولى الطريـق للحـرب العالميـة الثانيـة، وبعد حوالي عشـرين عاماً غرق العالم في جولة أخرى من الحـروب. لكـن التـدمير الـذي لحق بالتربة كان محدوداً بصورة أكـبر (Hupy 2008). وعـلى الـرغم مـن أن الابتكـارات

التقنية أدت إلى إنتاج أسلحة أقوى، فقد تم تخفيض الأضرار الإجمالية التي لحقت بالمشاهد الطبيعية إلى الحد الأدنى، بسبب مرونة الخطوط الأمامية والدقة المتزايدة التي تجنبت الحاجة إلى قصف شديد. وعلاوة على ذلك، فإن معظم القصف الجوي خلال الحرب العالمية الثانية كان مركزاً في المناطق الحضرية، خلافاً لما كانت الحال عليه في الحرب العالمية الأولى، حيث حدث جمود نسبي للمعارك في المناطق غير المأهولة.

الاضطرابات خلال حرب "الهند الصينية" الثانية

بعد الحرب العالمية الثانية، اعتقد المنظرون العسكريون أن الدمار الواسع المتصل بالحربين العالميتين كان من مخلفات الماضي. وكان من المعتقد أن الحرب تقترب من عصر جديد؛ عصر التحرك السريع مع اعتبار المناطق الحضرية أهدافاً عسكرية رئيسية (على الأرجح على مدى السهول الشرقية في أوروبا). وإذا حدث جمود بمحض المصادفة، كان المخططون العسكريون يعتقدون أن ذروة الحرب ستكون تدميراً نووياً متبادلاً. وقد أثبت التاريخ أن هذه التوقعات لم ترقَ إلى ذلك المستوى، وأن عديداً من "الحروب الساخنة" تم خوضها خلال الحرب الباردة.

كانت هذه الحالة، بكل تأكيد، في جنوب شرقي آسيا، التي كانت منطقة متنازعاً عليها بشكل خاص خلال الحرب الباردة، وبالتالي كانت متورطة في سلسلة من الصراعات من أواخر أربعينيات القرن الماضي حتى مطلع الثمانينيات. كانت الولايات المتحدة متورطة عسكرياً في جنوب شرقي آسيا بعد الانتصار الشيوعي على قوات الاستعمار الفرنسي عام 1954، حين حاولت الولايات المتحدة منع سقوط فيتنام الجنوبية تحت السيطرة الشيوعية. وكان الرأي الشائع بين الخبراء العسكريين الأمريكيين أنهم سيكسبون الحرب، لأنه كانت لديهم القدرة على استخدام أسلحة أكثر تطوراً، وتكتيكات تمكنهم من هزيمة الفيتناميين الشماليين.

كان الجيش الفيتنامي الوطني جيشاً نظامياً، وكان مقاتلو جبهة التحرير الوطنية يعلمون أنهم لا يستطيعون القتال في معركة تقليدية ضد قوات أمريكية تتفوق عليهم تقنياً،

ولذا استفادوا من ظلال الغابات الكثيفة التي تغطي المنطقة. ونظراً إلى أن العدو لجأ إلى الغابات، فقد عانت المشاهد الطبيعية بشدة طوال التورط الأمريكي في جنوب شرقي آسيا. وكما أوضحنا سابقاً، فإن الضرر الذي لحق بالغابات والتربة شائع في الحروب، لكن بصورة عرضية، لأن الضرر الذي يحصل هو أثر جانبي للنيات المتصلة بإبادة العدو. كانت الاضطرابات التي نتجت من حرب فيتنام عرضية بالدرجة الأولى، حيث إن الذخائر كانت تستهدف العدو وليس الغابات أو التربة. لكن الحرب الفيتنامية كانت تختلف عن الحروب السابقة، لأنه خلال هذه الحرب، كان تدمير العناصر الرئيسية للبيئة الطبيعية عنصراً متعمداً من عناصر الاستراتيجية العسكرية (Lewallen 1971). فقد كان الهدف من إزالة الغابات المطيرة الكثيفة هو إزالة الغطاء عن قوات العدو، وتوفير قواعد للعمليات وإنشاء مناطق لهبوط الطائرات العمودية (Westing 1976). فعلى سبيل المثال، تم تخصيص وحدة كاملة من طائرات C-130 التي تستخدمها القوات الأمريكية للشحن، والمزودة بتقنية متقدمة، لرش المحاصيل لإزالة الغطاء الاستوائي الذي كان يوفر غطاءً لقوات العدو. وللّعب على الشعار الذي يضعه جهاز "خدمة الغابات الأمريكية" في الولايات المتحدة، أنشأت وحدة الطائرات تلك شعاراً يقول: "أنتم فقط تستطيعون إزالة الغابات".

وسواء كان الأمر عن قصد أو بصورة عرضية، فقد اختلت المشاهد الطبيعية الفيتنامية بصورة رئيسية بسبب ثلاثة نشاطات عسكرية: الذخائر المتفجرة، ومبيدات الأعشاب المصنوعة من الديوكسين (العامل البرتقالي)، وعمليات الإزالة الأرضية بوساطة البلدوزرات المتخصصة المسماة "محاريث روما" [روما مدينة في ولاية جورجيا] (Westing 1976). وعلى الرغم من استخدام القصف المدفعي خلال هذه الحرب، فإن القصف الجوي أوقع أضراراً بالغابات على نطاق لم يعهد من قبل. وعلى عكس الحرب العالمية الأولى، حيث اقتصر الخراب على جبهة ثابتة وطولية، فإن الخراب الذي حل بفيتنام ولاوس وكمبوديا كان منتشراً في مساحات أوسع. وبالإضافة إلى ذلك، فإن العدد المطلق للقذائف التي أسقطت على المنطقة يتجاوز عددها الذي أسقط في أي حروب

أخرى. وتشير تقديرات متحفظة إلى أن أكثر من 8 ملايين طن من القنابل أسقطت في الهند الصينية بين الأعوام 1965 و1972. ويعتبر ذلك أكثر بمرتين من القذائف التي استخدمها الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. وعلى وجه الخصوص، غطت حوالي 250 مليون حفرة كل منها ذات قطر يبلغ 3 أمتار منطقةً بمساحة كاليفورنيا حين بدأت الولايات المتحدة مغادرة المنطقة عام 1972. وكان معظم الضرر الذي لحق بالغابات هو نفسه الذي شوهد خلال الحروب السابقة باستثناء أنه نتج من قنابل أكبر وأقوى، عادة تطلق من تشكيلات القاذفات من طراز B-52.

فعل هذا القصف الشديد عدة أشياء؛ فقد دمّر الغطاء النباتي كلياً، وأتلف ملايين الأشجار من جراء الشظايا، وترك الأشجار والتربة مشبعة بالمواد السامة المتبقية. استخدمت قاذفات القوات الجوية القصف الشديد بشكل روتيني، حيث غطت مساحة واسعة بالقنابل. وقد ترك هذا النوع من القصف مساحات واسعة مضطربة، محدثاً ملايين الحفر في المشهد الطبيعي الفيتنامي. وفي العادة، كان يقوم بعمليات القصف سربٌ يتكون من 3–12 طائرة قاذفة تحمل كل منها 108 قنابل زنة كل واحدة منها 500 باوند. وقد أغرقت رقعة الاضطرابات الناجمة عن هذه المهمات منطقة بالقنابل يصل عرضها نحو نصف كيلومتر وطولها أكثر من 1000 متر. تشير التقديرات المتحفظة إلى أن عدد الحفر التي خلفتها مهمات القصف الشديد حوالي 26 مليوناً (Orians and Pfeiffer 1970; Pfeiffer 1969). ولاتزال هذه الحفر التي سببها القصف الجوي ماثلة للعيان في بعض المناطق الفيتنامية (انظر الشكل 19–2).

ومن غير المدهش أن عديداً من التكتيكات المستخدمة من قبل الجيش الأمريكي لتدمير الغابات كانت تستخدم لتدمير زراعة العدو. فقد ألقيت مبيدات الأعشاب على مساحات واسعة من حقول الأرز، في حين كانت تستخدم بلدوزرات روما لتدمير السدود الخاصة بإنتاج الأرز (Westing and Pfeiffer 1972; Westing and Stockholm International Peace research Institute 1984).

الشكل (19-2)

بقايا الوهاد التي خلّفتها قنابل تزن الواحدة منها 500 رطل على خط القمم في ميدان معركة خي سانه. ومن المرجح أن الوهاد تشكلت خلال حملة القصف التي قامت بها طائرات B-52 في أثناء معركة عام 1968



المصدر: Joseph P. Hupy, May 2009.

وبصورة مشابهة للأعمال الأوروبية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، درس العلماء الغابات الفيتنامية لتقييم مدى الأضرار التي لحقت بها. فبعد التحليق بالطائرة فوق عديد من المناطق التي تعرضت للقصف الجوي، أبلغ القائمون على الغابات عن مناظر طبيعية تشبه سطح القمر. وقد قُدر أن 1.65 مليون هكتار من الغابات دمرت تماماً. وعلاوة على ذلك، قدر خبراء الغابات أن 4٪ من الغابات التي تشبعت بالشظايا لا قيمة لها من ناحية الثروة الخشبية (Flamm and Cravens 1971).

وبالإضافة إلى تلف الغابات، فإن تأثير الحرب في التربة كان أيضاً واسعاً، على الرغم من أن دراسة هذا التأثير كانت أقل بكثير من دراسة حالة الغابات. لكن الباحثين أشاروا إلى نظرية أقل من أن تكون دقيقة، ومفادها أن التربة بعد أن تخسر غطاءها الحرجي الواقي، يمكن أن تتحول الى صخر أحمر مساميّ، وهي عملية تحول التربة المكشوفة إلى طوب يشبه الصخر (Westing and Pfeiffer 1972). كما أشاروا أيضاً إلى أن الضرر الذي يصيب التربة له آثار على الطريقة التي تتجاوب فيه النباتات والتربة مع التغيرات في حالات الظروف المحلية لمستوى المياه الجوفية. وبالفعل، أثبتت الدراسات السابقة أن القاعدة الصخرية التي لا تنفذ منها المياه وطبقات التربة، تتعرض، في بعض الحالات، للاختراق بسبب وجود الحفر، ما يحرم النباتات من مصدرها السابق من المياه (Hupy 2006). وفي حالات أخرى، تكشف الحفر المياه الجوفية، وتمنع التجذر العميق للنباتات، ما يحد من عملية إعادة التحريج في ما بعد (Hupy 2005). ويمكن أن تؤدي الاضطرابات التي تحدث في الطبيعة إلى تباين المسارات في تطور منظر التربة. وتنطبق هذه النظريات على حالة خي سانه والتطور الذي طرأ على حالة تربتها، حيث تغيرت بصورة دراماتيكية بفعل الذخائر المتفجرة ومبيدات الأعشاب.

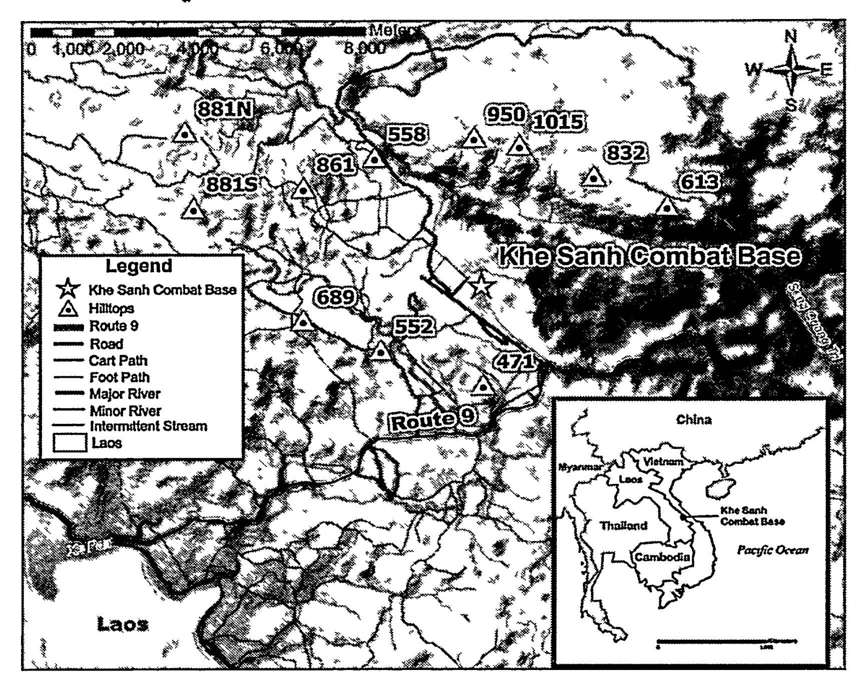
دراسة حالة: أنماط الاضطراب والانتعاش في خي سانه

تقع ساحة معركة خي سانه في مرتفعات فيتنام الوسطى، وتتميز بالوعورة، وهي مغطاة بمظلة من الغابات الاستوائية، وتتميز بالرياح الموسمية. وتقع خي سانه على هضبة صغيرة ترتفع حوالي 450 متراً عن سطح البحر (انظر الشكل 19-3).وهذه الهضبة هي جزء من سلسلة جبال أكبر، هي أنامس كورديليرا Annamese Cordillera، التي تمتد 2700 كيلومتر من لاوس إلى فيتنام الجنوبية (Prados and Stubbe 1991). وعلى الرغم من أن معظم مناطق فيتنام معروفة بمناخها الموسمي، فإن خي سانه تقع في وسط فيتنام حيث لا يوجد هناك موسم جاف بسبب حركة الرياح المحملة بالرطوبة إلى الأعلى والتي تهب من بحر الصين الجنوبي. ولهذا السبب كانت النباتات في خي سانه قبل الحرب كثيفة

بشكل خاص، وتتألف من غابات مطيرة استوائية وأعشاب البافالو وغابات الخيزران. وقد أوجدت الأمطار الغزيرة في هذه الغابات المطيرة الاستوائية، واستقرار وضع المرتفعات التي تشبه الهضبة، ظروفاً تؤدي إلى تطوير تربة ذات منحدرات خفيفة (Winters et al. 1990). من صفات هذه الأنواع من التربة التسريب والافتقار إلى العناصر الغذائية، وقد دعا نقص العناصر الغذائية لهذه المناطق ومحتواها العالي من الطين، كثيراً من العلماء لتقديم اقتراح في ذلك الوقت (عام 1968) مفاده أن الاضطراب التالي في التربة سيحولها إلى طين جاف، وأن النباتات لن تعود إلى هذه المنطقة. وقد أدى الدمار الذي شهدته المنطقة ومعرفة العلماء المحدودة بالتربة الاستوائية في ذلك الوقت إلى هذه الاستنتاجات الخاطئة.

الشكل (19-3)

ميدان معركة خي سانه. تمت تسمية التلال وغيرها من النقاط المرتفعة في حرب فيتنام بحسب ارتفاعها فوق مستوى سطح البحر. وكانت التلال المسماة 881N، و881N، و881S، و861 متنازعاً عليها بصورة خاصة، ولذلك كانت هدفاً للقصف ونيران المدفعية الكثيفة



المصدر: Map compiled by Jonathan Laager, University of Wisconsin—Eau Claire.

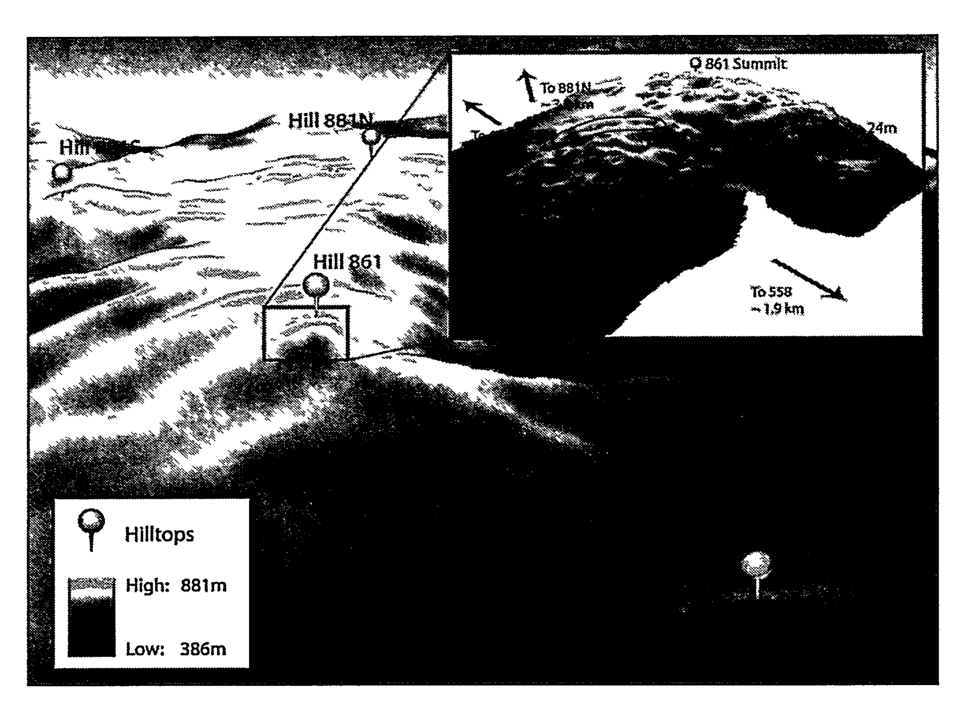
على الرغم من أن عديداً من المناطق في الهند الصينية تعرضت للدمار بسبب الحرب، فإن خي سانه تبرز على وجه الخصوص. كانت خي سانه موقعاً لهجوم شنه الجيش الوطني الفيتنامي ضد مشاة البحرية الأمريكية "المارينز" في تلك المنطقة البعيدة. لكن هجوم الجيش الوطني الفيتنامي تعثر في عملية حصار طويلة ضد القاعدة. وفي الوقت الذي كانت فيه قوات المارينز متمركزة بشكل جيد فوق التلال التي تحيط بالقاعدة، كانت كل الطرق المؤدية إلى المنطقة تحت سيطرة العدو، وتم الدعم الناري من قبل القوة الجوية والمدفعية (انظر الشكل 19-3). وفي الفترة بين فبراير وإبريل 1968، ألقت الطائرات 98,721 طناً من القنابل على ساحة المعركة في خي سانه؛ أي أكثر من وزن القنابل التي أطلقها الحلفاء على ساحة المعركة في منطقة المحيط الهادي خلال الحرب العالمية الثانية (Littauer and Uphoff 1972; Page-Demroese et al. 2000;Prados and Stubbe 1991). وقد أدى تأثير آلاف قذائف المدفعية والقنابل التي ألقتها الطائرات إلى تشويه المشاهد الطبيعية في خي سانه (انظر الشكل 19-4).

استخدمت قوات المارينز كلمات مثل جحيم، جهنم، قمريّ، عالَم آخر؛ لوصف المنطقة بعد عمليات القصف الطويلة. ولاتزال صور الدمار تسكن في عقول العالم المعاصر، وقد ألقي اللوم بشأن عدم عودة الأحراج على القصف الأمريكي واستخدام المواد الكيماوية التي تؤدي إلى إسقاط أوراق الأشجار. كما أن الأدب المعاصر والأفلام الوثائقية تشير إلى أنماط المشاهد الطبيعية المتعلقة بالحرب (Webster 1996). وبالفعل، فقد تأثر المؤلف بهذه القصص وتوقع مثل هذا النمط حين زار ساحة المعركة، ولكن هذه المفاهيم أثبتت خطأها.

إن المشهد الطبيعي الحديث لساحة المعركة يدل على أنه أبعد ما يكون عن مشهد قمريّ، على الرغم من أنه يختلف عن ذلك الذي كان موجوداً قبل حرب الهند الصينية. وتشير النتائج الحديثة للمؤلف إلى مشهد طبيعي تعود أنماط إعادة الغطاء النباتي فيه على المدى البعيد إلى نشاط اقتصادي وبشري، وليس للآثار الكامنة بسبب القنابل ومبيدات العشب المتعلقة بمعركة خي سانه.

الشكل (19-4)

مشهد مائل لتضاريس ميدان معركة خي سانه مع التفاصيل الحالية للتضاريس الصغيرة لقمة التلة 861



المصدر: Map compiled by Tom Koehler, University of Wisconsin—Eau Claire.

من أجل الحصول على منظور أفضل لاسترداد أنماط المشهد الطبيعي في خي سانه، على المرء أن يفهم تاريخ المنطقة، التي تمثل قصة نشاطات استخدام مختلفة للأرض بعد الحرب. تستند دراسة هذه الحالة إلى تقارير تاريخية مكتوبة (Lamb 2002)، ومقابلات مع السكان الأصليين، وجنود جيش فيتنام الوطني وقدامى المحاربين الأمريكيين.

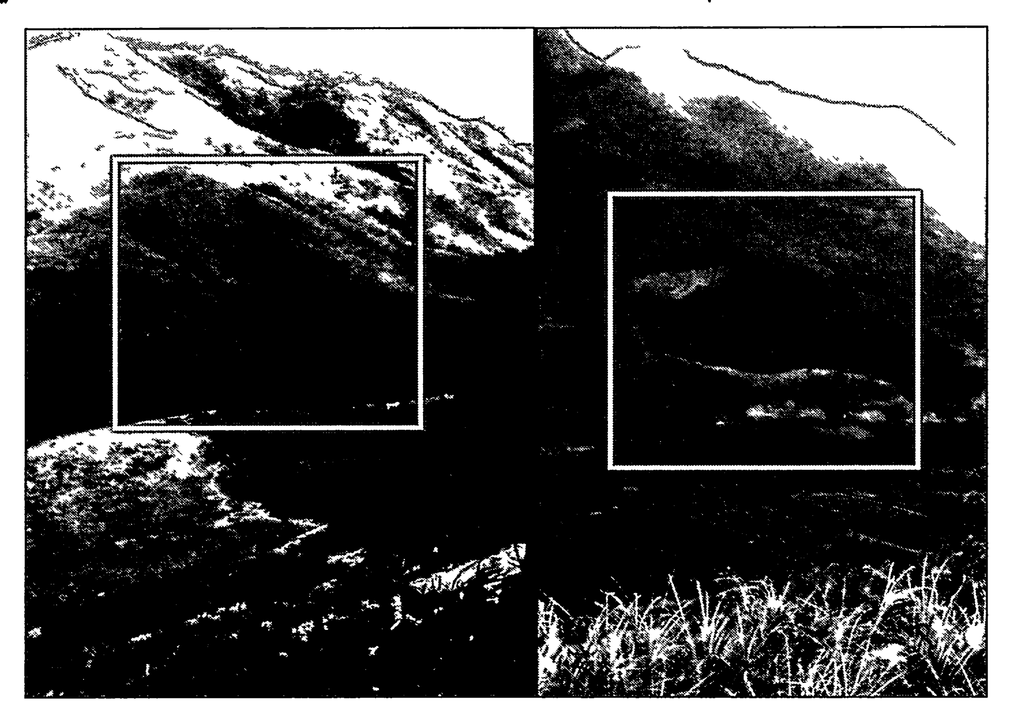
يعيش في خي سانه عديد من مجموعات السكان الأصلية مثل برو Bru، وهمونغ Hmong، وتاي T'ai. ولم يدعم عديد من هذه المجموعات فيتنام الشمالية، وبدلاً من ذلك قاتلت إلى جانب الفرنسيين، وبعدها إلى جانب الأمريكيين. ففي منطقة خي سانه، عملت جماعة برو مع القوات الأمريكية، ولسوء الحظ حاربت من أجل الجانب الخاسر. وبالتالي، تم تهميشها بعد الحرب بشكل كبير إلى درجة الاضطهاد. وحين تم توحيد فيتنام

عام 1975، منح أعضاء الحزب والأشخاص الذين حاربوا لصالح الشمال قطعاً كبيرة من الأراضي في قيعان الأودية. وكان عديد من هذه الأراضي يعود لمجموعات من السكان الأصليين، ولكنها أصبحت الآن تعتبر أرض الشعب. وقد تم إجبار هذه المجموعات، ومن ضمنهم جماعة برو، على النزوح إلى الأراضي العالية المجاورة. في البداية استفادت هذه المجموعات الأصلية من الأرض التي تم تطهيرها بفعل القنابل و(لسوء الحظ) المبيدات الأمريكية. وكانت هذه الأرض غير خصبة كما هي الحال في الأودية، وكانت عرضة للانجراف. وبسبب الخصوبة المنخفضة للأرض العالية، كانت هذه المجموعات بحاجة إلى تدوير محاصيلها باستمرار. وسرعان ما لجأت إلى تسجيل غير قانوني من أجل إزالة الأشجار للحصول على مزيد من الأراضي الزراعية. وفي غضون ذلك، كان هناك إنتاج للأرز في الأودية مع إنتاج كميات محدودة من القهوة. وعلى الرغم من أن الأراضي العالية كانت تتعرض لحرمان من غطاء الغابات المطيرة بسبب جماعات السكان الأصليين، فإن الاضطراب الواسع في المشهد الطبيعي لم يكن قد مورس حتى ذلك الوقت. في عام 1989 وبعد المجاعة في مطلع الثمانينيات، لاحظت الحكومة الفيتنامية إلى أي مدى نجحت الصين بعد السماح بالاقتصاد الحر في القطاع الاقتصادي، وسرعان ما حذت حذوها. ولذا بدأ أعضاء الحزب الذين يمتلكون أراضي في الأودية بإنتاج واسع الانتشار للقهوة وعمليات تربية المواشي. وقد أدى هذا إلى دفع المجموعات الأصلية نحو مزيد من الأراضي الهامشية، وفتح الباب أمام عمليات تطهير الأراضي في قيعان الأودية التي كانت عام 1968 مغطاة تماماً بمظلة من الغابات المطيرة.

كما أن أشكالاً أخرى من التنمية الاقتصادية مثل بناء السدود لتزويد الاقتصاد الذي ينمو بسرعة بالطاقة حولت مناطق أخرى كانت في أحد الأيام غابة. وتشرح الصور التي التقطها المحاربون الأمريكيون القدامى عام 1968، مقارنة بمنظر المشهد الطبيعي هذه الأيام، كيف أن ممارسات ما بعد الحرب هذه من قبل الفيتناميين أزالت أجزاء كبيرة من الغابات، وليس بفعل الذخائر المتفجرة أو المواد الكيماوية التي أسقطت من الجو (انظر الشكل 19-5).

الشكل (19-5)

الصورة مأخوذة من نفس الموقع على قمة التلة 558 تطل شـرقاً على التلة 950 الظاهرة في الخلفية. والصورة التي في اليسار هي من عام 1968، والصورة التي في اليمين مأخوذة في مايو 2009. لاحظ كيف أن المنحدرات الشديدة التي فقدت غطاءها الحراجي بفعل القصف والمواد الكيماوية عام 1968، قد استعادت غطاءها الحراجي مرة أخرى، في حين تحول الوادي الذي فقد غطاءه النباتي عام 1968 إلى حقول للأرز حالياً، أو ظلّ من دون غطاء حراجي

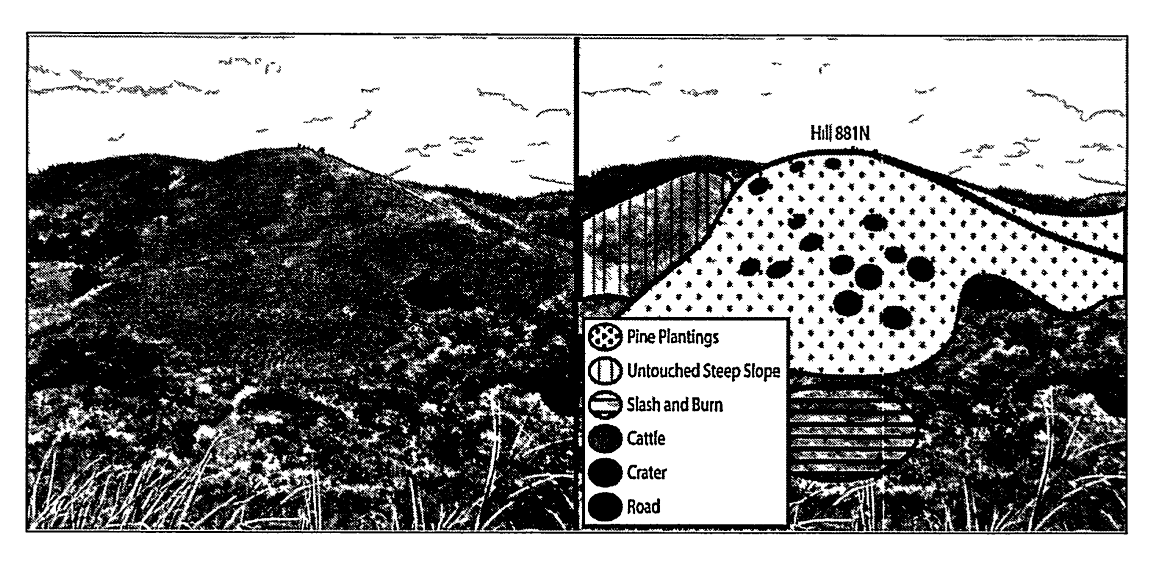


المصدر:

Images courtesy of Tom Ford, USMC veteran of Khe Sanh. Image rendered by Thomas Koehler, University of Wisconsin—Eau Claire.

الشكل (19-6)

صورة للتلة 881S مأخوذة في مايو 2007 تطل شمالاً على التلة 881N (يساراً). يسلط الجانب الأيمن الضوء على غطاء الأرض للتلة ذاتها. ومن المهم أن نلاحظ أن الحرب قد لا تكون غيّرت هذا المشهد من غابة كثيفة إلى ما هو عليه الآن، ولكن من المرجح أن التغير حصل نتيجة مجموعة الاضطرابات الناجمة عن الحرب الهندية-الصينية الثانية، والتغييرات الناتجة في استخدام الأرض



المصدر: Joseph P. Hupy, May 2007.

يظهر مشهد خي سانه الحديث كثيراً من الأنماط المتعددة لاستخدام الأراضي؛ فالمنحدرات الأكثر حدة حرجية، أما المنحدرات الحادة فهي مراع للماشية، في حين أن المنحدرات الخفيفة إلى الأراضي العالية المنبسطة تستخدم بالدرجة الأولى لإنتاج القهوة (انظر الشكل 19-6). في هذه الأيام، تدعم قمم التلال المليئة بالحفر بكثافة جهود رعي المواشي، أما حفر القيعان، فإنها تدعم بعض النباتات المورقة والأكثر سمكاً (انظر الشكل 19-7). في قيعان هذه الحفر، تتجذر النباتات الخشبية محمية من المواشي التي ترعى، ومن الرياح العالية التي تجتاح المناطق العالية. ومن غير المستغرب أن يستخدم الناس الأرض اقتصادياً كما يسمح لهم في بلد تعادل مساحته مساحة كاليفورنيا، ويربو عدد سكانه على ستة ملايين نسمة، وفيه بعض أعلى كثافات السكان الريفيين في العالم. ولذا، فإن الافتقار

إلى إعادة الغطاء النباتي في ساحة المعركة هذه لم تأت نتيجة للمتفجرات أو بقايا مكوناتها أو المبيدات العشبية، بل إنها جاءت نتيجة للنشاطات الاقتصادية في أعقاب الحرب.

الشكل (19-7)

غطاء نباتي كثيف يغطي الجزء السفلي من وهدة ناجمة عن قنبلة زنة 700 رطل على ساحة ميدان معركة خي سانه. من المحتمل أن هذه الوهدة تحديداً تم تحويلها إلى موقع دفاعي، وحفرها لاحقاً السكان المحليون بحثاً عن قطع الشظايا من أجل بيعها في السوق بشكل خردة معدنية



المصدر: Joseph P. Hupy, May 2009.

إن مجرد إلقاء نظرة سريعة على أرقام النمو الاقتصادي لفيتنام يوضح حجم نمو هذا الاقتصاد منذ تبني نظام السوق الحرة. ولكن هذه الأرقام لا تفعل شيئاً لوصف التغيرات التي حدثت للمشهد الطبيعي المتعلق بالانتقال إلى هذه السياسة. ومن شأن إصدارات لاحقة ترتبط بموضوع هذا البحث بشأن خي سانه المساعدة على صقل بعض النظريات المتعلقة بالآثار البعيدة المدى للحرب على البيئة.

الخلاصة

توفر دراسة حالة خي سانه وجهة نظر مهمة عن سبب وجوب دراسة العلاقة بين الحرب وتأثيرها في البيئة. فكما رأينا من بدايات الحرب فإن البيئة قد تضررت على حد سواء، عن قصد أو غير قصد. فقد كان للنشاطات المتصلة بالعمليات العسكرية – مثل التدريب في المناورات، وممارسة إطلاق النار، والحرب – تأثير واسع، وفي بعض الأحيان ضار بالمشهد الطبيعي. ولذا، فإن الجغرافيين العسكريين بحاجة إلى توسيع بحوثهم التقليدية إلى أبعد من دراسة مسرح العمليات، والبدء باستكشاف السيناريو الموسع، وهو آثار العمليات العسكرية على البيئة.

موضوع هذا البحث لديه القدرة على فتح عديد من القنوات ضمن مجال أوسع للجغرافيا. ومن ثم، فإنه يمكن للجغرافيا العسكرية أن تتوسع إلى فروع من الجغرافيا الأكاديمية التي تعزز النهوض بالنظريات العلمية المتعلقة بإعادة إنعاش المشهد الطبيعي بعد تعرضه للاضطراب والضرر (مثل ميادين التدريب العسكرية).

وأخيراً، في دراسة أثر الحرب على البيئة، كما تظهر دراسة حالة خي سانه، يتعين على المرء إبقاء عقله مفتوحاً لفرضيات متعددة. ففي حين أن الحرب يمكن أن تكون عملت بشكل عامل مساعد في هذه التغيرات، فإن أنماط المشهد الطبيعي مرتبطة بشكل أكبر بكثير بالنشاطات البشرية وليس بالحرب نفسها. وينبغي أن تذكّر هذه الاستنتاجات القارئ بأن الجغرافيا العسكرية أكثر من مجرد تحليل للمشاهد الطبيعية المادية؛ إنها تحليل يربط جميع العناصر المهمة جداً بالحقل المادي؛ أي بأنفسنا.

الفصل العشـرون

البراعة النابليونية في عمليات الاستقرار

دوجلاس باتسون

مقدمة

في مرحلة ما بعد الصـراع في أفغانستان والعراق، أضـرت المطالبات المتنافسـة حـول ملكية الأراضـي بـ "عمليات تحقيق الاستقرار"، وأحبطت الآمـال في سـلام دائـم. ففـي الوقت الذي كان يجري فيه تنفيذ سلسلة من المهمات التي لا تعد ولا تحصـى في عمليـات تحقيق الاستقرار في ظل إطلاق النار، قامت القوات الأمريكيـة في كـلا البلـدين بـدور لا تحسد عليه في التحكيم بشأن الأراضـي المتنازع عليها. ومثل هذا الوضـع سيحصـل عـلى نحو أكثر في عمليات تحقيق الاستقرار، حتى تقدِّر السياسة الخارجية الأمريكيـة، وبـرامج التنمية، ومشاريع إعادة الإعمار المدنية-العسكرية، العلاقات بين الشـعوب وأراضـيها؛ إذ إن المعلومـات مسـجلة عـادة في السـجل العقـاري. اشـتهر نـابليون بونـابرت بعبقريتـه العسكرية، كما تحرك بشكل حاسم لتحسين الحكم بعد الصـراع، ووصف سجله العقاري بأعظم إنجاز في قانونه المدني.

يفترض هذا الفصل أن الجغرافيا ذات أهمية عـلى صـعيدي الجنـود والمـدنيين الـذين ينفذون عمليات تحقيق الاستقرار. وعلاوة على ذلك، فإنـه يفسـر لمـاذا لا يمكـن تحقيـق الجهود المشتركة لإعادة بناء دولة ممزقة (الاستقرار، والتنمية، والسلام، والسـيادة المحليـة الفعالة) من دون إدارة الأراضـي (Manwaring 2006). وأخيراً، يقدم هـذا الفصـل أداة جديدة، وهي "نموذج إدارة مجال الأراضي" Land Administration Domain Model, LADM. ونظراً لإمكانية أن يحدد هذا النموذج الموقع الجغرافي ويصف حيازة الأراضـي

ويسجلها عبر الحدود الدولية والثقافات، فإنه يمكنه أن يعمل على تمكين نظام جديد وتحليل السجل العقاري، الذي يمكّن وكالات التنمية الأمريكية والقوات المسلحة، بالإضافة إلى الشركاء في الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي "الناتو"، من تحقيق نجاح المهمات الكاملة للحكومة والحلفاء عن طريق التعاون:

> يمكن أن يتساءل الجندي عن علاقة موضوع السجل العقاري المزعج وإدارة الأراضي، بعمله وبالحرب. والجواب عن ذلك هو "لا شيء"؛ ما لم يود الجندي العثور على عدو مراوغ ويحدده؛ ما لم يكن من المهم بالنسبة إلى الجندي تهيئة ظروف ما بعد القتال التي تسمح له بالعودة إلى دياره؛ وما لم يعتقد أن من المهم منع المتمردين من التشكل، بحيث يصبح وجوده في تلك البيئات الصعبة ليس ضرورياً؛ أو ما لم يفضل أن تكون هناك أمكنة قليلة يجري فيها تدريب الإرهابيين ورعايتهم (Demarest 2008: 352).

سؤال "مَنْ هو؟" في عمليات تحقيق الاستقرار

بعد الحرب الباردة، خفضت وزارة الدفاع الأمريكية هيكل قوتها، واستعدت لجني ثمار ما يسمى بريع السلام الذي لم يتحقق قط. ففي العقد الذي تلا سقوط جدار برلين، ساهمت القوات الأمريكية في أكثر من 15 عملية تحقيق للاستقرار، وتدخلت في أمكنة مثل هاييتي وليبيريا والصومال والبلقان. وقد استمر عديد من هذه الجهود في الألفية الجديدة، بالإضافة إلى غزو أفغانستان والعراق؛ ما كشف عن توجه مزعج في أنحاء العالم كافة، وهو انهيار الحكومات القائمة، وظهور شبكات الإجرام، والإرهاب الدولي، والأزمات الإنسانية التي لا نهاية لها (Department of the Army 2008).

في مقدمة الدليل الميداني Field Manual 3-07 تحت عنوان **عمليات الاستقرار** *Stability Operations*، لاحظ الجنرال وليام كالدويل الرابع أن عمليات تحقيق الاستقرار سوف تعالج الأسباب الرئيسية للصراع بين الناس المحرومين (Department of the Army 2008). وسواء كان النزاع من أجل السيطرة أو الوصول إلى موارد الأرض، فقد لاحظ جون أونراه، أستاذ الجغرافيا في جامعة ماكغيل، كيف أن عملية السلام تعاني بسبب قضايا الأراضي:

تدفع نهاية الصراع المسلح، وبخاصة لمدة طويلة، الناس المتضررين إلى البدء في السعي نحو الوصول إلى - أو ترسيخ - مطالباتهم بموارد الأرض. وفي كثير من الأحيان يتم نزوح أعداد كبيرة من الناس إلى الأرياف. ونتيجة لذلك، يمكن أن تظهر قضايا حقوق حيازة الأراضي وملكيتها في مناطق جغرافية واسعة بين أعداد كبيرة من الناس. يؤدي التاريخ المعقد للملكية والأراضي والمناطق إلى سيناريوهات من الصراع. وبالمثل، فإن إعادة تأهيل حقوق الملكية والاستخدام والوصول إلى الأرض بعد الحرب ستكون أيضاً معقدة. وإذا ما تركت هذه القضايا من دون علاج، فإنها سوف تعزز تجدد المواجهات (Unruh 2002: 337).

الشكل (20-1)

الجيش الأمريكي يساعد المشردين في أعقاب كارثة طبيعية في أمريكا الوسطى



المصدر: Department of Defense.

طلب القادة العسكريون أجوبة من جهاز الاستخبارات عن أسئلة مثل: "ما هو؟" (نظام المعركة للقوات المعادية)، و"أين؟" (شبكة إحداثيات تصرفات العدو)، وتسلموا تلك الأجوبة. لكن الولايات المتحدة استثمرت قليلاً في جمع أو إيجاد معلومات تتعلق

بالأرض يمكن أن تكون جواباً محتملاً عن أسئلة "من هو؟" التي تغيظ القادة الذين يقومون بعمليات تحقيق الاستقرار المركزية للسكان. ومن هذه الأسئلة: مَن وراء زراعة الخشخاش والتطهير العرقي أو الهجمات على قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة؟ لم يسعَ القائمون على جمع المعلومات الاستخبارية لربط الأسماء الشخصية بالممتلكات. ومع ذلك، وكما يظهر في الشكل (20-1) تتطلب جميع قوات التدخل العسكري والمساعدات الإنسانية العاجلة وبناء الدول على المدى البعيد فهم مصالح الأطراف المتعلقة بالأراضي، التي تأثرت من جراء الكوارث الطبيعية أو الفصائل المتحاربة.

أعداء اليوم ليسوا جيوشاً تقليدية، بحيث إذا هُزمت حلّت نفسها وكفّت عن القتال. بل هم أفراد مجهولون وعنيدون يستطيعون التكيف والفوز على القوة العسكرية الأمريكية المتفوقة عليهم «من خلال عدم التجمع، وإخفاء أنفسهم في المناطق الحضرية الآهلة بالسكان» (Peters 2007)، حيث لا توجد حالياً نظُم معلومات جغرافية تستطيع تعقبهم. تميزت "حرب شبه الجزيرة الأيبيرية" في الفترة 1807-1814 بنصر نابليون العسكري السريع على القوات الإسبانية، أعقبته حرب استنزاف من قبل العصابات امتدت لمدة طويلة. ولذا، فإن المصطلح "حرب العصابات" هو إسباني الأصل؛ إذ شن الحربَ ثوار مجهولون ضد المحتلين الفرنسيين. يصف المقدم جورج سميث الابن، من قوات مشاة البحرية الأمريكية، في مقارنة تاريخية بين السيناريوهات النابليونية والمعاصرة في أعقاب الصراعات بأعراض "القرحة"، المتشابهة جداً، والتي لا يمكن إنكارها. يقول سميث:

> "القرحة الإسبانية" لنابليون، كما يصف الرد الإسباني على احتلال بلادهم، تُقدِّم سلسلة لا تعد ولا تحصى من الدروس التي تصلح لكل زمان للمخططين الاستراتيجيين ومخططي العمليات. إن الثغرة الاستراتيجية التي نشأت بين النصر العسكري التقليدي والسريع لنابليون، وبين الاحتياجات العاجلة للتأثير الإيجابي في السكان في جزء من عمليات تحقيق الاستقرار، تبرز قيود القوة العسكرية التقليدية في أعقاب عمليات القتال، ومخاطر إغفال "السكان" في الحسابات الاستراتيجية والأولية المستمرة. لسوء الحظ، أُجبرت الدول والجيوش حول العالم على إعادة تعلم ذلك الدرس عدة مرات في السنوات الـ 200 التي تلت ذلك (Smith 2004: 22).

أشار المحامي والملحق العسكري السابق، جيفري ديمارست (2004-2008) إلى أن الإرهابيين المعاصرين والمتمردين وزعماء الجريمة ومهربي المخدرات وزعماء الأحياء الفقيرة، يفهمون جيداً أن المناطق التي لا تخضع للحكم، يمكن أخذها بسهولة. يختبئ المروجون في هذه العقارات غير المسجلة، وهم محميون بسبب عدم الكشف عن هويتهم للإفلات من العقاب، ويستخدمون ثروتهم المخفية في هذه العقارات لتمويل النشاطات غير المشروعة. كما أنهم يقررون منْ يأخذ؛ وذلك بفرض نظم ملكيتهم للعقارات على السكان المحليين، ويعرضون الخدمات على أصحاب المطالبات، ويخلقون الولاءات والالتزامات، وكذلك الخوف (Demarest 2008).

بالنسبة إلى قائد عمليات تحقيق الاستقرار، تقدم بيانات السجل العقاري لمحة لا مثيل لها حول ثقافات المجتمعات البشرية؛ أي أنها تتيح للقائد تحديد سماسرة القوة على الأرض والذين يمكن أن يحدد دعمهم أو معارضتهم نجاح المهمة. ومن خلال ربط اسم ما بمكان، يمكن للسجل العقاري الإجابة عن السؤال الصعب "مَنْ"؛ أي من هو الذي يعوق تعبيد الطرق أو وصول الأقلية إلى العيادة الصحية؟ وبالإضافة إلى ذلك، فإن تحليل بيانات السجل العقاري يمكّن من تحديد أيديولوجيات أي جماعة وأعمدتها الاقتصادية. لذا، فإن الطفرات في معاملات الملكية التي لا يمكن تفسيرها من قبل قوى السوق وحدها، تعتبر بالنسبة إلى المحلل الاستخباري إشارة إلى تصاعد وتيرة التوترات العرقية أو النشاطات الإجرامية. «في مطلع هذا العقد وجدت الشرطة الكولومبية أن من المستحيل إيجاد مسوغات قانونية في الأحياء الفقيرة في مدينة ميديلين. فقد كانت الشوارع والأكواخ غير منظمة للغاية لدرجة أن جهات العنف الفاعلة يمكن أن تربك «الشرطة في ما يتعلق بعناوينها وهوياتها» (Deamarest 2008: 264). وبهذه الطريقة، تساعد بيانات السجل العقاري أيضاً في عمل الطب الشرعي وتنفيذ القانون. ولهذه الأسباب، تهدد بيانات السجل العقاري أولئك الأشخاص الذين يريدون المحافظة على الوضع القائم الذي يعزز هيبتهم وقوتهم وأرباحهم، وهؤلاء ليسوا الشخصيات الشريرة وحدها، ولكنهم أيضاً المسؤولون الحكوميون وأقاربهم الذين يتمتعون بوضع جيد ولديهم دوافع خفية لمقاومة إضفاء الطابع الرسمي على نظم المُلكية:

> في كثير من الأحيان ينظر منظمو الأحياء الفقيرة والزعماء السياسيون وزعماء العشائر إلى تنظيم حيازة الملكية على أنه يعمل على تأكُّل مركزهم الاجتماعي والاقتصادي المميز. أما مسؤولو البلدية والوزارات الذين يبدون سيطرة شبه مطلقة على القرارات المتعلقة بالأراضي، فإنهم لا يتخلون بسهولة عن سيطرتهم. وبالنسبة إلى التعاطف السياسي مع واضعي اليد، فإنه في كثير من الأحيان منخفض كثيراً. التغيير الذي يحسن ظروف البعض، سيؤدي بالضرورة إلى تأكّل نفوذ الآخرين السياسي والثقافي و/ أو الاقتصادي. ولهذه الأسباب كلها وغيرها، تعتبر العملية معقدة وسياسية وعنيفة في كثير من الأحيان (Durand-Lasserve and Royston 2002: 241).

يذكّر ديمارست (Demarest 2008) قائد عمليات تحقيق الاستقرار، المصاب بالحيرة لأن الطرق والعيادات الجديدة لا تفعل إلا قليلاً لكسب القلوب والعقول؛ بأن من المرجح أن يكون السكان المحليون أقل تعاطفاً معهم فقط حين يخفي مروجو عدم الاستقرار هويتهم ويفلتون من العقاب. ويختتم أن «النتيجة واضحة، وينصح بتنفيذ مشاريع السجلات العقارية المتعلقة بنظم البيانات الجغرافية على المستوى الصناعي في البلدات ذات المصالح الخاصة» (Demarest 2004: 1). ويعتبر ما نصح به ديمارست، قبل عدة سنوات ولأول مرة في تاريخ السجل العقاري، مجدياً الآن؛ وهو معيار لتحليل السجل العقاري عبر الثقافات والحدود الدولية.

أرسلوا المال والسلاح والمحامين

حالت حرب العصابات المستمرة والمكلفة في إسبانيا بين نابليون وترسيخ انتصاره العسكري هناك. فقد انسحب جيشه الكبير، الذي ضعف نتيجة للكارثة في روسيا، من شبه الجزيرة الأيبيرية في نهاية المطاف. لكن نابليون حين كان قادراً على ترسيخ قبضته في أوروبا، نفّذ في البلدان الواقعة في دلتا نهر الراين (إيطاليا وبعض الولايات الألمانية) إصلاحات تجارية وقانونية، وأخرى تتعلق بالنقل استمرت أطول بكثير من فترة حكمه. ليس من قبيل المصادفة أن يغذي توحيد الأوزان والمقاييس والعملات وتسجيل الملكية والضرائب – إضافة إلى التحسينات الداخلية مثل بناء الجسور والطرق والقنوات المائية

والقانون المدني والإصلاحات القضائية - ازدهار هذه الدول في القرن التاسع عشر. كما تحرك نابليون أيضاً لتحسين الحكم في إمبراطورتيه الكبيرة، وكان هذا الأمر واضحاً في سجله العقاري أكثر من أي مكان آخر. وتمكن باستخدام التحليلات الإحصائية، من تحسين التخطيط والكفاءة الحكومية. كما أوجد سجله العقاري نوعاً عالمياً من حقوق الملكية، ومن شأنه إزالة الصراع المدني الذي تسببه النزاعات الحدودية وتسهيل توحيد الضرائب.

يلفت أستاذ هندسة المساحة في جامعة فريس Ferris الحكومية، إلى أن السجل العقاري لنابليون، الذي يعود لعام 1808، لايزال واضحاً حتى يومنا هذا في القانون المدني، ولم يكن هذا السجل هو النتيجة الوحيدة للإمبراطورية المتوسعة، بل «عكسَ أيضاً التغييرات الاجتماعية في كل من الهيكل والأسلوب في هذا الوقت. ويعتبر هذا العمل من قبل نابليون مهماً جداً في ضوء تقنيات المعلومات والإدارة العامة» (Burtch 2006: 6). وبالفعل، فإن من الظواهر الاستثنائية أن تقوم الدول التابعة لنابليون، في نهاية القرن التاسع عشر، التي تعرف اليوم ببلجيكا وإيطاليا وألمانيا، بتطوير قواعدها السياسية والاقتصادية بسرعة، إلى درجة تمكّنها من منافسة الدول الأوروبية البحرية على المستعمرات والسيادة في الخارج.

بعد قرنين من السجل العقاري لنابليون، لا يوجد هناك معيار أو طريقة مقبولة أفضل لتقييم إدارة الأراضي عبر الحدود الدولية. «كل نظام متعلق بالأراضي يعكس السياق الثقافي والاجتماعي للبلد الذي يطبقه» (Steudler, Rajabifard and Williamson 2004: 4)، ولعل ذلك هو السبب في أن التسجيلات الرسمية للأراضي غير قابلة للتطبيق في "المستوطنات غير الرسمية"، وفي "الحيازة العرفية"، وفي "أوضاع ما بعد الصراعات"، حيث إن جميعها تزخر بمطالبات متنافسة على الأراضي. تعتبر إعادة توطين وإدماج 4.7 ملايين لاجئ أفغاني في المجتمع منذ عام 2002، كما يظهر في الشكل (20-2)، بالإضافة إلى 3 ملايين يعيشون حالياً تحت ضغط من باكستان وإيران للعودة إلى بلدهم، عملاً إنسانياً مستمراً منذ عقود وغير مسبوق في حجمه.

يلفت كونور فولي (Conor Foley 2003) المستشار في منظمات حقوق الإنسان واللاجئين إلى الآثار المترتبة على عمليات تحقيق الاستقرار في أفغانستان، ويقول:

> يعني القتال المستمر وانتهاكات حقوق الإنسان أن عديداً من الأفغانيين يظلون مشردين داخل بلادهم، ويحتلون في كثير من الأحيان أراضي غيرهم من السكان. تفاقمت مؤخراً أعمال النهب والتدمير الناجمة عن الحرب بسبب الجفاف الشديد، ما أدى إلى تدمير كثير من المناطق الريفية خلال 4 سنوات. وتبقى الصراعات على الأراضي سبباً مهماً للتوتر الداخلي في المجتمع الأفغاني. كذلك، فإن عدم قدرة المحاكم على معالجة هذه المشكلات له أثر كبير للغاية في حالة عدم الاستقرار. فقد وصف تقرير حديث صدر عن وحدة البحوث والتقييم الأفغانية المستقلة النزاعات على الأرض بأنها «الرقم واحد لمصدر الصراع» في أفغانستان (Foley 2003: 2).

الشكل (20-2)

لاجئون أفغان



المصدر: Photo courtesy of Luke Powell, www.lukepowell.com.

كذلك، فإن عدد اللاجئين من العراق منذ عام 2003 مؤلم، حيث إن مليوني عراقي غادروا بلادهم. وبالإضافة إلى ذلك، شرد 2.3 مليون عراقي آخر داخل العراق، حيث

فروا من بيوتهم ويعيشون في ظروف تشبه حياة اللاجئين (International Organization for Migration in Iraq 2007). ويشكل اللاجئون والمشردون العراقيون عدداً ضخماً، كما أن المأساة الإنسانية هناك تعطل عملية تحقيق الاستقرار بشكل كبير. لكن القرارات والتسويات الخاصة بالمطالبات المتعلقة بالأراضي في العراق تدعو إلى التفاؤل نظراً للإرث النابليوني. نشر الرائد دان ستيجل – وهو محام وقاض في الجيش الأمريكي، وتلقى تدريبه في القانون المدني في جامعة لويزيانا الحكومية، وعمل في العراق منذ 2003 – كثيراً عن القانون المدني العراقي منذ ذلك التاريخ. لفت ستيجل (Stigall 2008) إلى أن قانون الملكية العراقي مستمد في الأصل من القانون المدني الأوروبي، ولكنه يحتوي أيضاً عناصر من قانون الأراضي العثماني والإسلامي. وعلى الرغم من أنه لايزال هناك حاجة ماسة لزيادة القدرة الإدارية للقضاء، كان العراق وبقي قادراً على إدارة الأراضي بشكل سليم (Stigall 2008).

للأسف، الوضع في أفغانستان ليس هكذا. ولذا، فإن بناء القدرة على إدارة الأراضي والقضاء في تلك الدولة الممزقة سوف يأخذ عقوداً من الزمن. حين أوصى فولي المجتمع الدولي بإيجاد حل للآثار التي خلفتها أربعون سنة من القبلية والشيوعية والحكومة الدينية الإسلامية والإغراءات الحالية باقتصاد السوق الحرة، على الأراضي والملكية في أفغانستان، اختتم قائلاً: «أرسلوا المال والسلاح والمحامين» (Folley 2008: 177). ترسل الولايات المتحدة السلاح إلى أفغانستان، ولكن قليلاً من إدارة الأراضي في طريقه إلى هناك، لأن أدوات إدارة الأراضي والخبرة في صفوف العسكريين والمدنيين الأمريكيين العاملين في مجال التنمية/ المساعدة تافهة.

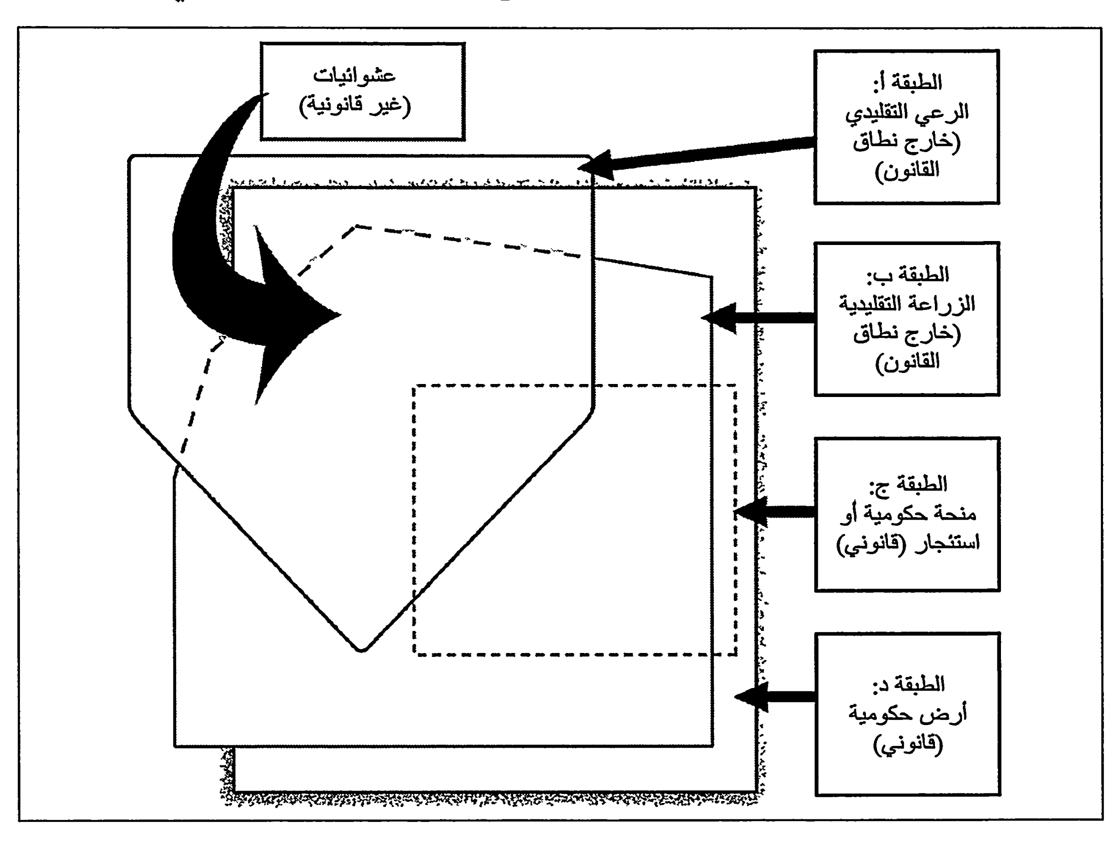
"نموذج إدارة ملكية الأراضي"

تعتبر نمذجة العلاقات المتبادلة والمتغيرة والمعقدة في العالم بين الأشخاص والأمكنة الجغرافية صعبة جداً في بيئات ما بعد الصراع، حيث تتجمع كتل بشرية من المشردين. ومع ذلك، فإن إعادة هؤلاء الناس إلى الأرض يعد جزءاً رئيسياً لأي عمل جاد لإعادة

إعمار البلاد. تجذب عمليات إعادة الإعمار الناس من مختلف وجهات النظر. هناك عديد من النظريات المتضاربة حول السجلات العقارية وكيفية تصحيح نظام إدارة العقارات المعيب أو المجزأ أو غير الموجود.

الشكل (20-3)

تعقيدات وصراعات نتجت من أنواع مختلفة من امتلاك الأراضي



المصدر: UN FAO.

تخيل أن الشكل (20-3) يمثل وادياً مروياً بشكل جيد في بلد نام. ففي كل عام تقوم عائلة من الرعاة بعمل ما كان أسلافها يقومون به لعقود؛ يجلبون مواشيهم للرعي في الوادي كل ربيع (انظر الطبقة "أ" في الشكل 20-3). ويوجد في الوادي نفسه مزارعون يمارسون العيش مثلما كان أسلافهم يفعلون (الطبقة "ب" في الشكل 20-3)، حيث يحترمون اتفاقاً شفوياً قائماً منذ مدة طويلة يقضي بالسماح للرعاة بحقوق المياه كل فصل

ربيع. وقد أجبر الجفاف الشديد مؤخراً جماعة إثنية على الهجرة من بلد مجاور إلى الوادي. أما الحكومة فهي ليست على علاقة صداقة مع البلد المجاور وتعتبر القادمين الجدد واضعي اليد على الأرض التي حلوا بها. قبل عقود مضت، وضعت حكومة جديدة، من دون علم الرعاة أو المزارعين، يدها على الوادي بأسره لكونه منطقة تملكها الدولة (الطبقة "د" في الشكل 20-3). ولم تحاول الحكومة قط تطوير الأرض إلى أن أبلغت شركة معادن أجنبية الحكومة بوجود مورد قيّم في جزء من الوادي، وبدأت مفاوضات لاستئجار ذلك الجزء (الطبقة "ج" في الشكل 20-3). لكل واحدة من هذه الطبقات الأربع، ولواضعي اليد على الطبقة شبه الخامسة، حق مختلف في العمل في الأرض. والآن عليك أن تتخيل كيف يكون حال قائد عمليات تحقيق الاستقرار المسؤول عن حفظ السلام في الوادي بعد حرب أهلية. التسوية السلمية تشمل الأطراف الأربعة المعترف بها. أما واضعو اليد في الوادي، المستبعدون من التسوية، فهم غاضبون بسبب عدم حصولهم على وضع لاجئين شرعيين، ولذا فإنهم يعقِّدون مهمة القائد بقدر كبير.

كما ذكر ديمارست (Demarest 2004)، يحتاج كل قائد عملية تحقيق الاستقرار في تسوية أي خلل، سجلاً عقارياً يستند إلى نظام معلومات جغرافي GIS قوي للغاية ودائم، وهذا لا ينصح به فحسب، بل إنه لا يمكن الاستغناء عنه أيضاً من حيث إنه مصدر أساسي للمعلومات حول الطيف الواسع للحقوق والمصالح الرسمية وغير الرسمية في الأرض. وتحتوي مثل هذه المعلومات على (FIG 1995):

- أشخاص لهم مصالح في قطع من الأراضي.
- مصالح في الأراضي؛ مثل طبيعة الحقوق والقيود والمسؤوليات ومدتها.
- تفاصيل أساسية حول قطعة الأرض؛ مثل الموقع والحجم والتحسينات والقيمة.

وقد تضمنت وكالات التنمية والمساعدة الأوروبية منذ مدة طويلة إضفاء الطابع الرسمي على الملكية في أجنداتها للمساعدة الخارجية والدمقرطة وحقوق الإنسان. وبتأسيس سجل عقاري شفاف في مناطق العالم، حيث إدارة الأراضي ضعيفة أو غير

موجودة، قام مدنيون مغمورون من الدول الأعضاء في حلف الناتو، ربما عن غير قصد، بطرد عشرات من الجهات غير الحكومية المؤذية من الساحة ببسالة نابليونية. وحتى لو منح مسّاحو السجل العقاري وسام جوقة الشرف برتبة فارس الذي أوجده نابليون عام 1802 للجدارة المدنية والعسكرية، فإن هذه الجائزة (أعلى وسام فرنسي) تعترف فقط بجزء صغير من البسالة التي حسّنت سبل عيش لا تعد ولا تحصى، ورسخت حكم القانون ووفرت مليارات الدولارات في النفقات العسكرية والشرطية.

إن الضرورة الملحة لمضاعفة الآثار الإيجابية للسجل العقاري في جميع أنحاء العالم النامي ربما كانت ذات خصيصة كمية من الناحية الديمغرافية. فبحلول عام 2050 سوف يعيش 3 مليارات إنسان بطريقة مربكة، من أصل تسعة مليارات مقدرة لعدد سكان العالم في ذلك الوقت، في مستوطنات غير رسمية من دون قيود رسمية للممتلكات (UN HABITAT 2001)، ما يؤدي إلى عالم غير مستقر. ومن أجل مواجهة هذا التحدي، فإن القدرة على قياس نظم مختلف السجلات العقارية في العالم ومقارنتها وتحليلها أصبحت وشيكة. في أواخر تسعينيات القرن الماضي، اشترك كل من جورج كوفمان ودانيال ستودلر في تأليف "سجل عقاري لعام 2014"، وهو نهج رائد لنمذجة مجال السجل العقاري ليس استناداً إلى قطعة الأرض، ولكن إلى أشياء قانونية تتعلق بالأرض. يلفت كوفمان إلى أن السجل العقاري بدوره التقليدي في توثيق الحقوق في الأرض والقيود والمسؤوليات يمكن أن ينظر إليه على أنه نظام محاسبة أو مسك الدفاتر لقضايا الأراضي، وفي نهاية المطاف يعد دعماً لفترة إعادة الإعمار في فترة ما بعد الصراع من خلال الانتقال إلى تنمية مستدامة (Kaufmann, 2000).

وقد طورت مجموعة بحثية في إدارة علم رياضيات الأرض بجامعة ملبورن في أستراليا نموذجاً للسجل العقاري يمكن أن يربط الأوجه العملية لنظُم إدارة الأرض في الدولة مع سياستها المتعلقة بالأرض (Williamson et al. 2009). إن المقارنات وكذلك الإحصاءات التي تقوم بها الدولة مفيدة بالفعل في إجراء التحليل. فعلى سبيل المثال، تشير

تقارير صدرت عن 42 دولة إلى أن 72٪ منها لديها نظم سجل عقارية تستند إلى سندات ملكية، و21٪ منها تستند إلى وثائق، أما الـ 7٪ الباقية فهي خليط من الاثنتين.

يمثل "السجل العقاري 2014" نقطة انطلاق جميلة، ولكنه نظري للغاية، ويتطلب سنوات للتنفيذ. يتم الآن فقط، ولأول مرة في التاريخ، تسجيل منهجي لحقوق ومصالح في الأراضي لا تستند إلى عنوان، ويتواءم ذلك عملياً مع "نموذج إدارة ملكية الأراضي" LADM؛ وهو نهج مفاهيمي جديد في إدارة الأراضي. ويمتلك هذا النهج، مع المكونات المكانية والقانونية/ الإدارية المرونة اللازمة لتحديد موقع جغرافي ووصف وتسجيل الملكيات الاجتماعية العرفية، وحتى المطالبات من دون أسس قانونية واضحة. إن مصممي "نموذج إدارة ملكية الأراضي"، وهم خبراء التسجيل العقاري الهولنديون كريستيان ليمين وبيتر فان أوستروم وبول فان در مولن، بالإضافة إلى كلاريسا أوغستينس رئيسة وحدة الملكية لدى برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية UN HABITAT، في نيروبي، قد جعلوا هذا النموذج إجبارياً. ومن شأن هذا النهج توضيح الأنواع المختلفة من حقوق الأرض والقيود والمسؤوليات المتصلة بها. إنه على درجة من المرونة بحيث يسجل أنواع حيازة الأراضي التي لا تستند إلى قطع تقليدية في السجل العقاري، أي حقوق الأراضي العرفية وغير الرسمية مثل وضع اليد وحق الانتفاع والتأجير أو العبور.

وقد حصل نهج "نموذج إدارة ملكية الأراضي"، وهو لا يزال تحت التطوير ويخضع لتجربة ميدانية، على دعم من الهيئات المهنية ووكالات المقاييس مثل "اتحاد المساحين الدوليين" FIG، و"اتحاد نظم المعلومات الجغرافية المفتوحة" OGC، وبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية، و"البنية التحتية للمعلومات المكانية في أوروبا" (EU INSPIRE) (van Oosterom et al. 2006). وفي عام 2008، قبلت منظمة المقاييس الدولية (ISO/TC211)، الهيئة المسؤولة عن تحديد كافة المقاييس الدولية نهج "نموذج إدارة ملكية الأراضي" من حيث هو "بند عمل جديد مقترح" برقم 1954. وحتى كتابة هذه السطور،

أحرز مشـروع العمل تقدماً، وأصبح مشـروع لجنـة. وفي نهايـة 2009، اتخـذ "نمـوذج إدارة ملكيـة الأراضي" رمـزاً هـو ISO 19152. ومـن المتوقـع أن يصـبح مشــروع معيـار دولي. ويوحي الجدول الزمني بأنه بحلول عام 2011 [التوقع بحسب تاريخ كتابة الدراسة] يمكـن أن يصبح هذا النموذج أول معيار دولي للتسجيل العقاري (Lemmen et al. 2009).

سيكون "نموذج إدارة ملكية الأراضي" أداة لا تقدر بثمن في السيناريو الذي نـوقش في الشكل (20–3)؛ لأنه قلص النماذج المعقدة لقواعد البيانات التي تقوم عـلى السـجلات العقارية المستندة إلى سندات ملكية، وحوّلها إلى قاعدة سهلة، مفادها أن العلاقة (الحقوق، والملكية الاجتماعية) موجودة دائماً بين الأرض (أجسـام مكانيـة) والنـاس. ومهـما كانـت النزاعات على الأرض في العالم فوضوية، فإنه لا شـيء يقع خارج هذه القاعدة. ثم يترجم "نموذج إدارة ملكية الأراضي" هذه الفئات الثلاث [الحقوق والأرض والنـاس] إلى لغـة نمذجة موحدة، لتأسيس ثلاث فئات لسجله العقاري: الحق، الشخص، الجسم المكاني، في ذلك الترتيب. يتيح "نموذج إدارة ملكيـة الأراضي" تسـجيل وإصـلاح «العلاقـات بـين الناس والأرض بغض النظر عن طبيعة التشـريع في أي بلد. ومن شأن هذه القـدرة تـوفير فرص لإدماج الترتيبات القانونية والعرفية وغـير الرسـمية ضـمن نظـم إدارة الأراضــي التقليدية» (Lemmen et al. 2007: 7). ونظراً إلى أن النموذج يجب أن يكون قـادراً عـلى استيعاب أي إطار قانوني، فإنه يتيح مرونة هائلة في وصف الأشـخاص والأمكنـة المعنيـة وفي تسجيل الحقوق التي لا تستند إلى سندات ملكية بصورة منهجيـة. ويمكـن للنمـوذج إدماج نظـم ملكيـة الأرض الرسـمية وغـير الرسـمية والسـجلات العقاريـة الحضـريـة والريفية في بيئة بيانات واحدة. وتغطي هـذه جميـع العناصــر الأساسـية المتعلقـة بقاعـدة البيانات (Lemmen et al.2009: 4-5):

- مخطط تجريدي ومفاهيمي مع خمس مجموعات أساسية تتعلق: بالناس والمنظمات (الأطراف وفق مصطلحات النموذج)، وقطع الأرض (الوحدات المكانية وفـق مصطلحات النموذج)، وحقوق الملكيـة (الحقـوق، المسـؤوليات، القيـود وفـق مصطلحات النموذج)، والمسح والهندسة، والطبوغرافيا.

- اصطلاحات مبسطة لإدارة الأراضي تستند إلى عدة نظم وطنية ودولية؛ ويمكن للاصطلاح وصف ممارسات وإجراءات مختلفة في عديد من نظم القضاء المختلفة.
- أساس لملفات استخدام الأراضي الوطنية والإقليمية.
- توليفة متناسقة لمعلومات إدارة الأراضي من مصادر مختلفة.

عملياً، يربط "نموذج إدارة ملكية الأراضي" البيانات المكانية من نظم مختلفة. ففي الماضي، كان هذا الربط مثيراً للمشكلات بالنسبة إلى المعلومات المتعلقة بالأرض، ويعود سبب ذلك جزئياً إلى بنية قاعدة البيانات. إن تسجيل المشاهد الطبيعية مع عدد لا يحصى من حيازات الأراضي يتطلب من المرء ربط بيانات مختلفة، وهذا ما يتميز به ذلك النموذج. يعتبر هذا النموذج أقل من قاعدة للمعلومات، حيث يمكن وضع أي شيء، حتى الصور والمخططات المرسومة باليد في الوثيقة، مادامت تسجل دليلاً له صلة بالملكية وحقوق أشخاص يطالبون بها. ولذا فإن نظام "نموذج إدارة ملكية الأراضي" يلائم تسجيل سندات الملكية بشكل خاص. وعلاوة على ذلك، يعِد نظام هذا النموذج بالمزايا التالية (Lemmen et al.2007):

- نظُم ملكية رسمية وغير رسمية يمكن الاحتفاظ بها في نظام حاسوبي واحد للبيانات.
- النظام القائم على الحاسوب يمكن عكسه إلى نظام يستند إلى الأوراق والعكس.
- يمكن تمثيل البيانات المكانية في شبكات جيوديسية (أقصر خط بين نقطتين) قائمة، وفي إطارات مكانية جديدة.
- يمكن ربط البيانات المكانية مع نظم أخرى.
- النظام الحاسوبي موزع وغير مركزي، وتتم معالجته في الوقت نفسه في عدد من أجهزة الحاسوب المربوطة بشبكة، ما يجعله قابلاً للاستخدام مركزياً ومحلياً.

- بيانات المصدر يمكن أن تكون من النوع المتباين مع دقة مكانية جغرافية مختلفة.
- يمكن أن تتداخل ملكيات مختلفة بعضها مع بعض.
- يمكن تحديد الأمكنة من خلال تشكيلة من أدوات التعريف: أجزاء جغرافية مرجعية، وأجزاء لا مرجعية لها، وخطوط، ونقاط.
- يمكن تسجيل النزاعات.
- يمكن تسجيل حقوق المرأة في الأرض، ولذا يمكن حفظها.
- يمكن تقديم وصف للعلاقات المعقدة.

مثالياً، ينبغي أن تخدم إدارة الأراضي صانعي القرار على المستويات الوطنية والإقليمية والمحلية، كما ينبغي أن تعزز عملية اتخاذ القرار اللامركزية. وهذا هو المفهوم الأساسي وراء نظام "نموذج إدارة ملكية الأراضي"، حيث إنه: ينتج ويوفر تسجيل الأراضي (العنصر الإداري/ القانوني)، ورسم الخرائط المساحية جغرافياً (العنصر المكاني)، لأولئك الأشخاص الذين يديرون الأرض محلياً، حيث الحكم غير المركزي أو غير الفعال. ومن شأن النموذج أن يسمح بتنسيق عمودي أفضل، بين المصالح المحلية/ المجتمعية من "القاع إلى القمة" والإرشادات الخاصة بالمعلومات والسياسة من "القمة إلى القاع". وحين يجري تطوير السياسات الوطنية للأراضي، يمكن توحيدها مع برامج ملْكية محلية تضفَى عليها صفة الرسمية (Lemmen et al. 2007). لذا فإن "نموذج إدارة ملكية الأراضي" يسهل إعادة تأهيل كل من الحكم المحلي والمركزي. ويمكن له أيضاً أن يدعم عمليات إعادة الاستقرار من خلال تسجيل جميع أشكال حقوق الأرض (وحتى المطالبات)، وجميع أنواع أصحاب الحقوق، وجميع أنواع الأشياء المتعلقة بالأراضي والممتلكات (الوحدات المكانية) بغض النظر عن مستوى الإجراءات الشكلية. كما أنه يركز على حقوق الأرض والممتلكات التي لم تسجّل أو غير القابلة للتسجيل، بالإضافة إلى المطالبات المتداخلة بشأن "مَن" و"أين" و"أيُّ حق؟" بالنسبة إلى قطعة معينة من الأرض.

وفي حين أن لدى بعض مشاريع المساعدة الأجنبية نظُم ملْكية محدّثة، فإن هذه لم تطلب بإلحاح منتجاً بصورة بيانات رقمية وشفافة للملكية (Demarest 2008). كيف لهذا النهج تعزيز التنمية المستدامة؟ إن بيانات السجل العقاري القابلة للتحليل يمكنها دعم تنفيذ القانون وتوجيه إعادة الإعمار بعد انتهاء الصراع. أدرك نابليون كيف أن سجلاً عقارياً جيداً يخفض النزاع المدني، ويعزز التنمية الاقتصادية، ويرسي حكم القانون. وكل هذه أهداف رئيسية للدولة في عمليات تحقيق الاستقرار. وقد قال نابليون بونابرت:

> تتمثل الطريقة الوحيدة لوضع حد للالتباس في مجال السجلات العامة للأرض في المضي قدماً في مسح وتقييم كل قطعة أرض على حدة في مجتمعات الإمبراطورية كافة. والسجل العقاري الذي يتضمن تكملة لقانوني [المدني]، سيكون جيداً بقدر أخذه في الاعتبار عملية حيازة الأراضي. وينبغي أن تكون الخرائط دقيقة وكاملة بقدر كاف من أجل أن تقرر الحدود بين الممتلكات الفردية وتمنع إقامة الدعاوى (Napoleon Bonaparte, in Burtch 2006: 6).

الخلاصة

في عمليات تحقيق الاستقرار، تحصل توترات محلية بين الجهات العسكرية والمدنية، ودولية بين الولايات المتحدة وأعضاء حلف الناتو. يشكل اختلال توازن الواردات بين وزارة الدفاع الأمريكية مقابل وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID مصدر إزعاج للوكالات المدنية المُرهقة بالضرائب، ما يعوق التعاون بين الوكالات. على الصعيد الدولي، يتفوق الجيش الأمريكي القوي والسريع الحركة على الشركاء من حلف الناتو في قدرات انتشار القوات والعمليات اللوجستية والحريات القانونية للعمل. ويمكن لـ "نموذج إدارة ملكية الأراضي" أن يكون أداة توحيد محلياً ودولياً.

على الصعيد المحلي، يتعين على جمعية البيانات الجغرافية الفيدرالية الأمريكية FGDC، وهي لجنة قائمة ما بين الوكالات تعزز تنسيق التنمية واستخدام البيانات الجغرافية المكانية على مستوى الدولة وتشارك فيها وتنشرها، أن تدرس "نموذج إدارة ملكية الأراضي" ومدى حاجة المنظمات العسكرية والمدنية الأمريكية له. فالساحة مفتوحة

لتعلم اللغة العالمية لإدارة الأراضي، وليست هناك مزية متأصلة تفضل الخدمات العسكرية والوكالات المدنية على بعضها. ومن خلال إدماج تحليل السجل العقاري مع التخطيط وعملية اتخاذ القرار، سيتعلم المسؤولون العسكريون والمدنيون بعض الحقائق المذهلة التي يستطيعون من خلالها تحسين مجالات عمليات تحقيق الاستقرار التي تخصهم بصورة ملحوظة.

أولاً، تظل الدول النامية ناميةً حتى بعد ضخ كميات هائلة من المساعدات الخارجية؛ لأن الناس الذين ليس لديهم أرض، لا يكون لديهم سوى حافز ضئيل على الانخراط في عمل اقتصادي منتج (Freye 2004). باختصار، تعد حقوق الملكية مرتكزاً للتنمية الاقتصادية والمجتمع المدني. وتعتبر المساعدة الأجنبية في غياب هذه الملكية هدراً للوقت والمال (Demarest).

ثانياً، يشكل السجل العقاري الشفاف جغرافيات تستخدم لعمليات استخبارية فعالة ضد جهات فاعلة من خارج الدولة. وبعبارة أخرى، تعتبر معرفة الجوانب الجغرافية الطبيعية نصف الأحجية؛ إذ إن عدم تفسير الثقافات البشرية من خلال بيانات الملكية هو بمنزلة عدم فهم للمجتمع (Demarest 2008).

على الصعيد الدولي، يصبح السجل العقاري لنابليون أكثر تأثيراً من تكتيكاته في ميدان المعركة، فهل على الشركاء في حلف الناتو نقل المعرفة الأصلية من أجل عمليات تحقيق الاستقرار؛ أي خبرتهم في السجلات العقارية؟ إدارة الأراضي فرع من فروع الدراسة المهنية في أوروبا ويشبه إلى حد كبير علم رياضيات الأرض في أستراليا وكندا. وفي حين يمكن إيجاد دورة واحدة فقط حول إدارة الأراضي العالمية في الولايات المتحدة في جامعة فلوريدا، تمنح دول أوروبية عديدة شهادات دراسات عليا كاملة في هذا المجال، ويُدرّس عديد منها باللغة الإنجليزية. ومن خلال تنفيذ المعرفة الفنية النابليونية في السياسة الخارجية الأمريكية وبرامج التنمية والجهود المدنية والعسكرية لإعادة الإعمار، يمكن أن يصبح تحليل السجل العقاري جزءاً فعالاً في تحول الصراع، وعنصراً موحِّداً في عمليات تحقيق الاستقرار التي تنفذها مختلف أقسام الحكومة الأمريكية والحلفاء.

الفصل الحادي والعشـرون

الإبادة الجماعية للهوية الثقافية في سـراييفو: تدمير المكتبة الوطنية والجامعية في البوسنة والهرسك

سارة جين ميهارج

مقدمة

> لآلاف السنين، ظلت المكتبة تمثل حصناً للمعرفة محروساً بعناية، وقلعةَ معلوماتٍ اعتبرهـا بُناتهـا ذات قيمة عالية وخطيرة. ومكتبة المدينة هي من أول أهداف الجيوش المنتصـرة؛ إما لنقلها بعيـداً بوصفها غنيمة، أو إحراقها؛ في محاولة لحرق قلب حضارة أجنبية (Donald 2001: 1).

قُصفت "المكتبة الوطنية والجامعية في البوسنة والهرسك" في سـراييفو، وتم تـدميرها خلال "حصار سـراييفو" عام 1992. وعلى الرغم من أنه كان يعتقد أن إحراق الأرشـيف والمكتبات تكتيك يخص الأزمنة الماضية، فإنه عاد مرة أخرى على أنه طريقـة لمحـو وجـود الشـعوب المهمشـة. إن الفعـل المتعمـد بمهاجمـة القلـب الثقـافي في سـراييفو باسـتخدام تكتيكات الحصار، يشير إلى استراتيجية أوسع كانت تستخدم من قبل القوات المحاربة. إن إبادة الهوية الثقافية، وهي الاستهداف المتعمد وتدمير الأمكنة والنـاس والممارسـات التـي تمثل هوية مجموعة، تؤطر هذه الاستراتيجية الأوسـع وتقـدم منطقـاً لثقافـة الحـرب التـي نشبت في يوغسلافيا السابقة بين الأعوام 1990-1995.

كانت المكتبة القديمة التي فيها مجموعـات مـن الكتـب والمراجـع الثقافيـة والإثنيـة المتعددة عبارة عن بناية مشهورة تسمى فيجكنيكا Vijecnica، وقـد اسـتخدم اسـتهدافها وتدميرها ضد المدنيين المسلمين البوسنيين في سـراييفو نوعاً من التكتيك لإضـعاف هويـة المجموعة (في الحاضـر والمستقبل)، ولتخليص المنطقة من رمـز مهـم يمثـل تاريخـاً ثقافيـاً

كاملاً لشعب من الشعوب. وتعتبر المكتبة المدمرة مثالاً للجغرافيا العسكرية موضحة من خلال نظرية إبادة الهوية الثقافية وتكتيكات الحروب الثقافية السيئة السمعة في تسعينيات القرن الماضي. تستحق آثار النشاطات العسكرية تجاه الأمكنة الثقافية الدراسة، حيث إنها تغير الهويات وتحرض على أفعال تدميرية إضافية يمكنها أن تغير إلى الأبد المشهد الإنساني الذي يعيش فيه الناس ويعملون. العملية العسكرية التي سعت لتدمير فيجكنيكا من خلال حصار سراييفو هي محور هذا الفصل.

فهم الناس وأمكنتهم

يرتبط الناس بأمكنتهم ارتباطاً وثيقاً؛ لأنه في المكان المعتاد، وحتى المكان الذي تمارس فيه الشعائر الدينية، تبني الممارسات اليومية هويات مميزة. تعني الهوية النوعية الحالة التي يكون فيها الشخص أو الشيء مميزاً، وتشير إلى حالة وجود أو ارتباط بنفس المادة والطبيعة والنوعيات التي يمكن أن تقرر دور المرء بالنسبة للمجتمع. وتبدأ الهوية بالشخص وفهمه/ فهمها، والشعور بالذات بناء على تاريخ/ إرث مجموعة وذاكرة جماعية، وبناء على خبرة. وبقدر ما تشير الهوية إلى الخصائص المشتركة بين الأفراد والمجموعات، فإنها تشير إلى كل من الظروف المادية التي تشكل المكان والسلوك والمعتقدات والأفعال والرموز والشعائر التي تحققت في مثل هذه الأمكنة.

لا يمكن فصل الناس عن عالمهم المكاني لأنهم يولدون فيه ويستمرون في إيجاده بالتعبير عن القيم والمعتقدات الثقافية من خلاله، ولذا يوجدون الأمكنة. ومن خلال إيجاد هذه الأمكنة، فإننا نبني الهويات التي تسمح لنا بتوجيه أنفسنا وجعل معنى للعالم وضمان الاستمرار الثقافي (Connerton 1989; Osborne 2002).

يصبح المكان مميزاً ومحدداً لأن سلسلة من الأحداث تحصل فيه، حقيقية كانت أو متخيلة. ويعتبر هذا الشعور بالمكان من عمل الطبيعة والثقافة استناداً إلى حقب تاريخية تستعيدها ذاكرة فردية وجماعية. ونظراً إلى أن عناصر الرمزية والمعنى تخلق خصوصية

للمكان، فإنها تعمل أيضاً من حيث هي أفكار للذاكرة الجماعية التي تدعم تلاحم الجماعات وهوياتها (Halbwachs 1992: Connerton 1989; Fentress and Wickham 1992;Hutton 1993;Gillis 1994;Nona 1996). ومن شأن خصوصية المكان هذه أن تقوي العرقية والثقافة والهوية. ولبعض الأمكنة قيمة كبيرة لدى المجموعات الثقافية التي تنتمي إليها، وتدل المؤشرات على الإرث والقدسية، كما أن الماضي الجماعي يساعد الناس على تذكر وإعطاء معنى لحياتهم (Sack 1997). وتصبح الأمكنة، والعناصر المادية التي تحددها، جزءاً من منهجية الثقافات، وهي تبني مكونات الهوية. وحين تتحقق عناصر الثقافة في مشهد ما، لا يتوافر لأولئك الذين يعيشون في هذا المشهد كثير من الخيارات سوى ربط هويتهم بتلك الأمكنة بعينها (Mitchell 2001).

يشير الخبراء إلى أن عناصر هوية المجموعة، بما في ذلك التاريخ والإرث والمكتبات والآثار والفن والموسيقى والجنس واللغة والدين والشعائر والاقتصاد والسياسة والذكريات الجماعية والمشاهد الثقافية، من بين أمور أخرى؛ هي رموز تمثيلية قوية للناس بقدر وجودهم نفسه (Shirinian , 2000; Osborne, 2002). وعلاوة على ذلك، فإن فكرة المكان بوصفه عاملاً للهوية مهمة؛ بسبب الشعور بالانتماء بين الناس وأمكنتهم، والذي يعدل بدوره الممارسات والسلوكيات الثقافية. يخلق هذا الشعور بالارتباط نوعاً من التعاطف بين الناس وأمكنتهم. إن الهويات متجذرة في المكان؛ لأن الناس يحددون المجتمع من خلالها، ويتواصلون بها، ومن أجلها.

ممارسات الحرب

تعد الهوية من بين أكثر العوامل الاجتماعية البارزة، ويمكن أن تثير أكبر درجة من التناقض والصراع بين الشعوب (Herb and Kaplan 1999). وقد قطعت بعض المجتمعات أشواطاً طويلة في استهداف الأمكنة الثقافية والممارسات، وتفريق الجماعات المتنازعة بالقوة، والتدمير المتعمد والمنهجي لشعب بأكمله. ولا تعتبر استراتيجيات الحرب هذه، التي تشوه سمعة الناس وتدمرهم وتدمر أمكنتهم، جديدةً. وقبل القرن التاسع

عشـر، لم تكن القوانين الدولية للحرب موحدة. وعلى الرغم مـن وجـود مـا كـان يسـمى الممارسات التقليدية للحرب، فقد ظلت الحـروب غـير منظمـة وكانـت أفعـال الأطـراف المتحاربة غير محدودة (Jote 1994).

كان الاستيلاء على الغنائم وعمليـات الاغتصـاب وسـوء المعاملـة وهـدم المنشـآت المعمارية الشهيرة وإحراق المكتبات والأرشيف والمتاحف كلها تكتيكات حربية فعالة عـبر العصور (Nicholas, quoted in Simpson 1997) وأصبحت جزءاً من ثقافـة التجنيـد. وكان جزء من مكافأة الجندي يأتي من نهب سلع مجموعة مهزومة بعد انتهاء المعركة. ومـن شأن مثل هذا السلوك المسموح به، جعل الأشياء الثقافية أهدافاً والتـي يمكـن أن تصـبح جوائز الغزو (Jote 1994)، ووسيلة لتقويض مجموعة مهزومة عـن طريـق مهاجمـة رمـوز هويتها.

على الرغم من أن استهداف النقاط العسـكرية الاسـتراتيجية مثـل مصـانع الـذخائر وخطوط النقل وخطوط الاتصالات لايزال تكتيكاً حربياً فعالاً، فإن هناك وعيـاً متزايـداً بالأثر الذي يحدثه تـدمير الرمـوز والنـاس والأمكنـة والممارسـات عـلى الشـعوب المدنيـة المتنازعة. وتعتبر هذه التكتيكات بعض أكثر أدوات الحرب فاعلية، حيث تـم إحياؤهـا في السنوات الأخيرة. تتميز الحرب المسلحة الحديثة بالوحشية التي تعتبر من ذكريات عصــر آخر، وتستهدف المدنيين من قبل قوات متمردة أو مليشيات وثـوار، مـع اضـطرار قـوات نظامية (ما يدعو للاستغراب) للامتثال لقانون النزاع المسلح.

ويتجلى هذا في أوضح صوره حين تكون السلسلة الهرميـة السـائدة في السـلطة عـلى شكل أنظمة سياسية أبعدت من قبل أناس متنافسين، وأمكنتهم، وممارساتهم. وفي كثير من الأحيان، تنشأ استراتيجيات لتدمير الأمكنة والممارسات الثقافية في وسـيلة للـتخلص مـن منطقة مجموعة مهمشة أو متنازع عليها علناً، ما يمكن أن تصبح شكلاً من أشكال القومية المرتبطة بالإقليم (Kaplan 1993;Cigar 1995; Wood 2001). ويمكن تحقيـق هـذا، في العادة، من خلال التلاعب بالرموز والسيطرة عليها، وبالتالي أقلمة المكان الذي يضمهم.

شهدت الحروب السياسية العرقية التي افتعلت في تسعينيات القرن الماضي حركات سياسية تسعى للسيطرة على النتاج الاجتماعي للمكان والمشهد الطبيعي لاستغلال المواطنين (Cigar 1995; Allcock 2000; Glenny 2000; Mitchell 2011). فعلى سبيل المثال، قام مشعلو الحرائق البروتستانت بإضرام النار في عشر كنائس كاثوليكية في أيرلندا الشمالية، وتم تدمير ثلاث منها. وقد وصف ديفيد تريمبل، زعيم حزب ألستر الوحدوي العمل بأنه شكل من أشكال الجنون الطائفي، في حين وصفه القس إيان بيسلي بأنه ليس مستغرباً ممن يحاربون الكاثوليكية، واتفق كل من الفصيلين المتحاربين على اعتبار استهداف المواقع المدنية المهمة من الناحية الثقافية عملاً عبثياً. بين الأعوام 1991 و1994 تم تدمير 16 مسجداً و11 كنيسة رومانية كاثوليكية في بانيا لوكا في البوسنة والهرسك (معظمها تم تدميره منهجياً بالديناميت ومن ثم جرفه بالبلدوزرات)، على الرغم من أنه لم يكن هناك قتال فعلي في المدينة التي كانت تحت سيطرة الصرب طوال فترة الحرب. وقد جعل التدمير إعادة الإعمار التاريخية مستحيلة. ووفقاً لدودز (Dodds 1994: 48) فقد «نقلت صحيفة وطنية عن مسؤولين صرب بوسنيين قولهم إن الموقع الذي سُوّي بالأرض [مسجد باسينا] سيكون موقفاً ممتازاً للسيارات». يعكس الاستخدام المتزايد لهذه الاستراتيجية المدمرة الإدراك المتنامي بأهمية الرموز من حيث هي مفتاح لهوية أي مجموعة. ويعتقد المهاجمون أن استهداف رموز الثقافة يقلل من نقل الذاكرة والهوية لأجيال المستقبل، ومن ثم، يمحو وجود مجموعة مستهدفة.

الإبادة الجماعية للهوية الثقافية

إن الإبادة المتعمدة لهوية مجموعة من خلال تدمير الأمكنة والناس والممارسات هي أسس الإبادة الجماعية. والإبادة الجماعية، في السياق العسكري، هي استراتيجية حرب تستهدف عن قصد العناصر الثقافية وتدمرها من خلال تشكيلة من الوسائل من أجل المساهمة في التمازج الثقافي في نهاية المطاف، وإزالة و/ أو التدمير الكلي لمجموعة ذات هوية معينة، بما في ذلك شعاراتهم ورموزهم وسلوكهم وقيمهم وإرثهم وأمكنتهم وإنجازاتهم (Mehrag 1999).

وتختلف الإبادة الجماعية عن التطهير العرقي في عدة نواح؛ فالتطهير العرقي هو تعبير عن سياسة تشير إلى الاضطهاد، والترحيل الجماعي، والاغتصاب، واقتراف الجرائم بحق أقلية عرقية من قبل أغلبية عرقية في منطقة معينة، ضمن يوغسلافيا السابقة، من أجل تحقيق التجانس العرقي في المنطقة التي تسيطر عليها الأغلبية. إنه اعتداء مباشر على السكان. وبهذه الطريقة يعتبر التطهير العرقي نشاطاً يشبه الإبادة الجماعية. وبالمقارنة، تعتبر الإبادة الجماعية للهوية الثقافية اعتداء ضد الأمكنة وسكانها والنتائج التي تم التفاوض عليها بشأن الهوية الثقافية. وتشير الإبادة الجماعية للهوية الثقافية بمعناها الحرفي إلى القتل العمد الذي يصنف بالقتل على الهوية. ولذا، فمن المهم في معنى الإبادة الجماعية للهوية الثقافية فهم فكرة الهوية، وما يتم تدميره في عملية قتلها. إبادة الهوية الثقافية هي مقدمة للإبادة الجماعية.

الإبادة الجماعية للهوية الثقافية، في السياق العسكري، هي قتل الصلة بين السكان والمكان، وإزالة العلاقة التي تربط الفرد والمجتمع والهوية الوطنية. تكون طريقة تدمير السكان وأمكنتهم في أوضح صورها حين يتم تطبيقها من خلال وسائل عسكرية. ومع ذلك، فإن الاستراتيجية يمكن أن تستخدم أيضاً خارج نطاق البنادق والقنابل من خلال الحرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها. في العادة، تستخدم الإبادة الجماعية للهوية الثقافية على أنها استراتيجية حرب، ضد المشاهد الطبيعية المادية التي يدعي الناس أنها ملكهم، وهي تدمير الأمكنة التي ليس لها أهمية عسكرية، ومع ذلك تستهدف استراتيجياً في محاولة لإزالة هوية سكانها. الإبادة الجماعية للهوية الثقافية لها معناها الخاص بها، وهي ليست عرضية أو نتيجة لحرب مسلحة عصرية.

إن القرارات الاستراتيجية لاستهداف وتدمير عناصر الهوية هي قرارات متعمدة. ومع ذلك، فإن مثل هذا التدمير يتخفى تحت ما يسمى أضراراً غير مباشرة وغير مقصودة. تشير أمثلة حديثة مثل إزالة جسر موستار في البوسنة، وتدمير تماثيل بوذا في باميان بأفغانستان، وبرجَي مركز التجارة العالمي في نيويورك، إلى أن هذه الأمكنة كانت أهدافاً ذات قيمة عالية و"بصمات رمزية" واسعة، تذهب إلى أبعد بكثير من قيمتها المادية؛

لتعزيز جهود الحرب. وكما أشار أحد الصحفيين، فإن الخسائر الثقافية للحروب ليست «حوادث عرضية للأعمال العدائية. لقد كانت واحدة من أهداف الحرب لتدمير الهوية. يمكنك فعل ذلك بعدة طرق: تقتل الناس، ويمكنك إذلالهم، واغتصابهم، وطردهم من بيوتهم؛ ويمكنك تدمير هوية المكان الطبيعية والتاريخية» (Dodds 1994: 52). تأخذ الإبادة الجماعية للهوية الثقافية عدة أشكال ولكنها تخدم هدفاً واحداً: تقود إلى هلاك الناس وأمكنتهم وممارساتهم.

إن المطالبات بماضي المرء يتم التحريض عليها بتدمير أو تعريض ذلك الماضي للخطر، وبخاصة الرموز والسمات التي أوجدته. بل إن إمكانية التعرض للتهديد، تجعل المجموعة المستهدفة تفعل كل ما بوسعها للاحتفاظ بشيء من الماضي. ويمكن أن تتم حماية عناصر الهندسة المعمارية والتاريخ المحفوظ أو المكتوب والمشاهد الطبيعية والصناعة والرموز التي تمثلها، بوساطة العنف من قبل أولئك الذين يدعون الهوية من خلال وجودها. ويمكن للمجموعة المستهدفة أن تعيد تجميع نفسها والعودة لتنشيط هذه الرموز والإرث والتراث الشعبي؛ أي تقوية هويتها من خلال التذكر الجماعي، على الرغم من وجود نيات لإزالة رموزها (Shirinian 2000).

بالنظر إلى طبيعة التدمير الذي تنطوي عليه الإبادة الجماعية للهوية الثقافية، من الممكن تحديد منطق للتدمير يحدد أهدافه. وفي ضوء هجمات منهجية حديثة على ممتلكات ثقافية مهمة خلال أحد الصراعات، تظهر استراتيجية الإبادة الجماعية للهوية الثقافية على أنه عنصر يستخدم على نطاق واسع في الحروب المعاصرة من قبل القوات النظامية وغير النظامية. ومع ذلك، يعتقد عديد من القوات الغربية النظامية أن مثل هذه التكتيكات هي فعل ومسؤولية قوات غير نظامية. لكن ثمة بلداناً لديها قوات نظامية ووقّع بعضها اتفاقيات جنيف ولاهاي، استخدمت استراتيجية الإبادة الجماعية للهوية الثقافية. فعلى سبيل المثال دمر الجيش البريطاني في حرب البوير في جنوب أفريقيا العناصر المادية للثقافة مثل المزارع والمنازل، كما أن اليابانيين استخدموا ذلك ضد الصينيين في نانكينج بشن حرب ضد ثقافة "الشرف" لدى السكان، والاغتصاب وتدنيس النساء والأطفال

والعناصر المادية المقدسة. وحين يتم استهداف الرموز الثقافية القوية عن عمد، ويتم تدميرها، فإن الظاهرة التي تنتج من ذلك تغيّر الهويات إلى الأبد، وتتيح منظوراً يمكن من خلاله فهم الجغرافيا العسكرية.

إحراق المكتبات: منظور جغرافي عسكري

المكتبة أكثر من مبنى يحتوي على كتب. إنها ذاكرة جماعية للناس كتبت خلال العصور بلغات مختلفة وبطرق مختلفة وبآراء مختلفة. ومن حيث هيئة العمل، تمثل المكتبة ذروة الفكر والتقدم خلال حقبة معينة. المكتبة جهاز يتعلق بالذاكرة؛ لأنه يحمل الذاكرة والإرث وتاريخ حضارة. وبهذا، فالمكتبة بالفعل هي قصر الذاكرة (Donald 2001).

يناقش فان دير هويفن (Hoeven 1996) ويوشكيافيتشس (Yushkiavitshus 2000) مسألة أن توترات سياسية ونزاعات مسلحة تسببت في مواقف متوترة للمكتبات، حيث إن نظُماً حديثة تشعر أنها ملزمة باتخاذ إجراءات لحماية أيديولوجياتها الخاصة، وبدأت بتدمير الحضارات التي تهددها. وبالفعل، فإن معظم المحاولات لإزالة التعددية رافقتها عمليات إحراق للكتب (Riedlmayer 1995). يناقش دونالد:

> القوة الظاهرة لهذه [المكتبات] وبخاصة قدرتها على التسبب في تجمع كبير للناس للعمل وحدةً واحدة، كانت تعني منذ البداية أنها مرتبطة بالسحر الكهنوتي والطقوس الإمبراطورية والامتيازات والنخبوية؛ ولذا لم يكن من المستغرب أن الغزاة عملوا دائماً على تدمير المكتبات وجعل ذلك في أعلى سلم أولوياتهم (Donald 2001: 5).

على الرغم من أنه لم يكن من المجدي تدمير جميع الكتب خلال هذه التوترات، فإن إحراق المكتبات سرعان ما أصبح نمطاً من أنماط الحرب بالنسبة إلى الأشخاص الذين يطمحون إلى الهيمنة. وفي القرن العشرين، ضاعت ملايين الكتب بسبب الرقابة الصارمة ممثلة بالهواجس الوطنية. وقد لوحظ هذا بشكل خاص خلال الحربين العالميتين. كذلك تم تدمير مجلدات لا حصر لها خلال الثورة الشيوعية في الصين، ونظام الخمير الحمر في كمبوديا، بما في ذلك تقارير حديثة للمكتبات التي تم تدميرها في كابول خلال حكم

طالبان السيئ السمعة. وحتى المكتبات في الدول المحايدة، تأثرت خلال الحرب، كما كانت الحال عليه في جامعة لوفان الكاثوليكية في بلجيكا ومكتبتها. فقد تم إحراق الجامعة من قبل القوات الألمانية عام 1914، وأعيد بناؤها ثم أحرقت مرة ثانية في الحرب العالمية الثانية من قبل النازيين.

صرحت المنظمات الدولية أن تدمير المكتبات والسجلات بصورة منهجية ومتعمدة يشكل جريمة ضد الإنسانية وفقاً للقانون الدولي واتفاقيات جنيف لعام 1949 ولاهاي لعام 1954(Riedlmayer 1995; Blazania1996). وعلاوة على ذلك، فإن حركات السلام في القرن الماضي والمنظمات الدولية لم تنجح في القضاء على وسيلة إحراق المكتبات بوصفها طريقة عمل لمحو الثقافات المنافسة. من السهل تحديد سبب وراء استراتيجية الحرب هذه، لأنه حين يتم تدمير المكتبة، فإن الذاكرة يلحق بها الدمار أيضاً. وعندما يتم تدمير ذاكرة ثقافة ما، يميل الناس إلى النسيان، كما أن نية الإحراق تتحقق لأنه يبدو وكأن الثقافة المنافسة لم تكن موجودة قط. يمكن أن تصبح الكتب أعداء، بالإضافة إلى الناس، في محاولة لمحو الدليل على الإرث التعددي. حين تجبر ثقافة على التعرض لتدمير أجهزتها المتعلقة بالذاكرة التي تخلد تاريخاً، فإنها تتعرض لفقدان ذاكرة رهيب: من نحن؟ من أي مكان جئنا؟ وقد ظهرت مثل هذه الأسئلة الإشكالية بسبب تدمير الهوية والإرث والذاكرة في صدارة قضايا مجتمع الإرث الدولي.

سراييفو والمكتبة الوطنية والجامعية للبوسنة والهرسك

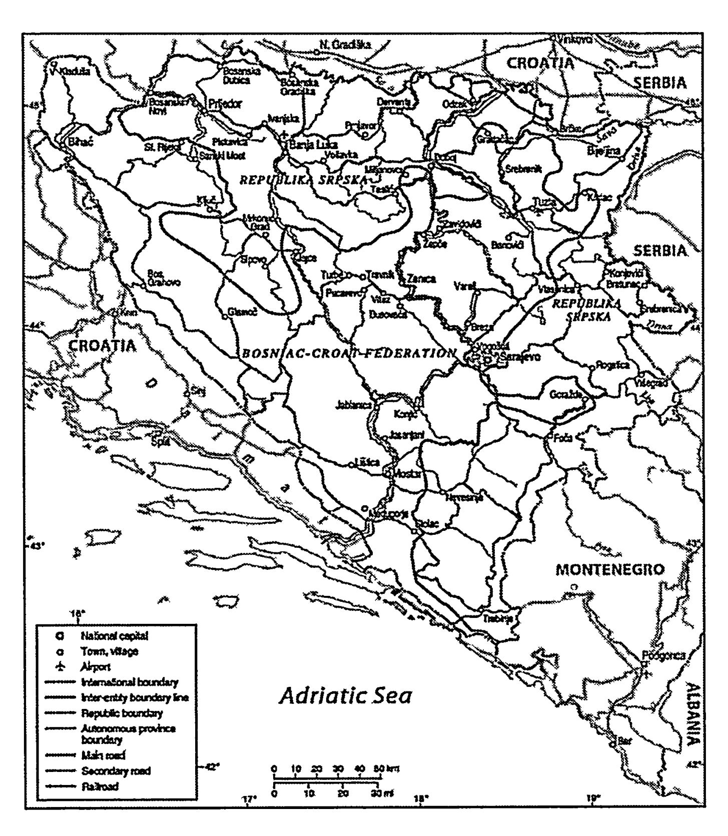
سراييفو هي العاصمة الاقتصادية والسياسية والمركز الثقافي للبوسنة والهرسك (انظر الشكل 21-1). ووفقاً لإحصاءات تعداد السكان قبل اندلاع الصراع، والذي صدر عام 1991، فإن 49٪ من السكان كانوا من المسلمين، و29٪ من الصرب، و6٪ من الكروات، و11٪ من اليوغسلاف، و4٪ آخرون. تضم المدينة وادياً طويلاً وضيقاً على ضفتي نهر ميلجاكا. وتسيطر على الوادي منحدرات الجبال الشاهقة والتلال التي كانت يوماً ما مغطاة بالغابات. تتكون سراييفو من نواة حضرية كثيفة يحيط بها عدد من الأحياء مع الحي

التركي القديم في النهاية، والبقايا النمساوية الهنغارية في الوسط، والإسكان الاشتراكي والضواحي في الطرف الآخر من المدينة في الأرض الأكثر انفتاحاً (UNSC 1994).

كان مقر المكتبة الوطنية والجامعية للبوسنة والهرسك في فيجكنيكا (كلمة صربية كرواتية تعني قاعة المدينة) وهي بناية جميلة على الطراز البربري شيدت في قلب المدينة إبان الإدارة النمساوية-الهنغارية عام 1896. وكانت طوال تاريخها الذي يمتد لـ 106 أعوام تستخدم مقراً للإدارة النمساوية-الهنغارية، وبناية البرلمان البوسني، وقاعة مدينة سراييفو، وأخيراً خصصت حكومة جوزيف تيتو المبنى ليكون مقراً للمكتبة الوطنية والجامعية. ويقع المبنى على ضفتي نهر ميلجاكا مقابل تلال الجنوب (انظر الشكل 21-2).

الشكل (21-1)

خريطة الوضع العام: سراييفو والبوسنة والهرسك



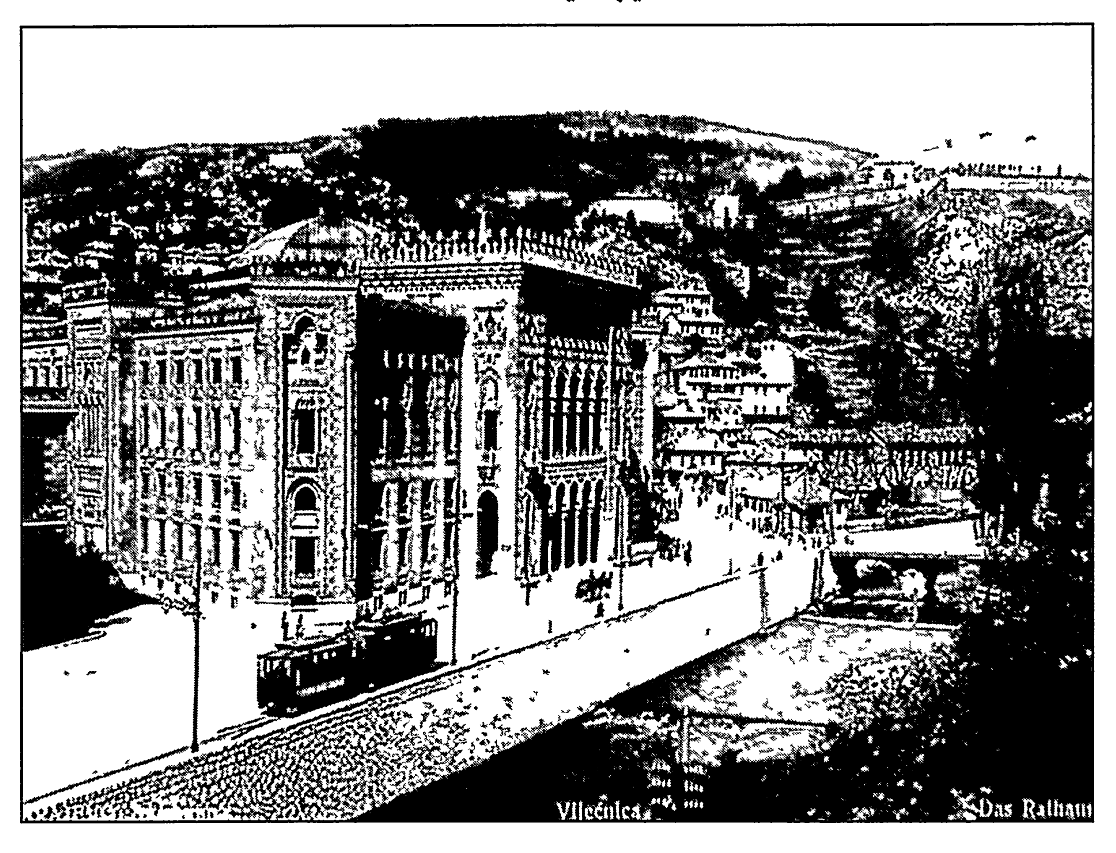
المصدر: University of Texas Map Collection, 2009.

كانت فيجكنيكا أكثر مباني سراييفو رمزية. ووفقاً للخبراء المعماريين، فإن النمط البربري-الإسباني الذي شيدته السلطات النمساوية-الهنغارية التي أعقبت العثمانيين في حكم تلك البلاد، غير دقيق عموماً، ولا يشبه الهندسة المعمارية المعروفة بأي شكل من الأشكال (Barry 1999).

ومع ذلك، تم الادعاء بأن مزيج فيجكنيكا الذي يفرض العبثية المعمارية استحوذ على شخصية المدينة في فترة ما قبل الحرب (Schork 1992). قبل الحرب، كان النقاد المسلمون ينددون بالفن المعماري الانتقالي للمبنى الكبير المثلث الشكل، مع ردهته الثمانية الشكل المدعومة بأعمدتها الرخامية الشهيرة.

الشكل (21-2)

فيجكنيكا 1936



المصدر: http:// i164.photobucket.com/albums/u35/milan_sc/Sarajevo_Tramvaj_Vijecnica_1936_A.jpg, 2009

ولأن المكتبة الوطنية والجامعية مؤسسة، فقد كانت أهم مصدر للمعلومات العلمية لمجتمع البحوث في البلاد، بالإضافة إلى أنها كانت قلب الحياة الفكرية والثقافية في سراييفو والبوسنة والهرسك. فقد كانت تحتوي على مجموعات المصادر الجامعية والسجلات القومية للصحف والدوريات.

كانت المكتبة الوطنية والجامعية تضم مقتنيات ثقافية وعرقية صممت كي تشكل مجموعة عرقية وثقافية مختلفة تمثل السكان والتاريخ في يوغسلافيا. وقد جعلت الظروف التاريخية البلاد ملتقى ثقافات مختلفة، وعكست المجموعات الثقافية ذلك. كما تضمنت أعمالاً للبوسنيين والكروات والصرب، بالإضافة إلى أعمال باللغة اللاتينية والإنجليزية والروسية والعربية والألمانية والإيطالية والإسبانية والتركية والعبرية والفارسية وغيرها. وقد تم إنقاذ عدد من الكتب من المجموعات التي دمرت في الحرب العالمية الثانية (Abid, quoted in Van der Hoeven and van Albada 1996).

تعرف "بوسنياكا" Bosniaca بأنها جميع الوثائق، بأي شكل مكتوب أو منشور حول البوسنة والهرسك، في المناطق كافة، وبأي لغة، بغض النظر عن أصل المؤلف. كما أن الأعمال التي تعود للإمبراطورية العثمانية في البوسنة تعتبر أيضاً "بوسنياكا". وكانت بوسنياكا تضم أكثر المجموعات أهمية. وكانت هناك مجموعة تضم 155 ألف كتاب ومخطوطة عثمانية نادرة، وهي المجموعة الشاملة من بوسنياكا الوحيدة من نوعها في العالم. وعلى الرغم من أن حجم مقتنيات بوسنياكا كان لا نظير له، فإنه لم تكن هناك مبالغة فيه، مقارنة بمقتنيات المكتبة الصربية أو الكرواتية؛ لأن الغرض من هذه المكتبة كان جعلها مؤسسة قومية وجامعية مفيدة لأجزاء يوغسلافيا السابقة كافة.

تم تدوين جزء كبير من الإرث الثقافي للشعب البوسني في مجموعة فريدة من المخطوطات والكتب والمكتبات والمؤسسات الأرشيفية في البلاد. وكانت بعض هذه المجموعات أصلية، وتمت إعادة إنتاجها في الحد الأدنى أو كانت موجودة خارج البلاد.

حصار سراييفو

بدأ الصراع عام 1991 عندما قررت البوسنة والهرسك الانفصال عن يوغسلافيا وأعلنت نفسها دولة مستقلة. أما الفصائل الصربية في الحكومة المحلية في البوسنة، فلم تُرد الاستقلال وكانت ضد الانفصال. ومن خلال سلسلة من الأحداث، اندلع الصراع في قلب المنطقة. وجه النظام العسكري القديم في يوغسلافيا – الذي كان يعتمد على نظام غير مركزي يشمل الجنود المدربين ومخابئ الأسلحة – نوع القتال في البوسنة والهرسك ومستواه. وقد شملت الاشتباكات المدنيين المسلحين والشرطة والقوات شبه العسكرية وجميع الجنسيات، وتكثف الصراع وبات منتشراً بعد استفتاء مارس 1991 على الاستقلال. أعلن الرئيس علي عزت بيغوفيتش حالة الطوارئ ونشر وحدات الدفاع الإقليمية. وفي مطلع إبريل، تصاعد العنف ووصل إلى حرب شاملة (UNSC 1994).

في مطلع إبريل 1992، هاجم القوميون الصرب المدن والبلدات البوسنية واستهدفوا المكتبات والمتاحف والسجلات عن قصد. وقد نجحوا في محو كل السجل المكتوب للبوسنة تقريباً. ولم يمض مثل هذا التدمير من دون انتباه من المجتمع الدولي الذي شهد المذابح في البوسنة والهرسك. وفي مايو 1992، اقترح عضوان في المجلس التنفيذي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة "اليونسكو"، وهما يمثلان تركيا ومصر ما يلي:

> من الواضح أنه إذا لم يتم اتخاذ إجراءات لثني القوات العسكرية التي تعتدي على البوسنة والهرسك، فسوف يستمر العالم في رؤية مزيد من الدمار الكارثي للإرث الثقافي الإنساني والمؤسسات التعليمية هناك (UNESCO 1992: 2).

لكن لم تبذل أي جهود دولية لتفكيك الجيش اليوغسلافي ولا قادته الذين استمروا في إثارة النعرات العرقية القومية. بدأت معركة سراييفو في إبريل 1992 في وقت كان الجيش الوطني اليوغسلافي لايزال متمركزاً في ثكناته في سراييفو. ونظراً لتبني دستور جديد للجمهورية اليوغسلافية، كان على كافة أفراد الجيش الوطني اليوغسلافي الذين كانوا مواطنين في الجمهورية اليوغسلافية المعلنة حديثاً مغادرة البوسنة والهرسك خلال 15

يوماً. شمل القتال في سراييفو كلاً من قوات الجيش الوطني اليوغسلافي والقوات الصربية البوسنية التي تحاصر المدينة. شُكّل المحاصرون من تسعة ألوية وأرسلوا إلى وحداتهم الإقليمية الأصلية. وكان للألوية المتمركزة على الخط الأمامي للحصار معرفة بالإقليم، وسبق لهم أن احتلوا مثل هذه المراكز الهجومية/ الدفاعية (UNSC 1994). قسّمت القوات الصربية البوسنة والهرسك إلى خمس مناطق: الشمالية الغربية (ما يسمى المثلث الإسلامي)؛ والشمال الشرقي؛ والوسط (منطقة سراييفو)؛ وسريبرينيتشا؛ والجنوب. كان الجنرال راتكو ميلادتش، القائد العسكري لجمهورية البوسنة والهرسك الاشتراكية (ولاية سابقة في يوغسلافيا)، وكان عميداً في الجيش الوطني اليوغسلافي وقائداً سابقاً للفيلق التاسع في الجيش ومقره في كنين. كانت فيالق رومانيجيا (منطقة صربية في البوسنة والهرسك) قوة صربية بوسنية من الجيش الصربي البوسني. حاصرت فيالق رومانيجيا مدينة سراييفو منذ بداية الحصار عام 1992. كما ركزت قوات الجيش الصربي البوسني جهودها على إضعاف المدينة من خلال القصف المستمر من التلال المحيطة بها (UNSC 1994). وبحلول يوليو 1993، كان الوضع الاستراتيجي يتمثل في استمرار احتلال الصرب للتلال المحيطة بالمدينة وإيجاد محيط لا يمكن اختراقه تقريباً.

منذ بداية الحصار، عمل فيلق سراييفو الأول قوةً مدافعة عن البوسنة والهرسك داخل سراييفو وحولها. ووفقاً لبعض التقارير، كان عدد الفيلق الأول أكبر من القوات المحاصرة ولكن أقل منها من ناحية القوة النارية، ولذا لم يستطع فك الحصار بصورة فاعلة. كذلك كان الجيش الكرواتي متمركزاً في سراييفو، وقاتل ضد الجيش الصربي البوسني. ونظراً للظروف العسكرية، تطورت العمليات في سراييفو إلى حصار تقليدي من دون أن يتمكن أي طرف من التغلب على إرادة الآخر أو من القدرة على فرض نهاية للمعركة (UNSC 1994).

نشرت تقارير بأن الجنرال ميلادتش أصدر أوامر صريحة لقصف أهداف مدنية غير صربية داخل سراييفو. وتشمل هذه المناطق المستشفيات الرئيسية والمساجد والكنائس

والسجلات والمتاحف والمكتبات وأهدافاً مدنية أخرى. وكان لدى القادة المحليين الحرية التامة لاستخدام الأسلحة الثقيلة في وحداتهم، وكانت كل وحدة تقرر حجم التدمير وهدفه.

كانت المناطق التي تشكل قلقاً استراتيجياً هي تلك الأراضي العالية حول الحافات الشديدة الانحدار التي تحيط بالمدينة، والأرض المفتوحة في الغرب بين المطار والأمكنة الجبلية القريبة (UNSC 1994). وقد أصبحت هذه المنطقة في النهاية تعرف باسم "زقاق القناصة". ونظراً لنيران القناصة المستمرة في المدينة، كانت تقاطعات الطرق محمية لتسهيل حركة المشاة والسيارات. وقد اعتمد الجيش الصربي البوسني على مدفعيته وقاتل على مسافة قريبة داخل المدينة. وكانت معظم خطوط النار مباشرة بسبب احتلال الأمكنة العالية، وكانت هناك مخازن كافية للأسلحة في الموقع لتسهيل تدمير المعالم الرئيسية داخل المدينة.

ووفقاً لتقرير مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (UNSC 1994) بشأن معركة سراييفو، كان هناك بعض الدليل الذي يشير إلى أن قوات البوسنة والهرسك ركزت أو وضعت أسلحتها إما مباشرة أمام المباني الثقافية وإما بالقرب منها. لكن تدمير هذه الممتلكات في سراييفو لا يأخذ في الحسبان مجرد حجم النيران الموجهة نحوها (UNSC 1994). فقد شرحت وسائل الإعلام المحلية والدولية نيات الجيش اليوغسلافي، حيث نفذ استراتيجية هدفها تحطيم معنويات شعب سراييفو. كما أصبح واضحاً أن الهدف الصريح من الحصار كان إرهاب المدنيين المحاصرين. كما أن قصف بعض أحياء المدينة الآهلة بالسكان يمكن أن يكون ضد أهداف عسكرية حقيقية، ولكن حجم القوة النارية بمفرده استبعد أي مناقشات حول التناسبية؛ وهي العلاقة بين المواقع المدمرة وتلك التي تعتبر أهدافاً عسكرية. كان هناك عديد من الاتهامات باستهداف المدنيين في المدارس والحدائق العامة والملاعب الرياضية ونقاط توزيع الأغذية والمياه والمستشفيات والمقابر (UNSC 1994). بل إن المواقع المقدسة لم تسلم من الإرهاب الذي أصاب المدنيين.

كان الهدف من الحصار إرهاب السكان وإذلالهم وإجبارهم على الاستسلام أو المغادرة. وبالفعل، كان الثراء الثقافي والأمكنة والمراكز الحضرية نفسها تتعرض للهجوم (Riedlmayer 1995). ويشير مثل هذا التدمير والتدنيس الصارخ بوضوح إلى عدم احترام القرارات التي وضعت في كل من اتفاقيات جنيف لعام 1949 واتفاقيات لاهاي لعام 1954 التي كانت الدول التي انفصلت عن يوغسلافيا السابقة ملزمة بها.

خلال الصراع، كان هناك مستوى من الدمار سببه الجيش الصربي. فقد أدى حصار سراييفو إلى إلحاق الضرر أو إلى تدمير كامل لمراكز ثقافية رئيسية، بالإضافة إلى تدمير جميع البنى التحتية والمناطق السكنية. وكان الأبرز في هذا المجال، تدمير المتحف الوطني للبوسنة والهرسك، والسجل التاريخي لسرايفو، والمعهد الشرقي في سراييفو، والمعهد التاريخي لمدينة سراييفو، ومتحف مدينة سراييفو، والمعرض الوطني للفن في البوسنة والهرسك، والمعهد الطبي لجامعة سراييفو، وكلية الموسيقى. وكان للمعهد الشرقي في سراييفو مجموعة قيمة من المخطوطات يبلغ عددها 5300 (20 ألف عنوان) معظمها من أصول عثمانية. وقد دمرت المحتويات بأكملها عام 1992 بما في ذلك كافة قوائم الفهرسة والجرد. كانت المكتبة وحدها المستهدفة، حيث إن المباني المجاورة بقيت سليمة إلى يومنا هذا (Riedlmayer 1995).

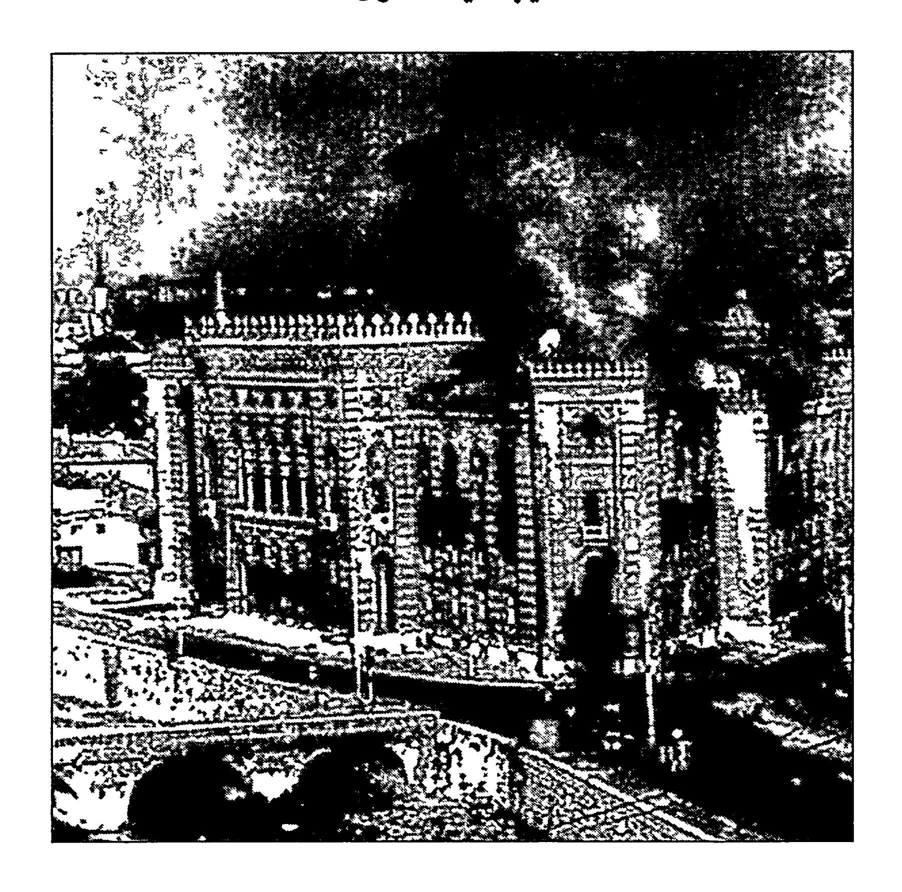
كانت فيجكنيكا في وضع مماثل، وكانت هدفاً سهلاً لمدفعية الصرب (Riedlmayer 1995). فقد قصفت ودمرت بقنابل حارقة في الفترة 25-26 أغسطس 1992. ووفقاً لشهود عيان، وفي حين كان المبنى يحترق، حاول بعض أمناء المكتبة الشجعان وبعض مواطني سراييفو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من التاريخ المكتوب:

> تجمهروا من الشوارع المحيطة والأزقة، غير مكترثين بالخطر، نصف سكان سراييفو؛ أناس جوعى وأناس منكوبون بالبؤس من جراء الحصار الطويل القاسي، أسرعوا لإنقاذ روح مدينتهم (Lovrenovic 1994:1).

تشكلت سلاسل بشرية ورفعت الكتب على طول خط طويل من المدنيين والموظفين. كذلك قدمت إدارة الإطفائية تجربتها في العمل للجهود المبذولة. وقد أبقت المدفعية الصربية في التلال التي تطل على المدينة على تسديد النيران من الرشاشات ومدافع الهاون لمنع الوصول إلى الكتب المحترقة. وقد تم إنقاذ قليل من الكتب القيمة والنادرة؛ لأن النيران المشتعلة كانت قوية جداً، وكان قناصة العدو قتلة للغاية (انظر الشكل 21-3).

الشكل (21-3)

فيجكنيكا تحترق



المصدر:

Friends of Bosnia, metropolismag.com/html/content_0699,ju99phow,htm. [accessed 2 September 2009], 1999.

كانت "روح سراييفو" الجميلة شعلة في الليل ودخاناً أسود يتصاعد من ثقوب الزركشة في الحجر المزخرف بدقة على طول الطابق العلوي للمبنى. وسرعان ما تحولت

مقتنيات المكتبة إلى رماد، ولاحظ سكان سراييفو، لعدة أيام بعدها، أن الدنيا كانت تمطر رماداً من الكتب والمخطوطات المحترقة. قال التقرير النهائي للجنة الأمم المتحدة للخبراء بشكل لا لبس فيه إنه كان من الواضح أن مبنى المكتبة الوطنية والجامعية للبوسنة والهرسك قد دمر بصورة متعمدة من قبل المدفعية الصربية في التلال المحيطة. فقد التهم ما كان داخل المكتبة، ومع ذلك، فإن كثيراً من المباني المحيطة بقيت سليمة بالكامل (UNSC 1994).

خلال الحصار، كان الجيش الصربي البوسني قادراً على إرهاب سراييفو في مجمل نطاقها الجغرافي بالأسلحة الثقيلة، ولكنه لم يستطع إسقاط المدينة من وجهة النظر العسكرية. وعلى النقيض من ذلك، حالت قوات البوسنة والهرسك بين الجيش الصربي البوسني والمناطق الحضرية، ولكنها لم تتمكن من كسر الحصار الذي كان يدمر النسيج الاجتماعي للمدينة ويرهب أهلها. وقد قال كولين قيصر رئيس مكتب اليونسكو في سراييفو:

> إن تدمير المبنى مهم جداً بطريقة مختلفة [أكثر من موجوداته]. كما أن تدمير الإرث الثقافي هو إيجاد مشهد جديد. إنه إيجاد مدن جديدة أو مشاهد ريفية جديدة. فيجكنيكا معلم من المعالم وهي ليست مكتبة فقط، بل إنها قاعة المدينة أيضاً. فقد كان لها وظائف سياسية متعددة في تاريخ البوسنة، وهي معلم واضح ومعترف به ومهم في المدينة. أنت تضرب شيئاً مختلفاً حين تستهدف مثل هذا الموقع (Kaiser, Colin. Personal communication via telephone. UNESCO Chef de Bureau Sarajevo. 15 October 2002).

في النهاية، أدرك المجتمع الدولي أن المدنيين وممتلكاتهم الثقافية كانوا الهدف الرئيسي لهذه الحرب المعاصرة. أشار كولين قيصر، إلى أن مقتنيات المكتبة كانت في الحقيقة هدفاً عسكرياً، وكان تدميرها جزءاً من خطة رسمت بإحكام لتدمير عالم من الذاكرة:

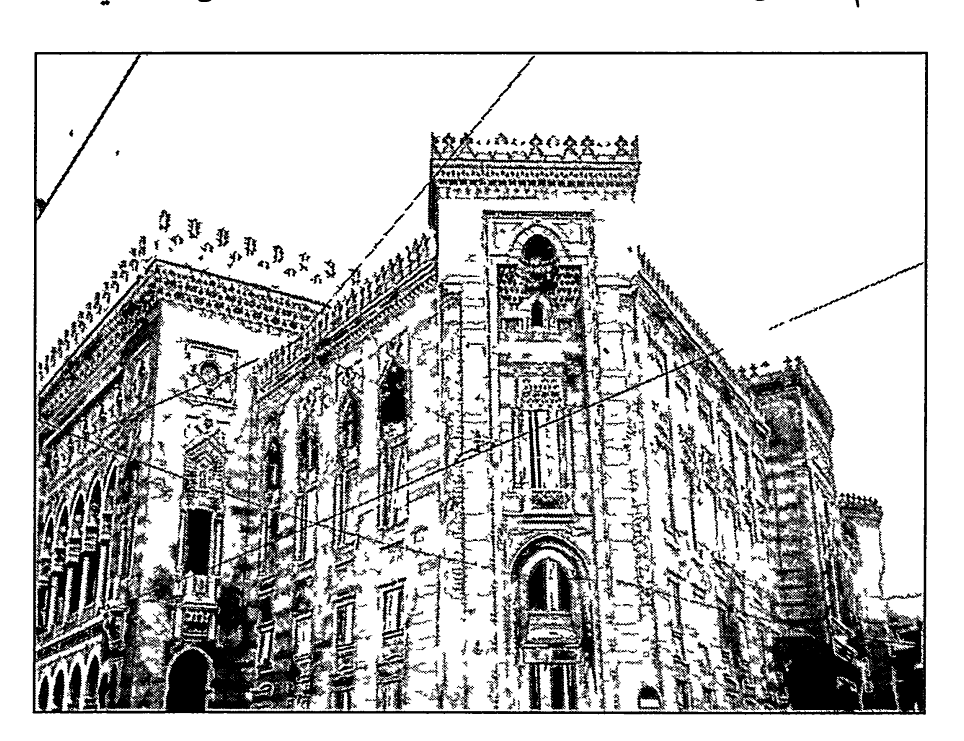
> إن التدمير الحقيقي للأشياء أو تدمير هدف ليس بالشيء الممتع، ولكن تدمير السجلات مزعج جداً بالنسبة إلى المؤرخين. إن هذا العمل خطير جداً أو مدمر أكثر من تدمير بناية، من وجهة نظر موضوعية. لقد احترق أرشيف لم ينظر إليه أحد، وقد ذهب (Kaiser, Colin. Personal communication via telephone. UNESCO Chef de Bureau Sarajevo. 15 October 2002).

يتفق الخبراء على أن تدمير فيجكنيكا كان «محاولة من قبل قوات الصرب لطمس الرمز والأدلة على الجذور الثقافية المتعددة للبلاد؛ إرثها الإسلامي بصفة خاصة» (Bollag 1995: 2). يكرر ريدلماير هذا الشعور بالقول:

> طوال الوقت كانت البوسنة والمكتبات والمتاحف والمؤسسات الثقافية أهدافاً للتدمير، في محاولة لمحو الدليل المادي الذي يمكن أن يذكر أجيال المستقبل بأن الناس من أعراق وأديان مختلفة اشتركوا مع بعضهم في يوم ما بتقاليد دينية واحدة في البوسنة. في بلدات وقرى البوسنة المحتلة، تم إحراق السجلات المشتركة لما يربو على 800 جماعة مسلمة وبوسنية كرواتية من قبل القوات القومية الصربية في جزء من حملات التطهير العرقي (Riedlmayer 1995: 2).

الشكل (21-4)

لم يتبق من دار البلدية (المكتبة) Vijecnica سوى الهيكل المعماري



المصدر: Meharg, 2001.

وصل رد الفعل العاطفي على تدمير فيجكنيكا إلى درجة غير مسبوقة (انظر الشكل 21-4). فقد وصف فيديريكو ماير، مدير عام اليونسكو تدمير الإرث الثقافي للبوسنة

وذاكرتها الجماعية بأنه عمل بربري ارتُكب في سياق سلسلة كاملة من الهجمات على الإرث القومي. وعلاوة على ذلك، دعا إلى إعادة بناء مكتبة سراييفو فوراً (Mayor 1994).

الخلاصة

على الرغم من وجود معايير وقوانين وأعراف دولية بشأن قواعد الاشتباك وحماية الملكية الثقافية خلال أوقات السلم والحرب، يبقى هناك تحدٍّ يتمثل في حماية مثل هذه الأمكنة حين يسعى المحاربون للهيمنة على ما يسمى الأعداء؛ باستهداف الناس والأمكنة والممارسات التي تمثل ثقافة وهوية منافسة. إن إحراق المكتبة الشهيرة ومحتوياتها كان عملاً من أعمال الإبادة الجماعية للهوية الثقافية اقترفته قوات محاربة ضد شعب سراييفو. كان لسكان سراييفو رابطة قوية مع هذا المكان الشهير، وقد اشتركوا في ذاكرة جماعية خاصة برمزيته من خلال تاريخهم المشترك. سمحت الجغرافيا الطبيعية لسراييفو بظروف حصار مثالية لدرجة أن الجيش الصربي البوسني استطاع الحفاظ على هيمنة عسكرية على السكان المدنيين في سراييفو. فمن خلال تمركز هذا الجيش في التلال المحيطة في المدينة تمكّن بسهولة من استهداف وتدمير ما كان يعتبره ملكية ثقافية بوسنية إسلامية منافسة. وتشير تقارير، مع ذلك، إلى أن مثل هذه الملكية الثقافية المنافسة كانت تعتبر ملكية متعددة الأعراق والثقافات من قبل سكان سراييفو. فبالنسبة إليهم لم تكن المكتبة رمزاً للمسلمين البوسنيين أو رمزاً عثمانياً فقط.

أحدث تدمير المكتبة إلى الأبد تغييراً في تفسير ومعنى وشعور سكان سراييفو نحو هذا المكان. لم تعد المكتبة إلى الأبد تخدم التعليم العام والمعرفة كما فعلت من ذي قبل، ولن تحتفظ فيجكنيكا جديدة – حتى لو أعيد بناؤها – بمعناها بالنسبة إلى الناس الذين شعروا أن المكان مثل هويتهم. ومع ذلك، فإن رمزية فيجكنيكا تنتظر إعادة البناء. على القبة المحطمة، وأعمدة الرخام الذائبة، وهيكل المكتبة الوطنية بسراييفو الملطخ بالدخان، إشارة صغيرة تطالب بإلحاح: «لا تنسوا. تذكروا واحذروا».

الفصل الثاني والعشـرون

أساسيات علم السياسة وتقدم التنين:
استكشاف استراتيجية قوة الصين الاقتصادية والعسكرية المتنامية وحقيقتها وتأثيرها في تايوان

كليفتون بانيل

مقدمة

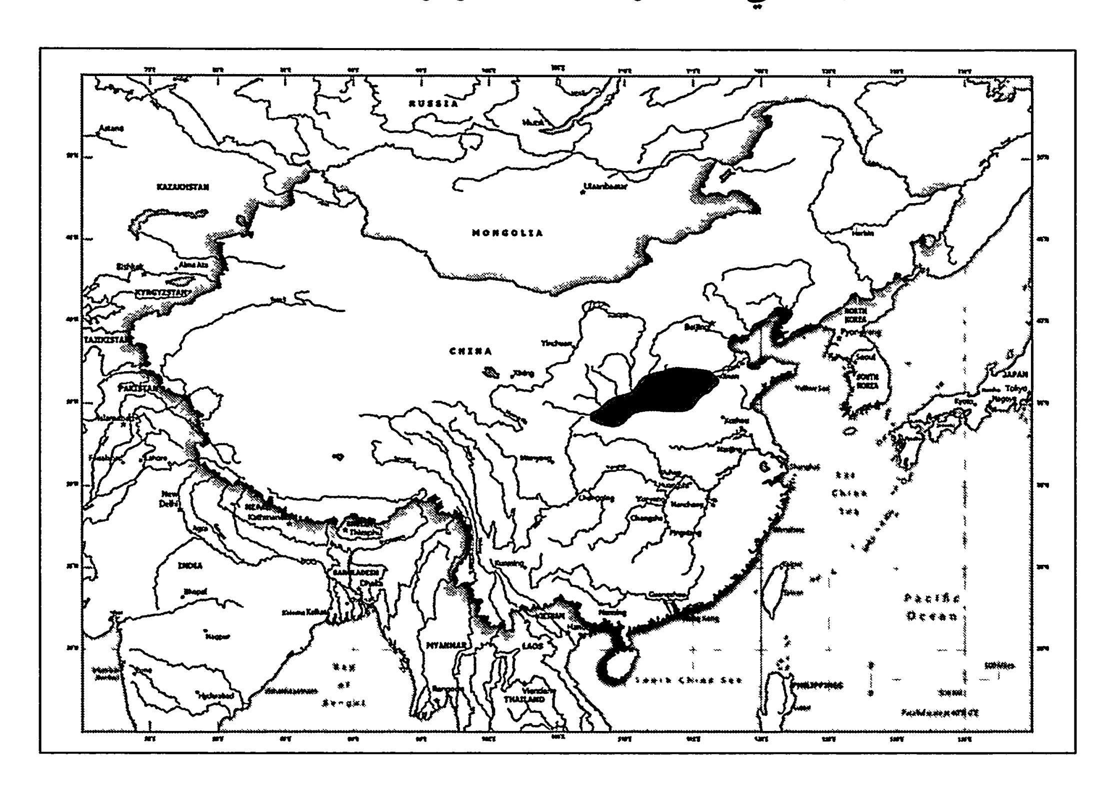
تنتهج الصين سياسة دفاعية وطنية، وهي بطبيعتها محض دفاعيـة. وتشـتمل سياسـة الصـين الدفاعية الوطنية للمرحلة الجديدة في القرن الجديد بالأساس على التمسـك بـالأمن القـومي والوحدة وضمان مصالح التنمية الوطنية وتحقيـق التنميـة في أنحـاء الـبلاد، وكـذلك التنميـة المنسقة والمستدامة للدفاع القومي الصيني والقوات المسلحة، وتعزيز أداء القـوات المسـلحة، والتوعية المعلوماتية وهي مـن أهـم معـايير القيـاس، وتنفيـذ اسـتراتيجية عسـكرية للـدفاع الفعال، وانتهـاج اسـتراتيجية للـدفاع النـووي الـذاتي (Information Office of the State Council of the PRC 2009: 7).

يشبه تاريخ الصين الطويل في الإنجازات الثقافية قصة طويلة ومثيرة للاهتمام من المد والجزر للتمدد السياسـي والمنافسة والغزو العسكري. ويسـتمد جـزء رئيسـي مـن هـذه القصة من جغرافية الصين؛ أي موقعها على الأطراف الجنوبية الشـرقـية لليابسة الأوراسية التي تقابل المحيط الهادي الغربي على ضفتيه الشـرقية والجنوبيـة الشـرقـية. الصـين بـلاد واسعة وتشكيلاتها الأرضية والنظُم المائية هي الأكثر إثارة من أي مكان. وفي حين أن هذه النظم الطبيعية الحيوية نعمة كبرى بالنسبة إلى الصين، فقـد شـكلت تاريخياً تحـدياً رئيسـياً للانـدماج المكـاني للـبلاد، تجـاوز خلافـات المسـافات بـين الأقـاليم الرئيسـية والأمكنـة (Fairbankb 1992; Veeck et al. 2007).

تقاتلت المقاطعات الصينية المتنافسة بعضها مع بعض لعدة قرون، كما تعاظمت القوة المركزية وضعفت حول الموقع الرئيسي الأول في السهل الأوسط شمال الصين (انظر الشكل 22-1). وأخيراً حدث التوحيد العظيم للصين عام 221 قبل الميلاد، على الرغم من تغير الأسر الحاكمة وتوسعات وانكماشات إقليم الدولة خلال هذه الفترات المتفاوتة.

الشكل (22-1)

تشونغ يوان أو السهل الأوسط. هذه المنطقة هي المنطقة المحورية الأصلية في شمال الصين والتي منها تطورت الدولة المركزية الصينية ونمت



ومع ذلك، فإن الناحية الجغرافية وحدها لا تنقل القصة بكاملها، حيث إن دور الإنسان كان بارزاً في تحديد مسار قوة الدولة ونموها واستخدام البيئة والأراضي الواسعة واستغلالها في نظام الدولة الصينية. تقليدياً، كانت الثروة والقوة في الصين تستمد من الأرض والقدرة على إنتاج الغذاء. وكان مزيد من الأرض يعني مزيداً من الغذاء، ومزيد من الغذاء يمكن أن يدعم مزيداً من الناس. كانت قدرة الدولة المركزية، بمساعدة

المسؤولين الإقليميين والمحليين، على إدارة الأعمال العامة وتحسينها مثل نظم الري الفعالة والقنوات لنقل الغذاء والمنتجات الأخرى، هي المفتاح لضمان رفاهية السكان. وقد أدت مثل هذه الإدارة الفعالة إلى فائض أتاح للدولة المركزية السحب منه لدعم جهازها المدني والعسكري، ما مكنها من إيجاد حكم محلي فعال، مع المحافظة على قوة عسكرية كافية لردع الأعداء الخارجيين والغزاة. كما سهلت أيضاً التوسع الإقليمي في تلك الأقاليم التي وفرت فرصاً للصين.

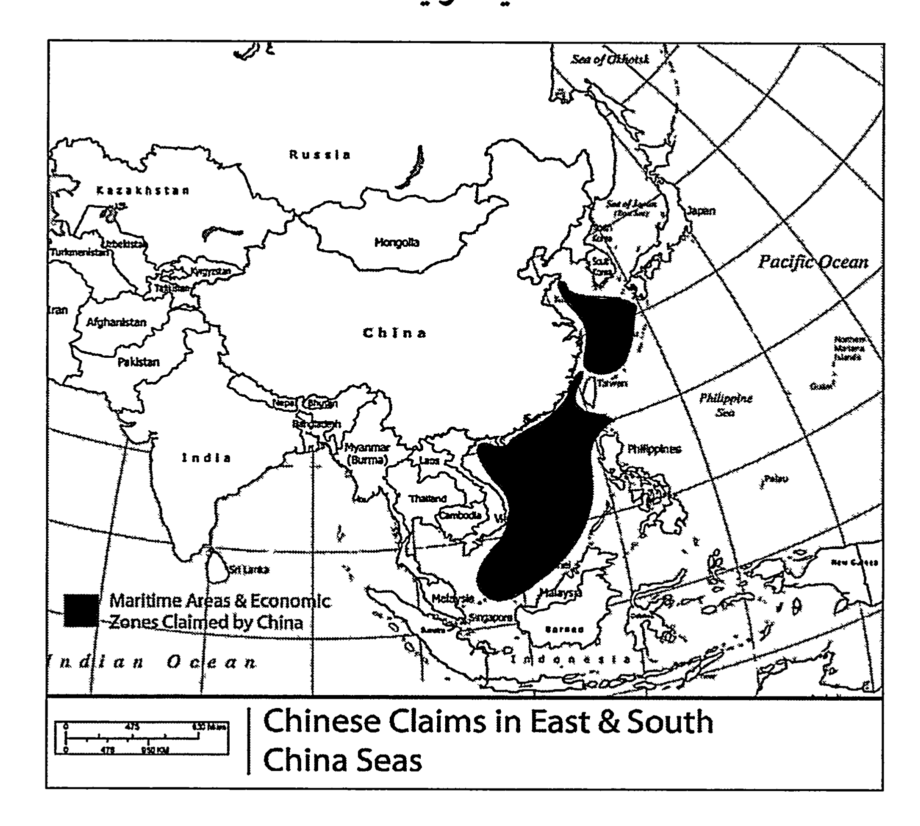
نظراً لقوة الوضع الجغرافي وواقعه وتعزيزه بالطبيعة والثقافة، كانت الصين في معظم فترات تاريخها قوة تستند إلى الأرض، ومنشغلة باستقرارها المحلي، ومعنية بحماية نفسها من الغزاة المحتملين من الشمال والغرب.

البحار المجاورة من الشرق والجنوب الشرقي وفرت للصين الحماية، كما فعلت ذلك الجبال العالية الوعرة على حدودها الجنوبية والجنوبية الغربية. وبناء على ذلك، كان حكام الصين في الجزء الأكبر يتطلعون إلى الداخل ومعنيين بالاستقرار والنجاح المحلي.

على الرغم من هذا الوضع التقليدي، كانت هناك أحداث، على سبيل المثال، خلال بداية عهد سلالة مينغ (1368–1644)، حين تم إطلاق أسطول بحري كبير، ووصل النفوذ الصيني البحري إلى ساحل شرق أفريقيا. وعلاوة على ذلك، وصل التجار العرب إلى امتداد الساحل الجنوبي الشرقي للصين في وقت مبكر من القرن الثاني عشر، كما كان الصيادون الصينيون يبحرون في مياه جنوب شرقي آسيا المجاورة. وفي حين أن هذه الاتصالات الخارجية بدت غير شائعة، فإنها مع ذلك مفيدة حين نسعى لفهم الطريقة التي نظر فيها المفكرون العسكريون التقليديون الصينيون إلى بلدهم والعالم من حولهم، وفي الوقت نفسه تساعدنا على تحليل السياق الذي تتكشف فيه الاستراتيجية الكبرى والعسكرية المعاصرة. كان للصين منذ مدة طويلة مصلحة خاصة في بحر الصين الجنوبي والشرقي. وفي هذه الأيام، تستمر الصين في وضع المطالبات الإقليمية في الأقاليم البحرية المجاورة (Samuels 1982; DoD Report 2009) (انظر الشكل 22–2).

الشكل (22-2)

المطالبات الصينية بمناطق بحرية واقتصادية واسعة مجاورة في بحرَي الصين الجنوبي والشـرقي. وتتنازع في هذه المطالبات مع دول مجاورة بالإضافة إلى دول أخرى ترى أن هذه مياه دولية



إطار للاستراتيجية

يتبدى التفكير الصيني الكلاسيكي والكتابة حول الحرب والاستراتيجية بالتوازي مع الكتابات الفلسفية الكلاسيكية الكبيرة وتلك المتعلقة بالكفاءات السياسية. ومع ذلك، فإن الكتابات حول الاستراتيجية والحرب قليلة بالمقارنة مع العدد الكبير من المقالات الكلاسيكية التي تشمل الكونفوشيوسية والمقالات الدينية المتعلقة بها. هناك مفارقة رئيسية ومناقضة في هذه الكتابات الكلاسيكية المبكرة؛ لأن الكونفوشيين وحلفاءهم المفكرين يزدرون الحرب ومفاهيم الاستراتيجية العسكرية. يمكننا أن نتكهن بأن هذا كان

ردة فعل لتاريخ من الصراع المتكرر والكفاح الذي ساد خلال قرون سلالتَي شانغ وزهاو، وبخاصة في "عصر الربيع والخريف" في الفترة 721–480 قبل الميلاد، و"حقبة الممالك المتحاربة" (403–221 قبل الميلاد). وقد عكس مثل هذا الفكر التفسيرات التقليدية للكونفوشيوسية التي شددت على الفضيلة المثالية للقائد الكونفوشيوسي الحق أو الرجل النبيل، الذي له هدف منشود للانسجام في كافة العلاقات الاجتماعية.

ومع ذلك، كان ينظر إلى الحرب واستراتيجيتها وتكتيكاتها على أنها مهمة جداً لبقاء الحكام والدول على المديين القصير والطويل؛ وقد كتب مختلف الجنرالات أو رجال الدولة الآخرين عن الموضوع وقدموا آراء عديدة حول الكيفية التي يجب أن يتم تصور الحرب فيها بالإضافة إلى كيفية القيام بها (Griffith 1963; Sawyer 1993). ومن أهم الأبعاد الشاذة لهذه الكتابات، التأكيد على الاستراتيجية واستخدام الاحتيال لتجنب المواجهة العسكرية المباشرة. وقد ركز مثل هذا التفكير أو التصور للاستراتيجية على تحليل العدو وتقييم نقاط ضعفه، للانتصار عليه من خلال طرق تستند إلى عدم الاستخدام المباشر للقوة أو الاشتباك العسكري. فعلى سبيل المثال، أكدت كتابات الجنرال المشهور صن تسو التي تعود إلى حقبة الممالك المتحاربة على ضرورة صياغة استراتيجية كبرى من شأنها أن تضمن النصر. يستند النصر إلى دعم كامل من شعب ناجح وقانع، وفي الوقت نفسه إلى الانخراط في دبلوماسية استراتيجية مع استعدادات عسكرية. المناورات والمؤامرات السرية لخداع العدو وإضعاف موقفه يمكن أن تؤدي إلى النجاح والنصر من دون الحاجة إلى اشتباك مسلح. كان الهدف هزيمة العدو بمختلف الاستراتيجيات والتكتيكات التي جعلت من الغزو العسكري الملاذ الأخير. ووفقاً لصن تسو، ينبغي أن يكون الصراع العسكري هو الملاذ الأخير الذي يستخدم فقط حين تكون الظروف المحلية والأكبر منها للقتال بوضوح لصالحك من أجل ضمان الانتصار (Sawyer 1993).

على كال حال، توضح هذه الكتابات تناقضاً أساسياً باقياً إلى الوقت الحاضر ونحن نسعى جاهدين لفهم مختلف، وفي بعض الأحيان، توضح طرقاً لا تتفق على ما يبدو مع

نهج الدبلوماسية والكفاءة السياسية الصينية، وكيف يتم استخدام القوة أو العمل العسكري. ومع ذلك، تعكس الكتابات المبكرة لصن تسو وآخرين مثل تاي كونغ الربط الوثيق بين التفكير النقدي بشأن الحرب والمحافظة على الدولة وأراضيها. ونظراً لاستراتيجية الحرب ودعمها لأمن الدولة المركزية، يمكننا التوصل إلى خلاصة مفادها أن مثل هذه الاستراتيجية الكبرى هي جزء صغير ومهم من أدب الكتابة الصينية. وينبغي عدم التقليل من أهميتها للاستراتيجية الصينية المعاصرة الكبرى (Scobell and Kirby 2003). وفي الوقت نفسه لاحظ شامباو (Shambaugh 2000) أن هناك ثلاثة مبادئ ثابتة لحكم الدولة الصينية في القرن الماضي، وهي: تحديث الاقتصاد، وتحويل المجتمع، والدفاع عن الصين ضد المعتدين الأجانب.

كتب ديفيد لامبتون (Lampton 2007) مؤخراً في تقييم التفكير الاستراتيجي الصيني حول القوة والعلاقات العالمية بأن الصينيين ينظرون إلى القوة من وجهات نظر عديدة؛ قوة قهرية، وقوة اقتصادية، وقوة فكرية. ووفقاً للامبتون، فإن القوة القهرية تشير إلى القوة الضخمة بالوسائل العسكرية وما يرتبط بها لفرض إرادة دولة على دولة أخرى. أما القوة الاقتصادية فهي استخدام الموارد الاقتصادية والإنتاج والإنتاجية لممارسة القوة على الآخرين، في حين أن القوة الفكرية تشير إلى قوة العقل والأفكار بالإضافة إلى الثقافة والقيم الروحية للتأثير في الآخرين والتحكم في النتائج. وفي أي تحليل للاستراتيجية الصينية الكبرى ومفاهيم القوة، يتعين علينا أخذ هذه الفئات الثلاث في الاعتبار وكيف يمكن للصينيين استخدامها عبر الزمان والمكان.

ربما أفضل طريقة للتفكير بشأن استخدامات القوة في الفترة الحديثة أو فترة الشيوعية في الصين هي دراسة السلوك الصيني مع مرور الوقت. فخلال الفترة الماوية التي امتدت من منتصف القرن العشرين، استخدمت الصين القوة القهرية استناداً إلى رؤية ماو تسي تونغ المتمثلة في صين ثورية. وقد خاضت الصين حروباً محدودة مع عدد من جيرانها بالإضافة إلى قوات الولايات المتحدة والأمم المتحدة خلال الحرب الكورية. وكان ماو

أيضاً راغباً في استخدام القوة داخل البلاد للتأكيد على أن رؤيته للثورة المحلية كانت مستمرة كما حدث في العنف الذي رافق الثورة البروليتارية الثقافية.

بعد وفاة ماو عام 1976 وصعود دينغ هيساو بينغ قائداً أعلى للصين، تم اتباع سياسة أكثر حكمة وحذراً كان التركيز فيها على التنمية الاقتصادية. والرأي السائد بهذا الشأن هو أن دينغ تمنى رؤية الصين تطور اقتصادها بسرعة، وفي الوقت ذاته تحافظ على علاقات ودية مع دول أخرى بما فيها الولايات المتحدة (Lampton 2007; DoD 2009). وبعد أن نما الاقتصاد واشتد عوده، يمكن نقل مزيد من الموارد لاحقاً للقوات العسكرية والنووية. وبهذه الطريقة لا تمكن رؤية صعود الصين الذي يستند إلى قوة اقتصادية متنامية على أنها تهدد القوى الرئيسية الأخرى، كما أن نموها الاقتصادي يمكن أن يمضي قدماً مع بعض المعوقات الخارجية. ويتم تلخيص هذا في اقتباس ينسب إلى دينغ من أوائل تسعينيات القرن الماضي حيث قال: «راقب بهدوء، قم بتأمين موقفنا؛ تعامل مع الأمور بهُدوء؛ قم بإخفاء قدراتنا وانتظر ما ستأتي به الأيام؛ كن جيداً في الحفاظ على وضعك بعيداً عن الأنظار؛ ولا تدعي القيادة أبداً» (Pannell 2006; DoD 2009: 1).

إن الجيل الجديد من القادة الصينيين الذين تولوا الحكم عام 2005 مع هو جنتاو رئيساً وسكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي الصيني، استمر في نهج "المستوى المنخفض" عموماً، ولكن قوة الصين الاقتصادية تنامت، وعند مقارنتها مع الصعوبات الاقتصادية الشديدة الأخيرة في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي أصبحت الصين أكثر ثقة.

يشير معظم المحللين إلى أن الاستراتيجية الكبرى الحالية لجمهورية الصين الشعبية توحي باستمرار استراتيجية النمو الاقتصادي المرتفع في العقد المقبل. ووفقاً لهذا السيناريو، فإن القوة العسكرية الصينية ستكون بحلول عام 2020 قد تطورت إلى نقطة يمكن أن تكون عندها ميالة لاستخدام القوة القهرية. ويبدو أن هذا يستند إلى مادة قدمها الصينيون ويدركون من خلالها ثورة عالمية بعيدة المدى في الشؤون العسكرية RMA وفرت زخماً قوياً لتحديث القوات المسلحة في جمهورية الصين الشعبية. وفي تقرير صدر

عام 2009، قال المحللون، على سبيل المثال، إن الصينيين شكلوا «خططاً استراتيجية للدفاع القومي وبناء القوات المسلحة والاستراتيجيات لتطوير الخدمات والأسلحة وفقاً لما ستضعه من أساس قوي بحلول عام 2010، وتحقيق المكننة بصورة أساسية، وتحقيق تقدم رئيسي نحو المعلوماتية بحلول 2020» (Information Office of the State Council of the PRC 2009: 7).

بروز تايوان

عند النظر في سلوك الصين خلال العقود الثلاثة الماضية، هناك أمثلة تشير إلى رغبتها في استخدام القوة القهرية أو استخدام القوة الغاشمة (Lampton 200). ومن أبرز هذه الأمثلة موقف الصين حيال تايوان. إنه موضوع متعلق بثوابت الصين، وتعويذة يرددها مسؤولو جمهورية الصين الشعبية بصورة متكررة؛ وهي أن تايوان منطقة تابعة للدولة الصينية وغير قابلة للتصرف، وأن عودتها إلى الوطن الأم لا مفر منه حتى لو تطلب ذلك استخدام القوة العسكرية. وينظر إلى تايوان في السياق نفسه مثل هونج كونج وماكاو، على أنها جزء من الصين الكبرى (Harding 1993). وقد كان هذا الموقف والالتزام المتصلب العقبة الأساسية في بناء علاقات أوثق بين الصين والولايات المتحدة.

أكدت الولايات المتحدة الأمريكية، في تطبيع علاقاتها الدبلوماسية مع جمهورية الصين الشعبية عام 1979، أنها تدرك أيضاً أن هناك صيناً واحدة. لكن البيان المشترك حول إنشاء علاقات دبلوماسية (بيان شنغهاي) الذي أسس العلاقات الدبلوماسية مع الصين والموقع في 1 يناير 1979، سرعان ما تبعه قانون العلاقات مع تايوان. وقد سمح القانون الجديد للولايات المتحدة بإقامة علاقات غير رسمية مع تايوان وبيع معدات عسكرية دفاعية لتمكين تايوان من الدفاع عن نفسها في حال تعرضت للهجوم (US Department of State 2009). لم تعترف الصين قط بشرعية قانون العلاقات مع تايوان، واحتجت بشدة على بيع معدات عسكرية أمريكية لتايوان. ولذا فإن استمرار الدعم الأمريكي لتايوان لتمكينها من تقرير علاقاتها والجدول الزمني للتعامل مع الصين

استمر مصدراً لإزعاج العلاقات الثنائية بين الصين والولايات المتحدة (Information Office of the State Council of the PRC 2009). ومع انتخابات الرئيس الجديد عام 2008 لتايوان ما ينغ-جياو Ma Ying-jeou، والذي اتبع سياسة أكثر تصالحية نحو الصين وأدخل تحسينات على الروابط الاقتصادية والاتصالات مع الوطن الأم، هدأت القضية التايوانية. ومع ذلك، فإن هذه القضية الشائكة تستمر في إثارة الاضطراب، وستظهر من دون شك نقطةً ساخنة مرة أخرى.

في عامي 1995 و1996 حاولت الصين مرتين التأثير في نتيجة الانتخابات في تايوان بإرسال صواريخ إلى بحر الصين الشرقي قبالة الساحل الشمالي لتايوان مهددة النشاط البحري في البحار المجاورة. ولم تتراجع الصين عن سلوكها التهديدي إلا بعد أن أرسل الرئيس الأمريكي آنذاك بيل كلينتون قوة بحرية أمريكية كبيرة إلى المنطقة. وخلال السنوات الثلاث عشرة التي تلت ذلك، نمت القوات الصينية البحرية والجوية والبرية والقوات الصاروخية المنتشرة في مسرح عمليات فوجيان عبر مضيق تايوان بشكل كبير. وقد زادت القدرة الصينية على تحدي الأمن التايواني والقوات الأمريكية التي يحتمل إرسالها للدفاع عن تايوان بشكل ملحوظ حتى أصبح معها هذا التهديد مع مرور الزمن ساحقاً (Shambaugh 2003).

لكن تايوان استمرت أيضاً وبهدوء بتحديث قواتها، وصدرت تقارير حديثة تتحدث عن قيامها ببناء قوتها من صواريخ كروز لمواجهة أي هجوم محتمل من قبل الصين (Strategic Forecasting 2008).

تعد تايوان معضلة سياسية مستمرة بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية. يتعين على القادة الصينيين، لأسباب سياسية محلية، عرض موقف قوي وموحد لا يسمح بالتنازل عن عودة تايوان التي لا مفر منها إلى الصين. من جانب آخر، تعتبر الولايات المتحدة أن الأمر يعود للمسؤولين في تايوان لتقرير كيف يريدون بناء علاقاتهم مع الصين (DoD 2009). أما ما لا تريده الولايات المتحدة، فهو استخدام القوة أو العمل العسكري

في حل هذه المشكلة. وبالنظر إلى تاريخ الولايات المتحدة في دعم حزب الكومينتانج* خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، ودعمها السياسي الطويل للجزيرة، يمكن القول إن تايوان كانت دولة عميلة للولايات المتحدة. ويعني هذا التزام الولايات المتحدة بضمان أمن الجزيرة، وهي فكرة تظل المبدأ المستمر بين جماعات سياسية معينة في الولايات المتحدة (Lampton 2007).

تغيير الأهداف العسكرية والعقيدة

كان جيش التحرير الشعبي تقليدياً قوة برية. وكان هذا الجيش خلال فترة حكم الماوية في الأساس قوة للدفاع عن الوطن في ما كان يصفه الرئيس ماو في كثير من الأحيان، بعد نجاح الثورة الشعبية، بحرب الشعب. كان ينظر إلى التهديدات الرئيسية على أنها تأتي من جيران الصين مثل الاتحاد السوفيتي، واليابان، والهند بالإضافة إلى الولايات المتحدة وتايوان. وكان يتوقع من القوات البرية أن تكون العناصر الرئيسية في الدفاع عن الصين، على الرغم من أن الصين سعت لامتلاك أسلحة استراتيجية وفجرت قنبلتها النووية الأولى عام 1964. وكانت عقيدة الصين مركزة على الدفاع عن الأراضي الصينية، وكانت دفاعية بطبيعتها. وقد بلغ هذا ذروته خلال الحرب الفيتنامية حين دافع ماو عن نقل الصناعات الاستراتيجية إلى عمق المناطق الداخلية للصين خلف ما كان يسمى "الخط الثالث".

استمرت فكرة حرب الشعب، ولكن تمت إعادة تعريفها في سياق الثورة في الشؤون العسكرية وتحديث القوات المسلحة الصينية في ظل ظروف "حيازة المعلوماتية" (Information Office of the State Council of the PRC 2009). وفي الوقت الذي تقدم فيه نمو الاقتصاد الصيني خلال ثمانينيات القرن الماضي، برزت ظروف للتحول في التفكير والعقيدة العسكرية. وقد ساهم عدد من الأحداث في تسريع هذا التحول. وكان أول هذه الأحداث النجاح الباهر والسريع لقوات الولايات المتحدة والأمم المتحدة في

* أسسه صن يات- سن عام 1911 وحكم الصين بزعامة شان كاي تشيك في الفترة 1928-1949 قبل وصول الشيوعيين للحكم، ثم أصبح الحزب الرسمي الحاكم في تايوان. (المترجم)

عملية عاصفة الصحراء عام 1991. وقد جاء استخدام جميع أنواع الأسلحة والذخائر الحديثة والمتقدمة بالإضافة إلى الاستخدام المتكامل للقوات المشتركة استناداً إلى اتصالات الأقمار الصناعية والشبكات الإلكترونية بمنزلة صدمة للجيش الصيني.

سببت الإبادة المبكرة لنظم التحكم والسيطرة العراقية التي شملت الصواريخ الجوية والبحرية والأرضية والطائرات وما تبعها من هجوم بري سريع وكاسح، ذعراً بين القادة العسكريين (DoD Report 2009). وأدرك هؤلاء سريعاً أن عصراً جديداً من الحرب يستند إلى التقنية العالية وشبكات المعلومات التي تشمل الاتصالات عبر الأقمار الصناعية والنظام الملاحي قد بدأ. وسرعان ما تبع هذا ضربات جوية منسقة من قبل قوات حلف شمال الأطلسي "الناتو" في هجمات على يوغسلافيا فوق كوسوفا والبوسنة، وشهد الصينيون للمرة الثانية الآثار الملحوظة للقوة الجوية والصواريخ التي تطلق من مواقع بعيدة في تقرير نتيجة الصراع. وقد لاحظنا بالفعل وصول القوات البحرية الأمريكية على شكل مجموعتين من حاملات الطائرات حين هددت الصين باتخاذ عمل عسكري ضد تايوان عامي 1995 و1996. وقد كشفت هاتان الحاملتان والسفن المساندة في ذلك الوقت الضعف النسبي لقوات الصين البحرية.

وقد وفرت هذه الأحداث، إلى جانب النمو الاقتصادي السريع، دفعة مثيرة لتحوّل أساسي في الجيش الصيني. كانت الأهداف واضحة؛ فالصين كان بإمكانها السعي لبناء جيش حديث يستخدم أسلحة جديدة ومتقدمة، وبإمكانها تنظيم أفرادها العسكريين في جميع المجالات وتعليمهم وترقيتهم. ومن شأن هذا تخفيض حجم الجيش، مع زيادة جودته ونوعيته. كما يمكن أن يكون أيضاً نهجاً شاملاً لبناء قوات عسكرية حديثة، بما في ذلك تطورات جديدة في الجيش والبحرية وسلاح الجو والصواريخ والقوات النووية. وستكون الزيادة السريعة في الميزانية العسكرية ضرورية، وكان هذا قريباً. فقد ساعد استمرار النمو الاقتصادي السريع في العقد الماضي نمو الميزانية العامة للصين، والذي ساعد بدوره على النمو السريع في الإنفاق العسكري، في الوقت الذي حافظت الصين فيه

على تحقيق الأهداف المهمة للدولة. وبالفعل، فقد نجحت الاستراتيجية التي وضعها دينغ هيساو بينغ بعد الإصلاحات في أواخر سبعينيات القرن الماضي، واستمرت منارةً لاستمرار.تطور القوة العسكرية الصينية المتنامية (DoD Report 2009).

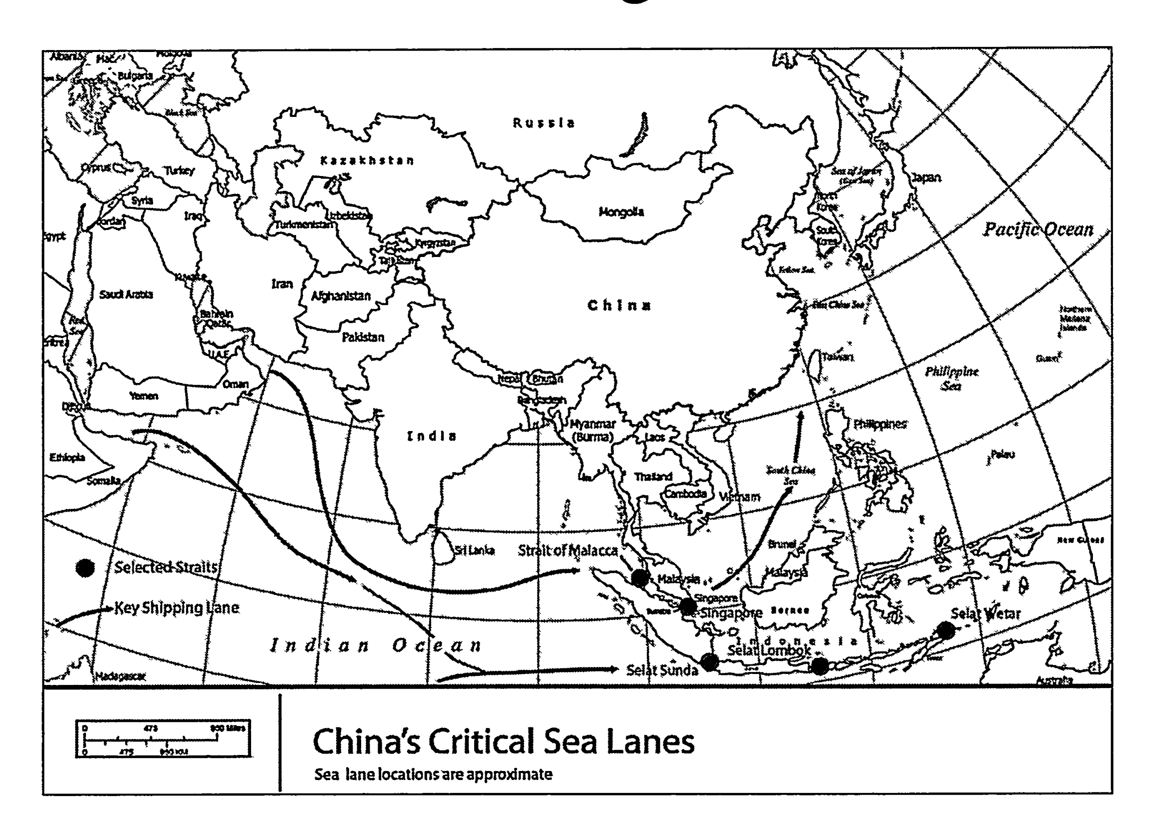
وبموازاة التحول الجديد والحديث في القوات العسكرية، جاء التحول في المذهب العسكري الذي يمكن وصفه فقط بأنه أكثر حزماً. لقد ناقشنا بروز تايوان وحساسيتها من حيث هي قضية استراتيجية، ولكن أولويات أخرى أخذت في الظهور أيضاً. ففي حين نما الاقتصاد الصيني، أصبح البحث والاعتماد على المصادر الخارجية للوقود الأحفوري وموارد المعادن الأخرى أكثر إلحاحاً. ويرتبط بهذا أهمية ضمان الخطوط البحرية من الشرق الأوسط والأمكنة الأخرى وموثوقيتها وأمنها.

في الحقيقة، دخلت العوامل الجغرافية التي هي ليست محلية بطبيعتها فحسب، بل وعالمية أيضاً، اللعبة الآن، في حين تستعرض الصين عضلاتها الاقتصادية سعياً لمصادر جديدة لتزويد آلتها الصناعية النامية بالوقود. فعلى سبيل المثال، تستورد الصين الآن أكثر من 50٪ من نفطها من الشرق الأوسط. وعلى الأرجح ستزداد هذه الحصة في السنوات المقبلة في حين تنمو صناعة السيارات المحلية. يعتبر ضمان موثوقية مرور ناقلات النفط عبر مضيق ملقا أو أي نقاط اختناق [مضايق مثلاً] استراتيجية أخرى أولوية تتطلب مزيداً من القوات البحرية (انظر الشكل 22-3). كما أنه يبرز الحاجة إلى اقتصاد حديث لتتمكن الصين من إظهار قوتها إلى أبعد من حدودها من أجل حماية مصالحها الاستراتيجية وأمنها (DoD 2009).

نظرت الصين على نحو متزايد في تطوير أسطول حديث على أنه أولوية لتحديث جيشها من أجل دعم مذهب استراتيجيتها الأكثر حزماً، وتمكينها من إظهار قوتها خارج إطار مصالحها التقليدي. وتمكن رؤية مثال على ذلك في الاهتمام الذي توليه لغرب المحيط الهادي الذي يمتد بعيداً إلى شرق بحرَي الصين الجنوبي والشرقي، وهي المنطقة التقليدية للاهتمامات الصينية الاستراتيجية (Samuels 1982).

الشكل (22-3)

خطوط الصين البحرية المهمة جداً. تعتمد الصين بصورة متزايدة على الشحن البحري لوارداتها من النفط والمواد الخام الحيوية الأخرى. تعتبر حماية هذه الخطوط البحرية المهمة مسألة حيوية لمصالح الصين الأمنية البعيدة المدى



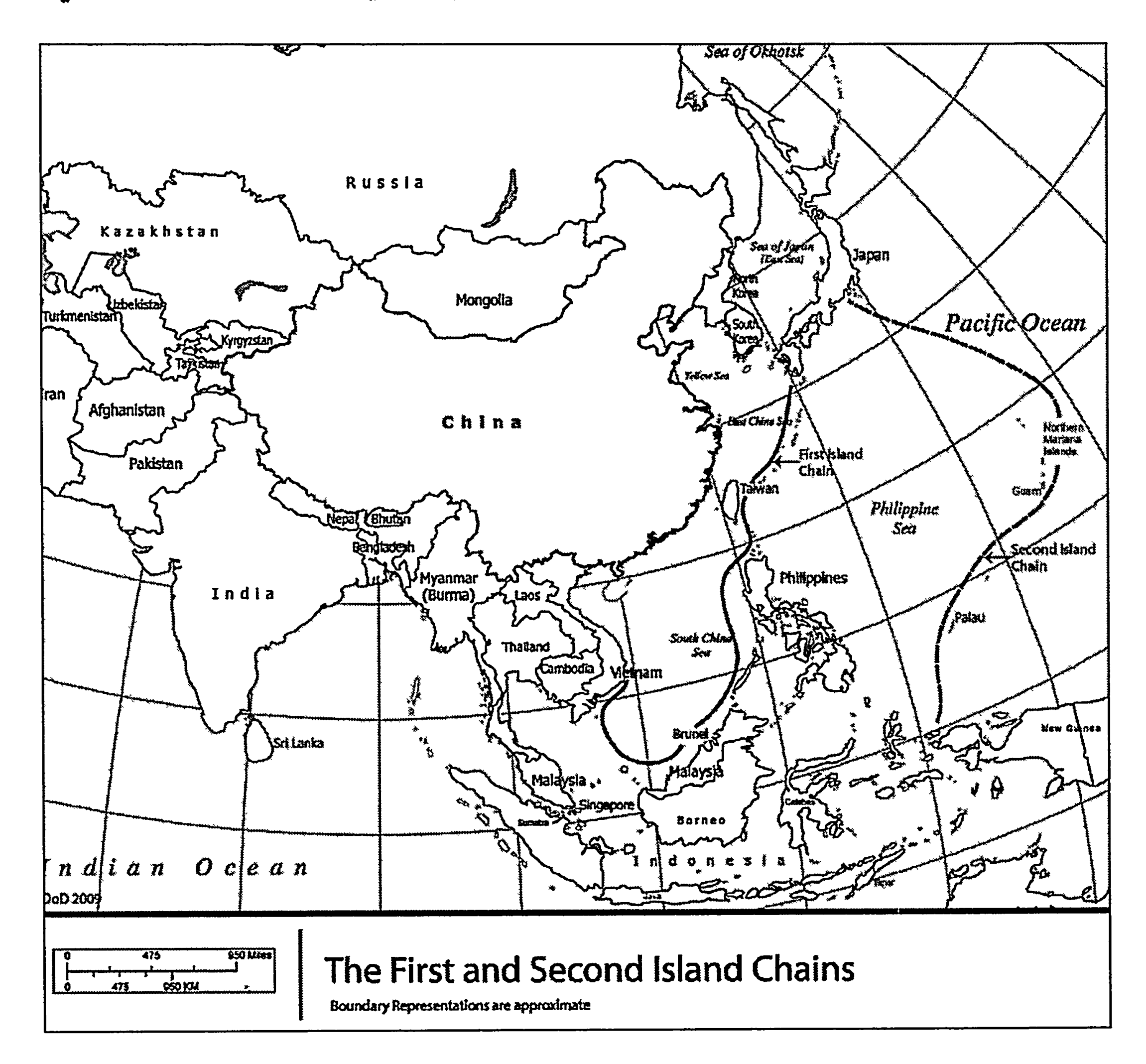
يشتمل تقرير جديد لوزارة الدفاع الأمريكية (DoD Report 2009) حول القوة العسكرية للصين على خريطة تشير إلى منطقتين للنفوذ أو ما يوصف بالمحيط الدفاعي للبحرية الصينية (انظر الشكل 22-4). تشمل الأولى بحر الصين الشرقي وبحر الصين الجنوبي وتايوان التي يجب أن ينظر إليها على أنها منطقة مصالح محيطية للبحرية الصينية التقليدية.

يمتد الخط الثاني الخارجي المسمى سلسلة الجزر الثانية من منطقة شرق خليج طوكيو إلى قوس واسعة منحنية على طول الطريق إلى غوام وغينيا الجديدة الغربية، ويشمل

ضمن محيطه الفلبين والمنحنى الشمالي للأرخبيل الإندونيسي. وفي حين يستمر موقع جمهورية الصين الشعبية واستراتيجيتها في التأكيد على الطبيعة الدفاعية للوضع والعقيدة العسكرية الصينية، فإن حقيقة الاقتصاد الذي ينمو بسرعة والسياسة الخارجية النامية القوية تدافع عن موقف عسكري أكثر عدوانية. كما يظهر في الجزء التالي، فإن النمو غير العادي في الميزانية العسكرية خلال السنوات الثلاث عشرة الماضية تدعم هذا التأكيد.

الشكل (22-4)

نظرة الصين لسلسلتي الجزر الأولى والثانية. مدّت العقيدة الاستراتيجية الراهنة خط الدفاع البحري للصين إلى ما وراء منطقة مصالحها التقليدية في بحري الصين الجنوبي والشرقي



نمو سريع في الإنفاق العسكري

تبع النمو السريع في الاقتصاد الصيني في السنوات الأخيرة، الذي كان معدله نحو 10٪ سنوياً، زيادة سريعة أكبر في الإنفاق العسكري.

قدِّر نمو الإنفاق العسكري في الصين في العقد الماضي بنحو 13٪ سنوياً. وخلال العشرين عاماً الماضية (عدا 2003-2005)، وفقاً لمصادر صينية رسمية، كانت هناك زيادة من رقمين في الإنفاق العسكري في السنوات الماضية، ما أدى إلى نمو أسي في المخصصات المالية المتوافرة لتحديث القوة الصينية وتطويرها.

وفي حين أن أرقام الميزانية الرسمية تشير إلى نمو كبير في الإنفاق العسكري، فإن الأرقام الحقيقية هي من دون شك أعلى بكثير، لأن من عادة الصين إخفاء مختلف أشكال الإنفاق للأغراض الدفاعية والعسكرية (Information Office of the State Council of the PRC 2009; DoD Report 2009). ويتواءم هذا أيضاً مع النزعة إلى السرية التي كانت دوماً سمة مميزة لجيش التحرير الشعبي والحزب الشيوعي الصيني.

أشار تقرير وزارة الدفاع الأمريكية (2009) إلى أن ميزانية الصين العسكرية كانت تتضاعف كل 5 سنوات تقريباً من عام 1989 وحتى الوقت الحالي. وفي مطلع عام 2008، وصل الرقم الرسمي إلى 60 مليار دولار. وتقدر وزارة الدفاع الأمريكية (DoD Report 2009) الرقم الحقيقي لمجموع الإنفاق الدفاعي الصيني بأنه يراوح بين 105-150 مليار دولار استناداً إلى أسعار ومعدل الصرف عام 2007. وقد مكنت الزيادات السريعة في الإنفاق الدفاعي الصين من توسيع صناعاتها الدفاعية حجماً ونوعاً. كما استفادت أيضاً من تقنيات الاستخدام المزدوج التي يمكن أن تشمل التطبيقات العسكرية البعيدة المدى في تطويرها ونموها. وفي حين تستمر الصين في زيادة حجم صناعاتها الدفاعية المحلية ومداها وتطورها، وحاجتها للمصادر الخارجية للأسلحة والدروس التقنية العسكرية، تصبح هي أيضاً مصدراً رئيسياً ومنافساً في تجارة الأسلحة العالمية.

القوات العسكرية وتحديث هيكل القوة

كان تحديث القوات العسكرية الصينية شاملاً ورائعاً. فالصين تنتج الآن مجموعة كاملة من الصواريخ الباليستية المتطورة القصيرة المدى والبعيدة المدى وصواريخ كروز وصواريخ جو-جو وأرض-جو. كما أن صناعة بناء السفن في الصين تعتبر الآن ثانية أكبر صناعة في العالم، ما سمح ببناء عدد من السفن البحرية: غواصات، وسفن حربية، وسفن إسناد ونقل، بما في ذلك السفن الحربية البرمائية والطيران البحري، وبالإضافة إلى ذلك ثمة مبادرة لصنع حاملة طائرات، وشراء حاملة طائرات من أوكرانيا تخضع حالياً لإعادة التجهيز والتحديث في حوض السفن في داليان بالصين.

يركز تحديث القوات البرية على رفع مستوى الأفراد مع التأكيد على المهارات الفنية المتعلقة بساحة معركة المعلومات. وعلاوة على ذلك، تنتج الصين دبابات جديدة وناقلات جند مدرعة ومدافع. وكما هي الحال في فروع أخرى، تستمر الصين في الاعتماد على المصادر الأجنبية في بعض القطع الفنية المتطورة مثل الرؤية الليلية أو معدات السيطرة على الحرائق.

تقدمت صناعة الطائرات الصينية بشكل مطّرد ووصلت إلى نقطة يمكنها إنتاج طائرات مقاتلة نفاثة وتشكيلة من النماذج الأخرى تستند في الغالب إلى التصاميم السوفيتية والروسية. وفي حين أن الصين طوّرت أو استوردت آلات دقيقة ذات تقنيات عالية لتمكينها من صنع قطع غيار للطائرات وتطوير صناعة الطائرات لديها، فإنها تستمر في الاعتماد على المصادر الأجنبية لمحركات الطائرات وإلكترونيات الطيران، وهي حقيقة تمنع قدرتها على التوسع في صناعة الطيران بسرعة في حالة الضرورة العسكرية.

الرسالة الواضحة هنا هي أن الصين تستخدم النمو الاقتصادي السريع لتحسين أبحاثها الأساسية والتطبيقية بصورة جدية، والتي تم توسيعها بسرعة في تحديث قوتها العسكرية. ولدى الصين خطة تركز البحث على: تصميم المواد، وعلم الطيران، والملاحة الفضائية، وتقنيات المعلومات، وتقانة النانو. كما سيوجَّه مزيد من الجهود للتصنيع المتقدم

وتقانة الطاقة المتقدمة والتقنيات البحرية وتقنيات الليزر وتقنيات الطيران. وتسعى لتطوير وبناء تلك المناطق الخاصة بالتقانة الأساسية والتطبيقية حيثما كانت ضعيفة أو غير موجودة، وسوف تستمر في التطوير في كافة مجالات التقانة العالية حيث يكون لديها قدرة كبيرة. كما ستشتري الصين أو تستأجر التقنيات حيثما تتوافر، وسوف تستخدم جميع الوسائل الممكنة، مشروعة أو غير مشروعة، للحصول على المعلومات والتقنيات التي تحتاجها لتطوير اقتصادها وتقنياتها وقواتها المسلحة (DoD 2009).

نزعة القوة وعامل تايوان

ركزت الصين كثيراً من اهتمامها العسكري ونشاطها نحو تايوان ومضيق تايوان البالغ عرضه 110 أميال لمدة تزيد على نصف قرن. ونتج هذا من الشعور القومي القوي لديها أن تايوان ينبغي لها أن تعود إلى الوطن الأم، في حين أن هذا الشعور يوظف أيضاً على أنه عنصر قوي موازٍ لوجود قوات أمريكية فعلية أو محتملة يمكن أن تتدخل إذا حاولت الصين استخدام القوة أو الإكراه ضد تايوان لتسريع عودتها إلى البر الصيني. ووفقاً للرؤية الصينية، فإن عودة تايوان إلى الصين هي مسألة داخلية، ولذا فإنها تلائم العقيدة الأوسع التي تقول إن الصين سوف تستخدم قوتها العسكرية لأغراض دفاعية فقط. ومن ثم، فإن البناء المطّرد للقوات البحرية والجوية والصاروخية مقابل تايوان لا ينظر إليه على أنه عدوان أو هجوم في طبيعته. وكما لوحظ أعلاه، يبقى موقف الولايات المتحدة متمثلاً في حل سلمي للخلافات بين الصين وتايوان. يستمر قانون العلاقات مع تايوان بالسماح للولايات المتحدة بتقديم معدات عسكرية وتقنية لدعم دفاعها عن النفس. وعلاوة على ذلك، تستمر الولايات المتحدة، من خلال مختلف تعديلات القوة، والآليات الأخرى، في جهودها للحفاظ على «القدرة للدفاع ضد استخدام بكين للقوة أو الإكراه ضد تايوان» (DoD 2009: 41).

يعد مضيق تايوان في الحقيقة نقطة ساخنة خطيرة في الوضع الأمني العالمي الحالي. تبدو الصين، في الوقت الحالي، مكتفية بالسماح للوضع مع تايوان بالاستمرار في الظلام

وفي حالة عدم اليقين أو الغموض، وبخاصة منذ انتخاب الرئيس ما ينغ-جياو Ma Ying-jeou عام 2008 والذي أظهر سياسة أكثر تصالحية نحو جمهورية الصين الشعبية مع تخفيف حدة التوتر. ومع ذلك، فإن البناء العسكري يتواصل وتبدو الصين مصممة على زيادة قدرتها إما لغزو الجزيرة وإما لإكراهها أو تخويفها للانحناء لإرادة بكين. وربما لا يبدو هذا التهديد واضحاً في أي مكان آخر أكثر مما تظهره خريطة التغطية الصاروخية الصينية لمضيق تايوان ولتايوان نفسها بصواريخ أرض-جو من طراز سام، وصواريخ باليستية قصيرة المدى من طراز SRBM (انظر الشكل 22-5).

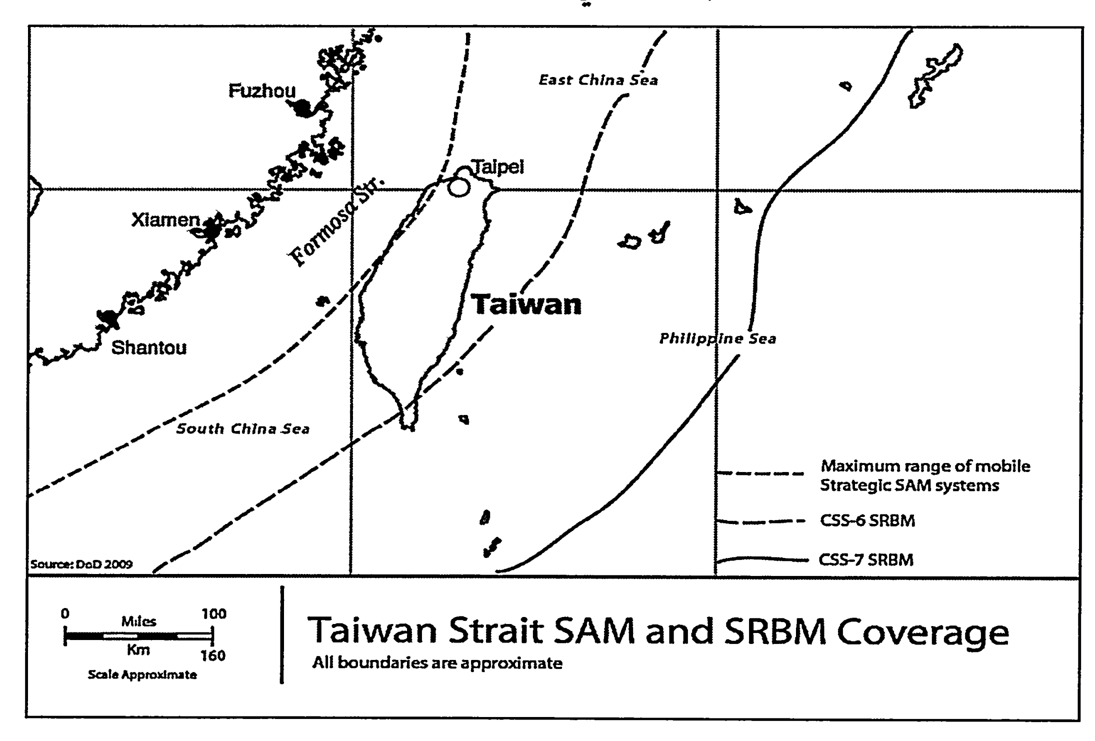
وفقاً لوزارة الدفاع الأمريكية تحتفظ الصين حالياً بأكثر من 1000 صاروخ من طراز SRBM وكروز منتشرة مقابل تايوان، ويمكن أن تهاجمها والقوات البحرية المجاورة لها بشكل مباشر. وفي الوقت الذي لاتزال الصين تحتفظ فيه بقوة برمائية وقدرة تعزيز محدودة فقط ومحصورة بفرقة مشاة، فإن من الواضح مع ذلك أن الصين تعمل على حد سواء وبجد لتطوير قوتها الصاروخية وقدرتها على حرب المعلومات. ومن شأن هذا أن يمكنها من حرمان القوات المعادية (الولايات المتحدة مثلاً) من الاشتباك بسرعة وبفاعلية في حال اختارت الصين استخدام القوة أو الإكراه ضد تايوان. تقدم خريطة النطاق الخارجي لمدى الصواريخ الباليستية دليلاً إضافياً على قدرة الصين المتنامية على توسيع قوتها الهجومية ضد القوات البحرية في مسرح مضيق تايوان إلى مسافات أبعد بكثير من أراضي الصين الرئيسية.

تم رسم عدد من السيناريوهات التي أظهرت كيف أن الصين يمكن أن تتوجه لمهاجمة تايوان. إن نمو القوات البحرية والجوية والبرية والبرمائية والصاروخية الصينية وتطويرها من شأنه أن يتيح للصين مرونة كبيرة. كما أن من الواضح أيضاً، كما تظهر الجداول المرفقة (انظر الجداول 22-1، و22-2، و22-3) أن القوات الصينية البرية والجوية والبحرية في مسرح العمليات بمضيق تايوان كبيرة في أعدادها. وكما ذكر أعلاه، فإن هذه القوات تخضع للتحديث وتحسين نوعيتها، ويتم تطويرها فنياً للحرب الحديثة بصورة متزايدة. يشير أحد

السيناريوهات المعقولة إلى أن بكين يمكن أن تستخدم السرية والمفاجأة في محاولة لفرض حل عسكري أو دبلوماسي سريع بالقوة قبل أن تأتي أي قوة أجنبية للتأثير في الوضع. وإذا لم ينجح ذلك، فمن المحتمل أن تسعى الصين إلى منع اشتراك الولايات المتحدة في النزاع، أو تستخدم الإمكانات العسكرية المتوافرة لديها لإنهاء سريع للاشتباك العسكري. وأخيراً، إذا لم تنجح الصين في تحقيق نصر سريع، فمن الممكن لها أن تسعى لصراع طويل الأمد تتبعه تسوية سلمية. تحمل كل هذه الاحتمالات مخاطر معها بالإضافة إلى إمكانية صراع طويل يكون مدمراً لسمعة الصين السياسية والدبلوماسية العالمية، والتي تخاطر الصين عندها بعلاقات متوترة ومريرة مع الولايات المتحدة (DoD 2009).

الشكل (22-5)

نطاق تغطية الصواريخ سطح-جو (SAM) والصواريخ الباليستية القصيرة المدى (SRBM) الصينية في مضيق تايوان، والتي تغطي تايوان وتتجاوز المياه المتاخمة لها. وتسلط هذه التغطية الصاروخية الضوء على مدى انكشاف تايوان على أي هجوم صاروخي من البر الرئيسي للصين المجاورة



الجدول (22-1)

التوازن العسكري في مضيق تايوان، القوات البحرية

	الصين		تايوان
	الإجمالي	أسطول بحرَي الصين الشرقي والجنوبي	الإجمالي
المدمرات	27	17	4
الفرقاطات	48	39	22
سفن إنزال الدبابات/ رصيف نقل البرمائيات	27	25	12
سفن إنزال متوسطة	28	23	4
غواصات ديزل هجومية	54	32	4
غواصات هجومية نووية	6	1	0
دوريات ساحلية (صاروخية)	70	55	59

ملاحظة: لدى أسطول جيش التحرير الشعبي الصيني أكبر قوة من المقاتلين الرئيسيين والغواصات والسفن الحربية البرمائية في آسيا. بعد سنوات من الإهمال، فإن مهنة الدوريات المسلحة بالصواريخ هي أيضاً تتنامى. وفي حال اندلاع صراع رئيسي، فمن المتوقع مشاركة أسطولي البحر الشرقي والبحر الجنوبي في العمل المباشر ضد تايوان. أما أسطول البحر الشمالي فسيكون مسؤولاً بالدرجة الأولى عن حماية بكين والساحل الشمالي، على الرغم من أنه يمكن أن يوفر إمكانات كبيرة للمهمة لدعم الأساطيل الأخرى.

المصدر: DoD 2009.

الجدول (22-2)

التوازن العسكري في مضيق تايوان، القوات البرية

	الصين		تايوان
	الإجمالي	مضيق تايوان	الإجمالي
الأفراد (الخدمة الفعلية)	1.25 مليون	440 ألفاً	130 ألفاً
عدد الجيوش	18	8	3
فرق المشاة	19	8	0
كتائب المشاة	24	11	8
فرق المشاة الميكانيكية	4	1	0
كتائب المشاة الميكانيكية	5	1	3
الفرق المدرعة	9	4	0
الكتائب المدرعة	8	3	5
فرق المدفعية	2	2	0
كتائب المدفعية	17	6	5
الفرق المحمولة جواً	3	3	0
الفرق البرمائية	2	2	
الكتائب البرمائية	3	3	3
الدبابات	6700	2800	1100
قطع المدفعية	7400	2900	1600

ملاحظة: تنتظم قوات جيش التحرير الشعبي الصيني البرية في مجموعات جيوش. كما أن وحدات المشاة والمدرعة والمدفعية منظمة في مجموعة فرق وكتائب تنتشر في أنحاء المناطق العسكرية السبع. وينتشر جزء كبير من هذه القدرات في منطقة مضيق تايوان وخاصة في مناطق نانجينج وجوانجزهو وجينان العسكرية.

المصدر: DoD 2009.

الجدول (22-3)

التوازن العسكري في مضيق تايوان، القوات الجوية

الطائرات	الصين		تايوان
	الإجمالي	مضيق تايوان	الإجمالي
المقاتلة	1655	330	390
القاذفة/ الهجومية	645	160	0
النقل	450	40	40

الخلاصة: العسكرية الصينية والمستقبل

شهدت الصين، منذ الإصلاحات في أواخر سبعينيات القرن الماضي، تحولاً جديراً بالملاحظة. وقد تمكنت - مدفوعة إلى حد كبير بالنمو الاقتصادي غير المسبوق - من تحقيق تحديث بعيد المدى لقواتها العسكرية والصاروخية الاستراتيجية. وفي حين أن بكين أكدت دوماً أن جيشها سيستخدم لأغراض دفاعية بهدف حماية أمن الصين، أصبح الآن جلياً أن تحديث القوات الصينية يمكّنها من إظهار القوة خارج حدودها، واستناداً إلى تقنيات جديدة، تستطيع تحدي وحرمان قوى أخرى من الوصول إلى مناطق المعارك المحتملة خارج حدود الصين. تقوم الصين بتحويل جيش التحرير الشعبي من عدد كبير في "جيش الشعب" إلى قوة عسكرية حديثة مدربة جيداً يمكنها «القتال في نزاعات شديدة على طول حدودها ضد أعداء يتمتعون بتقانة عالية»؛ وهو نهج تشير إليه الصين على أنه استعداد «لحروب في ظل حيازة المعلوماتية» (DoD 2009: 1).

أتاحت الزيادات الكبيرة والسريعة في تمويل الدفاع للصين، إمكانية شراء أسلحة أجنبية متطورة، وقامت بإجراء تحوّل في قواتها من خلال تحسين التقانة والتعليم والاستمرار في معدلات عالية من الاستثمارات في تطوير الاقتصاد ومؤسساتها العلمية

والبحثية. وقد انتقل هذا النمو بعد ذلك إلى القوات العسكرية التي حدّثت أسلحتها وتقنياتها وقواتها النووية والصاروخية الاستراتيجية، في حين كانت تخضع لتغييرات رئيسية في العقيدة والتنظيم لإتاحة الفرصة للقوات والعمليات المشتركة.

لهذا التغيير الملحوظ في قوة الصين الاقتصادية والعسكرية انعكاسات بعيدة المدى على جيرانها في غرب المحيط الهادي، وعلى العالم. إن حساب علاقات القوة العالمية آخذ في التحول، ما يبشر بعهد من التحدي والتغيير. ومن شأن تحولات القوة الديناميية الجديدة أن تؤدي إلى غموض جديد وحالة عدم يقين، وبخاصة في ظل عدم شفافية الصين في توضيح الحجم الحقيقي للإنفاق العسكري السنوي لديها. ومن الممكن أن يصبح جيران الصين مثل روسيا والهند واليابان، بالإضافة إلى دول جنوب شرقي آسيا الصغيرة، قلقين بشكل متزايد بشأن قوة الصين الجديدة وبحثها الحثيث عن الطاقة والمصادر المعدنية (Goldstein 2001).

إن أكثر منطقة مضطربة، على الأرجح، هي تايوان، وستستمر في كونها مصدراً دائماً وخطيراً للقلق في العلاقات بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية. وفي حين يبدو أن هذه القضية قد هدأت منذ عام 2008، يستمر الصينيون في بناء قوة عسكرية تنطوي على تهديد، وتظل ملتزمة بقوة، ومن دون كلل، في إعادة تايوان للسيادة الصينية. وسوف يثير أي تقييم للقدرة العسكرية الصينية المتنامية، بالإضافة إلى نياتها نحو تايوان، أسئلة حول ما يعني ذلك للعلاقات الأمريكية-الصينية ومستقبل تايوان. وفي حين تصبح الصين قوية أكثر، فعلى الأرجح، سيتزايد احتمال حدوث سوء فهم خطير أو استخدام للقوة، وهو احتمال واقعي لجميع من له مصلحة في المحافظة على السلام والاستقرار في غرب المحيط الهادي.

الفصل الثالث والعشرون

المنطقة غير المحكومة والسيادة الفعالة في الحرب على الإرهاب: غرب باكستان

فرانسيس جاجانو

مقدمة

«أنا لا أتخذ هذا القرار باستخفاف. أنا أتخذ هذا القرار لأنني مقتنع بأن أمننا على المحك في أفغانستان وباكستان. هذه بؤرة التطرف العنيف الذي تمارسه القاعدة».

(الرئيس باراك أوباما، 1 ديسمبر 2009، البيت الأبيض 2009).

في حين تدخل الحرب العالمية على الإرهاب عامها التاسع [وقت كتابة الدراسة]، تعود نقطة تركيز الجيش الأمريكي والجهود الدبلوماسية ضد الإرهاب إلى مكان بدئها في أفغانستان، التي كانت يوماً مهداً لحركة طالبان، وأرضاً سابقة لتدريب القاعدة. ومع ذلك، هناك منطقة ذات أهمية جيوبوليتيكية أكبر، حيث إن جهداً يبذل الآن لإدماج عمليات واسعة في مناطق القبائل التي تدار فيدرالياً في غرب باكستان (DoD 2006; Constable and Witte 2009). وفي الحقيقة، أشار الرئيس باراك أوباما، خلال كلمته التي لخص فيها استراتيجيته الأفغانية، بوضوح إلى أنه كان هناك ارتباط بين الإرهاب العالمي والملاذ الآمن الذي يوجد حالياً في غرب باكستان (White House 2009). كما أشار الرئيس أوباما إلى أن تأمين منطقة القبائل التي تدار فيدرالياً ضروري للمتابعة الناجحة للحرب على الإرهاب، لأن هذه الأراضي القبلية البرية هي الآن مركز الثقل لطالبان والقاعدة؛ إذ يعتقد أنها مأوى لأسامة بن لادن والرجل الثاني في القاعدة أيمن الظواهري، وهي الآن الأرض الرئيسية لتدريب جنود الجهاد العالمي (Bajoria 2007; Constable 2009; Constable and White 2009; White House 2009).

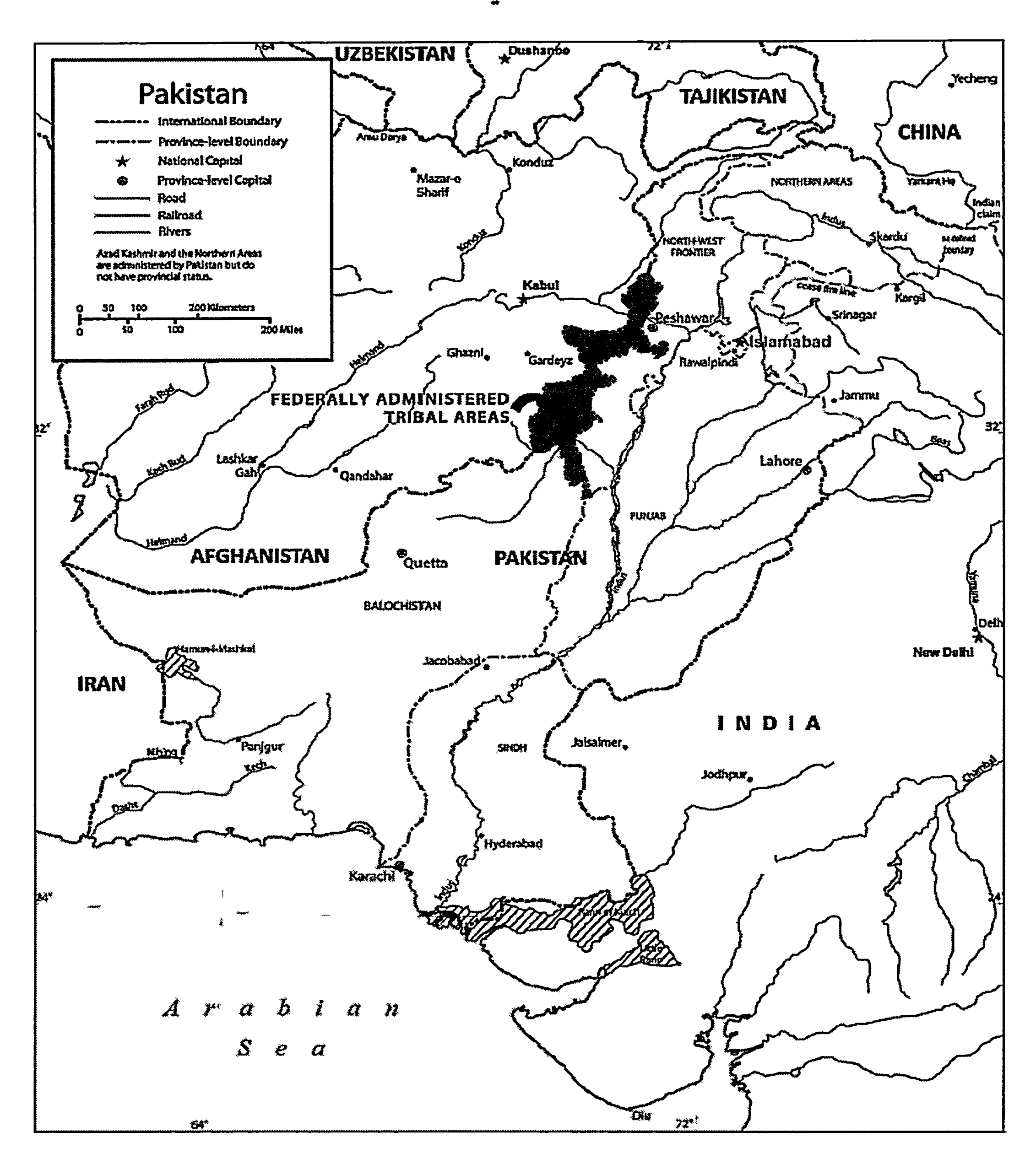
> منذ هجمات 11 سبتمبر كانت الملاذات الآمنة في (أفغانستان وباكستان) مصدراً للهجمات ضد لندن وعمّان وبالي. كذلك، يتعرض شعب وحكومتا كل من أفغانستان وباكستان للخطر. بل إن المخاطر أعلى ضمن باكستان مسلحة نووياً؛ لأننا نعلم أن القاعدة ومتطرفين آخرين يسعون للحصول على أسلحة نووية، ولدينا كل الأسباب للاعتقاد أنهم سيستخدمونها (President Barack Obama, 1 December 2009, White House 2009).

تجد باكستان نفسها (انظر الشكل 14-1 في الفصل الرابع عشر) على جانبي خط الصدع بين الإرهاب وحكم القانون العالمي. من منظور الجغرافي العسكري، فإن الصلة بين مناطق القبائل التي تدار فيدرالياً والحرب على الإرهاب أهمية رئيسية لأنها تظهر الديناميات الجغرافية البارزة التي تميز الصراع الحديث والحرب غير المتماثلة أو غير النظامية. بالنسبة إلى الولايات المتحدة وحلفائها، فإن محاربة طالبان والقاعدة في المناطق القبلية أصبح ضمن الصراع في الحرب العالمية على الإرهاب؛ لأن عديداً من الهجمات الإرهابية الحديثة يمكن اقتفاء أثرها في هذه المنطقة، كما أصبحت هذه المناطق هي القاعدة الجديدة لعمليات المنظمات الإرهابية والجهات العنيفة غير الحكومية الأخرى (Cordesman 2007, 2009; Sappenfield 2008; Siddique 2009). وأخيراً، أصبح من الواضح بشكل متزايد أن الحركات الأصولية التي تنبثق من هذه المنطقة لها انعكاسات مزعزعة على باكستان التي هي دولة نووية (Kyle 2009).

ومن دون شك، لا يشير انبعاث طالبان وإعادة تنظيم القاعدة من جديد في منطقة القبائل التي تدار فيدرالياً إلى تهديد أفغانستان فحسب، بل وتهديد باكستان أيضاً (Constable 2009). إن الورطة الظاهرة للولايات المتحدة وحلفائها هي أن عليهم التعامل مع المنظمات الإرهابية العنيفة ضمن مناطق سيادة حليف اسمي، ما يجعل العمليات ضد طالبان والقاعدة ذات إشكالية جوهرية. وتتفاقم المعضلة لأن الحكومة الباكستانية، حتى وقت قصير، ظلت غير مكترثة بشأن انتهاج سياسة كفاحية ضد المنظمات الإرهابية ضمن مناطق القبائل - منطقة سيادتها - كما أن استخباراتها تساعد طالبان بشكل مباشر (National Security Archive 2007; Sappenfield 2008; Cordsman 2009).

الشكل (23-1)

خريطة المناطق التي تدار فيدرالياً



لذا فإن دور مناطق القبائل في الحرب على الإرهاب ضروري لفهم الصلة بين المنطقة غير المحكومة والسيادة الفعالة، ومستقبل الأمن الإقليمي والعالمي (Garamone 2004; Jacoby 2004; Tallent 2005; DoD 2006; Galgano 2007). يمكن

للجغرافيين العسكريين أن يقدموا نقطة أفضلية مهمة يجري من خلالها بحث هذه القضايا، لأن مسائل الحكم والسيادة الفعالة لها أهمية قصوى في هذه المنطقة. أظهرت العمليات العسكرية أن القوات الأمريكية والقوات التابعة لحلف شمال الأطلسي "الناتو" والقوات الباكستانية يمكن أن تنتصر عملياً في أي معركة مفتوحة مع طالبان والقاعدة. ولكن الأحداث أظهرت أيضاً، كما كانت الحالة في فيتنام، أن الانتصارات العسكرية التكتيكية لا يمكنها كسب الحرب على جانبي الحدود الأفغانية-الباكستانية (Cordesman 2007). كما أصبح واضحاً بشكل متزايد أن الانتصارات العسكرية ستكون غير ذات صلة بالموضوع إلى حد كبير ما لم تتمكن الحكومتان الأفغانية والباكستانية من إيجاد حكم فعال وتأكيد سيادة فعالة على جانبي الحدود المتنازع عليها، ولكن بشكل خاص في منطقة القبائل (Bajoria 2007; Cordesman 2009). من الواضح، على كل حال، أنه تنبغي هزيمة طالبان والقاعدة عسكرياً قبل نجاح أي جهود دبلوماسية (Bajoria 2007; Cordesman 2009).

المناطق غير المحكومة والحرب العالمية على الإرهاب في باكستان

من الواضح أن حالة عدم الاستقرار في المناطق التي تتميز بضعف الحكم فيها في كل من أفغانستان وباكستان لها تأثير منهك في الاستقرار الإقليمي، وكذلك في استراتيجية الولايات المتحدة في مواجهة الأخطار التي تهدد أمنها. وقد أظهرت الأحداث، منذ 11 سبتمبر 2001، بشكل واضح أن التهديد الأمني الجديد عابر للحدود بطبيعته، ويتميز بعدو لا مناطق له ولا حدوداً (Thomas and Casebeer 2005). وعلاوة على ذلك، فإن هذا التهديد الأمني العابر للحدود استغل ببراعة المناطق حيث السيطرة الحكومية غائبة أو ضعيفة (Tallant 2005). ومن شأن هذه الدينامية العالمية تعزيز الأخطار المتنامية للأمن الإقليمي، بما في ذلك تصدير الإرهاب والمحافظة على امتيازاته، وانتشار أسلحة الدمار الشامل، وعدم السيطرة على تجارة الأسلحة والمخدرات والقرصنة في البحار (Thomas 2006; Galgano 2009).

الأراضي غير المحكومة هي عبارة عن مناطق تكون السيطرة الحكومية والاهتمام الحكومي بها غائبين إلى حد كبير لأن الكوارث الإنسانية والصراع العرقي يمكن أن يؤثرا بشدة فيها، أو أن الأطراف العنيفة غير الحكومية يمكن أن تستغلها ملاذاً من دون خوف من التدخل (Galgano 2007). ونظراً إلى أن باكستان دولة نووية وطالبان ملتزمة بالاستيلاء عليها لأغراضها الخاصة، فإن الأراضي القبلية غربي باكستان هي ربما أكثر المناطق غير المحكومة إشكالية وخطورة في العالم (Miskel and Norton 1997; Garamone 2004; Jacoby 2004; Tallent, 2005;Galgano 2007; Cordesman 2009).

تصاعد الخوف في المناطق غير المحكومة بسبب العمليات العسكرية الأمريكية في أفغانستان والعراق؛ فقد حُرم المتطرفون العابرو الحدود الوطنية، مثل القاعدة، بشكل متزايد من ملاذاتهم السابقة (Tallent 2005). ومن ثم، فهم يعتمدون الآن على تقوية نفوذهم وعقد شراكات محلية ومع جماعات إرهابية تابعة في سائر أنحاء العالم. كما أن أطرافاً عنيفة غير حكومية مثل طالبان والقاعدة يستغلون الأمكنة التي تكافح بها دول بقوة من أجل السيطرة عليها مثل أفغانستان وغرب باكستان. ومن الواضح أن المنطقتين تعانيان خللاً في التوازن المزمن في توزيع الثروة وتداخل المشكلات الصحية والأنظمة السياسية الهشة والنظُم الاجتماعية المتردية والشباب المحرومين المعرضين للإغراء من قبل التطرف (Garamone 2004; DoD 2005; Constable 2009).

ثمة أهمية حيوية لدراسة المناطق المحكومة بصورة ضعيفة في سياق الحرب العالمية على الإرهاب لأن الغرب - رغم الانتصارات التكتيكية، وشلّ عمل الشبكات الإرهابية، والعمليات العسكرية الأخرى الناجحة نسبياً - كان بطيئاً في الهجوم على تلك الحالات التي عززت الإرهاب (Abbott 2004; Galgano 2007). لذا، فإن فهم ديناميات المناطق غير المحكومة مهم، لأن القواعد الراسخة لسيادة أي دولة لم تعد قابلة للتطبيق. وقد تجلت هذه الدينامية الجديدة بوضوح، ومؤخراً، على طول الحدود الأفغانية-الباكستانية (Rosenthal 2004; Siddique 2009).

المناطق القبلية المدارة فيدرالياً

في سياق الحرب العالمية على الإرهاب، تحتل باكستان مكانة لها أهمية كبرى من الناحية الجيوستراتيجية، حيث تجاورها إيران وأفغانستان والصين والهند وبحر العرب (انظر الشكل 14-1). وقد أصبحت مناطق القبائل بباكستان غير المحكومة والتي تدار فيدرالياً والمناطق النائية (انظر الشكل 23-1) الأرض الرئيسية للتدريب بالنسبة إلى تنظيم القاعدة، وأصبحت قاعدة لمتمردي طالبان ضد أفغانستان وباكستان (Cordesman 2009). وعلاوة على ذلك، تبذل طالبان جهوداً لإنشاء حكومة موازية في المناطق القبلية المدارة فيدرالياً، وتعتبر الحدود المشتركة بين الدولتين واحدة من أهم المناطق المثيرة للنزاع والخطيرة في العالم (Bajora 2007; Siddique 2009). كما تعتبر مناطق القبائل هذه بؤرة للتطرف الإسلامي في الإقليم ونقطة انطلاق لتصدير العنف على نطاق إقليمي ودولي. في تقرير صدر عام 2008، أشارت الأمم المتحدة إلى أن أكثر من 80٪ من جملة المفجرين الانتحاريين في أفغانستان وباكستان تم تجنيدهم أو تدريبهم في مناطق القبائل المدارة فيدرالياً (Cordesman 2007; UN 2007). على الصعيد العالمي، تم التخطيط والتنظيم والتنسيق لتفجيرات القطارات في مدريد (2004) وتفجيرات لندن (2007) وهجمات مومباي (2008) في هذه المناطق المدارة فيدرالياً (Black 2008).

يبلغ طول الحدود الباكستانية مع أفغانستان نحو 2250 كيلومتراً (انظر الشكل 14-1 و23-1). وتمتد هذه الحدود شمالاً على طول سلاسل عالية ووعرة في جبال هندوكوش وباميرز. رسمت الحدود الحديثة بين الدولتين عام 1893 من قبل الدبلوماسي البريطاني السير هنري مورتيمر دوراند Sir Henry Mortimer Durand في وسيلة لتقسيم قبائل البشتون الإحدى عشرة وإضعافها، والتي تهيمن على المنطقة. ولتحويل أفغانستان إلى منطقة عازلة بين الإمبراطوريتين البريطانية والروسية (Library of Congress 1994; Bajoria 2007). وأصبحت هذه الحدود التي تسمى "خط

دوراند" Durand Line الحدود الأفغانية-الباكستانية الرسمية حين نالت باكستان استقلالها عام 1947. ومع ذلك، تم التشكيك في شرعيتها من قبل قبائل البشتون التي سكنت على جانبي الحدود، حيث إن هذه الحدود قسمت هذه الجماعة العرقية. كما أن أفغانستان أيضاً رفضت خط دوراند؛ لأنها تشعر أنه كان مفروضاً من قبل الإمبراطورية البريطانية، ومن ثم تبطل مطالبتها بأراضي البشتون في غرب باكستان التي تنظر إليها على أنها امتداد طبيعي لمنطقتها (Bajora 2007). والأهم من ذلك أن الأفغان قلقون بشأن خط دوراند لأن تقسيمه لقبائل البشتون أثار رغبتهم في إنشاء دولة منفصلة، وبالتالي زعزعة المنطقة الشرقية للبلاد (Siddique 2009).

تتألف الأراضي القبلية شبه المستقلة ذاتياً في مناطق القبائل المدارة فيدرالياً (انظر الشكل 23-1) مما يسمى سبعة أقاليم إدارية، وهي: باجور ومهمند وخيبر وأوراكزاي وكورام وشمال وزيرستان وجنوب وزيرستان. تمتد المنطقة الجبلية النائية من المناطق القبلية المدارة فيدرالياً على طول الحدود الأفغانية، وتسكنها قبائل البشتون المستقلة العنيفة. وعلى الرغم من أن قبائل البشتون اختارت الانضمام إلى باكستان وليس الهند بعد الاستقلال عام 1947، فإن باكستان لم يكن لها سوى سيطرة لا تكاد تذكر على المنطقة (Bajoria 2007).

لذا تعتبر مناطق القبائل المدارة فيدرالياً مناطق غير محكومة تقليدياً؛ فالسيطرة على الحدود ضعيفة وتقوم طالبان بشكل روتيني بعمليات توغل من باكستان إلى أفغانستان. ويسود المنطقة الفساد والفقر والفوضى والعنف. وعلى الرغم من أن الدستور الباكستاني يمنح رئيس الدولة سلطة تنفيذية في المنطقة، فإن حاكم مقاطعة الحدود الشمالية الغربية (انظر الشكل 23-1) يسيطر على المناطق القبلية المدارة فيدرالياً بإدارة المكاتب التي تدير وتقدم خدمات مثل الرعاية الصحية والتعليم في المناطق القبلية (Library of Congress 1994). لكن السلطة الحقيقية في المناطق القبلية هي في يد كل واحد من الوكلاء السياسيين أو القضاة الذين يمثلون الحكومة الباكستانية الفيدرالية.

يمارس القضاة السيطرة على القبائل من خلال مجموعة من النظم الخاصة بالجرائم التي عفا عليها الزمن وتعود للحقبة الاستعمارية التي وضعها البريطانيون. وتعتبر هذه القوانين قمعية، حيث إن مواطن القبيلة في هذه المناطق له حقوق محدودة؛ وتستخدم القوانين عادة من قبل السلطات الاتحادية سلاحاً سياسياً، وكانت على الدوام مصدراً للعداوة بين زعماء قبائل البشتون وحكومة إسلام أباد. وبدلاً من أن توفر قوانين الجرائم الحدودية إجراءات للسيطرة، فإنها أنشأت ظروفاً حطت من قدر الحكم الفعال ضمن المنطقة، وشجعت على عدم الثقة والكراهية والفوضى. وعلاوة على ذلك، أظهر المسؤولون الحكوميون قليلاً من الاحترام لقبائل البشتون ومسؤولية محدودة لأفعالهم. وقد عزز هذا الأمر عدم الاستقرار السياسي المتأصل، وتفشي العنف، وتقلب سيادة القانون، وتوطّن الفساد (Kaufmann et al. 2003). وفي الحقيقة، يسمح القانون الذي يعود للحقبة الاستعمارية للوكلاء السياسيين الفيدراليين بفرض عقوبة جماعية على القبائل بسبب جرائم اقترفت من قبل فرد من أفرادها، كما يسمح للقضاة بالحكم بالسجن عشوائياً وإصدار أحكام قضائية أخرى من دون إجراءات قانونية أو إعطاء حق الاستئناف (Bajoria 2007; Siddique 2009).

يتفاقم غياب المسؤولية الحكومية في المنطقة بسبب انتشار الفساد وشبه غياب البنية التحتية الاجتماعية. إن المحاباة والمحسوبية هما القانونان السائدان في هذه المناطق، كما أن زعماء قبليين مختارين يسمون المالكين يتلقون حوافز اقتصادية وأموالاً من قبل القضاة الفيدراليين لقاء ولائهم. يقوم القضاة بجمع عوائد الضرائب وتوزيعها مع قليل من الإشراف من قبل حكومة إسلام أباد. وتعاني القبائل جراء الحاجة إلى التنمية ومواجهة الفقر اللذين يكثفان الأوضاع التي تسهل أعمال التطرف في المنطقة (Siddique 2009). فعلى سبيل المثال، تشير بيانات التنمية إلى أن 17٪ فقط من السكان متعلمون، وأن توزيع الرعاية الصحية سيئ على حد سواء. يوجد في المناطق القبلية المدارة فيدرالياً طبيب واحد لكل 8000 شخص مقارنة بطبيب واحد لكل 1500 شخص في بقية أنحاء البلاد (Bajoria 2007).

إن التطبيق غير المنظم للقوانين التي تثير الانقسامات والفساد المتوطن وانتشار التفرقة وعدم المساواة مكّنت من انتشار الآراء الإسلامية المتطرفة، وتطرف عديد من السكان الذكور المحرومين في المنطقة. هناك فقط 102 مدرسة ثانوية في جميع أراضي القبائل. وقد تم ملء هذا الفراغ بأكثر من 300 مدرسة أو مدارس إسلامية يديرها رجال دين وهّابيون، وأعدادهم في ازدياد. ويعكس الانتشار المثير للقلق لهذه المدارس الدينية القوة المتنامية للتطرف الإسلامي في أراضي القبائل (Siddeque 2009). هناك كثير من الفقراء والمحرومين وغير المتعلمين من الشباب الذين يمكن تحويلهم إلى متطرفين بسهولة في المدارس الإسلامية، ويتم تجنيدهم واستغلالهم من قبل الجماعات الإسلامية المتطرفة من دون عناء كبير. لذا، فإن المنطقة تظهر مؤشرات مميزة لمنطقة غير محكومة هي عرضة للاستقطاب والعنف المتطرف الذي يمكن استغلاله من قبل المنظمات العنيفة غير الحكومية (Bajoria 2007).

نظراً لهذه الحالة، يمثل التطرف الديني والعنف ضد الغرب مشكلات كبيرة في المناطق القبلية المدارة فيدرالياً، ومن ثم، أصبحت هذه المناطق بوتقة انصهار للجهاديين من أرجاء العالم كافة (Bajoria 2007). وبالإضافة إلى طالبان والقاعدة، تستضيف أراضي القبائل الجماعات الشيشانية، ومنظمات مثل حركة أوزبكستان الإسلامية (National Security Archive 2007). وقد استغلت طالبان الافتقار إلى الحكم المنتشر في المنطقة، وتحاول الآن إنشاء حكومة موازية في المنطقة (Siddique 2009). ومنذ بداية الحرب في أفغانستان عام 2001، تقدم أعضاء رئيسيون في طالبان إلى أدوار قيادية خاصة في شمال وجنوب وزيرستان وباجور. وقد زعزع ظهور طالبان التوازن السياسي في المناطق القبلية المدارة فيدرالياً حيث كانت هناك حالات إعدام لزعماء قبليين بسبب تحديهم قوة طالبان المتنامية، أو بسبب العمل عن كثب مع الجيش الباكستاني (Bajoria 2007).

من المهم ملاحظة أن تطرف طالبان الديني ليس دينامية جديدة في أراضي القبائل، حيث مارس البشتون لعدة عقود مختلف أشكال الأصولية وأظهروا قيماً اجتماعية محافظة للغاية سبقت جهود مكافحة الإرهاب المعاصرة في المنطقة (Constable 2009).

ويتفاقم هذا الوضع بسبب حقيقة أن معظم السكان البشتون في المنطقة يعتبرون مواطنتهم الباكستانية ثانوية بالنسبة إلى هويتهم البشتونية، وينظرون إلى الأجانب بمن فيهم الجيش الباكستاني بشكوك كبيرة جداً (Bajoria 2007). وقد تفاقمت هذه المشكلة منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة. وخضعت المنطقة للفحص الدقيق من قبل الولايات المتحدة بعد أن اتخذت طالبان والقاعدة ملاذاً في المناطق القبلية المدارة فيدرالياً. ونتيجة لذلك، أمر الرئيس الباكستاني السابق برويز مشرف بسلسلة من الهجمات المترددة كان هدفها استئصال المنظمات الإرهابية من المنطقة، ولكن هذه الجهود فشلت إلى حد كبير. كان الفشل بسبب أن الأعمال العسكرية كانت في الواقع غير جدية، وأصبحت من دون شعبية بصورة متزايدة بالنسبة إلى الجيش الباكستاني الذي يشكل البشتون ثانية أكبر مجموعة عرقية فيه، ولأن طالبان استمرت في تلقي دعم مباشر من وكالة الاستخبارات الباكستانية (National Security Archive 2007).

هذه الظروف تجعل من باكستان حليفاً مشكوكاً فيه. ولذلك، فإن المناطق القبلية المدارة فيدرالياً تمثل منطقة خطيرة جداً، حيث المساحة غير المحكومة يتم استغلالها. وتزداد المشكلة تفاقماً لأن المنطقة تقع ضمن سيادة ما يسمى حليفاً [أي باكستان] فقد إرادته السياسية في منع استخدام المنطقة من حيث هي نقطة انطلاق لهجمات عنيفة من قبل المنظمات الإرهابية. ووفق هذا الواقع، فإن السؤال الذي يواجه الولايات المتحدة وبقية المجتمع الدولي هو: ما العمل لاستئصال - أو على الأقل تخفيف حدة - الخطر الذي تمثله هذه المنطقة؟

السيادة الفعالة

> تبقى أهدافنا الشاملة نفسها: تعطيل القاعدة في أفغانستان وباكستان وتفكيكها وهزيمتها ومنع قدرتها على تهديد أمريكا أو حلفائنا في المستقبل (President Barack Obama, 1 December 2009, White House 2009).

يؤدي وجود منطقة غير محكومة في باكستان حالياً دوراً رئيسياً في الحرب العالمية على الإرهاب، حيث إن القاعدة تستغل المناطق القبلية المدارة فيدرالياً لتنفيذ الجهاد

العالمي بالهجوم على المصالح الغربية وتعزيز القتل الجماعي (Tallent 2005; Constable and Witte 2009; White House 2009). ولذا فإن الرد بفاعلية على الخطر الذي تمثله الأطراف العنيفة غير الحكومية التي تعمل من منطقة غير محكومة، يتطلب وجود دولة مهددة؛ وذلك للتماشي مع قوانين الدبلوماسية والمذاهب المرعية في العلاقات الدولية منذ مدة طويلة (Rosenthal 2004). وبعبارة أخرى، هل يشكل تهديد الهجمات الآتي من منطقة غير محكومة في دولة ذات سيادة تحدياً للفكرة القائمة منذ مدة طويلة حول السيادة؟ وهل بإمكان دولة التدخل في منطقة غير محكومة تتبع دولة أخرى؟ أطلق على هذا النموذج مصطلح عقيدة السيادة الفعالة التي تزعم أنه، في وضع يمكن أن يكون فيه الأمن القومي الأمريكي مهدداً بسبب فشل حكومة ما في ممارسة سيطرة كافية على منطقة غير محكومة، تحتفظ الولايات المتحدة بحق اتخاذ الإجراء الذي تراه مناسباً لضمان أمنها (Isacson et al. 2004; Armstrong 2005).

ليس بالضرورة أن تتطلب كافة الردود على مشكلات السيادة الفعالة، القيام بعمل عسكري. ففي بعض الحالات تمكن زعماء حكوميون ومنظمات غير حكومية من علاج المشكلات من خلال وسائل سلمية باستخدام بروتوكولات دبلوماسية ودولية راسخة. وفي مثل هذه الحالات، فإن المبادئ الراسخة تعتبر شيئاً معقولاً، حيث إنها توفر الإرشاد المعلوماتي المطلوب (Balch 1910; Rosenthal 2004). لكن أفعال القاعدة وطالبان في المناطق القبلية، بالإضافة إلى الرد الضعيف من الحكومة الباكستانية، أظهر بوضوح أن البروتوكولات الدبلوماسية الراسخة منذ مدة طويلة، بالإضافة إلى العقائد الدولية والمبادئ التي تولدها ينبغي أخذها في الاعتبار في ظل الظروف الدولية الجديدة (Galgano 2007). وعلى وجه التحديد، فإن التهديد الخطير الذي تمثله القاعدة وهدفها المعلن بتعزيز القتل الجماعي، ينبغي التعامل معه باستخدام القوة العسكرية المباشرة، حتى ولو كان ذلك يعني عملاً عسكرياً من دون موافقة السيادة الإقليمية (Rosentahl 2004; ASIL 2009). لذا يمكن أن يواجه الزعماء الحكوميون ضرورة حقيقية جداً

لاستخدام القوة العسكرية لقهر منطقة غير محكومة تابعة لدولة ذات سيادة، حتى ولو كانت هذه الدولة تسمى حليفاً مثل باكستان (Hoffman 2005; Sullivan 2006).

كانت المناطق القبلية المدارة فيدرالياً - ولاتزال - تستخدم على أنها موقع للتدريب والتخطيط والتنظيم لعدد من الهجمات الإرهابية (Bajoria 2007; White House 2009). وتكمن المعضلة الرئيسية في أن باكستان أبدت رغبة ضئيلة في التدخل لمنع الاستخدام غير القانوني للمنطقة. والأهم من ذلك، فإن ما له علاقة بقضية السيادة الفعالة هو أن الحكومة الباكستانية من خلال وكالة استخباراتها قد ساعدت بشكل مباشر وبصورة كبيرة طالبان منذ عام 1996. وعلاوة على هذا، يعتقد أن الزعماء البارزين في المخابرات الباكستانية والجيش الباكستاني مازالوا يدعمون طالبان، وربما القاعدة أيضاً، بالمعلومات الاستخبارية والأسلحة والمال حتى في الوقت الذي تدعي فيه الحكومة الباكستانية اتخاذ إجراء لتهدئة المناطق القبلية (National Security Archive 2007; DeYoung and Warrick 2008). نتيجة لذلك، أجبرت الولايات المتحدة على استخدام التدخل العسكري المباشر في المناطق القبلية المدارة فيدرالياً مستخدمة في معظم الأوقات طائرات من دون طيار (ASIL 2009).

تعتبر مثل هذه الهجمات مظهراً من مظاهر التدخل العسكري المباشر الذي انتهجته الولايات المتحدة خلال إدارة جورج بوش الابن والآن في عهد إدارة باراك أوباما. ويتمثل موقف الولايات المتحدة في أن لها الحق في الدفاع عن النفس واستخدام الضربة العسكرية الاستباقية كما تراها مناسبة. وفي الحقيقة، نشرت وزارة الدفاع الأمريكية أمراً سرياً عام 2004 أعطى تخويلاً واسعاً للقوات الأمريكية للقيام بعمليات مباشرة ضد القاعدة وطالبان ضمن حدود نحو 20 بلداً (ASIL 2009). وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة بدأت تعزيز عقيدة السيادة الفعالة الخاصة بها، في مطلع عام 1995، فإن أمر وزارة الدفاع عام 2004 يفترض ضمناً حقّها في الدفاع عن النفس (Abott 2004; Hoffman 2005; Thomas 2006; ASIL 2009). وبالتنسيق مع هذا

المبدأ الجديد، قامت الولايات المتحدة بأكثر من 12 عملية برية "سرية" في كل من سوريا وباكستان والصومال منذ عام 2004 (Schmitt and Mazetti 2008). فقد قامت بهجمات صاروخية تقدر بنحو 26 هجمة في باكستان خلال عام 2008 فقط (ASIL 2009). وفي إحدى العمليات شنت قوة أمريكية صغيرة محمولة بطائرة عمودية عبر الحدود في سوريا، حيث قدمت من العراق، ما أثار احتجاجاً شديداً من سوريا في الأمم المتحدة. وفي طرح المسؤولين الأمريكيين مبرراً للهجوم ضد الجهاديين الذين كانوا يعملون ضد القوات الأمريكية من الأراضي السورية، أشاروا إلى خطاب الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش عام 2008 أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة:

> للتمسك بما جاء في الميثاق في وجه هذا التحدي، كل دولة في هذه القاعة لديها مسؤوليات. ومن حيث هي دول ذات سيادة، علينا واجب الحكم بطريقة مسؤولة، وحل المشكلات قبل أن تمتد عبر الحدود. لدينا التزام بمنع استخدام أراضينا ملاذاً للإرهاب، وانتشار الأسلحة النووية والاتجار بالبشر والجريمة المنظمة (President George Bush, 23 December 2008, White House 2008).

من الواضح أن إدارة أوباما ستنتهج هذه العقيدة في باكستان كذلك؛ فقد أعطت تصريحاً لعديد من هجمات الطائرات من دون طيار ضد أهداف مشبوهة للقاعدة وطالبان في باكستان منذ يناير 2009 (ASIL 2009). وكما أشير في خطاب الرئيس أوباما في ديسمبر 2009 يبدو أنه سيستمر في إعطاء تصريح لهجمات عبر الحدود في المناطق القبلية الباكستانية، لأن الحكومة الباكستانية أثبتت أنه ليس لديها كثير من الوسائل أو حتى الإرادة السياسية لفرض مواجهة مع المنظمات الإرهابية التي تعمل في تلك المناطق. والواقع المثير للقلق أن العمليات التي تقودها باكستان في المناطق القبلية أصبحت لا تحظى بشعبية بشكل متزايد، كما أن الجيش الباكستاني متردد في الاستمرار في هذه العمليات لاسترضاء الغرب (Bajoria 2007; Constable 2009).

على الرغم من نجاح استخدام أشكال الإغراءات الاقتصادية والدبلوماسية في حل قضايا السيادة الفعالة في الماضي – وبخاصة في أمريكا اللاتينية – فإن جوانب

الدبلوماسية هذه لا تبدو حلاً حيوياً في المناطق القبلية الباكستانية (Manwaring 2002; Talbot 2002; Correll 2003; Isacson et al. 2004; Bajoria 2007).

حاولت الحكومة الباكستانية تحقيق سلسلة من الأمور مثل وقف إطلاق النار، والمعاهدات، واتفاقيات المساعدات مع طالبان، منذ عام 2004. وفي كل حالة، فشلت الاتفاقيات أو نبذها قادة طالبان بعد أن استخدموها لتوفير غطاء لهجوم جديد (Bajoria 2007). من الواضح أن طالبان والقاعدة ينويان استخدام تحريف الشريعة ذريعةً لإقامة حكم إرهابي ولتبرير أهدافهم. وسوف يستمرون في التخطيط للجهاد العالمي، والقتل وهم محصنون، والعمل على إنشاء حكومة موازية في المناطق القبلية لخدمة أهدافهم العنيفة (Sappenfield 2008). وعلاوة على ذلك، فإن طالبان والقاعدة لن يهدأ لهما بال حتى يطيحا حكومة باكستان وتحويل البلد إلى دولة أصولية (Cordesman 2009). ويتفق الخبراء على ضرورة تهدئة المنطقة بالقوة العسكرية جنباً إلى جنب مع الاتفاقيات السياسية لحل قضايا المنطقة المعقدة (Bajoria 2007).

تصنيف الأراضي غير المحكومة في المناطق القبلية المدارة فيدرالياً

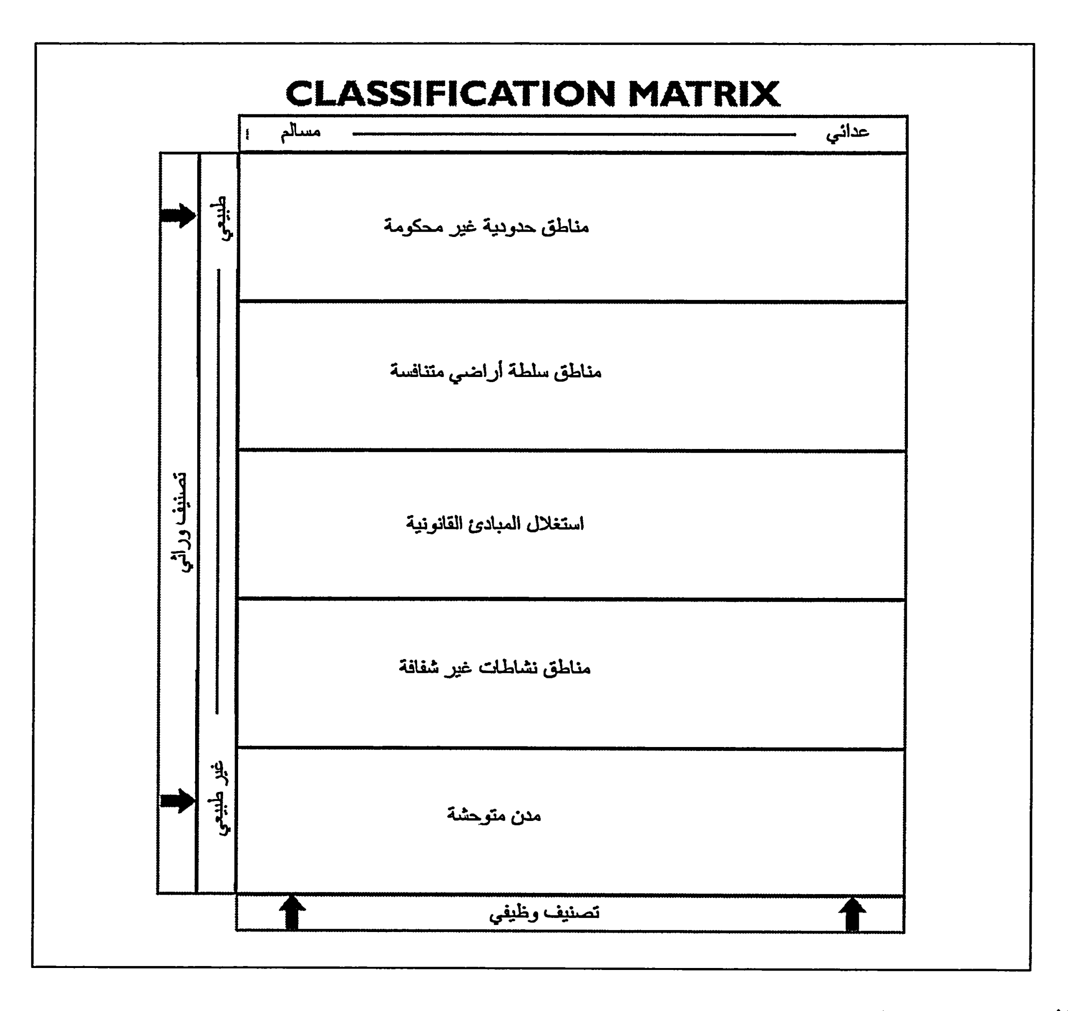
إن وجود مناطق غير محكومة ليس ظاهرة جديدة، كما أن استغلالها من قبل الجهات العابرة للحدود له تاريخ طويل كذلك (Thomas and Casbeer 2005). المشكلة الملحة التي نواجهها الآن هي احتمال استخدام الأراضي غير المحكومة بوصفها نقطة انطلاق لنشاطات مزعجة، أو ربما كارثية من قبل المنظمات الإرهابية (Talent 2005). وعلاوة على ذلك، فإن ديناميات العالم الحديث، مثل الاتصالات والإنترنت والصناعة المصرفية وتحويل الأموال والسفر ساعدت الجهات غير الحكومية، وجعلت من السهل عليها استغلال المناطق البعيدة من العالم، حيث الحكم ضعيف فيها.

نظام التصنيف مهم ومفيد؛ لأنه يتعين على الزعماء الحكوميين بالإضافة إلى مديري المنظمات غير الحكومية والهيئات الحكومية الدولية التعامل مع الأراضي غير المحكومة وفق تشكيلة واسعة من الاستجابات مثل المساعدات الإنسانية ونشاطات بناء الدولة

لتوجيه التدخل العسكري (Corell 2003). لذا ينبغي النظر إلى المناطق غير المحكومة وظيفياً لتقرير العلاقات المميزة بين طبيعة "غياب الحكم" والنشاطات العنيفة للجهات غير الحكومية. ونظراً لهذا الشرط، طوّر جالجانو (Galgano 2007) نظام تصنيف ثنائي لتنظيم الأراضي غير المحكومة استناداً إلى أنواعها (وراثياً) ووظيفياً (انظر الشكل 23-2). ويراعي هذا التصنيف تسلسلاً هرمياً وراثياً (طبيعياً وغير طبيعي)، بالإضافة إلى تركيبة مادية تستند إلى التفاعل بين الحكومة والجهة غير الحكومية ضمن المنطقة.

الشكل (23-2)

مصفوفة تصنيف المناطق غير المحكومة



المصدر: Galgano (2007).

لدى المناطق القبلية المدارة فيدرالياً كل صفات الأراضي غير المحكومة (Galgano 2007). فهي مناطق بعيدة وغير مطورة، وتعتبر مناطق حدودية من قبل الحكومة الباكستانية. وعلى الرغم من قربها من إسلام أباد، فإن السلطات الاتحادية الباكستانية لم تكن قادرة أو راغبة في تطوير بنيتها التحتية وفرض سيطرة على المنطقة. تشير مؤشرات التنمية على كل المستويات، إلى أن المناطق القبلية وسكانها متخلفون عن بقية أجزاء الدولة (Library of Congress 1994; Sappenfield 2008).

ومن ثم، فإن قبائل البشتون في المناطق القبلية غير المحكومة تعاني مستوى عالياً من الفقر، ويمكن استغلالها بسهولة أو تجنيدها من قبل منظمات مثل طالبان والقاعدة (Tallent 2005). تملك المنطقة قليلاً جداً من البنية التحتية، وهي عرضة للكوارث الطبيعية والإنسانية المدمرة كذلك. وعلاوة عليه، فإن مثل هذا النوع من الأراضي غير المحكومة يمتد على نحو مميز إلى الحدود الأمامية للدول المجاورة – في هذه الحالة أفغانستان – ما يخلق قضايا سيادة صعبة، ولذا يجعل الاستجابة والسيطرة الموحدة أكثر صعوبة.

توفر الفئات الوظيفية التي وضعها جالجانو (Galgano 2007) للأراضي غير المحكومة خمسة تصنيفات أساسية: 1) مناطق حدودية غير محكومة، 2) مناطق سلطة أراضٍ متنافسة، 3) استغلال المبادئ القانونية، 4) مناطق نشاطات غير شفافة، 5) مدن متوحشة. ينبغي أخذ هذه التصنيفات في الاعتبار لأن المراحل الإنسانية معقدة؛ ولذا فمن الصعب وضع المناطق غير المحكومة في فئات منفصلة. وبالفعل، يشير تحليل ديناميات الحكم في المناطق القبلية غير المحكومة إلى أن هناك كثيراً من التداخل بين التصنيفات الوظيفية. ومع ذلك، فإن تقييماً للديناميات القائمة داخل المناطق القبلية يشير إلى أنها في الأساس منطقة سيطرة متنازع عليها، ولكنها تظهر أيضاً ظروفاً توضح أنها منطقة حدودية غير محكومة، وأن ثمة استغلالاً للمبادئ القانونية.

وفي منطقة طبيعية غير محكومة، تظهر المناطق القبلية ظروفاً تتوافق مع منطقة حدودية غير محكومة. فهي منطقة وعرة جداً وبعيدة وفيها قليل جداً من البنية التحتية ترعاها الحكومة مثل الطرق والمطارات وتوزيع المياه والشبكة الكهربائية والمدارس

والمستشفيات والمزايا الأخرى الشائعة في المجتمع الحديث (Bajoria 2007). ويعتبر هذا النوع من المناطق مثالياً للجهات غير الحكومية التي تسعى للاختباء أو الانفصال عن جهاز أمن الدولة. كما أن الكوارث الإنسانية في هذه المناطق مثيرة للمشكلات على وجه الخصوص؛ لأن استجابة الحكومة أو الهيئة غير الحكومية يمكن أن تبذل جهوداً كبيرة فقط لإنشاء بنية تحتية للمساعدة على جلب مواد الإغاثة للمنطقة (Galgano 2007). وقد كان هذا جلياً إبان زلزال عام 2005 شمال باكستان، والذي دعت الحاجة خلاله، بسبب الافتقار إلى البنية التحتية، إلى إيصال مواد الإغاثة إلى المنطقة عن طريق الجو. وقد قامت الوحدات الجوية الأمريكية بالقيام بمعظم أعمال هذه المهمة (Thompson and Halter 2006). من الناحية الأمنية، تمتد أراضي البشتون على المنطقة الحدودية بين أفغانستان وباكستان، وهناك قليل من السيطرة التي يمارسها كل من الكيانين السياديين. وعلاوة على ذلك، فإن شبه انعدام البنية التحتية والوجود الحكومي يعني أن الشعب المحلي فقير جداً، وأن مسألة البقاء على قيد الحياة يوماً بعد يوم، ومسألة الأمن هما من ضمن المبادرة الشخصية (Galgano 2007).

من حيث المبدأ، تمثل المناطق القبلية منطقة سلطة متنافسة. ويعتبر هذا النوع من المناطق غير المحكومة نموذجاً لعدم رغبة دولة ذات سيادة في ممارسة سلطتها على جزء أو على المناطق بأكملها (Whelan 2005; Galgano 2007). وفي حالة المناطق القبلية، تستخدم الحكومة الاتحادية فرض الضرائب وقوانين الحقبة الاستعمارية للسيطرة على المنطقة بطريقة انتقائية، وبالتالي أصبحت المنطقة محرومة ومستبعدة وعرضة للاستغلال. أما شعب البشتون، فإنهم يعرّفون أنفسهم بشكل وثيق على أساس هويتهم العرقية أكثر من قربهم من الحكومة الباكستانية. كما أن عملاء الحكومة نفروا الناس بطريقة منهجية من خلال انتشار الفساد والتطبيق غير المنتظم والخبيث للقوانين التي عفا عليها الزمن، والافتقار إلى تحمل المسؤولية.

وقد تفاقمت المشكلات في المنطقة بعد الغزو السوفيتي لأفغانستان حين انتقل ملايين المهاجرين البشتون إلى مناطق القبائل في باكستان. وقد أثبت الفقر الساحق

والافتقار إلى التعليم أنهما أرض خصبة للمدارس الوهّابية التي انتقلت إلى المنطقة وأنشأت نظام الأمر الواقع للتعليم. فقد تم تلقين آلاف من الشباب وتحويلهم إلى متطرفين بسبب تدريس الأئمة في هذه المدارس الدينية، وأصبحوا راغبين في التجنّد لدى طالبان والقاعدة والمنظمات المتعصبة الأخرى (Siddique 2009). وقد تم استغلال هذه الظروف بصورة أكبر من قبل طالبان، حيث انتقلت إلى المنطقة بعد عملية الحرية الدائمة عام 2001. وبدأت، في الواقع، إنشاء حكومة موازية بتوفير نظام رعاية صحية بدائي وقوة أمنية وخدمات أخرى تشبه الخدمات الحكومية؛ أي إنشاء سلطة منافسة في المنطقة (Siddique 2009). كما وضعت طالبان مجموعة من طبعتها من القوانين الشرعية التي تحظر محلات الفيديو والمشروبات الكحولية والاختلاط بين الرجال والنساء في الأمكنة العامة، وتفسيرات أخرى للقرآن صارمة للغاية. وعلاوة على ذلك، سنت الحركة قوانين للشريعة تحظر على النساء التسوق، ومنعت الأرامل من السعي للحصول على مساعدة حكومية، بالإضافة إلى إلغاء التعليم المختلط (Siddique 2009). وذكر مسؤولون في الحكومة الباكستانية أن طالبان تتطلع إلى توسيع سلطتها في أنحاء أراضي قبائل البشتون لتشمل كامل مقاطعة الحدود الشمالية الغربية (Siddique 2009).

وأخيراً بدأت طالبان، لتعزيز ترسيخها بوصفها سلطة منافسة في منطقة القبائل، باستغلال المبادئ القانونية. وقد أتاح غياب سلطة فيدرالية فعالة في هذه المناطق لطالبان الفرصة لاستغلال عمليات الحكومة الشرعية لخدمة أهدافها العنيفة. يشغل أعضاء طالبان أو "ينتخبون" لشغل مراكز حكومية ذات مستوى متدن في جميع مناطق القبائل، والآن في مقاطعة الحدود الشمالية الغربية، وبذلك يجعلون من سيطرتهم على المنطقة شرعية. وعلاوة على ذلك، يقومون باغتيال زعماء القبائل الذين يتحدَّون سلطتهم فيستعيضون عنهم بزعماء أكثر استعداداً لتقبل سيطرة طالبان (Siddique 2009).

لذا، فإن طالبان، والقاعدة بدرجة أقل، بدأت تستخدم ببراعة فراغ السلطة في مناطق القبائل لإنشاء هيكل حكومة "شرعية" موازية. وفي هذه المنطقة التي ينعدم فيها القانون، تمكنت طالبان من استيعاب القواعد القانونية. فقد ملأت فراغ السلطة

ورسخت نفسها ضمن نشاطات قانونية ومراكز حكومية مثل القضاة والشرطة والنظام القضائي لتوفير غطاء لعملياتها. كما أن توفيرها العيادات والمدارس أعطاها مصداقية بين شعب تم تجاهله لأجيال من قبل الحكومة الباكستانية (Sappenfield 2008). ونظراً لهذه الظروف، من السهل فهم السبب وراء قيام القبائل المحلية الآن بتوفير الأمن والعمليات اللوجستية والملاذ الآمن للمنظمات المتطرفة في منطقة القبائل. وعلاوة على ذلك، فإن محاولات قوى الأمن الغربية والجيش الباكستاني تخدم فقط معاداة شعب المنطقة؛ لأنها تعطي السكان المحليين انطباعاً بأن هذه القوى تحاول تفكيك المحسنين الوحيدين الذين لم يعهد الناس غيرهم من قبل.

الملخص والنتائج

المشكلة الأساسية في مسرح عمليات الحرب العالمية على الإرهاب في جنوب شرقي آسيا هي أن الحرب الموجودة فعلاً ليست الحرب التي يريد الغرب خوضها، أو حتى يرغب في قبولها على أنها حقيقة في هذه المرحلة. تكرر التحليلات الأمريكية – وكذلك تحليلات الحلفاء الغربيين – الأخطاء نفسها التي اقترفت في تقييم الصراع في العراق (Cordesman 2007). إن ما فشلنا في استيعابه، أو بكل بساطة ما لا نرغب في قبوله حتى الآن، هو أن الصراع من أجل أفغانستان ومناطق القبائل في باكستان هي حرب استنزاف، يمكن أن تربحها طالبان من خلال السيطرة على منطقة تتميز بحكم ضعيف، وكذلك على السكان الذين يعيشون فيها. تسعى طالبان لحرمان الحكومة الباكستانية من السيطرة على هذه المنطقة، ولن يهدأ لها بال حتى تطيح الحكومة المركزية. كما أن الحرب في منطقة القبائل هي أيضاً صراع عرقي لا تنفصم عراه مع شعب البشتون (Cordesman 2007).

تواجه الولايات المتحدة الأمريكية، بصراحة، وكذلك كثير من بلدان العالم، مجموعةً واضحة من التهديدات المدمرة والكارثية والمخالفة للقواعد والأصول التي انطلقت وستنطلق من المناطق غير المحكومة في غرب باكستان. وتشمل التحديات

التقليدية كالأوبئة والكوارث الطبيعية والمجاعة، التي عادة ما يجري التعامل معها على أفضل وجه من قبل المنظمات غير الحكومية، على الرغم من أن الوحدات العسكرية تملك المعدات والتدريب للعمل في البيئات القاسية، ويُطلب منها بشكل متزايد التدخل في مثل هذه الحالات. وقد كان هذا الأمر واضحاً خلال الزلازل في باكستان عام 2005.

التحديات المدمرة والمخالفة للقواعد والأصول هي نشاطات تقوم بها أطراف عنيفة غير حكومية؛ وتشمل القرصنة في المحيطات المفتوحة، والاتجار بالمخدرات، وتجارة السلاح، والقرصنة الصناعية، والتهريب، وتجارة العبيد. وفي هذه الحالات، تعتبر الوحدات العسكرية هي الأفضل لاستخدامها في تدريب قوات الشرطة من السكان الأصليين لمعالجة المشكلة من الداخل. ومع ذلك، فإن استخدام الجنود الأمريكيين داخل دولة ذات سيادة من أجل منع مثل هذه النشاطات سيكون مثيراً للمشكلات بشكل كبير، ومن شأنه طمس الخط الذي يربط بين تنفيذ القانون والعمليات العسكرية بشكل خطير.

إن التحديات الكارثية هي على الأرجح التهديد الخطير للاستقرار الإقليمي والعالمي؛ وتشمل هذه التحديات استخدام الأراضي غير المحكومة لتخطيط وشن هجمات إرهابية مدمرة مثل هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 في مدينة نيويورك، وهجمات أخرى في لندن ومدريد ومومباي. أما السيناريو الذي يؤدي إلى قلق أكبر هو أن تستخدم المنطقة غير المحكومة لتطوير أسلحة دمار شامل مثل القنابل القذرة والذرية والبيولوجية والأسلحة الكيماوية. ويظهر هذا القلق بوضوح في باكستان إذا سقطت الدولة في يد طالبان مع قواتها المسلحة وترسانتها النووية. ويمكن للتحديات الكارثية أن تحمل في طياتها وجود قواعد تدريب للإرهابيين أو حتى مخزونات من الطائرات والسفن أو حتى أسلحة أخرى كانت مملوكة في يوم من الأيام لدولة سابقة ذات سيادة وتستخدم ضد الولايات المتحدة أو حتى مصالحها في الخارج. وفي مثل هذا السيناريو، يبدو التدخل العسكري المباشر هو الخيار الوحيد.

التحدي الرئيسي لوزارة الدفاع الأمريكية هو أنها في العادة في صميم رد الفعل على الأزمات العسكرية وليست مجهزة تقليدياً أو لديها موظفون للتخطيط والتعامل مع التحديات التي تمثلها المناطق غير المحكومة والعقيدة الناشئة بشأن السيادة الفعالة. لكن من أجل النجاح في الحرب العالمية على الإرهاب، يتعين علينا التعامل مع جذور الإرهاب وليس مجرد الاعتماد على عمليات عسكرية مثيرة وأعمال أخرى رفيعة المستوى. لذا، على القادة العسكريين والمدنيين داخل وزارة الدفاع والهيئات الحكومية الأخرى أن تطور خططاً للتعامل مع الأراضي غير المحكومة عن طريق فهم تصنيفها الوظيفي، واستخدام خيارات غير عسكرية حسبما كان مناسباً. ولذا يمكن تجنب أوضاع قد تتحول إلى أزمات. وأخيراً، ليس باستطاعة الولايات المتحدة ببساطة أن تصبح متورطة مباشرة في كل منطقة يغيب عنها القانون على سطح الأرض.

ومن أجل دعم الاستراتيجية الأمريكية على المدى البعيد في تخفيف التهديد القادم من المناطق غير المحكومة، يتعين على وزارة الدفاع البدء بالتركيز على الاستراتيجيات التي تدعم الاستقرار، والذي يعزز السيطرة على المناطق غير المحكومة ويساعد على تطوير مزيد من قوات الأمن المحترفة داخل الدول النامية أو الضعيفة. وفي هذا السياق، ينبغي لوزارة الدفاع التركيز على الجهود في تطوير قوات عسكرية أكثر تدريباً من السكان المحليين، والتي ستكون على المدى البعيد أكثر فاعلية في الحرب العالمية على الإرهاب.

وسوف تتضمن هذه العقيدة: سيطرة مدنية معززة، وإصلاحاً دفاعياً (تطوير قوات عسكرية بحجم مناسب وتكون ممولة ومجهزة مع شفافية مطورة وتحمل المسؤولية)، وحرفية عسكرية معززة (تدريب مؤسسي لجيش منضبط يتمتع بخلق مهني وسلوك المهمات المشروعة في حين يحترم القانون وحقوق الإنسان)، وبناء القدرة التي تستلزم قوات عسكرية مجهزة بشكل مناسب وجيدة القيادة من أجل تقليص المناطق غير المحكومة بشكل فعال، وأخيراً توفير مساعدة إنسانية وتعزيز قوات محلية بالأدوات والوعي اللازم للمهمات من أجل القيام بالأمر نفسه (Galgano 2007).

بغض النظر عن الوسائل غير الفعالة والدبلوماسية لتحسين مستوى الحكم، يجب على الولايات المتحدة والغرب القبول، في النهاية، أن عليهم مقاتلة طالبان والقاعدة والقضاء عليهما. ولأن هذين التنظيمين طرفان فاعلان عنيفان وغير حكوميين، فليس لدينا أي توقعات معقولة بأننا نستطيع الاعتماد على بروتوكولات دبلوماسية مقبولة رسمياً. وعلاوة على ذلك، فقد تخلى كلا الطرفين عن كافة المحاولات للتفاوض. الحقيقة الواضحة هي أن علينا أن نقهر طالبان؛ لأن هذه الحركة عملياً مرتبطة ارتباطاً لا تنفصم عراه مع القاعدة. إن السماح لطالبان بتوسيع سيطرتها على مناطق القبائل، سيؤدي فقط إلى توسيع فرص تنظيم القاعدة لاستغلال هذا الملاذ، وتوفير أمن إضافي له، وإعطائه في النهاية الوقت والمكان الاستراتيجيين لإعادة تشكيل نفسه بصورة كاملة، وإظهار نفوذه وعنفه حول العالم.

المشاركون

فرانسيس جالجانو Francis A. Galgano

حاصل على شهادة البكالوريوس من المعهد العسكري بولاية فرجينيا عام 1980. وحصل لاحقاً على شهادة الماجستير ودرجة الدكتوراه من جامعة كولورادو في كوليدج بارك عامَي 1989 و1998 على التوالي. تقاعد من الجيش برتبة مقدم عام 2007 بعد 27 عاماً في الخدمة، وكان يعمل في هيئة التدريس في الأكاديمية العسكرية الأمريكية. يعمل حالياً رئيساً لقسم الجغرافيا والبيئة في جامعة فيلانوفا. شارك في تأليف كتابين جغرافيين وألف عدداً من الإصدارات حول مختلف الموضوعات الجغرافية.

إيوجين بالكا Eugene Palka

حاصل على شهادة البكالوريوس من الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت عام 1978، ثم على الماجستير في الجغرافيا من جامعة أوهايو وعلى الدكتوراه من جامعة نورث كارولينا في تشابل هيل. خدم في الجيش الأمريكي برتبة عقيد وعمل فيه أستاذاً للجغرافيا. يعمل حالياً أستاذاً ورئيساً لقسم الجغرافيا والهندسة البيئية في الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت. ألّف سابقاً أو شارك في تأليف عديد من الكتب وفصول الكتب وكتيبات للمدرسين ومقالات علمية حول كثير من الموضوعات في الجغرافيا.

دوجلاس باتسون Douglas E. Batson

محلل جغرافي سياسي مع الوكالة الوطنية للاستخبارات الجغرافية المكانية NGA. يحمل باتسون شهادة الماجستير في التعليم من جامعة بوسطن، وحصل على البكالوريوس

في التاريخ والجغرافيا من كلية إكسلسيور. ينبع اهتمامه في التحليل الاجتماعي الثقافي البشري وأسماء المواقع الجغرافية التركية من مهنته منذ 23 عاماً في خدمة الاحتياط بالجيش الأمريكي. عنوانه الإلكتروني: Douglas.E.Baston@nga.mil

كنت هوجز باتس Kent Hughes Butts

أستاذ الاستراتيجية العسكرية السياسية لدى الوكالة الوطنية للاستخبارات الجغرافية المكانية، ومدير مجموعة قضايا الأمن القومي في مركز القيادة الاستراتيجية لدى كلية الحرب الأمريكية التابعة للجيش. وهو خريج الأكاديمية العسكرية الأمريكية ويحمل شهادة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة بوسطن، وشهادة الماجستير والدكتوراه في الجغرافيا من جامعة واشنطن. كما كان زميل كرسي جون أولين John M. Olin لما بعد الدكتوراه في الأمن القومي لدى مركز الشؤون الدولية التابع لجامعة هارفارد. شغل في السابق كرسي جورج مارشال George C. Marshall للدراسات العسكرية في كلية الحرب الأمريكية. تركز بحوثه الأساسية على الجغرافيا السياسية للموارد الطبيعية. عنوانه الإلكتروني: Kent.Butts@us.army.mil

مارك كوسون Mark W. Corson

قسم الجيولوجيا/ الجغرافيا، جامعة ميسوري الشمالية الغربية الحكومية، ماريزفيل، ميسوري. حاصل على شهادة البكالوريوس في الإدارة الحكومية من جامعة سان فرانسيسكو عام 1983، ثم شهادتي الماجستير والدكتوراه في الجغرافيا من جامعة ساوث كارولينا. ويعمل حالياً أستاذاً مشاركاً للجغرافيا في جامعة ميسوري الشمالية الغربية الحكومية. وهو ضابط احتياط في الجيش الأمريكي مع خبرة في العراق. عنوانه الإلكتروني: mcorson@nwmissouri.edu

وليام دو الثالث William W. Doe III

كلية وارنر للعلوم الطبيعية، جامعة كولورادو الحكومية، فورت كولينز، كولـورادو.
الدكتور دو هو عميد مشارك للبحوث، وجغرافي بيئي، وضابط مهندس سابق في الجيش، وله خبرة في البحوث في إدارة الأراضـي العسكرية وعلم بيئة الحرب. حصل على شـهادة البكالوريوس من الأكاديمية العسـكرية الأمريكيـة، والماجسـتير مـن جامعـة هامبشـاير، والـدكتوراه مـن جامعـة كولـورادو الحكوميـة. عنوانـه الإلكـتروني:
William.doe@colostate.edu

جوزيف هندرسون Joseph P. Henderson

قسم الجغرافيا والهندسة البيئية، الأكاديمية العسكرية الأمريكيـة في ويسـت بوينـت، نيويورك.
حصل المقدم هندرسون على شهادة البكالوريوس في الجغرافيـا مـن الأكاديميـة العسكرية الأمريكية عام 1987 وحصل لاحقاً على الماجستير (عام 1997) والدكتوراه عام 2006 مـن جامعـة تينيسـي. لـه اهتمامـات في البحـوث في مجـال علمَـي المنـاخ والجيومورفولوجيـا [شـكل الأرض وتضاريسـها]. عنوانـه الإلكـتروني:
Joseph.henderson@us.army.mil

جوزيف هوبي Joseph P. Hupy

قسم الجغرافيا وعلم الإنسان، جامعـة وسكونسـن أوكلـير.
الـدكتور هـوبي أسـتاذ مساعد للجغرافيا. يحمل شهادة بكالوريوس في الجغرافيا مع تركيز عـلى نظُـم المعلومـات الجغرافية والاستشعار عن بعد من جامعة ميتشيغان، كما حصل على الماجستير في الجغرافيا من جامعة نيو مكسيكو الحكومية مـع التركيـز عـلى الجيومورفولوجيـا التطبيقيـة. أكمـل دراسة الدكتوراه في جامعة ميتشيغان الحكومية عام 2005. وتشمل اهتماماته البحثية تـأثير الحرب في البيئة الطبيعية. عنوانه الإلكتروني: HUPYJP@uwec.edu

آمي ريتشموند كراكوكا Amy Richmond Krakowka

قسم الجغرافيا والهندسة البيئية، الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت، نيويورك. الدكتورة كراكوكا هي أستاذ مساعد للجغرافيا مع اهتمامات بحثية في جغرافية الموارد والأمن البيئي. حصلت على شهادة البكالوريوس في الدراسات البيئية من كلية الدراسات البيئية وعلم الحراجة بجامعة نيويورك الحكومية. كما حصلت على الماجستير في الطاقة والتحليل البيئي والدكتوراه في الجغرافيا من جامعة بوسطن. عنوانها الإلكتروني: Amy.krakowka@usma.edu

سارة جين ميهارج Sarah Jane Meharg

قسم السياسة والاقتصاد، الكلية العسكرية الملكية الكندية. الدكتورة سارة جين ميهارج أستاذ مساعد في الكلية العسكرية الملكية الكندية، وكبيرة الباحثين المشاركين لدى مركز بيرسون للسلام في أوتاوا بكندا. وهي خبيرة كندا الرائدة في إعادة الإعمار في أعقاب الصراع، ومتخصصة في بحث التقنيات المتقدمة وتنفيذها في مبادرات إعادة الإعمار. تركز الدكتورة ميهارج على التسريع الاقتصادي في المناطق التي تشهد تحولات اقتصادية، بما في ذلك بيئات ما بعد الصراع والكوارث، مثل أفغانستان وهاييتي والبلقان. عنوانها الإلكتروني: mehargs@pcpcanada.com

ستيفن أولويك Steven Oluic

ضابط في مكتب عميد الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت، وأستاذ مشارك سابق في قسم الجغرافيا، الأكاديمية العسكرية الأمريكية. تشمل اهتماماته البحثية الجغرافيا الإقليمية للبلقان، والإسلام المتطرف في أوروبا، ومجتمعات المسلمين البلقانيين المغتربين في الولايات المتحدة. حصل المقدم أولويك على البكالوريوس في علم الجيولوجيا من جامعة كيس ويسترن ريزيرف، والماجستير في العلوم البيئية من جامعة سينسيناتي، والدكتوراه في الجغرافيا من جامعة كنت الحكومية في سينسيناتي. عنوانه الإلكتروني: Steven.oluic@us.army.mil

كليفتون بانيل Clifton W. Pannell

قسم الجغرافيا، جامعة جورجيا، أثينا، جورجيا. يعمل الدكتور بانيل أستاذاً للجغرافيا وعميداً مشاركاً فخرياً للآداب والعلوم مع اهتمامات بحثية في الجغرافيا الاقتصادية والحضرية والسياسية للصين المعاصرة. وعمل أستاذاً زائراً في الأكاديمية العسكرية في ويست بوينت وجامعة هونج كونج. حصل على البكالوريوس والماجستير في العلوم السياسية من جامعة نورث كارولينا، تشابل هيل، ثم جامعة فرجينيا على التوالي. كما حصل على الدكتوراه في الجغرافيا من جامعة شيكاغو. عنوانه الإلكتروني: cpan@uga.edu

هندريك سميت Hendric A.P. Smit

قسم الجغرافيا العسكرية، كلية العلوم العسكرية، جامعة ستيلينبوش Stellenbosch، كلية جنوب أفريقيا العسكرية، سالدانها، جنوب أفريقيا. القائد سميت ضابط في بحرية جنوب أفريقيا ومحاضر في الجغرافيا العسكرية. وهو رئيس قسم الجغرافيا العسكرية وله اهتمام بحثي في الجغرافيا العسكرية التاريخية. حصل على درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف، وكذلك الماجستير في الجغرافيا والدراسات البيئية من جامعة ستيلينبوش. وبوصفه ضابط مشاة سابقاً، شهد الخدمة الفعلية على حدود ناميبيا الشمالية خلال عامَي 1986 و1987. عنوانه الإلكتروني: Hennies@ma2.sun.ac.za

ويلي طومسون Wiley C. Thompson

قسم الجغرافيا والهندسة البيئية، الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت، نيويورك. المقدم طومسون أستاذ مساعد للجغرافيا ونائب رئيس القسم مع اهتمامات بحثية في الاستجابة للكوارث والتنسيق العسكري المدني. حصل على البكالوريوس في الجغرافيا من ويست بوينت، ثم الماجستير والدكتوراه في الجغرافيا من جامعة أوريغون الحكومية. عنوانه الإلكتروني: Wiley-thompson@usma.edu

المصادر والمراجع

الفصل الأول

Ackerman, Edward A. 1945. "Geographic training, wartime research, and immediate professional objectives." *Annals* 35: 121–43.

Anderson, E. 1993. "The scope of military geography." Editorial. *GeoJournal* 31(2): 115–17.

——. 1994. "The changing role of the military." Editorial. *GeoJournal* 34(2): 131–2.

Association of American Geographers. 1972. "Minutes of the annual business meeting, Boston, 18 April 1971." *Professional Geographer* 24(1): 36–9.

Binnendijk, Hans (ed. in chief). 1998. *Strategic assessment*. Washington, DC: Institute for National Strategic Studies, National Defense University.

Brigham, Albert Perry. 1903. *Geographic influences in American history*. Boston: Ginn & Co.

Brown, Lieutenant W. C. 1885. *Military geography*. Fort Benning, GA: United States Infantry and Cavalry School.

Browning, Clyde E. 1983. *A bibliography of dissertations in geography: 1969 to 1982*. Studies in Geography 18. Chapel Hill, NC: University of North Carolina, Department of Geography.

Butts, Kent Hughs (ed.). 1993. *Environmental security: what's DOD's role?* Special Report geography of the Strategic Studies Institute. Carlisle, PA: US Army War College.

——. 1994. *Environmental security: a DOD partnership for peace*. Special Report of the Strategic Studies Institute. Carlisle, PA: US Army War College.

Collins, John M. 1998. *Military geography for professionals and the public*. Washington, DC: National Defense University Press.

Committee on Training and Standards in the Geographic Profession. 1946. "Lessons from the war-time experience for improving graduate training for geographic research." *Annals* 36: 195–214.

Corson, Mark W. & Julian V. Minghi. 1996a. "Powerscene: application of new geographic technology to revolutionise boundary making." *IBRU Boundary and Security Bulletin* (Summer).

——. 1996b. "The political geography of the Dayton Accords." *Geopolitics and International Boundaries* 1(1): 77–97.

Corson, Mark W. & Eugene J. Palka. 2004. "Geotechnology, the U.S. military, and war." In *Geography and technology*, Stanley D. Brunn, Susan L. Cutter, & J.W. Harrington, Jr. (eds) Dordrecht, the Netherlands: Kluwer Academic Publishers.

Davies, A. 1946. "Geographical factors in the invasion and battle of Normandy." *Geographical Review* 36(4): 613–31.

Edwards, H. J. (trans.). 1939. Translated from Caesar, *Gallic Wars*, Loeb Classical Library. London: William Heinemann.

Forde, H. M. 1949. "An introduction to military geography." *Military Review* 28: 30–6, 55–62.

Galloway, Colonel Gerald E., Jr. (compiler). 1990. *Readings in military geography*. West Point, NY: Department of Geography, US Military Academy.

Garver, Colonel John B., Jr. (compiler). 1981. *Readings in military geography*. West Point, NY: Department of Geography & Computer Science, US Military Academy.

Garver, John B., Jr., & Gerald E. Galloway, Jr. (compilers). 1984. *Readings in military geography*. West Point, NY: Department of Geography & Computer Science, US Military Academy.

Goure, Daniel. 1995. "Non-lethal force and peace operations." *GeoJournal* 37(2): 267–75.

Gutmanis, Ivars. 1995. "United States international policies and military strategies in the era of defunct aggressor." *GeoJournal* 37(2): 257–66.

Hansen, David G. 1997. "The immutable importance of geography." *Parameters* (spring): 55–64.

Häusler, Hermann. 2009. *Report on national and international military geo-conferences held from 1994 to 2007*. MILGEO. Nr. 30 E. Vienna: Institute for Military Geography, Austrian Ministry of Defence and Sports, April.

Jackman, Albert. 1962. "The nature of military geography." *Professional Geographer* 14: 7–12.

——. 1971. "Military geography" In Research institute lectures on geography, special report ETL-SR-71, Roger A. Leestma (ed.). *Fort Belvoir*, VA: US Army Engineer Topographic Laboratories.

James, P. E. & G. J. Martin. 1979. *The Association of American Geographers: the first seventy-five years, 1904–1979*. Washington, DC: Association of American Geographers.

Johnson, D. W. 1917. *Topography and strategy in the war*. New York: Henry Holt.

——. 1921. *Battlefields of the world war, western and southern fronts: a study in military geography*. Research Series No. 3. New York: American Geographical Society.

Lacoste, Yves. 1973. "An illustration of geographical warfare: bombing of the dikes on the Red River, North Vietnam." *Antipode* 5(2): 1–13.

Lavallée, T. S. 1836. *Géographie physique, historique et militaire*. Paris.

MacDonnell, Colonel A. C. 1911. *The outlines of military geography*. London: Hugh Rees.

Mackinder, Halford J. 1902. *Britain and the British seas*. New York: D. Appleton.

Maguire, T. Miller. 1899. *Outlines of military geography*. Cambridge: Cambridge University Press.

Mahan, Alfred Thayer. 1890. *The influence of sea power upon history, 1660–1783*. Boston: Little, Brown.

Martin, Geoffrey J. & Preston E. James. 1993. *All possible worlds: a history of geographical Ideas*. New York: John Wiley.

Mason, Charles H. 1948a. "The role of the geographer in military training." *Bulletin of the American Society for Professional Geographers* (April): 7.

——. 1948b. "Role of the geographer in military planning." *Annals* 38(1): 104–5.

May, Colonel Edward Sinclair. 1909. *An introduction to military geography*. London: Hugh Rees.

Meigs, Peveril. 1961. "Some geographical factors in the Peloponnesian War." *Geographical Review* 51(3): 370–80.

Munn, Alvin A. 1980. "The role of geographers in the Department of Defense." *Professional Geographer* 32(3): 361–4.

O'Loughlin, J. & H. van der Wusten. 1986. "Geography of war and peace: notes for a contribution to a revived political geography." *Progress in Human Geography* 10(3): 434–510.

——. 1993. "Political geography of war and peace." In *Political geography of the twentieth century: a global analysis*, P. J. Taylor (ed.). London: Belhaven Press.

O'Sullivan, Patrick. 1980. "Warfare in suburbia." *Professional Geographer* 32(3): 355–60.

——. 1991. *Terrain and tactics*. New York: Greenwood Press.

——. 2001. *The geography of war in the post Cold War world*. Lewiston, NY: Edwin Mellen Press.

O'Sullivan, Patrick & Jesse W. Miller, Jr. 1983. *The geography of warfare*. New York: St Martin's Press.

Palka, Eugene J. 1987. "Aerial photography." *Infantry Journal* (May–June): 12–14.

——. 1988. "Geographic information in military planning." *Military Review* 68(3): 52–61.

——. 1995. "The US Army in operations other than war: a time to revive military geography." *GeoJournal* 37(2): 201–8.

——. 1999. "Military geography at the dawn of the twenty-first century." Paper presented at the Annual Convention of the Association of American Geographers, Honolulu, HI, 23–27 March.

——. 2003. "Military geography: its revival and prospectus." In Geography in America at the dawn of the 21st century, Gary L. Gaile and Cort J. Willmott (eds), 503–13. Oxford, UK: Oxford University Press.

——. 2008. "Potential effects of climate change on the U.S. Army, regional instability, and war." In *Climatic change & variation: a primer for teachers*, William A. Dando (ed.). 175–9. Washington, DC: National Council for Geographic Education.

Palka, Eugene J. & Francis A. Galgano (eds). 2000. *The scope of military geography*. New York: McGraw-Hill.

——. 2005. *Military geography from peace to war*. New York: McGraw-Hill.

Palka, Eugene J. & Joseph P. Henderson, 2008. *A bibliography of military geography*, 2 vols. West Point, NY: US Military Academy Press.

Palka, Eugene J. & Dawn Lake. 1988. *A bibliography of military geography*. 4 vols. West Point, NY: US Military Academy Press.

Peltier, Louis C. 1961. "The potential of military geography." *Professional Geographer* 13(6): 3–4.

Peltier, Louis C. and G. Etzel Pearcy. 1966. *Military geography*. Princeton, NJ: D. Van Nostrand.

Pepper, David & Alan Jenkins (eds). 1985. *The geography of peace and war*. Oxford: Basil Blackwell.

Poole, Sidman P. 1944. "The training of military geographers." *Annals* 34(4): 202–6.

Renner, George. 1951. *Instructor's manual for political and military geography*. New York: US Air Force Reserve Officer Training Program, Headquarters Continental Air Command Directorate, Mitchell Air Force Base.

Roon, Capt. Albrecht Theodor Emil Graf von. 1837. *Militarische Landerbeschreibung von Europa*, vol. 1. Mittel-und Sud-Europa. Berlin.

Rouse, W. H. D. 1964. *The march up country*. A translation of Xenophon's *Anabasis*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press.

Russell, J.A. 1954. "Military geography." *American Geography: Inventory and Prospect*, P. E. James and C. F. Jones (eds.), 484–495. Syracuse, NY: Syracuse University Press.

Semple, Ellen Churchill. 1903. *American history and its geographic conditions*. Boston: Houghton, Mifflin.

Shalikashvili, John M. 1995. *National military strategy of the United States of America.* Washington, DC: US Government Printing Office.

Shannon, Hon. John W. & General Gordon R. Sullivan. 1993. "Strategic force—decisive victory: a statement on the posture of the United States Army, fiscal year 1994." Presented to the Committees and Subcommittees of the United States Senate and the House of Representatives, First Session, 103rd Congress.

Shaw, Robert B., William W. Doe, Colonel Eugene J. Palka, & Thomas E. Macia. 2000. "Where does the U.S. Army train to fight? Sustaining army lands for readiness in the 21st century." *Military Review* 80(5) (September–October): 68–77.

Soffer, Arnon. 1982. "Topography conquered: the wars of Israel in Sinai." *Military Review* 62(4): 60–72.

Soffer, Arnon & Julian V. Minghi. 1986. "Israel's security landscapes: the impact of military considerations on land uses." *Professional Geographer* 38(1): 28–41.

Thompson, Edmund R. 1962. *The nature of military geography: a preliminary survey.* Ph.D. dissertation. Syracuse, NY: Syracuse University.

Warman, Henry J. 1954. *Geography—backgrounds, techniques and prospects* (for teachers). Worcester, MA: Clark University Print Shop.

Winters, Harold A. 1991. "The battle that was never fought: weather and the Union mud march of January 1863." *Southeastern Geographer* 31(1): 31–8.

——. 1998. *Battling the elements: weather and terrain in the conduct of war.* Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

الفصل الثاني

Binnendijk, H. (ed.). 1998. *Strategic assessment.* Washington, DC: Institute for National Strategic Studies, National Defense University.

Defense Technical Information Center (DTIC). 2009. *Overview of operational art.* www.dtic.mil/doctrine/jrm/opart.doc [accessed 30 April 2010].

Department of the Army. 1997. FM 101-5, *staff organizations and operations.* Washington, DC: US Government Printing Office.

——. 2001. FM 3-0, *operations.* Washington, DC: US Government Printing Office.

Department of Defense (DoD). 2009. Defense link. www.fas.org/pubs/index.html [accessed 30 April 2010].

Federation of American Scientists (FAS). 2009. *Publications and reports.* www.fas.org/ 36 pubs/index.html [accessed 30 April 2010].

Globalsecurity.org. 2009. *Military: defense policy and programs*. www.globalsecurity.org/military/index.html [accessed 30 April 2010].

Guidebook. 2008. *Organization and functions guide*. Director of Administration and Management. US Department of Defense. www.defenselink.mil/odam/omp/pubs/GuideBook/ToC.htm [accessed 30 April 2010].

Palka, E. J. 2000. "Military geography: its revival and prospectus." In *Geography in America at the dawn of the 21st century*, Gary L. Gaile and Cort J. Willmott (eds). London: Oxford University Press.

Spiller, R. J. 1992. *Combined arms in battle since 1939*. Fort Leavenworth, KS: Command and Staff College Press.

Summers, H. G. 1992. *On strategy II: a critical analysis of the Gulf War*. New York: Dell.

Weigley, R. F. 1973. *The American way of war, a history of the United States military strategy and policy*. Bloomington, IN: Indiana University Press.

Winters, H. A. 1998. *Battling the elements: weather and terrain in the conduct of war*. Baltimore, MD: Johns Hopkins Press.

الفصل الثالث

Abler, R. F., M. G. Marcus, & J. M. Olson (eds). 1992. *Geography's inner worlds: pervasive themes in contemporary American geography*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.

Davies, A. 1946. "Geographical factors in the invasion and battle of Normandy." *Geographical Review* 36 (4): 123–42.

de Blij, H. J., A. B. Murphy, & E. H. Fouberg. 2007. *Human geography: people, places, and culture*. New York: John Wiley & Sons, Inc.

Galgano, F. A. 2005. "The environmental matrix." In *Readings in military geography*, F. A. Galgano (compiler), 8th edn. West Point, NY: US Government Printing Office.

Garver, J. B. 1975. "The environmental matrix." In *Readings in military geography*. West Point, NY: US Government Printing Office.

Getis, A., J. Getis, & J. D. Fellmann. 2008. *Introduction to geography*. 8th edn. New York: The McGraw-Hill Companies, Inc.

Holt-Jensen, A. 1999. *Geography: its history and concepts*. 3rd edn. Thousand Oaks, CA: Sage.

Jackman, A. 1962. "The nature of military geography." *Professional Geographer* 14: 7–12.

Janelle, D. G., B. Warf, & K. Hansen (eds). 2004. *World minds: geographical perspectives on 100 problems.* Dordrecht: Kluwer Academic.

Lanegran, D. A. & R. Palm. 1978. *An invitation to geography.* 2nd edn. New York: McGraw- Hill.

Livingstone, D. N. 1992. *The geographical tradition.* Cambridge, MA: Blackwell.

Palka, E. J. 2003. "Military geography: its revival and prospectus." In *Geography in America at the dawn of the twenty-first century*, Gary Gaile and Cort J. Willmott (eds). Oxford, UK: Oxford University Press.

Palka, E. J. & F. A. Galgano (eds). 2005. *Military geography from peace to war.* New York: The McGraw-Hill Companies, Inc.

Pattison, W. D. 1964. "The four traditions of geography." *Journal of Geography* 63: 211–16.

Peltier, L. C. & E. G. Pearcy, 1966. *Military geography.* Princeton, NJ: D. Van Nostrand Company, Inc.

Robinson, J. L. 1976. "A new look at the four traditions of geography." *Journal of Geography* 75: 520–30.

von Clausewitz, K. 1976. *On war.* Oxford World's Classics. New York: Oxford University Press.

Winters, H. A. 1998. *Battling the elements.* Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

الفصل الرابع

Agarwal, V. 2009. "India: Monsoon season ends with devastating drought." *Wall Street Journal* (1 October). http://article.wn.com/view/2009/10/01/Indias [accessed 9 November 2009].

Associated Press. 2008. "Rising rice prices spark concerns." 27 March. http://www.ap.org/ [accessed 9 November 2009].

Bankus, B. C. 2009. "Environmental security in peacekeeping operations." In *African environmental and human security and AFRICOM in the 21st Century*, Helen Purkitt (ed.). Youngstown, NY: Cambria Press.

Buckley, N. 2005. "Insurgency in North Caucasus spreads out from Chechnya: poverty and heavy handed security forces are boosting support for Islamist rebel groups."

Financial Times (29 August). www.ft.com/cms/s/0/f10df062-1828-11da-a14b-00000e2511c8.html [accessed 30 April 2010].

Blair, D. C. 2009. "Annual threat assessment of the intelligence community for the Senate Select Committee on Intelligence." *Statement for the Record* (February).

Carius, A. & K. M. Leitzmann. 1999. *Environmental change and security: a European perspective*. New York, NY: Springer-Verlag.

Castle, S. 2008. "Europe's leaders warned of big rise in migration." *New York Times*. www.nytimes.com/2008/03/07/world/europe/07iht-migrate.4.10815080.html?_r=1 [accessed 30 April 2010].

Center for Strategic and International Studies (CSIS). 2007. *Commission on smart power report*. Washington, DC: Center for Strategic and International Studies. http://media.csis.org/smartpower/071105_CSIS_Smart_Power_Report.pdf [accessed 30 April 2010].

Department of Defense (DoD). 2006. *Quadrennial defense review report 2006*. Washington, DC: US Government Printing Office. www.globalsecurity.org/military/library/policy/dod/qdr-2006-report.htm [accessed 9 November 2009].

Department of Defense (DoD). 2006. *Directive 3000.05, military support for stability, transition, and reconstruction (SSTR) operations*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Department of State, 1997. *Environmental diplomacy: the environment and U.S. foreign policy*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Flournoy, M. 2009. *Remarks on the quadrennial defense review*. Washington, DC: Center for Strategic and International Security. 29 April. Transcript by Federal News Service.

Goodman, S. W. 1993. *Statement before the United States Senate Committee on armed services, subcommittee on military readiness and defense infrastructure*. Washington, DC: Senate Committee on Armed Services Subcommittee on Strategic Forces. http://armedservices.senate.gov/statemnt/980324wg.htm [accessed 30 April 2010].

Green, W. 2005. "Family comes last, interview with Philippine President Gloria Macapagal Arroyo." *TIME Asia* (6 June).

Gregson, W. C. 2005. "Ideological support: attacking the critical linkage." In *The struggle against extremist ideology*, Kent Hughes Butts & Jeffrey C. Reynolds (eds), 21–9. Carlisle, PA: Center for Strategic Leadership.

Hardee, K. & L. Jiang. 2009. *How do recent population trends matter to climate change?* Washington, DC: Population Action International.

Harnish, R. L. 2009. *Environmental security information memo for the secretary*. Washington, DC: United States Department of State.

Intergovernmental Panel on Climate Change (IPCC). 2007. *IPCC fourth assessment report: climate change 2007 (AR4)*. Cambridge, UK: Cambridge University Press. www.ipcc.ch/publications_and_data/publications_and_data_reports.htm [accessed 30 April 2009].

Israeli Ministry of Foreign Affairs. 1991. *The Madrid framework*. www.mfa.gov.il/

MFA/Peace%20Process/Guide%20to%20the%20Peace%20Process/The%20Madrid%20Framework [accessed 30 April 2010].

National Security Council (NSC). 2003. *National strategy for combating terrorism*. Washington, DC: US Government Renting Office.

NATO. 1991. *The alliance's new strategic concept*. North Atlantic Treaty Organization. www.nato.int/cps/en/natolive/official_texts_23847.htm [accessed 30 April 2010].

Reynolds, P. 2007. "Russia ahead in arctic 'gold rush'." BBC News, 1 August, http://news.bbc.co.uk/2/hi/in_depth/6925853.stm [accessed 30 April 2010].

Sharon, A. & D. Chanoff. 1989. *Warrior: the autobiography of Ariel Sharon*. New York, NY: Simon & Schuster.

Toy, M. A. 2007. "Climate change threatens China's food supply." *Sydney Morning Herald* (24 August). www.smh.com.au/news/environment/climate-change-threatenschinas-food-supply/2007/08/23/1187462441067.html [last accessed 9 November 2009].

United Nations Development Programme (UNDP). 1994. *Human development report*. New York, NY: Oxford University Press. http://hdr.undp.org/en/media/hdr_1994_en_contents.pdf [accessed 30 April 2010].

United Nations Environment Programme (UNEP). 2009. *From conflict to peacebuilding: the role of natural resources and the environment*. www.unep.org/publications/search/pub_details_s.asp?ID=3998 [accessed 30 April 2010].

USEPA. 1999. *Environmental security: strengthening national security through environmental protection*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Walt, S. M. 1991. "The renaissance of security studies." *International Studies Quarterly* 35: 211–39.

The White House. 1988. *The national security strategy of the United States*. Washington, DC: US Government Printing Office.

——. 1991. *The national security strategy of the United States*. Washington, DC: US Government Printing Office.

——. 1997. *The national security strategy of the United States*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Wolf, A., A. Kramer, A. Carius, & G. Dabelko. 2005. "Water can be a pathway to peace, not war, global policy forum." Worldwatch Institute. www.worldwatch.org/node/79 [accessed 30 April 2009].

Zellen, B. 2007. "The new Cold War: global warming reveals hidden riches beneath the polar sea, causing Arctic resource conflicts to heat up." *Security Innovator*, Boulder, CO: University of Colorado, http://securityinnovator.com/index.php?articleID=12387&sectionID=43 [accessed 30 April 2009].

الفصل الخامس

Abate, T. 1994. "Climate and the collapse of civilization." *Bio Science* 44(8): 516–19.

Butts, K. H. 1994. *Environmental security: a DoD partnership for peace.* Strategic Studies Institute Special Report, Carlisle, PA: US Army War College Press.

Clay, D., T. Reardon, & J. Kangasniemi. 1998. "Sustainable intensification in the highland tropics: Rwandan farmers' investments in land conservation and soil fertility." *Economic Development and Cultural Change* 46(2): 351–77.

deMenocal, P. B. 2001. "Cultural responses to climate change." *Science* 292(5517): 667–73.

Department of Defense (DoD). 2005. *The national defense strategy of the United States of America.* Washington, DC: US Government Printing Office.

Department of State. 2002. "Department of State legal analysis of 1994 Rwandan genocide." *American Journal of International Law* 96(1): 258–62.

Diamond, J. 2005. *Collapse.* New York: Penguin Books.

Drapeau, M. D. & B. K. Mignone. 2007. "Culture, conflict, and... climate?" *Science* 316(5831): 1564.

Dulian, A. 2004. Rwandan genocide. *International Affairs* 50(4): 40–4.

Galgano, F. A. 2007. "A geographic analysis of ungoverned spaces." *Pennsylvania Geographer* 44(2): 67–90.

Gibbons, A. 1993. "How the Akkadian empire was hung out to dry." *Science* (News Services) 261(5124): 985.

Gleditsch, N. P., R. Nordås, and I. Salehyan. 2007. *Climate change and conflict: the migration link.* Coping with Crisis Working Paper Series. International Peace Academy. www.ipacademy.org [accessed 30 April 2010].

Gleick, P. 2008. *The world's water, 2006–2007.* Chicago, IL: Island Press.

Glenn, J. C., T. J. Gordon, & R. Perelet. 1998. *Defining environmental security: implications for the U.S. Army*. M. Land Holm, ed. Atlanta, GA: Army Environmental Policy Institute.

Homer-Dixon, T. F. 1999. *Environmental scarcity and violence*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Homer-Dixon, T. F. & M. A. Levy. 1995. "Environment and security." *International Security* 20(3): 189–98.

Kaufman, C. 1996. "Possible and impossible solutions to ethnic civil wars." *International Security* 20(4): 136–75.

Kaufmann, D., A. Kraay, & M. Mastruzzi. 2003. *Governance matters III: governance indicators for 1996–2002*. The World Bank, World Bank Institute, Global Governance Department and Development Research Group.

King, W. C. 2000. *Understanding environmental security: a military perspective*. The Center for Naval Warfare Studies. Newport, RI: Naval War College Press.

Mays, L. W. 2007. "Water sustainability of ancient civilizations in Mesoamerica and the American Southwest." *Water Supply* 7(1): 229–36.

Melvern, L. 1999. "The record of killing by machete was 1,000 every 20 minutes." *Times* (London) (4 March): 15.

Mitchell, T. 1997. *Rwanda and conflict*. International Conflict and the Environment: Rwanda Case, Case No. 23, Trade and Environment Database. www.american.edu/ted/ice/Rwanda.htm [accessed 30 April 2010].

National Security Council (NSC). 1991. *National security strategy of the United States*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Newbury, C. 1995. "Background to genocide: Rwanda." *Issue: A Journal of Opinion* 23(2): 12–17.

Percival, V. & T. Homer-Dixon, 1995. *Environmental scarcity and violent conflict: the case of Rwanda*. Occasional Paper. Project on Environment, Population and Security,

Washington, DC: American Association for the Advancement of Science and University of Toronto. www.library.utoronto.ca/pcs/eps/rwanda/rwanda1.htm [accessed 30 April 2010].

Renner, M. 2002. "The anatomy of resource wars, Worldwatch Paper 162." In *State of the world library*, Thomas Prough (ed.). Danvers, MA: Worldwatch Institute.

Schwartz, P. & D. Randall. 2003. *An abrupt climate change scenario and its implications for United States national security*. www.edf.org/documents/3566_AbruptClimate Change. pdf [accessed 30 April 2010].

Zhang, D. D., J. Zhang, H. F. Lee, & Y. He. 2007. "Climate change and war frequencyin eastern China over the last millennium." *Human Ecology* 35: 403–14.

الفصل السادس

BBC News. 2007. "Russia plants flag under N Pole." 2 August. http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/europe/6927395.stm [accessed 30 April 2010].

Biello, D. 2008. "Fabled Northwest Passage open for business in the Arctic." *Scientific American* (27 August). www.scientificamerican.com/author.cfm?id=1013 [accessed 30 April 2010].

Boswell, Randy. 2007. "Canada draws line in the ice over Arctic seabed." *CanWest News Service* (Saturday 30 June).

CBS News. 2008. "Maps of Canada's Arctic will boost sovereignty: Harper," Tuesday 26 August, 6:18 p.m., CT.

Cook, B. 2008. "Russian army trains for Arctic resource war." *National Post Mobile* (Tuesday 24 June).

CTV News. 2008. "Canadian forces carry out Arctic training exercises." *CTV News Staff* (Monday 25 August).

Dando, W. A. 2007. *Climate change and variation: a primer for teachers.* Washington, DC: National Council for Geographic Education.

Douglas, B. C., M. S. Kearney, & S. P. Leatherman. 2001. *Sea level rise: history and consequences*. San Diego, CA: Academic Press.

Environment News Service. 2007. "Canada to fortify arctic sovereignty with new icebreakers." *Esquimalt* (British Columbia) (10 July).

Energy Daily. 2007. "Lomonosov ridge could bring Russians 5 billion tons of extra fuel." Moscow, Russia, 4 October.

Geology.com. 2008. "Northwest passage-map of Arctic sea ice: global warming is opening Canadian Arctic." http://geology.com/articles/northwest-passage.shtml [accessed 30 April 2010].

Geotimes. 2007. "Cold wars: Russia claims Arctic land." 1 August.

Gjertz, I. & B. Morkved. 1998. "Norwegian Arctic expansionism, Victoria Island (Russia) and the *Bratvaag* expedition." *Arctic* 51(4): 330–5.

Goodman, S. 2007. *National security and the threat of climate change*. Executive Director, Military Advisory Board, General Counsel, Washington, DC: The CNA Corporation.

Gore, A. 2006. *An inconvenient truth: the planetary emergency of global warming and what we can do about it.* New York, NY: Rodale.

Harvey, L. D. 2000. *Climate and global environmental change*. Harlow, UK: Pearson Education Ltd.

Homer-Dixon, T. 2007. "Positive feedbacks, dynamic ice sheets, and the recarbonization of the global fuel supply." Presentation at the Partners in Environmental Technology Technical Symposium and Workshop. Washington, DC, 4 December.

Hundley, T. 2007. "Arctic claims are poles apart." *Chicago Tribune* (24 August). Climate Ark, Climate Change and Global Warming Portal.

Intergovernmental Panel on Climate Change (IPCC). 2007. *Climate change 2007: the physical science. Summary for policymakers*. Paris: Fourth Assessment Report of IPCC Working Group I, Geneva, Switzerland: Intergovernmental Panel on Climate Change.

International Bathymetrical Chart of the Arctic Ocean (IBCAO). 2008.

International Boundaries Research Unit (IBRU). 2008. *Maritime jurisdiction and boundaries in the Arctic region*. Durham, UK: Durham University Press.

Jakobsson, M., A. Grantz, Y. Kristoffersen, & R. Macnab. 2009. "Physiographic provinces of the Arctic Ocean seafloor." *Geological Society of America Bulletin* 115(12): 1443–55.

Lee, J. 2007. *From cold to hot war: climate change and conflict in the 21st century.* Washington, DC: American University Press.

——. 2008. "New seafloor maps may bolster U.S. Arctic claims." *National Geographic News* (12 February).

Mclaughlin, K. 2008. "Arctic claimants say they will obey U.N. rules." *Reuters*, *UK.* Thursday 29 May, 3:24 p.m., BST. http://uk.reuters.com/article/idUKL288155 0420080529 [accessed 30 April 2010].

NASA. 2006. *World wind.* http://worldwind.arc.nasa.gov/download.html [accessed 30 April 2010].

——. 2007. "Northwest passage nearly open." *Earth Observatory*, 28 August. http://earthobservatory.nasa.gov/NaturalHazards/view.php?id=18964 [accessed 30 April 2010].

National Geographic. 2007. *College atlas of the world.* Washington, DC: National Geographic Society.

National Snow and Ice Data Center (NSIDC). 2008*a*. *Sea ice outlook: monthly reports.* Boulder, CO. http://nsidc.org/arcticseaicenews/ [accessed 30 April 2010].

——. 2008*b*. *Arctic sea ice news and analysis*. Boulder, CO. http://nsidc.org/arcticseaice news/ [accessed 30 April 2010].

Olsen, J. M. 2007. "Denmark maps Arctic ridge in race for polar sovereignty." *International Herald Tribune*, Associated Press (Friday 10 August).

Palka, E. J. 2007. "Potential effects of climate change on the U.S. Army, regional instability, and War." In *Climatic change and variation: a primer for teachers*, W. A. Dando (ed.), 175–9. Washington, DC: National Council for Geographic Education.

Polczer, S. 2008. "Battle of the Arctic: expert says military conflict possible over vast resources." Canwest News Service. *Canada.com*, 24 March. www.canada.com/ [accessed 30 April 2010].

Reuters, 2008. "Arctic claimants say they will obey U.N. rules." Thursday 29 May. www.reuters.com/article/scienceNews/idUSL2881550420080529 [accessed 30 April 2010].

redOrbit News. 2007. "Harper announces army base, navy port to bolster Canada's claim to Arctic waters." 10 August. www.redorbit.com/news/business/1030020/harper_announces _army_base_navy_port_to_bolster_canadas_claim/index.html [accessed30 April 2010].

Ridenour, D. A. 2006. "Ratification of the Law of the Sea Treaty: a not-so-innocent passage." National Policy Analysis, National Center for Public Policy Research, #542, August.

Rozell, N. 2005. "A fern grows in the Arctic Ocean." *Alaska Science Forum* (20 October). Article #1773.

Thomas, D. & A. Goudie (eds). 2000. *The dictionary of physical geography*. Oxford, UK: Blackwell Publishers.

US Geological Survey (USGS). 2008. "Circum-Arctic resource appraisal: estimates of undiscovered oil and gas north of the Arctic Circle." US Geological Survey Fact Sheet 2008-3049.

Victor, D. G. 2004. *Climate change: debating America's policy options*. New York, NY: Council on Foreign Relations.

Zellen, B. S. 2008. "Cold front rising: as climate change thins polar ice, a new race for Arctic resources begins." Volume 7(1), February 2008. Center for Contemporary Conflict. Monterey, CA: Naval Postgraduate School.

Zorzetto, A. 2006. "Canadian sovereignty at the Northwest Passage." ICE Case Studies, number 185.

الفصل السابع

Balbach, H., W. Goran, W. Doe, & A. Latino. 2008. "U.S. military installation land management history." Militarized Landscapes Conference, University of Bristol, UK, 3–7 September.

Benton, L. M. 1998. *The Presidio: from Army post to national park.* New York, NY: Northeastern University Press.

Bischoff, M. C. 2008. *The desert training center; California–Arizona maneuver area, 1942–44: Tucson, AZ: historical and archaeological contexts*. Technical Series 75, Statistical Research, Inc.

Crotty, W. 1995. *Post-cold war policy: the social and domestic context.* Chicago: Nelson-Hall Publishers.

Doe, W. W. 2009*a*. "Cold regions and mountain testing and training areas in the U.S." Proceedings, 8th International Conference on Military Geosciences, June 15–19, Vienna, Austria, *Submitted to Conference Proceedings.*

——. 2009*b*. "Introduction to sustainable military lands management." NR 550, online course content, Division of Continuing Education, Colorado State University, Fort Collins, CO. www.learn.colostate.edu/certificates/military-lands-management/ [accessed 30 April 2010].

Doe, W. W. & R. G. Bailey. 2007. *Military operating environments: an ecoregions framework to characterize U.S. Army testing and training lands as operational analogs*. Contract Report, CEMML, Colorado State University, September 2007.

Doe, W. W., T. J. Hayden, & R. M. Lacey. 2007. "Military land use: overview of DoD land uses in the desert southwest, including major natural resource management challenges." Invited paper, Proceedings from the DoD Strategic Environmental Research & Development Program (SERDP) Workshop—Southwest Region Threatened, Endangered, and At-Risk Species Workshop: Managing within Highly Variable Environments, Tucson, AZ, 22–26 October, www.serdp.org/Research/upload/SW%20TER-S%20Proceedings%20Final.pdf [accessed 30 April 2010].

Doe, W. W., Robert B. Shaw, Robert G. Bailey, David S. Jones, & Thomas E. Macia. 2005. "U.S. Army training and testing lands: an ecological framework for assessment." In *Military geography from peace to war*, E. J. Palka & F. A. Galgano (eds). New York, NY: McGraw-Hill.

Doe, W. W. and E. J. Palka. 2009. "America's military footprint: landscapes and built environments within the continental U.S." In *Engineering earth: the impacts of megaengineering projects*. New York, NY: Kluwer.

Doe, W. W., R. B. Shaw, R. G. Bailey, D. J. Jones, & T. Macia. 1999. "Locations and environments of U.S. Army training & testing lands: an ecoregional framework for assessment." *Federal Facilities Environmental Journal* (autumn): 9–26.

Military Times Media Group. 2009. *Installations worldwide: 2009 guide.* www.militarytimes.com/military-installations-guide/ [accessed 30 April 2010].

Nash, G. D. 1999. *The federal landscape: an economic history of the twentieth century west.* Tucson, AZ: University of Arizona Press.

National Park Service. 2009. "A park for the 21st century: welcome to the Presidio of San Francisco." Brochure, the Presidio Trust, www.presidio.gov [accessed 30 April 2010].

Rubenson, D., J. Aroesty, & C. Thompsen. 1993. *Two shades of green: environmental protection and combat training.* Santa Monica, CA: Rand Corporation.

Shaw, R. B., W. W. Doe, E. J. Palka, & T. E. Macia. 2000. "Sustaining army lands for readiness in the 21st century." *Military Review* 80(5): 68–77.

Shaw, R. B. & W. W. Doe. 2005. "Training a global force: sustaining army land for 21st century readiness." In *Military geography from peace to war*, E. J. Palka & F. A. Galgano (eds). New York, NY: McGraw-Hill.

Stein, B. A., C. Scott, & N. Benton. 2008. "Federal lands and endangered species: the role of military and other federal lands in sustaining biodiversity." *BioScience* 58(4): 339–47.

US Government Accounting Office. 2003. *DOD approach to managing encroachment on training ranges still evolving.* GAO-03-621T. 2 April.

Wilcox, W. A., Jr. 2007. *The modern military and the environment: the laws of peace and war.* Lanham, MD: Government Institutes Press.

الفصل الثامن

Catton, B. C. 1989. *Grant moves south.* New York, NY: Ballantine Books.

Center for Military History. 1989. *Korea, 1950.* Department of the Army, Center for Military History Publication 21-1, Washington, DC: US Government Printing Office.

Coombe, J. D. 1996. *Thunder along the Mississippi.* New York, NY: Bantam Books.

Cowles, C. D. 1895. *Atlas to accompany the official records of the Union and Confederate Armies.* Series 1, vol. 8. Washington, DC: US Government Printing Office.

D'Este, C. 1992. *Fatal decision: Anzio and the battle for Rome.* New York, NY: Harper Collins Publishers, Inc.

Dodge, T. A. 1897. *A bird's-eye view of our Civil War.* New York, NY: Da Capo Press.

Doughty, R. A., R. A. Flint, J. A. Lynn, M. Grimily, D. D. Howard, and W. Murray. 1996. *Warfare in the western world.* Lexington, MA: D. C. Heath and Company.

Fenneman, N. M. 1938. *Physiography of the eastern United States.* New York, NY: McGraw-Hill Book Company, Inc.

Foote, S. 1958. *The Civil War, a narrative: Fort Sumter to Perryville.* New York, NY: RandomHouse.

Fulton, W. B., 1985. *Riverine operations. 1965–1969.* Department of the Army, Vietnam Studies, Washington, DC: US Government Printing Office.

Grant, U. S. 1885. *Personal memoirs of U. S. Grant.* New York, NY: Webster.

Herzog, C. 1984. *The Arab–Israeli Wars.* New York, NY: Random House.

Howard, M. 1976. *War in European history.* New York, NY: Oxford University Press.

MacDonald, C. B. 1984. *The last offensive.* The United States Army in World War II, The European Theater of Operations. US Army Center for Military History, Washington, DC: US Government Printing Office.

Macdonald, J. 1985. *Great battlefields of the world.* New York, NY: Macmillan Publishing Company.

Miles, J. 1994. *A river unvexed.* Nashville, TN: Rutledge Hill Press.

Nevin, D., 1994. *The road to Shiloh, early battles in the west.* Alexandria, VA: Time Life Books.

Official Records of the Union and Confederate Navies in the War of Rebellion. 1884. *Volume 22: Operations on western waters.* Washington, DC: US Government Printing Office.

Palmer, D. 1969. *The river and the rock.* New York, NY: Hippocrene Books.

Patton, G. S. P. 1947. *War as I knew it.* Boston, MA: Houghton Mifflin Co.

Raisz, Erwin. 1957. *Landforms of the United States.*

Ryan, C. 1974. *A bridge too far.* New York, NY: Simon & Schuster, Inc.

Spiller, R. J. 1992. "Crossing the Rapido." In *Combined Arms in Battle Since 1939.* Fort Leavenworth, KS: Command and Staff College Press.

The War of Rebellion: A Compilation of the Official Records of the Union and Confederate Armies. 1883. *Volume VIII: operations in Missouri, Arkansas, Kansas and the Indian Territories.* Washington, DC: US Government Printing Office.

Ziemke, E. F. and M. E. Bauer. 1987. *Moscow to Stalingrad: decision in the east.* Washington, DC: Center for Military History, US Army.

الفصل التاسع

Boere republieke met besondere verwysing na die Tweede Vryheidsoorlog. Doktorale proefskrif, Universiteit van Suid Afrika.

Amery, L. S. 1902. *The Times history of the war in South Africa, 1899–1902 (Vol. II).* London, UK: Sampson Low, Marston & Company, Ltd.

Anon, 1901. *The Anglo Boer War, 1899–1900. An album of upwards of three hundred photo -graphic engravings.* Cape Town, South Africa: Dennis Edwards & Co.

Bayles, W. J. 1993. "Terrain intelligence and battlefield success: A historical perspective."*Engineer* 23(3): 50–3.

Blond, G. 1995. *La Grande Armée.* London, UK: Arms & Armour Press.

Breytenbach J. H. 1969. *Die geskiedenis van die Tweede Vryheidsoorlog in Suid-Afrika, 1899–1902. Deel I: Die Boere-offensief, Oktober–November 1899.* Pretoria: Die Staats -drukker.

——. 1971. *Die geskiedenis van die Tweede Vryheidsoorlog in Suid-Afrika, 1899–1902. Deel II: Die eerste Britse Offensief, November–Desember 1899.* Pretoria: Die Staatsdrukker.

——. 1973. *Die geskiedenis van die Tweede Vryheidsoorlog in Suid-Afrika, 1899–1902. Deel III: Die Stryd in Natal, Januarie–Februarie 1900.* Pretoria: Die Staatsdrukker.

Brink, J. N. 1940. *Oorlog en Ballingskap.* Kaapstad, South Africa: Nasionale Pers.

Chief Directorate Survey and Mapping (CDSM). 1988. South Africa 1:50 000 Topographic Map 2924 BA Modder River.

——. 1997. South Africa 1:50 000 Topographic Map 2824 DC Spytfontein.

Cleary, T. 1988. *The art of war.* Translation of the work by Sun Tzu. Boston, MA: Shambhala.

Collins, J. M. 1998. *Military geography for professionals and the public.* Washington, DC: National Defense University Press.

——. 2003. "Military geography." Presentation for Naval ROTC cadets at George Washington University, Washington DC.

Colville, H. E. 1901. *The work of the Ninth Division.* London, UK: Edward Arnold.

Creswicke, L. 1900. *South Africa and the Transvaal War.* Edinburgh, UK: T. C. & E. C. Jack.

Deighton, L. 1985. Introduction. In *Great battlefields of the world*, J. Macdonald. London, UK: Michael Joseph.

Galgano, F. A. 1994. "The landings at Anzio." *Military Review* 74(1): 69–73.

——. 2005. "Streams and the Civil War landscape: the battle for Island No. 10." In *Military geography: from peace to war*, E. J. Palka & F. A. Galgano (eds). New York, NY: McGraw-Hill Custom Publishing.

Judd, D. & K. Surridge. 2002. *The Boer War.* London, UK: John Murray.

Kemp, J. C. G. 1946. *Vir Vryheid en Reg.* Kaapstad, South Africa: Nasionale Pers.

Metzger, T. L. 1992. "Terrain analysis for Desert Storm." *Engineer* 22(1): 25–7.

Miller, S.M. 1999. *Lord Methuen and the British Army: failure and redemption in South Africa.* London, UK: Frank Cass.

Morgan, M. D. & J. M. Moran. 1997. *Weather and people.* Upper Saddle River, NJ: Prentice-Hall, Inc.

Muller, C. F. J. 1977. *Vyfhonderd jaar Suid-Afrikaanse geskiedenis*. Pretoria, South Africa: Academia. *141* 26/12/–26/2/00.

Opperman, A. J. P. 1981. *Die slag van Majuba.* Johannesburg, South Africa: Perskor Uitgewery.

O'Sullivan, P. & J. W. Miller, 1983. *The geography of warfare.* London, United Kingdom: Croom Helm.

Pakenham, T. 1979. *The Boer War.* London, UK: Abacus.

Palka, E. J. & F. A. Galgano (eds). 2000. *The scope of military geography: across the spectrum from peacetime to war.* New York: McGraw-Hill Primis Custom Publishing.

Palka, E. J. & F. A. Galgano (eds). 2005. *Military geography: from peace to war.* New York, NY: McGraw-Hill Custom Publishing.

Perry, J. M. 1996. *Arrogant armies: great military disasters and the generals behind them.* New York, NY: John Wiley & Sons, Inc.

Pretorius, F. 2002. *Die invloed van landskap op die Anglo Boere Oorlog.* Unpublished manuscript.

Puckett, R. M. 1994. "The Rapido River crossings." *Military Review* 74(1): 73–6.

Saunders, C. 2001. "Historical reflections on the significance of the South African war." *Kleio* 33: 4–16.

Scholtz, L. 1999. *Waarom die Boere die oorlog verloor het.* Menlopark: Protea Boekhuis.

Schulze, B. R. 1986. *Climate of South Africa, part eight (general survey).* Pretoria, South Africa: Weather Bureau.

Sleigh, D. 1979. *Ruiters teen die Ryk: die verhaal van die Tweede Vryheidsoorlog.* Goodwood: Nasou Beperk.

Stephenson, M. (ed.). 2003. *Battlegrounds: geography and the history of warfare.* Washington, DC: National Geographic.

Van den Berg, G. 1997. *24 Veldslae en Slagvelde van die Noordwes Provinsie.* Potchefstroom, South Africa: Potchefstroomse Universiteit.

Wade, D. R. 1998. "Washington saves the day at Monmouth." *Military History* 15(2): 46–56.

War Office. 1899. "Military notes on the Dutch Republics of South Africa." Compiled in Section B, Intelligence Division, War Office.

Waters, W. H. H. 1904. *The war in South Africa.* London, UK: John Murray.

Wessels, A. 1991. *Die Anglo–Boereoorlog, 1899–1902: 'n Oorsig van die verloop van die militêre stryd.* Bloemfontein, South Africa: Oorlogsmuseum van die Boererepublieke.

——. 2001. *They fought on foreign soil.* Bloemfontein, South Africa: Anglo Boer War Museum.

Winters, H. A. 1991. "The battle that was never fought: weather and the Union mud march of January 1863." *Southeastern Geographer* 31(1): 31–8.

——. 1998. *Battling the elements: weather and terrain in the conduct of war.* Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

الفصل العاشر

Allard, Dean C. 1993. "The North Pacific Campaign in perspective." In *Alaska at War, 1941–1945: the forgotten war remembered.* Fern Chandonnet (ed.), 3–11. Anchorage: Papers from the Alaska at War Symposium, 11–13 November.

Alaska Geographic Society. 1995*a*. *World War II in Alaska.* Special edition of *Alaska Geographic* 22(4).

——. 1995*b*. *The Aleutian Islands.* Special edition of *Alaska Geographic* 22(2).

Bascom, Willard. 1980. *Waves and beaches.* New York: Anchor Press.

Braisted, William R. 1971. *The United States Navy in the Pacific, 1909–1922.* Austin, TX: University of Texas Press.

Campbell, L. J. 1995. "Arsenal of democracy." *Alaska Geographic* 22(4): 4–45.

Chandonnet, Fern (ed.). 1993. *Alaska at War, 1941–1945: the forgotten war remembered.* Anchorage: Papers from the Alaska at War Symposium, 11–13 November.

Cloe, Jolin Haile. 1990. *The Aleutian warriors.* Anchorage: Anchorage Chapter of the Air Force Association.

Coox, Alvin D. 1993. "Reflecting on the Alaska Theater in Pacific war operations, 1942–1945." In *Alaska at War, 1941–1945: the forgotten war remembered,* Fern Chandonnet (ed.), 39–42. Anchorage: Papers from the Alaska at War Symposium, 11–13 November.

Department of the Navy. 1993. *The Aleutians Campaign, June 1942–August 1943.* Washington, DC: Naval Historical Center.

Faust, Nina & Edgar Bailey. 1995. "The Aleutians: tiny islands in turbulent seas." *Alaska Geographic* 22(2): 4–33.

Garfield, Brian. 1969. *The thousand-mile war: World War II in Alaska and the Aleutians.* Garden City, NY: Doubleday.

Gilman, William. 1944. *Our hidden front.* New York: Reynal & Hitchcock, Inc.

Handleman, Howard. 1943. *Bridge to victory: the story of the reconquest of the Aleutians.* New York: Random House.

Hutchison, Devin Don. 1994. *World War II in the North Pacific: chronology and fact book.* Westport, CT: Greenwood Press.

Jacobs, William A. 1993. "American national strategy in East Asian and Pacific War: the North Pacific." In *Alaska at War, 1941–1945: the forgotten war remembered,* Fern Chandonnet (ed.), 13–17. Anchorage: Papers from the Alaska at War Symposium, *159* 11–13 November.

Jones, Robert H. 1969. *The Road to Russia: United States lend–lease to the Soviet Union.* Norman, OK: University of Oklahoma Press.

Morton, Louis. 1989. *United States Army in World War II: the War in the Pacific. Strategy and command: the first two years.* Washington, DC: United States Army Center of Military History.

Nishijima, Teruo. 1993. "Recalling the Battle of Attu." In *Alaska at War, 1941–1945: the forgotten war remembered,* Fern Chandonnet (ed.), 109–12. Anchorage: Papers from the Alaska at War Symposium, 11–13 November.

Palka, Eugene J. 2003. "Military geography: its revival and prospectus." In *Geography in America at the dawn of the twenty-first century,* Gary Gaile & Cort J. Willmott (eds). Oxford: Oxford University Press.

Russell, James S. 1993. "The Aleutian Campaign." In *Alaska at War, 1941–1945: the forgotten war remembered,* Fern Chandonnet (ed.), 67–74. Anchorage, AK: Papers from the Alaska at War Symposium, 11–13 November.

United States Army Center of Military History. 1988. *United States Army in World War II: pictorial record. The war against Japan.* Washington, DC: United States Army Center of Military History.

——. 1992. *The U.S. Army campaigns of World War II, Aleutian Islands.* Washington, DC: United States Army Center of Military History.

الفصل الحادي عشر

Audy, J. R. 1971. "Movement and diagnosis of health." In *Essays on the planet as a home*, P. Shepard & D. McKinley (eds), 140–62. Boston: Houghton Mifflin.

Center of Military History. 1990. *Papuan campaign*. Washington, DC: US Government Printing Office.

——. 1995. *Papua*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Kahn, E. J. 1943. *G.I. jungle*. New York, NY: Simon & Schuster.

Keegan, J. 1989. *The Second World War*. New York, NY: Penguin Books.

Martin, R. G. 1967. *The GI war*. Boston, MA: Little, Brown & Company.

May, J. M. 1958. *The ecology of human disease*. New York: MD Publications.

——. 1961. *Studies in disease ecology*. New York: Hafner.

Meade, M S. & R. Earickson. 2000. *Medical geography*. New York: The Guilford Press.

Meade, M. S., J. W. Florin, & W. M. Gesler. 1988. *Medical geography*. New York: The Guilford Press.

Milner, S. 1989. *Victory in Papua*. Center of Military History, United States Army in World War II, The War in the Pacific, Washington, DC: US Government Printing Office.

Palka, E. J. 1994. "North Carolina: natural nidus for rocky mountain spotted fever." *North Carolina Geographer* 3: 1–16.

——. 2005. "Environmental hazards of leading tick-borne diseases in the eastern United States." *Pennsylvania Geographer* 43(2): 3–21.

Veregin, H. 2004. *Goode's world atlas*. 22nd edn. New York, NY: Rand McNally, Inc.

Weigley, R. F. 1973. *The American way of war*. Bloomington, IN: Indiana University Press.

Winters, H. K. 1998. *Battling the elements*. Baltimore, MD: Johns Hopkins Press.

الفصل الثاني عشر

Addington, L. H. 1984. *The patterns of war since the eighteenth century*. Bloomington, IN: University of Indiana Press.

Appleman, R. E. 1992. *South to the Naktong, north to the Yalu*. History of the United States Army in the Korean War. Center of Military History, Washington, DC: US Government Printing Office.

Brown, J. E. 1992. "Tarawa: the testing of an amphibious doctrine." In *Combined arms in battle since 1939*. ed. Spiller, R. J. Fort Leavenworth, KS: US Army Command and General Staff College Press.

Center of Military History. 1989. *Korea—1950*. Publication 21-1, Washington, DC: US Government Printing Office.

Costello, J. 1981. *The Pacific War*. New York, NY: Rawson, Wade Inc.

Department of the Army. 1993. FM 101-5-1, *Operational terms and graphics*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Department of Defense. 1992. *Conduct of the Persian Gulf War*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Fleet Marine Force. 1934. *Tentative manual of landing operations*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Fleet Marine Force, Pacific. 1944. *Staff officer's field manual for amphibious operations*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Galgano, F. A. 1993. "The landings at Anzio." *Military Review* 74(1): 69–73.

King, E. J. 1946. *The United States Navy at war, 1941–1945*. Official Reports to the Secretary of the Navy, Washington, DC: US Government Printing Office.

Knox, D. 1985. *The Korean War, an oral history, Pusan to the Chosin*. New York, NY: Harcourt, Brace & Jovanovich.

Miller, J. 1989. *Guadalcanal: the first offensive*. United States Army in World War II, the War in the Pacific. US Army Center of Military History, Washington, DC: US Government Printing Office.

Morrison, S. E. 1960. *Volume II: operations in North African waters, October 1942–June 1943, history of United States naval operations in World War I*. Washington, DC: US Government Printing Office.

——. 1963. *The two ocean war: a short history of the United States Navy in the Second World War*. Boston, MA: Little, Brown Inc.

Parker, W. D. 1970. "Advanced base expeditionary era, 1916–1941." In *A concise history of the United States Marine Corps, 1775–1969*. 45–58. US Marine Corps Historical Division, Washington, DC: US Government Printing Office.

Polmar, N and P. B. Mersky. 1988. *Amphibious warfare: an illustrated history*. New York, NY: Blanford Press.

Russ, M. 1975. *Line of departure: Tarawa*. Garden City, NY: Doubleday & Company, Inc.

Utz, C. A. 1994. *Assault from the sea, the amphibious landing at Inchon*. The US Navy in

the Modern World, Publication No. 2, Naval Historical Center, Washington, Navy Yard, Washington, DC: US Government Printing Office.

Weigley, R. F. 1973. *The American way of war, a history of the United States military strategy and policy.* Bloomington, IN: Indiana University Press.

Weintraub, S. 2000. *MacArthur's war, Korea and the undoing of an American hero.* New York, NY: The Free Press.

الفصل الثالث عشر

Bose, S. 2002. *Bosnia after Dayton: nationalist partition and international intervention.* New York, NY: Oxford University Press.

Bringa, T. 1995. *Being Muslim the Bosnian way.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

——. 2002. "Islam and the quest for identity in post-Communist Bosnia and Herzegovina." In *Islam and Bosnia: conflict resolution and foreign policy in multi-ethnic states*, Maya Shatzmiller (ed.), 24–34. Montreal: McGill-Queen's University Press.

Burg, S. & P. Shoup. 2000. *The War in Bosnia and Herzegovina: ethnic conflict and international intervention.* Armonk, NY: M. E. Sharpe.

Central Intelligence Agency (CIA). 2002. *Balkan battlegrounds: a military history of the Yugoslav conflict, 1990–1995 Volumes I & II.* Washington, DC: US Government Printing Office.

Fine, J. 2002. "The various faiths in the history of Bosnia: Middle Ages to the present." In *Islam and Bosnia: conflict resolution and foreign policy in multi-ethnic states*, Maya Shatzmiller (ed.). Montreal, Canada: McGill-Queen's University Press.

Gerolymatos, A. 2002. *The Balkan Wars.* New York, NY: Basic Books.

Glenny, Misha. 1996. *The fall of Yugoslavia: the Third Balkan War.* 3rd edn. New York: Penguin.

——. 1999. *The Balkans: nationalism, war and the Great Powers, 1804–1999.* New York, NY: Viking Press.

Ivanovic, I. 2002. *Witness to Jasenovac's hell.* Mt Pleasant, TX: Dallas Publishing Company.

Jelavich, B. 1983. *History of the Balkans: twentieth century.* New York, NY: Cambridge University Press.

Magaš, B. 2003. "On Bosnianness." *Nations and Nationalism* 9(1): 9–23.

Malcolm, N. 1994. *Bosnia: a short history.* London, UK: Macmillan.

Nation, C. 2003. *War in the Balkans, 1991–2002*. Carlisle, PA: US Army War College, Strategic Studies Institute.

Olui´c, S. 2008. "Radical Islam on Europe's frontier: Bosnia & Herzegovina." *National 215 Security and the Future* 1–2(9): 35–52.

Pavlovich, P. 1988. *The Serbians: the story of a people*. Ontario, Canada: Serbian Heritage Books.

Rohde, D. 1997. *End game: the betrayal and fall of Srebrenica, Europe's worst massacre since World War II*. Boulder, CO: Westview Press.

Sells, M. 2003. "Crosses of blood: sacred space, religion, and violence in Bosnia-Hercegovina." *Sociology of Religion* 64(3): 309–31.

Shrader, C. 2003. *The Muslim Croat civil war in central Bosnia: a military history, 1992–1994*. College Station, TX: Texas A&M University Press.

Silber, L. & A. Little. 1997. *Yugoslavia: death of a nation*. New York, NY: Penguin Books.

Stavrianos, L. S. 2000. *The Balkans since 1453*. New York, NY: New York University Press.

Trifkovi´c, S. 1998. *Ustaša: Croatian separatism and European politics, 1929–1945*. Aiken, SC: The Lord Byron Foundation for Balkan Studies.

West, R. 1995. *Tito and the rise and fall of Yugoslavia*. New York, NY: Carroll & Graf Publishers.

West, Rebecca. 1942. *Black lamb and grey falcon: a journey through Yugoslavia*. London: Macmillan.

White, G. 2000. *Nationalism and territory: constructing group identity in southeastern Europe*. Lanham, MA: Rowman & Littlefield, Inc.

الفصل الرابع عشر

Afghanistan Online 2001. *The state of the Afghan economy*. Office of the UN Co-ordinator for Afghanistan. www.afghan-web.com/economy/econstate.html [accessed 30 April 2010).

Air Force Combat Climatology Center. 1995. *Operational climatic data summary for Afghanistan, 1995*. www2.afccc.af.mil/cgi-bin/index_mil.pl?aafccc_info/products.html [accessed 1 October 2001].

Anderson, Peter G. 2004. "Biogeography." In *Geographic perspectives: Afghanistan*, Eugene J. Palka (ed.). New York: McGraw-Hill/Dushkin Publications.

Central Intelligence Agency (CIA). 2001*a*. *CIA world factbook*. Washington, DC: Government Printing Office.

——. 2001*b*. *The world factbook 2001*. Washington, DC: The Library of Congress. www.odci.gov/cia/publications/factbook/index.html [accessed 1 October 2001].

Economist. 2001. "The Afghan iconoclasts." *Economist* (8 March).

Energy Information Administration. 2001. *Afghanistan*. www.eia.doe.gov/emeu/cabs/afghan.html [accessed 25 September 2001].

Ethnologue. 2000. *Ethnologue: Volume 1 languages of the world, 14th edition*. Barbara F. Grimes, ed. Dallas, TX: Summer Institute of Linguistics.

French, Mary Blake. 2009. "News call: Afghanistan update: 'counterinsurgency takes time.'" *Army Magazine* 59(7): 8.

Hudson, J. & E. Espenshade, Jr. (eds). 2000. *Goode's world atlas*. 20th edn. New York: Rand McNally. "Impact of the earthquake." 1998. www.oxfam.org.uk/atwork/emerg/afghan0698.htm [accessed 30 September 2001].

Jackson, B., Christina Surowiec, Julie Zhu, et al. 2001. *Country watch—Afghanistan 2001–2002*. Houston: CountryWatch.com.

Kaplan, Robert D. 2000. "The lawless frontier." *Atlantic Monthly* (September): 66–80.

Lahood, Albert A. 2004. "Economic geography." In *Geographic perspectives: Afghanistan*, Eugene J. Palka (ed.), 57–64. New York: McGraw-Hill/Dushkin Publications.

"Land and resources." 2001. www.afghan-web.com/geography/lr.html [accessed 30 April 2010].

Lohman, Andrew D. 2004. "Political geography." In *Geographic perspectives: Afghanistan*, Eugene J. Palka (ed.), 49–56. New York: McGraw-Hill/Dushkin Publications.

Malinowski, Jon C. 2004. "Cultural geography." In *Geographic perspectives: Afghanistan*, Eugene J. Palka (ed.), 39–47. New York: McGraw-Hill/Dushkin Publications.

Palka, Eugene J. 2001. "The physical setting of Afghanistan." *Post-Soviet Geography and Economics* 42(8): 561–70.

——. 2007. "Afghanistan's landmine tragedy: chronic repercussions and challenges." Paper presented at the 7th International Conference on Military Geology & Geography, 18–21 June, Quebec, Canada.

——. 2008. "Military operations in caves: observations from Afghanistan." In *Military geology and geography: history and technology*, C. P. Nathanail, R. J. Abrahart, & R. P. Bradshaw (eds), 268–77. Nottingham, UK: Land Quality Press.

Pannell, Richard P. 2004. "Climatology." In *Geographic perspectives: Afghanistan*, Eugene J. Palka (ed.), 17–24. New York: McGraw-Hill/Dushkin Publications.

Saba, D. 2001. "Geography: Land and Resources." www.afghanweb.com/geography/environment.html [accessed 1 October 2001].

"Thousands reported killed in Afghanistan quake," CNN, 6 February 1998. www10.cnn.com/WORLD/9802/06/afghanistan.quake/ [accessed 30 September 2001].

Weisbrode, Kenneth, 2001. *Central Eurasia: prize or quicksand? Contending views of instability in Karabakh, Ferghana, and Afghanistan*. International Institute for Strategic Studies. Adelphi Paper 338. New York: Oxford University Press.

الفصل الخامس عشر

Besheer, M. 2009. "UN envoy: Iraq: provincial elections 'historic.'" Voice of America News (3 February). www.voanews.com/english/index.cfm [accessed 30 April 2010].

Clark, W. K. 2004. *Winning modern wars: Iraq, terrorism and the American empire*. New York, NY: PublicAffairs.

Collins, J. M. 2003. "Military geography of Iraq." *U.S. Naval Institute Proceedings* (May). www.usni.org/Proceedings/Articles03/proCollinsIraq3.htm [accessed 15 March 2005].

Corson, M. W. 2001. "Strategic mobility in the 21st century: projecting national power in a MOOTW environment." In *The scope of military geography*, E. J. Palka & F. A. Galgano (eds). New York, NY: McGraw-Hill, Inc.

Corson, M. W. & E. J. Palka. 2004. "Geotechnology, the U.S. military, and war." In *Geography and technology*, S. D. Brunn, S. L. Cutter, & J. W. Harrington (eds). Dordrecht, Netherlands: Kluwer Academic Publishers.

Dalton, J. B. 2004. "Historical geography." In *Geographic perspectives: Iraq*, J. C. Malinowski (ed.). New York, NY: McGraw-Hill/Duskin.

Department of Defense (DoD). 1992. *Conduct of the Persian Gulf War: final report to Congress*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Fontenot, G., E. Degan, & D. Tohn. 2003. *On point: the United States Army in Operation Iraqi Freedom*. Leavenworth, KS: Center for Army Lessons Learned.

Gamez, A. & R. F. Watson. 2004. *Combat health support (CHS) rehearsals*. Fort Leavenworth, KS: US Army Combined Arms Center, Center for Army Lessons Learned.

Hoffman, B. 2004. *Insurgency and counterinsurgency in Iraq*. Santa Monica, CA: RAND, National Security Research Division.

Krulak, C. C. 1999. "The strategic corporal: leadership in the three block war." *Marines Magazine* (January): 1–7.

McDonald, E. V. & T. G. Caldwell. 2005. "Geochemical characteristics of Iraqi dust and soil samples and related impacts to weapon malfunctions." In *Proceedings of the 6th International Conference on Military Geology and Geography*. University of Nottingham, Nottingham, England, 19–22 June.

Malinowski, J. C. 2004. *Geographic perspectives: Iraq*. New York, NY: McGraw-Hill/Duskin.

Murray, W. & R. H. Scales. 2003. *The Iraq War: a military history*. Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press.

Nyrop, R. F. & H. H. Smith. 1979. *Iraq: a country study*. Washington, DC: US Government Printing Office.

Ochsenwald, W. & S. N. Fisher. 2004. *The Middle East: a history*. Boston, MA: McGraw-

Hill, Inc. Palka, E. J., F. A. Galgano, & M. W. Corson. 2005. "Operation Iraqi Freedom: a military geographical perspective." *Geographical Review* 95(3): 373–99.

Pannell, R. P. 2004. "Climate." In *Geographic perspectives: Iraq*, J. C. Malinowski (ed.). New York, NY: McGraw-Hill/Dushkin.

Peele, R. B. 1997. "The importance of maritime chokepoints." *Parameters* 27(2): 61–74.

Population Reference Bureau (PRB). 2005. *World population data sheet 2005*. Washington, DC: Population Reference Bureau. www.prb.org/pdf05/05WorldDataSheet_Eng.pdf [accessed 30 April 2010].

Sampson, M. R. 2004. "Geomorphology." In *Geographic perspectives: Iraq*, J.C. Malinowski (ed.). New York, NY: McGraw-Hill/Dushkin.

Swearingen, W. D. 1988. "Geopolitical origins of the Iran–Iraq war." *Geographical Review* 78(4): 405–16.

Thompson, W. C. 2004. "Location." In *Geographic perspectives: Iraq*, J. C. Malinowski (ed.). New York, NY: McGraw-Hill/Dushkin.

Tibi, B. 1998. *Conflict and war in the Middle East: from interstate war to new security*. New York, NY: St Martin's Press.

UK MOD. 2003. *Operations in Iraq: first reflections*. London, UK: Ministry of Defence.

US Army. 1992. *ST 101-8: Southwest Asia staff planning book*. Fort Leavenworth, KS: US Army Command and General Staff College.

Woodward, B. 2008. *The war within*. New York, NY: Simon & Schuster.

الفصل السادس عشر

Bailey, Robert G. 1998*a*. *Ecoregions: the ecosystem geography of the oceans and continents*. New York: Springer-Verlag, p. 176.

——. 1998*b*. *Ecoregions map of North America (explanatory note)* US Department of Agriculture, US Forest Service Miscellaneous Publication 1548, p. 10.

——. 2005. "Identifying ecoregion boundaries." *Environmental management* 34(Supp 1): S14–26.

Barnett, Thomas P.M. 2004. *The Pentagon's new map: war and peace in the twenty-first century*. New York: G.P. Putnam's Sons, p. 435.

Center for Naval Analyses (CNA) Corporation 2007. *National security and the threat of climate change*. Alexandria, VA, http://SecurityandClimate.cna.org [accessed 30 April 2010], p. 63.

Doe, William W. & Robert G. Bailey 2007. *Military operating environments: an ecoregions framework to characterize U.S. Army testing and training lands as operational analogs*. Interim Contract Report, Center for Environmental Management of Military Lands, Colorado State University, p. 56.

Doe, W. W., R. S. Shaw, R. G. Bailey, D. S. Jones, & T. E. Macia. 1999. "Locations and environments of U.S. Army training and testing lands." *Federal Facilities Environmental Journal* (autumn): 9–26.

Harmon, R. S., E. J. Palka, C. Collins, W. Doe, E. McDonald, K. Redmond, C. Ryerson, S. Shoop, L. Spears, & M. Sturm. 2008. *Scientific characterization of cold region environments for Army testing of materiel and systems and a technical analysis of interior Alaska*. West Point, NY: Center for Environmental and Geographic Sciences, US Military Academy, p. 80.

King, W. C., E. J. Palka, J. Juvik, R. Harmon, Jan M. H. Hendrickx, S. Fleming, & W. W. Doe. 2009. *A technical analysis of locations for tropical testing of Army materiel and opportunities for tropical training of Army personnel*. West Point, NY: Center for Environmental and Geographic Sciences, US Military Academy, p. 107.

King, W. C., D. Gilewitch, R. S. Harmon, E. McDonald, K. Redmond, J. Gillies, W. Doe, S. Warren, V. Morrill, G. Stullenbarger, & L. Havrilo. 2004. *Scientific characterization of desert environments for military testing, training and operations*. Army Research Office Report, April, p. 111.

King, W. C., R. S. Harmon, T. Bullard, W. Dement, W. Doe, J. Evans, M. C. Larsen, W. Lawrence, K. McDonald, & V. Morrill. 1998. *A technical analysis to identify ideal geographic locations for tropical testing of Army materiel and systems*. Army Research Office Report, July, p. 47.

Palka, E. J. 2008. "Potential effects of climate change on the U.S. Army, regional instability, and war." In *Climatic change and variation: a primer for teachers*, William A. Dando (ed.), 175–9. Washington, DC: National Council for Geographic Education (NCGE).

Shaw, R. S., W. W. Doe, E. J. Palka, & T. E. Macia. 2000. "Sustaining Army lands for readiness in the 21st century." *Military Review* (Sept–Oct): 68–77.

الفصل السابع عشر

Anderson, J. 2004. *An analysis of a dust storm impacting Operation Iraqi Freedom, 25–27 March 2003*. Master's thesis. Naval Postgraduate School, Monterey, California.

Atkinson, R. 2004. *In the company of soldiers: a chronicle of combat*. New York, NY: Henry Holt & Company.

Bagnold, R. A. 1941. *The physics of blown sand and desert dunes*. London, UK: Methuen & Co., Ltd.

Cogan, C.G. 2003. Desert One and its disorders. *Journal of Military History* 67: 201–16.

COMET program 2003. *Forecasting dust storms*. University Corporation for Atmospheric Research. National Center for Atmospheric Research. Online training program retrieved from: http://meted.ucar.edu/mesoprim/dust [accessed April 2010].

Department of the Air Force (DAF). 1980. *Mission environmental support*. Air Weather Service White Paper. 2 May. Department of Defense (DoD). 1980. "Rescue mission report" (Holloway Report). August. (D5.2:R31/2).

Edgell, S. 2006. *Arabian deserts: nature, origin, and evolution*. Dordrecht, The Netherlands: Springer.

El-Baz, F. 1994. "Gulf War disruption of the desert surface in Kuwait." In *The Gulf War and the environment*, F. El-Baz & R.M. Makharita (eds). Amsterdam: Gordon Breach *293* Science Publishers.

Fontenot, G., E. J. Degen, & D. Tohn. 2004. *On point: U.S. Army in Operation Iraqi Freedom*. Office of the Chief of Staff, US Army. Fort Leavenworth, KS: Combat Studies Institute Press.

Gilewitch, D. 2003. *Military geography: the interaction of desert geomorphology and military operations*. Doctoral dissertation. Arizona State University, Tempe, Arizona.

Grumm, R. H. 2009. *Southwest Asian dust storm of 25–27 March 2003*. National Weather Service, State College Pennsylvania, unpublished manuscript.

Idso, S. B. 1976. "Dust storms." *Scientific American* 235(4): 108–14.

Idso, S. B., R. S. Ingram, & J. M. Pritchard. 1972. "An American haboob." *American Meteorological Society Bulletin* 53: 930–95.

Kreisher, O. 1999. "Desert One." *Air Force Magazine* 82(1): 1–10.

Kuchera, E. 2003. "DTA Predicts Dust Storms During OIF." Air Force Weather Observer. https://afweather.afwa.af.mil/observer/JUN_2003/dta_predicts_dust.html [accessed 15 July 2009].

Kyle, J. H. 1990. *The guts to try*. New York, NY: Orion Books.

Lawson, T. J. 1971. "Haboob structure at Khartoum." *Weather* 26: 105–12.

Leet, D., S. Judson, & M. E. Kauffman 1978. *Physical geology*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall, Inc.

McKnight, T. L. & D. Hess. 2005. *Physical geography: a landscape appreciation*. Upper Saddle River, NJ: Pearson Education, Inc.

Middleton, N. J., A. S. Goudie, & G. L. Wells. 1986. "The frequency and source areas of dust storms." In *Aeolian geomorphology*, W.G. Nickling (ed.). New York, NY: Allen & Unwin.

Pye, K. 1987. *Aeolian dust and dust deposits*. London, UK: Academic Press.

Reusse, J. R. 2002. *Meteorological impacts on Operation Eagle Claw*. Unpublished Information Paper. United States Marine Forces Central Command (MARCENT) G2 Meteorology and Oceanography (METOC) Officer.

Ryan, P. B. 1985. *The Iranian rescue mission*. Annapolis, MD: Naval Institute Press.

Scales, R. H. 1994. *Certain victory: the US Army in the Gulf War*. Fort Leavenworth, KS: US Army Command and General Staff College Press.

Sick, G. 1985. *All fall down*. New York, NY: Random House.

Snellman, Leonard, Vincent J. Oliver, & Robert E. Beck. 1980. "Special evaluation of weather support to attempted hostage rescue mission." Requested by Office of the Joint Chiefs of Staff, 21 May.

US Joint Chiefs of Staff. 1980. David C. Jones. "Report on rescue mission" (Jones Report). Office of Chairman, Joint Chiefs of Staff, 6 May.

الفصل الثامن عشر

Alexander, D. 1999. *Natural disasters*. Dordrecht, Netherlands: Kluwer Academic Publishers.

——. 2000. *Confronting catastrophe*. Hertfordshire, UK: Terra Publishing.

Atwater, B., A. Nelson, J. Clague, G. Carver, D. Yamaguchi, P. Bobrowsky, J. Bourgeois, M. Darienzo, W. Grant, E. Hemphill-Haley, H. Kelsey, G. Jacoby, S. Nishenko, S. Palmer, C. Peterson, & M. Reinhart. 1995. "Summary of coastal geologic evidence for past great earthquakes at the Cascadia subduction zone." *Earthquake Spectra* 11(1): 1–18.

Auf Der Heide, E. 1989. *Disaster response: principles of preparation and coordination.* St Louis, MO: C. V. Mosby Company.

Ballantyne, D. 2006. "Lifelines—summary report on the great Sumatra earthquakes and Indian Ocean tsunamis of 26 December 2004 and 28 March 2005." *Earthquake Spectra* 22: 46–52.

Bilham, R. & S. Hough. 2006. "Future earthquakes on the Indian Subcontinent: inevitable hazard, preventable risk." *South Asian Journal* 12: 1–9.

CREW. 2005. *Cascadia subduction zone earthquakes: a magnitude 9.0 earthquake scenario.* Seattle, WA: Cascadia Region Earthquake Workgroup.

Cutter, S. 2003. "GI science, disasters, and emergency management." *Transactions in GIS* 7(4): 439–45.

Department of Defense (DoD). 2001. *Joint publication 3-07.6 joint tactics, techniques and procedures for foreign humanitarian assistance.* Washington, DC: US Government Printing Office.

——. 2006. *Joint publication 3-0 joint operations.* Washington, DC: US Government Printing Office.

Gaydos, J. & G. Luz. 1994. "Military participation in emergency humanitarian assistance." *Disasters* 18(1): 49–57.

Hawley, J. 2008. Personal communication with Jim Hawley, Lincoln County Emergency Manager. 9 February.

Hicks, E. & G. Pappas. 2006. "Coordinating disaster relief after the South Asia earthquake." *Society* 43(5): 42–50.

Khattri, K. 1999. "Probabilities of occurrence of great earthquakes in the Himalaya." *Proceedings of the Indian Academy of Science* 108(2): 87–92.

Ludwin, R., C. Thrush, K. James, D. Buerge, C. Jonientz-Trisler, J. Rasmussen, K. Troost, & A. de los Angeles. 2005. "Serpent spirit-power stories along the Seattle fault." *Seismological Research Letters* 76(4): 426–31.

Menoni, S., F. Perganlani, M. Boni, & V. Petrini. 2002. "Lifelines earthquake vulnerability assessment: a systemic approach." *Soil Dynamics and Earthquake Engineering* 22: 1199–1208.

Ozerdem, A. 2006. "The mountain tsunami: afterthoughts on the Kashmir earthquake." *Third World Quarterly* 27(3): 397–419.

Palka, E. 2005. "Decades of instability and uncertainty: mission diversity in the SASO environment." In *Military geography: from peace to war*, E. Palka and F. Galgano (eds). New York, NY: McGraw Hill.

Platt, R. 1991. "Lifelines: an emergency management priority for the United States in the 1990s." *Disasters* 15(2): 172–6.

Satake, K., K. Shimazaki, Y. Tsuji, & U. Kazue. 1996. "Time and size of a giant earthquake in Cascadia inferred from Japanese tsunami records of January 1700." *Nature* 379: 246–9.

Thakur, V. 2006. "Lessons learnt from the 8 October 2005 Muzaffarabad earthquake and need for some initiatives." *Current Science* 91(5): 566.

Thompson, W. & S. Halter. 2006. "Aviation warfighters excel during disaster assistance operations in Pakistan." *Army Aviation* 55(2): 40–3.

Walker, P. 1992. "Foreign military resources for disaster relief: an NGO perspective." *Disasters* 16(2): 152–9.

Wang, Y. & J. Clark. 1999. *Earthquake damage in Oregon: preliminary estimates of future earthquake losses.* Oregon Department of Geology and Mineral Industries Special Paper 29.

Wood, N. & J. Good. 2004. "Vulnerability of port and harbor communities to earthquake and tsunami hazards: the use of GIS in community hazard planning." *Coastal Management* 32: 243–69.

الفصل التاسع عشر

J. B. A. 2004. *Field artillery and firepower*. Annapolis, MD: Naval Institute Press.

Cablk, M. E. 2009. "Experiencing nature in militarized landscapes: if a bomb drops in the desert do we still call it wilderness?" Association of American Geographers Annual Meeting, Las Vegas, Nevada.

Flamm, B. R. & J. H. Cravens. 1971. "The effects of war damage on the forest resources of South Vietnam." *Journal of Forestry* 69(11): 784–9.

Hogg, I. V. 1985. *The illustrated history of ammunition.* Secaucus, NJ: Chartwell Books.

——. 1987. *The illustrated encyclopedia of artillery.* Secaucus, NJ: Chartwell Books.

Hupy, J. P. 2005. "Verdun, France: examining the effects of warfare on the natural landscape." In *Military geography from peace to war*, E. Palka & F. A. Galgano (eds). New York, NY: McGraw Hill.

——. 2006. "The long-term effects of explosive munitions on the WWI battlefield surface of Verdun, France." *Scottish Geographical Journal* 122(3): 167–84.

——— 2008. "The environmental footprint of war." *Environment and history* 14: 405–21.

Hupy, J. P. & R. J Schaetzl. 2006. "Introducing 'bombturbation': a singular type of soil disturbance and mixing." *Soil Science* 171(11): 823–36.

——. 2008. "Soil development on the WWI battlefield of Verdun, France." *Geoderma* 145(1–2): 37–49.

Keegan, J. 1976. *The face of battle*. New York, NY: Penguin Books.

——. 1998. *The First World War*. New York, NY: Vintage Books.

King, W. C. 2001. Forward. In *The environmental legacy of military operations*, J. Ehlen & R. S. Harmon (eds). Boulder, CO: Geological Society of America Reviews in Engineering Geology.

Lamb, D. 2002. *Vietnam now: a reporter returns*. New York, NY: Public Affairs.

Lewallen, J. 1971. *Ecology of devastation: Indochina*. Baltimore, MD: Penguin Books. Littauer, R. & N. Uphoff. 1972. *The air war in Indochina*. Boston, MA: Beacon Books.

Orians, G. H. & E. W. Pfeiffer. 1970. "Ecological effects of the war in Vietnam." *Science* 168(3931): 544–54.

Page-Demroese, D., M. Jurgensen, W. Elliot, T. Rice, J. Nesser, T. Collins, & R. Meurisse. 2000. "Soil quality standards and guidelines for forest sustainability in northwestern North America." *Forest Ecology and Management* 138: 445–62.

Partington, J. R. 1960. *A history of Greek fire and gunpowder*. Cambridge, UK: W. Heffer.

Pfeiffer, E. W. 1969. "Ecological effects of the Vietnam War." *Science Journal* 5(2): 33–8.

Prados, J. & R. W. Stubbe. 1991. *Valley of decision*. New York, NY: Dell Publishing.

Webster, D. 1996. *Aftermath: the remnants of war*. New York, NY: Pantheon Books.

Westing, A. H. 1976. *Ecological consequences of the Second Indochina War*. Stockholm, Sweden: Almqvist & Wiksell International.

Westing, A. H. & E. W. Pfeiffer. 1972. "The cratering of Indochina." *Scientific American* 226(5): 20–9.

Westing, A. H. and Stockholm International Peace Research Institute. 1984. *Herbicides in war: the long-term ecological and human consequences*. London, UK, and Philadelphia: Taylor & Francis.

Winters, H. A., G. E. Galloway, W. J. Reynolds, & D. W. Rhyne. 1998. *Battling the elements: weather and terrain in the conduct of war*. Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press.

الفصل العشرون

Burtch, R. 2006. Ferris State University lecture notes for surveying engineering SURE 325. www.ferris.edu/htmls/academics/course.offerings/burtchr/sure325/notes/land_information_systems.pdf [accessed 30 April 2010].

Demarest, G. 2004. "Cadastres (land registries) and global security". *2004 ESRI users conference proceedings*. http://proceedings.esri.com/library/userconf/proc04/abstracts/a2177.html [accessed 30 April 2010].

——. 2008. *Property and peace: insurgency, strategy, and the statute of frauds*. Fort Leavenworth, KS: Foreign Military Studies Office.

Department of the Army. 2008. *Stability operations. Field manual (FM) 3-07.* https://rdl.train.army.mil/soldierPortal/atia/adlsc/view/public/9630-1/fm/3-07/TOC.HTM [accessed 30 April 2010].

Durand-Lasserve, A. & L. Royston. 2002. *Holding their ground: secure land tenure for the urban poor in developing countries*. London, UK: Earthscan Publications Ltd.

Fédération Internationale des Géomètres (FIG)/The International Federation of Surveyors, Commission 7, Cadastre and Land Management. 1995. *The FIG statement on the cadastre.*Copenhagen, Denmark: The Surveyors House. www.fig.net/commission7/reports/cadastre/statement_on_cadastre_summary.html [accessed 30 April 2010].

Foley, C. 2003. "Afghanistan: the search for peace." *Minority rights group international.* November. www.minorityrights.org/download.php?id=45 [accessed 30 April 2010].

——. 2008. "Housing, land, and property restitution rights in Afghanistan." In *Housing, land, and property rights in post-conflict United Nations and other peace operations*, S. Leckie (ed.), Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Frye, T. 2004. "Credible commitment and property rights: evidence from Russia." *American Political Science Review* 98(3): 453–66.

International Organization for Migration in Iraq. 2007. www.iom-iraq.net/idp.html [accessed 10 July 2009].

Kaufmann, J. 2000. "Future cadastres: the bookkeeping systems for land administration supporting sustainable development." 1st International Seminar on Cadastral System, Land Administration and Sustainable Development, 3–5 May. Bogota, Colombia.

Lemmen, C., C. Augustinus, P. van Oosterom, & P. van der Molen. 2007. *The social tenure domain model—design of a first draft model.* FIG Working Week, 13–17 May. Hong Kong, SAR, China. www.fig.net/pub/fig2007/papers/ts_1a/TS01A_01_lemmen_augustinus_oosterom_molen_1373.pdf [accessed 30 April 2010].



Lemmen, C., P. van Oosterom, H. Uitermark, R. Thompson, & J. Hespanha. 2009. "Transforming the land administration domain model (LADM) into an ISO standard (ISO19152)." FIG Working Week, 3–8 May. Tel Aviv, Israel. www.fig.net/pub/fig2009/papers/ts06a/ts06a_lemmen_oosterom_etal_3282.pdf [accessed 30 April 2010].

Manwaring, M. G. 2006. *Defense, development, and diplomacy (3D): Canadian and U.S. military perspectives*. Strategic Studies Institute, Carlisle, PA: US Army War College Press. www.strategicstudiesinstitute.army.mil/pubs/display.cfm?pubID=732 [accessed 30 April 2010].

Peters, R. 2007. "Out-thought by the enemy." *New York Post*. www.nypost.com/seven/06012007/postopinion/opedcolumnists/out_thought_by_the_enemy_opedcolumnists_ralph_peters.htm [accessed 30 April 2010].

Smith, G. 2004. *Avoiding a Napoleonic ulcer: bridging the gap of cultural intelligence (or, have we focused on the wrong transformation?)*. Washington, DC: National Defense University Press.

Steudler, D., A. Rajabifard, & I. Williamson. 2004. "Evaluation of land administration systems." *Land Use Policy* 21: 371–80.

Stigall, D. E. 2008. *Refugees and legal reform in Iraq: the Iraqi civil code, international standards for the treatment of displaced persons, and the art of attainable solutions*. Social Science Research Network. http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=1157449. [accessed 30 April 2010].

United Nations Human Settlements Programme (UN-HABITAT). 2001. *Millennium development goals/overview*. www.unhabitat.org/content.asp?cid=2799&catid=312&typeid=24&subMenuId=0 [accessed 30 April 2010].

Unruh, J. 2002. "Local land tenure in the peace process." *Peace Review* 14: 3.

Van Oosterom, P., C. Lemmen, T. Ingvarsson, P. van der Molen, H. Ploeger, W. Quak, J. Stoter, & J. Zevenbergen. 2006. "The core cadastral domain model." *ScienceDirect: Computers, Environments and Urban Systems* 30: 629.

Williamson, I., A. Rajabifard, D. Steudler, & S. Enemark. 2009. *Cadastral template: a worldwide comparison of cadastral systems*. University of Melbourne, Australia. www.cadastraltemplate.org [accessed 30 April 2010].

الفصل الحادي والعشرون

Allcock, J. B. 2000. *Explaining Yugoslavia*. New York, NY: Columbia University Press.

Barry, E. 1999. "All the sympathy in the world hasn't rebuilt the Sarajevo Library." MetropolisMag.com online feature. June. metropolismag.com/html/content_0699/ju99howt.htm [accessed 30 April 2010].

Blazina, V. 1996. “Memoricide ou la parification culturelle: la guerre contre les bibliotheques de Croatie et de Bosnie-Herzegovine.” *Documentation et bibliotheques* 42: 149–64.

Bollag, B. 1995. “Bosnia’s universities see hope as academic year begins.” *Chronicle of Higher Education* 6 (10 June).

Cigar, N. 1995. *Genocide in Bosnia: the policy of ethnic cleansing.* College Station, TX: Texas A&M University Press.

Clout, H. 1996. *After the ruins: restoring the countryside of northern France after the Great War*. Exeter, UK: University of Exeter Press.

Connerton, P. 1989. *How societies remember.* Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Dodds, J. D. 1994. “Bulldozing sacred sites.” *Archaeology* 51: 52.

Donald, M. 2001. “Memory palaces: the revolutionary function of libraries.” *Queen’s-Quarterly* 108(4): 558–73.

Fentress, J. & C. Wickam. 1992. *Social memory: new perspectives on the past.* Oxford, UK: Blackwell Publishers.

Gillis, J. (ed.). 1994. *Commemorations: the politics of national identity.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Glenny, M. 2000. *The Balkans: nationalism, war and the great powers 1804–1999*. New York, NY: Penguin Books.

Halbwachs, M. 1992. *On collective memory*. Lewis A. Coser (ed. and trans.). Chicago, IL: University of Chicago Press.

Herb, G. & D. Kaplan (eds). 1999. *Nested identities: nationalism, territory and scale.* Lanham, MA: Rowman & Littlefield.

Hutton, P. H. 1993. *History as an art of memory*. Hanover, NH: University Press of New England.

Jote, K. 1994. *International legal protection of cultural heritage*. Stockholm, Sweden: Juristforlaget.

Kaiser, C. 2000. “Crimes against culture.” *UNESCO Courier* (September). www.unesco.org/courier/2000_09/uk/signe2.htm [accessed 30 April 2010].

Kaplan, R. 1993. *Balkan ghosts: a journey through history*. New York, NY: St Martin’s Press.

Lovrenovic, I. 1994. “The hatred of memory: in Sarajevo, burned books and murdered pictures.” *New York Times* (28 May).

Mayor, F. 1994. "UNESCO appeal launched: 13 April 1994." *The burning books of Sarajevo.* www.indexnthings.com/THE%20BURNING%20BOOKS%20OF%20 SARAJEVO.pdf [accessed 30 April 2010].

Meharg, S. Jane. 1999. *Making it, breaking it, and making it again: the destruction and reconstruction of war-torn societies.* Master's thesis. Kingston, Canada: Royal Military College of Canada.

Mitchell, D. 2001. "The lure of the local: landscape at the end of a troubled century." *Progress in Human Geography* 25(1): 269–81.

Nora, P. 1996. *Realms of memory: the construction of the French past. I: Conflicts and divisions.* New York, NY: Columbia University Press.

Osborne, B. 2000. "Erasing memories of war: reconstructing France after the 'Great War.'" In *Canadian military history since the 17th century,* Yves Tremblay (ed.), 513–22.

Proceedings of the Canadian Military History Conference, Ottawa, 5–9 May.

——. 2002. "The place of memory and identity." *Canadian Diversity* 1(1): 9–13.

Riedlmayer, A. 1994. "It has been done before! Reconstituting war-ravaged libraries." An introduction to a talk given by Enes Kujundzic. Boston Public Library. 21 October. www.kakarigi.net/manu/preced.htm [accessed 30 April 2010].

——. 1995. "National library." *Zones of separation: the struggle for a multiethnic Bosnia.* A documentary film. www2.crocker.com/~fob/zones/images/Images_10.htm [accessed 30 April 2010].

——. 1995. *Killing memory: the targeting of Bosnia's cultural heritage.* Testimony presented at a hearing of the Commission on Security and Cooperation in Europe.

——. 2001. "*Convivencia* under fire: genocide and book burning in Bosnia." In *The Holocaust and the book,* Jonathan Rose (ed.). Amherst, MA: University of Massachusetts Press.

Sack, R. 1997. *Homo geographicus: a framework for action, awareness, and moral concern.* Cambridge, MA: Cambridge University Press.

Schork, K. 1992. "Sarajevo's much-loved old town hall ablaze." *Reuters Library Report* (26 August).

Shirinian, L. 2000. *Writing memory.* Kingston, ON: Blue Heron Press.

Simpson, E. (ed.). 1997. *The spoils of war: World War II and its aftermath: the loss, reappearance, and recovery of cultural property.* Hong Kong: Harry N. Abrams, Inc.

UNESCO Executive Board. 1992. "The situation of the cultural and architectural heritage as well as educational and cultural institutions in Bosnia-Herzegovina." *139th Session: item 7.5 of the provisional agenda, 139 EX/33.* 18 May. Paris, France: UNESCO.

United Nations Security Council. 1994. *Annex VI.B: the battle of Sarajevo and the law of armed conflict.* S/1994/674/Add.2 (Vol. I). 28 December.

van der Hoeven, H. & Joan van Albada. 1996. *Memory of the world: lost memory—libraries and archives destroyed in the twentieth century.* Prepared for UNESCO on behalf of IFLA, Paris: UNESCO.

Wood, W. B. 2001. "Geographic aspects of genocide: a comparison of Bosnia and Rwanda." *Transactions of the Institute of British Geographers* 26(1): 57–75.

Yushkiavitshus, H. 2000. *Libraries and intellectual freedom.* Paris, France: UNESCO. www.unesco.org/webworld/points_of_views/yushkiavitshus.shtml [accessed 30 April 2010].

الفصل الثاني والعشرون

Department of Defense (DoD). 2009. *Military power of the People's Republic of China 2009.* Office of the Secretary of Defense, annual report to Congress. Washington, DC.

Fairbank, J. K. 1992. *China, a new history.* Cambridge, MA: Belknap Press.

Goldstein, A. 2001. "The diplomatic face of China's grand strategy: a rising power's emerging choice." *China Quarterly* 168: 835–64.

Griffith, S. B. 1963. *Sun Tzu, the art of war.* New York, NY: Oxford University Press.

Harding, H. 1993. "The concept of 'Greater China': themes, variations, and reservations." *China Quarterly* 168: 660–85.

Information Office of the State Council of the People's Republic of China. 2009. *China's national defense in 2008.* 20 January. www.china.org.cn/government/whitepaper/node_7060059.htm [accessed 30 April 2010].

Lampton, D. M. 2007. *The three faces of Chinese power: might, money, and minds.* Berkeley, CA: University of California Press.

Pannell, C. W. 2006. "Review, Office of the Secretary of Defense. The military power of the People's Republic of China. 2005. Washington D.C.: annual report to Congress pursuant to the National Defense Authorization Act, fiscal year 2000, 2006." *Eurasian Geography and Economics* 47(4): 499–504.

Samuels, M. 1982. *Contest for the South China Sea.* New York: Methuen.

Sawyer, R. D. (trans.). 1993. *The seven military classics of ancient China.* Boulder, CO: Westview Press.

Scobell, A. & W. Kirby. 2003. *China's use of military force: beyond the Great Wall and Long March.* Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Shambaugh, D. (ed.). 2000. *The modern Chinese state*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.

——. 2003, *Modernizing China's military: progress, problems, and prospects*. Berkeley, CA: University of California Press.

Strategic Forecasting. 2008. *Taiwan: cruise missiles and warming relations with China*. 29 October.

US Department of State. Bureau of East Asian and Pacific Affairs. 2009. *Profile, People's Republic of China*. January.

Veeck, G., C. W. Pannell, C. J. Smith, & Y. Huang. 2007. *China's geography: globalization and the dynamics of political, economic, and social change*. Boulder, CO: Rowman & Littlefield.

الفصل الثالث والعشرون

Abbott, P. K. 2004. "Terrorist threat in the tri-border area: myth or reality." *Military Review* (September–October): 51–5.

American Society of International Law (ASIL). 2009. "Reported U.S. directive authorizing clandestine attacks on al Qaeda in numerous countries: U.S. strikes in Syria and Pakistan draw protests." *American Journal of International Law* 103(1): 161–3.

Armstrong, N. 2005. "Crying wolf." *International Studies Review* 45(4): 3–14.

Bajoria, J. 2007. "Pakistan's tribal areas." Council on Foreign Relations, 26 October. www.cfr.org/publications/11973/ [accessed 28 October 2009].

Balch, T. W. 1910. "The Arctic and Antarctic regions and law of nations." *American Journal of International Law* 4(2): 265–75.

Black, I. 2008. "Attacks draw worldwide condemnation." *Guardian* (28 November). www.guardian.co.uk/world/2008/nov/28/mumbai-terror-attacks-internationalresponse [accessed 30 April 2010].

Constable, P. 2009. "The Taliban tightens hold in Pakistan's SWAT region." *Washington Post* (5 May). www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2009/05/04/AR 2008050400189/ [accessed 15 October 2009].

Constable, P. & G. Witte. 2009. "Pakistan wary of Afghan strategy." *Washington Post* (3 December). www.boston.com/news/world/asia/articles/2009/12/03/Pakistan_wary_of_ obamas afghan_strategy.htm [accessed 3 December 2009].

Cordesman, A. H. 2007. *Assessing the Afghan–Pakistani conflict*. Washington, DC: Center for Strategic and International Studies. http://csis.org/publication/assessing-afghanpakistani-conflict [accessed 30 April 2010].

——. 2009. *Winning in Afghanistan: how the U.S. will win or lose the war.* Washington, DC: Center for Strategic and International Studies. http://csis.org/publication/winningafghanistan-1 [accessed 30 April 2010].

Correll, J. T. 2003. "European Command looks south and east." *Journal of the Air Force Association* 86(12): 26–34.

Department of Defense (DoD). 2005. *The national defense strategy of the United States of America.* Washington, DC: US Government Printing Office.

——. 2006. *The national military strategic plan for the War on Terror.* Chairman of the Joint Chiefs of Staff. Washington, DC: US Government Printing Office, www.defenselink. mil/qdr/docs [accessed 12 October 2009].

DeYoung, K. & J. Warrick. 2008. "Pakistan and U.S. have tacit deal on airstrikes." *Washington Post* A1 (23 September).

Galgano, F. A. 2007. "A geographic analysis of ungoverned spaces." *Pennsylvania Geographer* 44(2): 67–90.

——. 2009. "The borderless dilemma of contemporary maritime piracy: its geography and trends." *Pennsylvania Geographer* 47(1): 3–33.

Garamone, J. 2004. *Defense intell chief outlines world security climate.* Washington, DC: American Forces Information Service, 24 February. www.defenselink.mil [accessed 8 September 2009].

Hoffman, M. H. 2005. "Rescuing the law of war: a way forward in an era of global terrorism." *Parameters* (summer): 18–34.

Isacson, A., J. Olson, & L. Haugaard. 2004. *Blurring the lines, trends in U.S. military programs with Latin America.* Washington, DC: Latin America Working Group Education Fund, Center for International Policy and Washington Office on Latin America.

Jacoby, L. E. 2004. *Current and projected national security threats to the United States.* Statement for the Record, Senate Select Committee on Intelligence. Washington, DC: US Senate, 24 February. www.dia.mil/publicaffairs/Testimonies/statement12.html [accessed 21 August 2009].

Kaufmann, D., A. Kraay, & M. Mastruzzi. 2003. *Governance matters III: governance indicators for 1996–2002.* The World Bank, World Bank Institute, Global Governance Department and Development Research Group.

Kyl, J. 2009. General McChrystal's strategy for victory in Afghanistan. National Ledger (12 October). http://nationalledger.com/artman/publish/article_272628415.shtml [accessed 28 October 2009].

Library of Congress. 1994. *Pakistan.* Library of Congress Country Studies, Washington, DC: US Government Printing Office. http://memory.loc.gov/cgi-bin/query2/r?frd/cstdy:@field(DOCID+pk0038) [accessed 30 April 2010].

Manwaring, M. G. 2002. *Nonstate actors in Columbia: threat and response.* Strategic Studies Institute, US Army War College, Carlisle Barracks, Pennsylvania.

Miskel, J. F. & R. J. Norton. 1997. "Spotting trouble: identifying faltering and failing states." *Naval War College Review* 50(2): 79–91.

National Security Archive. 2007. *Pakistan: the Taliban's godfather*? George Washington University, 14 August, www.gwu/-nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB227/index.htm [accessed 28 September 2009].

Rosenthal, J. 2004. "New rules for war?" *Naval War College Review* 58(3/4): 91–101.

Sappenfield, M. 2008. "Foreign jihadists in an ungoverned tribal belt kill leaders, recruit locals." *Christian Science Monitor* (28 February). http://csmonitor.com/2008/0228/p06s02-wosc.htm [accessed 30 April 2010].

Schmitt, E. & M. Mazzetti. 2008. "Secret order lets U.S. raid al-Qaeda in many countries." *New York Times* A1 (10 November).

Siddique, A. 2009. "Worries in Pakistan that Taliban imposing 'parallel' government." Radio Free Europe/Radio Liberty (6 January). http://rferl.org/articleprintview/1367060.html [accessed 30 April 2010].

Sullivan, B. 2006. *Fighting the long war—military strategy for the war on terrorism.* Presentation to the Executive Lecture Forum, Radvanyi Chair in International Security Studies, Mississippi State University, 2 July.

Talbot, I. 2002. "Democracy, terrorism and brinksmanship." *Asian Survey* 43(1): 198–207.

Tallent, H. B. 2005. *Statement to the House International Relations Committee, Subcommittee on International Terrorism and Nonproliferation.* Washington, DC: US House of Representatives, 10 March. wwwa.house.gov/international_relations/109/tal031005. htm [accessed 10 September 2009].

Thomas, T. S. 2006. "Control roaming dogs: governance operations in future conflict." *Military Review* (January–February): 78–85.

Thomas, T. S. & W. D. Casebeer. 2005. *Turbulent arena: global effects and non-state adversaries.* INSS Occasional Paper 58, USAF Institute for National Security Studies, US Air Force Academy, Colorado Springs, Colorado.

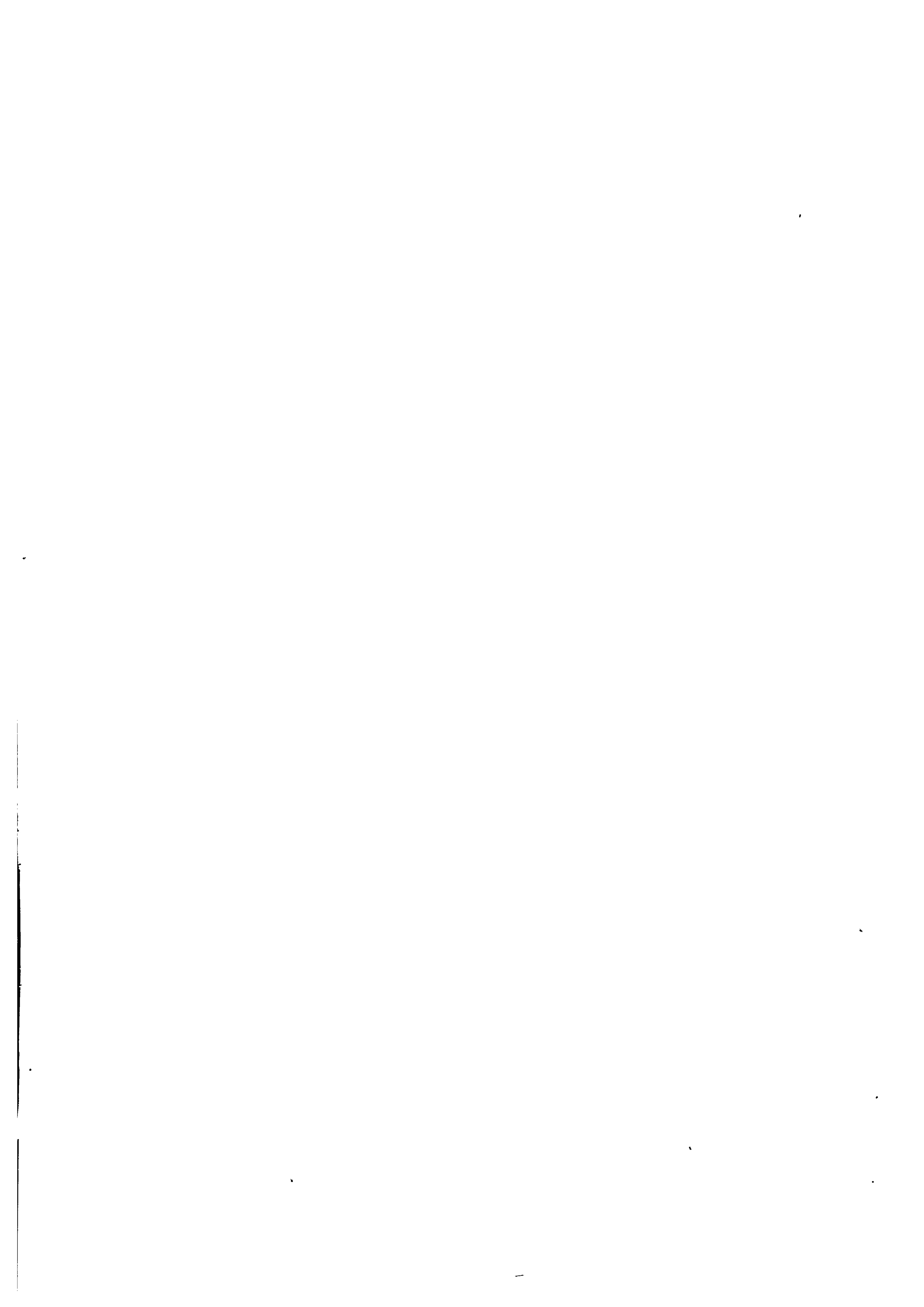
Thompson, W. & S. Halter. 2006. "Aviation warfighters excel during disaster assistance operations in Pakistan." *Army Aviation* 55(2): 40–3.

United Nations (UN). 2007. *Suicide attacks in Afghanistan (2001–2007).* New York, NY: United Nations.

Whelan, T. 2005. "Rethinking the future nature of competitions and conflict: Africa's un-governed space: a new threat paradigm." 19 December 2005. www.jhuapl.edu/POW/rethinking/SeminarArchive/121905/121905_WhelanNotes.pdf [accessed 10 June 2009].

White House. 2008. *News release, President Bush addresses United Nations General Assembly.* 23 September. http://georgebush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2008/09/20080923-5.html [accessed 18 September 2009].

——. 2009. *Remarks by the President in Address to the Nation on the way forward in Afghanistan and Pakistan.* United States Military Academy, West Point, New York, 1 December. www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-addressnation-way-forward-afghanistan-and-pakistan [accessed 30 April 2010].



الجغرافيا العسكرية الحديثة

استُخدمت المعلومات الجغرافية وتستخدم لدعم العمليات العسكرية منذ بدء التاريخ، وذلك بسبب وجود علاقة واضحة وأساسية بين الجغرافيا والعمليات العسكرية. فالعمليات العسكرية تجري في بيئات عملياتية مختلفة كالأدغال والصحارى والمحيطات والمدن؛ كما تجري في سياقات عملياتية مختلفة مثل العمليات القتالية وعمليات حفظ السلام والإغاثة من الكوارث والإجراءات المدنية. ومن ثم، فإنها في جزء منها تتشكل وفقاً لطبيعة المشهدين الطبيعي والبشري. وتتطلب البيئات والسياقات العملياتية المختلفة أنواعاً مختلفة من المعلومات الجغرافية؛ ومن هنا، فإنه يمكن من خلال دراسة الجغرافيا العسكرية معرفة طبيعة العمليات العسكرية وعلاقتها بالمشاهد الجغرافية المختلفة والبيئات العملياتية على مستويات متنوعة.

وعبر قرون من الزمن، كانت الطبيعة الجغرافية للحرب واضحة للقادة العسكريين، ولكن منذ القرن التاسع عشر أصبح بالإمكان تحديد حقل الجغرافيا العسكرية بوصفها فرعاً معرفياً مميزاً. ومع تطور الحرب وتعقدها من خلال حربين عالميتين، وعدد كبير من الصراعات الصغيرة، والنمو الكبير في التكنولوجيا العسكرية، وتكاثر عمليات تحقيق الاستقرار والدعم، والحرب العالمية الحالية على الإرهاب، أصبح من المستحيل على قائد واحد أن يلبي الحاجة المتزايدة إلى المعلومات الجغرافية الدقيقة في الوقت المناسب. فالعمليات العسكرية الحديثة تحتاج إلى مزيد من التحليلات الدقيقة والمعقدة للمشهدين الطبيعي والبشري.

يعرِّف الكتاب بتاريخ الجغرافيا العسكرية ونطاقها وآخر تطوراتها وطبيعة التحليلات الجغرافية ونطاقها، بالإضافة إلى الطرق الشائعة التي يتبعها المختصون في الجغرافيا؛ ويوضح المشكلات المعقدة التي تفرضها المسافة والبيئات القاسية والتضاريس شبه القاحلة، بالإضافة إلى كيفية تكيف مختلف القادة مع الظروف الجغرافية.


ISBN 978-9948-14-972-9